



إرشادُ البرية

إلى بعض مداني

الحكم المطاوعة

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز نشر أي
جزء من هذا الكتاب أو تخزينه أو تسجيله
بأية وسيلة أو تصويره دون موافقة كتابية
من المؤلف

الكتاب

إرشاد البرية إلى بعض معاني الحكم العطائية

المؤلف

ديسري رشدي السيد جبر الحسني

المحقق

خلدون أمين الهيبي القادري

الطبعة

الأولى / ٢٠٢٣

بلد الطباعة

القاهرة - مصر

رقم الإيداع

الترقيم الدولي

إرشادُ البرية

إلى بعض معاني

الحكم العطائية

تأليف

أ. ديسري رشدي السيد جبر الحسني

تحقيق

خلدون أمين الهيتي القادري



مقدمة المحقق



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، المُتَجَلِّي على قلوب أهل حضرته بالحِكم،
فأنطقهم بجواهر الكَلِم، وجعلهم وراثا ونوابا لمن خُص بجوامع الكَلِم
سيدنا محمد ﷺ، فاتح خزائن العلوم الإلهية، والقاسم لها على نوابه
ووراثه بحسب القسمة الأزلية، المُمَد للأنباء والمرسلين والأولياء
والصالحين بالعلوم اللدنية، والمعارف الربانية، والحِكم القدوسية.

اللهم صلَّ عليه صلاة أبدية سرمدية، عدد معلوماتك، ومداد
كلماتك، وسعة حكمتك، وزنة عرشك وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد،

فمما منَّ الله ﷻ به على هذه الأمة المحمدية أن جعل فيها علماء
ربانيين، ووراثا محمديين، حملوا سراج الشريعة والحقيقة، وأناروا به
طريق السالكين، فكانوا نجوما في سماء الإسلام، وأقمارا في سماء الإيمان،
وشموسا في سماء الإحسان، فنطقوا بالحكمة والموعظة الحسنة، وأخذوا
بالقلوب إلى حضرة علام الغيوب.

ومنهم سيدي الكوكب الدرّي والوارث المحمدي أحمد بن عطاء
الله السكندري رحمه الله، الذي تفجرت ينابيع الحكمة في قلبه، وظهرت على
لسانه، فصار المتحدث بلسان أهل الشريعة والطريقة والحقيقة في زمانه.

وشهد الأولياء بأهمية وعظمة هذه الحكم، حيث قال العارف بالله العربي الدرقاوي رحمه الله سمعت الفقيه البناي يقول: كادت حكم ابن عطاء أن تكون وحيا، ولو كانت الصلاة جائزة بغير القرآن لجازت بالحكم.

وبالفعل فما هي إلا من وحي الإلهام والعلم اللدني الذي خص الله ﷻ به أوليائه وأحبابه.

وصارت هذه الحكم دستورا لكل السالكين والمريدين باختلاف طرائقهم ومشاربهم، ولكل من أراد الترقى في مقامات الدين المبين.

وقد نالت الاهتمام الكبير من الأولياء والصالحين والعلماء الربانيين بين شارح لهذه الحكم، ومعلق عليها، وصنفت الكثير من الكتب في شرحها وتحليل ألفاظها، وكل حسب ذوقه وعلمه ومعرفته، وكلها مفيدة وقيمة.

وفي هذا الكتاب المبارك جمعت شرحين للعارف بالله الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني الأزهري حفظه الله ورعاه وبارك في عمره وعلمه وعمله على الحكم العطائية. الأول في سنة (١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م) في مسجد (قايتباي) واستمر لثلاث سنوات في تراويح رمضان، والثاني في عام (٢٠٠٩م) بعد صلاة الجمعة في مسجد الأشراف بالمقطم.

وقد حرصت في الجمع بين الشرحين على ضبط العبارة، وتنسيق الشرح الأول مع الشرح الثاني حتى يظهر كالشرح الواحد ويكون أتم للفائدة.

ويمتاز شرح الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني رحمه الله بسهولة العبارة التي تناسب لغة العصر وعقول الناس، مع عمق المعاني المستنبطة من هذه الحكم.

وقد حرص الشيخ في شرحه على ربط هذه الحكم بالكتاب والسنة وسيرة الصالحين والعارفين بالله لتقريب المعنى للقارئ الكريم.

وأنصح نفسي أولاً، وكل من أراد الوصول إلى حضرات القرب والتقريب، وتطهير القلب من سوى الله ﷻ، وتزكية النفس وتخليصها من الشهوات الحيوانية، والالتحاق بركب الأولياء والصالحين وأهل الحكمة، أن يكثر من قراءة هذه الحكم، وخصوصاً بشرح العارف بالله الشيخ يسري جبر الحسني ﷺ، وأن يتخذها ورداً سنوياً، ففيها الترياق المجرب لشفاء القلوب من الأمراض الخفية، وفيها الدليل الواضح لطريق الحق ﷻ، فمن أكثر من قراءتها والتخلق بما جاء فيها من إرشاد ونصح صار من أهل الحكمة ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وبفضل الله ومدده وبعد أن أكرمني الله تعالى بإكمال كتاب (الفتوحات اليسرية في شرح عقائد الأمة المحمدية) وكتاب (شرح صلوات الأولياء) وكتاب (فتح الرحمن في شرح متون أهل الفقه والعرفان)، فهذا هو الكتاب الرابع من الكتب التي جمعت فيها شروحات الشيخ يسري جبر الحسني ﷺ، وأسأله تعالى أن تكون خالصة لوجهه الكريم.

وألخصُّ عملي في هذا الكتاب بالنقاط التالية:

١- تفرغ الشرح الأول والشرح الثاني للحكم وجمعهما وتنسيقها

كشرح واحد.

٢- إعادة صياغة أغلب العبارات باللغة العربية الفُصحى، لأنه وكما هو معلوم أنَّ الشيخ في محاضراته يتكلم الفصحى وأحيانا يتكلم باللهجة العامية، وهذا من فقه الشيخ وبلاغته، كي يستطيع أن يوصل المعلومة إلى أذهان السامعين، وخصوصاً أنَّ الشيخ يشرح محاضراته في المسجد وفيهم المصلّون من كلا الجنسين، وفيهم الصغير والكبير، والعالم وطالب العلم والعامي الذي لم يتعلم مصطلحات القوم فضلا عن دراسة العلم الشرعي. فقامت بتحويل الكلام إلى اللغة العربية الفصحى وبنفس المعنى الذي يريده الشيخ.

٣- بعد أن أكملت هذه المرحلة بدأت بالتدقيق اللغوي على جميع ما قمت بتفريغهِ وترتيبه وجمعه.

٤- بعد ذلك قمت بتحقيق الكتاب وتخريج الآيات والأحاديث، مع ترجمة مختصرة للعلماء والأولياء الذين ذكرهم الشيخ في شرحه لهذا الكتاب.

٥- ضمّنت الكتاب سيرة مختصرة لصاحب الحكم العطائية سيدي الشيخ أحمد بن عطاء الله السكندري رحمته الله، وكذلك سيرة مختصرة للشارح الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني الأزهري حفظه الله ورعاه، فجزاهم الله عنا خير الجزاء.

ثم عرضت ذلك على الشيخ الدكتور يسري جبر الحسني لمراجعته، وتعديل ما يراه، وإضافة ما يوضح المعنى.

وفي الختام:

فإني أشهد الله ﷻ أنني ما أكملت هذا الكتاب المبارك بعلمي وحولي وقوتي، ولكن بتوفيق الله ﷻ وفضله ومنه وكرمه. ومن ثم بمدد النبي ﷺ فهو الواسطة لكل خير.

وببركة دعاء وأنظار مشايخي وأخص منهم (شيخ مشايخنا الشيخ محمد الحلاب ﷺ) وشيخني الشيخ (حسين الحلاب ﷺ)، وأخص بالذكر شيخني وقرة عيني (الشيخ حسن الحلاب ﷺ) مرشدي ودليلي، والسبب الأول والموجه الأفضل في توجيهي لإخراج هذا الكتاب المبارك والكتب السابقة واللاحقة للشيخ يسري جبر حفظه الله.

وببركة الإجازة المباركة، من سيدي العارف بالله الشيخ يسري جبر الحسني ﷺ وسريان سر الإذن الصادر منه في تفرغ وجمع وإصدار هذا الكتاب.

واقترء بقول الحبيب الأعظم ﷺ القائل: «لَا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ»^(١) فإني أشكر كل من ساعدني في إتمام هذا الكتاب وأخص بالذكر الأستاذ الفاضل (أشرف عبده) على تنسيق هذا الكتاب وإصداره بهذه الصورة الجميلة، والشيخ الدكتور (أنطاني أوكتافيان مهلان الأندونيسي) المعروف باسم عبد الله الجاوي اليسري الأزهري لما بذله معي من جهد في مراجعة وتدقيق الكتاب.

(١) أبو داود (٤٨١٣).

ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر لكل من ساعدني وساندني في إتمام هذا الكتاب المبارك وخاصة أخي وشقيق روحي (أحمد عبد العزيز الفلوجي القادري) حفظه الله تعالى، والذي تكفل بطباعة هذا الكتاب المبارك.

فنسأله تعالى أن يكون هذا الكتاب خالصاً لوجهه الكريم وأن يكون صدقة جارية لمؤلفه، ولكل من ساهم في جمعه، وتحقيقه، وتدقيقه، وتنسيقه، وطباعته، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

فما كان فيه من صواب وخير فمن الله عز وجل وبممدد رسوله ﷺ، وما كان من خطأ وتقصير فمني وأستغفر الله على ذلك.

تصنيف وجمع وترتيب وتحقيق

خلدون أمين الهيبي القادري

العراق - الأنبار - هيت



ترجمة الشارح



الشيخ يسري رشدي السيد جبر الحسني

الفقير إلى الله يسري رشدي السيد جبر القاهري مولداً ونشأة، الحسني نسباً، السني عقيدةً، الشافعي مذهباً الصديقي طريقةً، الشاذلي مشرباً، الأزهري إجازةً والجراح مهنةً.

المولد والنشأة:

ولد في يوم الخميس الموافق ٢٣ / ٩ / ١٩٥٤ م، الموافق ٢٥ محرم ١٣٧٤ هـ بحي روض الفرج بالقاهرة، وتلقى التعليم بالمدارس الحكومية حتى التحق بكلية الطب جامعة القاهرة وتخرج منها بتقدير جيد جداً مع مرتبة الشرف في ديسمبر ١٩٧٨ م وحصل على ماجستير الجراحة العامة وجراحة الأوعية الدموية من جامعة القاهرة في نوفمبر ١٩٨٣ ثم حصل على دكتوراه الجراحة العامة من جامعة القاهرة في مايو ١٩٩١ م وزمالة جمعية الجراحين الدولية في مايو ١٩٩٢ م، والأستاذية في الجراحة في عام ٢٠٠٤ م، والتحق بكلية الشريعة والقانون جامعة الأزهر ١٩٩٢ م وحصل على ليسانس الشريعة الإسلامية بتقدير جيد جداً ١٩٩٦ - ١٩٩٧ م.

حفظ القرآن الكريم:

بدأ حفظ القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم أثناء دراسته بكلية الطب على يد فضيلة الشيخ عبد الحكيم بن عبد السلام خاطر (عضو لجنة

مراجعة القرآن الكريم بالمدينة المنورة رحمه الله) وختمه حفظاً في خلال خمس سنوات من بدء الحفظ للقرآن الكريم وعلى يد الشيخ محمد آدم وختم على الشيخ محمد بدوي السيد بالسند المتصل إلى حفص الذي قرأ على عاصم ابن أبي النجود عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي وزر بن حبيش - الأول عن عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم، والثاني عن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما - وهم عن النبي ﷺ سيد الأنام وخاتم المرسلين عن أمين الوحي جبريل عليه السلام عن اللوح المحفوظ عن رب العزة سبحانه وتعالى جل جلاله وتقدست أسماؤه، وكذلك تم ختام القرآن بالمدينة المنورة على يد فضيلة الشيخ عبد الحكيم بن عبد السلام خاطر وأجازه برواية حفص عن عاصم، وكان قد أجازه الشيخ عامر عثمان أثناء دراسته بالكلية، وقرأ عليه حزبا من سورة البقرة وأجازه بالباقي.

وقد ختم قراءة ورش على الشيخ محمد بدوي، وختم قراءة نافع (قالون وورش) على الشيخ محمد آدم، وكذلك قراءة ابن كثير المكي (قنبل والبزي) من أول المصحف حتى آخر سورة التوبة ثم توفي رحمه الله. كما أجازه الشيخ عبد الفتاح مذكور النمرسي برواية حفص عن عاصم.

العلماء والمشايع حفظهم ورحمهم الله:

حضر على الشيخ محمد الحافظ التيجاني جزءاً من موطأ الإمام مالك من سنة ١٩٧٦ حتى سنة ١٩٧٨ ثم انتقل إلى رحمة الله.

حضر على الشيخ محمد نجيب المطيعي صاحب تكملة المجموع بشرح المذهب من سنة ١٩٧٨ حتى سنة ١٩٨١ أجزاء من صحيح البخاري وحاشيتي قليوبي وعميرة على شرح المنهاج في الفقه الشافعي وإحياء علوم الدين للإمام الغزالي والأشباه والنظائر للإمام السيوطي وأجازه بأسانيده في الفقه والحديث.

حضر على السيد الحجة العارف بالله سيدي عبد الله بن الصديق الغماري الحسني كتاب الشمائل للترمذي في رمضان ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠ م بمسجد رشدي بالدقي بالإسناد المتصل وأخذ منه الطريقة الصديقية الدرقاوية الشاذلية بالقاهرة في نفس العام، وكذلك حضر عليه أجزاء من الموطأ للإمام مالك واللمع في علم الأصول بقراءة فضيلة الشيخ أ.د: علي جمعة (وكان في مرحلة الطلب وقد تولى بعد ذلك منصب مفتي جمهورية مصر العربية وهو الآن عضو بهيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف) واستفاد بصحبته كلما جاء إلى مصر وبتوجيهاته ودعواته وفتاويه ومؤلفاته حتى توفاه الله بطنجة في ٢١ شعبان ١٤١٣ هـ / ١٢ / ٢ / ١٩٩٣ يوم الجمعة ووقفه الله وزاره في ضريحه وزاويته بطنجة.

وتعرف على فضيلة الشيخ أحمد مرسى النقشبندي طريقة من علماء الأزهر الشريف وكان صديقا لفضيلة الشيخ عبد الله الصديق الغماري وزاره كثيرا واستفاد منه لطائف ومعارف ودعوات فجزاه الله خيرا ورحمه الله.

وأجازه فضيلة الأستاذ الإمام محمد زكي الدين إبراهيم الحسيني نسبا الشاذلي طريقة رائد العشيرة المحمدية إجازة عامة بالمناولة والمصافحة بجميع مروياته في الكتب الستة ومسند الشافعي والأم ومسند أبي حنيفة وسنن البيهقي ومعاجم الطبراني الثلاثة وابن عبد البر وعبد الرزاق وموطأ مالك ومصنفات القاضي عياض والإمام النووي والحاكم والشوكاني والديلمي وابن عابدين وابن قدامة وابن رجب وابن السني والصنعاني والنبهاني والشعراني وابن القيم والسنوسي الكبير والعيدروس وغيرهم وذلك في رمضان ١٤١٨ هـ يناير ١٩٩٨ .

وحضر للشيخ إسماعيل صادق العدوي شيخ الجامع الأزهر موطأ الإمام مالك بمسجد سيدي أحمد الدردير بالأزهر وكذا تفسير بعض سور من القرآن الكريم بالمسجد الحسيني بالقاهرة ولازمه عدة سنوات وسافر معه إلى صعيد مصر لزيارة الصالحين وتعلم منه حقائق كثيرة في علم التصوف ولمحات ولفات روحانية عالية ودعا له كثيرا فجزاه الله خيرا ورحمه الله رحمة واسعة.

وحضر على فضيلة الأستاذ الدكتور علي جمعة أستاذ أصول الفقه بكلية الدراسات الإسلامية بالأزهر كتاب الورقات للإمام الجويني في علم الأصول، وجمع الجوامع بالأزهر الشريف، وقراءة صحيح البخاري ومسلم بالأسانيد المتصلة، وأجزاء من سنن أبي داود، ومقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث، ومغني المحتاج للخطيب الشربيني في الفقه الشافعي، ومسائل في الأشباه والنظائر للسيوطي، وشرح الخريدة البهية في علم التوحيد للشيخ أحمد الدردير، وفتح القريب المجيب لابن قاسم الغزي

على متن الغاية والتقريب، وحضر مع فضيلته على السيد عبد الله الصديق الغماري في كتب اللمع والشمائل ومناقشة مسائل في أصول الفقه وفروع كثيرة في الفقه وأجازه في كتب الحديث والمسانيد وفقه الشافعية وما زال على علاقة وطيدة به، فجزاه الله خيرا وبارك الله لنا فيه ونفعنا بعلومه في الدارين.

وقرأ النحو وأجزاء من فقه الشافعية على الشيخ كمال العناني أستاذ الفقه بكلية الشريعة أثناء دراسته بكلية الشريعة.

وكذلك قرأ الأحوال الشخصية ومواضيع من فقه المعاملات وعلم الموارد على الشيخ الدكتور نصر فريد واصل مفتي مصر سابقا وذلك أثناء دراسته بكلية الشريعة.

التقى بمكة بالسيد محمد بن علوي المالكي الحسني بمنزله عدة مرات وأجازه في مؤلفاته فجزاه الله خيرا.

وأجازه مسند الإسكندرية الشيخ الفاضل الأستاذ محمد إبراهيم عبد الباعث الحسيني الكتاني بمروياته والتقى به كثيرا وما زال على اتصال به وكان والده رحمه الله من أصدقاء وأحباب السيد عبد الله الصديق الغماري.

حضر شرح الأجرومية في علم النحو وكذلك ألفية ابن مالك وأجزاء من إعراب القرآن الكريم وعلم العروض على فضيلة الأستاذ محمد حسن عثمان أستاذ اللغويات بالأزهر الشريف.

والتقى وسافر مع فضيلة الشيخ الحبيب علي الجفري الحسيني وتبادل معه الإجازات والدعوات وما زال على اتصال به.

وحضر دروس العقيدة مع فضيلة الأستاذ الدكتور محمد ربيع الجوهري الخلوتي أستاذ العقيدة بكلية أصول الدين بالقاهرة والعميد السابق لكلية.

وأجازه الشريف إبراهيم صالح الحسيني التيجاني مفتي نيجريا بأسانيده وزاره في بيته في القاهرة.

بالإضافة إلى مشايخه وأساتذته بالأزهر الشريف أثناء فترة دراسته بكلية الشريعة، وكثير من علماء اليمن وحضرموت والمدينة ومكة أجازوه.

النواحي العلمي والنشاط الدعوى:

شرح كتب الحديث الستة بالأسانيد المتصلة في مسجد الأشراف بالمقطم أسفل سكنه، والذي يخطب فيه الجمعة، وشرح أجزاء من صحيح البخاري بالأزهر الشريف، ومنازل السائرين بمسجد سيدي أحمد الدردير، كما شرح سنن الدارمي، وكتاب اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، وكتاب دليل الفالحين في شرح رياض الصالحين، وكتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي، كتاب الإتيقان في علوم القرآن للسيوطي، وتفسير القرآن الكريم بالقراءات العشر في هذا المسجد المبارك.

وشرح بالأزهر الشريف الرسالة القشيرية من عام ٢٠٠٣ إلى عام ٢٠٠٧ في أربع سنوات بإشارة من فضيلة الأستاذ الدكتور علي جمعة حفظه الله.

وشرح الحكم العطائية أكثر من مرة، وشفاء عياض، وموطأ الإمام مالك، ورياض الصالحين، والتبيان في آداب حملة القرآن، والخريدة البهية في شرح أحكام الله العلية، والمباحث الأصلية والأذكار، وحاشية الشيخ البيجوري، والشمائل المحمدية، وكتاب كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار، وكتاب بهجة النفوس وتحليلها في معرفة مالها وما عليها، وكتاب فتح القريب المجيب، ودلائل الخيرات، وقصيدة بانة سعاد لكعب بن زهير، وبردة المديح للإمام البوصيري، والصلاة المشيشية، والصلوات اليسرية على خير البرية، ومنفرجة ابن النحوي، وحزب البحر، وحزب البر لسيدي أبي الحسن الشاذلي.

وقد طبع كتاب أورد الطريقة الصديقية الدرقاوية الشاذلية وكتاب الحضرة الصديقية والأسانيد الخاصة بهم وكتاب الصلوات اليسرية على خير البرية وشرحها بصلوات الأسماء الحسنى، وشرح كتاب منازل السائرين، وطبع «باسم التيسير المعين في شرح منازل السائرين»، وبحث في الأوراق المالية وعلاقتها بالأجناس الربوية تحت إشراف الأستاذ الدكتور نصر فريد واصل مفتي الديار المصرية الأسبق.

وشرح السيرة النبوية الشريفة من خلال كتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين في ست وسبعين حلقة تلفزيونية لقناة الناس بالتلفزيون المصري.

هذا بالإضافة إلى الدروس والندوات لطلاب العلم بالقاهرة سواء للمصريين أو غيرهم مثل الأتراك والاندونيسيين والماليزيين والوافدين بالأزهر الشريف.

وقد سجل حلقات عديدة في الفضائيات منها قناة الناس شرح بها كتاب الشمائل المحمدية للإمام الترمذي كاملاً في برنامج اعرف نبيك، وقناة اقرأ والإرث النبوي وغيرها من الدروس في الفضائيات وعلى يوتيوب.

وقد أكرمه الله وسافر إلى القدس وصلى فيه في رمضان عام ٢٠١٤ م ١٤٣٦ هـ وصلى فيه ليلة ٢٧ رمضان والجمعة واعتكف وختم به القرآن في ليلة ٢٩ رمضان ومدح فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأقام حلقة علمية به ليزيل به شبهات الوهابية مع الحضور من أهل المقدس.

كما أكرمه الله بالحج والعمرة مرات عديدة منذ كان طالباً بالكلية قبل التخرج وإلى الآن يسافر للعمرة سنوياً والحج كلما تيسر والحمد لله على فضل الله وما بكم من نعمة فمن الله.

وسافر إلى العراق عام ٢٠٠١ قبل الغزو بدعوة من جمعية الجراحين العراقية وزار أولياء بغداد كالشيخ عبد القادر الجيلاني والجنيد البغدادي والسري السقطي ومعروف الكرخي والإمام أبي حنيفة النعمان رضي الله عنهم أجمعين وضريح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بالنجف وضريح الإمام الحسين عليه السلام ب كربلاء.

وسافر إلى وهران بالجزائر وزار بعض الأولياء مثل الإمام الغوث أبي مدين والتقى بالسادة البلقايدية وتبادلا الأسانيد وألقى محاضرة عامة عن الإمام الشافعي بالزاوية في رمضان ١٤٣٥ هـ.

وسافر إلى السودان وشرح كتاب الشمائل المحمدية بمسجد سيدي علي الميرغني بأم درمان والتقى بالسادة الأشراف وذلك في نوفمبر ٢٠١١م.

وسافر إلى المغرب وزار سيدي عبد السلام بن مشيش وأولياء المغرب في فاس وطنجة ومراكش وزار الساحة الريسونية والسادة البودشيشية بوجده في المولد النبوي.

وشرح كتاب بهجة النفوس بكوالالمبور بماليزيا بمسجد الشاكرين في ستة أيام في ديسمبر ٢٠١٣ م. وشرح الحكم العطائية وبعض مؤلفات الشيخ عبد الله بن الصديق الغماري.

كما زار الشيخ دولة أندونيسيا عدة مرات في سنة ٢٠١٧-٢٠١٨-٢٠١٩، وزار الأولياء العشر في أندونيسيا وهم الذين نشروا الإسلام في أندونيسيا، كما زار الشيخ بعض المعاهد الدينية التي بناها تلاميذه ومريدوه.

وزار في سنة ٢٠٢٢ باكستان، وزار المعاهد والجامعات الإسلامية، وألقى فيها الدروس والمحاضرات التربوية والدعوية والإرشادية.

وفي سنة ٢٠٢٣ سافر إلى بنغلادش للاشتراك في مؤتمر للتصوف الإسلامي، وفي نفس السنة سافر إلى أندونيسيا، وماليزيا.

ولقد التقى والحمد لله مع الكثير من الصالحين والأولياء والعلماء وطلاب العلم.

وما زال قائما على شرح كتب السنة بعد الفجر يوميا بمسجد الأشراف بالمقطم وكذا خطبة الجمعة أسبوعياً.

والحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم.

http://www.yosrygabr.com	الموقع الرسمي:
http://twitter.com/Yosry_Gabr	تويتر:
http://www.facebook.com/ dr.yosrygabr	صفحة الفيس بوك:
http://www.youtube.com/channel/ UCHUZYEvS^utmviL^C^EYrwA/ playlists	قناة اليوتيوب:
http://soundcloud.com/dryosrygabr	قناة الساوند كلاود:
E-mail : info@yosrygabr.com	الإيميل:

الموقع الرسمي يوجد به جميع الكتب والدروس السابقة كذلك على قناة الساوند كلاود واليوتيوب والفيس بوك ويتم عليه البث المباشر.



العارف بالله ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه



هو تاج الدين، ومنبع أسرار الواصلين، أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء الله، الجذامي نسباً، المالكي مذهباً، الإسكندري داراً، القرافي مزاراً، الصوفي حقيقة، الشاذلي طريقة، أعجوبة زمانه، ونخبة عصره وأوانه، الجامع لأنواع العلوم من تفسير، وحديث، وفقه، وتصوف، ونحو، وأصول، وغير ذلك».

وُلد ابن عطاء الله في الإسكندرية، وتوفي في القاهرة، ويميز الشيخ عبد المجيد الشرنوبى في شرحه لحكم ابن عطاء الله ثلاثة أطوار في نشأته وسيرة حياته.

طلبه العلم:

الطور الأول وفيه نشأ طالباً للعلوم الشرعية من تفسير وحديث وفقه وأصول، وللعلوم العربية من نحو ولغة وبيان. وفي هذا الطور أنكر على الصوفية إنكاراً شديداً، تعصباً للفقهاء. وفي الطور الثاني صحب أبا العباس المرسى، وتصوف على طريقة الشاذلي، بعد أن زال إنكاره للتصوف، وتعصبه لأهل علم الظاهر، ولم ينقطع في هذا الطور عن طلب العلوم الشرعية، بعد معرفته أن صحبة الصوفية لا تعني التجرد وترك الاشتغال بالعلم، أو بأي أمر دنيوي آخر يُقصدُ به وجه الله تعالى. ويبدأ الطور الثالث من رحلته من الإسكندرية ليقیم في القاهرة وهو طور نضوجه واكتماله من الناحيتين الفقهية والصوفية والإفادة منهما، عن طريق التدريس والوعظ

حتى وفاته في القاهرة في المدرسة المنصورية، حيث شيع جثمانه في جنازة مهيبة حافلة ودفن بالقرافة، ولا يزال قبره هناك.

ورث ابن عطاء الله علم الشيخ أبي العباس المرسى المتوفى سنة ٦٨٦هـ، وصار القائم على طريقة شيخه والداعي لها من بعده، وكان قبل وفاة المرسى قد درّس الفقه في مدينة الإسكندرية. وعند إقامته في القاهرة اشتغل بالتدريس والوعظ في الجامع الأزهر الشريف، وشهد له العلماء بالفضل وغزارة المعرفة وعمقها، فقد شهد له شيخه أبو العباس المرسى قائلاً: «الزم، فوالله لئن لزمت لتكوننّ مفتياً في المذهبين». يريد مذهب أهل الشريعة (أهل علم الظاهر)، ومذهب أهل الحقيقة (أهل علم الباطن).

وقد جرت بينه وبين أصحاب أبي العباس المرسى قبل صحبتته إياه حادثة، يحكي ذلك في «لطائف المنن»، فيقول: «وكنت أنا لأمره - يعني أبو العباس المرسى - من المنكرين، وعليه من المعترضين، لا لشيء سمعته منه ولا لشيء صحّ نقله حتى جرت بيني مقابلة وبين أصحابه، وذلك قبل صحبتي إياه، وقلت لذلك الرجل: «ليس إلا العلم الظاهر»؛ وهؤلاء القوم يدعون أموراً عظيمة وظاهر الشرع يأبأها...، وكان سبب اجتماعي به أن قلت في نفسي بعد أن جرت المخاصمة بيني وبين ذلك الرجل: «دعني أذهب أنظر إلى هذا الرجل فصاحب الحق له أمارات لا يخفي شأنه، فأيت إلى مجلسه، فوجدته يتكلم في الأنفاس التي أمر الشارع بها، فقال الأول إسلام، والثاني إيمان، والثالث إحسان. وإن شئت قلت الأول شريعة، والثاني حقيقة، والثالث تحقق...، قال: «وعلمت أن الرجل إنما يغترف من

فيض بحر إلهي، ومدد رباني، فأذهب الله ما كان عندي...، وصار رحمه الله تعالى من خواص أصحابه، ولازمه اثني عشر عاما حتى أشرقت أنواره عليه وفتح له على يديه ثم استقر في الأزهر يدرس الفقه والتصوف».

وذكر ابن حجر في كتابه أيضا، أن الذهبي قال عنه: «كانت له جلالة عجيبة، ووقع في النفوس، ومشاركة في الفضائل، وكان يتكلم بالجامع الأزهر فوق كرسي بكلام يروح النفوس، ومزج كلام القوم بآثار السلف وفنون العلم، فكثُر أتباعه، وكانت عليه سيما الخير، ويقال: «إن ثلاثة قصدوا مجلسه، فقال أحدهم: «لو سَلِمْتُ من العائلة لتجردت». وقال الآخر: «أنا أصلي وأصوم ولا أجد من الصلاح ذرة». وقال الثالث: «أنا صلاتي ما تُرضيني فكيف تُرضي ربي»، فلما حضروا مجلسه، قال في أثناء كلامه: ومن الناس من يقول... فأعاد كلامهم بعينه.

أقوال العلماء فيه:

قال الشيخ أحمد زروق: كان جامعاً لأنواع العلوم من تفسير وحديث وفقه ونحو وأصول وغير ذلك. وكان متكلماً على طريق أهل التصوف، واعظا انتفع به خلق كثير وسلكوا طريقه.

قال ابن حجر العسقلاني: صحب الشيخ أبا العباس المرسي، صاحب الشاذلي، وصنف مناقبه ومناقب شيخه، وكان المتكلم على لسان الصوفية في زمانه.

قال ابن الأهدل: الشيخ العارف بالله، شيخ الطريقين وإمام الفريقين، كان فقيهاً عالمًا ينكر على الصوفية، ثم جذبته العناية فصحب شيخ

الشيخ المرسى، وفتح عليه على يديه وله عدة تصانيف، منها الحكم. وكله مشتملة على أسرار ومعارف، وحكم ولطائف، نثراً ونظماً. ومن طالع كتبه عرف فضله.

مصنفاته:

١- «الحكم العطائية»: وقد نالت شروحه الداني والبعيد، وقرأها الكبير والصغير، وما زالت مرجعاً وافياً في لون متميز من ألوان السلوك الإنساني، والمعراج إلى حضرة القدس الأعلى. عالج في كتابه هذا، مختلف الموضوعات التي تحدث عنها الصوفية، ولعل أهمها: «كيف نستدل على الله، صلتنا بالله، التجريد والأسباب، الشهرة والخمول، دقائق الرياء....

٢- لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسى وشيخه الشاذلي أبي الحسن: وهو عبارة عن مقدمة وعشرة أبواب وخاتمة، المقدمة في تفضيل النبي ﷺ على جميع بني آدم، وذكر أقسام الولاية، وما تبقى تعريف بشيخه أبي العباس وبعلمه ومجرباته وما فسر من الآيات والأحاديث، وما ذكره من كلام أهل الحقائق ودعائه وشعره «ولهذا المؤلف قيمة كبرى في التعريف بآداب الطريقة الشاذلية، وقد حفظ ابن عطاء تراث الشاذلية الروحي من الضياع».

٣- «التنوير في إسقاط التدبير»: ذكر ابن عطاء الله أنه ألفه بمكة ثم استدرك عليه بدمشق وزاد فيه. قال في مقدمته: «إذا طالعه المريد الصادق عرف أن المتلوث لا يصلح للحضرة القدسية».

٤- تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس.

٥ - مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح.

٦ - القول المجرد في الاسم المفرد.

كراماته:

يقول الإمام ابن النحوي رحمه الله: حضرت مجلس سيدي ابن عطاء الله السكندري ذات يوم وهو يومئذ كبير علماء أهل التصوف في عصره، فنظرت إليه متعجبا من علومه "فقلت في نفسي: يا ترى الشيخ في أي مقام من المقامات هو؟ فنظر لي الشيخ وقطع حديثه وقال: في مقام المذنبين العاصين يا بن النحوي، فعجبت من ذلك؟! ولزمت الصمت من هيئته ثم سلمت عليه وانصرفت، فرأيت في تلك الليلة بالمنام سيدنا رسول الله ﷺ على مرتبة عالية، والصحابة الكرام حوله والناس مجتمعون، فقال رسول الله ﷺ: أين تاج الدين بن عطاء الله؟ فقال: نعم يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: قم وتكلم فإن الله يحب كلامك، فأخذ يتكلم عن محبة الله، فاستيقظت مذهولا، وذهبت لسيدي ابن عطاء الله، فسمعتة يتكلم بنفس الكلام الذي قاله أمام سيدنا رسول الله ﷺ في المنام، فقلت في نفسي هذا والله هو المقام، فنظر إلي مبتسما وقال: وما خفي عنك كان أعظم يا بن النحوي.

ومن كراماته «أن ثلاثة قصدوا محله فقال أحدهم: لو سلمت من العائلة لتجردت، وقال الآخر: أنا أصلى وأصوم ولا أجد من الصلاح ذرة، فقال الثالث: صلاتي ما ترضيني فكيف ترضي ربي؟ فلما حضروا مجلسه قال في أثناء كلامه ومن الناس من يقول كذا وكذا وأعاد كلامهم بعينه.

ومن كراماته من ذكره الإمام المناوي في الكواكب الدرية «أن الشيخ الكمال الهمام زار قبره فقرأ عنده سورة هود، حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]، فأجابه ابن عطاء الله من القبر بصوت عال: يا كمال ليس فينا شقي، فأوصى أن يدفن بجواره، وقد دفن بجواره بالفعل.

ومنها: أن رجلاً من تلاميذ ابن عطاء الله حج فرأى الشيخ ابن عطاء الله في المطاف وخلف المقام وفي السعي وفي عرفة، فلما رجع سأل عن الشيخ، هل خرج من البلد في غيبته في البلاد الحجازية؟ قالوا: لا، فدخل إليه وسلم عليه، فقال له الشيخ من رأيت في سفرك من الرجال؟ قال يا سيدي رأيتك، فتبسم وقال: الرجل الكبير يملأ الكون.

وفاته:

توفي رحمه الله تعالى بالمنصورية سنة ٧٠٩ هـ، ودفن بالقرافة في سفح المقطم، وقبره مشهور يُزار إلى يومنا هذا. رحمه الله تعالى ونفعنا به وبعلمه... آمين.

مفتي

الحكم العطائية

الحكمة الأولى: مِنْ عَلامَةِ الْاعْتِمَادِ عَلَى الْعَمَلِ، نَقْصَانُ الرَّجَاءِ عِنْدَ وُجُودِ الزَّلَلِ.

الحكمة الثانية: إِرَادَتُكَ التَّجْرِيدَ مَعَ إِقَامَةِ اللَّهِ إِيَّاكَ فِي الْأَسْبَابِ مِنْ الشَّهْوَةِ الْخَفِيَّةِ، وَإِرَادَتُكَ الْأَسْبَابَ مَعَ إِقَامَةِ اللَّهِ إِيَّاكَ فِي التَّجْرِيدِ الْمَحْطَاطِ عَنِ الْهِمَّةِ الْعَلِيَّةِ.

الحكمة الثالثة: سَوَابِقُ الْهِمَمِ لَا تَخْرِقُ أَسْوَارَ الْأَقْدَارِ.

الحكمة الرابعة: أَرْحَ نَفْسِكَ مِنَ التَّدْبِيرِ. فَمَا قَامَ بِهِ غَيْرُكَ عَنْكَ لَا تَقُمْ بِهِ لِنَفْسِكَ.

الحكمة الخامسة: اجْتَهِدْكَ فِيمَا ضَمِنَ لَكَ وَتَقْصِرْكَ فِيمَا طَلَبَ مِنْكَ دَلِيلٌ عَلَى انْطِمَاسِ الْبَصِيرَةِ مِنْكَ.

الحكمة السادسة: لَا يَكُنْ تَأَخُّرُ أَمَدِ الْعَطَاءِ مَعَ الْإِلْحَاحِ فِي الدُّعَاءِ مُوجِباً لِيَأْسِكَ. فَهُوَ ضَمِنَ لَكَ الْإِجَابَةَ فِيمَا يَخْتَارُهُ لَكَ لَا فِيمَا تَخْتَارُهُ لِنَفْسِكَ. وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي يُرِيدُ لَا فِي الْوَقْتِ الَّذِي تُرِيدُ.

الحكمة السابعة: لَا يُشَكِّكَنَّكَ فِي الْوَعْدِ عَدَمُ وَقُوعِ الْمَوْعُودِ، وَإِنْ تَعَيَّنَ زَمَنُهُ؛ لِئَلَّا يَكُونَ ذَلِكَ قَدْحاً فِي بَصِيرَتِكَ وَإِنْحَاداً لِلنُّورِ سَرِيرَتِكَ.

الحكمة الثامنة: إِذَا فَتَحَ لَكَ وَجْهَةً مِنَ التَّعَرُّفِ فَلَا تُبَالٍ مَعَهَا إِنْ قَلَّ عَمَلُكَ. فَإِنَّهُ مَا فَتَحَهَا لَكَ إِلَّا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتَعَرَّفَ إِلَيْكَ؛ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ التَّعَرُّفَ هُوَ مُورَدُهُ عَلَيْكَ وَالْأَعْمَالُ أَنْتَ مُهْدِيهَا إِلَيْهِ. وَإِنْ مَا تُهْدِيهِ إِلَيْهِ مِمَّا هُوَ مُورَدُهُ عَلَيْكَ؟!!

الحكمة التاسعة: تنوعت أجناس الأعمال لتنوع واردات الأحوال.

الحكمة العاشرة: الأعمال صور قائمة، وأرواحها وجود سرّ الإخلاص فيها.

الحكمة الحادية عشرة: ادفن وجودك في أرض النمل، فما نبت مما لم يدفن

لا يتم نتاجه.

الحكمة الثانية عشرة: ما نفع القلب شيء مثل عرلة يدخل بها ميدان فكرة.

الحكمة الثالثة عشرة: كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته؟! أم

كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته؟! أم كيف يطمع أن يدخل حضرة

الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته؟! أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار

وهو لم يتب من هفواته!؟

الحكمة الرابعة عشرة: الكون كله ظلمة، وإنما أناره ظهور الحق فيه، فمن

رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده فقد أعوزه وجود الأنوار،

وحجبت عنه شمس المعارف بسحب الآثار.

الحكمة الخامسة عشرة: مما يدل على وجود قهره سبحانه أن حجبك عنه بما

ليس بموجود معه.

الحكمة السادسة عشرة: كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل

شيء! كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء! كيف يتصور أن

يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء!، كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو

الَّذِي ظَهَرَ لِكُلِّ شَيْءٍ! كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يُحْجَبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ الظَّاهِرُ قَبْلَ وُجُودِ كُلِّ شَيْءٍ! كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يُحْجَبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ أَظْهَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ! كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يُحْجَبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ الْوَاحِدُ الَّذِي لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ! كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يُحْجَبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ! وَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يُحْجَبَهُ شَيْءٌ وَلَوْلَاهُ مَا كَانَ وُجُودُ كُلِّ شَيْءٍ! يَا عَجَبًا كَيْفَ يَظْهَرُ الْوُجُودُ فِي الْعَدَمِ! أَمْ كَيْفَ يَثْبُتُ الْحَادِثُ مَعَ مَنْ لَهُ وَصْفُ الْقَدَمِ!

الحكمة السابعة عشرة: مَا تَرَكَ مِنَ الْجَهْلِ شَيْئًا مَنْ أَرَادَ أَنْ يَحْدُثَ فِي الْوَقْتِ غَيْرُ مَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ فِيهِ.

الحكمة الثامنة عشرة: إِحَالَتُكَ الْأَعْمَالَ عَلَى وُجُودِ الْفَرَاغِ مِنْ رُغُونَاتِ النَّفْسِ.

الحكمة التاسعة عشرة: لَا تَطْلُبْ مِنْهُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ حَالَةٍ لَيْسَتْ عَمَلِكَ فِيمَا سِوَاهَا. فَلَوْ أَرَادَ لَا سَتَعْمَلُكَ مِنْ غَيْرِ إِخْرَاجٍ.

الحكمة العشرون: مَا أَرَادَتْ هِمَّةٌ سَالِكٌ أَنْ تَقِفَ عِنْدَ مَا كُشِفَ لَهَا إِلَّا وَنَادَتْهُ هَوَاتِفُ الْحَقِيقَةِ: الَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ. وَلَا تَبَرَّجَتْ ظَوَاهِرُ الْمَكُونَاتِ إِلَّا وَنَادَتْهُ حَقَائِقُهَا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

الحكمة الحادية والعشرون: طَلَبُكَ مِنْهُ اتِّهَامَ لَهُ. وَطَلَبُكَ لَهُ غِيْبَةَ مِنْكَ عَنْهُ وَطَلَبُكَ لِغَيْرِهِ لِقَلَّةِ حَيَاتِكَ مِنْهُ وَطَلَبُكَ مِنْ غَيْرِهِ لَوْجُودِ بَعْدِكَ عَنْهُ.

الحكمة الثانية والعشرون: مَا مِنْ نَفْسٍ تُبْدِيهِ إِلَّا وَلَهُ قَدْرٌ فِيكَ يُمِضِيهِ.

الحكمة الثالثة والعشرون: لَا تَتَرَقَّبْ فَرَاغَ الْأَغْيَارِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَقْطَعُكَ عَنْ
وُجُودِ الْمُرَاقَبَةِ لَهُ فِيمَا هُوَ مُقِيمٌ فِيهِ.

الحكمة الرابعة والعشرون: لَا تَسْتَغْرِبْ وَقُوعَ الْأَكْدَارِ، مَا دُمْتَ فِي هَذِهِ
الدَّارِ، فَإِنَّهَا مَا أَبْرَزَتْ إِلَّا مَا هُوَ مُسْتَحَقٌّ وَصَفِهَا وَوَاجِبُ نَعْتِهَا.

الحكمة الخامسة والعشرون: مَا تَوَقَّفَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِبُهُ بِرَبِّكَ وَلَا تَيَسَّرَ
مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِبُهُ بِنَفْسِكَ.

الحكمة السادسة والعشرون: مِنْ عَلَامَاتِ النُّجَاحِ فِي النَّهَايَاتِ، الرَّجُوعُ إِلَى
اللَّهِ فِي الْبِدَايَاتِ.

الحكمة السابعة والعشرون: مَنْ أَشْرَقَتْ بَدَايَتُهُ أَشْرَقَتْ نِهَائَتُهُ.

الحكمة الثامنة والعشرون: مَا اسْتُودِعَ فِي غَيْبِ السَّرَائِرِ ظَهَرَ فِي شَهَادَةِ
الظُّوَاهِرِ.

الحكمة التاسعة والعشرون: شَتَّانَ بَيْنَ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِهِ أَوْ يَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ. الْمُسْتَدِلُّ
بِهِ عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ، فَأَثْبَتَ الْأَمْرَ مِنْ وَجُودِ أَصْلِهِ. وَالْأَسْتَدِلَّالُ عَلَيْهِ مِنْ عَدَمِ
الْوُصُولِ إِلَيْهِ. وَالْأَفْتَى غَابَ حَتَّى يُسْتَدَلَّ عَلَيْهِ؟! وَمَتَى بَعْدَ حَتَّى تَكُونَ الْآثَارُ هِيَ
الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْهِ؟!

الحكمة الثلاثون: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ﴾: الْوَاصِلُونَ إِلَيْهِ. ﴿وَمَنْ قُدِرَ

عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾: السَّائِرُونَ إِلَيْهِ.

الحكمة الحادية والثلاثون: اهتدى الرَّاحِلُونَ إليه بَأْنُورِ التَّوَجُّهِ، وَالْوَاصلُونَ لَهُمْ أُنُورِ المُوَاجَهَةِ، فَالْأَوَّلُونَ لِلْأَنْوَارِ، وَهُوَ لَاءِ الْأَنْوَارِ لَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ لِلَّهِ لَا لَشَيْءٍ دُونَهُ ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

الحكمة الثانية والثلاثون: تَشَوُّفُكَ إِلَى مَا بَطَنَ فِيكَ مِنَ الْعُيُوبِ خَيْرٌ مِنْ تَشَوُّفِكَ إِلَى مَا حُجِبَ عَنْكَ مِنَ الْعُيُوبِ.

الحكمة الثالثة والثلاثون: الْحَقُّ لَيْسَ بِمَحْجُوبٍ، وَإِنَّمَا الْمَحْجُوبُ أَنْتَ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ، إِذْ لَوْ حَجَبَهُ شَيْءٌ لَسَتَرَهُ مَا حَجَبَهُ، وَلَوْ كَانَ لَهُ سَاتِرٌ - لَكَانَ لَوْجُودِهِ حَاصِرٌ، وَكُلُّ حَاصِرٍ لَشَيْءٍ فَهُوَ لَهُ قَاهِرٌ ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾.

الحكمة الرابعة والثلاثون: اخْرُجْ مِنْ أَوْصَافِ بَشَرِيَّتِكَ عَنْ كُلِّ وَصْفٍ مُنَاقِضٍ لِعِبُودِيَّتِكَ لِتَكُونَ لِنَدَاءِ الْحَقِّ مُجِيبًا وَمِنْ حَضْرَتِهِ قَرِيبًا.

الحكمة الخامسة والثلاثون: أَصْلُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ وَغَفْلَةٍ وَشَهْوَةِ الرِّضَا عَنِ النَّفْسِ، وَأَصْلُ كُلِّ طَاعَةٍ وَيَقْظَةٍ وَعِفَّةٍ عَدَمُ الرِّضَا مِنْكَ عَنْهَا. وَلَأَنْ تَصْحَبَ جَاهِلًا لَا يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَصْحَبَ عَالِمًا يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ. فَأَيُّ عِلْمٍ لِعَالِمٍ يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ؟! وَأَيُّ جَهْلٍ لَجَاهِلٍ لَا يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ!؟.

الحكمة السادسة والثلاثون: شِعَاعُ الْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ قُرْبَهُ مِنْكَ، وَعَيْنُ الْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ عَدَمَكَ لَوْجُودِهِ، وَحَقُّ الْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ وَجُودَهُ، لَا عَدَمَكَ وَلَا وَجُودَكَ.

الحكمة السابعة والثلاثون: كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ، وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ.

الحكمة الثامنة والثلاثون: لا تتعدّ نية همتك إلى غيره، فالكريم لا تتخطاه الآمال.

الحكمة التاسعة والثلاثون: لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردّها عليك. فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعاً! من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعاً؟!

الحكمة الأربعون: إن لم تحسن ظنك به لأجل وصفه، فحسن ظنك به لأجل معاملته معك، فهل عودك إلا حسناً؟ وهل أسدى إليك إلا منناً؟.

الحكمة الحادية والأربعون: العجب كل العجب من يهرب من لا انفكاك له عنه، ويطلب ما لا بقاء له معه ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

الحكمة الثانية والأربعون: لا ترحل من كون إلى كون فتكون حمار الرّحى؛ سير والمكان الذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل عنه. ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾. وانظر إلى قوله ﷺ: فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه، فافهم قوله عليه الصلاة والسلام، وتأمل هذا الأمر، إن كنت ذا فهم والسلام.

الحكمة الثالثة والأربعون: لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله.

الحكمة الرابعة والأربعون: رَبَّمَا كُنْتَ مُسِيئًا فَأَرَاكَ الْإِحْسَانَ مِنْكَ صَحْبَتُكَ
مَنْ هُوَ أَسْوَأُ حَالًا مِنْكَ.

الحكمة الخامسة والأربعون: مَا قَلَّ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ زَاهِدٍ، وَلَا كَثُرَ عَمَلٌ
بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ رَاغِبٍ.

الحكمة السادسة والأربعون: حُسْنُ الْأَعْمَالِ نَتَائِجُ حُسْنِ الْأَحْوَالِ، وَحُسْنُ
الْأَحْوَالِ مِنَ التَّحَقُّقِ فِي مَقَامَاتِ الْإِنِّزَالِ.

الحكمة السابعة والأربعون: لَا تَتْرُكِ الذِّكْرَ لِعَدَمِ حُضُورِكَ مَعَ اللَّهِ فِيهِ، لِأَنَّ
غَفْلَتَكَ عَنْ وُجُودِ ذِكْرِهِ أَشَدُّ مِنْ غَفْلَتِكَ فِي وُجُودِ ذِكْرِهِ. فَعَسَى أَنْ يَرْفَعَكَ مِنْ
ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ غَفْلَةٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقْظَةٍ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقْظَةٍ إِلَى ذِكْرٍ
مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ غَيْبَةٍ عَمَّا سِوَى
الْمَذْكُورِ، ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ٢٠].

الحكمة الثامنة والأربعون: مِنْ عَلَامَاتِ مَوْتِ الْقَلْبِ عَدَمُ الْحُزْنِ عَلَى مَا
فَاتَكَ مِنَ الْمَوَاقِفَاتِ، وَتَرْكُ النَّدَمِ عَلَى مَا فَعَلَهُ مِنْ وُجُودِ الزَّلَّاتِ.

الحكمة التاسعة والأربعون: لَا يَعْظُمُ الذَّنْبُ عِنْدَكَ عَظَمَةً تُصَدِّقُ عَنْ
حُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ اسْتَصْغَرَ فِي جَنْبِ كَرَمِهِ ذَنْبَهُ.

الحكمة الخمسون: لَا صَغِيرَةٌ إِذَا قَابَلَكَ عَدْلُهُ، وَلَا كَبِيرَةٌ إِذَا وَاجَهَكَ فَضْلُهُ.

الحكمة الحادية والخمسون: لَا عَمَلٌ أَرْجَى لِلْقُلُوبِ مِنْ عَمَلٍ يَغِيبُ عَنْكَ
شُهُودُهُ وَيُحْتَقِرُ عِنْدَكَ وَجُودُهُ.

الحكمة الثانية والخمسون: إِنَّمَا أُوْرِدَ عَلَيْكَ الْوَارِدَ لِتَكُونَ بِهِ عَلَيْهِ وَارِدًا.

الحكمة الثالثة والخمسون: أُوْرِدَ عَلَيْكَ الْوَارِدَ لِتَسْلَبَكَ مِنْ يَدِ الْأَغْيَارِ،
وَلِيُحَرِّكَ مِنْ رِقِّ الْأَثَارِ.

الحكمة الرابعة والخمسون: أُوْرِدَ عَلَيْكَ الْوَارِدَ لِيُخْرِجَكَ مِنْ سِجْنِ وُجُودِكَ
إِلَى فِضَاءِ شُهُودِكَ.

الحكمة الخامسة والخمسون: الْأَنْوَارُ مَطَايَا الْقُلُوبِ وَالْأَسْرَارِ.

الحكمة السادسة والخمسون: النُّورُ جُنْدُ الْقَلْبِ كَمَا أَنَّ الظُّلْمَةَ جُنْدُ النَّفْسِ،
فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَنْصُرَ عَبْدَهُ أَمَدَّهُ بِجُنُودِ الْأَنْوَارِ، وَقَطَعَ عَنْهُ مَدَدَ الظُّلْمِ وَالْأَغْيَارِ.
الحكمة السابعة والخمسون: النُّورُ لَهُ الْكَشْفُ، وَالْبَصِيرَةُ لَهَا الْحُكْمُ، وَالْقَلْبُ
لَهُ الْإِقْبَالُ وَالْإِدْبَارُ.

الحكمة الثامنة والخمسون: لَا تُفْرِحْكَ الطَّاعَةُ؛ لِأَنَّهَا بَرَزَتْ مِنْكَ، وَافْرَحَ
بِهَا لِأَنَّهَا بَرَزَتْ مِنَ اللَّهِ إِلَيْكَ ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا
يَجْمَعُونَ﴾.

الحكمة التاسعة والخمسون: قَطَعَ السَّائِرِينَ لَهُ وَالْوَاصِلِينَ إِلَيْهِ عَنْ رُؤْيَا أَعْمَالِهِمْ
وَشُهُودِ أَحْوَالِهِمْ، أَمَّا السَّائِرُونَ فَلَانَهُمْ لَمْ يَتَحَقَّقُوا الصِّدْقَ مَعَ اللَّهِ فِيهَا، وَأَمَّا
الْوَاصِلُونَ فَلَانَهُ غِيَبُهُمْ بِشُهُودِهِ عَنْهَا.

الحكمة الستون: مَا بَسَقَتْ أَغْصَانُ ذُلٍّ إِلَّا عَلَى بَذْرِ طَمَعٍ.

الحكمة الحادية والستون: مَا قَادَكَ شَيْءٌ مِثْلُ الْوَهْمِ.

الحكمة الثانية والستون: أَنْتَ حَرِّمَّا أَنْتَ عَنْهُ آيَسٌ، وَعَبْدٌ لِمَا أَنْتَ لَهُ طَامِعٌ.

الحكمة الثالثة والستون: مَنْ لَمْ يَقْبَلْ عَلَى اللَّهِ بِمُلَاطَفَاتِ الْإِحْسَانِ قَيْدَ إِلَيْهِ بِسَلْسِلِ الْأَمْتِحَانِ.

الحكمة الرابعة والستون: مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النِّعَمَ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِزَوَالِهَا، وَمَنْ شَكَرَهَا فَقَدْ قَيَّدَهَا بِعِقَالِهَا.

الحكمة الخامسة والستون: خَفَ مِنْ وُجُودِ إِحْسَانِهِ إِلَيْكَ وَدَوَامِ إِسَاءَتِكَ مَعَهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجًا لَكَ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الحكمة السادسة والستون: مَنْ جَهَلَ الْمُرِيدَ أَنْ يُسِيءَ الْأَدَبَ فَتَوَخَّرَ الْعُقُوبَةُ عَنْهُ، فَيَقُولُ: لَوْ كَانَ هَذَا سُوءُ أَدَبٍ لَقَطَعَ الْإِمْدَادُ، وَأَوْجَبَ الْإِبْعَادُ، فَقَدْ يَقْطَعُ الْمَدَدَ عَنْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا مَنَعَ الْمَزِيدَ، وَقَدْ يُقَامُ مَقَامُ الْبُعْدِ وَهُوَ لَا يَدْرِي، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ يُخْلِكَ وَمَا تُرِيدُ.

الحكمة السابعة والستون: إِذَا رَأَيْتَ عَبْدًا أَقَامَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِوُجُودِ الْأَوْرَادِ، وَأَدَامَهُ عَلَيْهَا مَعَ طُولِ الْإِمْدَادِ فَلَا تَسْتَحْقِرَنَّ مَا مَنَحَهُ مَوْلَاهُ؛ لِأَنَّكَ لَمْ تَرَ عَلَيْهِ سِيمَا الْعَارِفِينَ، وَلَا بَهْجَةَ الْمُحِبِّينَ، فَلَوْلَا وَارِدُ مَا كَانَ وَرْدُ.

الحكمة الثامنة والستون: قَوْمٌ أَقَامَهُمُ الْحَقُّ لَخِدْمَتِهِ، وَقَوْمٌ اخْتَصَمَهُمْ بِمَحَبَّتِهِ ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَتُولَاءَ وَهَتُولَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

الحكمة التاسعة والستون: قَلْبًا تَكُونُ الْوَارِدَاتُ الْإِلَهِيَّةُ إِلَّا بَعْتَهُ، لِثَلَا يَدَّعِيهَا الْعِبَادُ بِوُجُودِ الْاِسْتِعْدَادِ.

الحكمة السبعون: مَنْ رَأَيْتُهُ مُجِيبًا عَنْ كُلِّ مَا سُئِلَ، وَمُعْبِرًا عَنْ كُلِّ مَا شَهِدَ، وَذَاكِرًا كُلَّ مَا عَلِمَ، فَاسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلَى وُجُودِ جَهْلِهِ.

الحكمة الحادية السبعون: إِنَّمَا جَعَلَ الدَّارَ الْآخِرَةَ مَحَلًّا لِحِزَاءِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الدَّارَ لَا تَسَعُ مَا يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَهُمْ، وَلِأَنَّهُ أَجَلَ أَقْدَارِهِمْ عَنْ أَنْ يُجَازِيَهُمْ فِي دَارٍ لَا بَقَاءَ لَهَا.

الحكمة الثانية والسبعون: مَنْ وَجَدَ ثَمَرَةَ عَمَلِهِ عَاجِلًا فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ الْقَبُولِ آجِلًا.

الحكمة الثالثة والسبعون: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ قَدْرَكَ عِنْدَهُ فَانْظُرْ فِي مَاذَا يُقِيمُكَ.

الحكمة الرابعة والسبعون: مَتَى رَزَقَكَ الطَّاعَةُ وَالْغِنَى بِهِ عَنْهَا، فَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ أَصْبَغَ عَلَيْكَ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً.

الحكمة الخامسة والسبعون: خَيْرُ مَا تَطْلُبُهُ مِنْهُ مَا هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ.

الحكمة السادسة والسبعون: الْحُزْنُ عَلَى فَقْدَانِ الطَّاعَةِ مَعَ عَدَمِ التَّهَوُّصِ إِلَيْهَا مِنْ عِلَامَاتِ الْاِغْتِرَارِ.

الحكمة السابعة والسبعون: مَا الْعَارِفُ مَنْ إِذَا أَشَارَ وَجَدَ الْحَقَّ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ إِشَارَتِهِ، بَلِ الْعَارِفُ مَنْ لَا إِشَارَةَ لَهُ لِفَنَائِهِ فِي وُجُودِهِ وَأَنْطَوَائِهِ فِي شُهُودِهِ.

الحكمة الثامنة والسبعون: الرَّجَاءُ مَا قَارَنَهُ عَمَلٌ، وَإِلَّا فَهُوَ أَمْنِيَّةٌ.

الحكمة التاسعة والسبعون: مَطْلَبُ الْعَارِفِينَ مِنَ اللَّهِ الصِّدْقُ فِي الْعُبُودِيَّةِ،
وَالْقِيَامُ بِمُحَقِّقِ الرُّبُوبِيَّةِ.

الحكمة الثمانون: بَسَطَكَ كَيْ لَا يُبْقِكَ مَعَ الْقَبْضِ، وَقَبْضَكَ كَيْ لَا يَتْرُكَكَ
مَعَ الْبَسَطِ وَأَخْرَجَكَ عَنْهُمَا كَيْ لَا تَكُونَ لَشَيْءٍ دُونَهُ.

الحكمة الحادية والثمانون: الْعَارِفُونَ إِذَا بَسَطُوا أَخَوْفَ مِنْهُمْ إِذَا قَبَضُوا، وَلَا
يَقِفُ عَلَى حُدُودِ الْأَدَبِ فِي الْبَسَطِ إِلَّا قَلِيلٌ.

الحكمة الثانية والثمانون: الْبَسَطُ تَأْخُذُ النَّفْسُ مِنْهُ حَظَّهَا بِوُجُودِ الْفَرَجِ،
وَالْقَبْضُ لَا حَظَّ لِلنَّفْسِ فِيهِ.

الحكمة الثالثة والثمانون: رُبَّمَا أَعْطَاكَ فَنَعَكَ، وَرُبَّمَا مَنَعَكَ فَأَعْطَاكَ.

الحكمة الرابعة والثمانون: مَتَى فَتَحَ لَكَ بَابَ الْفَهْمِ فِي الْمَنْعِ، عَادَ الْمَنْعُ
عَيْنَ الْعَطَاءِ.

الحكمة الخامسة والثمانون: الْأَكْوَانُ ظَاهِرُهَا غِرَّةٌ وَبَاطِنُهَا عِبْرَةٌ، فَالْنَفْسُ
تَنْظُرُ إِلَى ظَاهِرِ غِرَّتِهَا، وَالْقَلْبُ يَنْظُرُ إِلَى بَاطِنِ عِبْرَتِهَا.

الحكمة السادسة والثمانون: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ لَكَ عِزٌّ لَا يَفْنَى، فَلَا
تَسْتَعِزَّ بِعِزِّ يَفْنَى.

الحكمة السابعة والثمانون: الطَّيُّ الْحَقِيقِيُّ أَنْ تَطْوِيَ مَسَافَةَ الدُّنْيَا عَنْكَ حَتَّى
تَرَى الْآخِرَةَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْكَ.

الحكمة الثامنة والثمانون: الْعَطَاءُ مِنَ الْخَلْقِ حِرْمَانٌ، وَالْمَنْعُ مِنَ اللَّهِ إِحْسَانٌ.

الحكمة التاسعة والثمانون: جَلَّ رَبُّنَا أَنْ يُعَامِلَهُ الْعَبْدُ نَقْدًا فَيَجَازِيَهُ نَسِئَةً.

الحكمة التسعون: كَفَى مِنْ جَزَائِهِ إِيَّاكَ عَلَى الطَّاعَةِ أَنْ رَضِيكَ لَهَا أَهْلًا.

الحكمة الحادية والتسعون: كَفَى الْعَامِلِينَ جَزَاءَ مَا هُوَ فَاتِحُهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فِي طَاعَتِهِ، وَمَا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْهِمْ مِنْ وَجُودِ مُؤَانَسَتِهِ.

الحكمة الثانية والتسعون: مَنْ عَبْدُهُ لِشَيْءٍ يَرْجُوهُ مِنْهُ، أَوْ لِيَدْفَعَ بِطَاعَتِهِ وَرُودَ الْعُقُوبَةِ عَنْهُ فَمَا قَامَ بِحَقِّ أَوْصَافِهِ.

الحكمة الثالثة والتسعون: مَتَى أَعْطَاكَ أَشْهَدُكَ بِهِ، وَمَتَى مَنَعَكَ أَشْهَدُكَ قَهْرَهُ، فَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ مُتَعَرِّفٌ إِلَيْكَ، وَمُقْبِلٌ بِوُجُودِ لُطْفِهِ عَلَيْكَ.

الحكمة الرابعة والتسعون: إِنَّمَا يُؤْمَلُكَ الْمَنْعُ لِعَدَمِ فَهْمِكَ عَنِ اللَّهِ فِيهِ.

الحكمة الخامسة والتسعون: رَبَّمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ الطَّاعَةِ وَمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ الْقَبُولِ، وَرَبَّمَا قَضَى عَلَيْكَ بِالذَّنْبِ فَكَانَ سَبَبًا فِي الْوُصُولِ.

الحكمة السادسة والتسعون: مَعْصِيَةٌ أَوْرَثَتْ ذُلًّا وَافْتِقَارًا خَيْرٌ مِنْ طَاعَةٍ أَوْرَثَتْ عِزًّا وَاسْتِجَارًا.

الحكمة السابعة والتسعون: نِعْمَتَانِ مَا خَرَجَ مَوْجُودُهُ عَنْهُمَا، وَلَا بَدٌّ لِكُلِّ مُكُونٍ مِنْهُمَا: نِعْمَةُ الْإِيجَادِ، وَنِعْمَةُ الْإِمْدَادِ.

الحكمة الثامنة والتسعون: أَنَعَمَ عَلَيْكَ أَوَّلًا بِالْإِيجَادِ، وَثَانِيًا بِتَوَالِي الْإِمْدَادِ.
الحكمة التاسعة والتسعون: فَاقْتِكْ لَكَ ذَاتِيَّةً، وَوَرُودُ الْأَسْبَابِ مُذَكِّرَةٌ لَكَ
بِمَا خَفِيَ عَلَيْكَ مِنْهَا وَالْفَاقَةُ الذَّاتِيَّةُ لَا تَرْفَعُهَا الْعَوَارِضُ.

الحكمة المائة: خَيْرُ أَوْقَاتِكَ وَقْتُ تَشْهَدُ فِيهِ وَجُودَ فَاقَتِكَ، وَتَرُدُّ فِيهِ إِلَى
وُجُودِ ذِلَّتِكَ.

الحكمة الحادية بعد المائة: مَتَى أَوْحَشَكَ مِنْ خَلْقِهِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَفْتَحَ
لَكَ بَابَ الْأُنْسِ بِهِ.

الحكمة الثانية بعد المائة: مَتَى أَطْلَقَ لِسَانَكَ بِالطَّلَبِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ
يُعْطِيكَ.

الحكمة الثالثة بعد المائة: الْعَارِفُ لَا يَزُولُ اضْطِرَّارُهُ وَلَا يَكُونُ مَعَ غَيْرِ
اللَّهِ قَرَّارُهُ.

الحكمة الرابعة بعد المائة: أَنَارَ الظَّوَاهِرَ بِأَنْوَارِ آثَارِهِ، وَأَنَارَ السَّرَائِرِ بِأَنْوَارِ
أَوْصَافِهِ؛ لِأَجْلِ ذَلِكَ أَفَلَتْ أَنْوَارُ الظَّوَاهِرِ، وَلَمْ تَأْفُلْ أَنْوَارُ الْقُلُوبِ وَالسَّرَائِرِ؛
وَلِذَلِكَ قِيلَ: إِنَّ شَمْسَ النَّهَارِ تَغْرُبُ بِاللَّيْلِ وَشَمْسُ الْقُلُوبِ لَيْسَتْ تَغِيبُ.

الحكمة الخامسة بعد المائة: لِيُخَفِّفَ أَلَمَ الْبَلَاءِ عَلَيْكَ عِلْمُكَ بِأَنَّهُ سَبْحَانَهُ هُوَ
الْمُبْلَى لَكَ. فَالَّذِي وَاجَهْتِكَ مِنْهُ الْأَقْدَارُ هُوَ الَّذِي عَوَدَكَ حَسَنَ الْاخْتِيَارِ.

الحكمة السادسة بعد المائة: مَنْ ظَنَّ أَنْفِكَ كَاطْفِهِ عَنْ قَدَرِهِ فَذَلِكَ
لِقُصُورِ نَظَرِهِ.

الحكمة السابعة بعد المائة: لَا يُخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تَلْتَبِسَ الطُّرُقَ عَلَيْكَ؛ وَإِنَّمَا يُخَافُ عَلَيْكَ مِنْ غَلَبَةِ الْهَوَىٰ عَلَيْكَ.

الحكمة الثامنة بعد المائة: سُبْحَانَ مَنْ سَتَرَ سِرَّ الْخُصُوصِيَّةِ بِظُهُورِ الْبَشَرِيَّةِ، وَظَهَرَ بَعْظَمَةَ الرُّبُوبِيَّةِ فِي إِظْهَارِ الْعُبُودِيَّةِ.

الحكمة التاسعة بعد المائة: لَا تُطَالِبُ رَبَّكَ بِتَأْخُرِ مَطْلَبِكَ وَلَكِنْ طَالِبُ نَفْسِكَ بِتَأْخُرِ أَدَبِكَ.

الحكمة العاشرة بعد المائة: مَتَى جَعَلَكَ فِي الظَّاهِرِ مُمْتَثِلًا لِأَمْرِهِ وَرَزَقَكَ فِي الْبَاطِنِ الْإِسْتِسْلَامَ لِقَهْرِهِ فَقَدْ أَعْظَمَ الْمِنَّةَ عَلَيْكَ.

الحكمة الحادية عشرة بعد المائة: لَيْسَ كُلُّ مَنْ ثَبَّتَ تَخَصُّصَهُ كُلَّ تَخْلِيصِهِ.

الحكمة الثانية عشرة بعد المائة: لَا يَسْتَحَقِرُ الْوَرْدَ إِلَّا جَهُولٌ. الْوَارِدُ يُوجَدُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَالْوَرْدُ يَنْطَوِي بَانْطَوَاءِ هَذِهِ الدَّارِ. وَأَوَّلَى مَا يُعْتَنَى بِهِ: مَا لَا يَخْلُفُ وَجُودَهُ. الْوَرْدُ هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ، وَالْوَارِدُ أَنْتَ تَطْلُبُهُ مِنْهُ. وَإِنْ مَا هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ مِمَّا هُوَ مَطْلَبُكَ مِنْهُ؟!.

الحكمة الثالثة عشرة بعد المائة: وَرُودُ الْإِمْدَادِ بِحَسَبِ الْإِسْتِعْدَادِ وَشُرُوقِ الْأَنْوَارِ عَلَى حَسَبِ صَفَاءِ الْأَسْرَارِ.

الحكمة الرابعة عشرة بعد المائة: الْغَافِلُ إِذَا أَصْبَحَ يَنْظُرُ مَاذَا يَفْعَلُ، وَالْعَاقِلُ يَنْظُرُ مَاذَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِهِ.

الحكمة الخامسة عشرة بعد المائة: إِنَّمَا اسْتَوْحَشَ الْعِبَادُ وَالزُّهَادُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ لَغَيْبَتِهِمْ عَنِ اللَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَلَوْ شَهِدُوهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ لَمْ يَسْتَوْحِشُوا مِنْ شَيْءٍ.

الحكمة السادسة عشرة بعد المائة: أَمَرَكَ فِي هَذِهِ الدَّارِ بِالنَّظَرِ فِي مَكُونَاتِهِ، وَسَيَكْشِفُ لَكَ فِي تِلْكَ الدَّارِ عَنْ كَمَالِ ذَاتِهِ.

الحكمة السابعة عشرة بعد المائة: عَلِمَ مِنْكَ أَنَّكَ لَا تَصْبِرُ عَنْهُ، فَأَشْهَدُكَ مَا بَرَزَ مِنْهُ.

الحكمة الثامنة عشرة بعد المائة: لَمَّا عَلِمَ الْحَقُّ مِنْكَ وَجُودَ الْمَلَلِ، لَوْنُ لَكَ الطَّاعَاتِ. وَعَلِمَ مَا فِيكَ مِنْ وَجُودِ الشَّرِّ فَجَرَّهَا عَلَيْكَ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ، لِيَكُونَ هَمُّكَ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ لَا وَجُودَ الصَّلَاةِ، فَمَا كُلُّ مُصَلٍّ مُقِيمٍ.

الحكمة التاسعة عشرة بعد المائة: الصَّلَاةُ طُهْرَةٌ لِلْقُلُوبِ مِنْ أَدْنَسِ الذُّنُوبِ، وَاسْتِفْتَا حُ لِبَابِ الْغُيُوبِ.

الحكمة العشرون بعد المائة: الصَّلَاةُ مَحَلُّ الْمُنَاجَاةِ وَمَعْدِنُ الْمُصَافَاةِ؛ تَسَّعُ فِيهَا مَيَادِينُ الْأَسْرَارِ، وَتُشْرِقُ فِيهَا شَوَارِقُ الْأَنْوَارِ. عَلِمَ وَجُودَ الضَّعْفِ مِنْكَ فَقَلَّلَ أَعْدَادَهَا. وَعَلِمَ أَحْتِيَاجَكَ إِلَى فَضْلِهِ فَكَثَّرَ أَمْدَادَهَا.

الحكمة الحادية والعشرون بعد المائة: مَتَى طَلَبْتَ عِوَضًا عَنْ عَمَلٍ، طُوِبَتْ بِوُجُودِ الصِّدْقِ فِيهِ، وَيَكْفِي الْمُرِيبَ وَجْدَانُ السَّلَامَةِ.

الحكمة الثانية والعشرون بعد المائة: لَا تَطْلُبْ عِوَضًا عَلَى عَمَلٍ لَسْتَ لَهُ فَاعِلًا، يَكْفِي مِنْ الْجَزَاءِ لَكَ عَلَى الْعَمَلِ أَنْ كَانَ لَهُ قَابِلًا.

الحكمة الثالثة والعشرون بعد المائة: إِذَا أَرَادَ أَنْ يُظْهِرَ فَضْلَهُ عَلَيْكَ خَلَقَ وَنَسَبَ إِلَيْكَ.

الحكمة الرابعة والعشرون بعد المائة: لَا نِهَايَةَ لِمَدَامِكَ إِنْ أَرَجَعَكَ إِلَيْكَ، وَلَا تَفْرُغْ مَدَامُحُكَ إِنْ أَظْهَرَ جُودَهُ عَلَيْكَ.

الحكمة الخامسة والعشرون بعد المائة: كُنْ بِأَوْصَافِ رَبِّهِ مُتَعَلِّقًا، وَبِأَوْصَافِ عِبَادَتِكَ مُتَحَقِّقًا.

الحكمة السادسة والعشرون بعد المائة: مَنَعَكَ أَنْ تَدَّعِيَ مَا لَيْسَ لَكَ مِمَّا لِلْمَخْلُوقِينَ، أَفْيِيحُ لَكَ أَنْ تَدَّعِيَ وَصْفَهُ وَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

الحكمة السابعة والعشرون بعد المائة: كَيْفَ تُخْرِقُ لَكَ الْعَوَائِدُ وَأَنْتَ لَمْ تُخْرِقْ مِنْ نَفْسِكَ الْعَوَائِدَ.

الحكمة الثامنة والعشرون بعد المائة: مَا الشَّأْنُ وَجُودُ الطَّلَبِ، إِنَّمَا الشَّأْنُ أَنْ تُرْزَقَ حُسْنَ الْأَدَبِ.

الحكمة التاسعة والعشرون بعد المائة: مَا طَلَبَ لَكَ شَيْءٌ مِثْلُ الْاضْطِرَارِّ، وَلَا أَسْرَعَ بِالْمَوَاهِبِ إِلَيْكَ مِثْلُ الدَّلَّةِ وَالْاِفْتِقَارِ.

الحكمة الثلاثون بعد المائة: لَوْ أَنَّكَ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ فَنَاءٍ مَسَاوِيكَ
وَمَحْوٍ دَعَاوِيكَ لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ أَبَدًا؛ وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوصِلَكَ إِلَيْهِ غَطَّى وَصَفَكَ
بِوَصْفِهِ، وَنَعَتَكَ بِنَعْتِهِ، فَوَصَلَكَ إِلَيْهِ بِمَا مِنْهُ إِلَيْكَ لَا بِمَا مِنْكَ إِلَيْهِ.

الحكمة الحادية والثلاثون بعد المائة: لَوْ لَا جَمِيلُ سِتْرِهِ لَمْ يَكُنْ عَمَلٌ
أَهْلًا لِلْقَبُولِ.

الحكمة الثانية والثلاثون بعد المائة: أَنْتِ إِلَى حِلْمِهِ إِذَا أَطْعَمَتْهُ أَحْوَجُ مِنْكَ إِلَى
حِلْمِهِ إِذَا عَصَيْتَهُ.

الحكمة الثالثة والثلاثون بعد المائة: السَّتْرُ عَلَى قِسْمَيْنِ: سِتْرٌ عَنِ الْمَعْصِيَةِ،
وَسِتْرٌ فِيهَا؛ فَالْعَامَّةُ يَطْلُبُونَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى السَّتْرَ فِيهَا خَشْيَةً سُقُوطِ مَرْتَبَتِهِمْ عِنْدَ
الْخَلْقِ، وَالْخَاصَّةُ يَطْلُبُونَ السَّتْرَ عَنْهَا خَشْيَةً سُقُوطِهِمْ مِنْ نَظَرِ الْمَلِكِ الْحَقِّ.

الحكمة الرابعة والثلاثون بعد المائة: مَنْ أَكْرَمَكَ إِنَّمَا أَكْرَمَ فِيكَ جَمِيلَ سِتْرِهِ،
فَالْحَمْدُ لِمَنْ سَتَرَكَ لَيْسَ الْحَمْدُ لِمَنْ أَكْرَمَكَ وَشَكَرَكَ.

الحكمة الخامسة والثلاثون بعد المائة: مَا صَحَبَكَ إِلَّا مَنْ صَحَبَكَ وَهُوَ بِعَيْنِكَ
عَلِيمٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا مَوْلَاكَ الْكَرِيمُ.

الحكمة السادسة والثلاثون بعد المائة: خَيْرٌ مِنْ تَصَاحَبٍ مِنْ يَطْلُبُكَ لَا لَشَيْءٍ
يَعُودُ مِنْكَ إِلَيْهِ.

الحكمة السابعة والثلاثون بعد المائة: لَوْ أَشْرَقَ لَكَ نُورُ الْيَقِينِ لَرَأَيْتَ
الْآخِرَةَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَرَحَّلَ إِلَيْهَا وَلَرَأَيْتَ مُحَاسِنَ الدُّنْيَا وَقَدْ ظَهَرَتْ
كَسْفَةُ الْفَنَاءِ عَلَيْهَا.

الحكمة الثامنة والثلاثون بعد المائة: مَا حَجَبَكَ عَنِ اللَّهِ وَجُودٌ مُوجُودٌ مَعَهُ،
وَلَكِنْ حَجَبَكَ عَنْهُ تَوَهُّمٌ مُوجُودٌ مَعَهُ

الحكمة التاسعة والثلاثون بعد المائة: لَوْ لَا ظُهُورُهُ فِي الْمُكُونَاتِ مَا وَقَعَ عَلَيْهَا
وُجُودٌ إِبْصَارٍ. وَلَوْ ظَهَرَتْ صِفَاتُهُ اِضْمَحَلَّتْ مُكُونَاتُهُ.

الحكمة الأربعون بعد المائة: أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ لِأَنَّهُ الْبَاطِنُ، وَطَوَى وَجُودَ
كُلِّ شَيْءٍ لِأَنَّهُ الظَّاهِرُ.

الحكمة الواحد والأربعون بعد المائة: أَبَاحَ لَكَ أَنْ تَنْظُرَ مَا فِي الْمُكُونَاتِ وَمَا
إِذْنُكَ أَنْ تَقِفَ مَعَ ذَوَاتِ الْمُكُونَاتِ ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ فَتَحَ لَكَ
بَابَ الْإِفْهَامِ وَلَمْ يَقُلْ: أَنْظُرُوا السَّمَوَاتِ؛ لِثَلَايِدِكَ عَلَى وَجُودِ الْأَجْرَامِ.

الحكمة الثانية والأربعون بعد المائة: الْأَكْوَانُ ثَابِتَةٌ بِإِثْبَاتِهِ، وَمُحَوَّةٌ
بِأَحْدِيَّةِ ذَاتِهِ.

الحكمة الثالثة والأربعون بعد المائة: النَّاسُ يَمْدَحُونَكَ لِمَا يَظُنُّونَهُ فِيكَ، فَكُنْ
أَنْتَ ذَامًا لِنَفْسِكَ لِمَا تَعْلَمُهُ مِنْهَا.

الحكمة الرابعة والأربعون بعد المائة: الْمُؤْمِنُ إِذَا مُدِحَ اسْتَحَى مِنَ اللَّهِ تَعَالَى
أَنْ يُثْنَى عَلَيْهِ بِوَصْفٍ لَا يَشْهَدُهُ مِنْ نَفْسِهِ.

الحكمة الخامسة والأربعون بعد المائة: أَجْهَلُ النَّاسِ مَنْ تَرَكَ يَقِينَ مَا عِنْدَهُ لَظَنٍّ مَا عِنْدَ النَّاسِ.

الحكمة السادسة والأربعون بعد المائة: إِذَا أَطْلَقَ الثَّنَاءَ عَلَيْكَ وَلَسْتَ بِأَهْلٍ فَأَثْنٌ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ.

الحكمة السابعة والأربعون بعد المائة: الزُّهَادُ إِذَا مَدَحُوا انْقَبَضُوا لِشُهُودِهِمُ الثَّنَاءَ مِنَ الْخَلْقِ، وَالْعَارِفُونَ إِذَا مَدَحُوا انْبَسَطُوا لِشُهُودِهِمْ ذَلِكَ مِنَ الْمَلِكِ الْحَقِّ.

الحكمة الثامنة والأربعون بعد المائة: مَتَى كُنْتَ إِذَا أُعْطِيتَ بَسَطْتَ الْعَطَاءَ، وَإِذَا مُنِعْتَ قَبَضْتَ الْمَنَعَ، فَاسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلَى ثُبُوتِ طُفُولِيَّتِكَ، وَعَدَمِ صِدْقِكَ فِي عِبُودِيَّتِكَ.

الحكمة التاسعة والأربعون بعد المائة: إِذَا وَقَعَ مِنْكَ ذَنْبٌ فَلَا يَكُنْ سَبَبًا لِيَأْسِكَ مِنْ حُصُولِ الاسْتِقَامَةِ مَعَ رَبِّكَ، فَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ آخِرَ ذَنْبٍ قُدِّرَ عَلَيْكَ.

الحكمة الخمسون بعد المائة: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابُ الرَّجَاءِ فَاشْهَدْ مَا مِنْهُ إِلَيْكَ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابُ الْخَوْفِ فَاشْهَدْ مَا مِنْكَ إِلَيْهِ.

الحكمة الحادية والخمسون بعد المائة: رُبَّمَا أَفَادَكَ فِي لَيْلِ الْقَبْضِ مَا لَمْ تَسْتَفِدْهُ فِي إِشْرَاقِ نَهَارِ الْبَسْطِ ﴿لَا تَذَرُونَهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾.

الحكمة الثانية والخمسون بعد المائة: مَطَالِعُ الْأَنْوَارِ: الْقُلُوبُ وَالْأَسْرَارُ.

الحكمة الثالثة والخمسون بعد المائة: نُورٌ مُسْتَوْدَعٌ فِي الْقُلُوبِ مَدَدُهُ مِنَ النُّورِ الْوَارِدِ مِنْ خَزَائِنِ الْغُيُوبِ.

الحكمة الرابعة والخمسون بعد المائة: نُورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ آثَارِهِ، وَنُورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ أَوْصَافِهِ.

الحكمة الخامسة والخمسون بعد المائة: رُبَّمَا وَقَفَتِ الْقُلُوبُ مَعَ الْأَنْوَارِ كَمَا حُجِبَتِ النُّفُوسُ بِكُثَائِفِ الْأَغْيَارِ.

الحكمة السادسة والخمسون بعد المائة: سَتَرَ أَنْوَارِ السَّرَائِرِ بِكُثَائِفِ الظُّوَاهِرِ؛ إِجْلَالًا لَهَا أَنْ تُبْتَذَلَ بِوُجُودِ الْإِظْهَارِ وَأَنْ يُنَادَى عَلَيْهَا بِلِسَانِ الْإِشْتِهَارِ.

الحكمة السابعة والخمسون بعد المائة: سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ الدَّلِيلَ عَلَى أَوْلِيَائِهِ إِلَّا مَنْ حَيْثُ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ وَلَمْ يُوَصِّلْ إِلَيْهِمْ إِلَّا مَنْ أَرَادَ أَنْ يُوَصِّلَهُ إِلَيْهِ.

الحكمة الثامنة والخمسون بعد المائة: رُبَّمَا أَطْلَعَكَ عَلَى غَيْبِ مَلَكُوتِهِ، وَحَجَبَ عَنْكَ الاسْتِشْرَافَ عَلَى أَسْرَارِ الْعِبَادِ.

الحكمة التاسعة والخمسون بعد المائة: مَنْ أَطْلَعَ عَلَى أَسْرَارِ الْعِبَادِ، وَلَمْ يَتَخَلَّقْ بِالرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ كَانَ أَطْلَاعُهُ فَتْنَةً عَلَيْهِ، وَسَبِيحًا لِحُجْرِ الْوَبَالِ إِلَيْهِ.

الحكمة الستون بعد المائة: حَظُّ النَّفْسِ فِي الْمَعْصِيَةِ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ، وَحَظُّهَا فِي الطَّاعَةِ بَاطِنٌ خَفِيٌّ، وَمُدَاوَاةُ مَا يَخْفَى صَعْبٌ عِلاجُهُ.

الحكمة الحادية والستون بعد المائة: رُبَّمَا دَخَلَ الرِّيَاءُ عَلَيْكَ مِنْ حَيْثُ لَا يَنْظُرُ الْخَلْقُ إِلَيْكَ.

الحكمة الثانية والستون بعد المائة: اسْتِشْرَافُكَ أَنْ يَعْلَمَ الْخَلْقُ بِخُصُوصِيَّتِكَ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ صِدْقِكَ فِي عُبُودِيَّتِكَ.

الحكمة الثالثة والستون بعد المائة: غَيَّبَ نَظَرَ الْخَلْقِ إِلَيْكَ بِنَظَرِ اللَّهِ إِلَيْكَ، وَغَبَّ عَنْ إِقْبَالِهِمْ عَلَيْكَ بِشُهُودِ إِقْبَالِهِ عَلَيْكَ.

الحكمة الرابعة والستون بعد المائة: مَنْ عَرَفَ الْحَقَّ شَهِدَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَمَنْ فِيهِ غَابَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَنْ أَحَبَّهُ لَمْ يُؤْثِرْ عَلَيْهِ شَيْئًا.

الحكمة الخامسة والستون بعد المائة: إِنَّمَا حَجَبَ الْحَقَّ عَنْكَ شِدَّةُ قُرْبِهِ مِنْكَ. الحكمة السادسة والستون بعد المائة: إِنَّمَا احْتَجَبَ لِشِدَّةِ ظُهُورِهِ، وَخَفِيَ عَنِ الْأَبْصَارِ لِعَظَمِ نُورِهِ.

الحكمة السابعة والستون بعد المائة: لَا يَكُنْ طَلَبُكَ تَسَبُّبًا إِلَى الْعَطَاءِ مِنْهُ فَيَقِلَّ فَهْمُكَ عَنْهُ، وَلْيَكُنْ طَلَبُكَ لِإِظْهَارِ الْعُبُودِيَّةِ وَقِيَامًا بِحَقُوقِ الرُّبُوبِيَّةِ.

الحكمة الثامنة والستون بعد المائة: كَيْفَ يَكُونُ طَلَبُكَ اللَّاحِقُ سَبَبًا فِي عَطَائِهِ السَّابِقِ؟.

الحكمة التاسعة والستون بعد المائة: جَلَّ حُكْمُ الْأَزْلِ أَنْ يَنْصَافَ إِلَى الْعَلِيِّ. الحكمة السبعون بعد المائة: عِنَايَتُهُ فَيْكَ لَا لِشَيْءٍ مِنْكَ، وَإِنْ كُنْتَ حِينَ وَاجِهَتَكَ عِنَايَتُهُ وَقَابَلَتْكَ رِعَايَتُهُ، لَمْ يَكُنْ فِي أَزْلِهِ إِخْلَاصُ أَعْمَالٍ وَلَا وَجُودُ أَحْوَالٍ، بَلْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِلَّا مُحَضُّ الْإِفْضَالِ وَعَظِيمُ النَّوَالِ.

الحكمة الحادية والسبعون بعد المائة: عَلِمَ أَنَّ الْعِبَادَ يَتَشَوَّفُونَ إِلَى ظُهُورِ سِرِّ الْعِنَايَةِ فَقَالَ: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَوْ خَلَاهُمْ وَذَلِكَ لَتَرَكُوا الْعَمَلَ اعْتِمَادًا عَلَى الْأَزْلِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

الحكمة الثانية والسبعون بعد المائة: إلى المشيئة يستند كل شيء ولا تستند هي إلى شيء.

الحكمة الثالثة والسبعون بعد المائة: ربما دهم الأدب على ترك الطلب اعتماداً على قسمته واشتغلاً بذكره عن مسألته.

الحكمة الرابعة والسبعون بعد المائة: إنما يذكر من يجوز عليه الإغفال، وإنما ينبه من يمكن منه الإهمال.

الحكمة الخامسة والسبعون بعد المائة: ورود الفاقات أعياد المريد.

الحكمة السادسة والسبعون بعد المائة: ربما وجدت من المزيد في الفاقات ما لا تجده في الصوم والصلاة.

الحكمة السابعة والسبعون بعد المائة: الفاقات بسط المواهب.

الحكمة الثامنة والسبعون بعد المائة: إذا أردت ورود المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك {إنما الصدقات للفقراء}.

الحكمة التاسعة والسبعون بعد المائة: تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه، تحقق بذلك يمدك بعزه، تحقق بعجزك يمدك بقدرته، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته.

الحكمة الثمانون بعد المائة: ربما رزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة.

الحكمة الحادية والثمانون بعد المائة: من علامات إقامة الحق لك في الشيء: إقامته إياك فيه مع حصول النتائج.

الحكمة الثانية والثمانون بعد المائة: مَنْ عَبَّرَ مِنْ بَسَاطِ إِحْسَانِهِ أَصَمَّتْهُ الْإِسَاءَةُ،
وَمَنْ عَبَّرَ مِنْ بَسَاطِ إِحْسَانِ اللَّهِ إِلَيْهِ لَمْ يَصْمُتْ إِذَا أَسَاءَ.

الحكمة الثالثة والثمانون بعد المائة: تَسْبِقُ أَنْوَارُ الْحُكَمَاءِ أَقْوَاهُمْ، فَخَيْثُ صَارَ
التَّنْوِيرُ وَصَلَ التَّعْبِيرُ.

الحكمة الرابعة والثمانون بعد المائة: كُلُّ كَلَامٍ يَبْرُزُ وَعَلَيْهِ كِسْوَةُ الْقَلْبِ
الَّذِي مِنْهُ بَرَزَ.

الحكمة الخامسة والثمانون بعد المائة: مَنْ إِذْنُ لَهُ فِي التَّعْبِيرِ فَهِمَتْ فِي مَسَامِعِ
الْخَلْقِ عِبَارَتُهُ، وَجَلَّتْ إِلَيْهِمْ إِشَارَتُهُ.

الحكمة السادسة والثمانون بعد المائة: رَبَّمَا بَرَزَتِ الْحَقَائِقُ مَكْسُوفَةً الْأَنْوَارَ،
إِذَا لَمْ يُوْذَنْ لَكَ فِيهَا بِالْإِظْهَارِ.

الحكمة السابعة والثمانون بعد المائة: عِبَارَاتُهُمْ إِمَّا لِفَيْضَانِ وَجَدٍ، أَوْ لِقَصْدِ
هُدَايَةِ مُرِيدٍ، فَلَاوَلَّ حَالُ السَّالِكِينَ، وَالثَّانِي حَالُ أَرْبَابِ الْمُكْنَةِ وَالْمُحَقِّقِينَ.

الحكمة الثامنة والثمانون بعد المائة: الْعِبَارَاتُ قُوَّةٌ لِعَائِلَةِ الْمُسْتَمْعِينَ وَلَيْسَ
لَكَ إِلَّا مَا أَنْتَ لَهُ آكِلٌ.

الحكمة التاسعة والثمانون بعد المائة: رَبَّمَا عَبَّرَ عَنِ الْمَقَامِ مَنْ اسْتَشْرَفَ عَلَيْهِ،
وَرَبَّمَا عَبَّرَ عَنْهُ مَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ، وَذَلِكَ مُلْتَبَسٌ إِلَّا عَلَى صَاحِبِ بَصِيرَةٍ.

الحكمة التسعون بعد المائة: لَا يَنْبَغِي لِلْسَّالِكِ أَنْ يُعْبَرَ عَنْ وَارِدَاتِهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ
يَقِلُّ عَمَلَهَا فِي قَلْبِهِ وَيَمْنَعُهُ وَجُودَ الصِّدْقِ مَعَ رَبِّهِ.

الحكمة الحادية والتسعون بعد المائة: لَا تَمُدَّنْ يَدَكَ إِلَى الْأَخْذِ مِنَ الْخَلَائِقِ إِلَّا أَنْ تَرَى أَنَّ الْمُعْطَى فِيهِمْ مَوْلَاكَ، فَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ نَفُذْ مَا وَافَقَكَ الْعِلْمُ.

الحكمة الثانية والتسعون بعد المائة: رُبَّمَا اسْتَحْيَا الْعَارِفُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَتَهُ إِلَى مَوْلَاهُ لَا كُتِفَائِهِ بِمَشِيئَتِهِ فَكَيْفَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَرْفَعَهَا إِلَى خَلِيقَتِهِ.

الحكمة الثالثة والتسعون بعد المائة: إِذَا التَّبَسَّ عَلَيْكَ أَمْرَانِ، فَانْظُرْ إِلَى أَثْقَلِهِمَا عَلَى النَّفْسِ فَاتَّبِعْهُ، فَإِنَّهُ لَا يَثْقُلُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا كَانَ حَقًّا.

الحكمة الرابعة والتسعون بعد المائة: مِنْ عِلَامَاتِ اتِّبَاعِ الْهَوَى الْمُسَارَعَةُ إِلَى نَوَافِلِ الْخَيْرَاتِ، وَالتَّكَاسُلُ عَنِ الْقِيَامِ بِالْوَاجِبَاتِ.

الحكمة الخامسة والتسعون بعد المائة: قَيِّدِ الطَّاعَاتِ بِأَعْيَانِ الْأَوْقَاتِ لِثَلَاثٍ يَمْنَعُكَ عَنْهَا وَجُودُ التَّسْوِيفِ، وَوَسْعَ عَلَيْكَ الْوَقْتُ لِتَبْقَى لَكَ حِصَّةُ الْاِخْتِيَارِ.

الحكمة السادسة والتسعون بعد المائة: عِلْمُ قِلَّةِ نُهُوضِ الْعِبَادِ إِلَى مُعَامَلَتِهِ، فَأَوْجِبَ عَلَيْهِمْ وَجُودَ طَاعَتِهِ، فَسَاقَهُمْ إِلَيْهِ بِسَلْسِلِ الْإِيجَابِ «عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلَاسِلِ».

الحكمة السابعة والتسعون بعد المائة: أَوْجِبَ عَلَيْكَ وَجُودَ طَاعَتِهِ، وَمَا أَوْجِبَ عَلَيْكَ إِلَّا دُخُولَ جَنَّتِهِ.

الحكمة الثامنة والتسعون بعد المائة: مَنْ اسْتَعْرَبَ أَنْ يَنْقِذَهُ اللَّهُ مِنْ شَهْوَتِهِ، وَأَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ وَجُودِ غَفْلَتِهِ فَقَدْ اسْتَعْجَزَ الْقُدْرَةَ الْإِلَهِيَّةَ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

الحكمة التاسعة والتسعون بعد المائة: رُبَّمَا وَرَدَتْ الظُّلَمُ عَلَيْكَ لِيَعْرِفَكَ قَدْرُ مَا مِنْ بِهِ عَلَيْكَ.

الحكمة المائتين: مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ النِّعَمِ يَوْجِدَانَهَا عَرَفَهَا بِوُجُودِ فَقْدَانِهَا.
الحكمة مائتين وواحد: لَا تُدْهِشْكَ وَارِدَاتُ النِّعَمِ عَنِ الْقِيَامِ بِمُحَقِّقِ شُكْرِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَحُطُّ مِنْ وَجُودِ قَدْرِكَ.

الحكمة الثانية بعد المائتين: تَمَكَّنْ حَلَاوَةَ الْهَوَى مِنْ الْقَلْبِ هُوَ الدَّاءُ الْعُضَالُ.
الحكمة الثالثة بعد المائتين: لَا يُخْرِجُ الشَّهْوَةَ مِنَ الْقَلْبِ إِلَّا خَوْفُ مُرْجٍ أَوْ شَوْقٌ مُقَلَّقٌ.

الحكمة الرابعة بعد المائتين: كَمَا لَا يُحِبُّ الْعَمَلَ الْمُشْتَرَكَ، لَا يُحِبُّ الْقَلْبُ الْمُشْتَرَكَ، الْعَمَلُ الْمُشْتَرَكُ لَا يَقْبَلُهُ، وَالْقَلْبُ الْمُشْتَرَكُ لَا يَقْبَلُ عَلَيْهِ.

الحكمة الخامسة بعد المائتين: أَنْوَارُ إِذْنِهَا فِي الْوُصُولِ، وَأَنْوَارُ إِذْنِهَا فِي الدُّخُولِ.

الحكمة السادسة بعد المائتين: رُبَّمَا وَرَدَتْ عَلَيْكَ الْأَنْوَارُ فَوَجَدْتَ الْقَلْبَ مُحْشَوْاً بِصُورِ الْأَثَارِ فَارْتَحَلْتَ مِنْ حَيْثُ جَاءَتْ.

الحكمة السابعة بعد المائتين: فَرِّغْ قَلْبَكَ مِنَ الْأَغْيَارِ يَمْلَأُهُ بِالْمَعَارِفِ وَالْأَسْرَارِ.

الحكمة الثامنة بعد المائتين: لَا تَسْتَبْطِئِ النَّوَالَ، وَلَكِنْ اسْتَبْطِئِ مِنْ نَفْسِكَ وَجُودَ الْإِقْبَالِ.

الحكمة التاسعة بعد المائتين: حُقُوقٌ فِي الْأَوْقَاتِ يُمْكِنُ قَضَاؤُهَا، وَحُقُوقُ الْأَوْقَاتِ لَا يُمْكِنُ قَضَاؤُهَا، إِذَا مَا مِنْ وَقْتٍ يَرِدُ إِلَّا وَلِلَّهِ عَلَيْكَ فِيهِ حَقٌّ جَدِيدٌ، وَأَمْرٌ أَكِيدُ، فَكَيْفَ تَقْضِي فِيهِ حَقَّ غَيْرِهِ، وَأَنْتَ لَمْ تَقْضِ حَقَّ اللَّهِ فِيهِ.

الحكمة العاشرة بعد المائتين: مَا فَاتَ مِنْ عُمْرِكَ لَا عِوَضَ لَهُ، وَمَا حَصَلَ لَكَ مِنْهُ لَا قِيمَةَ لَهُ.

الحكمة الحادية عشرة بعد المائتين: مَا أَحْبَبْتَ شَيْئًا إِلَّا كُنْتَ لَهُ عَبْدًا، وَهُوَ لَا يَحِبُّ أَنْ تَكُونَ لغيرِهِ عَبْدًا.

الحكمة الثانية عشر بعد المائتين: لَا تَنْفَعُهُ طَاعَتُكَ وَلَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَتُكَ، وَإِنَّمَا أَمْرُكَ بِهَذِهِ وَنَهَاكَ عَنْ هَذِهِ لِمَا يَعُودُ إِلَيْكَ.

الحكمة الثالثة عشر بعد المائتين: لَا يَزِيدُ فِي عِزِّهِ إِقْبَالُ مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عِزِّهِ أَدْبَارُ مَنْ أَدْبَرَ عَنْهُ.

الحكمة الرابعة عشر بعد المائتين: وَصُولُكَ إِلَيْهِ وَصُولُكَ إِلَى الْعِلْمِ بِهِ، وَإِلَّا فَجَلَّ رَبُّنَا أَنْ يَتَّصَلَ هُوَ بِشَيْءٍ.

الحكمة الخامسة عشر بعد المائتين: قُرْبُكَ مِنْهُ أَنْ تَكُونَ مُشَاهِدًا لِقُرْبِهِ، وَإِلَّا فَمِنْ أَيْنَ أَنْتَ وَوُجُودُ قُرْبِهِ.

الحكمة السادسة عشر بعد المائتين: الْحَقَائِقُ تَرِدُ فِي حَالِ التَّجَلِّي مُجْمَلَةً، وَبَعْدَ الْوَعْيِ يَكُونُ الْبَيَانُ ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾.

الحكمة السابعة عشر بعد المائتين: مَتَى وَرَدَتْ الْوَارِدَاتُ الْإِلَهِيَّةُ عَلَيْكَ هَدَمْتَ الْعَوَائِدَ عَلَيْكَ ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾.

الحكمة الثامنة عشر بعد المائتين: الْوَاردُ يَأْتِي مِنْ حَضْرَةِ قَهَّارٍ، لِأَجْلِ ذَلِكَ لَا يُصَادِمُهُ شَيْءٌ إِلَّا دَمَعَهُ ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾.

الحكمة التاسعة عشر بعد المائتين: كَيْفَ يَحْتَجِبُ الْحَقُّ بِشَيْءٍ، وَالَّذِي يَحْتَجِبُ بِهِ هُوَ فِيهِ ظَاهِرٌ، وَمَوْجُودٌ حَاضِرٌ.

الحكمة العشرون بعد المائتين: لَا تَيَاسُّ مِنْ قَبُولِ عَمَلٍ لَا تَجِدُ فِيهِ وُجُودَ الْحُضُورِ، فَرُبَّمَا قَبِلَ مِنَ الْعَمَلِ مَا لَمْ تُدْرِكْ ثَمَرَتُهُ عَاجِلًا.

الحكمة الحادية والعشرون بعد المائتين: لَا تُزَكِّينَ وَارِدًا لَا تَعْلَمُ ثَمَرَتَهُ، فَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنَ السَّحَابَةِ الْإِمطارَ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ مِنْهَا وُجُودُ الْإِثْمَارِ.

الحكمة الثانية والعشرون بعد المائتين: لَا تَطْلُبِينَ بَقَاءَ الْوَارِدَاتِ بَعْدَ أَنْ بَسَطْتَ أَنْوَارَهَا وَأَوْدَعْتَ أَسْرَارَهَا، فَلَكَ فِي اللَّهِ غِنًى عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَيْسَ يُغْنِيكَ عَنْهُ شَيْءٌ.

الحكمة الثالثة والعشرون بعد المائتين: تَطْلُعُكَ إِلَى بَقَاءِ غَيْرِهِ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ وَجْدَانِكَ لَهُ، وَاسْتِيحَاشُكَ بِفَقْدَانِ مَا سِوَاهُ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ وَصْلَتِكَ بِهِ.

الحكمة الرابعة والعشرون بعد المائتين: النَّعِيمُ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ مَظَاهِرُهُ إِنَّمَا هُوَ بِشُؤْدِهِ وَاقْتِرَابِهِ، وَالْعَذَابُ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ مَظَاهِرُهُ إِنَّمَا هُوَ بِوُجُودِ حِجَابِهِ، فَسَبَبُ الْعَذَابِ وُجُودُ الْحِجَابِ، وَإِتْمَامُ النَّعِيمِ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ.

الحكمة الخامسة والعشرون بعد المائتين: مَا تَجِدُهُ الْقُلُوبُ مِنْ الْهُمُومِ
وَالْأَحْزَانِ فَلْأَجَلٍ مَا مُنِعْتَهُ مِنْ وُجُودِ الْعِيَانِ.

الحكمة السادسة والعشرون بعد المائتين: مَنْ تَمَامَ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ أَنْ يَرْزُقَكَ مَا
يَكْفِيكَ وَيَمْنَعَكَ مَا يُطْغِيكَ.

الحكمة السابعة والعشرون بعد المائتين: لِيَقِلَّ مَا تَفْرَحُ بِهِ يَقِلَّ مَا تَحْزَنُ عَلَيْهِ.

الحكمة الثامنة والعشرون بعد المائتين: إِنْ أَرَدْتَ أَنْ لَا تُعْزَلَ فَلَا تُتَوَلَّ وَلَايَةً
لَا تَدُومُ لَكَ.

الحكمة التاسعة والعشرون بعد المائتين: إِنْ رَغَبْتَكَ الْبِدَايَاتُ زَهَدَتْكَ
النِّهَايَاتُ، إِنْ دَعَاكَ إِلَيْهَا ظَاهِرٌ نَهَاكَ عَنْهَا بَاطِنٌ.

الحكمة الثلاثون بعد المائتين: إِثْمًا جَعَلَهَا مُحَلًّا لِلْأَغْيَارِ وَمَعْدِنًا لَوُجُودِ الْأَكْدَارِ
تَرْهِيْدًا لَكَ فِيهَا.

الحكمة الحادية والثلاثون بعد المائتين: عِلْمُ أَنَّكَ لَا تَقْبَلُ النَّصْحَ (المجرد)
لِمَجْرَدِ الْقَوْلِ، فَذَوِّقْ مَنْ ذَوَّقَهَا مَا سَهَّلَ عَلَيْكَ فِرَاقَهَا.

الحكمة الثانية والثلاثون بعد المائتين: الْعِلْمُ النَّافِعُ الَّذِي يَنْبَسِطُ فِي الصَّدْرِ
شُعَاعُهُ، وَيَنْكَشِفُ بِهِ عَنِ الْقَلْبِ قِنَاعُهُ.

الحكمة الثالثة والثلاثون بعد المائتين: خَيْرُ الْعِلْمِ مَا كَانَتْ الْخَشْيَةُ مَعَهُ.

الحكمة الرابعة والثلاثون بعد المائتين: الْعِلْمُ إِنْ قَارَنْتَهُ الْخَشْيَةُ فَلَكَ وَالْأَفْعَالُ.

الحكمة الخامسة والثلاثون بعد المائتين: مَتَى أَمَلَكَ عَدَمُ إِقْبَالِ النَّاسِ عَلَيْكَ، أَوْ تَوَجُّهُهُمْ بِالذِّمِّ إِلَيْكَ، فَارْجِعْ إِلَى عِلْمِ اللَّهِ فِيكَ، فَإِنْ كَانَ لَا يُقْنِعُكَ عَلَيْهِ فِيكَ بِكَ، فَصِيبَتِكَ بِعَدَمِ قَنَاعَتِكَ بِهِ أَشَدَّ مِنْ مُصِيبَتِكَ بِوُجُودِ الْأَذَى مِنْهُ.

الحكمة السادسة والثلاثون بعد المائتين: إِنَّمَا أَجْرَى الْأَذَى عَلَى أَيْدِيهِمْ كَيْ لَا تَكُونَ سَاكِنًا إِلَيْهِ، أَرَادَ أَنْ يُزَجِّجَكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى لَا يَشْغَلَكَ عَنْهُ شَيْءٌ.

الحكمة السابعة والثلاثون بعد المائتين: إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَغْفُلُ عَنْكَ، فَلَا تَغْفُلْ أَنْتَ عَمَّنْ نَاصِبَتِكَ بِيَدِهِ.

الحكمة الثامنة والثلاثون بعد المائتين: جَعَلَهُ لَكَ عَدُوًّا لِيَحُوشَكَ بِهِ إِلَيْهِ، وَحَرَكَ عَلَيْكَ النَّفْسَ لِيَدُومَ إِقْبَالَكَ عَلَيْهِ.

الحكمة التاسعة والثلاثون بعد المائتين: مَنْ أَثَبَّتَ لِنَفْسِهِ تَوَاضُعًا فَهُوَ الْمُتَكَبِّرُ حَقًّا، إِذْ لَيْسَ التَّوَاضُّعُ إِلَّا عَنْ رِفْعَةٍ، فَمَتَى أَثَبَّتَ لِنَفْسِكَ تَوَاضُعًا فَأَنْتَ الْمُتَكَبِّرُ.

الحكمة الأربعون بعد المائتين: لَيْسَ الْمُتَوَاضِعُ الَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ رَأَى أَنَّهُ فَوْقَ مَا صَنَعَ، وَلَكِنَّ الْمُتَوَاضِعَ الَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ رَأَى أَنَّهُ دُونَ مَا صَنَعَ.

الحكمة الحادية والأربعون بعد المائتين: التَّوَاضُّعُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ مَا كَانَ نَاشِئًا عَنْ شُهُودِ عَظَمَتِهِ وَتَجَلِّي صِفَتِهِ.

الحكمة الثانية والأربعون بعد المائتين: لَا يُخْرِجُكَ عَنِ الْوَصْفِ إِلَّا شُهُودُ الْوَصْفِ.

الحكمة الثالثة والأربعون بعد المائتين: الْمُؤْمِنُ يَشْغَلُهُ الثَّنَاءُ عَلَى اللَّهِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِنَفْسِهِ شَاكِرًا، وَتَشْغَلُهُ حُقُوقُ اللَّهِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِحُظُوذِهِ ذَاكِرًا.

الحكمة الرابعة والأربعون بعد المائتين: لَيْسَ الْمَحِبُّ الَّذِي يَرْجُو مِنْ مَحْبُوبِهِ عَوَضًا وَيَطْلُبُ مِنْهُ غَرَضًا فَإِنَّ الْمَحِبَّ مَنْ يَبْذُلُ لَكَ، لَيْسَ الْمَحِبُّ مَنْ يَبْذُلُ لَهُ.

الحكمة الخامسة والأربعون بعد المائتين: لَوْلَا مَيَادِينُ النَّفْسِ مَا تَحَقَّقَ سَيْرُ السَّائِرِينَ، إِذْ لَا مَسَافَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حَتَّى تَطْوِيَهَا رِحْلَتَكَ، وَلَا قَطِيعَةً بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حَتَّى تَمْحُوهَا وَصِلَتُكَ.

الحكمة السادسة والأربعون بعد المائتين: جَعَلَكَ فِي الْعَالَمِ الْمُتَوَسِّطِ بَيْنَ مُلْكِهِ وَمَلَكُوتِهِ لِيُعَلِّمَكَ جَلَالََةَ قَدْرِكَ بَيْنَ مَخْلُوقَاتِهِ، وَأَنَّكَ جَوْهَرَةٌ تَطْوِي عَلَيْهَا أَصْدَافَ مُكُونَاتِهِ.

الحكمة السابعة والأربعون بعد المائتين: إِنَّمَا وَسِعَكَ الْكَوْنُ مِنْ حَيْثُ جِسْمَانِيَّتُكَ (جِثْمَانِيَّتُكَ) وَلَمْ يَسَعَكَ مِنْ حَيْثُ ثُبُوتُ رُوحَانِيَّتِكَ.

الحكمة الثامنة والأربعون بعد المائتين: الْكَائِنُ فِي الْكَوْنِ وَلَمْ تَفْتَحْ لَهُ مَيَادِينَ الْغُيُوبِ، مَسْجُونٌ بِمَحِيطَاتِهِ مُحْصُورٌ فِي هَيْكَلِ ذَاتِهِ.

الحكمة التاسعة والأربعون بعد المائتين: أَنْتَ مَعَ الْأَكْوَانِ مَا لَمْ تَشْهَدْ الْمُكُونِ، فَإِذَا شَهِدْتَهُ كَانَتْ الْأَكْوَانُ مَعَكَ.

الحكمة الخمسون بعد المائتين: لَا يَلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِ الْخُصُوصِيَّةِ عَدَمُ وَصْفِ الْبَشَرِيَّةِ، إِنَّمَا مِثْلُ الْخُصُوصِيَّةِ كِإِشْرَاقِ شَمْسِ النَّهَارِ، ظَهَرَتْ فِي الْأَفْقِ وَلَيْسَتْ

مِنْهُ، تَارَةً تُشْرِقُ شُمُوسُ أَوْصَافِهِ عَلَى لَيْلِ وُجُودِكَ، وَتَارَةً يَقْبِضُ ذَلِكَ عَنْكَ فَيَرُدُّكَ إِلَى حُدُودِكَ، فَالْتَّهَارُ لَيْسَ مِنْكَ وَإِلَيْكَ وَلَكِنَّهُ وَارِدٌ عَلَيْكَ.

الحكمة الحادية والخمسون بعد المائتين: دَلَّ بِوُجُودِ آثَارِهِ عَلَى وُجُودِ أَسْمَائِهِ، وَبِوُجُودِ أَسْمَائِهِ عَلَى ثُبُوتِ أَوْصَافِهِ، وَبِوُجُودِ أَوْصَافِهِ عَلَى وُجُودِ ذَاتِهِ، إِذْ مُحَالٌ أَنْ يَقُومَ الْوَصْفُ بِنَفْسِهِ، فَأَهْلُ الْجَذْبِ يَكْشِفُ لَهُمْ عَنْ كَمَالِ ذَاتِهِ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلَى شُهُودِ صِفَاتِهِ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلَى التَّعَلُّقِ بِأَسْمَائِهِ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلَى شُهُودِ آثَارِهِ، وَالسَّالِكُونَ عَلَى عَكْسِ هَذَا، فَهَيَاةُ السَّالِكِينَ بِدَايَةِ الْمَجْذُوبِينَ لَكِنْ لَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ، فَرُبَّمَا التَّقِيَا فِي الطَّرِيقِ، هَذَا فِي تَرْقِيهِ وَهَذَا فِي تَدْلِيلِهِ.

الحكمة الثانية والخمسون بعد المائتين: لَا يَعْلَمُ قَدْرُ أَنْوَارِ الْقُلُوبِ وَالْأَسْرَارِ إِلَّا فِي غَيْبِ الْمَلَكُوتِ، كَمَا لَا تَظْهَرُ أَنْوَارُ السَّمَاءِ إِلَّا فِي شَهَادَةِ الْمَلِكِ.

الحكمة الثالثة والخمسون بعد المائتين: وَجَدَانُ ثَمَرَاتِ الطَّاعَاتِ عَاجِلًا وَبَشَائِرُ الْعَامِلِينَ بِوُجُودِ الْجَزَاءِ عَلَيْهَا آجِلًا.

الحكمة الرابعة والخمسون بعد المائتين: كَيْفَ تَطْلُبُ الْعِوَضَ عَلَى عَمَلٍ هُوَ مُتَصَدِّقٌ بِهِ عَلَيْكَ؟ أَمْ كَيْفَ تَطْلُبُ الْجَزَاءَ عَلَى صِدْقٍ هُوَ مَهْدِيهِ إِلَيْكَ.

الحكمة الخامسة والخمسون بعد المائتين: قَوْمٌ تَسْبِقُ أَنْوَارُهُمْ أَذْكَارَهُمْ، وَقَوْمٌ تَسْبِقُ أَذْكَارُهُمْ أَنْوَارَهُمْ، وَقَوْمٌ تَتَسَاوَى أَذْكَارُهُمْ وَأَنْوَارُهُمْ، وَقَوْمٌ لَا أَذْكَارَ وَلَا أَنْوَارَ نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ.

الحكمة السادسة والخمسون بعد المائتين: ذَاكِرُ ذِكْرٍ لَيْسَتْ نِيَرٌ بِهِ قَلْبُهُ فَكَانَ ذَاكِراً، وَذَاكِراً اسْتَنَارَ قَلْبُهُ فَكَانَ ذَاكِراً، وَالَّذِي اسْتَوَتْ أَذْكَارُهُ وَأَنْوَارُهُ فَبَذَرَهُ يَهْتَدِي، وَبَنُورِهِ يُقْتَدَى.

الحكمة السابعة والخمسون بعد المائتين: مَا كَانَ ظَاهِرُ ذِكْرٍ إِلَّا عَنْ بَاطِنٍ شُهُودٍ أَوْ فِكْرَةٍ.

الحكمة الثامنة والخمسون بعد المائتين: أَشْهَدُكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَسْتَشْهَدَكَ، فَطَقَّتْ بِالْأُوهِيَّتِ الظَّوَاهِرُ، وَتَحَقَّقَتْ بِأَحْدِيثِهِ الْقُلُوبُ وَالسَّرَائِرُ.

الحكمة التاسعة والخمسون بعد المائتين: أَكْرَمَكَ بِكَرَامَاتٍ ثَلَاثَ: جَعَلَكَ ذَاكِراً لَهُ وَلَوْ لَا فَضْلُهُ لَمْ تَكُنْ أَهْلاً لِجَرَيَانِ ذِكْرِهِ عَلَيْكَ، وَجَعَلَكَ مَذْكُوراً بِهِ، إِذْ حَقَّقَ نِسْبَتَهُ لَدَيْكَ وَجَعَلَكَ مَذْكُوراً عِنْدَهُ فَتَمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ.

الحكمة الستون بعد المائتين: رَبُّ عُمْرٍ اتَّسَعَتْ أَمَادُهُ وَقَلَّتْ أَمْدَادُهُ، وَرَبُّ عُمْرٍ قَلِيلَةٍ أَمَادُهُ كَثِيرَةٌ أَمْدَادُهُ.

الحكمة الحادية والستون بعد المائتين: مَنْ بُوْرِكَ لَهُ فِي عُمْرِهِ أَدْرَكَ فِي يَسِيرٍ مِنَ الزَّمَنِ مَنْ مَنِ اللهُ تَعَالَى مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ دَوَائِرِ الْعِبَارَةِ، وَلَا تَلْحَقُهُ الْإِشَارَةُ.

الحكمة الثانية والستون بعد المائتين: الْخِذْلَانُ كُلُّ الْخِذْلَانِ أَنْ تَتَفَرَّغَ مِنَ الشَّوَاغِلِ، ثُمَّ لَا تُتَوَجَّهَ إِلَيْهِ، وَتَقِلَّ عَوَائِقُكَ، ثُمَّ لَا تَرْحَلَ إِلَيْهِ.

الحكمة الثالثة والستون بعد المائتين: الفِكرَةُ سَيْرُ الْقَلْبِ فِي مَيَادِينِ الْأَغْيَارِ.
 الحكمة الرابعة والستون بعد المائتين: الفِكرَةُ سِرَاجُ الْقَلْبِ، فَإِذَا ذَهَبَتْ فَلَا
 إِضَاءَةَ لَهُ.

الحكمة الخامسة والستون بعد المائتين: الفِكرَةُ فِكْرَتَانِ: فِكرَةُ تَصْدِيقٍ
 وَإِيمَانٍ، وَفِكرَةُ شُهُودٍ وَعِيَانٍ، فَالْأُولَى لِأَرْبَابِ الْإِعْتِبَارِ، وَالثَّانِيَةُ لِأَرْبَابِ
 الشُّهُودِ وَالْإِسْتِبْصَارِ.





مناجاة سيدي ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه



إِلَهِي أَنَا الْفَقِيرُ فِي غِنَايَ، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ فَقِيرًا فِي فَقْرِي.

إِلَهِي أَنَا الْجَاهِلُ فِي عِلْمِي، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ جَهُولًا فِي جَهْلِي.

إِلَهِي إِنَّ اخْتِلَافَ تَذْيِيرِكَ وَسُرْعَةَ حُلُولِ مَقَادِيرِكَ مَنَعَا عِبَادَكَ الْعَارِفِينَ بِكَ
عَنِ السُّكُونِ إِلَى عَطَاءٍ، وَالْيَأْسِ مِنْكَ فِي بَلَاءٍ.

إِلَهِي مَنِي مَا يَلِيقُ بِلُؤْمِي، وَمِنْكَ مَا يَلِيقُ بِكَرَمِكَ.

إِلَهِي وَصَفْتَ نَفْسَكَ بِاللُّطْفِ وَالرَّأْفَةِ بِي قَبْلَ وُجُودِ ضَعْفِي، أَفَتَمْنَعُنِي مِنْهُمَا
بَعْدَ وُجُودِ ضَعْفِي؟!

إِلَهِي إِنَّ ظَهَرْتَ الْمُحَاسِنُ مَنِي فَبِفَضْلِكَ وَلَكَ الْمِنَّةُ عَلَيَّ، وَإِنْ ظَهَرْتَ
الْمَسَاوِي مَنِي فَبِعَدْلِكَ وَلَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ.

إِلَهِي كَيْفَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي، وَقَدْ تَوَكَّلْتُ لِي، وَكَيْفَ أَضَامُ وَأَنْتَ النَّاصِرُ
لِي، أَمْ كَيْفَ أَخِيبُ وَأَنْتَ الْحَفِيُّ بِي، هَا أَنَا أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِفَقْرِي إِلَيْكَ، وَكَيْفَ
أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِمَا هُوَ مُحَالٌ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ، أَمْ كَيْفَ أَشْكُو إِلَيْكَ حَالِي وَهُوَ لَا يَخْفَى
عَلَيْكَ، أَمْ كَيْفَ أَتَرْجِمُ لَكَ بِمَقَالِي وَهُوَ مِنْكَ بَرَزَ إِلَيْكَ، أَمْ كَيْفَ تُخِيبُ آمَالِي
وَهِيَ قَدْ وَفَدَتْ إِلَيْكَ، أَمْ كَيْفَ لَا تُحَسِّنُ أَحْوَالِي وَبِكَ قَامَتْ إِلَيْكَ؟!

إِلَهِي مَا أَلْطَفَكَ بِي مَعَ عَظِيمِ جَهْلِي، وَمَا أَرْحَمَكَ بِي مَعَ قِيَحِ فِعْلِي.

إِلَهِي مَا أَقْرَبَكَ مِنِّي، وَمَا أَبْعَدَنِي عَنْكَ.

إِلَهِي مَا أَرَأَفَكَ بِي، فَمَا الَّذِي يَحْجُبُنِي عَنْكَ؟!

إِلَهِي قَدْ عَلِمْتُ بِاخْتِلَافِ الْأَثَارِ وَتَنَقُّلَاتِ الْأَطْوَارِ أَنَّ مُرَادَكَ مِنِّي أَنْ
تَعْرِفَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى لَا أَجْهَلَكَ فِي شَيْءٍ.

إِلَهِي كُلَّمَا أَخْرَسَنِي لُؤْمِي أَنْطَقَنِي كَرَمُكَ، وَكُلَّمَا أَيْسَرَنِي أَوْصَافِي أَطْمَعَنِي
مَنْتَكَ.

إِلَهِي مَنْ كَانَتْ مُحَاسِنُهُ مَسَاوِي فَكَيْفَ لَا تَكُونُ مَسَاوِيَهُ مَسَاوِي، وَمَنْ
كَانَتْ حَقَائِقُهُ دَعَاوِي فَكَيْفَ لَا تَكُونُ دَعَاوِيَهُ دَعَاوِي.

إِلَهِي حُكْمُكَ النَّافِذُ وَمَشِيئَتُكَ الْقَاهِرَةُ لَمْ يَتْرُكَ لِي مَقَالٍ مَقَالًا، وَلَا لِي
حَالٍ حَالًا.

إِلَهِي كَرَمٌ مِنْ طَاعَةِ بَنِيهَا وَحَالَةٍ شَيْدَتْهَا هَدَمَ اعْتِمَادِي عَلَيْهَا عَدْلُكَ؛ بَلْ
أَقَالَنِي مِنْهَا فَضْلُكَ.

إِلَهِي أَنْتَ تَعْلَمُ وَإِنْ لَمْ تَدَمْ الطَّاعَةُ مِنِّي فِعْلًا جَزْمًا فَقَدْ دَامَتْ مَحَبَّةٌ وَعَزْمًا.

إِلَهِي كَيْفَ أَعْزِمُ وَأَنْتَ الْقَاهِرُ، وَكَيْفَ لَا أَعْزِمُ وَأَنْتَ الْآمِرُ؟!

إِلَهِي تَرَدُّدِي فِي الْأَثَارِ يُوجِبُ بَعْدَ الْمَزَارِ، فَاجْمَعْنِي عَلَيْكَ بِخِدْمَةٍ
تُوصِّلُنِي إِلَيْكَ.

إِلَهِي كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَا هُوَ فِي وَجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ، أَيْكُونُ لِبَعْضِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرُ لَكَ؟!، مَتَى غَبْتَ حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ، وَمَتَى بَعُدْتَ حَتَّى تَكُونَ الْآثَارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ، عَمِيتَ عَيْنٌ لَا تَرَكَ عَلَيْهَا رَقِيبًا، وَخَسِرْتَ صَفْقَةً عَبْدٌ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيبًا.

إِلَهِي أَمَرْتُ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْآثَارِ، فَأَرْجِعْنِي إِلَيْهَا بِكِسْوَةِ الْأَنْوَارِ وَهِدَايَةِ الْإِسْتِبْصَارِ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْكَ مِنْهَا كَمَا دَخَلْتُ إِلَيْكَ مِنْهَا مَصُونٌ السِّرِّ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهَا، وَمَرْفُوعَ الْهِمَّةِ عَنِ الْإِعْتِمَادِ عَلَيْهَا، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

إِلَهِي هَذَا ذُلِّي ظَاهِرٌ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَهَذَا حَالِي لَا يَخْفَى عَلَيْكَ، مِنْكَ أَطْلُبُ الْوُصُولَ إِلَيْكَ، وَبِكَ أَسْتَدِلُّ عَلَيْكَ لَا بِغَيْرِكَ فَاهْدِنِي بِنُورِكَ إِلَيْكَ، وَأَقْنِي بِصِدْقِ الْعُبُودِيَّةِ بَيْنَ يَدَيْكَ.

إِلَهِي عَلَّمَنِي مِنْ عِلْمِكَ الْخُزُونِ، وَصَنِّي بِسِرِّ اسْمِكَ الْمَصُونِ.

إِلَهِي حَقَّقْنِي بِحَقَائِقِ أَهْلِ الْقُرْبِ، وَأَسْأَلُكَ فِي مَسَالِكَ أَهْلِ الْجَذْبِ.

إِلَهِي أَغْنِنِي بِتَدْيِيرِكَ لِي عَنْ تَدْيِيرِي، وَبِاخْتِيَارِكَ عَنْ اخْتِيَارِي، وَأَوْقِفْنِي عَلَى مَرَاكِزِ اضْطِرَارِي.

إِلَهِي أَخْرِجْنِي مِنْ ذُلِّ نَفْسِي وَطَهِّرْنِي مِنْ شَكِّي وَشَرِّكِ قَبْلَ حُلُولِ رَمْسِي^(١)، بِكَ أَسْتَنْصِرُ فَانصُرْنِي، وَعَلَيْكَ أَتَوَكَّلُ فَلَا تَكُنْ لِي، وَإِيَّاكَ أَسْأَلُ

فَلَا تُحْيِينِي، وَفِي فَضْلِكَ أَرْغَبُ فَلَا تَحْرِمْنِي، وَلِجَنَابِكَ أَنْتَسِبُ فَلَا تَبْعِدْنِي، وَبِبَابِكَ أَقِفُ فَلَا تَطْرُدْنِي.

إِلَهِي تَقَدَّسَ رِضَاكَ أَنْ تَكُونَ لَهُ عِلَّةٌ مِنْكَ، فَكَيْفَ تَكُونُ لَهُ عِلَّةٌ مِنِّي، أَنْتَ الْغَنِيُّ بِذَاتِكَ عَنْ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ النَّفْعُ، فَكَيْفَ لَا تَكُونُ غَنِيًّا عَنِّي.

إِلَهِي إِنَّ الْقَضَا وَالْقَدَرَ غَلَبَنِي، وَإِنَّ الْهَوَى بِوَثَائِقِ الشَّهْوَةِ أَسْرَنِي، فَكُنْ أَنْتَ النَّاصِرُ لِي حَتَّى تَنْصُرَنِي وَتَنْصُرَنِي، وَاغْنِنِي بِفَضْلِكَ حَتَّى أَسْتَغْنِيَ بِكَ عَنْ طَلْبِي، أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقْتَ الْأَنْوَارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ، وَأَنْتَ الَّذِي أَزَلْتَ الْأَغْيَارَ عَنْ قُلُوبِ أَحِبَّائِكَ حَتَّى لَمْ يُجِبُوا سِوَاكَ وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى غَيْرِكَ، أَنْتَ الْمُؤْنِسُ لَهُمْ حَيْثُ أَوْحَشَتْهُمُ الْعَوَالِمُ، وَأَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَهُمْ حَتَّى اسْتَبَانَتْ لَهُمُ الْمَعَالِمُ. مَاذَا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ؟!، وَمَا الَّذِي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ؟!، لَقَدْ خَابَ مَنْ رَضِيَ دُونَكَ بَدَلًا، وَلَقَدْ خَسِرَ مَنْ بَغَى عَنْكَ مُتَحَوِّلًا.

إِلَهِي كَيْفَ يُرْجَى سِوَاكَ وَأَنْتَ مَا قَطَعْتَ الْإِحْسَانَ، وَكَيْفَ يُطْلَبُ مِنْ غَيْرِكَ وَأَنْتَ مَا بَدَّلْتَ عَادَةَ الْإِمْتِنَانِ، يَا مَنْ أَذَاقَ أَحِبَّاءَهُ حَلَاوَةَ مُؤَانَسَتِهِ فَقَامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مُتَمَلِّقِينَ، وَيَا مَنْ أَلْبَسَ أَوْلِيَاءَهُ مَلَابِسَ هَيْبَتِهِ فَقَامُوا بِعِزَّتِهِ مُسْتَعِزِّينَ. أَنْتَ الذَّاكِرُ مِنْ قَبْلِ الذَّاكِرِينَ، وَأَنْتَ الْبَادِئُ بِالْإِحْسَانِ مِنْ قَبْلِ تَوَجُّهِ الْعَابِدِينَ، وَأَنْتَ الْجَوَادُ بِالْعَطَاءِ مِنْ قَبْلِ طَلَبِ الطَّالِبِينَ، وَأَنْتَ الْوَهَّابُ، ثُمَّ أَنْتَ لِمَا وَهَبْنَا مِنَ الْمُسْتَقْرِضِينَ.

إِلَهِي اظْلُبْنِي بِرَحْمَتِكَ حَتَّى أَصِلَ إِلَيْكَ، وَاجْذُبْنِي بِمِنَّتِكَ حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيْكَ.
إِلَهِي إِنْ رَجَائِي لَا يَنْقَطِعُ عَنْكَ وَإِنْ عَصِيَّتُكَ، كَمَا أَنَّ خَوْفِي لَا يُزِيلُنِي وَإِنْ
أَطَعْتُكَ.

إِلَهِي قَدْ دَفَعْتَنِي الْعَوَالِمُ إِلَيْكَ، وَقَدْ أَوْقَفَنِي عَلَيَّ بِكَرَمِكَ عَلَيْكَ.
إِلَهِي كَيْفَ أَخِيبُ وَأَنْتَ أَمَلِي، أَمْ كَيْفَ أَهَانُ وَعَلَيْكَ مُتَّكِلِي.
إِلَهِي كَيْفَ أَسْتَعِزُّ وَأَنْتَ فِي الدَّلَّةِ أَرْكَزْتَنِي، أَمْ كَيْفَ لَا أَسْتَعِزُّ وَإِلَيْكَ
نَسَبْتَنِي، أَمْ كَيْفَ لَا أَفْتَقِرُ وَأَنْتَ الَّذِي فِي الْفَقْرِ أَقْمَتَنِي، أَمْ كَيْفَ أَفْتَقِرُ إِلَى
غَيْرِكَ وَأَنْتَ الَّذِي بِجُودِكَ أَغْنَيْتَنِي، أَنْتَ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُكَ، تَعَرَّفْتَ لِكُلِّ شَيْءٍ فَمَا
جَهَلَكُ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الَّذِي تَعَرَّفْتَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَرَأَيْتَكَ ظَاهِرًا فِي كُلِّ شَيْءٍ،
فَأَنْتَ الظَّاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ. يَا مَنْ اسْتَوَى بِرَحْمَانِيَّتِهِ عَلَى عَرْشِهِ، فَصَارَ الْعَرْشُ غَيْبًا
فِي رَحْمَانِيَّتِهِ، كَمَا صَارَتِ الْعَوَالِمُ غَيْبًا فِي عَرْشِهِ، مُحَقَّتَ الْأَثَارَ بِالْآثَارِ، وَمَحَوَّتِ
الْأَغْيَارَ بِمُحِيطَاتِ أَفْلَاكِ الْأَنْوَارِ، يَا مَنْ احْتَجَبَ فِي سُرَادِقَاتِ عِزِّهِ عَنْ أَنْ
تُدْرِكَهُ الْأَبْصَارُ، يَا مَنْ تَجَلَّى بِكَمَالِ بَهَائِهِ فَتَحَقَّقَتْ عَظَمَتُهُ الْأَسْرَارَ، كَيْفَ تَخْفَى
وَأَنْتَ الظَّاهِرُ، أَمْ كَيْفَ تَغِيبُ وَأَنْتَ الرَّقِيبُ الْحَاضِرُ؟

﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبَّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) ﴿وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٨١) وَالْحَمْدُ

لِلرَّبِّ الْعَلِيمِ ﴿١٨٢﴾

تم بحمد الله

شرح
الحكم المطاوعة

مقدمة الشارح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي تجلّى باسمه الحكيم على عباده المؤمنين، فآتاهم الحكمة التي بها يدركون ما يصلحهم في حالهم ومآلهم، ويسعدون في دنياهم وآخرتهم، ولذا قال في محكم كتابه جل من قائل: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

والصلاة والسلام المتلازمان على سيدنا محمد وعلى آله، نبي الحكم والحكمة، الدال على الله في كل أحواله الشريفة، والهادي إلى الصراط المستقيم.

أما بعد،

فإن الحكم العطائية لسيدي أحمد بن عطاء الله السكندري مما تلقته الأمة بالقبول، وتبارى العلماء في شرحها، والخطباء على المنابر بالاستدلال بها، لتوضيح دقائق ولطائف تفيد المسلم في طريقه إلى الله تعالى، قاطعا ظلمات نفسه، مستعينا بأنوار الشريعة والطريقة، وقد وفق الله تعالى ابن عطاء الله بدقة العبارة وجمالها، وحسن الترتيب، مع عمق المعاني والإشارات، ووضوح الدلالة، حتى صارت مضربا للأمثال، ومنهجاً في التربية والسلوك.

ولذا شرح الله صدرى لشرحها بصورة معاصرة تليق بعقلية وأسلوب المسلم المعاصر، الذي يعاني من عوائق لم تكن في الأزمان السابقة منذ

مئات السنين. وقد شرحتها في مجالس عديدة ومرات متكررة في مصر وفي خارج مصر، أثناء زيارتي لأندونيسيا وماليزيا وبنجلاديش وباكستان وبعض البلاد العربية.

والعجيب أنني كلما قرأتها وعزمت على شرحها أجد فيها معاني جديدة، وعمقاً آخر، ولفقات لطيفة، أستفيد أنا شخصياً منها، فضلاً عن السامعين لي أثناء شرحها.

وقد وفق الله تعالى ابني البار الفاضل المبارك الشيخ «خلدون الهيتي القادري» بجمع بعض هذه الشروح، وتحويلها إلى نص مكتوب، وعرضه عليّ، فراجعته، وأضفت عليه، وعدلت بعض جملة، فكان هذا المؤلف، الذي أرجو الله تعالى أن ينفع به مؤلفه وجامعه وقارئه، وأن يكون من العلم النافع الذي يدوم أجره وثوابه بعد الوفاة وانتهاء الأجل، بجاء الحبيب المصطفى ﷺ الذي أمدّ الأولياء بحسن العبارة ودقة الفهم والإرشاد والنصح للعباد.

والله الموفق وعليه التكلان، وإليه المرجع والمآب.

الفقير إلى الله

يسري رشدي السير جبر

القاهرة/ الخميس/ ٩ رمضان ١٤٤٤هـ

الموافق ٢٠٢٣/٣/٣٠

الحكمة الأولى

مِنْ عَلَامَةِ الْاعْتِمَادِ عَلَى الْعَمَلِ، نُقْصَانُ الرَّجَاءِ عِنْدَ وُجُودِ الزَّلَلِ

شرح الحكمة

بدأ سيدنا ابن عطاء الله السكندري رحمته الله كتابه الحكم العطائية بالتحذير من أمرٍ هام جداً، وهو أن تترك أيها السالك إلى ما سوى الله ﷻ، وتركن للأسباب وتعتمد عليها.

فيقول: «مِنْ عَلَامَةِ الْاعْتِمَادِ عَلَى الْعَمَلِ، نُقْصَانُ الرَّجَاءِ عِنْدَ وُجُودِ الزَّلَلِ» فيجب على المسلم ألا يعتمد إلا على الله ﷻ، وإن اعتمد على الأسباب والأكوان صار مشركاً، وإن ترك الأسباب بالكلية صار زنديقاً، والمطلوب منك أيها السالك أن يكون ظاهر كمنهمكاً في الأسباب وهذا شريعة، وباطنك معتمداً على الله وهذا حقيقة.

فلو قل رجائك في الله ﷻ وفي عفوهِ وأنت في حال المعصية، وازداد في حال الطاعة فأنت معتمد على عملك، وقد وقعت في الشرك الخفي.

والنبي ﷺ قال: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ»^(١)، والعمل هو الأسباب الشرعية والطاعات المختلفة الموصلة «إلى رضا الله ﷻ». ومطلوب من

(١) البخاري (٥٧٣٥) حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي أَبُو عُبَيْدٍ مَوْلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ قَالُوا وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لَا وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَّعَمِدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ فَسَدُّوا وَقَارِبُوا وَلَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزِدَّ خَيْرًا وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتَبَ. ومسلم (٧٢٩٤).

المسلم أن يعمل بها؛ لأنه متعبد بها، ومطلوب من السالك ألا يلتفت إليها في حال تلبسه بها ولا يعتمد عليها؛ لذلك قال النبي ﷺ في تكملة الحديث السابق عندما سُئل: «ولا أنت يا رسول الله قال: **«لَا وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ»**».

وقد يعترض البعض على كلامنا هذا محتجين بقوله تعالى: **﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** [النحل: ٣٢]، وهل في الآية مخالفة لحديث رسول الله ﷺ؟ والجواب عليهم بما يلي:

يجب أن تعلم أن الإنسان بين الشريعة والحقيقة، ورسول الله ﷺ جاء بالشريعة والحقيقة والطريقة في آنٍ واحد، فأحياناً يتكلم القرآن بالحقيقة ويتكلم رسول الله ﷺ بالشريعة وأحياناً يتكلم رسول الله ﷺ بالحقيقة ويتكلم القرآن بالشريعة ولا تناقض بينهما، أي أن الإنسان إذا لم يأخذ بالأسباب لن ينال رضا الله ﷻ، فالأسباب هي الشريعة، ويجب على الإنسان أن يتشعر بالأسباب، لكن بغير التفات بقلبه إليها؛ لأنه لو ترك الأسباب بالكلية تزندق، فالآية هنا تخاطب من أراد أن يترك الأسباب بالكلية، ووضح أن من أسباب دخول الجنة الأخذ بالأسباب وهذا شريعة وتشريع، ولو التفت للأسباب واعتمد عليها فقد أشرك؛ لأن رسول الله ﷺ قال: **«لَنْ يُدْخَلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ»** وهنا تكلم بالحقيقة، فرسول الله ﷺ يتكلم عن عمل القلب في حال التلبس بالعمل الصالح، والآية تتكلم عن عمل الجوارح في حال فعلها، فلا تعارض، أي تكون منهما في الطاعة بجوارحك ملتفتاً إلى الله بقلبك.

وهناك معنى آخر: أن دخول الجنة في ذاته برحمة الله ﷻ، والتمتع فيها بالعمل الصالح، فتحديد درجتك في الجنة يكون بالعمل الصالح، لكنَّ الدخول إلى الجنة برحمة الله ﷻ. لأنه سبحانه وتعالى الفاعل على

الحقيقة، فهو الذي خلقك وخلق العبادة فيك ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦]، فإذا كان هو الفاعل الحقيقي فليس لك فضل ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٣] فما دام الفضل من الله ﷻ فلا تلتفت إلى العمل، بل التفت إلى فضل الله عليك أن وفقك لهذا العمل، ثم بعد ذلك تلتفت إلى الخوف من عدم قبول العمل، ثم تحرص أن يكون العمل مطابقاً لما أمر به الله ورسوله ﷺ، ومع ذلك تحرص على أن يكون العمل خالصاً لله ﷻ، ويكون قلبك في كل هذا معتمداً على الله لا على العمل.

كل هذه الأشياء مطلوبة من المسلم ليتحقق بمقام الإسلام ويطرق إلى مقام الإيمان بخلوص القلب لله وحده، ثم ينتقل إلى مقام الإحسان بدوام المراقبة، فيصبح الإنسان متحققاً بمقامات الدين كله.

ولما كان الناس على صنفين: متجربين ومتسبين قال في الحكمة الثانية:

الحكمة الثانية

إِرَادَتُكَ التَّجْرِيدَ مَعَ إِقَامَةِ اللَّهِ إِيَّاكَ فِي الْأَسْبَابِ مِنَ الشَّهْوَةِ الْخَفِيَّةِ،
وَإِرَادَتُكَ الْأَسْبَابَ مَعَ إِقَامَةِ اللَّهِ إِيَّاكَ فِي التَّجْرِيدِ انْحِطَاطُ عَنِ الْهَمَّةِ الْعَلِيَّةِ

شرح الحكمة

يحذر الشيخ في هذه الحكمة المتسبب والمتجرد في آن واحد، والتجريد: هو الإزالة، أي إزالة كل تعلق بسوى الله تعالى، أو التخلي عن أسباب الدنيا، أو إزالة كل ما يعلق بالقلب والجوارح مما يحول من الوصول إلى الله ﷻ.

والتجريد ثلاث أنواع: تجريد الظاهر، وتجريد الباطن، وتجريدهما معاً.

١- تجريد الظاهر: متعلق بالجوارح، فلا تنشغل الجوارح بغير الطاعة، فإن انشغلت بغير الطاعة صار متسبباً.

٢- تجريد الباطن: هو عدم التفات القلب إلى ما سوى الله ﷻ، أو هو تخلية القلب من كل خلقٍ قبيحٍ وتحليته بكل خلقٍ مليحٍ.

٣- تجريدهما معاً: هو تفرغ الظاهر للطاعة وعدم التفات القلب إلا إلى الله ﷻ. والمطلوب هو تجريدهما معاً، لأن تجريد الظاهر فقط لا يثمر إلا مع تجريد الباطن.

والمتسبب: هو الذي أقامه الله سبحانه في الأسباب، فعليك أن ترضى بما قسمه الله لك، فإذا أقامك الله في الأسباب فلا تُخرج نفسك منها حتى يخرجك هو منها، فإن أقمت نفسك فيما أقامك الله ﷻ ولم تخرج إلا بإذنه كنت متجرداً، وإن أخرجت نفسك مما أقامك الله فيه فأنت متسببٌ ولو كنت متجرداً.

والنبي ﷺ أمرنا بالتسبب فقال: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلٍ يَدِهِ»^(١)، وفي نفس الوقت كان من الصحابة من هم من أهل التجريد كأهل الصفة، فالصحابة نوعان: أهل أسباب، يعملون في الأسواق والمهن، وأهل تجريد، كأهل الصفة وكان عددهم ثلاثمائة صحابي تقريباً، وكان سيدنا رسول الله ﷺ مسؤول عن إطعامهم وكسوتهم، وهم متفرغون للذكر والعبادة وملاحظة أحوال النبي ﷺ وكان على رأسهم سيدنا أبو هريرة ؓ.

(١) البخاري (٢١١١) حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى أَخْبَرَنَا عِيسَى عَنْ ثَوْرٍ عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ عَنِ الْمُقَدَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلٍ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ.

فسيدنا رسول الله ﷺ عامل الناس على ما خلقهم الله ﷻ وأقامهم فيه، فأقام بعض الناس في التجريد وأقرهم، وأقام بعض الناس في الأسباب وشجعهم على ذلك.

فإن كنت في الأسباب وأردت أن تخرج إلى التجريد لعلمك أن التجريد مقامه أعلى فهذا من الشهوة الخفية، لذلك قال في هذه الحكمة «إِرَادَتُكَ التَّجْرِيدَ مَعَ إِقَامَةِ اللَّهِ إِيَّاكَ فِي الْأَسْبَابِ مِنَ الشَّهْوَةِ الْخَفِيَّةِ» لأن نفسك تطلعت لمقام أعلى ولم تقنع بما أقامك الله فيه، وهذه شهوة نفس والتفات، وقال الأولياء (ملتفت لا يصل).

وأهل التجريد لا يلتفتون إلا إلى الله ظاهراً وباطناً، وهذا هو حال سيدنا إبراهيم عليه السلام لما جاءه سيدنا جبريل عليه السلام وهو يُرمى بالمنجنيق في النار وسأله أن يساعده فقال سيدنا إبراهيم عليه السلام: (أما إليك فلا، أما ربي فعلمه بحالي يغني عن سؤالي) وهذا من كمال التجريد.

وقد يسأل المريد أو السالك متى أترك التسبب؟ ونجيب على هذا السؤال بما يلي:

أن المريد يترك التسبب وينتقل إلى مقام التجريد بثلاث حالات:

أولاً: أن يترك السبب بإشارة شيخ عارف مربى مجرب، وفي هذا الزمان صار نادراً.

ثانياً: ألا يثمر السبب في يد المريد بحال من الأحوال، أو يعجز عن السبب لمرض أو عارض.

ثالثاً: أن يثمر السبب ولكن بصورة تشغله عن فعل الفرائض.

فلو أثمر السبب معك وانتفع الناس بجهدك في مهنتك مع المحافظة على أداء الفرائض فاستمر على ما أنت عليه؛ لأن الله ﷻ أقامك في الأسباب، فعليك أن تقبلها؛ لأنه أقام العباد فيما أراد، ولقد قيل الرضا بالإقامة عين الكرامة.

قال الشيخ: «وإِرادَتُكَ الْأَسْبَابَ مَعَ إِقَامَةِ اللَّهِ إِيَّاكَ فِي التَّجْرِيدِ انْحِطَاطٌ عَنِ الْهِمَّةِ الْعَلِيَّةِ».

فإن جعلك الله ﷻ من أهل الخدمة، فيجب أن ترضى وتقنع بذلك. فإذا قنعت بما أقامك الله فيه كنت في خدمة الرحمن بالجوارح والأسباب، وتصير أيضاً من أهل الله لرضاك بما أقامك الله فيه.

وإن اختصك الله لمحبه وصرت من المقربين وأردت أن تترك المحبة إلى الخدمة فهذا نزول عن الهمة العلية؛ لأن الله ﷻ ملك والملك له أن يختص من الحاشية قوما لمجالسته وقوما لخدمته، فالقوم الذين يختصهم الله لمجالسته هم أهل محبته يقول: قد كفيتمكم الخدمة ففرغوا لمجالستي ومحادثتي، فهم أهل التجريد الذين اختصهم الله لمحبه؛ فإن أبى بعضهم المحبة والتفت إلى الخدمة نزل عن الهمة العلية، وقد يعرضه ذلك إلى الطرد من حضرة الملك، وكذلك من اختصهم الملك لخدمته وجعلهم من أهل الأسباب فإن التفتوا وتشوفوا أن يكونوا جلساء الملك ومن أهل الحضرة فربما يؤدي ذلك إلى غضب الملك عليهم.

الحكمة الثالثة

سَوَابِقُ الِهِمَمِ لَا تَخْرِقُ أَسْوَارَ الْأَقْدَارِ

شرح الحكمة

في هذه الحكمة تأديب لأهل التجريد، أي كل ما يحصل معك أيها العارف المتجرد فمن الله ﷻ إكراماً لك، وليس بهمتك، فأراد أن يظهر فضله عليك فخلق ونسب إليك، وهذا بقدر الله ﷻ: ﴿وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]. وبمفهوم المخالفة وما هم بنافعين به من أحدٍ إلا بإذن الله.

الحكمة الرابعة

أَرْخَ نَفْسَكَ مِنَ التَّدْبِيرِ، فَمَا قَامَ بِهِ غَيْرُكَ عَنْكَ لَا تَقُمْ بِهِ لِنَفْسِكَ

شرح الحكمة

التدبير: هو الاجتهاد والحرص على أمرٍ من الأمور.

وهو ثلاث أنواع: نوع مذموم، ونوع مطلوب، ونوع مباح.

فالتدبير المطلوب شرعاً هو ما طلبه منك ربك ﷻ. والتدبير المذموم شرعاً هو الذي يكون فيه الحرص والاهتمام وعدم قبول النتيجة إذا وقع خلاف ما تريد فهذا اعتراض على القدر. والتدبير المباح هو التدبير المتعلق

بالأمور الحياتية اليومية، من شراء الطعام والشراب والكسوة وغير ذلك مما يحتاجه الإنسان.

والتدبير محله القلب، وقد يورث الهم، والأسباب محلها الجوارح وقد تؤدي إلى الإجهاد والإعياء إذا جاور الإجهاد.

قال الشيخ «أَرِحْ نَفْسَكَ مِنَ التَّدْبِيرِ» أي خذ بالأسباب ولكن علق قلبك برب الأسباب، فتشغل ظاهره بالأسباب وتعلق قلبك بالمسبب. فتشغل الجوارح بالعبادة وتشغل القلب بالعبودية، فالعبادة ظاهر الأعمال، والعبودية باطن العبد في قلبه من السكون لتدبير الله تعالى، فإن كنت مع الله ﷻ في العبادة بجوارحك والقلب معه سبحانه بالعبودية صارت الروح في حالة العبودية، والعبودية هي الحرية، فالشريعة والحقيقة جناحان يطير بهما المسلم إلى الله ﷻ، فلا يستطيع أن يطير بالحقيقة دون الشريعة، ولا يستطيع أن يطير بالشريعة دون الحقيقة.

فالشريعة أخذ بالأسباب وحركة ونشاط، والطريقة سكون القلب للقسمة الربانية، والحقيقة رؤية الفضل من الله سبحانه ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾ [النحل: ٥٣].

قال الشيخ: «فَمَا قَامَ بِهِ غَيْرُكَ عَنْكَ لَا تَقُمْ بِهِ لِنَفْسِكَ» قال الله ﷻ: ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢]، فحقيقة الإيمان أن الله هو الذي يدبر الأمر، وهو ﷻ الرازق، وقال ﷻ في آية: ﴿وَلَا تَقْنَلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ أَمْثَلِي نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال في آية ثالثة: ﴿وَلَا تَقْنَلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقِي نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١].

فهذه الآيات العظيمة إنما ذكرها الله تعالى لنا في القرآن لكي ننتبه ونسلم الأمر إليه، فكل شيء في الكون منه، وهو المتصرف فيه سبحانه. ولذلك قال ﷺ ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]. فإذا كان الله هو المدبر فيأياك أن تدبر بقلبك وتحمل الهم، فكن عبداً لمولاك ولا تكن لنفسك.

الحكمة الخامسة

اجْتَهِدْكَ فِيمَا ضَمِنَ لَكَ وَتَقْصِرْكَ فِيمَا طُلِبَ مِنْكَ دَلِيلٌ عَلَى انْطِمَاسِ
الْبَصِيرَةِ مِنْكَ

شرح الحكمة

بعد أن أرشدك وعلمك أن التدبير المباح هو: التدبير في أمور الدنيا بالأخذ بالأسباب المتاحة والمباحة، مع عدم الجزم بتحقيق ما تريد، وذلك لدوام الفقر إلى الله ﷻ والرضا بقضائه المغيب، والتدبير مع الجزم والهم يؤدي إلى الإجهاد والاكْتئاب، والاجتهاد قد يكون في أمور مضمونة لك وقد يكون في أمور غير مضمونة لك، فإذا اجتهدت فيما ضمن لك وتركت ما لم يُضمن لك فهذا دليل على انطماس البصيرة.

قال الشيخ: «اجتهادك فيما ضُمن لك» يعني بذل الجهد والطاقة والوسع فيما ضمن لك «وتقصيرك فيما طُلِبَ مِنْكَ دَلِيلٌ عَلَى انْطِمَاسِ
الْبَصِيرَةِ مِنْكَ».

والبصيرة هي عين القلب، أي عين الباطن التي تنظر في أقدار الله في العباد، أو هي العين التي تنظر إلى أفعال الله في العباد، والتي تنظر إلى المكون عَلَيْكَ، فيصير القلب ينظر إلى المكون والعين تنظر إلى الأكوان.

فإذا انطمست البصيرة، التفتت إلى الأكوان واجتهدت فيها، وانشغلت فيما ضمن لك منها، ولم تشتغل فيما لم يضمن لك من تحصيل أفعال الطاعات والعبادات وهذا دليل على انطماس البصيرة. فقد ضمن رزقك وأجلك وطلب منك السعي والهمة.

الحكمة السادسة

لَا يَكُنْ تَأَخُّرُ أَمَدِ الْعَطَاءِ مَعَ الْإِلْحَاجِ فِي الدُّعَاءِ مُوجِباً لِيَأْسِكَ. فَهُوَ ضَمِنَ لَكَ الْإِجَابَةَ فِيمَا يَخْتَارُهُ لَكَ لَا فِيمَا تَخْتَارُهُ لِنَفْسِكَ. وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي يُرِيدُ لَا فِي الْوَقْتِ الَّذِي تُرِيدُ

شرح الحكمة

قد يؤخر الله عَلَيْكَ الاستجابة لدعائك رحمة بك، فلو أعطاك ما تطلب في دعائك فقد تسيء استخدامه فيصير بلاء عليك، فيؤخره لك رحمة بك، وقد يبدل الأمر الذي تطلبه إلى أمر آخر خير لك. فهو سبحانه يعطيك ما يريد لا ما تريد، وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد، ومع ذلك كله يجب عليك أن تستمر في الدعاء؛ لأن الدعاء عبادة وعبودية وافتقار إلى الله عَلَيْكَ، وتدعو مع كمال الرضا بقضاء الله عَلَيْكَ والله يقول ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ

بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]

الحكمة السابعة

لَا يُشَكِّكَ فِي الْوَعْدِ عَدَمُ وَقُوعِ الْمَوْعِدِ، وَإِنْ تَعَيَّنَ زَمَنُهُ؛ لِئَلَّا يَكُونَ
ذَلِكَ قَدْحًا فِي بَصِيرَتِكَ وَإِخْمَادًا لِنُورِ سَرِيرَتِكَ

شرح الحكمة

«لَا يُشَكِّكَ فِي الْوَعْدِ» أي وعد الله ﷻ، والوعد يأتي من الله عن طريق الوحي للأنبياء، والإلهام المتكرر للأولياء، وعلى لسان الشيخ للمريدين. فإذا وعدك الله تعالى وتأخر الوعد فلا تتهم ربك، فقد يكون العيب فيك ومنك، أي وعدك ﷻ فركنت للوعد، فمنعك الوعد رحمة بك، وهو سبحانه يريدك ألا تترك لسواه، فيمنعك الوعد حتى تعود إليه سبحانه بكمال الافتقار، فيجدد لك الوعد، فإن ركنت للوعد منعك وإن لم تركز تحقق ليطمئنك.

قال الشيخ: «وَإِنْ تَعَيَّنَ زَمَنُهُ؛ لِئَلَّا يَكُونَ ذَلِكَ قَدْحًا فِي بَصِيرَتِكَ وَإِخْمَادًا لِنُورِ سَرِيرَتِكَ» وهذا هو خلق الأنبياء عليهم السلام، وانظر إلى سيدنا موسى ﷺ حين دعا على فرعون وملائته وقال: ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] فقال له الله تعالى ﴿قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩] أي وعده بالاستجابة ولا يخلف الله وعده، لكن

هل تعلم متى تحقق هذا الوعد واستجاب الله له؟ بعد أربعين سنة من قوله جل جلاله ﴿قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا﴾ تحمل الإيذاء من بني إسرائيل أربعين سنة، ولم يقل يا رب أين الوعد؛ لأنه عارف بالله ﷻ وأنه لا يخلف الميعاد.

وسيدنا يوسف ﷺ لما رأى الرؤيا وقصها على أبيه ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] فقال له أبوه سيدنا يعقوب النبي ﷺ الذي تكلم بأمر ربه ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦]، وبعد ذلك ألقى في البئر وصار عبداً، وسُجن لسنين طويلة ولم يشك لحظة في كلام أبيه لأنه كلام نبي مرسل، وتحققت البشارة بعد خمسين سنة فقال ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠] .

وأيضاً حصل هذا الأمر مع سيدنا محمد ﷺ حينما وعده ربه بالنصر في سورة القمر وهي مكية حين قال ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] فتم ذلك بعد العام الثاني من الهجرة.

إذن: إياك أن تشك في وعد الله لك، فتكون مطموس البصيرة، واقتد بالعارفين بالله ﷻ من الأنبياء والصالحين.

الحكمة الثامنة

إِذَا فَتَحَ لَكَ وَجْهَةً مِنَ التَّعَرُّفِ فَلَا تُبَالٍ مَعَهَا إِنَّ قَلَّ عَمَلُكَ. فَإِنَّهُ مَا فَتَحَهَا لَكَ إِلَّا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتَعَرَّفَ إِلَيْكَ؛ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ التَّعَرُّفَ هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ وَالْأَعْمَالَ أَنْتَ مُهْدِيهَا إِلَيْهِ. وَأَيْنَ مَا تَهْدِيهِ إِلَيْهِ مِمَّا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ؟!

شرح الحكمة

خلقك الله سبحانه وأراد أن يتعرف عليك في كل شيء حتى لا تجهله في شيء، والله ﷻ له صفات جلالية وجمالية، فيتعرف عليك سبحانه بالجلال والجمال في آن واحد، فلا صفة تعطل صفة، ولا صفة تمنع ظهور صفة، فالتعارفات الجمالية هي كل ما تهواه النفس وترتاح له، ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وفي أثناء هذه التعارف الجمالية يتعرف عليك بالتعارفات الجلالية، وهي الأشياء الشديدة على النفس كالمرض، وضيق الرزق، وفقدان الأحباب، وفقدان العافية، والظلم الذي يقع عليك، فهذه تعارفات من الله ﷻ لا من الخلق، وإن حدثت أمامك بالعين من الخلق، لكنَّ الفاعل الحقيقي هو الله ﷻ.

فالقبض جلالي والبسط جمالي، والضرر جلالي والنفع جمالي، والقهر جلالي والود جمالي، والله ﷻ يعاملك بالجلال والجمال، فأنت تتقلب بين الجلال والجمال في كل لحظة، منذ أن أذن الله لك بالوجود إلى أن تلقى الله ﷻ.

فأحياناً يغرقك الله ﷻ في الجمال فتجتهد في الأعمال الصالحات والطاعات؛ لأن الإنسان يجتهد في الطاعة إذا اطمأن باله واستراح فكره وصح بدنه، فيهدي الأعمال الصالحة إلى الله تعالى، فالأعمال أنت تهديها إليه في مقابل إحسانه وإنعامه.

وأحياناً يتعرف عليك بالجلال، فيمنعك العمل، فتضجر وهذا تعرف جلاله.

فإذا قبلت ما أورده الله عليك من الجلال بالانبساط والرضا ارتقيت أسرع مما كنت عليه في حال الجمال، فالترقي مع الجلال أسرع من الترقى مع الجمال، فقد يكون عملك ضعيف ولكن مقامك عند الله كبير، فالله ﷻ يوصلك لمقامك العالي بأن يبتليك بمرض وتصبر، ويبتليك بفقدان الأحبة، وفقدان الأموال الكثيرة في عملك، وكل ذلك تعرفات جلالية من الله ﷻ على العبد.

وأحياناً يأتيك التعرف من الله ﷻ بشيء باطني محض لا يراه الناس، كالقبض الذي تشعر به في نفسك أحياناً ومن غير معرفة السبب، وهذا القبض له فائدة عظيمة؛ لأن الإنسان قد يتعرف الله تعالى عليه بالبسط وهو جمال فيتصرف الإنسان معه ببعض الرعونة من النفس، ولذلك العارفون بالله يخافون من البسط أكثر من خوفهم من القبض؛ لأن القبض فيه أدب لذلك قال «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ التَّعَرُّفَ» الجلال «هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ» هدية لك ليجتبيك ويقربك من حضرته «والأعمال» أي الصالحة «أنت مُهديها إليه، وَأَيْنَ مَا تُهْدِيهِ إِلَيْهِ مِمَّا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْكَ».

وأخيراً نقول: إن التعريفات الجلالية مع الله على ثلاثة أقسام:

الأول: طرد وهذا خاص بالكفار.

والثاني: تأديب وتنبية، وهذا لمن أساء الأدب، فيتجلى عليه بتعرف جلاله ليرده عن سوء الأدب.

والثالث: ترقية، لمن حافظ على الآداب واستسلم لمولاه في جميع أحواله.

الحكمة التاسعة

تَنَوَّعَتْ أَجْنَاسُ الْأَعْمَالِ لَتَنَوُّعِ وَاِرْدَاتِ الْأَحْوَالِ

شرح الحكمة

«تَنَوَّعَتْ أَجْنَاسُ الْأَعْمَالِ» أي كثرت أصناف الأعمال التي تطرأ على الجوارح الظاهرة نتيجة «لَتَنَوُّعِ وَاِرْدَاتِ الْأَحْوَالِ».

وواردات الأحوال: هي الأشياء التي تطرأ على القلب، فإذا حل في القلب شيء ظهر على الجوارح.

فالوارد والخاطر والحال، كل هذه الأشياء محلها القلب.

فالخاطر هو الذي يرد على القلب حينما يكون حال القلب بين النور والظلمة، أي بين أفكار ظلمانية من النفس والشيطان، وبين نور يأتيه من الله ﷻ بسبب أعمال الخير، فإذا ورد على القلب شيء وهو في هذه الحالة فهذا خاطر.

والوارد يأتي إلى القلب إذا غلب حال النور على الظلمة، والوارد يستقر في القلب أكثر من الخاطر، كالذي يرد على الماء ليشرب فيجلس مدة حتى يرتوي، ولكنه لا يقيم.

فإن استقر الوارد وأقام سمي مقاما. والقلب سمي قلبا لتقلبه في هذه الواردات.

قال الشيخ: «تَنَوَّعَتْ أَجْنَاسُ الْأَعْمَالِ لَتَنَوُّعِ وَاِرِدَاتِ الْأَحْوَالِ» فإذا جاء الوارد الروحاني من الله ﷻ في القلب يظهر أثره على الجوارح، والواردات النورانية من الله كثيرة.

فالسائررون إلى الله أحوالهم مختلفة، فهناك من يغلب عليه الخوف، وهناك من يغلب عليه الزهد، وهناك من يغلب عليه المشاهدة، وهكذا، وكل منهم على حسب الوارد الذي ورد على قلبه.

الحكمة العاشرة

الأعمال صورٌ قائمةٌ، وأرواحها وجودٌ سرٌّ الإخلاص فيها

شرح الحكمة

قال «الأعمال» أي الأعمال الظاهرة والباطنة «صورٌ قائمةٌ» أي أشباح وتمثيل ليس لها قيمة ولا حركة، وروحها التي تحركها هي وجود سر الإخلاص فيها «وأرواحها وجودٌ سرٌّ الإخلاص فيها»، فالصلاة مثلا لو لم يكن فيها إخلاص فهي جسد من غير روح، أي كالجسد الميت الذي يصير جثة وقد يتعفن، ولكن إذا وجد الإخلاص والخشوع فهي عبادة حية طيبة عطرة.

والإخلاص: هو عدم رؤية الخلق في معاملة الحق، فالعوام قد يراعون الخلق ويطلبون مدح الخلق في أعمالهم، ويطلبون الحظوظ الأخروية أيضاً، والخواص لا يراعون الخلق عند معاملة الحق، ولا يطلبون الحظوظ الدنيوية ويطلبون الحظوظ الأخروية، ثم خواص الخواص يعبدون الله ﷻ لا للحظوظ الدنيوية ولا للحظوظ الأخروية، ولكن للقيام بحقوق العبودية والربوبية، فهؤلاء استشعروا أنهم عبيد وأن لهم رباً، وأن الرب لا بد أن يُعبد، فلما استشعروا ذلك عبدوه باطنا وظاهراً، حتى لو لم تكن هناك جنة ولا نار لعبدوه، فعبدوا الله لأنه أهل لذلك.

قال «الأعمال صُورٌ قَائِمَةٌ، وَأَزْوَاحُهَا وُجُودٌ سِرٌّ الْإِخْلَاصُ فِيهَا» فالإخلاص له سر وهو الصدق.

والصدق: هو التبري من الحول والقوة، واستشعار دوام الفقر إلى الله ﷻ.

فالإخلاص في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] والصدق في ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فالمخلص يعبد الله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي العبادة لله، والصادق ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ نستعين بك مفتقرين إليك في أن تعيننا على العبادة. ففيها مقام المخلصين ومقام الصادقين، فالسالكون مقامهم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ والواصلون مقامهم ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

فالمبتدئون يعبدون الله، والواصلون يعبدون بالله، والمتحقق هو الذي يعبد الله وبالله في آن واحد وهذا حال النبي ﷺ، فالواصل يبدأ العبادة لله وينتهي بالعبادة بالله ثم يعود للعبادة لله وبالله وفي الله.

والعبادة لله هي عبادة أصحاب اليمين، والعبادة بالله هي عبادة المقربين؛ العبادة لله ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]، والعبادة بالله ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، فهذه كلها مقامات في السير إلى الله ﷻ وكل له ثوابه وأجره.

ولما كان الإخلاص سراً ويجب أن تحافظ عليه قال لك في الحكمة التالية:

الحكمة الحادية عشرة

ادْفِنْ وُجُودَكَ فِي أَرْضِ الْخُمُولِ، فَمَا نَبَتَ مِمَّا لَمْ يُدْفَنْ لَا يَتِمُّ نِتَاجُهُ

شرح الحكمة

«ادْفِنْ وُجُودَكَ فِي أَرْضِ الْخُمُولِ» والخمول ضد الشهرة، فتدفن نفسك في مكان لا تشتهر فيه، فلا تعبد الله طلباً للشهرة، وهي الحظوظ الدنيوية، كالكرامات وتنور الوجه والإشراقات وإقبال الناس وتقبييل اليد فهذا من حظوظ النفس؛ لأن الإخلاص عدم مراعاة السوى، والشهرة مراعاة السوى.

قال «فَمَا نَبَتَ مِمَّا لَمْ يُدْفَنْ لَا يَتِمُّ نِتَاجُهُ» فالبذرة التي على السطح لا تثمر، والبذرة التي دفنت في الأرض تثمر وتصبح شجرة، لذلك الإخلاص مدفون في أرض قلبك لا يعلمه شيطان فيفسده، ولا يراه ملك فيكتبه، فلا يعلمه إلا ربك ﷻ.

ولقد قال سيدنا عيسى بن مريم عليهما السلام للحواريين: (أتريدون أن تنبت الحكمة في قلوبكم؟) قالوا: بلى قال: (إذن كونوا أرضاً، فإن الزرع لا ينبت إلا بالأرض) أي تواضعوا فإن الماء يسقي الأرض المنخفضة.

والله تعالى يقول ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢] فكلما تواضعت كلما ارتفعت عند ربك، ولذلك قال سبحانه ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩] لأن السجود فيه الخضوع والذلة والتواضع، فكلما تواضعت قربت من الله ﷻ، وكلما تكبرت بعدت عن الله، فإذا سجد القلب اقترب من الرحمن، ولا يسجد القلب إلا إذا استشعر بالضعف والفقر لله ﷻ، وعدم المزية على الخلق؛ لأن ما بك من نعمة فمن الله لا من نفسك.

وديدن الصالحين الخفاء، ونبهنا لذلك سيدنا محمد ﷺ حين قال «كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ مِنْهُمْ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ»^(١)، وفي رواية مسلم «رُبَّ أَشْعَثٍ، مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ»^(٢)، فكم تدل على الكثرة، ورب تدل على القلة، ومجموع الروايتين يطابق قوله تعالى في وصف المقربين ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۝ ١٣ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ۝ ١٤﴾ [الواقعة: ١٣-١٤].

فهؤلاء هم أهل الحضرة، الذين لم يطلبوا مدح الخلق وثنائهم، ولم يطلبوا ظهور الكرامات، بل كل مقصودهم رضا مولا هم.

(١) الترمذي (٤٢٢٧).

(٢) مسلم (١٣٨).

فاحذر من طلب الشهرة في عبادتك وعلمك وطريقك، لذلك قال أحد العارفين (الولي يستحي من الكرامة كما تستحي العذراء من حيضتها)^(١) لأنها ستنقله من الخمول للذكر عند الناس، وتنقله من الخمول للشهرة، وهذا يحول بينه وبين الوصول للحق.

الحكمة الثانية عشرة

ما نفع القلب شيءٌ مثل غُرْلَةٍ يَدْخُلُ بِهَا مَيْدَانُ فِكْرَةٍ.

شرح الحكمة

أمرنا الله سبحانه بالقرآن والسنة بالتزكية ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، يتلو ويعلم ويطبق ما يتلوه، فالكتاب هو القرآن، والحكمة هي السنة، ومقصودنا من هذه الآية قوله ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ فالتزكية غايتنا من قراءة وشرح مثل هذه الكتب، كالرسالة القشيرية، ومنازل السائرين للهروي، والحكم العطائية.

وتكلم علماء القلوب، وعلماء الطريقة والحقيقة في تزكية النفوس، وكما يجب على المسلم الجلوس مع علماء الشريعة لتعلم فقه الصلاة، وفقه الصيام، وفقه الحج والمعاملات، وفقه الزواج والطلاق، وغير ذلك، فيجب عليه أيضا أن يجلس مع علماء الطريقة والحقيقة، الذين جاءوا

(١) هذا القول هو لسيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه.

ليخاطبوا باطن الإنسان. فعلماء الشريعة خاطبوا ظاهر الإنسان، وعلماء الحقيقة والطريقة خاطبوا باطن الإنسان، ورسول الله ﷺ جاء ليخاطب الظاهر والباطن، فعلماء الشريعة وعلماء الطريقة جميعهم يأخذون من رسول الله ﷺ.

وكلهم من رسول الله ملتس رشفاً من البحر أو غرقاً من الديم^(١)

وتعددت الطرق الموصلة إلى الله بسبب تعدد أمراض القلوب، وتعدد طباع الناس، وتعدد الحجب التي تحجب الإنسان عن ربه، والله ﷻ أراد أن يتعرف عليك في كل شيء حتى لا تجهله في شيء ﷻ.

ومن بين الطرق التي سنّها رسول الله ﷺ للوصول إلى الله العزلة.

والعزلة: طريقة سنّها رسول الله ﷺ وفعلها الأنبياء السابقون، وفعلها الصالحون من قبل. فأهل الكهف لم يكونوا أنبياء ولكن اعتزلوا ﴿وَإِذْ أَعَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ فَأَوَّأَ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦]، فلما اعتزلوا قومهم لأجل الله ﷻ، جعلهم الله ﷻ آية على مر العصور، فاكسبوا من العزلة الرفعة، والولاية، والمعرفة، ثم بعد ذلك الشهرة.

فالعزلة ليست بدعة لم تحدث من قبل، بل فعلها الأنبياء السابقون، ومنهم سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿فَلَمَّا أَعَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩].

(١) بيت من قصيدة البردة للأمام البوصيري

وسيدنا رسول الله ﷺ اعتزل في غار حراء الليالي ذوات العدد ﷺ، فلما اعتزل ﷺ وعبد ربه بالتفكر جاءه الوحي ونبي وأرسل للعالمين، فالعزلة عن الناس غنيمة، ولكن لا بد أن تتعلم قبل أن تعتزل.

فلا يُنصح بالعزلة إلا لمن تعلم فقه العبادات، فتجلس مع علماء الشريعة لتتقي ظاهره، ولا ينقى الباطن إلا ببقاء الظاهر. والإنسان العاقل يبدأ بتنقية ظاهره حتى يصل إلى اللب. قال الله ﷻ ﴿وَبَايَكَ فَطَحِرًا ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهُجْرًا ۝٥﴾ [المدثر: ٤-٥] وثوبك هو بدنك.

فبدنك هو ثوبك الذي ألبسك الله ﷻ إياه، وأدخل باطنك فيه. فيجب عليك أن تتطهر أولاً في الظاهر ليتطهر الباطن. ولا يطهر الظاهر إلا بطهارة الباطن ولا يطهر الباطن إلا بطهارة الظاهر فكل منهما متوقف على الآخر. فيجب على من يريد العزلة تعلم الفقه وقراءة القرآن، ثم بعد ذلك يجب أن تكون العزلة بالإذن من الشيخ المربي، وإن لم يوجد الشيخ المربي فننصح الناس في هذا الزمان بالعزلة التي سنّها النبي ﷺ لأمته، ومنها الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان، فهو نوع من العزلة المشروعة عن رسول الله ﷺ، وفيها تعليم لمن يريد أن يعتزل للعبادة.

وعلى المعتزل أن يعتقد في نفسه أنه بعزلته يكف الناس عن أذاه ومساويه؛ لأنه لو اعتقد أنه يتجنب أذى الناس بعزلته سيكون قد زكى نفسه على الناس، واعتقد في نفسه الخصوصية، فيكون اعتزاله تكبراً، والعزلة لا تثمر إلا بالتواضع، فاتهم نفسك في العزلة؛ لأن المريض هو الذي يعتزل عن الصحيح حتى لا ينقل العدوى له.

أما العزلة التي سنّها علماء الطريقة والحقيقة فهي: أن تعتزل في مكان لا ترى فيه أحداً ولا يراك أحد. واعلم أن الطريق إلى الله بالصمت والسهرة والجوع والعزلة. وكل هذا ورد عن النبي ﷺ.

فالجوع قال عنه النبي ﷺ: «مَا مَلَأَ آدَمِيَّ وَعَاءٌ شَرًّا مِنْ بَطْنٍ حَسْبُ الْآدَمِيِّ لُقَيْمَاتٌ يَقْمَنَ صُلْبُهُ فَإِنْ غَلَبَتِ الْآدَمِيَّ نَفْسُهُ فَتُلْثُ لِلطَّعَامِ وَتُلْثُ لِلشَّرَابِ وَتُلْثُ لِلنَّفْسِ»^(١) فرسول الله ﷺ حض على عدم امتلاء المعدة، وفرض الصيام على المسلمين، والصيام جوع، فهو طريق مجرب يوصل إلى الله عز وجل.

والرسول ﷺ فرض عليه شهر رمضان، ولم يكتفِ ﷺ بصيام رمضان كفريضة، بل سن سنناً كثيرة في الصيام، ليعتاد الإنسان على الجوع. فإذا كان الإنسان جائعاً تلمع في قلبه الأفكار وهذا مجرب.

فالرسول ﷺ جاع، وربط الحجر على بطنه وكذلك الصحابة. وكان ﷺ يصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع، ويصوم ثلاثة أيام الأول من الشهر، وثلاثة أيام الأواسط وثلاث أيام الأخيرة. وإذا جاء شهر رجب وشعبان يكثر من الصيام.

وليس المقصود بالجوع هو الامتناع عن الطعام بالكلية، ولكن معناه ألا تأكل حتى تجوع، وإذا أكلت لا تشبع، ولا تأكل كل ما تشتهي، بل دع ذلك لقدّر الله ﷻ، لأن النبي ﷺ كان يحب اللحم ولكنه لا يطلبه، بل إن وجده أكل وإن لم يجده رضى بالموجود ولا يطلب المفقود، ولمّا لم يجد

(١) ابن ماجه (٣٣٤٩)، ابن حبان (٥٢٣٦)

في داره إلا الخل قال نعم الإدام الخل. وكذلك سيدنا عمر رضي الله عنه نصح رجلا يشتري طعاما قائلا أفكلما اشتهيت اشتريت.

ثم الصمت، والصمت له دليل من الكتاب والسنة، وهو موجود في الشرائع السابقة كانوا يتعبدون بالصمت ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦]، وقال الحكماء: (إذا كان الكلام من ذهب فالسكوت من فضة) وهذه حكمة أيدها الشرع، قال النبي ﷺ: «وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»^(١).

ثم السهر: وقد سن النبي ﷺ قيام الليل والتهجد. بل أثنى الله ﻋَﻠَيْهِ على الذين يقومون الليل فقال ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]. وقال سبحانه ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَسْخَرُهُمْ يُسْتَفْزَعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٧-١٨] فالعزلة، والصمت، والجوع، والسهر، من سنة النبي ﷺ. وهذه تحتاج إلى مجاهدات.

وهناك صنف من الأولياء يجتبيه الله ﻋَﻠَيْهِمْ قبل أن يسير في هذه المقامات ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣] فيجب عليك أن تمشي مع من ينيب إلى أن يأتيك الاجتباء، لأن الكمال أن يجتمع فيك الجذب والسلوك في آن واحد، ولا يأتي الجذب إلا مع السلوك غالبًا. وأنصح في هذا الزمان بالعزلة مع الجلوة، أي تكون مع الناس مهتما بما يهمهم، مصليا معهم ناصحا لهم، ويكون قلبك مع مولاك ولا تشغل عنه لحظة.

(١) رواه البخاري (٦٠١٨)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» ومسلم (٧٤)، أبو داود (٥١٥٤)، الترمذي (٢٥٠٠)، أحمد (٧٦٢٦).

قال العارفون (الدنيا مثل نهر طالوت من اغترف منه غرفة ارتوى، ومن تجرع منها فلا يرتوي ولا يشبع) قال الله ﷻ ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۖ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، فكل ما تأخذ من الدنيا تزداد عطشاً.

وقالوا إن الدنيا كعصا موسى: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسَىٰ﴾ ١٧ ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَسُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَثَرَبٌ أُخْرَىٰ﴾ ١٨ ﴿قَالَ أَلْقَهَا يَمُوسَىٰ﴾ ١٩ ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ ٢٠ ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ ٢١ ﴿طه: ١٧-٢١﴾ فلما ألقاها وعرف حقيقتها وأنها حية تسعى أخذها بغير خوف. فاعلم أن الدنيا هي عصا سيدنا موسى وهي حية قاتلة إذا دخلت قلبك. ولا يوجد عاقل يدخل حية قاتلة إلى قلبه فتكون سبب هلاكه.

ولذلك ضرب الله تعالى الأمثال في القرآن كي يتعظ المسلمون ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي ۚ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۖ يُضِلُّ بِهِ ۚ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ ۚ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، فلماذا ضرب الله المثل بالبعوضة؟ لأن البعوضة فيها خصلة غريبة، فما دامت البعوضة جائعة فهي نشيطة وبعيدة عن الخطر وفي بر الأمان، فإذا شبعت وامتلىء بطنها بالدم تثقل حركتها فيسهل ضربها فتموت. فقال البعوضة كحال الإنسان مع الدنيا، فما دام الإنسان يأخذ من الدنيا قليلاً سيبقى نشيطاً وفي الأمان، لكن لو امتلأ منها مات قلبه وركن إليها.

وسيدنا رسول الله ﷺ مثل حالنا بحال البعوضة فقال: «مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا» أي البعوض «وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا، وَأَنَا أَخِذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَقْلَتُونَ مِنْ يَدَي»^(١)، واعلم أن الدنيا لا تتخلص منها إلا إذا كنت رجلاً خفيفاً، خفيف المؤنة، خفيف الحمل، وهذا يتم بالصمت الكثير فلا تجعل كلامك إلا في الخير، ويكون صمتك عبرة، وبالجموع وذلك بالصيام على سنة النبي ﷺ، وتجاهد مع نفسك بقطعها عن الإسراف في المباحات.

فالوصول يحتاج إلى السهر والمواظبة على قيام الليل ﴿يَتَأْتِيَهَا الْمُرْمَلُ﴾^(١) ﴿قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢) ﴿فَصَفَهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا﴾^(٣) ﴿أَوْزِدَ عَلَيْهِ وَرَتَلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾^(٤) [المزمل: ١-٤]، والنبي ﷺ حث على قيام الليل، دخل عليه سيدنا عبد الله بن عمر مرة فقال: «نِعَمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ»^(٢) فما سمعها حتى واطب على قيام الليل إلى أن توفاه الله.

(١) رواه مسلم (٢٢٨٥)، عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا، وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا، وَأَنَا أَخِذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَقْلَتُونَ مِنْ يَدَي»

(٢) البخاري (١١٢١) عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، إِذَا رَأَى رُؤْيَا فَصَّهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَمَنَّتْ أَنْ أَرَى رُؤْيَا، فَأَقْصَاهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكُنْتُ غَلَامًا شَابًا، وَكُنْتُ أَنَامُ فِي الْمَسْجِدِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَأَيْتُ فِي النَّوْمِ كَأَنَّ مَلَكَ أَخَذَانِي، فَذَهَبَ بِي إِلَى النَّارِ، فَإِذَا هِيَ مَطْوِيَّةٌ كَطَيِّ الْبُسْرِ وَإِذَا لَهَا قَرْنَانِ وَإِذَا فِيهَا أَنْاسٌ قَدْ عَرَفْتُهُمْ، فَجَعَلْتُ أَقُولُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ، قَالَ: فَلَقِينَا مَلِكَ آخَرَ فَقَالَ لِي: لَمْ تَرُعْ، فَقَصَصْتُهَا عَلَى حَفْصَةَ فَقَصَصْتُهَا حَفْصَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «نِعَمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ» فَكَانَ بَعْدَ لَا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا. مسلم (٢٤٧٩)، الدارمي (٢١٩٨)، أحمد (٦٣٣٠).

ولقد وصف الله عز وجل رسوله ﷺ وأصحابه فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ آلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ (١٧) ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (١٨) ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ﴾ (١٩) [الذاريات: ١٧-١٩]، وجميع المحبين ساهرون، فمحب الدنيا سهران، ومحب الله ورسوله سهران، قال النبي ﷺ: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعُ نَفْسِهِ فَمُعْتَقُهَا أَوْ مُوْبِقُهَا»^(١) فالناس نوعان: إما بائع نفسه للشيطان بالمعاصي فيوبق نفسه ويهلكها، أو بائع نفسه وعمره لله فيعتق نفسه.

الحكمة الثالثة عشرة

كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبُ صُورِ الْأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةً فِي مِرَاتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَرَحُلُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُكْبَلٌ بِشَوَاتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَ حَضْرَةَ اللَّهِ وَهُوَ لَمْ يَتَطَهَّرْ مِنْ جَنَابَةِ غَفْلَاتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَرْجُو أَنْ يَفْهَمَ دَقَائِقَ الْأَسْرَارِ وَهُوَ لَمْ يَتُبْ مِنْ هَفَوَاتِهِ؟!

شرح الحكمة

هذه الحكمة فيها أسئلة استفهام يقصد بها التعجب واستبعاد الأمر الذي يذكره، فمستبعد كل البعد على الإنسان أن تشرق الأنوار في قلبه وصور الأكوان منطبعة في مرآته، لأن القلب له عينان: عين على الأكوان،

(١) مسلم (٢٢٣)، عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُنِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعُ نَفْسِهِ فَمُعْتَقُهَا أَوْ مُوْبِقُهَا»، الترمذي (٣٥٧١)، ابن ماجه (٢٨٠)، احمد (٢٢٩٠٨).

وعين على المكون سبحانه، فإذا نظرت بعين قلبك إلى الأكوان منعت أنوار المكون أن تظهر؛ لأنَّ الأكوان كلها ظلمة لم ينرها إلا وجود الحق فيها.

فالأكوان ظلمة؛ لأن أصلها عدم؛ والنور من الله ﷻ ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] فلو لم ينور السماوات والأرض لصارَت مظلمة، والذي أنارها ظهور نور الحق فيها، فإذا نظرت إلى الأكوان انطبعت صور الأكوان في القلب، وصور الأكوان مظلمة والظلمة تمنع رؤية الأنوار، ولذا أمرك في الحكمة السابقة بالعزلة. ففي العزلة يقل نظرك إلى الأكوان، فيقل تأثير الأكوان على القلب، فتصقل مرآة القلب، والرسول ﷺ يقول: «إن القلوب تصدأ وجلاؤها ذكر الله أو لا إله إلا الله»^(١).

فالمصنف يتعجب ويقول: «كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبُ صُورِ الْأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةً فِي مِرَاتِهِ؟!» فيجب على السالك ألا يمد عينيه إلى ما متع الله ﷻ به الناس في الدنيا، حتى لا تسود مرآة القلب ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعَنَا بِهِ زُفًجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ حَيْرٌ وَابْقَى﴾ [طه: ١٣١]، وسيدنا رسول الله ﷺ عرضت عليه الجبال أن تصير ذهباً في يديه فرفض ﷺ لعلمه أن الأكوان كلها ظلمة.

قال: «كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبُ صُورِ الْأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةً فِي مِرَاتِهِ؟!» فالقلب الحريص على الحصول على الدنيا وزينتها محجوب، ولا تشرق فيه أنوار التوحيد، ولا تظهر فيه شمس المعارف، فتجده في الطاعة لا يشعر بحلاوتها وفي العبادة لا يشعر بجمالها.

(١) الطبراني في المعجم الاوسط (٦٨٩٤)، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للقلوب صدأ»، قالوا: فما جلاؤها يا رسول الله؟ قال: «جلاؤها الاستغفار»، البيهقي في شعب الايمان (١٨٥٩)، بلفظ: فما جلاؤها قال: قراءة القرآن

والرسول ﷺ يقول «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ»^(١) دل على أن الإيمان له حلاوة، ولكن القلب الحريص على أمور الدنيا مظلم. لماذا؟ لأنه حريص على الأكوان. والنبى ﷺ يقول: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدَّرْهِمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ تَعَسَّ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ»^(٢) فعبد الدينار والدرهم والخميصة هو عبد المظاهر، الذي عاش بمظاهر الأكوان فبعد عن المكون.

فأول الخطوات للوصول إلى الله ﷻ الزهد في الدنيا وعدم النظر لما في أيدي الناس، والقناعة بما رزقك الله، فيكفيك الله هم الخلق وهم الرزق؛ لأن هذه الأشياء حجب قوية، تحجب الإنسان عن الله. قال الإمام الشافعي رحمه الله:

علمت أن القناعة رأس الغنى	فصرت بأذيالها متمسك
فلا ذا يراني على بابه	ولا ذا يراني به منهمك
فصرت غنياً بلا درهمٍ	أمر على الناس شبه الملك

(١) البخاري (١٦)، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ»، مسلم (٤٣)، أبو داود (٤٦٨٨)، النسائي (٤٩٨٧)، الترمذي (٢٤٩٤)، ابن ماجه (٤٠٣٣)، احمد (١٢٠٠٢).

(٢) البخاري (٢٩٢٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدَّرْهِمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ تَعَسَّ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعَنَانٍ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَشَعَثَ رَأْسُهُ مُغْبَرَةً قَدَمَاهُ إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنَ لَهُ وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ»، الترمذي (٢٣٧٥)، ابن ماجه (٤١٣٥).

جاء رجل من تجار العراق الأغنياء إلى سيدنا الجنيد البغدادي^(١)، وكان الإمام منقطع للعبادة ومعه بعض الفقراء السالكين المنقطعين للعبادة، ويعيشون على الكفاف وهم راضون بذلك، فقد فطموا أنفسهم من الدنيا. فجاءه التاجر وكان قد سمع عن الجنيد عليه السلام فأعطاه صرة فيها مال كثير، فقال له الجنيد: أعندك غيرها؟ قال: نعم، عندي كثير قال: أتريد غير الذي عندك؟ قال: نعم، قال: إذن خذها فإنك أفقر إليها منا. فالغنى عن الشيء لا به.

ورسول الله ﷺ لما عرضت عليه الدنيا ليستغني بها استغنى عنها بالله، فصار غناه لا يفنى.

إذن: «كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبُ صُورِ الْأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةً فِي مِرَاتِهِ؟!» كيف يشرق هذا القلب الذي هو محط نظر الله ﷻ والدنيا مقيمة فيه، والله ﷻ أغنى الشريكين أن يُشرك به، فإذا نظر إلى قلب العبد فوجد فيه سواه، لا تشرق أنوار الحقائق فيه أبدا ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ۖ فَنَ كَأَن يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ۖ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]. وتنظيف القلب من الدنيا وزينتها بشيئين: كثرة ذكر الله ﷻ، والتعلق بالحبيب المصطفى ﷺ، والطعام الحلال.

(١) سيد الطائفتين هو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي القواريري، أصله من نهاوند ومولده في العراق، ولد سنة نيف وعشرين ومائتين، صحب خاله السري السقطي والحارث المحاسبي، وتفقه على مذهب الإمام الشافعي حتى صار يفتي الناس على مذهب أبي ثور صاحب الإمام الشافعي. قال ابن المنادي عنه: لم يُر في زمانه مثله عفة وعزوف عن الدنيا، كان له دكان في السوق يصلي فيه كل يوم وقت الضحى ثلاث مائة ركعة. كان يقول: علمنا مضبوط بالكتاب والسنة ومن لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به. توفي رضي الله عنه سنة سبع وتسعين ومائتين ودفن في بغداد وله مقام يزار.

فلو ذكرت الله مئات السنين وغُذيت من حرام لا يثمر، فتحري الحلال عبادة يفتقر إليها كثير من المسلمين في هذا الزمان، فالمسلمون الآن يتحرون الكثرة في الرزق دون أن يتحروا الحلال إلا من رحم ربي، والمسلم الذي استقر الإيمان في قلبه، وعرف حقيقة الدنيا، وأن كل ما فوق التراب تراب، وأن الدنيا حلالها حساب وحرامها عقاب، فهذا سيطلب الحلال ولا يرضى بالحرام.

فإذا ذكرت الله كثيرا، مع الأكل من الحلال، ستنجلي مرآة القلب، فتشرق أنوار الحقيقة وأقمار التوحيد في القلوب، وتفتح لك مغاليق الأسرار، فيشرق القلب بأنوار الجبروت والملكوت فلا يرى في الكون إلا الله ﷻ، فلا يحجب بالمكونات عن المكون، ولا بالحركات عن المحرك، ولا بالصناعة عن الصانع، ولا بالخلق عن الخالق، فيرى الله ﷻ في كل شيء، ولا يفقد الله في شيء؛ لأن صور الأكوان انجلت من القلب.

ثم بعد ذلك يتعجب الشيخ ويقول: «أَمْ كَيْفَ يَرْحَلُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُكَبَّلٌ بِشَهَوَاتِهِ؟!» يقول الله ﷻ: ﴿فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، فتترك أرض الحس والأوهام إلى أرض المعاني والحقائق، فتسير في وديان طويلة حتى تصل إلى الله ﷻ؛ لأنك مأمور أن ترحل إلى الله ﷻ أي ترحل من الحس إلى المعنى، ومن الكون إلى المكون، ومن الظاهر إلى الباطن، ومن الأوهام إلى الحقائق.

وفي طريق رحيلك معوقات تمنعك، وتعطلك، وتؤخرك، وهي الشهوات التي تكبلك، الشهوات المتعلقة بشهوة البطن، والفرج،

والمنصب، والجاه، والمال، وحب الظهور، والسيطرة، والتشفي، والانتقام من الأعداء، فكل هذه الشهوات تقسي قلبك وتمنعه من السفر إلى الله ﷻ، والذي يريد أن يصل سريعاً يتخفف من أحماله حتى يسرع الخطى.

والسالك مأمور بالتخفيف من الشهوات الحلال فما بالك بالحرام، فهي تمنع الوصول والحركة إلى الله ﷻ بالكلية، أما الشهوات الحلال كالطعام، والشراب، والنكاح، وغير ذلك، فهي تعطل ولا تمنع، ولذا يقول الله ﷻ ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١] ورسول الله يقول ﷺ: «حَسْبُ الْآدَمِيِّ لَقِيمَاتٌ يُقْمَنَ صَلْبُهُ»^(١) فالتخفيف من الحلال يُعين على الوصول إلى الله ﷻ، وذلك يكون بكثرة الصمت للعبادة، وكثرة ذكر الله، والإصلاح بين المتخاصمين، والنصيحة للمسلمين، وكثرة تلاوة القرآن، فالنبي ﷺ يقول: «أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذَكَرَ اللَّهُ وَمَا وَالَاهُ وَعَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا»^(٢).

قال: «أَمْ كَيْفَ يَرْحَلُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُكَبَّلٌ بِشَهَوَاتِهِ؟!» ولذا يقول أصحاب الحقائق نحن في لذة لو علمها الملوك لقاتلونا عليها، وهي لذة جنة المعارف، وهذا كله بالتقليل من الشهوات المباحة فما بالك بفعل الحرام، ولذا كان أول الطريق إلى الله التوبة من الحرام أولاً، ثم التوبة من الغفلة ثانياً، ثم التوبة من الحضور ثالثاً، ثم التوبة من اليقظة رابعاً، حتى

(١) ابن ماجه (٣٣٤٩) هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْحِمَصِيُّ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَرْبٍ حَدَّثَنِي أُمِّي عَنْ أُمِّهَا أَنَّهَا سَمِعَتْ الْمُقَدَّامَ بْنَ مَعْدٍ يَكْرِبُ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وَعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ حَسْبُ الْآدَمِيِّ لَقِيمَاتٌ يُقْمَنَ صَلْبُهُ فَإِنْ غَلَبَتْ الْآدَمِيَّ نَفْسُهُ فَتُلْثُ لِلطَّعَامِ وَتُلْثُ لِلشَّرَابِ وَتُلْثُ لِلنَّفْسِ».

(٢) الترمذي (٢٣٢٢)، ابن ماجه (٤١١٢).

يصل إلى درجة الفناء، فلا يرى إلا الله ﷻ، وهو الموجود بحق ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

ثم يقول: «أَمْ كَيْفَ يَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَ حَضْرَةَ اللَّهِ وَهُوَ لَمْ يَتَطَهَّرْ مِنْ جَنَابَةِ غَفَلَاتِهِ؟! «فلا يدخل الحاضرة إلا من كان حاضرا في الذكر مع المذكور.

ككيف يدخل إلى هذه الحاضرة المقدسة وهو جنب بجماع الدنيا، فأصبح باطنه جنب، فلا يستطيع أن يدخل إلى حضرة الله إلا بعد أن يغتسل من جنابة غفلاته، قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ أي لا تقربوا صلاة الحاضرة وأنتم سكارى بالدنيا، وأنتم سكارى برؤية السوى، أي سوى الله ﴿وَلَا جُنْبًا﴾ أي بسبب انغماسكم في الدنيا ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾. فترى الإنسان وهو في هذه الحال يطرأ عليه بعض أنوار الذكر، ثم تنطفئ؛ لأنه عابر سبيل، فلا يقيم في الحاضرة، لأن الجنب لا يستطيع أن يمكث في حضرة المسجد.

كذلك القلب الجنب لا يمكث في حضرة الرحمن، ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ تغتسلوا بماء الغيب الذي ينزل من بحار الجبروت إلى أنوار الملكوت فيسير في أودية القلوب، فتظهر ينابيع الحكمة؛ لأن من القلوب صخور وأراضي ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] فالقلوب صخور ﴿كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ﴾ [البقرة: ٧٤] أي من القلوب التي هي كالحجارة، كالأرض التي تحتاج لماء الغيب فينبت فيها المعرفة بالله، ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٧٤]

أنهار المعرفة بالله ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْفَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ [البقرة: ٧٤] ماء الهداية ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، بكمال الحضور في الحضرة، فيسجد القلب فلا يرفع رأسه أبدا وهذا الهبوط من خشية الله.

ولذا ينزل ماء الغيب على أرض القلب القاسية ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ [الرعد: ١٧] فينزل ماء الغيوب على القلب فيزيل ما به من زبد، ويزيل ما به من أدران الشهوات والأكوان، فيزيلها الله ﷻ بتوفيقه من قلوب من شاء من عباده فتستنير القلوب ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، أرض المعرفة حيث تمكنت المعرفة من القلوب.

وإذا لم ينزل ماء الغيب على قلبك فعليك التيمم بالصعيد ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣] والتيمم يكون بالعبادات الظاهرة والباطنة؛ لأن الصعيد نوعان: تراب وصخر، والتراب كالعبادات الظاهرة؛ لأن العبادات الظاهرة من صلاة وصيام وزكاة وحج وذكر باللسان لها أثر كأثر التراب، فأنت تتيمم بالأعمال الظاهرة حتى يمن الله عليك بماء الغيب الذي يغسل جنابة القلب، فتصل إلى حضرة الله ﷻ.

ويكون التيمم بالصخر لما فيه من قوة؛ لأنك تحتاج إلى همة وقوة للتخلص أمراض القلب، والمقصود العبادات الباطنة من ترك الحسد،

والحرص، والزهد في الدنيا، وترك حب الظهور بالخمول، واستواء المدح والذم من العامة، وتحري الحلال، وغير ذلك من أعمال القلوب.

فإذا تطهر القلب من جنابة الغفلات، سجد إلى الرحمن فلا يرفع رأسه أبداً، وهذا هو الفتح الحقيقي، قال الله ﷻ ﴿أَوْمَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ماء الدنيا وماء الجبروت، فالقلب بغير ماء الدنيا ميت ظاهراً، وبغير ماء الملكوت ميت باطناً.

ثم قال الشيخ: «أَمْ كَيْفَ يَرْجُو أَنْ يَفْهَمَ دَقَائِقَ الْأَسْرَارِ وَهُوَ لَمْ يَتَّبِعْ مِنْ هَفَوَاتِهِ؟!» فإذا حلت المعرفة بالله ﷻ في القلب حلت فيه دقائق الأسرار، أي: أسرار الروح وبعض أسرار الأقدار، وبعض أسرار الملك والملكوت والجبروت، وبعض أسرار الإرادة والمشية، فتندح فيه أسرار المعارف ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] فتتفجر العلوم الوهية في القلب، وهي من الله ﷻ.

فكيف تتعجل العلوم الوهية وفهم دقائق الأسرار وأنت لم تتب من هفواتك، وهي التفاتات القلب إلى سواه أثناء السير إليه ﷻ، فالهفوات تمنع الفهم عن الله، والشهوات تكبلك فتمنع السير إلى الله، وانغماس القلب في الدنيا يؤدي إلى جنابة القلب فيمنعه من الدخول في الحضرة، فوجب التوبة من ذلك كله.

الحكمة الرابعة عشرة

الْكُونُ كُلُّهُ ظُلْمَةٌ، وَإِنَّمَا أَنَارَهُ ظُهُورُ الْحَقِّ فِيهِ، فَمَنْ رَأَى الْكُونَ وَلَمْ
يَشْهَدْ فِيهِ أَوْ عِنْدَهُ أَوْ قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ فَقَدْ أَعْوَزَهُ وَجُودُ الْأَنْوَارِ، وَحُجِبَتْ
عَنْهُ شُمُوسُ الْمَعَارِفِ بِسُحُبِ الْأَثَارِ.

شرح الحكمة

سُمي الكون كوناً؛ لأن الله ﷻ قال له كن فكان، فهو يدل على إرادة الله ﷻ في عالم الجبروت، فالكون نوعان: غيب وشهادة، وعالم الغيب وهو العالم الذي لا نراه، كعالم الملائكة والجنة والنار والسموات وما فيها، والصراط والحوض والميزان وغيرها.

فالذي لا تراه بحواسك يُسمى عالم الغيب ويُسمى عالم الملكوت، أما الذي تراه في عالم الشهادة بحواسك كالشمس، والقمر، والنجوم، والحيوانات، والنباتات، والإنس وغير ذلك مما تراه بحواسك يسمى (عالم الملك) فالكون ملك وملكوت، فالملك هو عالم الظهور في الحواس الدنيوية، والملكوت هو عالم الغيب حيث لا تطلع عليه بحواسك الدنيوية، ويمكن أن يطلعه الله ﷻ لبعض الخواص من عباده، فبعض الصحابة وبعض الأولياء رأى الملائكة وهم من عالم الغيب.

فسيدنا عمران بن حصين رضي الله عنه كانت تعوده الملائكة في مرضه وكان يراهم عياناً، وصحابي آخر كان يقرأ سورة البقرة في صلاة الليل، وكان

يربط الفرس بجوار ابنه الذي ينام بجوار الفرس، فلما أخذ في القراءة نزل نور من السماء فصهل الفرس وتحرك، فخفف القراءة مخافة أن يضر الفرس بابنه الذي ينام بجواره، ثم هدأ الفرس فعاود القراءة، فعاد النور فصهل الفرس فخفف القراءة، ثم عاد للقراءة فعاد النور فصهل الفرس، فترك القراءة وأنهى صلاته وأخبر النبي ﷺ في صلاة الفجر بما حدث له قال: (تلك السكينة) والسكينة ملائكة «وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحْتَ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لَا تَتَوَارَى مِنْهُمْ»^(١).

فروية عالم الغيب في الدنيا غير مستبعدة شرعاً ولا عقلاً، ففي الشرع وردت في تلك الأحاديث. والعقل لا يحيل رؤية الموجود، وعالم الملكوت موجود.

فكلمة الكون تشمل عالم الملك وعالم الملكوت، وإذا ذكرت في كتب أهل التصوف فيقصد به كل ما سوى الله ﷻ.

إذن: يوجد كون ومكون، أحدهما وجودي بذاته وهو الله ﷻ فلا يتوقف وجوده على غيره، فهو قائم بذاته، أما الكون فهو موجودٌ بغيره، أو

(١) البخاري (٥٠١٨) عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ، قَالَ: بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَفَرَسُهُ مَرْبُوطَةٌ عِنْدَهُ، إِذْ جَالَتِ الْفَرَسُ فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ، فَقَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ، فَسَكَتَ وَسَكَتَتِ الْفَرَسُ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ فَأَنْصَرَفَ، وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا، فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ فَلَمَّا اجْتَرَهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، حَتَّى مَا يَرَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، قَالَ: فَاشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى، وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَأَنْصَرَفْتُ إِلَيْهِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ، فَخَرَجْتُ حَتَّى لَا أَرَاهَا، قَالَ: «وَتَدْرِي مَا ذَٰلِكَ؟»، قَالَ: لَا، قَالَ: «تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ دَنَتْ لِمُصَوْنِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحْتَ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لَا تَتَوَارَى مِنْهُمْ»، قَالَ ابْنُ الْهَادِ: وَحَدَّثَنِي هَذَا الْحَدِيثَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَبَّابٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ.

موجود بمكونه، ولو امتنع المكون عن مدد الإيجاد لعاد الكون للعدم كما كان، فالله أوجده وأمده بالوجود، ففي كل لحظة خلقٍ جديد.

مثال: أنت الآن تغيرت عما كنت عليه منذ لحظات؛ لأن الله ﷻ يمدك في كل لحظة لتستمر في الوجود، ولولا الإمداد لفنيت، ولما علم العلماء العارفون بالله هذا كمل افتقارهم إلى الله ﷻ، فكانوا لا يستغنون عن الله طرفة عين.

أما أهل الحجاب فيظنون أن الأمور تسير بذاتها؛ لأنهم حجبا بالأسباب عن المسبب وبتوالي الإمداد، والسبب غير مؤثر بذاته، ولكن الله ﷻ جعله علامة ولم يجعله مؤثر؛ لأنه الفاعل عز وجل، فالنار لا تحرق بذاتها، ولكن بخلق الإحراق معها، فالله يخلق الإحراق مع النار إذا لمست النار شيئا، ولو لم يخلق الإحراق لا تحرق، كما حدث مع سيدنا إبراهيم عليه السلام، فلو كانت النار تحرق بذاتها لاحترق سيدنا إبراهيم عليه السلام، ولو كانت السكين تذبح بذاتها بمجرد حركتها على المذبوح لذبح سيدنا إسماعيل عليه السلام، وكل هذا يدل على أن الله يخلق الذبح مع حركة السكين على المذبوح.

وكذلك الطعام لا يشبع بذاته، ولا ينمي الجسد بذاته، ولكن الله ﷻ يخلق الشبع مع دخول الطعام في جسدك، وأحيانا لا يخلق الله ﷻ الشبع مع إدخال الطعام فيصاب الإنسان بالنعاس فيأكل ولا يشبع، ليبين الله ﷻ لك أن الأسباب لا تفعل بذاتها.

ولذا يقول سيدي أحمد الدردير^(١) في الخريدة البهية التي شرحناها منذ عامين:

ومن يقل بالطبع أو بالعلة فذاك كفر عند أهل الملة

ومن يقل بأن الأشياء تفعل بطبيعتها فقد كفر، فالله هو الفاعل، والطبيعة لا تفعل شيئاً (ومن يقل بالطبع) الكافر لا يرى إلا الأسباب لأنه لم ير إلا الكون، فحُجب بالكون عن المكون، فظن أن الأسباب فاعلة فكفر بالله، أما المؤمن فلا يرى أن هناك فاعلاً إلا الله ﷻ.

والعلة: عند الفلاسفة هو أن يكون هناك شيء ناتجاً عن شيء، والعلاقة بينهما علاقة إجبارية وغير اختيارية.

(١) العالم العلامة، أوجد وقته في الفنون العقلية والنقلية، شيخ الإسلام وبركة الأنام، أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي حامد العدوي المالكي الأزهرى الخلوتي الشهير بالدردير، ولد في بني عدي كما أخبر عن نفسه (١١٢٧ هـ) وحفظ القرآن وجوده، وحبب إليه طلب العلم، وحضر دروس العلماء، وسمع الأولية عن الشيخ محمد الدفري، والحديث من الشيخ شمس الدين الحفني وبه تخرج في طريق القوم فسلك على يديه وصار من أكبر خلفائه في الطريقة الخلوتية. أفنى عمره في خدمة شيوخه مع كمال العناية والزهد والعفة والديانة، وحضر دروس الملوي والجوهري.

أسندت له رئاسة المالكية في وقته، وصار مفتياً وناظراً وشيخاً على طائفة الرواق، بل شيخاً على أهل مصر بأسرها في وقته. كان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ويصدق بالحق ولا تأخذه في الله لومة لائم، وله في السعي على الخير يد بيضاء.

مرض ولزم الفراش مدة حتى توفي في ثالث شهر ربيع الأول (١٢٠١ هـ) وصلي عليه في الأزهر في مشهد عظيم ودفن بزاويته، وبني على قبره مسجد تقام فيه الصلوات وخطب الجمعة ودروس العلم.

مثال: أنت عندما ولدت صار أبوك والدًا وأنت ابنًا، فهذه علاقة إجبارية، فالبنوة والأبوة علاقة علة ومعلول، أي علاقة إجبارية، فقال الفلاسفة ما دام الله خالقًا فلا بد أن يكون هناك خلق، وطالما أن الله خالق وصفة الخالقية فيه قديمة إذن الكون قديم، فقالوا بقدم الأكوان فكفروا.

وهؤلاء الفلاسفة قالوا بقدم الأكوان، لأنهم اعتبروا العلاقة بين الخالق والمخلوق علاقة علة ومعلول وعلاقة إجبارية، أي لو لم يكن الله خالقًا ما كان هناك مخلوق، ولو انتفى المخلوق ما كان هناك خالق، فوجب وجود الخالق والمخلوق في آن واحد منذ القدم، فقالوا بقدم الأكوان فأثبتوا الشريك مع الله ﷻ، والرسول ﷺ يقول: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مَعَهُ»^(١) فلما قالوا بالعلة كفروا.

والصحيح أن العلاقة بين الله ﷻ والأكوان علاقة اختيار وليست علاقة علة ومعلول ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]، والله خالق ولو لم يكن هناك خلق، والصفات منها قديمة، ومنها ما تعلقت بالحدث، فالصفة القديمة عندما تعلقت بها الإرادة ظهر الحادث، وعندما لم تتعلق بها الإرادة لم تظهر بالحوادث.

(١) البخاري (٣١٩١) عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحَرَّرٍ، أَنَّهُ حَدَّثَهُ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَعَقَلْتُ نَاقَتِي بِالْبَابِ، فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ: «اقْبُلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ»، قَالُوا: قَدْ بَشَّرْنَا فَأَعْطِنَا، مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، فَقَالَ: «اقْبُلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ، إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ»، قَالُوا: قَدْ قَبِلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالُوا: جِئْنَاكَ نَسْأَلُكَ [ص: ١٠٦] عَنْ هَذَا الْأَمْرِ؟ قَالَ: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ» فَتَادَى مُنَادٍ: ذَهَبَتْ نَاقَتُكَ يَا ابْنَ الْحُصَيْنِ، فَانْطَلَقْتُ، فَإِذَا هِيَ يَقْطَعُ دُونَهَا السَّرَابُ، فَوَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ تَرَكْتُهَا،

فالله خالق (صفة قديمة) بقدومه ﷻ لما تعلقت الصفة القديمة بالإرادة جاءت القدرة فأوجدت الإرادة، فتعلقت الصفة القديمة بالإرادة، والإرادة بالقدرة فظهر الخلق، فليست علاقة علة ومعلول ولذا يقول:

ومن يقل بالطبع أو بالعلة فذاك كفر عند أهل الملة

والله ﷻ بين أدلة بطلان قول الفلاسفة فقال: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]، وأنكر الطبع: فلو كانت الطبيعة فاعلة ما كان هناك تنوع في الخلق، وربك ﷻ قال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِّبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ [الرعد: ٤] فمكونات الخلق واحدة، لكن الأصناف مختلفة، فالتنوع والألوان واختلاف الطعوم والكل من ماء وطن، كل ذلك يدل على الفاعل المختار، فالطبع لا يعرف التنوع.

والفلاسفة أثبتوا الأكوان مع الله ﷻ، فقالوا أن الوجود هو الله، وطالما لا يوجد وجود إلا بالله، ولا يوجد الله إلا بوجود، إذن: الوجود هو الله، فأثبتوا حلول الله في الأكوان، ونشأت عقائد كثيرة في الحلول بسبب هذا القول.

ولأجل ذلك ظهر أناس واعتقدوا أن الله ﷻ حل في عيسى ابن مريم عليه السلام؛ لأن عيسى موجود، والله حل في كل موجود، وحل في عزيز عليه السلام. ومن الناس من عبد البقر؛ لأنهم اعتقدوا أن الله ﷻ هو الوجود، والوجود هو الله، لكن عند المسلمين فالله ﷻ ذات وهو فاعل مختار، له صفات الكمال، وكان ولم يكن شيء معه، ثم تعلقت إرادته بإيجاد الموجودات فأوجدتها باختياره لا بالعلية.

أما نظرة أهل السنة من علماء التصوف وعلماء أصول الدين وعلماء التوحيد إلى الأكوان، ردًا على الفلاسفة هي كما قال الشيخ: «الْكُونُ كُلُّهُ ظُلْمَةٌ، وَإِنَّمَا أَنَارَهُ ظُهُورُ الْحَقِّ فِيهِ»، «الكون كله ظلمة» لأن الظلمة عدم وعماء، فالكون عدم، ولمّا تعلقت إرادة الله بالأكوان كانت، وتعلقت أنوار الحق بها فظهرت، ولولا ظهور أنوار الحق في الأكوان لبقيت عماء وظلمة وعدمًا ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: ١].

فالله نور السماوات والأرض أي منور السماوات والأرض، والأكوان ظهرت بظهور نور الحق فيها لا بحلول الحق، وانتبه ان كلمة (في ومع وعند وعلى) إذا تعلقت بالله تفقد معناها الظرفي، وتفقد مضمونها الزماني والمكاني؛ لأن الله ﷻ كان قبل الزمان والمكان ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤].

وإذا قرأت كلام الأولياء وقولهم (ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله فيه) ستفهم أنه رأى فعل الله ﷻ في الأكوان، لأن (في) لا تدل على المعنى الظرفي المكاني في هذا الموضع.

ف«الْكُونُ كُلُّهُ ظُلْمَةٌ، وَإِنَّمَا أَنَارَهُ ظُهُورُ الْحَقِّ فِيهِ» فنفرغها من معناها الزماني والمكاني؛ لأنه ﷻ لا يحل فيه، ولكن هو تجلي الصفات.

مثال: الروح في الإنسان تشعر بها فهي ظاهرة، ولكن هل تراها بحواسك؟، فهي قريبة من الجسد، وفي نفس الوقت بعيدة عن الجسد، فهي بعيدة في قربها قريبة في بعدها، وهذا مخلوق خلقه الله ﷻ وكرمه، وجعل له بعض الصفات التي تقرب إلى عقلك الأشياء، حتى تفهم قوله

﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، قرب لا اتصال فيه ولا حلول، فهو قريب بذاته بغير حلول عند أهل المشاهدة، وقريب بصفاته عند أهل الحجاب، أي بقدرته وإحاطته بغير حلول، ولم يقل أحد لا أهل الدليل ولا أهل المشاهدة ولا أهل الحجاب بأن الله حل في الأكوان؛ لأن الأكوان ظلمة عدم فهل يحل في عدم؟!.

الحكمة الخامسة عشرة

مَّا يَدُلُّكَ عَلَىٰ وَجُودِ قَهْرِهِ سُبْحَانَهُ أَنَّ حَجَبَكَ عَنْهُ بِمَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ مَعَهُ.

شرح الحكمة

الله ﷻ هو القهار، وهو القاهر فوق عباده، ومن قاهريته ﷻ حجبك بغير حجاب، فلو كان هناك حجاب لكان الله محجوباً فيكون مقهوراً والله ﷻ قاهر، فيستحيل أن يكون هناك حجاب على الله، ولكن من قاهريته أن حجبك عنه بما ليس موجود معه سبحانه.

كان الله ولم يكن شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان، لم يطرأ عليه تغير بعد الأكوان سبحانه ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصاص: ٨٨]، وكلمة هالك عند علماء اللغة تعني في الحال، وفي الدوام، لأنها اسم فاعل، أي نحن الآن في عدم لولا إمداد الله لنا، فلا تركن لسوى الله ﷻ؛ وإلا ركنت للعدم.

الحكمة السادسة عشرة

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنَّ يَحْبِبُهُ شَيْءٌ وَهُوَ الَّذِي أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ! كَيْفَ يُتَصَوَّرُ
 أَنَّ يَحْبِبُهُ شَيْءٌ وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَ بِكُلِّ شَيْءٍ! كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنَّ يَحْبِبُهُ شَيْءٌ
 وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَ فِي كُلِّ شَيْءٍ!، كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنَّ يَحْبِبُهُ شَيْءٌ وَهُوَ الَّذِي
 ظَهَرَ لِكُلِّ شَيْءٍ! كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنَّ يَحْبِبُهُ شَيْءٌ وَهُوَ الظَّاهِرُ قَبْلَ وُجُودِ
 كُلِّ شَيْءٍ! كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنَّ يَحْبِبُهُ شَيْءٌ وَهُوَ أَظْهَرَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ! كَيْفَ
 يُتَصَوَّرُ أَنَّ يَحْبِبُهُ شَيْءٌ وَهُوَ الْوَاحِدُ الَّذِي لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ! كَيْفَ يُتَصَوَّرُ
 أَنَّ يَحْبِبُهُ شَيْءٌ وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ! وَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنَّ يَحْبِبُهُ
 شَيْءٌ وَلَوْلَاهُ مَا كَانَ وَجُودُ كُلِّ شَيْءٍ! يَا عَجَبًا كَيْفَ يَظْهَرُ الْوُجُودُ فِي
 الْعَدَمِ! أَمْ كَيْفَ يَثْبُتُ الْحَادِثُ مَعَ مَنْ لَهُ وَصْفُ الْقَدَمِ!.

شرح الحكمة

«كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنَّ يَحْبِبُهُ شَيْءٌ وَهُوَ الَّذِي أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ! «لأنه
 الظاهر ولولا ظهوره ما ظهر شيء».

«كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنَّ يَحْبِبُهُ شَيْءٌ وَهُوَ أَظْهَرَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ! «أراد أن يبين
 أن العبد هو المحبوب، أما الله ﷻ فلا يحببه شيء».

«كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنَّ يَحْبِبُهُ شَيْءٌ وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ! «
 ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، وهو الذي ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾

[طه:٧]، قرب ليس فيه حلول ولا اتصال، قرب مكانة لا قرب مكان.

«وَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَلَوْلَاهُ مَا كَانَ وُجُودُ كُلِّ شَيْءٍ!»
 ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَهُ، نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، ولولا الله ﷻ ما ظهر أي شيء،
 وكل موجود من أثر وجوده.

«يَا عَجَبًا كَيْفَ يَظْهَرُ الْوُجُودُ فِي الْعَدَمِ؟!» إذا كانت الأكوان عدماً،
 وهي ظلمة لم تظهر إلا بإظهار الله ﷻ لها، فكيف يظهر الله ﷻ في العدم،
 وكيف يجتمع الوجود مع العدم؟ لذلك ربنا ﷻ قال ﴿لَنْ تَرِنِي﴾ وأنت
 محصور في الأكوان التي حقيقتها عدم، فكيف يظهر في العدم وهو
 الموصوف بالقدم.

«أَمْ كَيْفَ يَثْبُتُ الْحَادِثُ مَعَ مَنْ لَهُ وَصْفُ الْقَدَمِ!» ﴿لَنْ تَرِنِي﴾ فسيدنا
 موسى ﷺ حادث ومخلوق، فكيف يثبت المخلوق مع من له وصف
 القدم؟ ولا يجتمع القديم والحادث؛ لأن الحادث ليس له وجود ذاتي، بل
 وجوده بالله لا بنفسه، ولذلك وجود الحادث علامة على وجوده تعالى،
 فهو مع كل شيء ولا شيء معه، لذلك قال سيدنا موسى ﷺ ﴿أَرِنِي﴾
 أَنْظِرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِي ﴿[الأعراف: ١٤٣]﴾ ﴿لَنْ تَرِنِي﴾ محال عقلي في هذه
 الدنيا، ولكن رؤية الله ﷻ ممكنة عقلاً، ولكن في ظروف أخرى ﴿يَوْمَ تَبَدَّلُ
 الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، حيث
 يمن الله ﷻ عليك بجسد في الجنة لا يفنى فتصير باقياً، وعندها يستطيع
 الباقي أن يرى الباقي ولذا قال ﷻ ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾
 [القيامة: ٢٢-٢٣].

أما سيدنا رسول الله ﷺ فجسده ليس كسائر الأجساد وهو موجود بالله لا بالأسباب، بدليل قصة شرح صدره الشريف وخروج قلبه من صدره وهو حي ينظر إليه، حيث لا تنفس ولا دورة دموية، وكذلك أنه ﷺ ولد مختونا مسرورا أي مقطوع السرة، فكيف كان يتغذى وهو في بطن أمه، ولذا كان جسده بالله مباشرة بلا واسطة الأسباب، فكان جسده ليس كسائر الأجساد، فهو باقي بالباقي، فصلح لرؤية مولاه في المعراج في مقام قاب قوسين أو أدنى.

أما في الدنيا فيمكن للعبد أن يرى تجليات الله ﷻ بعيني قلبه، التي هي عين الروح، وهي باقية دائماً، ولذا أهل المشاهدة يرون تجليات الله ﷻ بقلوبهم ولا يرونه بأعينهم؛ لأن أعينهم حادثة.

وهنا وصلك بكل الحكم السابقة إلى حضرة الله عز وجل، ففي الأولى علمك السلوك وألا تعتمد على العمل، وعلمك بعدها أن لا تتمنى غير ما أقامك الله ﷻ فيه، ولا تشغل نفسك بما دبره لك، ولكن اشغل نفسك بما هو مطلوب منك، ثم بعد ذلك لما علمك هذا رقاك إلى معرفة الله ﷻ وأن الله ﷻ موجود معك، معية لا زمان فيها ولا مكان، قريب منك، قرب لا زمان فيه ولا مكان، وأن الله ﷻ ليس بمحجوب بل أنت المحجوب.

فلما وصلت وعلمت ذلك وانكشفت لك الحجب ووصلت إلى الحضرة بدأ يكلمك بعد ذلك على آداب الحضور مع الله.

الحكمة السابعة عشرة

مَا تَرَكَ مِنَ الْجَهْلِ شَيْئًا مَنْ أَرَادَ أَنْ يَحْدُثَ فِي الْوَقْتِ غَيْرَ مَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ فِيهِ.

شرح الحكمة

بدأ الشيخ يذكر أول أدب من آداب الحضرة مع الله ﷻ، والوقت عند هذه الطائفة هو الأحوال التي يقدرها الله على عباده في كل لحظة؛ لأن الأحوال تقع في زمن، والزمن أنت محصور فيه، ويقع عليك وعلى غيرك، وما حولك أقدار لله عز وجل فيسمون هذه الأقدار التي تقع في فترة من الزمن (الوقت).

«مَا تَرَكَ مِنَ الْجَهْلِ شَيْئًا» يعني أجهل بني آدم «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَحْدُثَ فِي الْوَقْتِ» أي أراد أن تظهر أقدار الله ﷻ في لحظة من اللحظات غير التي أرادها الله، والله ﷻ قال: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

فدل على أن ما يحدث في الوقت من أقدار الله تعالى هي إرادة الله ﷻ، فإن تمنيت غير الإرادة أسأت الأدب ولذا قال: «مَا تَرَكَ مِنَ الْجَهْلِ شَيْئًا» والجهل ضد العلم، فالجاهل بالله هو الذي يقول لو كان كذا لكان كذا، يا ليت ما حدث كذا، يا ليتني كنت في الحال الفلاني، يا ليت الله يرفع عني ما أنا فيه وهكذا. فلم يرض عن الله ﷻ، فكيف يرضى الله عنه؟.

ورسول الله ﷺ يقول: «مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»^(١) ولذا كان العارفون بالله لا يريدون تغير حالهم في الوقت، ولكن يسألون الله تحسن الحال تعبدًا وليس كراهية فيما أقامهم الله فيه، وكان أحد العارفين بالله يقول (ما أقامني الله في شيء منذ أربعين عامًا وتمنيت أن أكون في غيره) إن أقامه في المرض رضي، وإن أقامه في الغنى رضي، وإن أقامه في الفقر رضي، وإن أقامه في العافية رضي، وأهل هذه الطائفة يعبدون الله بالنفس؛ لأن النفس علامة الوقت؛ فهم راضون عن الله في كل نفس، ولمّا رضوا عن الله رضي الله عنهم وأرضاهم.

والنبي ﷺ يقول: «وإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِقِسْطِهِ وَعَدْلِهِ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالرَّاحَةَ، وَالْفَرَحَ فِي الرِّضَا وَالْيَقِينَ، جَعَلَ الِهَمَّ وَالْحُزْنَ فِي السَّخَطِ وَالضُّجْر»^(٢) فالسعادة في الرضا واليقين، لذلك قال أهل هذه الطائفة نحن في سعادة لو علمها الملوك لقاتلونا عليها، وهي سعادة الرضا بالله، والغنى بالله، والفقر لله، والاستغناء عما سوى الله ﷻ، بل كان يرتقي بعضهم إلى

(١) أبو داود (٥٠٧٥) حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ قَالَ أَخْبَرَنِي عَمْرُو أَنَّ سَالِمًا الْفَرَّاءَ حَدَّثَهُ أَنَّ عَبْدَ الْحَمِيدِ مَوْلَى بَنِي هَاشِمٍ حَدَّثَهُ أَنَّ أُمَّهُ حَدَّثَتْهُ وَكَانَتْ تَخْدُمُ بَعْضَ بَنَاتِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ بِنْتَ النَّبِيِّ ﷺ حَدَّثَتْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَعْلَمُهَا فَيَقُولُ قَوْلِي حِينَ تُصْبِحِينَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا فَإِنَّهُ مَنْ قَالَهُنَّ حِينَ يُصْبِحُ حَفِظَ حَتَّى يُمْسِيَ وَمَنْ قَالَهُنَّ حِينَ يُمْسِي حَفِظَ حَتَّى يُصْبِحَ.

(٢) البيهقي في شعب الإيمان (٢٠٤) عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تُرْضِينَ أَحَدًا بِسَخَطِ اللَّهِ، وَلَا تَحْمَدَنَّ أَحَدًا عَلَى فَضْلِ اللَّهِ، وَلَا تَذِمَّنَّ أَحَدًا عَلَى مَا لَمْ يُوْتِكِ اللَّهُ، فَإِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَسُوفُهُ إِلَيْكَ حِرْصٌ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ عَنْكَ كُرْهُ كَارِهِ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِقِسْطِهِ، وَعَدْلِهِ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالرَّاحَةَ، وَالْفَرَحَ فِي الرِّضَا وَالْيَقِينَ، جَعَلَ الِهَمَّ وَالْحُزْنَ فِي السَّخَطِ وَالشَّكِّ»

مرتبة أعلى من الرضا وهي المحبة، أي لا يحب إلا ما أظهره الله في الوقت، فإذا أظهر الله ﷻ له في الوقت تعرف جلاله رضي وأحبه، وإذا تعرف في الوقت تعرف جمالي رضي وأحبه، فلا يتمنى الجلال حين الجمال، ولا يتمنى الجمال حين الجلال، فهو يسير مع الله على ما شاء، كالريشة تسير في الريح حيثما أهبها الله هبطت، لا حركة ولا اختيار لها.

ولذلك عرف العارفون بالله التوكل: (أن تكون مع الله على ما يريد) ولما سئل سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ عن التوكل قال: (من تحقق بآيتي سورة الحديد كان متوكلاً حق التوكل) وهي ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴿﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

لذلك قالوا إن ذرةً من أعمال القلوب تعدل الجبال من أعمال الجوارح، فلو عبت الله ليل نهار وأنت جاهل بالله، معترض على حكم الله، وغير راضٍ عن أقدار الله ﷻ، فأنت في عين الجهل ولذا يقول: «ما ترك من الجهل شيئاً».

فالعارف بالله يعذر بقلبه الناس على ما هم فيه ويأمرهم وينهاهم تشرعاً، فكان ينظر أهل المعرفة إلى أهل المعاصي نظرة بقلوبهم فلا يكرهوا أشخاصهم بقلوبهم؛ لأنها إرادة الله ﷻ، وينهى وينصح بلسانه شريعة؛ لأن الشريعة أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، فيعذره بقلبه ويأمره بلسانه، وهذه هي نظرة النبي ﷺ للكفار عندما أذوه فقال ﷺ: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون» يأمرهم وينهاهم ويدعوهم إلى الإسلام ويعذرهم بقلبه ويدعو

لهم بلسانه ﷺ؛ لأنه ﷺ أعلم الخلق بالله، فأسفرت دعوة النبي في الخلق فأحبه حتى الكفار ﷺ، بل أن كثيرا منهم صاروا أتباعا له وجندا تحت رايته. ولذا تجد العارف بالله المتحقق بهذه الصفة يحبه أهل الطاعة، ويحبه أهل المعصية في آن واحد، فهو محبوب من الكل ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] فلما سألوا ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [٩٦] [مريم: ٩٦]، ولذلك قال سيدنا لوط عليه السلام لقومه ﴿إِنِّي لَعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٨]، ولم يقل لذواتكم وأشخاصكم.

وكان سيدنا عبد الله بن مسعود وسيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقولان (لئن ألحس جمرةً أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت أحب إلي من أن أقول لشيء كان ليته لم يكن أو لشيء لم يكن ليته كان) لأنهم علماء بالله ﷻ.

الحكمة الثامنة عشرة

إِحَالَتُكَ الْأَعْمَالَ عَلَى وُجُودِ الْفَرَاغِ مِنْ رُغُونَاتِ النَّفْسِ

شرح الحكمة

وهذا هو الأدب الثاني من أداب الحضرة، فلما أعلمك أن الله ﷻ لا يُظهر في الوقت إلا ما أَرَادَهُ، وأنه من كمال العلم ألا تريد إلا ما أَرَادَهُ الله ﷻ في الوقت، فابني على ذلك أنه قد يُشغلك بقدره عن الاجتهاد في عبادته.

مثال ذلك: أن يُقدّر الله ﷻ عليك المرض، فتتشغل بالذهاب للأطباء والتداوي، وقد يُقدر عليك عمل بدني فتكون مجهداً في كل وقتك، فيصرفك عن قيام الليل وصيام النهار وتلاوة القرآن والأوراد.

وقلنا في الحكم السابقة إذا فتح الله عليك باباً فلا تطلب أن تخرج منه، بل انتظر واصبر حتى يخرجك منه، ثم إنه أمرك بطاعات معينة في أوقات صعبة من فرائض وسنن وأذكار، فلا تحيل هذه العبادات إلى أوقات الفراغ، أو تقول في نفسك سأقضيها عندما أشفى، فلا تركز للتسويق؛ لأنه من رعونات النفس، بل أطع ربك وقتما دعاك لطاعته، ولا تجعل ما قدره عليك من مرض أو فقر أو غنى أو فراغ أو شغل حجة للتسويق والتأجيل والتفريط، بل اجتهد بقدر طاقتك على قدر ما تسمح لك ظروفك.

فالنبي ﷺ يقول: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»^(١) وقال ﷺ: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ»^(٢) ويقول ﷺ: «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ اتَّبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٣) والأمنية إرادة الشيء في المستقبل دون أخذ الأسباب، أما إذا أخذ بأسبابه صار رجاءً، والرجاء مطلوب مرغوب، والتمني غير مطلوب لما فيه من تقصير.

(١) البخاري (٦٤١٢)، الترمذي (٢٣٠٤)، ابن ماجه (٤١٧٠)، الدارمي (٢٧٤٩)، احمد (٢٣٤٠).

(٢) النسائي في السنن الكبرى (١١٨٣٢)، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعْطُ: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ» البيهقي في شعب الايمان (٩٧٦٧)

(٣) الترمذي (٢٤٥٩)، ابن ماجه (٤٢٦٠)، احمد (١٧١٢٣).

الحكمة التاسعة عشرة

لَا تَطْلُبْ مِنْهُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ حَالَةٍ لَيْسَتْ عَمَلِكَ فِيهَا سِوَاهَا. فَلَوْ أَرَادَ
لَا سَتَعْمَلَكَ مِنْ غَيْرِ إِخْرَاجٍ

شرح الحكمة

فلا تعتمد على عملك وكن مع الله ﷻ على ما يريد يكن معك على ما تريد، تول الله يتولاك، فتصير ولياً لله سبحانه، والولي هو الذي تولى الله بالطاعات فتولاه الله بالتجليات فصار ولياً لله ﷻ.

وفي هذه الحكمة أدب ثالث من أداب الحضرة، «لَا تَطْلُبْ مِنْهُ» أي من الله ﷻ «أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ حَالَةٍ لَيْسَتْ عَمَلِكَ فِيهَا سِوَاهَا. فَلَوْ أَرَادَ لَا سَتَعْمَلَكَ مِنْ غَيْرِ إِخْرَاجٍ».

السعادة ليست بكثرة الأموال، ولكن بالرضا واليقين، فلا تطلب من الله ﷻ أن يخرجك من أمر أقامك فيه ليستعملك في غيره؛ لأنه لو أراد أن يستعملك فيما أردت لاستعملك دون أن يخرجك بقدرته سبحانه.

سأختصر شرح هذه الحكمة في قصة وقعت معي. كنت في المرحلة الثالثة في كلية الطب وأكرمني الله ﷻ وحبب إلي الدين، فتركت مذاكرة دروسي وبدأت بحفظ القرآن الكريم وعلوم الشريعة، وكدت أن أترك الطب وأدرس علوم الشريعة، بل كنت أسمى علوم الطب (كلام فارغ) أي ليس له معنى، وفي هذه الفترة حزن والدي حزناً شديداً؛ لأنني كنت من الأوائل في دراسة الطب، وفي أحد الأيام قابلت أحد العلماء فذكر لي هذه

الحكمة وشرحها فقال (إن الله ﷻ أقام العباد فيما أراد، ولو أرادك في علوم الشريعة لأقامك فيها، ولكنه أقامك في علوم الطب فالزم الطب تصل إلى الله) وكانت كلماته شفاء لروحي، ورجعت إلى الطب وأكملته، وبعد ذلك دخلت الأزهر الشريف ودرست في كلية الشريعة، وأخذت الشهادة منها، وهذه هو شرح الحكمة، فالله استعملني في علوم الشريعة دون أن يخرجني من الطب.

فأنت لا تطلب من الله أن يخرجك من أمر أقامك فيه ليستعملك في غيره؛ لأنه لو أراد أن يستعملك لاستعملك دون أن يخرجك.

لكن لو كنت في مكان أو عمل غير جائز شرعاً، فاعلم أنك أنت الذي أقمت نفسك فيه بسبب سوء اختيارك لقوله تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ﴾ [النساء: ٧٩]، فاخرج منه في الحال؛ لأن الله لم يقمك إلا في طاعة أو في مباح.

الحكمة المشرونة

مَا أَرَادَتْ هِمَّةٌ سَالِكٌ أَنْ تَقِفَ عِنْدَ مَا كُشِفَ لَهَا إِلَّا وَنَادَتْهُ هَوَاتِفُ الْحَقِيقَةِ: الَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ. وَلَا تَبَرَّجَتْ ظَوَاهِرُ الْمُكَوَّنَاتِ إِلَّا وَنَادَتْهُ حَقَائِقُهَا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]

شرح الحكمة

لما اتبعت كل الآداب السابقة وعلا قدرك وعلت همتك وأصبحت لا تتعامل إلا بالله ﷻ وفي الله وعلى الله، مع كمال الرضا بالله وارتقيت، سيفتح لك ربك ﷻ أشياء ومعان في طريقك إليه، كالكرامات والبشارات من الرؤى الصالحة.

وهنا الشيخ يحذرك من أن تركز إليها ولا تعتقد أنك وصلت، فلا يكن همك حصول الكرامة بل ليكن همك الوصول إلى الله.

ومثال على ذلك: لو ظهر ملك عظيم في أقصى الغرب، وساد الدنيا وقهر جميع ملوك الأرض، وصار الملك الأوحـد الذي يحكم الأرض، ومن ثم أرسل إليك يستدعيك للجلوس بين يديه، فأنت تلبي الدعوة، وتحضر متاع السفر؛ لأن السفر طويل، وتسافر إليه، وفي الطريق ستجد محطات استراحة خصصها الملك للمسافرين، وعند نزولك في أول محطة ستجد استقبـالاً عظيماً وجميع وسائل الراحة، فإن أعجبك المقام وآثرت الراحة على السير، وانشغلت بها تأخرت عن الوصول، وإذا كانت همتك عالية للقاء الملك أسرعـت في السير، وفي اليوم الثاني وأنت في طريقك وجدت استراحة ثانية تفوق الأولى بدرجات كثيرة، وفيها ما لذ وطاب من النعيم، فمن كانت همته ضعيفة وغايته الدنيا وقف عندها، وقد لا يذهب إلى الملك أبداً. ومن كان ذا همة عالية فارقهـا ولا راحة له إلا بقاء الملك.

فإياك أن تفتتن بالاستراحات والكرامات وإقبال الناس عليك وتقـبيل يدك، فإنها فتنة عظيمة ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وإذا ترقيت من التعامل مع الأسباب ففנית في أفعال الله فنظرت أن الفاعل واحد وهو الله فهذا فناء في الأفعال، فإذا ترقيت في هذا المقام نادتك هواتف الحقيقة عليك أن تغنى في صفات الله التي تجلت في الأكوان، فإذا تمكنت في مقام الفناء في الصفات نادتك هواتف المقام الذي يليه الفناء في الذات، الذي تريد أمامك وليس الفناء في الأفعال، ولا الفناء في الصفات، بل الفناء في الذات، فإذا فنى في ذات الله عز وجل نادته هواتف التمكين، فإذا

تمكن في المعرفة نادته الهواتف ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، فينزل عليه علوم كان لا يعلمها ولم يتعلمها من أحد فيقول ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

الحكمة الحادية والعشرون

طَلْبُكَ مِنْهُ أَتَاهُمْ لَهُ وَطَلْبُكَ لَهُ غَيْبَةٌ مِنْكَ عَنْهُ وَطَلْبُكَ لغيرِهِ لِقَلَّةِ حَيَاتِكَ مِنْهُ وَطَلْبُكَ مِنْ غَيْرِهِ لوجودِ بَعْدِكَ عَنْهُ

شرح الحكمة

دعاء العبد وطلبه من مولاه يكون بالتضرع والابتهال، وطلبك له يكون بالبحث والاستدلال، وطلبك لغيره يكون بالتعرف والإقبال، وطلبك من غيره يكون بالتملق والسؤال.

وكل طلب معلول؛ لأنه يدل على عدم الرضا بما أقامك فيه، سيدنا إبراهيم بن أدهم^(١) رحمه الله استوحش العزلة فنزل منها بغير إشارة شيخه،

(١) قال الذهبي: القدوة، الإمام، العارف، سيّد الزهاد، أبو إسحاق العجلي - وقيل: التميمي - الخراساني، البلخي، نزيل الشام. مولده: في حدود المائة.

حدّث عن: أبيه، ومحمد بن زياد الجمحي - صاحب أبي هريرة - وأبي إسحاق السبيعي، ومنصور بن المعتمر، ومالك بن دينار، وأبي جعفر محمد بن علي، وسليمان الأعمش، وابن عجلان، ومقاتل بن حيان.

وحدّث عنه: رفيقه؛ سفيان الثوري، وشقيق البلخي، وبقية بن الوليد، وصمرة بن ربيعة، ومحمد بن حمير، وخلف بن تميم، ومحمد بن يوسف الفريابي، وإبراهيم بن بشار الخراساني - خادمه - وسهل بن هاشم، وعتبة بن السّكن.

وعن يونس البلخي، قال: كان إبراهيم بن أدهم من الأشراف، وكان أبوه كثير المال والخدم، والمراكب والجنائب والبراة، فبينما إبراهيم في الصيد على فرسه يركضه، إذا هو بصوت من

فلما وصل إلى السوق كانوا يبحثون عن سارق فوجدوه داخلاً من البرية فظنوا أنه السارق، فضربوه فعلم أن هذه إشارة من الله ﷻ، فقال لمن يضربه اضرب وجهها كم عصي الله.

فالأولياء لا يتعاملون مع الخلق بل يتعاملون مع الخالق، ويعتبرون أن كل طلب من الله ﷻ أو من غيره أو لغيره معلول؛ لأن الطلب يدل على عدم الرضا بما أقامك فيه، ومن علامات المعرفة الرضا بما أقامك فيه، فإن طلبت منه بالإلحاح فهو إساءة أدب، وإن طلبته ﷻ دليل على غيبتك عنه وهذا لا يليق؛ لأن العارف بالله بين المراقبة والمشاهدة، وطلبك من غيره بالتملق والسؤال لا يليق؛ لأن كل ما سوى الله فقير لا يملك شيئاً، وطلبك لغيره من الأكوان لا يليق؛ لأن إقبال العارف لا يكون إلا إلى الله فهو في دوام الإقبال على الله. ولذا مطلق الطلب من الله أو لله أو لغير الله ﷻ أو من غير الله معلول.

وهنا يرد سؤال إذا كان الأمر كما تقولون، فلماذا علمنا النبي ﷺ أدعية كثيرة، أدعية عند المرض، وأدعية عند العافية، وعند مواجهة الأعداء، وعند الصباح والمساء؟ والله ﷻ يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، والجواب على ذلك: أن الأولياء انقسموا في هذا الأمر إلى قسمين: فريق لا يطلب لكمال الرضا، وقالوا إنَّ هذه الآيات كلها نزلت لعامة أهل

فوقه: يَا إِبْرَاهِيمُ! مَا هَذَا الْعَبَثُ؟ ﴿فَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، أتى الله، عَلَيْكَ بِالزَّادِ لِيَوْمِ الْفَاقَةِ. فَنَزَلَ عَنْ دَابَّتِهِ، وَرَفَضَ الدُّنْيَا.

وفي (رسالة) القسيري، قال: هُوَ مِنْ كُورَةِ بُلْخ، مِنْ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ، أَثَارَ ثَعْلَبًا أَوْ أَرْبَابًا، فَهَتَفَ بِهِ هَاتِفٌ: أَلَيْهَذَا خُلِقْتَ؟ أَمْ بِهَذَا أُمِرْتَ؟ فَتَزَلَّ، وَصَادَفَ رَاعِيًا لِأَيِّهِ، فَأَخَذَ عِبَاءَتَهُ، وَأَعْطَاهُ فَرَسَهُ، وَمَا مَعَهُ، وَدَخَلَ الْبَادِيَّةَ، وَصَحِبَ الثَّوْرِيَّ، وَالْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ، وَدَخَلَ الشَّامَ، وَكَانَ يَأْكُلُ مِنَ الْحَصَادِ وَحِفْظِ الْبَسَاتِينِ، وَرَأَى فِي الْبَادِيَّةِ رَجُلًا، عَلَّمَهُ الْاسْمَ الْأَعْظَمَ فَدَعَا بِهِ، فَرَأَى الْخَصِرَ، وَقَالَ: إِنَّمَا عَلَّمَكِ أَخِي دَاوُدُ. تُوُفِّي: سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَسِتِّينَ وَمِائَةٍ، وَقَبْرُهُ بِرَارُ.

اليمين، أما العارفون فلا يطلبون مع الله شيئاً، ولا يطلبون من الله شيئاً، فهم راضون عن الله ﷻ في كل وقت، أما آيات الطلب والأدعية الواردة عن النبي ﷺ فما هي إلا لعوام الناس، حتى إذا وصلوا إلى الله انقطع السؤال، وظلت عبادتهم لله ﷻ بلا علاقة وبلا مصلحة كعبادة الملائكة. لتحقيق مقام الربوبية والألوهية مع التحقق بكمال العبودية.

والرأي الثاني قال: أهل النهاية وأهل البداية في الطلب سواء، ولكن الفرق أن أهل الوصول إلى الله يطلبون بلا تعلق بالقلب إلا بما أقامهم فيه، فهم يطلبون تذلاً باللسان لمقام العبودية، مع كمال الرضا بالقلب بما أقامهم فيه. وهذا هو الراجح.

والنبي ﷺ يشرع للناس؛ لأن النبي ﷺ وجميع الأنبياء كانوا يشرعون ويعلمون الناس، والأمة فيها الواصلون، والسالكون، وأهل الحجاب، والمبتدئون، وأهل المعاصي، فلذا كانوا يفعلون ذلك تعليمًا للناس.

قال الشيخ: «طَلَبُكَ مِنْهُ اتِّهَامٌ لَهُ» اتهام بأنه لا يعلم، وأنه ليس لديه حكمة، وليس رحيماً، وليس ودوداً، وأنه يفعل بك ما لا يليق.

«وَطَلَبُكَ لَهُ» يعني عندما تبحث عن الله بالدليل والاستدلال «غَيْبَةً مِنْكَ عَنْهُ» دليل غفلتك وبعذك.

«وَطَلَبُكَ لِغَيْرِهِ لِقَلَّةِ حَيَاتِكَ مِنْهُ» تعلق قلبك بغيره بالأقبال عليه والتعرف عليه لكي تنال منفعة، وكأنه نافع مع الله ﷻ. وهذا دليل على قلة الحياء منه سبحانه.

«وَطَلَبُكَ مِنْ غَيْرِهِ لُجُودٌ بَعْدَكَ عَنْهُ» بالتملق والسؤال فهو حرام شرعاً، لأنه طلب من غير الله.

وإذا طلبت من الله مع جَزَع القلب، وعدم الرضا بما أقامك فيه، فهو عين الاستكبار. لأنك تكبرت على أحكام الله بقلبك، وتذلت له بلسانك، والله ﷻ ناظر إلى قلبك، وليس لشقشقة لسانك.

والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي لم يقبلوا أقداري في قلوبهم: ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] لأن الذي يكره قضاء الله قد كره حكم الله ﷻ، ومن كره حكم الله كفر بحكم الله، ومعنى كلمة (جهنم) في هذه الآية جحيم التدبير وعدم الرضا، مع الغم والهم.

قال الإمام الرفاعي^(١) رحمه الله:

قالوا أنتسى الذي تهوى فقلت لهم	يا قوم من هور وحي كيف أنساه؟
وكيف أنساه والأشياء به حسنت	من العجائب ينسى العبد مولاه
ما غاب عني، ولكن لست أبصره	إلا وقلت جهازاً قل هو الله

(١) هو العارف بالله، الولي الكبير والعالم النحرير أبو العباس أحمد الرفاعي، يرجع نسبه إلى الإمام الحسين عليه السلام، جاءت البشرية بولادته قبل أن يولد حيث ذكر في النجم الساعي لأبي بكر العدني أن الشيخ منصور البطائحي رضي الله عنه كان قد رأى رسول الله ﷺ في المنام وهو يقول له يا منصور أبشرك أن الله تعالى يعطي أختك بعد أربعين يوماً ولداً يكون اسمه أحمد الرفاعي. مثلما أنا رأس الأنبياء يكون هو رأس الأولياء حين يكبر، فاذهب به إلى الشيخ علي القارئ الواسطي ليربيه ولا تغفل عنه) ولد رضي الله عنه في البطائح إحدى القرى التابعة لمحافظة واسط جنوب العراق (٥١٢هـ). صاحب كرامة تقبيل يد النبي ﷺ المشهورة، وفاته: قال يعقوب الخادم رضي الله عنه: لما مرض سيدي أحمد رضي الله عنه مرض الموت قلت له (تجلى العروس في هذه المرة) قال: نعم، فقلت له لماذا فقال: جرت أمور اشتريناها بالأرواح، وذلك أن أقبل على الخلق بلاء عظيم فتحملته عنهم وشرتهم بما بقي من عمري فباعني. وكان يمرغ وجهه ويثبته على التراب ويبكي ويقول اللهم اجعلني سقف البلاء على هؤلاء الخلق.

توفي رضي الله عنه في الثاني عشر من جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين وخمسائة وكان يوماً مشهوداً ودفن في أم عبيدة في قضاء الرفاعي في جنوب العراق وله مزار ومشهد كبير.

وسيدنا أيوب عليه السلام لما مرض مرضاً شديداً، ومات أولاده جميعاً، وخسر ماله، لم يسأل الله شيئاً، ولكن ظل يعبد الله تعالى، ودائم الذكر لله، ودائم الحمد والثناء على الله، ولم يطلب من الله أن يرفع ما به من مرض حتى جاء الشيطان فدخل يوسوس إلى قومه ويقول لهم أيوب ليس نبياً؛ لأنه لو كان نبياً لم يمرضه الله تعالى ولم يُمت أولاده، فلما جاء الشيطان يوسوس في صدق نبوته إلى أتباعه قال: ﴿أَفِي مَسْنَى الشَّيْطَانِ بُنْصِبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١] فدعا الله تعالى ولم يذكر المرض، لأنه يعلم تمام العلم أن ما أقامه الله فيه هو عين العافية، ولو كان في ظاهره المرض، ولكنه سأل الله تعالى أن يصرف الشيطان عن أتباعه حتى لا يشكوا في نبوته فيهلكوا فقال: ربي ﴿أَفِي مَسْنَى الشَّيْطَانِ بُنْصِبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]، فعافاه الله تعالى حتى يزيل الشك من قلوب أتباعه، ويخزي الشيطان الرجيم ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ (٤٢) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ (٤٣) [ص: ٤٢-٤٣].

الحكمة الثانية والعشرون

مَا مِنْ نَفْسٍ تُبْدِيهِ إِلَّا وَلَهُ قَدْرٌ فِيكَ يَمْضِيهِ

شرح الحكمة

العارف بالله لا يستغني عن الله قدر نفس، أي أنه يعبد الله بالأنفاس، لدوام المراقبة مع دوام الافتقار إلى الله تعالى، فهو لا يطمئن إن خرج منه نفس أن يعود إليه نفس آخر، فزال اختياره بنفسه لنفسه إلى اختيار الله تعالى، ولما صاروا مع قدر الله بالنفس لم يريدوا أن يظهر في الوقت غير ما أظهره الله فيه تعالى، ففي

كل نفس تبديه له قدر فيك والتي يسمونها العبادة بالأنفاس، وبهذا صار عارفاً بالله بما يقدره له من تدبير أموره بين جمال وجلال، وستر وكمال.

الحكمة الثالثة والعشرون

لَا تَرَقِّبْ فَرَاغَ الْأَغْيَارِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَقْطَعُكَ عَنْ وُجُودِ الْمُرَاقَبَةِ لَهُ فِيمَا هُوَ مُقِيمٌ فِيهِ

شرح الحكمة

أي: اعبد الله تعالى وتعرف عليه في كل ما يقيمك فيه من خلال الأغيار والأقدار التي تتوالى عليك، ولا تنتظر أن تفرغ منها لتعبده كما تريد، بل اعبده كما يريد فيما أقامك فيه، فإن أقامك في نعمة فاعبده بالشكر، وإن أقامك في محنة فاعبده بالصبر، وإن أقامك في نقص فاعبده بتكميل نقصك بالتوبة والمسارة إلى الطاعة، وهكذا تعبده في أقداره وأغياره، فتراقبه في كل أحوالك.

الحكمة الرابعة والعشرون

لَا تَسْتَغْرِبْ وَقُوعَ الْأَكْدَارِ، مَا دُمْتَ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَإِنَّهَا مَا أَبْرَزَتْ إِلَّا مَا هُوَ مُسْتَحَقٌّ وَصْفِهَا وَوَاجِبُ نَعْتِهَا

شرح الحكمة

الدنيا كلها أكدار قال الله ﷻ ﴿أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَمُرُّوا أَنْ يَقُولُوا أَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢] فالله ﷻ يخبرنا بأنه سيختبرك في هذه الدار، فلم الضجر وعدم الرضى ﴿خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، فإذا علمت أن

الدار دار أكرار وابتلاء، فعليك ألا تيأس من رحمة الله ﷻ، وأن ترى الله في كل حال، فإذا تعرف عليك بالجلال تعرفت عليه بالجمال. إذا تعرف عليك بجلال الابتلاء قابلك بجمال الثواب، وبجمال الترقى، فيأتي الجلال معه الجمال في آنٍ واحد.

لذلك قال الله ﷻ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ [البقرة: ١٥٥]، فلا بد من أن تتذوق الخوف في بعض الأيام في هذه الحياة الدنيا.

﴿وَالْجُوعِ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وتجوع فيها ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ وخسارة المال وقلته ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾ وتفقد الأحباب بالموت. فالعارف بالله يأخذ حظه من كل شيء، ولا شيء يأخذ حظه منه، لأن هو عبد لله، منفرد إليه، وليس لشيء في الأكوان نصيب منه.

«لَا تَسْتَغْرِبُ وَقُوعَ الْأَكْدَارِ، مَا دُمْتَ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَإِنَّهَا مَا أَبْرَزَتْ» يعني ما أظهرت «إِلَّا مَا هُوَ مُسْتَحَقٌّ وَصِفِهَا وَوَاجِبُ نَعْتِهَا» الوصف هو ما كان قائماً بالذات، والنعته هو ما كان قائماً بالعرض.

فصاحب العقل يتوقع الشدائد؛ لأنه عارف إن الدار هذه دار أكرار.

يمثل ذو اللب في لبه شدائده قبل أن تنزلا
فإن نزلت بغتة لم ترعه لما كان في نفسه مثلاً
فإن نزلت بغتة لم ترعه؛ لأنه متوقعها، وذو الجهل على نقيض العاقل:

وذو الجهل يأمن أيامه وينسى مصارع من قد خلا
فإن دهمته صروف الزمان ببعض مصائبه أعولاً^(١)

(١) هذه الأبيات منسوبة للأمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

أعولاً: أي بدأ بالعويل وهو الصوت العالي. قال الله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

سيدنا الجنيد^(١) يقول: (لا أستبشع مما يرد علي من العالم؛ لأنني أصلت أصلاً وهو أن الدار دار هم وغم وفتنة، وأن العالم كله شر).

الحكمة الخامسة والعشرون

مَا تَوَقَّفَ مَطْلَبُ أَنْتَ طَالِبُهُ بِرَبِّكَ وَلَا تَيَسَّرَ مَطْلَبُ أَنْتَ طَالِبُهُ بِنَفْسِكَ

شرح الحكمة

مع أدب جديد من آداب الحضرة، وهو لب الإخلاص، والإخلاص: هو عدم مُراءاة الناس، أي أن يكون عملك خالصاً لله وَلَا يَسْأَلُ لِنَاسٍ فِيهِ نصيب، يستوي عندك مدح الناس وذمهم.

أما إن زاد بسطك وبرك لمن مدحك، فأنت تعامل الخلق ولست تعامل الحق وَلَا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ: إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ

(١) سيد الطائفتين هو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي القواريري، أصله من نهاوند ومولده في العراق، ولد سنة نيف وعشرين ومائتين، صحب خاله السري السقطي والحارث المحاسبي، وتفقه على مذهب الامام الشافعي حتى صار يفتي الناس على مذهب ابي ثور صاحب الامام الشافعي. قال ابن المنادي عنه: لم يُر في زمانه مثله عفة وعزوف عن الدنيا، كان له دكان في السوق يصلي فيه كل يوم وقت الضحى ثلاث مائة ركعة. كان يقول: علمنا مضبوط بالكتاب والسنة ومن لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به. توفي رضي الله عنه سنة سبع وتسعين ومائتين ودفن في بغداد وله مقام يزار.

أَحْسَنًا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا» ^(١) فيجب ألا ينقطع برك عن الناس في كل حال مدحوك أو ذموك؛ لأنك تعامل الحق في الحق.

وعلاوة ألا يكون عملك للخلق هو استواء المدح والذم من الناس، ولا ينقطع برك بهم فالنبي ﷺ يقول: **«صل من قطعك»** ^(٢).

فالإخلاص بضاعة عزيزة جدا، لا تُنال إلا بالاجتهاد وإعانة الله ﷻ لك. وهناك شيء في داخله أعز من الإخلاص وهو لب الإخلاص. وقيمة الإخلاص تكمن في اللب، ومثاله كمن أتى بصندوق فيه جوهرة عظيمة، فالصندوق دون الجوهرة غير ذي قيمة. وللب الإخلاص هو (الصدق).

وما علامة الصدق؟ علامته ألا ترى نفسك في العمل. فلا ترى إلا ربك وتوفيقه وفعله. ولا تنتظر المدح حتى من نفسك.

والكذب عكس الصدق، وهو أن تنسب الشيء لغير حقيقته، فإذا نسبت العمل لنفسك صرت كذابا؛ لأن الله ﷻ هو الذي أظهر العمل على جوارحك فكيف تنسبه لنفسك؟ فالصدق هو التبري من الحول والقوة (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم).

فإذا عبدت الله بنفسك صرت مخلصا كاذبا، لأنك نسبت العمل لنفسك والعمل هو لله وبالله وليس بنفسك **﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾** [الصفات: ٩٦]، ولذا لا يدخل أحد الجنة بعمله؛ لأن الله ﷻ هو الذي ذكر نفسه على لسانك، وهو الذي ليين جوارحك لطاعته، وهو الذي خلقك

(١) الترمذي (٢٠٠٧) عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«لَا تَكُونُوا إِمْعَةً، تَقُولُونَ: إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ أَحْسَنًا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطَّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا»**.

(٢) احمد (١٥٦١٨) عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«أفضل الفضائل أن تصل من قطعك، وتعطي من منعك، وتصفح عمن شتمك»**

من العدم، وأمدك باستمرار الوجود، فهو الفاعل الحقيقي في الأكوان. فإذا نسبت لنفسك فعلاً فاعلم أنك نسبت الأمر لغير أهله فصرت كاذباً، وإذا رددت الأمر إلى الله صرت صادقاً، فأعطيت كل ذي حق حقه.

فيجب عليك ان لا تعجب بنفسك؛ لأنك عدم على الحقيقة، وإذا جعلت لنفسك وجوداً صرت كذاباً قال الله ﷻ ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

«مَا تَوَقَّفَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِبُهُ بِرَبِّكَ وَلَا تَيْسَّرَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِبُهُ بِنَفْسِكَ» فعندما يكون لك مطلب، عليك أن تتبرى من حولك وقوتك، وتستعين بالله ﷻ ولا تستعين بسواه فيتيسر، أما إذا استعنت بنفسك وقوتك ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، يتوقف ويحبس، ولو تحقق في الظاهر والحس، لكن ستحرم منه بعد حين.

فأي أمر تطلبه بالله وإن لم يتيسر حساً سيتيسر معنىً. فالسيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ رضي الله عنها وعليها السلام دخلت على سيدنا رسول الله ﷺ وكان عندها أولاد، وقد جاءت لسيدنا رسول الله غنائم من إحدى الغزوات وفيهم عبيد، فذهبت وطلبت من النبي ﷺ أمة أو عبدا يساعدها في أشغال المنزل، فلم يلب النبي ﷺ طلبها، فلم تغضب السيدة فاطمة رضي الله عنها؛ لأنها تربية سيدنا رسول الله ﷺ.

لكن سيدنا رسول الله ﷺ قال لها: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ مَا هُوَ خَيْرٌ لَّكَ مِنْ خَادِمٍ؟ إِذَا أُوتِيَ إِلَىٰ فِرَاشِكَ سَبَّحِي ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَاحْمَدِي ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبِّرِي أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ»^(١) فانبسطت وفرحت؛ لأنها تطلب الشيء بالله. ولمّا لم

(١) أحمد (١٣١٣) عَنْ ابْنِ أَبِي عُبَيْدٍ، قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: «يَا ابْنَ أَعْبَدَ هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الطَّعَامِ؟» قَالَ: قُلْتُ: وَمَا حَقُّهُ يَا ابْنَ أَبِي طَالِبٍ؟ قَالَ: «تَقُولُ بِسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيْمَا

يتحقق الأمر انشروحت فتحقق معنا ولم يتحقق حسًا، لأنها لمّا واطبت على وصفة النبي ﷺ أعطاهها الله ﷻ قوة الخادم في بدنها، فصارت تؤدي عملها دون أن تشعر بالعناء الذي كانت تشعر به قبل ذلك، فتحققت معنى ولم تتحقق حسًا.

الحكمة السادسة والعشرون

مِنْ عَلامَاتِ النُّجْحِ فِي النِّهَايَاتِ، الرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ فِي الْبِدَايَاتِ

شرح الحكمة

إذا كنت طالباً لله بالله ستنجح في النهاية، وإن طلبته بنفسك فهو علامة الخذلان في البداية فيأتي الندم في النهاية.

وهذه الحكمة ثمرة الحكمة السابقة، ففي بداية أمرك لا تطلب أمراً إلا بالله ﷻ، فهذه البداية التي تؤدي إلى النجاح في النهاية.

فالسالك إلى الله يجب أن تكون بدايته صحيحة، فيسلك الطريق إلى الله مخلصاً صادقاً، لا من أجل فتح أو كرامة فهذه نية فاسدة. والحكمة والتي بعدها مرتبطة بها.

رَزَقْتَنَا، قَالَ: وَتَدْرِي مَا شُكْرُهُ إِذَا فَرَّغْتَ؟ قَالَ: قُلْتُ: وَمَا شُكْرُهُ؟ قَالَ: «تَقُولُ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا» ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ عَنِّي وَعَنْ فَاطِمَةَ كَانَتْ ابْنَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَتْ مِنْ أَكْرَمِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ، وَكَانَتْ زَوْجَتِي، فَجَرَّتْ بِالرَّحَى حَتَّى أَثَّرَ الرَّحَى بِيَدِهَا، وَأَسْقَتْ بِالْقُرْبَةِ حَتَّى أَثَرَتِ الْقُرْبَةُ بِنَحْرِهَا، وَقَمَّتِ الْبَيْتُ، حَتَّى اغْبَرَّتْ ثِيَابُهَا، وَأَوْقَدَتْ تَحْتَ الْقَدْرِ حَتَّى دَنَسَتْ ثِيَابُهَا، فَأَصَابَهَا مِنْ ذَلِكَ ضَرَرٌ، فَقَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِسَبِيٍّ - أَوْ خَدَمٍ - قَالَ: فَقُلْتُ لَهَا: انْطَلِقِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاسْأَلِيهِ خَادِمًا يَقِيلُكَ حَرَّ مَا أَنْتَ فِيهِ «فَانْطَلَقَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَتْ عِنْدَهُ خَدَمًا أَوْ خَدَمًا فَرَجَعَتْ وَلَمْ تَسْأَلْهُ فَذَكَرَ الْحَدِيثَ فَقَالَ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ خَادِمٍ؟ إِذَا أُوْبِتَ إِلَى فِرَاشِكَ سَبَّحِي ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَاحْمَدِي ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبِّرِي أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ» قَالَ: فَأَخْرَجَتْ رَأْسَهَا، فَقَالَتْ: رَضِيتُ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَرَّتَيْنِ.

الحكمة السابعة والعشرون

مَنْ أَشْرَقَتْ بِدَايَتِهِ أَشْرَقَتْ نِهَائَتُهُ

شرح الحكمة

إذا كانت بدايتك مع الله بالله ستضيء أنوار الحق وشموس المعارف في قلبك.

وخطوات البداية المشرقة تبدأ بالتوبة أولاً، والتقوى ثانياً، والاستقامة ثالثاً.

فالطريق تخلي، وتحلي، ثم التجلي. فالتخلي عن النقائص والمعاصي بالتوبة، والتحلي بالطاعات والتقوى، ثم الاستمرار على ذلك بالاستقامة مع مراعاة حال القلب مع الله، حتى تنتقل إلى المشاهدة وهي مشاهدة الحق في الخلق بغير حلول ولا اتحاد، أي مشاهدة صفات الله في الأكوان.

الحكمة الثامنة والعشرون

مَا اسْتُودِعَ فِي غَيْبِ السَّرَائِرِ ظَهَرَ فِي شَهَادَةِ الظَّوَاهِرِ

شرح الحكمة

أي يخرج ما في قلبك من الأسرار على لسانك دون أن تشعر كما يقال (ما فيك على فيك)، حتى ولو حاولت كتمه، وكما قيل الإناء ينضح بما فيه) فمن كان في قلبه الشر ظهر على جوارحه، قال الله ﴿قَدْ بَدَتْ

الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴿١١٨﴾ [آل عمران: ١١٨]، فمقامك حيث أقامك، فمن كان سره مشغولاً بربه ظهرت الطاعة على ظاهره، فتراها متعلقة بالطاعات. فمن كان الله في قلبه ظهرت الطاعة على جوارحه والحكمة على لسانه.

الحكمة التاسعة والعشرون

شَتَانُ بَيْنَ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِهِ أَوْ يَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ. الْمُسْتَدِلُّ بِهِ عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ، فَأَثَبَتْ الْأَمْرَ مِنْ وُجُودِ أَصْلِهِ. وَالْأَسْتِدْلَالُ عَلَيْهِ مِنْ عَدَمِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ. وَإِلَّا فَتَيَّ غَابَ حَتَّى يُسْتَدَلَّ عَلَيْهِ؟! وَمَتَى بَعْدَ حَتَّى تَكُونَ الْآثَارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْهِ؟!

شرح الحكمة

«شَتَانُ» أي بَعْدَ «بَيْنَ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِهِ» أي شتان بين حال من يستدل بالله على الأكوان «أَوْ يَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ» يستدل بالأكوان على الله، الفريق الأول يستدل بالله على الأكوان؛ لأن الله ﷻ أظهر من الأكوان، فكيف تكون الأكوان التي أصلها عدم والتي هي مفتقرة إلى موجدها دالة عليه؟ وهذا لأهل الشهود والعرفان الذين عرفوا الله بالله فاستدلوا على الله بالله.

والفريق الثاني يستدل بالبرهان وبالأكوان على وجود المكون، فيستدل بالعالم لكونه علامة على صانعه، فُسْمِي عالمًا لكونه علامة على الصانع سبحانه. فأناس عرفوا الله بالنظر في العوالم فقالوا إنه يستحيل أن توجد هذه العوالم المفتقرة في ذاتها بنفسها، فلا بد أن يكون هناك موجد لها، فاستدلوا على الله بالأكوان، وهؤلاء أهل الحجاب.

أما النوع الأول الذين استدلوا على الله بالله فهم أهل المشاهدة والعيان، كما سئل سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام كيف عرفت ربك؟ قال: (عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي) فاستدل على الله بالله، فكان من أهل الشهود. أما الأعرابي فقال: (البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أفلا يدل هذا على وجود العليم القدير) فاستدل بالأكوان على الله فوصل، والأول استدل بالله على الله فشهد فالمؤمنون قسمان: أهل شهود، وأهل دليل وبرهان.

فأهل شهود وهم الذين استدلوا على الله بالله؛ لأنه كيف يُستدل عليه بما هو مفترق إليه، أيكون غيره أظهر منه ليدل عليه؟! بل لم تظهر الأكوان إلا بإظهار الله لها، وبظهور نور الله ﷻ فيها، ولو انقطع مدد الأنوار من موجد الأكوان لصار الكون كله ظلمة وعدمًا كما كان، فكيف تستدل بالظلمة على النور؟! فهذا هو التيمم لمن فقد الماء فيُيمم قصده نحو الأسباب والأدلة، ومن وجد الماء لا يبحث عن التراب، ومن وجد الله وجد كل شيء. فمن استدل بالله على الله لا ينظر في الأكوان إلا نظر اعتبار. أما من فقد الماء ليس أمامه إلا الصعيد التراب وهو الدليل، وإن كان الدليل أضعف من المستدل عليه؛ لأنه هو الذي خلق الدليل فكيف يكون المخلوق أقوى من الخالق فيدل عليه؟، ولكن هذه لُعاة ألف الله بها قلوب العباد السالكين ليصلوا إليه، فإذا وصلوا إليه مكنهم من مقام الشهود فاستدلوا به عليه بعد ذلك.

«المُسْتَدِلُّ بِهِ عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ» أي المستدل بالله أعطى كل ذي حق حقه، فالله ﷻ هو الموجود واجب الوجود ولا موجود سواه، فكل وجود سوى الله مفترق إلى من يوجده، فواجب الوجود هو الذي يستحيل عقلاً أن يكون غير موجود.

أما المستدل بالدليل فقد استدل بموجودٍ لغيره على الواجب لذاته. والله ﷻ خلق العقول متفاوتة، عقول عندها قوة الأنوار فتواجه الأنوار وتحملها وهم أهل الشهود والعيان وعلى رأسهم الأنبياء والرسل، ثم الأولياء والصديقين، وعقول لا تستطيع أن تستدل بالأنوار لقوة الأنوار عليها فخلق لهم الدليل حتى يصلوا به إليه.

«فَأُثْبِتَ الْأَمْرَ مِنْ وُجُودِ أَصْلِهِ» فالله هو أصل الوجود، وإذا كان أصل الوجود فهو الموجود بحق فكيف استدل بالعدم على الموجود؟!.

«وَالْأَسْتِدْلَالُ عَلَيْهِ» وهؤلاء الفريق الثاني، أهل الدليل والحجاب، لعدم قدرة العقول والقلوب على مواجهة الأنوار الأصلية، فإذا واجهتها دون أن تتحمل فربما ينجذب العقل فيسموه مجذوباً، لأنه لم يتحمل الأنوار، وجعل الله ﷻ المجذوب آية للعباد، حتى تطمئن لوجودك في الحجاب، ولا تتمن رفع الحجاب مخافة أن تختل قواك وإدراكاتك. فلو كشف لك ما حجب عنك وأنت لست أهلاً لهذا ستصاب بالجنون، فلا تتفجع بنفسك ولا يتفجع بك الناس؛ والمجذوب وصل بغير جهد ولا مكابدة، فلا يستطيع أن يدل على الطريق، ونحن نسلم لهم بالولاية ﷻ **يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ** [الشورى: ١٣]، فإذا نظرت لأحوال هؤلاء الناس ستتحمل مرارة الدواء، وهو الحجاب، فجعل الله ﷻ الحجاب دواء لمن لا يتحمل ظهور الله ﷻ في الأكوان.

«وَالْأَسْتِدْلَالُ عَلَيْهِ» الحركة تدل على المحرك، والفعل يدل على الفاعل، والإنسان لم يدع أنه أوجد نفسه، وكل موجود لا بد له من موجد، وهذا هو الدليل على وجود الله ﷻ. وهذا هو الدليل العقلي.

«مَنْ عَدَمَ الْوُصُولَ إِلَيْهِ» نضرب لك مثالا كي تفهم هذه الحكمة: لو كان أبوك مسافرا، ورجع إلى البيت وغير ثيابه ووضع بدلته في الخزانة وخرج، ثم جئت أنت ودخلت البيت، فوجدت ثياب أبيك في الخزانة، فهذا دليل على أن أباك موجود وإن لم تره. فاحتجت إلى دليل للاستدلال على وجوده، وهذا هو علم اليقين. أما لو رأيته بعينك، فأنت مستغن عن الدليل، وهذا حال أهل الشهود وهو حق اليقين.

﴿وَالْأَفَمَتَى غَابَ حَتَّى يُسْتَدَلَّ عَلَيْهِ؟!﴾ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾

[الحديد: ٤] وهو أقرب إلينا من حبل الوريد سبحانه، هو الظاهر فليس فوقه شيء، وهو الباطن فليس دونه شيء، ظهور وبطون بغير حلول في مكان. فقوله: ﴿مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ معية مسلوقة من معانها الظرفي المكاني والزماني؛ لأنه خلق الظرف والمظروف، وهو خارج عن هذا النطاق، فلا يحل في الأكوان، ولو حل في الأكوان لكانت الأكوان قديمة بقدمه، وكان هناك قديم مع الله، والله ﷻ هو الأول ليس قبله شيء، وهو الآخر ليس بعده شيء، فلا يزداد أنسا بالأكوان، ولا يعاني وحشة بغير أكوان، فهو كما كان عليه لا يطرأ عليه تغير. والتغير علامة الحدوث والله خالق وليس بحادث.

«والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه» ولكن لا بد من الدليل

للسالك المنيب في قوله ﷻ ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، المؤمنون على نوعين: أهل الاجتباء، والسالكون إلى الله، السالكون: هم أهل الحجاب وأهل الدليل، شغلهم أنوار التوجه عن أنوار المواجهة، وأهل الاجتباء: شغلهم أنوار المواجهة عن أنوار التوجه؛ فأنوار التوجه هي أنوار العبادة شغلتك عن أنوار المواجهة. وهي

مطلوبة لتؤهلك لأنوار المواجهة؛ لأنها لو كُشفت لك أنوار المواجهة دون أنوار التوجه لخطفت أبصار عقلك ففقدت عقلك، ولكن الله ﷻ ينور لك أنوار التوجه تدريجيًا حتى تتحملها عين قلبك، فإذا كُشف لك الحجاب بعد ذلك تكون رابط الجأش والجنان، وتصبح من العارفين الواصلين وليس من المجذوبين.

«وإلا فمتى غاب حتى يُستدل عليه؟» فمتى غبت يا رب حتى تحتاج لدليل يدل عليك؟ ومتى كان الدليل عليك أكثر ظهورًا منك وأنت الظاهر في كل شيء؟ .

سيدنا إبراهيم عليه السلام من أهل الشهود والعيان ولكنه جارى أهل الدليل: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] على سبيل المجازاة للخصم كي يثبت بطلان حجتهم؛ لأن الأنبياء في كل حال عارفون بالله.

فسيدنا إبراهيم عليه السلام على سبيل المجازاة ذهب لعباد الكواكب حتى يقيم عليهم الحجة عليهم، فلما رأى كوكبًا قال ﴿هَذَا رَبِّي﴾ فلما اختفى ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] أي كيف تعبدون من يختفي ويتغير؟ والتغير علامة الحدوث، والحدوث علامة كونه مخلوقًا ومحدثًا.

ثم انتقل إلى عبادة القمر قال ما تعبدون؟ قالوا القمر. قال إذن ﴿هَذَا رَبِّي﴾ فلما طلع النهار واختفى وظهرت الشمس وغطت عليه قال القمر مقهور وهو أضعف من الشمس فأبطل حجتهم. أي هذا ليس ربي؛ لأن ربي لا يأفل، ولا يقهره شيء، لا يغيب لحظة فهدم عبادة القمر.

ثم توجه بعد ذلك إلى عبّاد الشمس، قال ما تعبدون؟ قالوا الشمس؛ لأنها أقوى الكواكب وإذا ظهرت الشمس غابت كل النجوم ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ [الأنعام: ٧٨] وجاراهم في معتقداتهم حتى يبطلها. وانتظر معهم إلى الغروب ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧].

﴿قَالَ يَنْقُومُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]، ثم قال بهمة عالية ﴿إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، فسيدنا إبراهيم عليه السلام سار مع أهل الدليل كي يستدل على وجود المكون وأقام الحجة عليهم، وربنا قال ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣]، فحجة الله أتاها لسيدنا إبراهيم عليه السلام؟ فإن التغير علامة الحدوث، والأفول علامة القهر، والله قديم قاهر ويستحيل أن يقهر، ويستحيل أن يتغير. فكل متغير حادث وكل مقهور عبد.

فالناس ثلاثة أصناف: صنف حجب بظلمة الأكوان وهم الكفار، فلم يروا فيها أنوار الحق.

والصنف الثاني من المؤمنين: صنف وصل إلى الله بالله وهم أهل الشهود، وصنف ثالث وهم من وصل إلى الله بالدليل وهم أهل الاستدلال. فالحكمة التالية تبين الفرق بين علم العارف الذي عرف الله بالله، وعلم من عرف ربه بالدليل.

الحكمة الثلاثون

﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ [الطلاق:٧]: الواصِلونَ إليه. ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق:٧]: السَّائِرونَ إليه.

شرح الحكمة

﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ [الطلاق:٧] الواصِلونَ إليه» الذين في أنوار المواجهة هم الذين وسَّعَ الله عليهم في العلوم، فإذا تكلموا أنفقوا من سعة فتكلموا بعلوم واسعة وحقائق عميقة تدهش العقول وتنير القلوب كما هو واضح من كلام الأولياء رضوان الله عليهم.

﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ [الطلاق:٧]: السَّائِرونَ إليه» أهل الحجاب، وأهل السلوك، والعبادات والاجتهادات، وأهل المجاهدة، كل حسب جهده في تزكية النفس، وعلى قدر بعدهم عن وساوس الشياطين، وهم الذين قدر عليهم رزقهم في العلوم؛ لأنهم أنفقوا جهدهم في اصطیاد الأفكار والعبادات التي توصلهم للرحمن، وأجهدوا أنفسهم في ترويضها، فما كان كلامهم حول هذا إلا في آداب السلوك وفضائل الأعمال وآدابها.

إذا «لینفق ذو سعةٍ من سعته» وهم «الواصلون إليه، ومن قدر عليه رزقه» وهم المستدلون عليه «السائرون إليه» فقوم يتكلمون بالله ويدلون عليه، وآخرون يتكلمون في الأعمال ويدلون على الطاعات.

الحكمة الحادية والثلاثون

اهْتَدَى الرَّاحِلُونَ إِلَيْهِ بِأَنْوَارِ التَّوَجُّهِ، وَالْوَاصِلُونَ لَهُمْ أَنْوَارِ الْمُوَاجَهَةِ،
فَالْأَوَّلُونَ لِلْأَنْوَارِ، وَهَؤُلَاءِ الْأَنْوَارُ لَهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ لِلَّهِ لَا لِشَيْءٍ دُونَهُ ﴿قُلِ
اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] .

شرح الحكمة

«اهْتَدَى الرَّاحِلُونَ إِلَيْهِ بِأَنْوَارِ التَّوَجُّهِ» أهل الدليل بالله الذين عرفوا الله بالله، وعرفوا الله بأنوار المواجهة، وهم العباد والساكنون عرفوه بأنوار التوجه وأنوار المجاهدة. أنت في سفرك إلى الله يُريك الله ﷻ بعض الأنوار، لتدلك على إنك ما زلت في الطريق السليم، وهي الأنوار التي تشرق في القلوب بالصيام، وتلاوة القرآن، والذكر، والشفقة على اليتيم، وبقضاء حوائج المسلمين، وحب النبي ﷺ والصلاة عليه، وحب الصالحين، ومجالسة الأولياء، وكثرة الصلاة، وسهر الليالي مع ذكر الله، كل هذه تثمر أنواراً في القلب، وهذه أنوار التوجه.

«وَالْوَاصِلُونَ لَهُمْ أَنْوَارِ الْمُوَاجَهَةِ» لهم أنوار المواجهة وهي أقوى من أنوار التوجه، «فَالْأَوَّلُونَ لِلْأَنْوَارِ، وَهَؤُلَاءِ الْأَنْوَارُ لَهُمْ» «فَالْأَوَّلُونَ» وهم السائرون الساكنون «لِلْأَنْوَارِ» أي يعبدون الله ﷻ، والله ﷻ يتألفهم بالأنوار ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] فيتصدق عليهم؛ لأنهم فقراء إلى الله ومساكين في الطريق إليه، فيتصدق عليهم بالأنوار تثبيتاً وتشجيعاً.

«وهَؤُلَاءِ الْأَنْوَارُ لَهُمْ» وهي أنوار المواجهة تحقيقاً وتشريعاً «لِأَنَّهُمْ لِلَّهِ لَا لِشَيْءٍ دُونَهُ» ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] .

الحكمة الثانية والثلاثون

تَشَوُّفُكَ إِلَى مَا بَطَّنَ فِيكَ مِنَ الْغُيُوبِ خَيْرٌ مِنْ تَشَوُّفِكَ إِلَى مَا حُجِبَ عَنْكَ مِنَ الْغُيُوبِ.

شرح الحكمة

«تَشَوُّفُكَ» أي اهتمامك الزائد «إلى ما بَطَّنَ فِيكَ مِنَ الْغُيُوبِ خَيْرٌ مِنْ تَشَوُّفِكَ» أي من اهتمامك الزائد وحرصك «إلى ما حُجِبَ عَنْكَ مِنَ الْغُيُوبِ»

فكثير من الناس يعبدون الله ﷻ لغاية، فمنهم من يعبد الله حتى يكشف له وتظهر على يديه الكرامات، وهذا من حظوظ النفس؛ لأن النفس تحب الشهرة والخصوصية أمام الناس، وهذا من أمراض القلوب التي يجب أن نتخلص منها.

فلا تكن ممن يطلب الكرامة قبل أن يفرغ من الاستقامة، وعليك أن تقابل الله بالاستقامة فيقابلك بالكرامة. على ألا تكون كالتاجر يعرض السلعة ويطلب الثمن، فإن لم يعطك الكرامة ترك الاستقامة، وإلا كنت عبداً للكرامة، فتصير عبداً لنفسك، وكأنك تعبد لنفسك، وهذا هو الشرك الخفي والله ﷻ يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

فالاستقامة هي عين الكرامة، لذلك قال الأولياء: (لو سار الرجل على الماء، وطار في الهواء، فاسأل عن عمله، فإن كان موافقاً لله ورسوله كانت له كرامة، وإن لم تكن فهي من الشيطان) ولذا تشوفك لعيوب نفسك أهم من تشوفك لأن تكسر لك حجب الغيوب، فترى ما لا يراه الناس.

فقد يكشف لك الحجاب فلا تستطيع العيش بين الناس، الشيخ صادق العدوي (رحمه الله) في فترة الستينات من القرن الماضي، كشف الله ﷻ له بعض الغيوب، فصار إذا دخل عليه إنسان كشف له بعض عيوبه، وصار يكره الخروج من بيته حتى لا يرى الناس؛ لأنه تشوش برؤية عيوبهم، فسافر إلى العمرة وتعلق بأستار الكعبة وهو يبكي ويطلب من الله ﷻ أن يرفع عنه الكشف، يقول: فاستجاب الله لي وارتحت من ذلك، فاحذر يا أخي أن تطلب الكشف لخطورته، فقد يشغلك عن مولاك وعن ما طلبه منك.

وسيدنا الشيخ عبد الوهاب الشعراني^(١) قال: كنت أصلي فسجدت

(١) هو أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري المشهور بالشعراني، العالم الزاهد، الفقيه المحدث، المصري الشافعي «القطب الرباني». (٨٩٨ هـ - ٩٧٣ هـ). ولد في السابع والعشرين من شهر رمضان سنة ٨٩٧ هـ في قرية قلقشندة التابعة لمركز طوخ، ويصل نسبه إلى محمد بن الحنفية بن الإمام علي بن أبي طالب. رحل إلى القاهرة عام ٩١١ هـ ليلتحق بالأزهر الشريف وحفظ كثيراً من الكتب عن ظهر قلب مثل ألفية بن مالك والتوضيح لابن هشام وغيره. أثنى عليه كثير من العلماء من أصحاب الطبقات والتراجم، بكلام يدل على مكانة الرجل العلمية والخلقية منهم: قال عنه الإمام عبد الرؤوف المناوي: «شيخنا، الإمام العامل، والهمام الكامل، العابد الزاهد، الفقيه، المحدث، الصوفي المربي المسلك من ذرية الإمام محمد بن الحنفية، ولد ببلده، ونشأ بها، ومات أبوه، وهو طفل ومع ذلك ظهرت فيه علامة النجابة، ومخايل الرياسة والولاية».

سجدة فكشف الله لي تسبيح الكائنات، فغبت عن الحس، وبقيت ساجدا إلى أن أشرقت الشمس، فجاء الناس وحركوني فوجدوني غائبا عن سماع صوت المخلوقات. فهذا الأمر لا نتحملة وقد يؤدي بنا إلى الهلكة.

فما السبيل إلى معرفة عيوب النفس ومعالجتها؟

هناك أربعة طرق لمعرفة عيوب النفس ومعالجتها:

الطريقة الأولى: أن تبحث عن الشيخ المربي، وتترى على يديه، فيعالج لك العيوب، ويزكيك ويعلمك الدين والأخلاق والتزكية، وهذه أفضل الطرق.

الطريقة الثانية: إذا لم تجد الشيخ المربي، فاختر لنفسك صديقا صدوقا تصاحبه، فيكون لك كالمرآة ترى من خلاله عيوب نفسك، وينصحك فتأخذ بنصحه وتبدأ بعلاج نفسك.

وقال عنه الإمام المحدث المؤرخ نجم الدين الغزي: «الشيخ العالم العارف الشعрани نسبة إلى قرية أبي شعرة المصري الشافعي الصوفي... كان رحمه الله من آيات الله تعالى في العلم، والتصوف والتأليف». وقال عنه الشيخ عبد الحي الكتاني رحمه الله: «هو الإمام، الفقيه، المحدث، الصوفي، العارف، المسلك، أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعрани». وقال عنه الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الراحل رحمه الله: «إنه كان عالما مستنيرا بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان، فهاله أن تتضارب آراء الفقهاء فيما بينهم، فحاول أن يضع بتأليفه المتعددة، وآرائه الثاقبة منهجا صحيحا يوفق فيه بين هذه الآراء المتضاربة والمذاهب المختلفة حتى يبدد ما علق بالأذهاب من شبهات واختلافات، وكان سباقا في هذا الميدان، وتأليفه الكثيرة هي التي تشهد بذلك». أصيب الشعрани بالفالج، وبقي مريضا به ثلاثة وثلاثين يوما، إلى أن توفي في القاهرة بمصر، يوم الاثنين بعد العصر ثاني عشر جمادى الأولى سنة ٩٧٣ هـ، وحمل إلى الجامع الأزهر في مشهد من العلماء والفقهاء والأمراء والفقراء، حيث صلوا عليه ودفن بجوار زاويته.

الطريقة الثالثة: إذا لم تجد الشيخ المربي والصديق الصدوق، فانظر إلى ما يقوله عدوك، فإن عين السخط تُبدي المساوئ. وتعالج تلك العيوب والمساوئ.

الطريقة الرابعة: إذا لم تجد ما ذكرناه فاختلط بالناس وتحمل أذاهم وطباعهم، ومن خلال سوء تعاملهم معك ستظهر الأخلاق السيئة منك فعالجها.

وانظر إلى سيدنا النبي ﷺ كيف قابل الإساءة بالإحسان. وانظر إلى إخوة سيدنا يوسف عليه السلام كيف أسأؤوا إليه وكيف أحسن إليهم. فهؤلاء هم الأصفياء، الذين يجب أن نفتدي بهم كي نصل إلى الله ﷻ، ونكون من الصديقين والصالحين.

الحكمة الثالثة والثلاثون

الْحَقُّ لَيْسَ بِمَحْجُوبٍ، وَإِنَّمَا الْمَحْجُوبُ أَنْتَ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ، إِذْ لَوْ حَجَبَهُ شَيْءٌ لَسَتَرَهُ مَا حَجَبَهُ، وَلَوْ كَانَ لَهُ سَاتِرٌ - لَكَانَ لَوْجُودِهِ حَاصِرٌ، وَكُلُّ حَاصِرٍ لَشَيْءٍ فَهُوَ لَهُ قَاهِرٌ ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]

شرح الحكمة

إذا منَّ الله عليك بالعرفان والمشاهدة علمت أن «الْحَقُّ لَيْسَ بِمَحْجُوبٍ» سبحانه «وَإِنَّمَا الْمَحْجُوبُ أَنْتَ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ» محجوب بعيوبك، وعندما تتخلى عنها يرفع الحجاب فتزداد إيماناً و يقيناً «إِذْ لَوْ

حَجَبَهُ شَيْءٌ لَسْتَرَهُ مَاحِجَبُهُ، وَلَوْ كَانَ لَهُ سَاتِرٌ - لَكَانَ لَوْجُودِهِ حَاصِرٌ، وَكُلُّ حَاصِرٍ لَشَيْءٍ فَهُوَ لَهُ قَاهِرٌ ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨] «فربنا ليس بمحجوب؛ لأنه لو كان محجوباً لكان له ساتر، ولو كان له ساتر لصار له حاصر، والحاصر له قاهر، وهو سبحانه القاهر فوق عباده، فالمخلوق هو المحجوب، والخالق لا يحجبه شيء، إذ لا شيء معه أصلاً فيحجبه؛ لأن كل شيء موجود به.

الحكمة الرابعة والثلاثون

اُخْرِجْ مِنْ أَوْصَافِ بَشَرِيَّتِكَ عَنْ كُلِّ وَصْفٍ مُنَاقِضٍ لِعِبُودِيَّتِكَ لِتَكُونَ لِنَدَاءِ الْحَقِّ مُجِيباً وَمِنْ حَضْرَتِهِ قَرِيباً

شرح الحكمة

يجب أن لا يكون هدفك الخصوصية فيشار إليك بالبنان، ولكن هدفك أن تختص بمعرفة الرحمن، لا أن تعرف بالمعرفة، فهناك فرق كبير بين أن تريد الخصوص لله ﷻ أو تريد الخصوص لشهوة نفسك، فإن أردت الخصوص لشهوة نفسك عبدت نفسك من دون الله ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمِهِ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ولذا لما كان رجلاً من أهل الكبر والغرور يجالس بعض علماء القلوب فقال لهم لقد جلست معكم عشرين عاماً فلم أذوق ما تقولونه وإني لا أكذبه فماذا أفعل؟ قال العارف: لا تستطيع أن تذوق ما نحن فيه إلا

أن تخلع ما عليك من ثياب حسنة، وتلبس ثياب مخرقة، وتسير في الشارع، وتقول من يصفني على قفاي أعطه ثمرة، فقال له: سبحان الله أولا غير ذلك؟ قال العارف: أنت بقولك سبحان الله أشركت بالله؛ لأنك سبحت نفسك ولم تسبح ربك؛ فقد عظمت نفسك فلم ترد أن تضعها لله عز وجل.

فأحياناً يفعل الإنسان الشيء في ظاهره عبادة وفي حقيقته ظلمة؛ لأنه لم يكن لله عز وجل. فإذا أردت أن تصل إلى الحقيقة فعليك أن تُميت نفسك، تميت نفسك أي تخالف النفس والهوى.

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصيح فاتهم

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝١ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩-١٠] ولا تُزكى النفس إلا بمخالفتها والتنقيب عن عيوبها فيقول: «اُخْرُجْ مِنْ أَوْصَافِ بَشَرِيَّتِكَ عَنْ كُلِّ وَصْفٍ مُنَاقِضٍ لِعِبُودِيَّتِكَ» أنت عبد، والعبد ذليل مفتقر إلى مولاه، وإذا استغنى العبد لم يكن عبداً بل صار لنفسه رباً، وإذا تكبر العبد صار قهاراً فيصير لنفسه إلهاً، ولو قال: لا إله إلا الله بلسانه فهو لا يعبد إلا هواه، ولذا يحجب عن أنوار هذه الكلمات، وعن معاني هذه الحقائق، فلذا يجب عليه أن يخرج من أوصاف بشريته التي تحجبه عن ربه ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فهل أنت من عباد الله ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

إذا كنت عبداً لله تحققت بأوصاف العبودية، وتخلصت من أوصاف البشرية الحاجة لك عن أوصاف العبودية، ولكن لما لم تتحقق بأوصاف العبودية لله عز وجل، ولم تتخلص من أدران الأوصاف القهرية الحاجة لك عن

حقائق العبودية، سألت الله ولست عبداً لله في الحقيقة، أنت عبد لبعض أوصافك دون أن تدري، فلم تدرج تحت الآية فلا تكذب القرآن، فتصير تحت قوله ﴿عِبَادِي﴾ بتحقيق أوصاف العبودية بالخضوع والقهر، وكمال الفقر إلى الله ﷻ، وعدم النظر إلى سوى الله ﷻ، وعدم وجود الشهوة التي تحول بينك وبين ربك، فإذا تحققت بذلك إذا سألت أجابك، فتخلص من الكبر والأنانية والطمع والشح والانتصار للنفس والخصومة والحرص وطلب اللذة العاجلة والكسل والتسويق والهلع والجزع، فهذه أوصاف بشريتك، وتحقق بأوصاف العبودية من الاعتراف بالجهل والعجز والفقر، فيستر جهلك بعلمه، وعجزك بقدرته، وفقرك بغناه.

«لِتَكُونَ لِنِدَاءِ الْحَقِّ مُجِيبًا وَمِنْ حَضْرَتِهِ قَرِيبًا» ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ فأنت قريب من الحضرة إذا تحققت بأوصاف العبودية، بعيد عن الحضرة إذا تخلقت بأوصاف الربوبية. وأوصاف الربوبية فيك هي القهرية، والسيطرة، والقهر، والجبر، والانتقام، وغير ذلك من الأوصاف، فكل هذه أوصاف ربوبية خلقها الله فيك لتقاومها فتخرج منها إليه، فإن نجحت كانت لك الجنة، جنة المعارف قبل جنة الزخارف.

الحكمة الخامسة والثلاثون

أَصْلُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ وَغَفْلَةٌ وَشَهْوَةُ الرِّضَا عَنِ النَّفْسِ، وَأَصْلُ كُلِّ طَاعَةٍ وَيَقْظَةٌ وَعَقَّةٌ عَدَمُ الرِّضَا مِنْكَ عَنْهَا. وَلَأَنْ تَصْحَبَ جَاهِلًا لَا يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَصْحَبَ عَالِمًا يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ. فَأَيُّ عِلْمٍ لِعَالِمٍ يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ؟! وَأَيُّ جَهْلٍ لَجَاهِلٍ لَا يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ؟!

شرح الحكمة

جميع أمراض القلوب وإن تعددت فمصدرها واحد وهو (الرضا عن النفس) وكل إنسان لديه أنفس، وأخطرها النفس الأمارة بالسوء، فإذا جاهدتها ترقى وصارت (لوامة)، والنفس اللوامة لها درجات كثيرة في كل إنسان، فهناك نفس تلومك على الكبائر فقط، وهناك نفس تلومك على الكبائر والصغائر. وهناك أعلى تلومك على فعل المكروه، وهناك أعلى تلومك على ترك الفرائض. وهناك أعلى تلومك على ترك السنن، حتى تترقى منها فتصبح (ملهمة)، وتترقى فتصبح (راضية) أي راضية عن ربها فإذا ارتقت صارت (مرضية) فيرضيها الله ﷻ ؛ لأنها رضية عن أفعاله فرضي عنها، فتصبح (مطمئنة كاملة). وهذا الترقى إنما يتحقق به من لا يرضى عن نفسه.

والنفس مبنية على النقص، ولا تكمل إلا بالله ﷻ، فإن اعتقد الإنسان أن نفسه كاملة ورضي عنها، فقد وصفها بأوصاف الربوبية، لأن الكمال للرب ﷻ، ووجب علينا أن نتخلق بأخلاق العبودية حتى نتقرب من حضرة الربوبية.

لذلك قال «وَلَا تَصْحَبْ جَاهِلًا لَا يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَصْحَبَ عَالِمًا يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ» لأن عدم الرضا عن النفس هو عين العلم، والرضا بالنفس هو عين الجهل.

الحكمة السادسة والثلاثون

شُعَاعُ الْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ قُرْبَهُ مِنْكَ، وَعَيْنُ الْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ عَدَمَكَ لِوُجُودِهِ، وَحَقُّ الْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ وَجُودَهُ، لَا عَدَمَكَ وَلَا وُجُودَكَ.

شرح الحكمة

البصيرة هي عين القلب، وتتفاوت على حسب إدراكها للنور الحقيقي الذي خلقه الله ﷻ في ظلمة الأكوان فأناورها إلى خمس أقسام:

القسم الأول: لا يرى إلا ظلمة الأكوان وهم الكفار، فهم مظموسون محجوبون عن الرحمن في الدنيا وفي الآخرة ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، لأن العقاب من جنس العمل. فلما حجبا في الدنيا عن الله ﷻ حجبا أيضاً في الآخرة، فهم محجوبون بالكلية عن نور البصيرة، فهؤلاء لا يرون نور الحقيقة، بل لا يرون نور الإله الخالق في الأكوان، ولا يرون إلا ظلمة العدم.

القسم الثاني: قسم يعلم بوجود هذه الأنوار دون أن يراها، وهم عوام المؤمنين، يعلمون يقيناً أن هناك خالقاً، وله أنوار وأنه ظاهر، ولكن لا يرون شيئاً من هذه الأنوار؛ لانشغالهم فيما ظهر من الأكوان فانطمست بصائرهم، وعقولهم وصلت إلى وجود الرحمن، ولكن دون أن ترى بصائرهم شيئاً.

القسم الثالث: وهو النوع الذي بدأ يتحقق بحقائق الإيمان فأزال جزءاً من أدران قلبه، وأوصاف بشريته الحاجبة عنه، فصارت الأنوار تدخل إليه، ولكن لوجود الحجب الكثيفة فيكون دخول النور على هيئة شعاع، فيبدأ شعاع الحقيقة يشع في القلب وهو شعاع البصيرة. وهؤلاء يُسمون أيضاً بأهل المراقبة، فبداية السلوك يبدأ بالمراقبة (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك). لذلك قال «شُعَاعُ الْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ قُرْبَهُ مِنْكَ».

القسم الرابع: بعد أن تترقى في مقام المراقبة وتستشعر أن الله عز وجل معك، وأنه ناظرٌ إليك. وتستمر في تخلية حالك عن كل ما يبعدك عن الله ﷻ، وتتحرى بالفضائل، وتصير مخلصاً لله ﷻ، ولا تطلب سواه ستبدأ عين البصيرة تفتح عينها، لكنها لا تنفتح بصورة كاملة لشدة الأنوار عليها، لذلك قال: «وَعَيْنُ الْبَصِيرَةِ يُشْهَدُ عَدَمُكَ لَوْجُودِهِ».

القسم الخامس: أهل التمكين والمشاهدة، والتمكين هو أن تُفتح عين البصيرة بالكامل، وتسمى (حق البصيرة) وفي هذا المقام لا تشهد لا وجود ولا عدم، ولا تشهد إلا الله، كان الله ولا شيء معه، فتفنى عن الفناء. فشعاع البصيرة يشهدك قربك من الحق، وعين البصيرة تفنيك عن نفسك، وحق البصيرة يفنيك عن الفناء نفسه فلا تشهد إلا الله لذلك قال في الحكمة التالية.

الحكمة السابعة والثلاثون

كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءٌ مَعَهُ، وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ.

شرح الحكمة

فلا شيء معه حتى بعد خلق الخلق، فالخلق به لا معه، والمعية صفته سبحانه وليست صفة الخلق، ولذلك قال سبحانه ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وقال سيدنا موسى ﷺ ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، ولم يقل أنا مع ربي.

الحكمة الثامنة والثلاثون

لَا تَتَعَدَّ نِيَّةَ هِمَّتِكَ إِلَى غَيْرِهِ، فَالكَرِيمُ لَا تَخْطَأُهُ الْآمَالُ.

شرح الحكمة

أي أن العبد في سلوكه إلى الله عليه ألا يتعلق أمله ولا همته إلا في الله ﷻ، فيطلب من الله ﷻ كل شيء الصغير والكبير، فهو مفتقر إلى الله في أكبر الأشياء وفي أدقها. وأن يعلم أن الله ﷻ هو الضار وهو النافع وهو الرزاق، وبيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، وكل ما يحدث في الأكوان بمشيئته، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. فلما علم العارف ذلك تعلقته همته بأصل الهمم وأصل العطايا، وتعلقت همته بالوهاب الرزاق الذي إذا لم يُسأل يغضب، وإذا سئل أعطى أكثر مما سُئل، وإذا حاسب يغض الطرف عن الكثير.

فالهمة إذا ارتبطت بالقصد مع الفعل تسمى نية، والنية: هي القصد المطابق للعمل، والهمة: هي القصد المتأخر عن العمل أو السابق لها.

قال الشيخ: «لَا تَتَعَدَّ نِيَّةَ هِمَّتِكَ إِلَى غَيْرِهِ» أي لا تجعل نيتك في الأعمال سواء كانت أعمال قلوب أو أعمال الجوارح إلا لله ﷻ؛ لأنك لو فعلتها لغيره وكلك لغيره، وغيره عدم، وإذا وكلت إلى عدم لا تحصل على شيء، فكل ما سوى الله باطل.

أكل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

إلا نعيم الجنة بإذن الله.

«فالكريم لا تتخطأه الآمال» فالله ﷻ كريم، فكيف تترك أملك يتخطى الكريم إلى اللئيم؟!، وكل ما سوى الله فيه لؤم. إلا الله الكريم الذي يعطي بمحض فضله، وانظر كيف يُعطي الله ﷻ للكفار فضلاً عن عصاة المسلمين وهم يبارزونهم بالكفر علانيةً ليل نهار منذ خلق السماوات والأرض إلى أن تقوم الساعة وما زال يعطيهم سبحانه.

والله ﷻ أكرم الكرماء، كم أعطى منذ خلق السماوات والأرض إلى الآن، ولا تنفذ خزائنه ﷻ، بل كل ما سوى الله إذا ألححت عليه بالسؤال يصدق، والله ﷻ يحب من عبده الإلحاح لأنه كريم سبحانه، فإذا عرفت الله حقيقة فلا تستطيع أن توجه نيتك وهمتك إلا له سبحانه، لأن كل ما سواه لئيم، ولذا لما كان رسول الله ﷺ أعلم الخلق بالله لم تتعد نيته في لحظة من اللحظات عن الله أبداً، بل لما وقف أهل الأرض كلهم ضد النبي ﷺ قال: «إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن رحمتك أوسع لي أو عافيتك أوسع لي»^(١) لافتقار المخلوق إلى عافية الخالق، فواجه الأرض جميعاً بمفرده ﷺ لعلمه أن همته متعلقة بالكريم القادر القوي، ولذلك قال تعالى ﴿فَقَلِيلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤].

ولذا من تحقق بحقيقة النبي ﷺ في الاتباع، لا تتعلق همته ولا أمله ولا

(١) الطبراني في المعجم الكبير (١٨١) عن عبد الله بن جعفر، قال: لما توفي أبو طالب خرج النبي ﷺ إلى الطائف ماشياً على قدميه، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يجيبوه فانصرف، فأتى ظل شجرة فصلى ركعتين، ثم قال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس أرحم الراحمين، أنت أرحم الراحمين، إلى من تكلني؟، إلى عدو يتجهمني، أم إلى قريب ملكته أمري، إن لم تكن غضباناً علي، فلا أبالي، إن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تنزل بي غضبك، أو تحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، لا قوة إلا بك»

حاجته إلا بالله، وأخذه بالأسباب تعبدي، فكان رسول الله ﷺ أكثر الناس أخذًا بالأسباب، وفي نفس الوقت لا يلتفت إلى الأسباب، يأخذ بالأسباب ظاهراً والقلب متعلق بالله باطنًا، يأخذ الدواء ظاهراً والقلب متعلق بالشفاء من الله باطنًا، ويمسك السلاح ويجيش الجيوش ظاهراً ويعلم أن النصر من الله باطنًا لا من فعله ﷺ ولا من فعل غيره ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]، فلما كانت رمية النبي ﷺ بالله رمى قبضة من الحصى على جيش فيه أكثر من ألف مقاتل، فيصيب كل عيون الجيش بعفار هذه الرمية؛ لأن هذه الرمية كانت بالله ﷻ وهذا هو معنى قول النبي ﷺ: «كُنْتُ سَمْعُهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرُهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدُهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا» (١).

ولمّا تحقق سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بحقائق اتباع النبي الكريم ﷺ وصار رسول الله ﷺ أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه، كشف الله ﷻ له عن سمعه وبصره، فسمع ورأى الجيش في الشام، وهو على المنبر في المدينة، وقال: يا سارية الجبل، وسارية ﷻ سمعه، وهذا ليس بطاقة بشر. وهذا حال من نظر بالله وتكلم بالله وسمع بالله، فكل من تعلقت همته بالله صارت أقوى من كل شيء، وكل من تعلقت همته بغير الله صار أضعف من كل شيء، فالإنسان خلق ضعيفاً، ولكن متى يكون قوياً؟ إذا صار بالله، وخلق الإنسان ليئماً، ومتى يكون كريماً؟ إذا صار بالله، وخلق الإنسان كفوراً ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨] ومتى يكون عالماً عارفاً مؤمناً متحققاً بخلاف ذلك

(١) البخاري (٦٥٠٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعُهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرُهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدُهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلُهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»

فصار عارفاً بالله، فإن تعلقت همّة العبد بغير الله تخلق بأوصافه الأصلية،
فصار لئيمًا كفورًا ضعيفًا ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]،
فلما رفع همته بالله صار كريمًا، وصدوقًا، وقويًا، وصار مؤمنًا عارفاً.

الحكمة التاسعة والثلاثون

لَا تَرْفَعَنَّ إِلَى غَيْرِهِ حَاجَةً هُوَ مُورِدُهَا عَلَيْكَ. فَكَيْفَ يَرْفَعُ غَيْرُهُ مَا كَانَ
هُوَ لَهُ وَاضِعًا! مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَةً عَنْ نَفْسِهِ فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ
أَنْ يَكُونَ لَهَا عَنْ غَيْرِهِ رَافِعًا؟!

شرح الحكمة

من كمال الأدب إذا تعرف الله عليك بتعريفٍ جلالِيٍّ أو جمالي فلا
ترفعن حاجةً أورها الله عليك إلى غيره، فالمصنف يتعجب ممن يرفع
حاجته لغيره تعالى، أي يشتكي الله ﷻ إلى غيره من الخلق. يقول: «فَكَيْفَ
يَرْفَعُ غَيْرُهُ مَا كَانَ هُوَ لَهُ وَاضِعًا!» فالله سبحانه هو الذي وضع هذا الأمر،
فهل لغيره القوة في أن يرفع ما قدره حتى ترفع إلى غيره؟ وهذا دليل على
انطماس البصيرة، يقول الشيخ أبو الحسن الشاذلي^(١) في بعض أدعيته:

(١) هو السيد الإمام أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن يوسف، وينتهي نسبه إلى ادريس
بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب رضي الله عنهم اجمعين. ولد رضي الله
عنه في سنة ٥٩١هـ، ويقال سنة ٥٩٣هـ.

أما صفته فقال الشيخ أبو العزائم ماضي تلميذ الإمام الشاذلي وخادمه كانت صفته ءادم
اللون، نحيف الجسم، طويل القامة، خفيف العارضين، وكان فصيح اللسان، عذب الكلام.
لقاءه بشيخه والأخذ عنه: فقد سافر الإمام الشاذلي إلى العراق فيقول عن سفرته (لما

(أَيْسَتْ مِنْ نَفْعٍ نَفْسِي لِنَفْسِي، فَكَيْفَ لَا أَيْأَسُ مِنْ نَفْعٍ غَيْرِي لِنَفْسِي، وَرَجَوْتُ اللَّهَ لَغَيْرِي، فَكَيْفَ لَا أَرْجُوهُ لِنَفْسِي) والمصنف قال في مناجاته (أَنَا الْفَقِيرُ فِي غِنَايَ، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ فَقِيرًا فِي فَقْرِي، إِلَهِي أَنَا الْجَاهِلُ فِي عِلْمِي، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ جَهُولًا فِي جَهْلِي) فحقيقة الإنسان هكذا.

قال الشيخ: «مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَةً عَنْ نَفْسِهِ فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ لَهَا عَنْ غَيْرِهِ رَافِعًا؟» تخلق بأخلاق سيدنا يعقوب عليه السلام ﴿وَأَنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦] فلم

دخلت العراق اجتمعت بالشيخ الصالح أبي الفتح الواسطي فما رأيت بالعراق مثله، وكنت اطلب لقاء القطب. فقال لي طلب القطب في العراق وهو في بلادك، ارجع إلى بلادك تجده) قال: فرجعت إلى المغرب إلى أن اجتمعت بأستاذي الشيخ الولي العارف الصديق القطب الغوث أبي محمد عبد السلام بن مشيش الشريف الحسني.

قال أبو الحسن الشاذلي: وهو يسكن مغارة في رأس الجبال، اغتسلت في عين في أسفل الجبل وطلعت عليه فلما رأيته قال: مرحباً بعلي بن عبد الله بن عبد الجبار، فذكر نسيي إلى رسول الله ﷺ فأخذني منه الدهش فأقمت عنده أياماً إلى أن فتح الله علي بصيرتي، وبعدها قال لي يا علي ارتحل إلى بلدة اسمها (شاذلة) وبعدها ستنتقل إلى المشرق وبها ترث القطبانية.

تلاميذه: من أشهر تلاميذه الذين ورثوا علمه أحمد أبو العباس المرسي والعز بن عبد السلام وابن دقيق العيد وعبد العظيم المنذري وابن الصلاح وابن الحاجب وغيرهم كثير.

مواعظه: من مواعظه رضي الله عنه: إذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالسنة ودع الكشف، وقل لنفسك: ان الله تعالى قد ضمن العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها في جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة، مع انهم اجمعوا على انه لا ينبغي العمل بالكشف والإلهام والمشاهدة إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة.

وكان يقول من لم يزد بعلمه وعمله افتقاراً إلى ربه وتواضعاً لخلقه فهو هالك.

وفاته: حج مرات عديدة وتوفي في صحراء عيذاب في حميثة في شهر ذي القعدة سنة ٦٥٦هـ. قال الشيخ أبو العباس المرسي ان الشيخ أبو الحسن الشاذلي كان يحج كل عام فلما كان آخر سنة خرج فيها فقال لخدمته: استصحب فأسأ وقفة حنوط، فقال له لماذا؟ قال: في حميثة سوف ترى. فلما بلغ حميثة اغتسل الشيخ وصلى ركعتين فقبضه الله في اخر سجدة ودفن هناك.

يفقد أمله بالله أبداً أن يرفع الضر عنه، وأن يأتيه بأولاده مدة خمسين عاماً،
لعلمه بالله وعدم يأسه من جمال الله ﷻ، لأن الأنبياء أعلم الخلق بالله.

ف«مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَةً عَنْ نَفْسِهِ فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَنْ
يَكُونَ لَهَا عَنْ غَيْرِهِ رَافِعًا؟» أي من عجز عن إصلاح نفسه بنفسه لنفسه،
فكيف يستطيع أن يصلح حاجة غيره لغيره ﴿وَلِإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا
يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ [الحج: ٧٣] هل يوجد أقل
وأحقر مما تأكله الذبابة، ولا تستطيع أن تستنقذه منها، فكيف تطلب من
الجاهل العاجز الضعيف رفع شيء أَرَادَهُ اللهُ ﷻ وَقَدَّرَهُ عَلَيْكَ، ولذا عليك
أن تسكن للأقدار سكون الصابر إن كانت الأقدار فيها شدة، أو الراضي إن
كانت الأقدار حلوة، أو المحب إن كانت محبوبة، فتقلب بين الصبر والرضا
والمحبة، وتقابل التعرف الجلالي القهري بالجمال الباطن فيه، لأن صفات
الجلال لا تمنع صفات الجمال، فالله جميل جليل في كل لحظة، فيأتي بالقدر
الجلالي ومعه الجمالي في آنٍ واحد.

الحكمة الأربعون

إِنْ لَمْ تَحْسَنْ ظَنَّاكَ بِهِ لِأَجْلِ وَصْفِهِ، فَحَسِّنْ ظَنَّاكَ بِهِ لِأَجْلِ مَعَامِلَتِهِ
مَعَكَ، فَهَلْ عَوْدُكَ إِلَّا حَسَنًا؟ وَهَلْ أَسْدَى إِلَيْكَ إِلَّا مِنَّا؟

شرح الحكمة

«إِنْ لَمْ تَحْسَنْ ظَنَّاكَ بِهِ لِأَجْلِ وَصْفِهِ» وَالله ﷻ رُؤُوفٌ، لَطِيفٌ، رَحِيمٌ،
جَمِيلٌ، جَلِيلٌ، عَظِيمٌ، نَافِعٌ، بَاسِطٌ، فَإِنْ لَمْ تَحْسَنْ الظَّنَّ بِهِ مِنْ أَجْلِ وَصْفِهِ،

فحسّن ظنك به لأجل معاملته معك سابقاً، تذكر كيف لطف بك دون أن تسأله سابقاً، ومن أفضل النعم نعمة الإسلام، أعطاك الإسلام دون أن تسأله، وانظر إلى نعمه عليك منذ أن أوجدك وأنت في بطن أمك إلى هذا الوقت الذي جاء عليك القدر الجلالي، فإذا لم تر أصل الرحمة في القدر الجلالي، فتذكر معاملته لك سابقاً لتحسن الظن به لاحقاً، ولكن أهل التعرف وأهل المعرفة يرون الجمال متخللاً مع الجلال في كل لحظة.

تعلق نظر العارف بعالم الجبروت ونظر إلى عالم الأمر فوجد أن كل ما يأتي من الله خير، وتعلق نظر السالك بالملك فحُجب بالملك عن المالك سبحانه.

والمؤمنون على قسمين: الخواص: الذين فنوا في صفات الله عز وجل، فيرون الصفات فاعلة في كل لحظة، والعوام: الذين فنوا في الأفعال فلا يرون الصفات، أي يرون الأفعال الواقعة عليهم ولا يرون الصفات، فإذا كنت من أهل الفناء في الأفعال ومن العوام، فهلا تفكرت في ما أسدى إليك سابقاً من المنن منذ أن أوجدك، فلم تيأس من رحمته؟ واعلم أن ما كتبه عليك هو عين المنّة، فعليك أن تنظر للأمور بحقيقتها حيث أنه أقامك في دار الأكراد ولا يأتي في هذه الدار إلا الأكراد، ليسوقك بها إليه من غفلتك فتوجه إليه ضعيفاً مضطراً، فتكون أقرب للقبول والإقبال عليه.

فالجلال يتخلله الجمال، والجمال يتخلله الجلال في آن واحد ﴿وَنَبَلُوكُم بِالْإِسْرِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] فإذا أعطى الله ﷻ الغني المال فإن لم يستخدم المال في الوصول إلى الله ﷻ صار المال داء، وإن استخدمه للوصول إلى الله صار دواء.

والفقير إن صبر على فقره ولم تتعلق همته بغير الله ولم ينظر لما في يد الغني وقنع بما أقامه الله فيه صار الفقر له دواء، وإن لم يقنع بفقره وتعلقت آماله بالعباد صار الفقر له داء وهكذا.

فالفرق بين الجاهل والولي، إن الجاهل غير عارف بربه، أما الولي فعارف بربه، فيجد الله في كل شيء، ويعرف الله في كل شيء، ولا يفقد الله في أي شيء، فصار عبداً لله يسيره كيف شاء، والعبد لا إرادة له ولا اختيار مع مالكة، فإن كنت عبداً لله فتسلب الإرادة والاختيار والقدرة والسمع والبصر، أي الصفات الربوبية التي وضعها الله فيك، فتصير إرادتك هي إرادة الله ﷻ، وقدرتك هي من عند الله، وسمعتك بالله وبصرك بالله.

فإن تخلقت بصفات الربوبية التي وضعها الله ﷻ فيك وقنعت بما قسمه الله لك من هذه الصفات واعتمدت عليها وكلكت لنفسك، لأن هذه الصفات ليست ذاتية فيك، بل هي من الله ﷻ، فإن تعلقت بها وجدت لها هباءً وعدمًا ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، وقال الله ﷻ ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ ٨١ ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيُكَاتِبُ اللَّهُ يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٨١-٨٢] بالمعرفة والافتقار إليه وكمال الفهم عن الله ﴿لَخَسَفَ بَنًا وَيَكَاثِبُهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ٨٢ ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ٨٣ [القصص: ٨٢-٨٣] أي العارفين بالله، المستسلمين لأقدار الله، الراضين بأحكام الله ﷻ، الفانين في صفاته أو أفعاله، فلا فعل لهم ولا صفة مع صفة الله فصاروا عبيداً لله فاستجاب لهم ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] فإن سألوه أعطاهم؛ لأنهم صاروا خُلصاً لله ﷻ.

وفي الحديث الشريف «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحَبَّهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»^(١).

الحكمة الحادية والأربعون

الْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ مِمَّنْ يَهْرُبُ مِمَّنْ لَا انْفِكَاءَ لَهُ عَنْهُ، وَيَطْلُبُ مَا لَا بَقَاءَ لَهُ مَعَهُ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]

شرح الحكمة

فالعجب كل العجب من تصارع الناس والحصول على ملذاتهم الدنيوية أو ملذاتهم القلبية، والملذات الدنيوية كالشهوات في المآكل والمناكح والمشارب، والملذات القلبية حب الجاه والظهور والشهرة والسيطرة والانتقام والقهر وغير ذلك، وكل هذه الأشياء متعلقة بالدنيا والدنيا فانية.

قال الشيخ: «الْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ مِمَّنْ يَهْرُبُ مِمَّنْ لَا انْفِكَاءَ لَهُ عَنْهُ» يهرب من الآخرة التي لا بد منها «وَيَطْلُبُ مَا لَا بَقَاءَ لَهُ مَعَهُ» (أي الدنيا. و) «الْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ مِمَّنْ يَهْرُبُ مِمَّنْ لَا انْفِكَاءَ لَهُ عَنْهُ» القبر والحساب والآخرة والوقوف بين يدي الله ﴿فَإِنَّ تَذْهَبُونَ﴾ (٢٦) «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٢٧) [التكوير: ٢٦-٢٧]

(١) سبق تخريجه.

هب الدنيا تساق إليك عفواً أليس مصيرُ ذاك إلى الزوالِ
وما ترجو لشيءٍ ليس يبقَى وشيكاً ما تغيره الليالي
والشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمته الله يقول: (عمى البصيرة في ثلاث:
إرسال الجوارح في معاصي الله، والطمع في خلق الله، والتصنع بطاعة الله).

والإمام الشافعي^(١) يقول:

رأيت القناعة رأس الغنى فصرت بأذيالها متمسك
فلا ذا يراني على بابه ولا ذا يراني به منهمك
فصرت غنياً بلا درهم أمر على الناس شبه الملك

(١) قال الإمام الذهبي: هو الإمام مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ شَافِعٍ بْنِ السَّائِبِ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ عَبْدِ يَزِيدَ بْنِ هِشَامِ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ قُصَيٍّ بْنِ كِلَابٍ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ بْنِ لُؤَيٍّ بْنِ غَالِبٍ، الإِمَامُ، عَالِمُ الْعَصْرِ، نَاصِرُ الْحَدِيثِ، فَقيهُ الْمِلَّةِ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْقُرَشِيُّ، ثُمَّ الْمُطَّلِبِيُّ، الشَّافِعِيُّ، الْمَكِّيُّ، الْغَزِّيُّ الْمَوْلِدِ، نَسِبُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَأَبْنُ عَمِّهِ، فَالْمُطَّلِبُ هُوَ أَخُو هَاشِمٍ وَإِلِدُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ.

اتَّفَقَ مَوْلِدُ الإِمَامِ بَغْرَةَ، وَمَاتَ أَبُوهُ إِدْرِيسُ شَابًا، فَنشأ مُحَمَّدٌ يَتِيمًا فِي حَجَرِ أُمِّهِ، فَخَافَتْ عَلَيْهِ الضَّيْعَةُ، فَتَحَوَّلَتْ بِهِ إِلَى مَحْتَدِهِ وَهُوَ ابْنُ عَامِنٍ، فَنشأ بِمَكَّةَ، وَأَقْبَلَ عَلَى الرِّمِيِّ، حَتَّى فَاقَ فِيهِ الْأَقْرَانَ، وَصَارَ يُصِيبُ مِنْ عَشْرَةِ أَشْهُمٍ تِسْعَةً، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْعَرَبِيَّةِ وَالشَّرْعِ، فَبَرَعَ فِي ذَلِكَ، وَتَقَدَّمَ.

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ: قَالَ لِي الشَّافِعِيُّ: وُلِدْتُ بَغْرَةَ، سَنَةَ خَمْسِينَ وَمِائَةٍ، وَحُمِلْتُ إِلَى مَكَّةَ ابْنِ سِتِّينَ.

عَنْ ابْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ، قَالَ: لَمَّا حَمَلَتْ وَالِدَةُ الشَّافِعِيِّ بِهِ، رَأَتْ كَأَنَّ الْمُشْتَرِيَّ خَرَجَ مِنْ فَرْجِهَا، حَتَّى انْقَضَ بِمِصْرَ، ثُمَّ وَقَعَ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ مِنْهُ سَطِيئَةٌ، فَتَأَوَّلَهُ الْمُعَبَّرُونَ أَنَّهَا تِلْدٌ عَالِمًا، يَخُصُّ عِلْمُهُ أَهْلَ مِصْرَ، ثُمَّ يَتَفَرَّقُ فِي الْبُلْدَانِ

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الطَّائِيُّ الْأَفْطَحُ: حَدَّثَنَا الْمُزَنِيُّ، سَمِعَ الشَّافِعِيَّ يَقُولُ: حَفِظْتُ الْقُرْآنَ وَأَنَا ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ، وَحَفِظْتُ (الْمَوْطَأَ) وَأَنَا ابْنُ عَشْرِ.

وُلِدَ الشَّافِعِيُّ يَوْمَ مَاتَ أَبُو حَنِيفَةَ - رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى

وَعَنِ الشَّافِعِيِّ، قَالَ: أَتَيْتُ مَالِكًا وَأَنَا ابْنُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً - كَذَا قَالَ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ كَانَ ابْنَ ثَلَاثٍ وَعَشْرِينَ سَنَةً - قَالَ: فَاتَيْتُ ابْنَ عَمِّ لِي وَالِي الْمَدِينَةِ، فَكَلَّمْتُ مَالِكًا، فَقَالَ: اطْلُبْ مَنْ يَقْرَأُ لَكَ. قُلْتُ: أَنَا أَقْرَأُ. فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ، فَكَانَ رُبَّمَا قَالَ لِي لَشَيْءٍ قَدْ مَرَّ: أَعِدْهُ. فَأَعِيدُهُ حِفْظًا، فَكَانَتْهُ أَعْجَبَهُ، ثُمَّ سَأَلْتُهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ، فَأَجَابَنِي، ثُمَّ أُخْرَى، فَقَالَ: أَنْتَ تُحِبُّ أَنْ تَكُونَ قَاضِيًا ثُمَّ حُبَّ إِلَيْهِ الْفِقْهُ، فَسَادَ أَهْلُ زَمَانِهِ.

وَأَخَذَ الْعِلْمَ بِلَدِّهِ عَنْ: مُسْلِمِ بْنِ خَالِدِ الزُّنْجِيِّ - مُقْتَبِي مَكَّةَ - وَدَاوُدَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْعَطَّارِ، وَعَمِّهِ؛ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ شَافِعٍ - فَهُوَ ابْنُ عَمِّ الْعَبَّاسِ جَدِّ الشَّافِعِيِّ - وَشُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الْمُتْلِكِيَّ، وَسَعِيدَ بْنِ سَالِمٍ، وَفُضَيْلَ بْنَ عِيَّاضٍ، وَعِدَّةٍ. وَلَمْ أَرَ لَهُ شَيْئًا عَنْ نَافِعِ بْنِ عُمَرَ الْجُمَحِيِّ وَنَحْوِهِ، وَكَانَ مَعَهُ بِمَكَّةَ.

وَارْتَحَلَ - وَهُوَ ابْنُ ثِيَفٍ وَعَشْرِينَ سَنَةً، وَقَدْ أَقْبَى وَتَأَهَّلَ لِلْإِمَامَةِ - إِلَى الْمَدِينَةِ، فَحَمَلَ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ (الْمُوطَأَ)، عَرَضَهُ مِنْ حِفْظِهِ. وَقِيلَ: مِنْ حِفْظِهِ لِأَكْثَرِهِ. وَحَمَلَ عَنْ: إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي يَحْيَى - فَأَكْثَرَ - وَعَبْدَ الْعَزِيزِ الدَّرَّازِ وَدِيٍّ، وَعَطَّافِ بْنِ خَالِدٍ، وَإِسْمَاعِيلَ بْنَ جَعْفَرٍ، وَإِبْرَاهِيمَ بْنَ سَعْدٍ، وَطَبَقَتِهِمْ. وَأَخَذَ بِالْيَمَنِ عَنْ: مُطَرِّفِ بْنِ مَازِنٍ، وَهَشَامِ بْنِ يُونُسَ الْقَاضِي، وَطَائِفَةٍ. وَبَعْدَادَ عَنْ: مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ؛ فَقِيهِ الْعِرَاقِ، وَلَا زَمَهُ، وَحَمَلَ عَنْهُ وَقَرَّ بَعِيرٌ. وَعَنْ: إِسْمَاعِيلَ ابْنَ عَلِيَّةَ، وَعَبْدَ الْوَهَّابِ الثَّقَفِيِّ، وَخَلْقٍ.

وَصَنَّفَ التَّصَانِيفَ، وَدَوَّنَ الْعِلْمَ، وَرَدَّ عَلَى الْأَئِمَّةِ مُتَّبِعًا الْأَثَرِ، وَصَنَّفَ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ وَفُرُوعِهِ، وَبَعْدَ صِيَّتِهِ، وَتَكَاثَرَ عَلَيْهِ الطَّلَبَةُ.

حَدَّثَ عَنْهُ: الْحُمَيْدِيُّ، وَأَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَامٍ، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ الْهَاشِمِيُّ، وَأَبُو يَعْقُوبَ يُونُسَ الْبُوطَيْطِيُّ، وَأَبُو ثَوْرٍ إِبْرَاهِيمُ بْنُ خَالِدِ الْكَلْبِيِّ، وَحَرَمَلَةُ بْنُ يَحْيَى، وَمُوسَى بْنُ أَبِي الْجَارُودِ الْمَكِّيُّ، وَعَبْدُ الْعَزِيزِ الْمَكِّيُّ - صَاحِبُ (الْحَيْدَةِ) .

وَيُرْوَى عَنِ الشَّافِعِيِّ: أَقَمْتُ فِي بَطْنِ الْعَرَبِ عَشْرِينَ سَنَةً، أَخَذْتُ أَشْعَارَهَا وَلُغَاتِهَا، وَحَفِظْتُ الْقُرْآنَ، فَمَا عَلِمْتُ أَنَّهُ مَرَّ بِي حَرْفٌ إِلَّا وَقَدْ عَلِمْتُ الْمَعْنَى فِيهِ وَالْمُرَادَ

وفاته: قَالَ الْمَزْنِيُّ: دَخَلْتُ عَلَى الشَّافِعِيِّ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ!

كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟

الحكمة الثانية والأربعون

لَا تَرَحَّلْ مِنْ كَوْنٍ إِلَى كَوْنٍ فَتَكُونَ كَحِمَارِ الرَّحَى؛ يَسِيرُ وَالْمَكَانُ الَّذِي ارْتَحَلَ إِلَيْهِ هُوَ الَّذِي ارْتَحَلَ عَنْهُ. وَلَكِنْ ارْحَلْ مِنَ الْأَكْوَانِ إِلَى الْمَكُونِ، ﴿وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ٤٢]٠ وانظر إلى قوله ﷺ: فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَرَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ، فَافْهَمْ قَوْلَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَتَأَمَّلْ هَذَا الْأَمْرَ، إِنْ كُنْتَ ذَا فَهْمٍ وَالسَّلَامُ .

شرح الحكمة

بعدما رفع همتك عن كل ما سوى الله ﷻ لتصل إلى الله، وبصرك بعيوب نفسك، وخرجك منها بالتخلي عنها، وحلاك بالفضائل، مقتدياً برسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً وخلقاً، أراد أن يوضح لك أنك في سلوكك إلى الله ﷻ عليك أن تعلي همتك فتكون الهمة لله لا لغيره، حتى لا تكون راحلاً من الأكوان إلى الأكوان؛ لأنه لو كانت همتك في السير هي رؤية الملائكة، أو حدوث الكرامات، أو انكشاف بعض الغيوب، أو حتى الدخول في الجنان والتمتع بحور العين وغير ذلك، فكل هذه الأشياء أكوان، وعليك أن تكون همتك لله ﷻ ولا قصد لك سواه.

فَرَفَعَ رَأْسَهُ، وَقَالَ: أَصْبَحْتُ مِنَ الدُّنْيَا رَاحِلاً، وَلِإِخْوَانِي مُفَارِقاً، وَلِسُوءِ عَمَلِي مُلَاقِياً، وَعَلَى اللَّهِ وَارِداً، مَا أَذْرِي رُوحِي تَصِيرُ إِلَى جَنَّةٍ فَأُهْنِيهَا، أَوْ إِلَى نَارٍ فَأُعْزِيهَا.

قَالَ هَذَا يَوْمَ الْأَحَدِ، وَمَاتَ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَأَنْصَرَفْنَا مِنْ جَنَازَتِهِ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، فَرَأَيْنَا هَالِكاً شَعْبَانَ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَمِائَتَيْنِ، وَلَهُ نَبِيٌّ وَخَمْسُونَ سَنَةً

فيقول لك: «لا تَرَحَلْ مِنْ كَوْنٍ إِلَى كَوْنٍ فَتَكُونَ كَحِمَارِ الرَّحَى؛ يَسِيرُ وَالْمَكَانُ الَّذِي ارْتَحَلَ إِلَيْهِ هُوَ الَّذِي ارْتَحَلَ عَنْهُ» حمار الرحى: الذي يدور في الطاحونة التي تطحن القمح والشعير، فهو يدور الليل والنهار وهو في موضعه بل «وَلَكِنْ ارْحَلْ مِنَ الْأَكْوَانِ إِلَى الْمُكُونِ، ﴿وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ٤٢]».

ثم بعد ذلك جاء بحديث يدل على المطلوب في رفع الهمة يقول: «وانظر إلى قوله ﷺ: فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَرَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ» والرسول ﷺ كرر كلمة هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، أما في الدنيا والمرأة فقال: (إلى ما هاجر إليه) احتقاراً، فأشار إليها بالغيبة لأنها لا تستحق أن تذكر، أما لما كانت الهمة العالية في الهجرة لله ورسوله فكررها لبيان علو الهمة.

ونفسك من الأكوان فأنت ترحل من نفسك إلى الله، وترحل من شهواتك وملذاتك وكل ما يحجبك من العلائق والعوائق إلى الله ﷻ، فأنت ترحل في المعنى وترحل في الحس، ترحل في الحس بترك المعاصي ظاهراً، وترحل في المعنى بالقلب متوجهاً إلى الله فلا تشغله عما سواه.

وسيدنا رسول الله ﷺ عرضت عليه الدنيا بحذافيرها، وأن تكون الجبال في يده ذهباً وفي يد غيره تراب، فردها وأباها، لكمال عقله ولكمال فهمه ﷺ، وذلك لعلمه أن الدنيا حقيرة، وثانياً لتتم الأسوة به للفقير. فرسول الله ﷺ يربط الحجر على بطنه من الجوع، ولا يمتد نظره إلى الحرام، ولو سأل الله لأطعمه من الجنة ولسقاه، ولكن يفعل ذلك ليتأسى به الفقير، ثم

لَمَّا تَأْتِيهِ ﷺ خَزَائِنُ الْأَرْضِ يَزْهَدُ عَنْهَا وَيُوزِعُهَا فَلَا يَبِيتُ فِي بَيْتِهِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ قِطْعَةً ذَهَبٍ، فَهُوَ أَسْوَأُ لِلْغَنِيِّ وَأَسْوَأُ لِلْفَقِيرِ فِي آتٍ وَاحِدٍ ﷺ، فَمَنْ عِنْدَهُ مَالٌ يَجِدُ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْأَسْوَأَ الْحَسَنَةَ وَيَعْرِفُ كَيْفَ يَتَصَرَّفُ فِي مَالِهِ كَمَا يَتَصَرَّفُ ﷺ، وَمَنْ لَيْسَ عِنْدَهُ مَالٌ فَيَجِدُ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْأَسْوَأَ الْحَسَنَةَ الَّذِي رُبَّمَا الْحَجَرُ عَلَى بَطْنِهِ مِنَ الْجُوعِ ﷺ وَلَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ كَمَا طَلَبَهَا غَيْرُهُ ﷺ لَعَلَّوْهُ هِمَّتُهُ عَنِ الدُّنْيَا.

«فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ» فَتَهَاجَرَ مِنْ دَارِ الْمَعَاصِي إِلَى دَارِ الطَّاعَةِ، تَهَاجَرَ مِنْ دَارِ الْإِسْلَامِ إِلَى دَارِ الْإِيمَانِ، ثُمَّ مِنْ دَارِ الْإِيمَانِ إِلَى دَارِ الْإِحْسَانِ، وَفِي دَارِ الْإِحْسَانِ تَهَاجَرَ مِنْ دَارِ الْمُرَاقَبَةِ إِلَى دَارِ الْمَشَاهِدَةِ، ثُمَّ تَهَاجَرَ مِنْ دَارِ الْمَشَاهِدَةِ إِلَى دَارِ التَّمَكُّنِ وَالتَّعْرِيفِ، وَتَهَاجَرَ مِنْ نَفْسِكَ حَيْثُ الْغَفْلَةِ إِلَى دَارِ الْيَقِظَةِ مَعَ اللَّهِ، وَتَهَاجَرَ مِنْ دَارِ الْيَقِظَةِ حَالِ الذِّكْرِ إِلَى دَارِ الْفَنَاءِ عَمَّا سِوَى الْمَذْكُورِ، فَكُلُّ هَذِهِ هِجْرَاتٌ.

وَلَا يَكُنْ هَدَفُكَ فِي هَذَا كُلِّهِ تَحْقِيقَ الْخُصُوصِيَّةِ، وَأَنْ يَشَارَ إِلَيْكَ بِالْبَنَانِ، وَتُظْهَرَ الْكَرَامَاتُ عَلَى يَدَيْكَ، وَتُكْشَفَ لَكَ الْحُجُبُ، فَتَكُونَ كَمَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ لَشَهْوَةِ خَفِيَّةٍ، وَلِتَحْقِيقِ مَصْلَحَةٍ، وَإِلَّا صَارَتِ الْهَجْرَةُ مَعْصِيَةً وَإِنْ كَانَتْ فِي ظَاهِرِهَا طَاعَةً، كَمَنْ هَاجَرَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَرِيدُ الدُّنْيَا، أَوْ لِأَجْلِ امْرَأَةٍ، فَكَانَ يَسِيرُ مَعَ الْمَهَاجِرِينَ فِي الظَّاهِرِ وَفِي الْحَقِيقَةِ يَهَاجِرُ إِلَى دُنْيَا.

وَلَمَّا كَانَتِ الْهَجْرَةُ إِلَى اللَّهِ ﷻ طَرِيقَهَا طَوِيلٌ حَسًّا وَمَعْنًا، فَالرَّسُولُ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو» أَيُّ يَهَاجِرُ وَيَسَافِرُ «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ

نَفْسُهُ فَمُوبِقُهَا أَوْ مُعْتِقُهَا»^(١) يهاجر في الدنيا حسًا ومعنًا، أي في الباطن فأنت تهاجر بين أفكار ونوازع ونوايا كثيرة في كل لحظة، وما سمي القلب قلبًا إلا لتقلبه، فأنت بقلبك في دوام الهجرة والتحرك. والنبی ﷺ يقول: «مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَزَاعَهُ» وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَا مُثَبَّتِ الْقُلُوبِ، ثَبَّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ. قَالَ: وَالْمِيزَانُ بِيَدِ الرَّحْمَنِ، يَرْفَعُ أَقْوَامًا وَيَخْفِضُ آخَرِينَ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٢).

الحكمة الثالثة والأربعون

لَا تَصْحَبْ مَنْ لَا يَنْهَضُكَ حَالُهُ وَلَا يَدُلُّكَ عَلَى اللَّهِ مَقَالُهُ.

شرح الحكمة

وأنت في سفرك تحتاج إلى صاحب يسير معك في رحلتك من الأكوان إلى المكون، فيحذرك الشيخ من أن تصحب من لا ينهضك حاله، أي همته ضعيفة، ولا يعرف آداب الصحبة، فاحذر هذا الصنف من الصحبة، فاصحب صاحبًا يكون لك كالمرآة فينصحك إذا أخطأت، ويقوي همتك من خلال أعماله الظاهرة والباطنة الموافقة للشرع الحكيم، فيحرك بك همة الإسراع في السفر من الكون إلى المكون.

(١) الترمذي (٣٥٢٢)، ابن ماجه (٢٨٠)، احمد (٢٢٩٠٨).

(٢) ابن ماجه (١٩٩).

الحكمة الرابعة والأربعون

رُبَّمَا كُنْتَ مُسِيئًا فَأَرَاكَ الْإِحْسَانَ مِنْكَ صُحْبَتُكَ مَنْ هُوَ أَسْوَأُ حَالًا مِنْكَ

شرح الحكمة

يحذرك الشيخ في هذه الحكمة من مصاحبة من هو أقل منك حالاً وعبادةً وعملاً؛ لأنك ستري نفسك عابداً ومحسناً قياساً على حاله فتقع في المحذور. ويحثك على مصاحبة طلاب الآخرة، وأصحاب الهمم العلية والعبادات والمجاهدات، فتصحبهم وتقندي بهم.

كان سيدنا الجنيد البغدادي رحمه الله جالسا مع مريديه، وجاءه رجل من تجار بغداد ووضع بين يديه صرة من المال، فقال له الإمام الجنيد هل عندك غيرها من المال؟ قال الرجل نعم. قال الإمام وهل تود الحصول على غيرها؟ قال الرجل نعم. قال الإمام فخذ صرتك فأنت أفقر إليها منا. نحن لا نملك المال ولا نريده وأنت تملكه وتريده.

فالزهد أن يستوي عندك التراب والفضة والحجر والذهب. فيحثك الشيخ على صحبة هؤلاء الرجال.

والله تعالى يحذر من أن يزكي الإنسان نفسه وعمله، فقال: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ ۖ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٩]، فلا تزك نفسك إن رأيت من هو أقل منك حالاً، واترك التزكية للخالق ﷻ ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

الحكمة الخامسة والأربعون

مَا قَلَّ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ زَاهِدٍ، وَلَا كَثُرَ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ رَاغِبٍ.

شرح الحكمة

يرغبك الشيخ في هذه الحكمة في مقام عالٍ من مقامات الزهد، وهو الزهد في الأعمال والمقامات الموصلة إلى الله، فلا تعبد من أجل الكرامة، ولا تطلب العلم وتقرأ القرآن من أجل الإجازات، فازهد فيها، واطلب الله ﷻ في عبادتك وجميع أعمالك.

قال سيدنا علي بن أبي طالب (عليه السلام) (كونوا لقبول العمل أشد منكم اهتماما للعمل، فإنه لا يقل عمل مع التقوى، وكيف يقل عمل يتقبل) فلو قبل الله ﷻ منك ركعتين ففيهما سعادة الدنيا والآخرة.

والنبي ﷺ يقول في الحديث القدسي: «إِنَّمَا أَتَقَبَّلُ الصَّلَاةَ مِمَّنْ تَوَاضَعَ لِعَظَمَتِي، وَلَمْ يَتَعَظَّمْ عَلَى خَلْقِي»^(١) فلو كان في قلبك ذرة من كبر لا تقبل الصلاة عند الله ﷻ ولو كانت صحيحةً فقهاً. قال الله ﷻ ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وانظر إلى كمال تواضع النبي ﷺ في قوله تعالى

(١) أبو نعيم في الحلية ج ٤ ص ١٨، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّمَا أَتَقَبَّلُ الصَّلَاةَ مِمَّنْ تَوَاضَعَ لِعَظَمَتِي، وَلَمْ يَتَعَظَّمْ عَلَى خَلْقِي، وَكَفَّ نَفْسَهُ عَنِ الشَّهَوَاتِ ائْتِغَاءَ مَرْضَاتِي، فَقَطَعَ نَهَارَهُ بِذِكْرِي، وَلَمْ يَبْتَ مُصْرًا عَلَى خَطِيئَتِهِ، يُطْعِمُ الْجَائِعَ، وَيَكْسُو الْعَارِي، يَرْحَمُ الضَّعِيفَ، وَيُؤْوِي الْغَرِيبَ، فَذَلِكَ الَّذِي يُضِيءُ وَجْهَهُ كَمَا يُضِيءُ نَوْرُ الشَّمْسِ، يَدْعُونِي فَأَلْبِي، وَيَسْأَلْنِي فَأُعْطِي، وَيَقْسِمُ عَلَيَّ فَأَبْرُ قَسَمَهُ، أَجْعَلُ لَهُ فِي الْجَهَالَةِ عِلْمًا، وَفِي الظُّلْمَةِ نَوْرًا، أَكَلُوهُ بِقُوَّتِي، وَأَسْتَحْفِظُهُ مَلَائِكَتِي، فَمَثَلُهُ عِنْدِي كَمَثَلِ الْفَرْدَوْسِ فِي الْجَنَانِ، لَا تَبْسُ ثِمَارَهَا، وَلَا يَتَغَيَّرُ حَالُهَا»

﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٥]، فلم يقل لهم ولا نُسْأَلُ عما تجرمون، بل نسب الإجماع لنفسه وحاشاه تواضعا، وهذا من كمال أدب وتواضع النبي ﷺ وبيان مقام العالي، وهذا يظهر جليا في قصة سيدنا نوح عليه السلام مع قومه حين قال لهم ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ، فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥] ولم يخطأ عليه السلام في نسبة الإجماع لهم، فقد وصفهم بما فيهم. وهذا هو الفرق بين المقام النوحى والمقام المحمدي الذي هو أعلى من كل مقام.

ولذا يقول: «مَا قَلَّ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ زَاهِدٍ» فيجب عليك ألا تستقل أعمال الناس وتستكثر عمل نفسك، وتظن أنك أفضل من غيرك، فربما الذي تستقل عمله يكون قلبه زاهداً فيصير عمله القليل أرجح عند الله من عملك الكثير، وقلبك ليس بزاهد، ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]. فإياك إياك أن تعبد الله لرغبة وشهوة في النفس، أو لتحصيل المقامات والكرامات بل اعبد له سبحانه لا سواه.

الحكمة السادسة والأربعون

حُسْنُ الْأَعْمَالِ نَتَائِجُ حُسْنِ الْأَحْوَالِ، وَحُسْنُ الْأَحْوَالِ مِنَ التَّحَقُّقِ فِي مَقَامَاتِ الْإِنِّزَالِ

شرح الحكمة

إذا تحقق الزهد في قلب السالك، بدأت أعماله تتحسن، وتقبل عند الله فقال: «حُسْنُ الْأَعْمَالِ نَتَائِجُ حُسْنِ الْأَحْوَالِ، وَحُسْنُ الْأَحْوَالِ مِنَ التَّحَقُّقِ فِي مَقَامَاتِ الْإِنِّزَالِ» والله تعالى يقول: ﴿لَبَلُّوْكُمْ أَنْكُمُ﴾ [الملك: ٢] (أكثر

عملاً) (أطول عملاً) (أمتن عملاً)؟ بل قال ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، فالله ﷻ ينظر إلى حسن العمل، وحسن الأعمال له علامات ظاهرة وعلامات باطنة، وأول العلامات الظاهرة أن تكون موافقة لسنة النبي ﷺ.

ولذا وجب على السالك إلى الله أن يتعلم أحكام الشريعة حتى يصير عمله صحيحًا، فربما يكون جاهلاً ببعض أحكام الشريعة فيصير وضوؤه باطلاً، أو صلاته باطلة دون أن يدري، أو لا يعرف أنواع النجاسات، وكيف التخلص منها، فيصلي وعلى ثوبه نجاسة أو على بدنه نجاسة فتصير الصلاة باطلة، فوجب على الإنسان أن يتفقه في دين الله حتى يحسن العمل ظاهراً.

وأن يكون العمل في الباطن خالصاً لله ﷻ وصادقاً فيه، والإخلاص هو عدم العمل من أجل الناس، وعدم مراعاة الناس، والصدق عدم رؤية النفس في العمل بل النظر لفضل الله تعالى، فإذا كان ناظرًا إلى نفسه فإنه عمِلَ بنفسه لله، ولم يعمل لله بالله، فيكون مخلصاً غير صادق فالله ﷻ قال: ﴿أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا أَمْنًا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) [العنكبوت: ٢-٣].

فالصدق هو لبُّ الإخلاص، والصدق هو عدم رؤية النفس بعد التخلي عن رؤية الخلق، فيأمن الرياء، ويأمن العُجب، ويصير عمله خالصاً لله، ويكون صادقاً بالتبري من الحول والقوة، فلا يعمل إلا بالله ويتحقق بمقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، أي العبادة خالصة لك يا الله مخلصين ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، أي متبرئين من حولنا وقوتنا إليك، أي مخلصين صادقين فيتدرج بمقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي نعبدك يا الله فتكون

عبادتنا لك ﴿وَيَاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وتكون عبادتنا بك، فمن يعبد الله الله ناظرًا إلى نفسه فقد عبد الله بنفسه، ومن عبد الله متبرئًا من حوله وقوته فقد عبد الله بالله. وفرق كبير بين المقامين، ولذا كان يقول سيدنا التستري^(١): (كل الناس هلكى إلا العالمون، وكل العالمون هلكى إلا العاملون، وكل العاملون هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم).

ولذا أراد رسول الله ﷺ أن يوضح لك ذلك بترديد الأذان فإذا سمعت المؤذن يقول: حي على الصلاة، تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، أي أنك لا تذهب إلى الصلاة وهي عين الطاعة إلا بحول الله وقوته، فتصير مصليًا لله بالله لا بنفسك، فتتحقق بإياك نستعين، فتكون في مقام المحققين، فهذه علامات حسن الأعمال الظاهرة والباطنة، التبري من الخلق، والتخلي من القوة، فتصير عابدًا لله بالله.

وحسن الأعمال الظاهرة والباطنة يكون ناتج عن حسن الأحوال، والحال هو حال القلب عند العبادة مع الله، وحسن الأحوال من التحقق في المقامات. ويطرأ على قلب السالك أثناء العبادة أحوال، فيستشعر في قلبه ببعض النور، نور الطاعة ونور الذكر ونور التجلي، وتختلف أحوال

(١) أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن ربيع التستري. ولد بمدينة تستر في سنة مائتين، وقيل: إحدى ومائتين، وإلى هذه المدينة ترجع نسبته (التستري) وهذه المدينة من أعظم مدن خوزستان، (وتفرد بعض الناس بجعل تستر مع الأهواز، وبعضهم يجعلها مع البصرة وجعلها عمر بن الخطاب من أرض البصرة لقربها منها، نشأ سهل التستري في تستر، وكانت بدايات اتجاهه إلى التصوف في سن مبكرة جدا، صحب ذا النون المصري الذي كان له دور - لا نعلم مداه- في رعاية بذرة التصوف لديه، فقد ذكرت بعض المصادر أن التستري لقيه في الحج وصحبه، صنف كثيرا من الكتب وأشهرها تفسير القرآن للتستري، توفي سنة ٢٨٣ هجري.

السالكين في بقاء هذا النور ودوامه، أو ظهوره واختفائه، ومن الناس من يشرق النور في قلبه ثم يغيب ولا يظهر أبدا كحال المنافقين كما قال الله ﷻ: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة: ١٩] وهذا حال قلب المنافق الذي برق فيه الإيمان، ثم تأتي عواصف التكذيب ورعود الجحود فتغطي على هذا كله، فيجعل أصابعه في آذانه، فلا يسمع الحق، ولا يسمع إلا رعود التكذيب، فيختم على قلبه ويموت منافقا.

والنبي ﷺ بيّن أحوال الناس وأنها تشبه المعادن، وقال: «الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، إذا فقهوا»^(١) والله ﷻ وصف القلوب بنوع من الحجارة، والحجارة أنواع منها ﴿يَشَقُّ فَيَخْرِجُ مِنْهُ أَمَاءً﴾ [البقرة: ٧٤] ماء الهداية، ومنها ما ﴿يَنْفَجِرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٧٤]، أنهار المعارف، ومنها ما ﴿يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، فدخل إلى حضرة الله، وسجد فلا يرفع رأسه أبدا، ومنها القاسي الصلب الذي لا يؤثر فيه شيء، فلك في الحس ما أنت فيه في المعنى، ولذا تزعم أنك جرمٌ صغيرٌ وفيك كل الأكوان، جمعت فيك كل المجرات ففيك نجوم وشموس، وفيك غيوم وسحب، وفيك جبال، وفيك طين ومعادن، وفيك أنهار تجري، وهي العروق التي فيها الدم كالأنهار، وفيك ماء معين كماء العيون، ففيك ما في الأرض والأكوان.

(١) البخاري (٣٣٨٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: «أَتْقَاهُمْ لِلَّهِ» قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: «فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ بْنُيِ اللَّهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنُ خَلِيلِ اللَّهِ» قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: «فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟ النَّاسُ مَعَادِنٌ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ، إِذَا فَقَهُوا». مسلم (٢٥٢٦).

فالله ﷻ جعل قلبك يمر بأحوال كما أن الطقس حولك يمر بأحوال، فقد تكون مشرقة مضيئة، وقد تكون في غين، وقد تكون في ظلمة، وقد تكون الظلمة معها ضياء، كوقت الشروق ووقت الغروب، وقد يكون الظلمة حالكة فلا قمر ولا نجم فلا يرى شيء ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ [النور: ٤٠]، حال نفسه ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ لَمْ يَكْدِرْهَا﴾ [النور: ٤٠]

وهذه السحب هي سحب الأغيار والتعلقات بالدنيا، والانتقام، والحسد، والغل، والتعلق بسوى الله، وعدم الرضا بما أقامك الله فيه، كل هذه سحب وغيوم تحجب شمس المعارف، فإذا قاومت هذه الأمراض انقشعت السحب، فأشرقت شمس المعارف، وظهرت أقمار التوحيد، فتجد الإنسان يسبح في الضياء.

ف «حُسْنُ الْأَعْمَالِ» الظاهرة والباطنة «تَتَأْتِي حُسْنَ الْأَحْوَالِ» الموجودة فيك في داخلك «وَحُسْنُ الْأَحْوَالِ مِنَ التَّحَقُّقِ فِي مَقَامَاتِ الْإِنِّزَالِ» التي أنزلك الله فيها حيث إنك سائر إليه في طريق المعنى؛ لأنك لا تستطيع أن تعرف الله حسًا، فالحس مخلوق والله ليس بمخلوق، فكيف تدركه بالحس؟ فلا تدركه إلا بالمعنى.

والله ﷻ جعل قلبك كالمرآة، وكلما كان سطح المرآة مصقل ومستوي ونظيف كلما كانت المرآة عاكسة جيدة، وكلما كانت المرآة راتقة كلما انطبعت عليها صور الحقائق؛ لأن عين القلب هي البصيرة تنظر إلى المعاني، وعين القلب تنظر إلى الحس، فعينك التي في وجهك تنظر إلى

المحسوس وعين قلبك تنظر إلى المعنى ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فكلما جليت هذه المرأة انعكست عليها الحقائق، كما ينعكس مثلاً صورة الجبل الكبير داخل المرأة الصغيرة، دون اتصالٍ ولا انفصالٍ ولا حلول، فهكذا حال القلب إذا عرف الله بالمشاهدة لا اتصال ولا انفصال ولا حلول، ولكن مشاهدة بغير هذه المعاني كلها كما يحدث مجرد صورة فقط، فخلق الله ﷻ المرأة في الواقع ليدلك، ويقول لك بأن المرأة وهي جرم صغير قد ينعكس فيها الكون الكبير دون اتصالٍ ولا انفصالٍ ولا حلول، كذلك مرآة قلب العارف تنعكس فيها الحقائق والمعارف والمشاهدات في عالم المعنى دون اتصالٍ ولا حلول وانفصال، فالمرآة آية من الآيات، وهذه المرأة ترى المعنى فإذا استمرت الرؤية ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْإِلَّهَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [القصص: ٧١] ليل الجهل، وليل الأغيار، والانشغال بالحس والكثيف عن اللطيف ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْإِلَّهَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١]، حتى تلقاه ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١].

ثم بعد ذلك يضرب لك مثلاً للعارف الذي أشرقت عليه الأنوار فركن إلى الدنيا مرةً أخرى فيسلبه الله تعالى أنواره ويرده إلى أسوء حال ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ

يَتَفَكَّرُونَ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦] فأدب الظاهر عنوان لأدب الباطن، والنبى ﷺ يقول: «لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هَذَا لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ»^(١) فالظاهر عنوان الباطن، والإناء ينضح بما فيه.

وأفضل الأعمال التي يقطع الإنسان بها الأحوال والمقامات والترقي إلى الله دوام ذكر الله؛ لأن دوام ذكر الله ليس فيه للخلق والنفوس نصيب؛ لأنه لا يراه الخلق، فدوام ذكر الله هو جلاء القلب من الصدا الذي علق فيه، حتى تنجلي فيه شمس المعارف قال النبى ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(٢)، وقال: «هَذِهِ الْقُلُوبُ تَصُدُّ كَمَا يَصُدُّ الْحَدِيدُ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا جَلَاؤُهَا قَالَ: «قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»^(٣).

فالعارف بالله مطمئن في سيره إلى الله ﷻ، وحتى لو نظر إلى أشياء لا ترضيه في الظاهر وينظر لها بعين القلب فيرى الحكمة فيها فيرضى بها وعنها؛ لأن الله ﷻ في كل تدبير حكمة، ولو نظر إلى أهل المعصية فينظر لهم بعين الحكمة التي في قلبه فيرى أن الله تعالى يدلهم على التوبة بعد ذوق مرارة المعصية، وينظر لهم بعين الشريعة في ظاهر المر فيأمرهم بالمعروف

(١) أبو شيبة في المصنف (٦٧٨٧).

(٢) البخاري (٥٢) عَنْ عَامِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الْحَالُ بَيْنَ، وَالْحَرَامِ بَيْنَ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ: كَرَاعٍ يَزَعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَوَافِقَهُ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» ، مسلم (١٥٩٩)، ابن ماجه

(٣٩٨٤)، احمد (١٨٣٧٤).

(٣) البيهقي في شعب الايمان (١٨٥٩).

وينهاهم عن المنكر، فيعذر أهل المعصية بالقلب ويأمر وينهى باللسان، وهذا حال النبي ﷺ الذي كان يقول: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون» لأنه ينظر إليهم بعين الحقيقة فيعذرهم على ما أقامهم الله فيه، ثم ينظر إليهم بعد ذلك بعين الشرعية، فيأمر وينهى ويدعوهم إلى الإسلام ويحرص عليهم وهو بهم رؤوف رحيم ﷺ.

وهكذا العارف ينظر للأمور بعينين، عين القلب في الحقيقة، فيقر كل على ما أقامه الله فيه بالحقيقة، ثم ينظر بعين الشريعة فيأمر وينهى حتى يتعبد الله بالأمر والنهي، والله ﷻ لو أراد أن يُعبد فلا يُعصى لخلق خلق يعبدونه ولا يعصونه أبداً، ولو أراد أن يعصى ولا يعبد لخلق خلق يكفرون ولا يعبدون، ولكن خلق الخلق يعبدونه ويعصونه، ولو لم نعص لذهب بنا وأتى بقوم يعصونه ويتوبون إليه فيتوب عليهم. فهو أراد أن يزلزل صخور قلبك بالمعصية حتى يقهرك بها، فتدخل إليه من باب الخضوع والذلة والانكسار، والشيخ يقول في حكمة أخرى «مَعْصِيَةٌ أَوْرَثَتْ ذُلًّا وَافْتِقَارًا خَيْرٌ مِنْ طَاعَةٍ أَوْرَثَتْ عِزًّا وَاسْتِكْبَارًا»

فلا تتكبر على العصاة، ولا تنظر إلى عبادتك ومواظبتك على صلاة الجماعة في المسجد فتعجب بها وتحتقر الذي لا يصلي؛ لأن الله ﷻ يقول ﴿فَلَا تَزُكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢] فيجب على الإنسان أن يجتهد مع الله ويبرأ من حوله وقوته، ويعذر الخلق أجمعين على ما أقامهم الله ﷻ فيه، ويأمر وينهى بلسان الشريعة، ويعذر ويحب بلسان الحقيقة، ويقر كل إنسان على ما أقامه الله فيه مع دوام النصح للمسلمين والشفقة عليهم، ودوام اتهام النفس فإذا سار على هذا الحال سيصل إن شاء الله.

الحكمة السابعة والأربعون

لَا تَتْرُكِ الذِّكْرَ لِعَدَمِ حُضُورِكَ مَعَ اللَّهِ فِيهِ، لِأَنَّ غَفْلَتَكَ عَنْ وُجُودِ ذِكْرِهِ أَشَدُّ مِنْ غَفْلَتِكَ فِي وُجُودِ ذِكْرِهِ. فَعَسَى أَنْ يَرْفَعَكَ مِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ غَفْلَةٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقْظَةٍ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ يَقْظَةٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ، وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ حُضُورٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وُجُودِ غَيْبَةٍ عَمَّا سِوَى الْمَذْكُورِ، ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ٢٠].

شرح الحكمة

اعلم أن ذكر الله ﷻ على كل الأحوال من أقوى الأسباب التي جعلها الله سبباً للترقي، وهذه الحكمة تحثك على ألا تترك الذكر مع وجود الغفلة، فيقول «لَا تَتْرُكِ الذِّكْرَ لِعَدَمِ حُضُورِكَ مَعَ اللَّهِ فِيهِ، لِأَنَّ غَفْلَتَكَ عَنْ وُجُودِ ذِكْرِهِ أَشَدُّ مِنْ غَفْلَتِكَ فِي وُجُودِ ذِكْرِهِ»

فالذاكر باللسان وإن غفل بالقلب فحاله أحسن من الغافل باللسان والقلب في آنٍ واحد.

فمن داوم قرع الباب فلا بد أن يفتح له، فداوم ولا تجزع.

ومن رحمته تعالى بك أن حجبك وأنت في حال الذكر؛ لأنه لو نقلك إلى مقام الحضور والغيبة، وكشف لك بعض الأنوار فقد تغيب عن الأكوان، وعن نفسك وعمّا أقامك فيه، وحتى عن عبادتك وصلاتك.

فسيدينا رسول الله ﷺ وهو أكمل الخلق، لما كُشف له من أول لقاء مع سيدنا جبريل عليه السلام، لم يتحمل في المرة الأولى، وقال: (زملوني زملوني خشيت على نفسي) فإذا كان رسول الله ﷺ الذي هو أقوى الخلق من حيث التلقي والمعرفة حصل معه هذا في أول مرة فما بالك يا مسكين إذا صادفك الكشف، فارض بما أقامك الله فيه تكن أغنى الناس.

ثم قال: «فَعَسَى أَنْ يَرْفَعَكَ مِنْ ذِكْرٍ مَعَ وَجُودِ غَفْلَةٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وَجُودِ يَقَظَةٍ» وعسى للترجي، أي عسى أن تجد قلبك يقطاً مع الذكر، ثم قال: «وَمِنْ ذِكْرٍ مَعَ وَجُودِ يَقَظَةٍ إِلَى ذِكْرٍ مَعَ وَجُودِ حُضُورٍ» مع الله ﷻ.

ثم بعد الحضور يريك إلى حال الغيبة عما سوى المذكور، وكان هذا حال كثير من الصالحين كسيدنا عروة بن الزبير الذي أرادوا أن يقطعوا قدمه، فقال لهم إذا رأيتُموني دخلت في الصلاة واستغرقت بها فاقطعوا، ففعلوا ولما انتهى من صلاته قال لهم ألم أقل لكم اقطعوها وأنا في الصلاة، فقالوا قد فعلنا، وهو لم يشعر بهم؛ لأنه صار مع الله ﷻ فلم يشعر بالأكوان. وهذا مقام الفناء «وما ذلك على الله بعزيز» فاصبر حتى تصل إلى ذلك المقام. ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩]، ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

الحكمة الثامنة والأربعون

مِنْ عَلَامَاتِ مَوْتِ الْقَلْبِ عَدَمُ الْحُزْنِ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنَ الْمَوْافَقَاتِ،
وَتَرَكُ النَّدَمِ عَلَى مَا فَعَلَهُ مِنْ وُجُودِ الزَّلَّاتِ

شرح الحكمة

من علامات موت القلب عدم الحزن على ما فاتك من طاعات واجتهاد في عبادة الله تعالى، وفي نفس الوقت لا يندم وتلومه نفسه اللوامة على ما صدر منه من زلات ومخالفات، وأسباب ذلك حب الدنيا وملذاتها وصحبة الغافلين.

الحكمة التاسعة والأربعون

لَا يَعْظُمُ الذَّنْبُ عِنْدَكَ عَظَمَةً تَصُدُّكَ عَنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ
مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ اسْتَصْغَرَ فِي جَنْبِ كَرَمِهِ ذَنْبَهُ

شرح الحكمة

يجب أن يغلب الخوف على الرجاء عند أهل البداية في الطريق إلى الله ﷻ، إلى أن تثمر في قلبه بعض آثار الطاعات، فيبدأ التوازن بين الخوف والرجاء، ثم إذا وصل فعرف الله غلب عليه الرجاء.

والندم هو التوبة، والتوبة يقابلها فرح من الله ﷻ، فلا تعظم المعاصي عندك عظمة تؤيسك من رحمة الله ﷻ. ومع حسن التوبة يبدل الله ﷻ

المعاصي إلى حسنات، ومن كرمه أن يجعل المعصية الكبيرة حسنة كبيرة، ﴿يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]

وروي عن الإمام الشافعي رحمه الله وهو على فراش الموت قال:

فلما قسا قلبي وضافت مذهبني جعلت الرجائي لعفوك سُلماً
تعاطمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظماً
فما زلت ذا عفوعن الذنب لم تزل تجود وتعفو منةً وتكرماً

فهو يناجي ربه وهو على فراش الموت، وربنا ﷻ دله إلى حسن الظن بالله، فالإمام الشافعي يعلمنا الرجاء وعدم الاعتماد على العمل.

وروي أن الإمام الجنيد رحمه الله دخل على شيخه السري السقطي رحمه الله فوجده مقبوضاً حزيناً فقال له ما بك يا شيخ؟ قال الشيخ دخل عليّ شاب فقال لي ما حقيقة التوبة؟ فقلت: ألا تنسى ذنبك، فقال الشاب: التوبة أن تنسى ذنبك. فقال الإمام الجنيد الصواب ما قاله الشاب، فذكر الجفاء في حاله الصفاء من الجفاء.

(١) أَبُو الْحَسَنِ سَرِي بْنُ الْمَغْلَسِ السَّقَطِي خَالُ الْجَنِيدِ وَأُسْتَاذِهِ، وَكَانَ تَلْمِيزَ مَعْرُوفِ الْكَرْخِيِّ، كَانَ أَوْحَدَ زَمَانِهِ فِي الْوَرَعِ وَأَحْوَالَ السَّنَةِ وَعِلُومِ التَّوْحِيدِ. وَهُوَ إِمَامُ الْبَغْدَادِيِّينَ وَشَيْخِهِمْ فِي وَقْتِهِ وَإِلَيْهِ يَنْتَمِي أَكْثَرُ الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْمَشَائِخِ الْمَذْكُورِينَ فِي هَذَا الْكِتَابِ، قَالَ الْجَنِيدُ يَقُولُ: مَا رَأَيْتُ أَعْبَدَ مِنَ السَّرِيِّ أَتَتْ عَلَيْهِ ثَمَانٌ وَتِسْعُونَ سَنَةً مَا رَأَيْتُ مُضْطَجِعاً إِلَّا فِي عِلَةِ الْمَوْتِ.

ويحكي عن السري أنه قال: التصوف اسم لثلاث معانٍ وهو الذي لا يطفئ نور معرفته نور ورعه، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب أو السنة، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله.

وكان من تلامذته: أبو الحسين النوري، سمنون بن حمزة، أبو سعيد الخراز، أبو العباس بن مسروق، أبو حمزة البغدادي البزاز وآخرون.

تُوفِّيَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ وَمِائَتَيْنِ. وَقِيلَ: تُوفِّيَ سَنَةَ إِحْدَى وَخَمْسِينَ.

والحقيقة إن القولين صواب، فالأول لأهل البدايات، ألا تنسى ذنبك؛ لأنه سيكون دافعا للطاعة، ومع الترقى في الطاعات غلب عليه حسن الظن بالله فينسى ذنبه وهذا لأهل النهايات.

ثم قال الشيخ: «فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ اسْتَصْغَرَ فِي جَنْبِ كَرَمِهِ ذَنْبُهُ» ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، وقال الله ﷻ ﴿يَنْتَ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]، لمن تاب ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٥٠]، لمن لم يتب.

يقول الشيخ أبو العباس المرسى^(١): (إلهي معصيتك نادتني بالطاعة، وطاعتك نادتني بالمعصية، ففي أيهما أخاف، وفي أيهما أرجو؟ إن قلت بالمعصية قابلتني بفضلك فلم تدع لي خوفا، وإن قلت بالطاعة قابلتني

(١) المرسى أبو العباس هو الأمام شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر بن علي الخزرجي الأنصاري المرسى يتصل نسبه بالصحابي الجليل سعد بن عبادة الأنصاري (رضي الله عنه) سيد الخزرج و صاحب سقيفة بن ساعدة التي تمت فيها البيعة لأبي بكر الصديق بالخلافة.. و كان جده الأعلى قيس بن سعد أميرا علي مصر من قبل الإمام علي كرم الله وجهه عام ٣٦هـ. (٦٥٦م). و لقد ولد أبو العباس المرسى بمدينة مرسية سنة ٦١٦هـ. (١٢١٩م) و نشأ بها و هي احدي مدن الأندلس و إليها نسب فقيل المرسى من أكابر العارفين، وكان يقال إنه لم يرث علم الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه غيره، وهو أجل من أخذ عنه الطريق رضي الله عنه، ولم يضع رضي الله عنه شيئا من الكتب.

وكان رضي الله عنه يقول علوم هذه الطائفة علوم تحقيق، وعلوم التحقيق لا تحملها عقول عموم الخلق، وكذلك شيخه أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه لم يضع شيئا، وكان يقول كتبي أصحابي. وقد ظل الشيخ أبو العباس المرسى يدعو إلي الله ملتزما طريق التقوى والصلاح ناشرا للعلوم والمعارف بين الخلق ومهذبا لنفوس الطلاب والمريدين حتى وفاته في الخامس والعشرين من ذي القعدة ٦٨٥هـ. (١٢٨٧م). ودفن في قبره المعروف خارج باب البحر بالإسكندرية.

بعدلك فلم تدع لي رجاء، فليت شعري كيف أرى إحساني مع إحسانك، أم كيف أجهل فضلك مع عصيانك؟).

(إلهي معصيتك نادتنني بالطاعة) لأن المعصية تستوجب التوبة، والتوبة طاعة، فالمعصية تطلب الطاعة (وطاعتك نادتنني بالمعصية) ولما فعلت الطاعة أعجبت بنفسي فعصيت في وسط الطاعة (وطاعتك نادتنني بالمعصية) حيث إني رأيت نفسي طائعاً ولم أر فضل الله عليّ (ففي أيهما أخاف، وفي أيهما أرجو؟) فأنا (إن قلت بالمعصية) أي أخاف بالمعصية (قابلتنني بفضلك فلم تدع لي خوفاً) ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] (وإن قلت بالطاعة قابلتنني بعدلك) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [١٦] [الصافات: ٩٦]، ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [هود: ٨٨]، (فليت شعري كيف أرى إحساني مع إحسانك، أم كيف أجهل فضلك مع عصيانك؟) يعني جناحي الخوف والرجاء، من طار بهما وصل والا سقط.

إذن: علمنا مما مضى أن العارف بالله لا يقف مع طاعة وإن عظمت، ولا يقنط مع المعصية.

لعل رحمة ربي حين يقسمها تأتي على حسب العصيان في القسم

وبهذا الكلام نكون قد شرحنا الحكمة التالية أيضاً والتي يقول فيها:

الحكمة الخمسون

لَا صَغِيرَةً إِذَا قَابَلَكَ عَدْلُهُ، وَلَا كَبِيرَةً إِذَا وَاجَهَكَ فَضْلُهُ.

شرح الحكمة

والعبد يرجو من ربه ﷻ أن يعامله بالفضل لا بالعدل، ولا شك أن الكبائر في الغفران كاللحم.

الحكمة الحادية والخمسون

لَا عَمَلَ أَرْجَى لِلْقُلُوبِ مِنْ عَمَلٍ يَغِيبُ عَنْكَ شُهُودُهُ وَيُحْتَقِرُ عِنْدَكَ
وُجُودُهُ.

شرح الحكمة

أي: أن الطاعة التي يغيب عنك شهود نفسك فيها إعجاباً بها، أرجى في القبول؛ لأن الله تعالى أظهر الطاعات عليك بتوفيق منه، فلا تظن أن لك فعلاً أو قوة ذاتية تصدر بها طاعتك، بل الحق أن كل فعل صدر منه وإليه، وما أنت إلا مرآة وصورة للظهور، وليس مصدرأ له، فوجب ألا تعتمد على طاعة، ولا تعجب بنفسك، وإلا وكلت لنفسك فتهلك. فتوكل على الحي الذي لا يموت واعبده به لا بنفسك.

الحكمة الثانية والخمسون

إِنَّمَا أَوْرَدَ عَلَيْكَ الْوَارِدَ لِتَكُونَ بِهِ عَلَيْهِ وَارِدًا

شرح الحكمة

الوارد هو الإقبال الإلهي من الله ﷻ على العبد، فيقبل الله ﷻ عليك فيناديك بقوله: عبدي أقبل إلي، فيتولد فيك شعور بالجوع والعطش للذكر والطاعة. فإذا هجم عليك هذا الوارد صرت متوجهًا إلى الله بنهم شديد. فإذا كنت من أهل الغفلة يسمى وارد الانتباه، وأهل المعصية يأتيهم وارد الندم والتوبة، فإن كنت من أهل الطاعة فيسمى وارد الإقبال. فتجد نفسك مقبلاً على الطاعة لذلك قال في الحكمة التالية:

الحكمة الثالثة والخمسون

أَوْرَدَ عَلَيْكَ الْوَارِدَ لِتَسْلَمَ مِنْ يَدِ الْأَغْيَارِ، وَلِيُحَرِّكَ مِنْ رِقِّ الْأَثَارِ

شرح الحكمة

«أَوْرَدَ عَلَيْكَ الْوَارِدَ» الأول «لِتَكُونَ بِهِ عَلَيْهِ وَارِدًا» أي منتبهًا، وهذا الانتباه الأول لا يكون كاملاً فيتبقى فيك آثار متطلبات الجسد ومشاكل دنياك، فتذكر الله ﷻ ولكنك مشغول بعيالك وبيتك ومصالحك، فعليك أن تستمر في مجاهدة النفس حتى يكون الانتباه كاملاً، فمن وازب على المجاهدة من الله ﷻ عليه بوارد يخلصك من رِقِّ الآثار، ويخلصك من سجن متطلباتك وغرائزك، التي تحول بينك وبين أن تكون مع الله ﷻ.

ومن فضل الله عليك إنه يورد عليك الوارد في الوقت الذي يراه مناسباً لك، لأنه لو أورد عليك الوارد قبل أن تكون أهلاً للوارد لاختلت موازين حياتك.

فالخلاصة: لا تتمن إلا ما أقامك الله فيه، لأنه قد يؤخر الله عَنكَ لك الإقبال عليه بعد فترة انتباه، لتتعلم السلوك الذي يوصلك إليه، فينتفع بك آخرون؛ لأنه لو أقبل عليك بوارد الإقبال قبل أن تتعلم أحكام الشريعة لصرت حاضراً مع الله، غائباً عن الخلق فلا ينتفع بك الناس، وقد تكون فتنة للناس.

فإذا أتاك وارد الانتباه فاستثمر هذا الوارد في أن تقبل على الله من باب العلم، فتتعلم القرآن، والتفسير، والفقه، والأخلاق، وبقية العلوم الشرعية، لأنه إذا أتاك وارد الإقبال ستجد من نفسك الوحشة في قراءة كتب الفقه وغيرها، فلذلك يجب الاستفادة من كل وارد في الوقت المناسب، فوارد الانتباه ووارد سلوك يردك إلى السلوك إلى الله، ووارد الإقبال يغلب عليه الجذب.

الحكمة الرابعة والخمسون

أُورِدَ عَلَيْكَ الْوَارِدَ لِيُخْرِجَكَ مِنْ سِجْنٍ وَجُودِكَ إِلَى فَضَاءٍ شُهُودِكَ.

شرح الحكمة

بعد وارد الانتباه ووارد الإقبال يأتي وارد الوصال الذي قال فيه «أُورِدَ عَلَيْكَ الْوَارِدَ لِيُخْرِجَكَ مِنْ سِجْنٍ وَجُودِكَ إِلَى فَضَاءٍ شُهُودِكَ» أي من سجن الحس، فوارد الإقبال أخرجك من كل ما هو محسوس سواك،

ووارد الوصال كان الله ولم يكن معه شيء، حتى تفنى من وجودك إلى فضاء شهود الحق.

فلا تيأس في الوصول إلى هذه المقامات العالية؛ لأنه قال لك في حكمة سابقة «لا يَكُنْ تَأَخَّرُ أَمَدِ الْعَطَاءِ مَعَ الْإِلْحَاحِ فِي الدُّعَاءِ مُوجِبًا لِيَأْسِكَ. فَهُوَ ضَمِنَ لَكَ الْإِجَابَةَ فِيمَا يَخْتَارُهُ لَكَ لَا فِيمَا تَخْتَارُهُ لِنَفْسِكَ. وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي يُرِيدُ لَا فِي الْوَقْتِ الَّذِي تُرِيدُ».

الحكمة الخامسة والخمسون

الأنوار مطايا القلوب والأسرار

شرح الحكمة

الواردات عبارة عن أنوار روحانية تزيل ظلمة الأغيار التي في القلب، ولذلك قال «الأنوار مطايا القلوب والأسرار» فأنت في سفرك إلى الله محتاج إلى المطية المعنوية لتركبها وتصل إلى الله ﷻ، وهذه المطية هي الأنوار المتولدة من ذكر الله ﷻ وهي الواردات الرحمانية.

والسفر إلى الله لا يكون بقطع المسافات، لأن المسافة مخلوقة، والله موجود بلا مسافة وبلا زمن، وليس له تعلق بالزمان والمكان؛ لأن الله ﷻ خلق الزمان وخلق المكان، فأنت في السفر الحسي الجسدي تقطع المسافات في زمن معين، لأنك تنتقل من مكان مخلوق إلى مكان مخلوق وأنت مخلوق، أما السفر إلى الله ﷻ فله معنى ثاني، فالسفر إلى الله هو انتقال القلب إلى الله ﷻ انتقالاً معنوياً وليس انتقالاً مكانياً، لأن الله قريب وهو أقرب إليك من حبل الوريد، وأنت محجوب، ومكبل بشهواتك ورغباتك

وظلمات الأغيار التي خلقت فيها، فإذا أراد الله ﷻ أن يوصلك إليه أعطاك المطية التي تركبها فتصل بها إليه سبحانه.

«الأنوار مطايا القلوب والأسرار» فتأتي مطية الأنوار فتنتقلك من القلب في الشهوات إلى القلب في الطاعات، وإن كنت في مقام السر فتنتقلك من حال الحضور مع الصفات إلى حال الحضور مع الذات، فتصير سرّاً، والسر يتعامل مع السر، وذات الله ﷻ سر ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وليكن هدفك الوصول إلى الله وليس الوصول للخصوصية، لأن السر خصوصية فإذا سعت للخصوصية فأنت لا تسعى إلى الله.

و«مطايا القلوب» هي أيضاً تحملك إلى جبروت العزيز الجبار قال الشيخ ابن عجيبة^(١) في شرح الحكم (فإذا أراد الله تعالى أن يوصل عبده

(١) هو الامام العلامة المفسر احمد بن محمد المهدي المعروف بابن عجيبة، المكنى بابي العباس، الحسيني نسباً، التطواني داراً، الفاسي تعلماً، المالكي مذهباً، الشاذلي طريقة. ولده لأبوين صالحين كلاهما من آل بيت النبوة، يرجع نسبهم إلى الإمام الحسن بن علي والسيدة فاطمة رضي الله عنهما بنت سيد المرسلين محمد ﷺ.

طلب العلم وهو صغير فاقبل على القرآن وهو في سن مبكرة، ودرس جميع العلوم، فواصل الليل والنهار في قراءة العلم حتى صار عالماً لا يشق له غبار، فجلس للتدريس في مساجد تطوان ومدارسها، حُب إليه سلوك طريق قترى على يد الشيخ الدرقاوي مجدد الطريقة الشاذلية في الألف الثاني، والشيخ البوزيدي الحسيني.

له مؤلفات في شتى العلوم وأشهرها تفسير القرآن المعروف بالبحر المديد في تفسير القرآن المجيد، وله في الحديث حاشيه على الجامع الصغير للسيوطي وغيرها، وألف في الفقه والعقائد حاشيه على مختصر خليل، ورساله في العقائد والصلاة، وألف في اللغة الفتوحات القدسية في شرح المقدمة الأجرومية، وله في التراجم ازهار البستان في طبقات الاعيان، وله في التصوف سبعة عشر كتاباً.

وفاته: توفي الشيخ عام ١٢٢٤ هجري.

إلى حضرة قدسه، ويحمله إلى محل أنسه، أمده بواردات الأنوار كالمطايا، فيحمل عليها في محفة العناية، مروحاً عليه بنسيم الهداية، محفوفاً بنصرة الرعاية، فترحل الروح من عوالم البشرية إلى عوالم النورانية، حتى تصير سرّاً من أسرار الله لا يعلمه إلا الله).

ولذلك كان النبي ﷺ في دوام الترقّي في كل لحظة، حتى إنه لما سُئل عن سبب الاستغفار قال: «إِنَّهُ لَيُعَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»^(١) فهل كان الغين الذي على قلبه غين معصية، ويستدعي الاستغفار؟ حاشا، فالنبي ﷺ في كمال الانتباه مع الله، وكمال الإقبال والوصول، بالرسالة وبالنبوة وحاشاه.

ولذلك لما أشكل هذا الحديث على سيدنا أبي الحسن الشاذلي رأى النبي ﷺ في المنام وقال له: (يا علي غين أنوار، لا غين أغيار) أي غين أنوار الترقّي.

ولذلك قال الله ﷻ ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: ٤]، فكل لحظة تمر على النبي ﷺ خير له من السابقة. فنسأل الله ﷻ أن يرقينا، وأن يملأ قلوبنا نوراً، وأن يجعلنا على قدم النبي ﷺ والصالحين، ولا يفتنا بما منحنا من أنوار ويجعلها لله خالصة، ويحل بيننا وبين أنفسنا وبين كل ما سوى الله حتى لا نشاهد في الكون إلا آثار إحسانه وبره ﴿وَمَا يَكُم مِّن تَعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

الحكمة السادسة والخمسون

النُّورُ جُنْدُ الْقَلْبِ كَمَا أَنَّ الظُّلْمَةَ جُنْدُ النَّفْسِ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَنْصُرَ عَبْدَهُ أَمَدَّهُ بِجُنُودِ الْأَنْوَارِ، وَقَطَعَ عَنْهُ مَدَدَ الظُّلَمِ وَالْأَغْيَارِ

شرح الحكمة

اعلم أيها السالك أن النفس والقلب والروح والسر كلها مسميات لشيء واحد، ويختلف اسمها بحسب تطورها وراقيها، فالإنسان تكون من اتصال الروح وهي (اللطيفة الربانية الرحمانية) بالجسد الأرضي، فإذا تشوشت الروح وركنت للصورة الجسدية الأرضية التي ظهرت فيها فاسمها (النفس الأمارة) فإذا ارتقت النفس من النفس الأمارة إلى سماعها النذير الخارجي وهو كلام الله على لسان الرسل، أو النذير الداخلي وهو عين البصيرة، فبدأت تقاوم الشهوات التي تبعدها عن حقيقتها الروحانية الأصلية، تسمى (لوامة) وهكذا تواصل الترقى بالمجاهدات إلى مقامات النفس الملهمة والمطمئنة والراضية والمرضية والكاملة.

فإذا تقلبت النفس المعقولة التي عقلها العقل وألجمها (عقل الشرع وعقل التكليف) بأوامر الله ﷻ على نهج النبي ﷺ فيسمى نفساً عاقلة، وتكون محط التقلبات فتصير (قلباً) والله ﷻ خاطب القلب، وهو محل نظر الرب، وهو المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد وإذا فسدت فسد الجسد كله^(١)،

(١) البخاري (٥٢) ن عامر، قَالَ: سَمِعْتُ النَّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

«الْحَلَالُ بَيْنٌ، وَالْحَرَامُ بَيْنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ

اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ: كَرَاعٍ يَرَعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُؤَاقِعَهُ، أَلَا

والرسول ﷺ يقول: «التَّقْوَى هَاهُنَا»^(١) وأشار إلى القلب، والله ﷻ يقول ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾ [الحجرات: ١٣] فالقلب هو الميزان الذي يزن إيمان الناس عند الله، ولَمَّا كان القلب متقلباً بين الخير والشر، صار للشر أعوان وجنود، وللخير أعوان وجنود فيه، ويستمر القتال بين هذه النوازع أيهما، فإذا جاء التوفيق والعناية من الله ﷻ ينتصر جند الخير، فيسير في الخير، وإذا ترك الله ﷻ لنفسك انهزمت الأنوار بظلمة النفس، فيسير الإنسان في المعاصي.

ولذلك قال «النُّورُ جُنْدُ الْقَلْبِ» فالنور جند القلب الذي يوجهه إلى الله ﷻ، وأصل الأكوان ظلمة، والظلمة هي العدم، وأنت أصلك العدم، ولولا تجلي الله في الأكوان ما استنارت؛ لأنه هو الظاهر الذي ظهر به كل شيء، وأظهر كل شيء، وهو أظهر من كل شيء سبحانه وتعالى، فأصل الأكوان ظلمة، وأصل الوجود نور، فإذا تركك لنفسك سرت للظلمة التي أنت من أصلها وهي العدم، وإذا أخذ بيدك سرت إلى النور الذي هو محل الروح، لأن الروح تركز للأنوار، والجسد يركز للظلمة لأن الجسد ظلماني.

وقوله «كَمَا أَنَّ الظُّلْمَةَ جُنْدُ النَّفْسِ» لأن النفس منكبة على الشهوات، فإذا توازنت وأصبحت غير منكبة على الشهوات، صارت قلباً. والقلب

وَأَنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» مسلم (١٥٩٩).

(١) مسلم (٢٥٦٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا» وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعَرَضُهُ».

قابل للترقي، فإذا استراح لأقدار الله عز وجل وصار مع الله على ما يريد، بالتوكل، والرضا، والزهد، وعدم الحرص، وحب الخير للناس، وعدم النظر لما في أيدي الناس، والاستغناء بالله عما سواه صار (روحاً) فيرجع إلى أصله. فلما غابت الروح بترقيها بعد ذلك عن عالم الحس صارت سرّاً ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥].

ولكي تصل إلى مقام من المقامات مع الله عليك بالمجاهدات في كل الأطور، وعلى قدر صدقك مع الله على قدر المدد الذي يأتيك من الله ﷻ. «فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَنْصُرَ عَبْدَهُ أَمَدَّهُ بِجُنُودِ الْأَنْوَارِ» فلو أراد الله بك خيراً أمدك بالأنوار، ولذلك كان النبي ﷺ يقول في دعائه «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نوراً، واجْعَلْ فِي لِسَانِي نوراً، واجْعَلْ فِي سَمْعِي نوراً، واجْعَلْ فِي بَصَرِي نوراً، واجْعَلْ خَلْفِي نوراً، وأمامي نوراً، واجْعَلْ مِن فَوْقِي نوراً، وَمِن تَحْتِي نوراً، اللَّهُمَّ وَأَعْظَمْ لِي نوراً»^(١).

وتستمد الأنوار قوتها من الله ﷻ، بقوة اليقين والعلم والمجاهدة، فالعلم معه البصيرة والإلهام الصحيح.

أما الظلمة والأغيار فتستمد قوتها من عكس ما ذكرناه، فتستمد من الشك وهو ضد اليقين، ومن الجهل وهو ضد العلم، ومن عدم المجاهدة بالركون للشهوات.

فعليك أيها السالك بالمجاهدة إذا أردت قطع إمداد الظلمة وتقوية الأنوار، وعليك بتقوية اليقين وإزالة الشك في الله ﷻ، وأنه ليس كمثله شيء، وهو ﷻ متصف بصفات الكمال، ولا يظلم ربك أحداً، وهو القاهر

(١) البخاري (٦٣١٦)، مسلم (٧٦٣)، أبو داود (١٣٥٣)، النسائي (١١٢١)، أحمد (٢٥٦٧).

فوق عباده، وأنه ليس بجسم، ولا جوهر، ولا عرض، ولا يحل في مكان؛ لأنه خالق المكان، ولا في جهة؛ لأنه كان قبل الجهات وهو بكل شيء محيط ولا يحيطون به علما.

وعليك أن تزيل الشك من قلبك في حق سيدنا ﷺ وجميع الأنبياء، فهم بشر أوحى إليهم، وهم معصومون قبل النبوة وبعدها، ويجب عليك أن تتعرف على خصائص النبي ﷺ وتتخلق بأخلاقه وتتعلق به.

فالنبي ﷺ قال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» فقال سيدنا عمر رضي الله عنه: «لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا نَفْسِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ» قَالَ عُمَرُ: فَأَنْتَ الْآنَ - وَاللَّهِ - أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الآنَ يَا عُمَرُ»^(١).

فلا بد من جلوسك مع العلماء حتى تزيل من نفسك كل شك وارتباب، وتتعلم العلم الذي يوصلك إلى الله ﷻ. وأن لا ترضى عن نفسك أبدا، فالرضى عن النفس أصل كل خطيئة.

الحكمة السابعة والخمسون

النُّورُ لَهُ الْكُشْفُ، وَالْبَصِيرَةُ لَهَا الْحُكْمُ، وَالْقَلْبُ لَهُ الْإِقْبَالُ وَالْإِدْبَارُ.

شرح الحكمة

«النُّورُ لَهُ الْكُشْفُ» أي نور يكشف الله سبحانه وتعالى به عوائق وعوالم الطريق، ويسمى عند أهل السلوك نور الانتباه، ومثاله كرجل

(١) البخاري (٦٦٣٢)، احمد (١٨٠٤٧)،

يمشي في طريق مظلم فتراه يقع هنا، ويصطدم بالعقبات هناك، فإذا جاء النور صار الطريق واضحاً أمامه فيرى الحفر والمطبات فيتجنبها.

فبعد أن كشف الله ﷻ له الطريق للسالك بالمادة النورانية أبصر السالك عوائق الطريق، ويكون الحكم للبصيرة في اجتناب هذه العوائق وعدم الوقوع فيها والوقوف عندها، لذلك قال «وَالْبَصِيرَةُ لَهَا الْحُكْمُ، وَالْقَلْبُ لَهُ الْإِقْبَالُ وَالْإِدْبَارُ» فوارد الإقبال للسائرين، ووارد الوصال للواصلين.

والقلب في هذا كله يختلف من سائر لأخر، فمن كان قلبه مع الله أعانه بالمدد النوراني، وهو نور الشريعة والطريقة ليصل إلى الحقيقة، فيصل إلى مقام الإحسان، وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. وبالتالي يستمر الإقبال، أما القلب المشوش فيقبل أحياناً ويدبر أحياناً، والقلب المريض يستمر في غيه وإدباره.

الحكمة الثامنة والخمسون

لَا تَفْرَحْكَ الطَّاعَةُ؛ لِأَنَّهَا بَرَزَتْ مِنْكَ، وَافْرَحْ بِهَا لِأَنَّهَا بَرَزَتْ مِنْ اللَّهِ إِلَيْكَ ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

شرح الحكمة

احذر أيها السالك أن تظن أن الطاعة برزت منك وبقوتك، فتفرح بنفسك، فتكون طاعتك سبباً لحجابك عن مولاك، واعلم أن الطاعة برزت منه سبحانه بتوفيقه لك وإعانتك على فعلها، فتفرح بفضل الله عليك

لا بنفسك، فالله لا يحب الفرحين بالنعمة ولكن يحب الفرحين بالمنعم

﴿فَإِذَا لَكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]

الحكمة التاسعة والخمسون

قَطَعَ السَّائِرِينَ لَهُ وَالْوَاصِلِينَ إِلَيْهِ عَنْ رُؤْيَا أَعْمَالِهِمْ وَشُهُودِ أَحْوَالِهِمْ، أَمَّا السَّائِرُونَ فَلَأَنَّهُمْ لَمْ يَتَحَقَّقُوا الصِّدْقَ مَعَ اللَّهِ فِيهَا، وَأَمَّا الْوَاصِلُونَ فَلَأَنَّهُ غِيَبُهُمْ بِشُهُودِهِ عَنْهَا.

شرح الحكمة

«قَطَعَ السَّائِرِينَ لَهُ وَالْوَاصِلِينَ إِلَيْهِ عَنْ رُؤْيَا أَعْمَالِهِمْ وَشُهُودِ أَحْوَالِهِمْ، أَمَّا السَّائِرُونَ فَلَأَنَّهُمْ لَمْ يَتَحَقَّقُوا الصِّدْقَ مَعَ اللَّهِ فِيهَا» فمن فرح بعمله ورأى بأنه أفضل من غيره، واعتقد أنه تحقق بالعبادة ووصل بها إلى ربه، فهذا لم يتحقق بالصدق مع الله ﷻ وأصابه العجب المحبط للعمل، فالصدق يمنعه من نسبة الفضل لنفسه بل ينسبه لربه.

«وَأَمَّا الْوَاصِلُونَ» كيف حجبهم؟ «فَلَأَنَّهُ غِيَبَهُمْ بِشُهُودِهِ عَنْهَا» لأنهم إذا رأوا الظاهر ﷻ فلا يظهر معه أحد، وإذا تعاملوا مع الله فكل ما سوى الله هباء؛ لأنه كان الله ولم يكن شيء معه، فإذا تعاملوا مع الله حُجبوا عن الأكوان متحققين بوحدة الشهود ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

الحكمة الستون

مَا بَسَقْتُ أَغْصَانُ ذُلٍّ إِلَّا عَلَى بَذْرِ طَمَعٍ

شرح الحكمة

«مَا بَسَقْتُ أَغْصَانُ ذُلٍّ إِلَّا عَلَى بَذْرِ طَمَعٍ» السالك إذا طمع في الأسباب ظناً منه أنها تنفعه وتضره بذاتها حُجب عن الله ﷻ، فذل للأسباب، وعبد الأسباب دون الله ﷻ، والنبي ﷺ يقول: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدَّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ تَعَسَّ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَفَشَ»^(١) لأنه ظن أن النفع في المال فحرص على جمعه، وظن أن النفع في المنصب وفي الجاه وفي الظهور، فصار عبداً لهذه الأشياء، وهي على الحقيقة أوهام، فكأنما صارت النفس بهيمة تسوقها الأوهام. ولذا قال في الحكمة التي بعدها

الحكمة الحادية والستون

مَا قَادَكَ شَيْءٌ مِثْلُ الْوَهْمِ

شرح الحكمة

يقول: «مَا قَادَكَ شَيْءٌ مِثْلُ الْوَهْمِ» فإذا توهمت أن الخلق ينفعوك أو يضروك صرت عبداً لهم، فتبسق أغصان الذل في نفسك لكونك صرت عبداً للناس وتبتغي مرضاتهم، ولم تتعامل مع الله وهذا وهم كبير.

(١) البخاري (٢٨٨٦)، ابن ماجه (٤١٣٥).

والوهم: هو إدراك الطرف المرجوح، والظن: هو إدراك الطرف الراجح، والشك: هو تساوي الطرفين، واليقين: هو الإدراك الجازم المطابق للواقع عن دليل إن كنت عالمًا، وعن غير دليل إن كنت مقلدًا. أما تعريف أهل التصوف للوهم فهو كل ما سوى اليقين، فيدخل فيه الظن والشك والوهم.

فالخواص إن كانت عبادتهم من أجل الأكوان حُجبوا بالأكوان عن المكون، فإن عبدت الله ﷻ من أجل الأنوار التي تشرق في قلبك صرت محجوبًا بالأنوار عن المنور وهذا وهم؛ لأنك ما زلت في الأكوان، والأكوان فانية.

والعوام حجبوا بنظرتهم للأسباب ظنًا منهم أنها فاعلة بذاتها، وهذا لا يليق من العامي المسلم، فما بالك بأهل السلوك.

فما قادت إلى الحجاب عن الله شيء مثل الوهم، قال الله ﷻ ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]، أي سليم من كل ما سوى الله، وسليم من الطمع فيما سوى الله ﷻ، سليم من السوى ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، والله وتر يحب الوتر، أي أن الله فرد يحب القلب المفرد، الذي فرد الأمور لله ﷻ فلم ينظر إلى الأسباب مع الله.

والنبي ﷺ أوتي جوامع الكلم، فكلم أهل الحقيقة وأهل الطريقة وأهل الشريعة بنفس الكلام عندما قال ﷺ: «لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ، وَلَا صُورَةٌ تَمَائِيلٌ»^(١) فكلامه لأهل الشريعة معناه: إذا كان في بيتك

(١) البخاري (٣٢٢٥)، مسلم (٢١٠٤)، أبو داود (٤١٥٣)، الترمذي (٢٨٠٤)، ابن ماجه (٣٦٤٩).

كلب أو تمثال فلا يدخله الملك، أما معناه لأهل الحقيقة إن كان في قلبك نفسٌ تعوي كالكلب، وصور الأكوان لا تدخله الملائكة أيضًا؛ لأن القلب هو بيت الله في الإنسان، أي محل تجليات الأنوار.

وقال ربنا ﷺ ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤]، ويقول ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، فإذا كُشف الغطاء للإنسان وهو في سكرات الموت سيجد أن كل ما كان مشغولاً به أو هام، فيرجع للتفريد مرة أخرى، فلا يرى إلا الله ﷻ، فتأتي فردًا كما خلقك أول مرة فردًا ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ﴾ أي مفردين أي موحدتين بالمعنى الحقيقي، وقد تُفسر بمعنى آخر أي لوحدك تاركا ورثتك وعيالك ومالك. لأن كل ما تركت خلفك أكوان زائلة، والله ﷻ هو الباقي فتفرده ﷻ فتأتيه فردا ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥].

وقال ﷻ ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى: ٦]، أي يتيمًا مما سوى الله فأواك الله ﷻ، واليتيم بالمعنى الحسي الظاهر هو فاقد الأب، والأب هو الركن الذي يركن إليه الإنسان في الظاهر، فإن فقد الركن صار يتيمًا في الظاهر، والقلب إن كان لا يركن إلا إلى الله فهو يتيمٌ بفقد الأسباب الظاهرة فيؤويه مولاه فيتولاه.

فالوهم ينشأ عن الطمع، والطمع يذل الإنسان لما هو طامع فيه، والذل عبودية، واليقين ينشأ عن الورع فتزهّد في الدنيا، فتتحرر من الآثار فتصير حراً لذلك قال في الحكمة التالية:

الحكمة الثانية والستون

أَنْتَ حُرٌّ مَّا أَنْتَ عَنْهُ آيَسٌ، وَعَبْدٌ لِّمَا أَنْتَ لَهُ طَامِعٌ

شرح الحكمة

فالحرية أن تكون مع الله ﷻ كما يريد، وأن تكون مع المالك وهو الله ﷻ، والحرية أن تنطلق من كل قيد يبعدك عن الله ﷻ، والتخلص من هذه القيود يكون باليأس منها. والإنسان إذا طمع في شيء صار عبداً له، لذلك قالوا (أذل الحرص أعناق الرجال).

فأنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون، وأنت مع الأنوار ما لم تشهد المنور، وأنت مع العلم ما لم تشهد المعلوم، وأنت مع العبادة ما لم تشهد المعبود، وأنت مع الخلق ما لم تشهد الخالق.

ويجب عليك أن تيأس من العبادة، ولا تنظر لها ويكون نظرك إلى فضل الله ورحمته ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨].

ولسائل أن يسأل: لم أمرنا ربنا بعبادته؟ والجواب: أمرك بذلك ذلاً وتواضعاً وافتقاراً إليه ﷻ، أخذاً بالأسباب التي جعلك الله ﷻ محصوراً ومكبلاً فيها في الدنيا، فتفعلها ولا تنظر إليها ولا تعتمد عليها، وتفعلها وأنت يائس منها حيث أنها معلولة، لأنها ليست على الوجه الأكمل، ولم تكن بالإخلاص الكافي، ولم تكن بالصورة الحسنة المطلوبة التي تليق بالله ﷻ، فلما فعلتها وهي معلولة آيست منها ونظرت إلى رحمة الله وفضله، لذلك قال «أنت حرٌّ مَّا أَنْتَ عَنْهُ آيَسٌ، وَعَبْدٌ لِّمَا أَنْتَ لَهُ طَامِعٌ».

واعلم أن الغنى الأكبر، وكيمياء السعادة هو ألا تقنع إلا بالله ﷻ، ولا تطمع إلا في الله ولذلك قالوا (العبد حر إن قنع، والحر عبد إن قنع) فالعبد حر إن قنع بكسر النون ومعناها رضي، والحر عبد إن قنع بفتح النون ومعناها الطمع السؤال ولذلك قال الله تعالى ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦] أي السائل والفقير.

فالله تعالى خلق الأكوان من أجلك وسخرها لك، فإذا أدخلت الأكوان في قلبك صرت عبدا لها، وإذا تعاملت مع الأكوان بيدك وقلبك عامر بالله ﷻ انقادت لك الأكوان وصارت في خدمتك.

فإذا رأيت الله فاعلا فستراه نافعا وضارا ومؤثرا، وتراه هو الذي قدر الأشياء، فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، فيرتاح قلبك ويسكن. فيزول الحزن والحرص والجشع والخضوع للأشياء التي تؤيدها.

وعلى هذا قال يحيى بن معاذ ^(١) رحمه الله: (الورع على وجهين: ورع في الظاهر وهو ألا تتحرك إلا لله، وورع في الباطن ألا يدخل قلبك سوى الله).

ولا ترقى إلا بالعبودية الحققة لله ﷻ، ولا تصير عبدا إلا إذا تباست مما سوى الله، فيُسرى بك ويعرج بك إلى حضرات الألوهية، قال الله ﷻ ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] وهذا من كمال رحمة الله ﷻ بنا أن وصف النبي ﷺ بالعبودية حتى ينال من تحقق بوصف العبودية الإسراء والمعراج في سلم الترقيات وراثته نبوية وخلافة محمدية.

(١) أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي الواعظ، أحد علماء أهل السنة ومن مشايخ الصوفية الكبار، تتلمذ على أبي يزيد البسطامي رحمه الله، من أشهر كتبه كتاب المريدين، توفي سنة ٢٥٨ هجري.

الحكمة الثالثة والستون

مَنْ لَمْ يَقْبَلْ عَلَى اللَّهِ بِمُلَاطَفَاتِ الْإِحْسَانِ قَيْدَ إِلَيْهِ بِسَلْسِلِ الْامْتِحَانِ.

شرح الحكمة

الله ﷻ له صفات الجمال وصفات الجلال، فصفت الجمال هي التي يحبها الإنسان كالرزق الواسع، والعافية، والرأفة، والرحمة، والقرب، والود، والحب، والنور، والعلم وغيرها، وصفات الجلال كشديد العقاب، والقهر، والضر، وما شابهها، فكما هو غفور رحيم هو شديد العقاب، فتجد كل صفة للجمال أمامها صفة للجلال، فالله ﷻ رب الجمال والجلال في آنٍ واحد.

ويتعرف الله ﷻ على العباد بالجمال والجلال؛ لأنه يريد أن تعرفه في كل شيء فلا تجهله في شيء، فيتعرف عليك بالجمال أحياناً فيوسع لك رزقك، ويحفظ لك عافيتك، ثم بعد ذلك يضيق أحياناً فيأتي بالمرض، وبشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وكل هذا ليعلمك أن لا تركز إلا له، ولا تركز لسواه ﷻ، فيعرفك أنه ﷻ جميل جليل، فكما تعرف عليك بالنعمة يتعرف عليك بسلب النعمة، وكما يتعرف عليك بالمنحة يتعرف عليك بالمحنة ﷻ، لذلك قال المصنف: «مَنْ لَمْ يَقْبَلْ عَلَى اللَّهِ بِمُلَاطَفَاتِ الْإِحْسَانِ قَيْدَ إِلَيْهِ بِسَلْسِلِ الْامْتِحَانِ» فيريدك أن تعرفه عند النعمة وتعرفه عند المحنة، تعرفه عند العافية بالشكر، وتعرفه عند المرض بالصبر، وتعرفه عند الغنى بالإنفاق في وجوه الخير، وتعرفه

عند الفقر بالقناعة والرضا، تعرفه عند العطاء وتعرفه عند الحرمان، تعرفه عند الشبع وتعرفه عند الجوع، تعرفه عند الوحدة وتعرفه عند الأنس، تعرفه في كل شيء.

ولذا العباد نوعان: نوع يتلطف الله ﷻ معهم بالنعمة فإن شكروه في النعمة زادهم؛ لأنهم رأوا النعمة فلم يفتنوا بها عن الله ﷻ، وقاموا بحققها وجعلوها في أيديهم ولم تدخل في قلوبهم، وأدوا حقها لله فزادها في أيديهم، وهؤلاء أهل الجمال، وإن كانت لهم بعض التعريفات الجلالية، فعاملهم بملاطفات الإحسان فوصلهم إليه؛ لأنهم قاموا بحققها فلم يتكبروا بها على الخلق واستعانوا بها للوصول إلى الله، والله ﷻ يقول ﴿لَيْنْ شَكْرْتُمْ لَا زَيْدَنْكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، فزادها الله في أيديهم حيث إنها خرجت من قلوبهم.

والنوع الثاني: عباد يعاملهم ربهم بالجلال، فيولد الشخص وعنده مرض مزمن، كمن ولد أعمى مثلاً، أو ولد وعنده عيب خلقي في القلب، أو عيب خلقي في التمثيل الغذائي، فعاش طوال عمره مريض أو عاجز.

وكأن الله ﷻ قيده في هذه السلسلة من الجلال؛ لأنه اطلع عليه ولو عافاه لطغى، ولكنه ابتلاه فصار صابراً شاكراً فيدخل الجنة.

والنبي ﷺ بين هذا المعنى فقال: «وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيْمَانُهُ إِلَّا الْغِنَى وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنْ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيْمَانُهُ إِلَّا الْفَقْرُ وَإِنْ بَسَطْتُ لَهُ أَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنْ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيْمَانُهُ إِلَّا الصَّحَّةُ وَلَوْ أَسْقَمْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ وَإِنْ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيْمَانُهُ إِلَّا السَّقَمُ وَلَوْ أَصَحَّحْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، إِنِّي أَدْبَرُ عِبَادِي بِعِلْمِي فِي

قُلُوبِهِمْ إِنِّي عَلِيمٌ خَيْرٌ»^(١) فلو اطلعت على الحقائق لم تغير شيء من موضعه والله ﷻ يقول ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٧]، والنتيجة ﴿لَبَغُوا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُزِيلُ يَقْدِرُ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧]، فوجب عليك أن ترضي بقدر الله فيك وفي الناس ﴿وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥].

قال أبو مدين^(٢) رحمه الله (سنة الله استعداد العباد لطاعته بسعة الأرزاق

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ج ٨ ص ٣١٨، عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ جَبْرِيلَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ رَبِّهِ تَعَالَى وَقَدَّسَ قَالَ: «مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ مَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ، مَا تَرَدَّدْتُ فِي قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلَا بَدَلَهُ مِنْهُ وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يُرِيدُ بَابًا مِنَ الْعِبَادَةِ فَأَكْفُهُ عَنْهُ لَا يَدْخُلُهُ عُجْبٌ فَيُفْسِدُهُ ذَلِكَ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، لَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَنَقَّلُ لِي حَتَّى أَحِبَّهُ وَمَنْ أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا، أَوْ يَدًا وَمُؤَيَّدًا، دَعَانِي فَأَجَبْتُهُ وَسَأَلَنِي فَأَعْطَيْتُهُ وَنَصَحَ لِي فَنَصَحْتُ لَهُ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيْمَانَهُ إِلَّا الْغِنَى وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيْمَانَهُ إِلَّا الْفَقْرُ وَإِنْ بَسَطْتُ لَهُ أَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيْمَانَهُ إِلَّا الصَّحَّةُ وَلَوْ أَسَقَمْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيْمَانَهُ إِلَّا السَّقَمُ وَلَوْ أَصَحَّحْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، إِنِّي أَدْبَرُ عِبَادِي بِعِلْمِي فِي قُلُوبِهِمْ إِنِّي عَلِيمٌ خَيْرٌ»

(٢) هو الشيخ الفقيه المحقق، الواصل، القطب شيخ مشايخ الإسلام في عصره، إمام العباد والزهاد سيدي أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري، الأندلسي التلمساني، أصله من أشبيلية، أخذ العلم عن أكابر علماء عصره أمثال: الشيخ الإمام عبد القادر الجيلاني قدس سره (المتوفي ٥٦٠هـ) قرأ عليه بالحرم الشريف كثيرًا من الحديث وألبسه الخرقة، وأودعه كثيرًا من أسرارهِ، وحلاه بملايس أنواره. والولي العارف العلامة أبي حسين على بن إسماعيل بن حرزهم (المتوفي بفاس سنة ٥٥٩هـ) وينتهي نسبه إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان. وهو من أقدم شيوخ أبي مدين، لازمه وقرأ عليه الرعاية للحارث المحاسبي. والعلامة الفقيه الحافظ أبي الحسن على بن غالب، فقيه فاس ومفتيها (المتوفي سنة ٥٦٨هـ) قرأ عليه سنن الترمذي. لقد كان الإمام الشيخ أبو مدين إلى جانب كونه محدثًا فقيهاً، كان شاعرًا أديبًا وشعره في غاية الجودة والنفاسة، والحسن والبراعة لفظًا ومعنى. وقد نال شعره شهرة واسعة، كما أن البعض من شعره

ودوام المعافاة ليرجعوا إليه بنعمته، فإن لم يفعلوا ابتلاهم بالسراء والضراء لعلهم يرجعون؛ لأن مراده ﷺ رجوع العباد إليه طوعاً وكرهاً، فقوم بسط الله عليهم النعم، وصرف عنهم البلايا والنقم، ورزقهم الصحة وأمدهم بالأموال والعافية، فأدوا حقها وقاموا بشكرها، وتشوقوا إلى معرفة المنعم بها، فكانت مطية لهم على السير إليه، ومعونة لهم على القدوم عليه، أخرجوها من قلوبهم وجعلوها في أيديهم).

فالعباد بين غني شاكر وبين فقير صابر، فالذي تعرف عليه بملاطفات الإحسان غني، والغنى مطلوبه الشكر، والذي تعرف عليه بسلاسل الامتحان فمطلوبه الصبر.

ينشد ويغنى في محافل الذكر. هذا فضلاً عن اهتمام العلماء به، كقصيدته الرائية المشهورة والتي مطلعها: ما لذة العيش إلا حبة الفقرا.....هم السلاطين والسادات والأمر.

وفاته: لما أشتهر أمر الشيخ أبي مدين ببجاية سعى به عند خلفاء بني عبد المؤمن بمراكش، فامر السلطان بطلوعه من (بجاية) إلى (مراكش)، وكتب إلى والي بجاية بالوصية عليه وأن يتحمل خير محمل، فأخذ الشيخ أبو مدين في السفر، وشق ذلك على كثير من أصحابه وعز عليهم فراقه فقال لهم: لا عليكم شعيب شيخ كبير ضعيف لا قدرة له على المشي، ومنيته قدرت بغير هذا المكان ولا بد من الوصول إلى موضع المنية فقبض الله لي من يحملني إلى مكان الدفن برفق. وأرتحل به إلى أن وصل إلى تلمسان، ونزل بها بالموضع الذي يقال له العباد وقال لرفقائه: لا بأس بالنوم في هذا المكان، ووافته المنية بهذا المكان في عام (٥٩٤هـ) رحمه الله تعالى، فشرفت به تلك البقاع، وهذه جملة من كراماته، وقبره مشهور وحوض مورود، والدعاء عنده مستجاب. قال أبو علي الصواف - رحمه الله - لما أحتضر الشيخ أبو مدين استحييت أن أقول له أوصني، فأتيته بغيري وقلت له: هذا فلان فأوصه. فقال: سبحانه الله! وهل كان عمري كله معكم إلا وصية؟ وأي وصية أبلغ من مشاهدة الحال؟

وقال أبو علي الصواف: آخر ما سمعته منه عند النزاع قوله الله . الله . الله حتى رق صوته، وقال بعضهم: آخر ما سمع منه الله الحق، وقال بعضهم آخر ما سمع منه: الله الحي. وأي ما كان فهذه خاتمة حسنى ومرتبة عليا يظهر فيها صدق قول النبي ﷺ «يموت المرء على ما عاش عليه».

الحكمة الرابعة والستون

مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النِّعَمَ فَقَدْ تَعَرَّضَ لَزَوَالِهَا، وَمَنْ شَكَرَهَا فَقَدْ قَيَّدَهَا بِعِقَالِهَا.

شرح الحكمة

قال الله ﷻ ﴿لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، أي إن الله لا يغير نعمة أنزلها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم بكفرهم ونسيانهم المنعم، وباستعمال النعمة في معصية الله ﷻ. سئل الإمام الجنيدي رحمه الله ما هو شكر النعمة؟ قال (شكر النعمة أن لا يعصى الله بنعمة) فجوارحك ومالك وعافيتك وكل شيء أعطاك الله من النعم، ومن شكرها أن تستعملها فيما يرضي الله ﷻ.

والعقال: هو ما تقيد به البعير، والشكر هو الذي يقيد النعمة فيحفظها عنده، قال ابن عطاء الله السكندري في لطائف المنن (الشكر على ثلاث أقسام: شكر اللسان، وشكر الأركان، وشكر الجنان)

فشكر اللسان هو التحدث بالنعم، يعني إن أعطاك الله ﷻ علماً فإن لم تنشر هذا العلم بلسانك ابتغاء وجه الله نقص هذا العلم، بل يضيع من قلبك، وإذا أعطاك الله حفظ القرآن ولم تشغل به لسانك تنساه، ومن شكر نعمة العلم العمل به ونشره ﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. لذلك قال العلماء (العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل) فشكر اللسان التحدث بنعم الله قال ﷻ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

وشكر الأركان العمل بالطاعة قال ﷺ: ﴿اعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] والنبى ﷺ قام الليل حتى تفتطرت قدماه، فلما قيل له هون عليك يا رسول الله، تفعل ذلك وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: «أفلا أكون عبدا شكورا».

وشكر الجنان بالاعتراف بأن كل نعمة من المنعم ولا يقول ﴿أُوتِيْتُهُ، عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨].

ولو جاءت النعمة على يدي الخلق وجب عليك أن تشكرهم؛ لأن النعمة يُسرت على أيديهم؛ ولأنهم سبب لجلب هذه النعمة، فتحترم الوساطة وتشكر السبب الذي سببه وهو الله ﷻ، ولذا قال ﷺ «مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ»^(١).

كما إن الله ﷻ هو الهادي، وعليك أن تحترم سبب الهداية وهو رسول الله ﷺ وتحبه وتبجله، وكما يجب عليك أن تحترم والديك؛ لأنهم سبب في وجودك الظاهري، وإن كان الذي خلقك هو الله، فعليك أن تحترم الأسباب، ولكن لا تعتقد أنها فاعلة وتعتمد عليها، قال الله: ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].



(١) أبو داوود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤).

الحكمة الخامسة والستون

خَفَ مِنْ وَجُودِ إِحْسَانِهِ إِلَيْكَ وَدَوَامِ إِسَاءَتِكَ مَعَهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ
اسْتِذْراجاً لَكَ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤].

شرح الحكمة

قال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله: (نمدهم بالنعمة وننسيهم الشكر عليها فإذا ركنوا إلى النعمة وحجبوا عن المنعم أخذوا)، والله تعالى يقول ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤]، وقال ﷺ ﴿فَلَعَنَافُسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، فالواجب على الإنسان إذا أحس بنعمة ظاهرة أو باطنة، حسية أو معنوية، أن يعرف حقها ويبادر إلى شكرها نطقاً واعتقاداً وعملاً، فالنطق بالحمد، والشكر باللسان، والاعتقاد شهود المنعم في النعمة وإسنادها إليه، والغيب عن الوساطة بالقلب مع شكر الوساطة باللسان، والرضى بالنعمة والقناعة بها، فما أوتي إنسان خير من الرضى واليقين.

والحاصل: أن الشكر هو الأدب مع المنعم ومن جاءت على يديه، فإن أساء الأدب أدب، وقد يؤدب في الباطن وهو لا يشعر، فيُحرم الإقبال على الله، وتصعب عليه الطاعة.

الحكمة السادسة والستون

مَنْ جَهْلُ الْمُرِيدِ أَنْ يُسِيءَ الْأَدَبَ فَتَوَخَّرَ الْعُقُوبَةُ عَنْهُ، فَيَقُولُ: لَوْ كَانَ هَذَا سُوءَ أَدَبٍ لَقَطَعَ الْإِمْدَادُ، وَأَوْجَبَ الْإِبْعَادَ، فَقَدْ يَقْطَعُ الْمَدَدَ عَنْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا مَنَعَ الْمَزِيدَ، وَقَدْ يَقَامُ مَقَامَ الْبُعْدِ وَهُوَ لَا يَدْرِي، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ يُخْلِكَ وَمَا تُرِيدُ.

شرح الحكمة

«مَنْ جَهْلُ الْمُرِيدِ أَنْ يُسِيءَ الْأَدَبَ» مع إخوانه المسلمين، أو مع مشايخه، أو مع نبيه ﷺ أو مع ربه ﷻ في خلوته أو جلوته.

فإساءة الأدب مع الله ﷻ في ارتكاب المحرمات، وعدم توقير رسول الله ﷺ، فلا يوقر النبي ﷺ التوقير الواجب، ولا يتبع سنته الاتباع المطلوب. وإساءة الأدب مع الشيخ بأن ينظر إلى مواضع النقص في شيخه، أو يفاضل بين المشايخ، ويفاضل بين الأولياء، وهذا لا يليق؛ لأن الأولياء وإن كانوا متفاضلين فيما بينهم إلا أن الذي يفضلهم هو الله.

وإساءة الأدب إلى إخوانه، بأن يسخر من هذا، أو يستضعف آخر، أو يرى نفسه أفضل منهم، أو مقدم عليهم، وغير ذلك.

ولذا يقول: «مَنْ جَهْلُ الْمُرِيدِ أَنْ يُسِيءَ الْأَدَبَ فَتَوَخَّرَ الْعُقُوبَةُ عَنْهُ» وفي تأخير العقوبة الخطر الأكبر؛ لأن المريد سيظن بنفسه أنه لم يخطئ، ولم يسيء الأدب، ويستمر على ما هو عليه، لذا قال الشيخ: «فَيَقُولُ: لَوْ كَانَ هَذَا سُوءَ أَدَبٍ لَقَطَعَ الْإِمْدَادُ، وَأَوْجَبَ الْإِبْعَادَ» وهو لا يعلم أنه يُمَكِّرُ بِهِ.

قال الشيخ: «فَقَدْ يُقَطَّعُ الْمَدَدَ عَنْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا مَنْعَ الْمَزِيدِ» ومن العقوبة أن الله ﷻ يوقفه عن الترقى وهو لا يعلم.

وإذا وقف السالك على درجة واحدة، وهو مطمئن، ولا يظن أنه أساء الأدب فهذه عقوبة، فيبقى واقفا وغيره يترقى ويصل إلى أعلى الدرجات ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، والحسرة الشديدة أن يبقى السالك محجوباً في حسه، ويعاني من قسوة الحجاب عن الله ﷻ، ويكون في العبادة ولا يجد لها لذة حلاوة.

قال الشيخ: «وَقَدْ يُقَامُ مَقَامَ الْبُعْدِ وَهُوَ لَا يَذَرِي، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ يُخَلِّيكَ وَمَا تُرِيدُ» إما يمنعك المزيد والترقى فتبقى على حالك، أو يتركك مع حجابك مع الحس، فيجب عليك أن تراعي الأدب مع الله ومع رسوله ومع المشايخ والعلماء ومع المسلمين.

واقترد بالنبي ﷺ حين دخل مكة فاتحاً، ورأى من أذوه وأرادوا قتله، فقال اذهبوا فأنتم الطلقاء، وأكرمهم وأحسن إليهم، وهكذا فعل مع أهل الطائف، وذلك لرحمته ولكمال أدبه مع مولاه.

وكذا سيدنا يوسف ﷺ مع إخوته الذين رموه في البئر، فلما التقى بهم قال ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢] ولما قابل أباه سيدنا يعقوب ﷺ قال: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠]، فنسب الفعل إلى الشيطان، فهذا خلق الأنبياء مع الكفار ومع من أذاهم، ليكون الإحسان عملك مع إخوانك المسلمين.

واعلم إن أكبر العقوبات أن تركك الله ﷻ مغموساً في الدنيا، محجوباً بها، ولا تعرف حقيقتها، وحقيقتها قد بينها الله ﷻ لسيدنا موسى عليه السلام حين قال: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسَى﴾ [طه: ١٧]، ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ [طه: ١٨]، أي هي دنياي ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ [طه: ١٨] أي لي فيها استعمالات كثيرة، فقال الله ﷻ ﴿أَلْقَهَا يَمُوسَى﴾ [طه: ١٩]، ألق دنياك التي تعتمد عليها وانظر إلى حقيقتها ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه: ٢٠] فلما عرف أنها حية تسعى خاف وهرب منها، فقال ربنا ﷻ ما دمت عرفت حقيقتها ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ [طه: ٢١].

فالآداب مع الله ﷻ على حسب مقامك، فأدب العوام يختلف عن أدب الخواص، وأدب الخواص يختلف عن أدب خواص الخواص. فالعوام أدبهم مع الله (بامتثال أمره واجتناب نهيه، ومع رسوله باتباع السنة ومجانبة البدعة) ومجانبة أهل البدع فإذا قصر في الاتباع يعاقب. وأدب الخواص مع الله الإكثار من ذكره مع مراقبة الله ﷻ في كل الأحوال. وأدبهم مع رسول الله ﷺ أن يؤثروا محبته على ما سواه، والاهتداء بهديه والتخلق بأخلاقه.

وأدب خواص الخواص، بالتواضع مع كل شيء والتعظيم لكل شيء، ولا يحتقر شيئاً ما ولو بعوضة، لأنه يرى أن الفاعل الله، ويرى تجلياته في الجلال والجمال، فيرى الله ﷻ في كل شيء فلا يجهله في شيء.

وأدبهم مع رسوله بالتحقق بحسبه الروحاني والتخلق بأخلاقه العظيمة والرحمة بأمته.

وأدب السالك مع الشيخ توقيره في غيبته وحضوره، ولا يحصي الأخطاء على الشيخ، ولا يرى حكمه أفضل من حكم الشيخ، وأن يرى فيه الخصوصية، فهو كالطبيب الذي يصف الدواء الذي تكره، أو قد يأمر بأجراء عملية جراحية لا تحبها في عقلك لكنه يعلم أن فيها نجاتك.

والخلاصة أن تعتقد النقص في نفسك، والخير في جميع المسلمين، فلا ترى نفسك أحسن منهم، وأن تعتقد فيهم الصلاح، وأن تستر عيوبهم وتنصحهم دون تكبر.

الحكمة السابعة والستون

إِذَا رَأَيْتَ عَبْدًا أَقَامَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِوُجُودِ الْأَوْرَادِ، وَأَدَامَهُ عَلَيْهَا مَعَ طُولِ
الْإِمْدَادِ فَلَا تَسْتَحْقِرَنَّ مَا مَنَحَهُ مَوْلَاهُ؛ لِأَنَّكَ لَمْ تَرَ عَلَيْهِ سِيمَا الْعَارِفِينَ،
وَلَا بَهْجَةَ الْمُحِبِّينَ، فَلَوْلَا وَارِدُ مَا كَانَ وَرْدُ

شرح الحكمة

«إِذَا رَأَيْتَ عَبْدًا أَقَامَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِوُجُودِ الْأَوْرَادِ» أي في مداومة العبادة والأوراد والذكر «وَأَدَامَهُ عَلَيْهَا مَعَ طُولِ الْإِمْدَادِ فَلَا تَسْتَحْقِرَنَّ مَا مَنَحَهُ مَوْلَاهُ؛ لِأَنَّكَ لَمْ تَرَ عَلَيْهِ سِيمَا الْعَارِفِينَ، وَلَا بَهْجَةَ الْمُحِبِّينَ، فَلَوْلَا وَارِدُ» من الله سبحانه وإمداد «مَا كَانَ وَرْدُ مِنْكَ»، يعني لولا كمال العناية من الله ﷻ ما ورد عليك وارد.

يقول الشيخ أحمد زروق^(١) رحمته الله : سيما العارفين ثلاث، الأول: الإعراض عما سوى معروفهم. أي الإعراض عما سوى الله تعالى، وأن يرى الله في كل شيء ولا يجهله في شيء.

(١) هو العالم الفقيه المحدث الصوفي المتضلّع المتبحر الولي الصالح العارف بالله أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى الفاسي الشهير بزروق.

ولد رحمه الله ورضي عنه ثامن وعشرين المحرم عام ٨٤٦ هجري، حفظ القرآن وهو ابن عشر سنين وقيل ابن أربع سنين، ونشأ محباً للعبادة ملازماً للأذكار. كان مالكي المذهب حيث قرأ رسالة ابن أبي يزيد القيرواني في فقه المالكية على الشيخ عبد الله الفخار وعلى السبطي بحثاً وتحقيقاً، وقرأ البخاري عن محمد بن القاسم القوري وغيره. سافر إلى مصر عام ٨٨٤ هجري، واشتغل في مصر بعلوم اللغة العربية واصل الفقه فدرس على الجوجري وغيره من العلماء، وقرأ بلوغ المرام ودرس علم الاصطلاح على الحافظ السخاوي وتأثر به. خرج مولانا زروق من مدينة فاس، وقدم إلى مصر، وتلاقى مع مولانا سيدنا أبي العباس الحضرمي رضي الله عنه، وأخذ عنه الطريق، وتلقن الأوراد، وفتح له على يديه، وصار شيخه في التربية، وانتسب إليه، ولازمه، وهو شيخه الذي لا معول له في الطريق إلا إليه. ثم توجه إلى طرابلس الغرب فأحيا بها معالم الطريق، وأوضح بيان التحقيق، وأشهر بها الطريقة الشاذلية، ونشر أعلامها السنية، فانقادت إليه المريدون، وهابته ملوك العالمين، ونُسبت إليه الطريقة لما ظهرت عليه أنوار أهل الحقيقة، وأمر بلسان الحال أن يقول في ميدان الرجال ماسكاً بلحيته: لا شيخ بعد هذه اللحية.

كان رضي الله عنه صاحب حال، وبهاء وجمال ودلال، أطلعه الله على المغيبات، فنطق بسائر اللغات، لم يختلف فيه اثنان، ولا تقوّل فيه قولان، فهو صاحب التصريف الأكبر، وغوث الأنام الأزهر. له مؤلفات عديدة لا تكاد تنحصر؛ منها تفسيره للقرآن العظيم، وشرحه على «رسالة ابن أبي زيد القيرواني»، وله ثلاثة شروح على متن «القرطبية»، وستة وثلاثون شرحاً على «الحكم العطائية»، وشرح على أسماء الله الحسنى، وشرح على «دلائل الخيرات»، وله كتاب «النصائح»، وكتاب «قواعد الصوفية»، و«العقائد الخمس»، وله مصنفات عديدة في التصوف.

وفاته: توفي رضي الله عنه ونفع به عام ثمان مئة وتسعة وتسعين، ودفن بمصراته من طرابلس الغرب، وله مسجد كبير، تقام فيه الشعائر، ومقامٌ وضريح يزار.

الثاني: الإقبال عليه بترك الحظوظ وإقامة الحقوق. لا يبحث عن حظوظ نفسه بل على طاعة الله ﷻ.

الثالث: الرضا بأقدار الله في حاله وحال من حوله.

والنبي ﷺ يقول عن الإيمان: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ»^(١).

فالإيمان بالقضاء والقدر هو أن تعتقد أن ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾^(٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴿الْحديد: ٢٢-٢٣﴾، فإذا كان مكتوبا قبل خلق السماوات والأرض فلماذا الحزن والاعتراض، والأولياء فهموا هذا الأمر فرضوا بقضاء الله ﷻ، فتراهم ساكنين عند نزول البلاء.

واعلم أنه لولا فضل الله ﷻ ما عبدناه ولا ذكرناه ولا زكينا أنفسنا ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ [النور: ٢١]، والتزكية تأتي بمخالفة النفس ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾^(٣) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا^(٤) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾^(٥) [الشمس: ٧-٩]، فبفضل الله ورحمته يكون الوارد فتعمل الوارد ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]، فلولا فضل الله لأطعت الشيطان، وصرت من أهل المعاصي. ولكن فضل الله ﷻ تداركك فأخرجك من أهل المعاصي إلى أهل الطاعة. لذلك لا يحمد على كل شيء سواه ﷻ.

(١) البخاري (٤٧٧٧)، مسلم (٨)، أبو داود (٤٦٩٥)، الترمذي (٢٦١٠)، النسائي (٤٩٩٠)، ابن ماجه (٦٤).

فلا تحتقر أحدا من المسلمين أبدا، حتى وإن رأيته من أهل المعاصي، فقد يمن الله عليه بتوبة فيجعله من كبار الصالحين. كالصحابية التي تابت في زمن النبي ﷺ من الزنا فأقام النبي ﷺ عليها الحد، ولعنها سيدنا عمر رضي الله عنه فقال النبي ﷺ: «لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدَتْ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ تَعَالَى»^(١) وكان في المدينة المنافقون واليهود وعصاة المسلمين، فتوبتها لو قسمت على كل هؤلاء لوسعتهم وأدخلتهم الجنة.

قال أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: (أقم عليهم الحدود واهجرهم رحمة بهم لا تقذرا لهم).

وقال الشيخ زروق رحمه الله: المنتسب لجانب الحق يتعين إكرامه مراعاةً لنسبته، ثم إن كان كاذباً فالأمر بينه وبين من انتسب إليه، فإن أمرنا بإقامة حقه عليه بحيث يتعين عليه، كنا معه كعبد السيد يضرب ولد سيده بإذنه يؤدبه ولا يحتقره)



(١) مسلم (١٦٩٦) عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ آتَتْ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ حُبْلَى مِنَ الزَّانِي، فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَصَبْتُ حَدًّا، فَأَقِمْهُ عَلَيَّ، فَدَعَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ وَلِيَّهَا، فَقَالَ: «أَحْسِنُ إِلَيْهَا، فَإِذَا وَضَعْتَ فَأْتِيَنِي بِهَا»، فَفَعَلَ، فَأَمَرَ بِهَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ، فَشُكِّتَ عَلَيْهَا ثِيَابُهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرُجِمَتْ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهَا، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: تُصَلِّي عَلَيْهَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَقَدْ زَنَتْ؟ فَقَالَ: «لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدَتْ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ تَعَالَى؟» أبو داود (٤٤٤٠)، الترمذي (١٤٣٥).

الحكمة الثامنة والستون

قَوْمٌ أَقَامَهُمُ الْحَقُّ لِحُدُومَتِهِ، وَقَوْمٌ اخْتَصَّهُمْ بِمَحَبَّتِهِ ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

شرح الحكمة

هذه الحكمة متعلقة بالآداب التي يجب أن يتحلى بها المرید الذي يريد أن يصل إلى الله ﷻ بقلبه لا بأعماله، فقد حجب كثير من الناس بأعمالها عن الله ﷻ، والمرید السالك يريد أن يصل من خلال عمله إلى الله ﷻ، ولا يحجب بعمله عن الله ﷻ، لذلك عليه أن يتحلى ببعض الآداب، ومن بين هذه الآداب ألا يستهين بإنسان لم تظهر عليه بؤادر الولاية والمعرفة بالرغم من استمراره في العبادة في أمد طويل.

فبين لك في هذه الحكمة أن الناس على نوعين: «قَوْمٌ أَقَامَهُمُ الْحَقُّ لِحُدُومَتِهِ، وَقَوْمٌ اخْتَصَّهُمْ بِمَحَبَّتِهِ ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].» فالنوع الأول: قوم استخدمهم الله ﷻ في العبادة، والزهد، والذكر، والصيام، وقراءة القرآن، فهؤلاء هم العباد الذين أقامهم الله في خدمته، وقدوتهم في ذلك سيدنا النبي ﷺ، الذي كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه، فهؤلاء ورثوا من النبي ﷺ الأعمال فقاموا بالخدمة.

والنوع الثاني هم قوم اختصهم بمحبته، وهؤلاء ورثوا من النبي ﷺ الأحوال، فقاموا بالمعارف، فعبادتهم قلبية، فتراه يجلس مع الناس ويكلمهم وقلبه مع الله ﷻ. والفريقان مقتدون بالنبي ﷺ ويعملون بفضل الله ومده ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ

مَحْظُورًا ﴿الاسراء: ٢٠﴾ والكل يقوم بالفرائض والسنن الرواتب، لكن الذين اختصهم الله في خدمته يزدون على الرواتب وعلى الفرائض بأعمال وعبادات كثيرة أخرى، أما الذين اختصهم الله بمحبته فقد استراحوا بعد الفرائض والرواتب، فلا يفعلون إلا العبادات القلبية، فتجده مشاهد لله ﷻ أو مراقب لله ﷻ بقلبه في كل لحظة، فلا يغيب الله ﷻ عن قلبه لحظة، فهو يجول في جنة المعارف مع الله ﴿وَرَى الْجِبَالِ تَحْسِبُهَا جَمْدًا وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، هذا هو حالهم تحسبه جامدًا مستريحًا، ولكن هو يمر مر السحاب في المعاني الملكوتية الرحمانية التي تأتيه، وتهب عليه في قلبه في كل لحظة وفي كل حين، وهؤلاء هم المختصون بمحبة الله ﷻ.

وهذه المحبة لا تدرك بسلوك، ولكن هي محض وهب من الله ﷻ، فهي وهبة لا كسبية. ﴿يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الشورى: ١٣] وهم أهل المحبة ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣] وهم أهل الخدمة: «قوم أقامهم الحق لخدمته، وقوم اختصهم بمحبته» فإذا رأيت الإنسان الذي انشغل في الأوراد سنوات طويلة ولم تظهر عليه أمارات الولاية فلا تستقل حاله؛ لأنهم قوم أقامهم الله في خدمته.

فهذه الحكمة متعلقة بالحكمة السابقة «إِذَا رَأَيْتَ عَبْدًا أَقَامَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِوُجُودِ الْأَوْرَادِ، وَأَدَامَهُ عَلَيْهَا مَعَ طُولِ الْإِمْدَادِ فَلَا تَسْتَحْقِرَنَّ مَا مَنَحَهُ مَوْلَاهُ؛ لِأَنَّكَ لَمْ تَرَ عَلَيْهِ سِيمَا الْعَارِفِينَ، وَلَا بَهْجَةَ الْمُحِبِّينَ» فهناك من يعبد الله بالدليل والبرهان، وهناك من يعبد الله بالشهود والعيان.

وإذا سألت أهل الشهود ما هو دليلك على وجود الله؟ يقولون وهل غاب الله حتى يحتاج لدليل؟! .

وإذا سألت أهل البرهان قالوا الدليل على وجود الله ﷻ هو وجود الحادث المخلوق، فاستدلوا بالعالم على العالم ﷻ، والعالم سمي عالماً؛ لأنه علامة على خالقه. أما أهل الشهود والعيان لا يحتاجون للدليل والبرهان كما قال سيدنا علي رضي الله عنه: (عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي).

ولذلك إذا أقامك الله أيها المريد في خدمته، ولم تحدث لك أمارات الولاية، فاطمأن لما أنت فيه؛ لأنه لولا الوارد من الله ما أقامك في هذا الورد، فاستمر على ما أنت عليه حتى يفتح الباب. وإن لم يفتح الباب فأنت على خير كثير؛ لأن الباب لا يفتح بأورادك وأفعالك ولكن يفتح بالله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، فترضى بقدر الله وتقنع بما أقامك الله فيه. فإذا قنعت بما أقامك الله فيه كنت أغنى الناس، وكنت أعرف الناس بالله. أما إذا اشأبت عينك إلى مقام لم يقيمك الله فيه، فهذا من باب حظوظ النفس والطمع، وأهل الحظوظ والطمع محجوبون عن الله.

«قَوْمٌ أَقَامَهُمُ الْحَقُّ لِحُدُومَتِهِ، وَقَوْمٌ اخْتَصَّهُمْ بِمَحَبَّتِهِ ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]»، عليهم في الدنيا دون الآخرة ودون البرزخ، بل هم في دوام العبادة والترقي. فأهل الأوراد في الدنيا مشغولون في برزخهم بأورادهم، وأهل القرآن يقرأون القرآن في قبورهم، وأهل الذكر والتسبيح والصلاة على النبي يلتذون في قبورهم بالتسبيح والذكر والصلاة على النبي ﷺ. فبيننا ﷺ عندما مر على قبر سيدنا موسى بن عمران عليه السلام في رحلة الإسراء قال وجدته قائماً يصلي في قبره. فهم مشغولون فيما كانوا عليه في الدنيا.

فحاصل الباب السابق هي رفع همة المريد إلى الله ﷻ مع مراعاة الأدب في الأنفاس والأحوال، مع نفسه ومع ربه ومع الخلق أجمعين.

الحكمة التاسعة والستون

قَلَمَّا تَكُونُ الْوَارِدَاتُ الْإِلَهِيَّةُ إِلَّا بَغْتَةً، لِئَلَّا يَدْعِيَهَا الْعِبَادُ بِوُجُودِ الاستعداد.

شرح الحكمة

اعلم أيها السالك أن الفتح وهبي وليس كسبيًا، فينقلك أيها المريد من الدليل والبرهان إلى الشهود والعيان. ولا يأتي باستعداد العبد واستمراره على الأوراد، بل اجتناء من الله ﷻ ويأتيك بغتة.

كما حصل مع الشيخ عبد الوهاب الشعراني وهو ساجد في صلاة الفجر فكشف له تسبيح الحصى في المسجد وتسبيح الأعمدة ﴿وَأِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا إِسْبِغْ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فلم يرفع من السجود إلى طلوع الشمس. فالكشف أمره صعب، وعلينا أن نحمد الله على نعمة الحجاب؛ لأننا لا نستطيع أن نعيش ونتعامل مع الناس حال الكشف.

«قَلَمَّا تَكُونُ الْوَارِدَاتُ الْإِلَهِيَّةُ إِلَّا بَغْتَةً» يعنى الوارد الإلهي يأتي فجأة، وهو المعاني التي تفيض من الله ﷻ على قلب المؤمن حال عبادته. لا يأتي بكثرة العبادة والاستعداد، حتى لا يدعيها العباد، فيقع في المحذور، فيقول أنا من أهل الأحوال والكشف، ومن قال أنا ضل الطريق ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتُهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]، ولأنها لو كانت على بناء بسبب عبادته سيقول ﴿أَوَيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨].

لذلك قال الشيخ: «قَلَمَّا تَكُونُ الْوَارِدَاتُ الْإِلَهِيَّةُ إِلَّا بَغْتَةً، لِئَلَّا يَدْعِيَهَا الْعِبَادُ بِوُجُودِ الْأَسْتِعْدَادِ» بغتة بدون استعداد منه، ليعرف منه الله عليه، فيعظمها ويحافظ عليها ولا يبوح بها ويشكرها ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

الحكمة السبعون

مَنْ رَأَيْتُهُ مُجِيبًا عَنْ كُلِّ مَا سُئِلَ، وَمُعَبِّرًا عَنْ كُلِّ مَا شَهِدَ، وَذَاكِرًا كُلَّ مَا عَلِمَ، فَاسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلَى وُجُودِ جَهْلِهِ.

شرح الحكمة

لأن الله ﷻ قال ﴿وَمَا أُوتِشْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، فالواجب على المريد أن يراقب ربه في كل أحواله، ويلتزم الأدب في التعامل مع الله، ولا ينسب ما أكرمه الله به إلى نفسه أو عمله، ولينسب الفضل كله لله ﷻ. ويشيها كثير العبادة ويحفظ ما فتح الله به عليه ولا يتكلم به للناس، وعليه حفظ الأسرار حتى تدوم.

فإذا كان الله ﷻ قد قال في المال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء: ٥]، فكيف بالعلم الذي هو اللؤلؤ المكنون، فكيف تعطيه للسفهاء وهو أغلى من المال.

قال سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه: (أخذت عن رسول الله ﷺ

جرايين من العلم، فأما أحدهما فبثثته في الناس وأما الآخر فلو بثثته لقطع مني البلعوم^(١) لأن الناس لا تفهم علم الإشارات وعلم الحقائق، فعلم الحقائق والإشارات تعجز الألفاظ أحياناً أن تصيبه بعبارة راقية واضحة يفهمها كل الناس.

وروي عن سيدنا علي زين العابدين عليه السلام^(٢) أنه قال:

يا ربّ جوهر علم لو أبوح به	لقليل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي	يرون أقبح ما يأتونه حسنا
إني لأكتم من علمي جواهره	كي لا يرى الحق ذو جهل فيفتنا

(١) مسند البزار (٨٥١٧)، ورواه أبو نعيم في الحلية بلفظ «حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَمْسَةَ جُرَبٍ، فَأَخْرَجْتُ مِنْهَا جَرَابَيْنِ، وَلَوْ أَخْرَجْتُ الثَّالِثَ لَرَجَمْتُمُونِي بِالْحِجَارَةِ» ج ١ ص ٣٨١.

(٢) هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم اجمعين، ويكنى بأبي محمد، وأبي الحسن، ومن ألقابه التي عرف بها زين العابدين، والسجاد، لقّب به لكثرة سجوده ولد يوم ٥ شعبان ٣ هـ في المدينة المنورة وتوفي فيها في ٢٥ محرم من سنة ٩٥ هـ.

بَرَزَ عَلَى الصَّعِيدِ الْعِلْمِيِّ وَالِدِينِيِّ، إِمَامًا فِي الدِّينِ وَمَنَازًا فِي الْعِلْمِ، وَمَرَجَعًا وَمَثَلًا أَعْلَى فِي الْوَرَعِ وَالْعِبَادَةِ وَالتَّقْوَى حَتَّى سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ جَمِيعًا فِي عَصْرِهِ بِأَنَّهُ أَفْقَهُ أَهْلَ زَمَانِهِ وَأَوْرَعُهُمْ وَأَتَقَاهُمْ. فَقَالَ الزُّهْرِيُّ، وَهُوَ مِنْ مُعَاَصِرِهِ: «مَا رَأَيْتُ قُرْشِيًّا أَفْضَلَ مِنْهُ»، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَهُوَ مِنْ مُعَاَصِرِهِ أَيْضًا: «مَا رَأَيْتُ قَطُّ أَفْضَلَ مِنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ»، وَقَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ: سَمِعْتُ زَيْنَ الْعَابِدِينَ لِكَثْرَةِ عِبَادَتِهِ، وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ «مَا رَأَيْتُ هَاشِمِيًّا أَفْضَلَ مِنْ زَيْنِ الْعَابِدِينَ وَلَا أَفْقَهُ مِنْهُ»، وَعَدَّهُ الشَّافِعِيُّ أَنَّهُ: «أَفْقَهُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ». وَقَالَ شُعَيْبُ بْنُ أَبِي حَمْزَةَ، عَنْ الزُّهْرِيِّ: كَانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ مِنْ أَفْضَلِ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَأَحْسَنُهُمْ طَاعَةً، وَقَالَ مَعْمَرٌ، عَنْ الزُّهْرِيِّ: لَمْ أَذْكُرْ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ أَفْضَلَ مِنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ. وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ مَالِكٍ: لَمْ يَكُنْ فِي أَهْلِ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِثْلُ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ.

وهذا في حقائق التوحيد وعلاقة الله ﷻ بخلقه، وعلاقة الله ﷻ بالوجود والحادث مع القديم علاقات يجل الوصف عن وصفها وتعجز الألفاظ أن تعبر عنها.

وقد يرخص للعارف أحياناً أن يقول بعض المعارف والواردات، ولكن بعبارة رقيقة ورشيقة، ويكون في كمال الصحو وكمال الإيقاظ حتى لا يفتن الناس ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الممتحنة: ٥]، فما بالك إذا صار فتنة للذين آمنوا وهي أشد، والله أعلم.

يُروى: أن هشام بن عبد الملك حج فلم يقدر على الاستلام من الزحام. فُصِب له منبر فجلس عليه وأطاف به أهل الشام، فبينما هو كذلك إذ أقبل علي بن الحسين وعليه إزار ورداء، من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم رائحةً، بين عينيه سجادة. فجعل يطوف، فإذا بلغ إلى موضع الحجر تنحى الناس حتى يستلمه هيبته له. فقال شامي: مَنْ هَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟! فنكره هشام وقال: لَا أَعْرِفُهُ؛ لئلا يرغب فيه أهل الشام. فقال الفرزدق (وكان من شعراء بني أمية ومادحيهم) وكان حاضراً: لكني أنا أعرفه. فقال الرجل الشامي: مَنْ هُوَ يَا أَبَا فِرَاسٍ؟! فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطَاتَهُ	وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ
هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ	هَذَا التَّقِيُّ التَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ
هَذَا ابْنُ فَاطِمَةَ إِنْ كَتَّ جَاهِلُهُ	بَجَدَهُ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ قَدْ خُتِمُوا
وَلَيْسَ قَوْلُكَ مِنْ هَذَا بَضَائِرِهِ	الْعَرَبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرْتَ وَالْعَجَمُ
مَا قَالَ لَا قَطُ إِلَّا فِي تَشْهَدِهِ	لَوْلَا الشَّهَدُ كَانَتْ لَاءُهُ نَعَمُ
إِذَا رَأَتْهُ قُرَيْشٌ قَالَ فَأَنْثَاهَا	لِي مَكَارِمِ هَذَا يَنْتَهِي الْكَرَمُ
يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ	فَمَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَبْسِسُ

فغضب هشام ومنع جائزته وقال: أَلَا قُلْتَ فِينَا مِثْلَهَا؟! قال: هَاتِ جَدًّا كَجَدِّهِ، وَأَبَا كَأَبِيهِ، وَأَمَّا كَأُمِّهِ حَتَّى أَقُولَ فِينَكُمْ مِثْلَهَا! فامر هشام بحبسه بعُسفان بين مكة والمدينة: فبلغ ذلك علي بن الحسين، فبعث إليه بائني عشر ألف درهم، وقال: أَعِزَّنَا يَا أَبَا فِرَاسٍ، فَلَوْ كَانَ عِنْدَنَا أَكْثَرُ مِنْ هَذَا لَوَصَلْنَاكَ بِهِ! فَرَدَّهَا وَقَالَ: يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ! مَا قُلْتَ الَّذِي قُلْتَ إِلَّا غَضَبًا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ! وَمَا كُنْتُ لِأَرْزَأَ عَلَيْهِ شَيْئًا. فَرَدَّهَا إِلَيْهِ وَقَالَ: بِحَقِّي عَلَيْكَ لَمَّا قَبِلْتَهَا فَقَدْ رَأَى اللَّهُ مَكَانَكَ وَعَلِمَ نِيَّتَكَ! فقبلها.

الحكمة الحادية السبعون

إِنَّمَا جَعَلَ الدَّارَ الْآخِرَةَ مَحَلًّا لِّجَزَاءِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الدَّارَ لَا تَسَعُ مَا يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَهُمْ، وَلِأَنَّهُ أَجَلَ أَقْدَارِهِمْ عَنْ أَنْ يُجَازِيَهُمْ فِي دَارٍ لَا بَقَاءَ لَهَا.

شرح الحكمة

«إِنَّمَا جَعَلَ الدَّارَ الْآخِرَةَ مَحَلًّا لِّجَزَاءِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الدَّارَ لَا تَسَعُ مَا يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَهُمْ» فالدنيا لا تكفي ثواب سجدة من مخلص، وسيدنا رسول الله ﷺ قال: «رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»^(١) فهو يتكلم عن سنة الفجر فما بالك بالفريضة.

والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

الحكمة الثانية والسبعون

مَنْ وَجَدَ ثَمَرَةَ عَمَلِهِ عَاجِلًا فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ الْقَبُولِ آجِلًا.

شرح الحكمة

لذة الطاعة هي الثمرة التي يتذوقها المؤمن وهي علامة قبول العمل. فإن كان من أهل المناجاة سيستشعر حلاوة المناجاة، وإذا كان من أهل المراقبة فيأنس بمراقبة الله ﷻ. فإذا استمر المريد عليها على مر الأوقات

(١) مسلم (٧٢٥) عَنْ عَائِشَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»

برغم تغير الأحوال فهذا دليل كمال عناية الله به، وأنها قبلت من الله عز وجل؛ لأنه أذاقك حلاوتها ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

وقال الإمام البوصيري في همزيته:

وإذا حلت الهداية قلباً نشطت للعبادة الأعضاء

قال الله ﷻ ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، والحياة الطيبة هي الرضا، والقناعة، والتسليم وبذلك تحصل السعادة.

الحكمة الثالثة والسبعون

إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ قَدْرَكَ عِنْدَهُ فَانْظُرْ فِي مَادَا يُقِيمُكَ.

شرح الحكمة

فمقامك حيث أقامك، فإن أقامك في المعاصي فمقامك من أهل المعاصي فسارع إلى التوبة، وإذا أقامك في الطاعة فأنت ذو قدر عظيم عند الله ﷻ فأحمد الله على فضله، وانظر لقلبك فإن كان راضياً بقدر الله وقانعاً بما قسمه لك ﷻ فأنت في مقام الرضا ﴿إِلَّا مَن أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]، وإن كان معترضاً ساخطاً فله السخط.

فالعباد على قسمين أشقياء وسعداء ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]، فاحرص على أن تكون في مقامات الرضا مع الله ظاهراً وباطناً.

يقول سيدي ابن عجيبة: (جعل الله تعالى بحكمته خلقه على قسمين أشقياء وسعداء، وجعل السعداء قسمين أهل قرب وأهل بعد، أو تقول أهل يمين ومقررين وهم السابقون. فإن أردت أن تعرف نفسك هل أنت من أهل الشقاوة أو من أهل السعادة فانظر في قلبك، فإن كنت تصدق بوجود ربك وتوحده في ملكه، وتنقاد لمن عرفك به وهو رسوله عليه الصلاة والسلام- فأنت ممن سبقت لهم الحسنی، وإن كنت تنكر أو تشك في ربك أو تشرك به غيره في اعتقادك أو لم تدعن لمن عرفك به فهذا حال أهل الشقاء. ثم إن وجدت نفسك من أهل السعادة وأردت أن تعرف هل أنت من أهل القرب أو من أهل البعد فانظر، فإن كنت ممن يستدل بأثره عليه فأنت من أهل البعد من أصحاب اليمين. وإن كنت ممن يستدل به على غيره، فأنت من أهل القرب من المقررين. ثم إن عرفت أنك من أهل اليمين وأردت أن تعرف قدرك عنده هل أنت من المكرمين أو من المهانين فانظر، فإن كنت تمثل أمره وتجتنب نهيه وتسارع في مرضاته وتتجنب إلى أوليائه وأحبائه فأنت من المكرمين. وإن كنت تتهاون في أمره وتتساهل في نواحيه وتتكاسل عن طاعته وتهتك حرماته وتعادي أوليائه فأنت من المهانين المحرومين المطرودين، إلا أن تتداركك عناية من رب العالمين. وإن تحققت أنك من أهل القرب، وأنك بلغت مقام الشهود، تستدل به على غيره فلا ترى سواه، فإن كنت تقر بالواسطة، وثبتت الحكمة، وتعطي كل ذي حق حقه، فأنت من المقررين الكاملين. وإن كنت تنكر الحكمة وتغيب عن الوساطة فإن كنت مجذوبًا مغلوبًا فأنت في هذا المحل ناقص، وإن كنت صاحبًا، فأنت ساقط إلا أن يأخذ بيدك شيخ واصل أو عارف كامل).

الحكمة الرابعة والسبعون

مَتَى رَزَقَكَ الطَّاعَةَ وَالْغِنَى بِهِنَّ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ أُسْبِغَ عَلَيْكَ نِعْمُهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً

شرح الحكمة

«مَتَى رَزَقَكَ الطَّاعَةَ» أي في الظاهر، فأقام ظاهرك على الشريعة «وَالْغِنَى بِهِنَّ» وجعل باطنك مع الحقيقة، حيث تعلم أن ما أقامك فيه هو الذي أقامك فيه، ولم تقم أنت فيه بنفسك، فلم تشغل بالطاعة عن الذي تطيعه، ولم تلتفت إلى طاعتك بقلبك تعويلاً واعتماداً، بل الاعتماد على محض فضله عليك لا لعله منك، فلم تشغل بنفسك عنه، ولا بعلمك عن المعلوم، ولا بخصوصيتك عن المخصوص سبحانه.

فيجب أن يكون قلبك في حال انشغال ظاهرك بالطاعة مستغنياً بالله عن الطاعة، فالعابد لا ينظر للطاعة أنها صدرت منه، ولكنها صدرت من الله، فاستغنى بالله عن كل شيء.

«مَتَى رَزَقَكَ الطَّاعَةَ وَالْغِنَى بِهِنَّ» فالغنى يكون بالله ﷻ، لا بالعرض، ولا بالنفس، ولا بما أتاك الله من مواهب، حيث أن كل ما أتاك منه ﷻ ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

فإن استغنيت بالنعمة عن المنعم، وكلك لنفسك، وأنت ضعيف فلا تصل لشيء، وتفرح بالنعمة لا لكونها صدرت منك، ولكن لكونها صدرت منه إليك فأظهرها عليك، فإن أراد أن يظهر فضله عليك خلق الطاعة ونسبها إليك ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

«متى رزقك الطاعة» في الظاهر والباطن، فقد تكون الطاعة ظاهراً وباطناً، وقد تكون الطاعة ظاهراً دون الباطن. فمتى رزقك الطاعة الظاهرة التي لا تحتاج لباطن، أو الطاعة الظاهرة التي تحتاج لباطن، وهو الصدق والإخلاص، رزقك ذلك مع كمال الاستغناء بالله عنها، فمهما أتقنت الطاعة لا تُعجب بها، ولا تتذكرها لانشغالك بنقصك وتقصيرك.

سيدنا رسول الله ﷺ يعلمنا تسبيح الملائكة الذين يقولون: (سبحانك ما عبدناك حق عبادتك)^(١) ويقول: (سبحانك لا نحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك)^(٢) فأين تذهب عبادتك في عبادة الملائكة، وعبادة رسول الله ﷺ الذي اعترف بتقصيره وعجزه، وأنت عبادتك معلولة. فإذا استغنيت بها عنه، وكلك إليها وهي ناقصة، فتحرم ثوابها، ولكن إذا أغناك به عنها مع إقامتك فيها فهذا هو عين الكمال.

ولذا إذا تحققت في هذا بالظاهر والباطن، أي بالطاعة ظاهراً وبالاستغناء بالله عنها باطناً، فقد أسبغ عليك نعمه ظاهرةً بالطاعة وباطنةً بالاستغناء به عما سواه.

وهناك عباد انشغلوا بعبادتهم عن المعبود، وعلماء انشغلوا بعلمهم عن المعلوم، وترك الانشغال بالعمل يحتاج إلى مجاهدة ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

(١) الطبراني في الكبير (١٧٥١) ن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما في السماوات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو ملك رافع أو ملك ساجد، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، إلا أنا لم نشرك بك شيئاً»

(٢) مسلم (٤٦٨)، أبو داود (٨٧٩)، الترمذي (٣٤٩٣)، النسائي (١٦٩)، ابن ماجه (١١٧٩)، احمد (٧٥١).

والمحسنون هم الذين تحققوا بمقام الإحسان: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(١) ولا تتحقق بالإحسان إلا بالمراقبة. فإذا تحققت في المراقبة فُتِحَ لك الباب فصرت تعبد معبوداً بلا دليل؛ لأنه أصبح هو الدليل والمدلول.

فأهل المراقبة يعبدونه بالدليل والبرهان، وأهل المشاهدة يعبدونه بالمعرفة والعيان، بعدما كشف لهم الحجب، وعرفهم نفسه بنفسه، لأن الله ﷻ لا يفتقر إلى دليل، وأنت الذي تحتاج لدليل لتعرف مولاك، فلا يفتح لك الباب حتى تمر بالمراقبة، وتترج من مقام المراقبة إلى تجليات مشاهدة المعاني الربانية، والأسرار الاصفائية.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي في حزه الكبير: (نسألك الفقر مما سواك والغنى بك حتى لا نشهد إلا إياك) إذا تحققت بالفقر ظاهراً وباطناً أغناك بالطاعة ظاهراً وباطناً، ولذا كان رسول الله ﷺ أفقر الخلق إلى الله وأغنى الخلق بالله، فكان يتقلب بين مقام الفقر والغنى، فإذا غلب عليه الفقر إلى الله ربط بطنه بالحجر من شدة الجوع، وإذا غلب عليه ﷺ مقام الغنى بالله أطعم الجيش الغفير من الطعام القليل.

(١) البخاري (٥٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَارِئًا يَوْمًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ». قَالَ: مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: «الْإِسْلَامُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ». قَالَ: مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، قَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ الْأُمَةُ رَبَّهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رِعَاةُ الْإِبِلِ الْبُهْمُ فِي الْبُنْيَانِ، فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ثُمَّ تَلَا النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ» [القمان: ٣٤] الَايَةِ، ثُمَّ أَذْبَرَ فَقَالَ: «رُدُّوهُ» فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَقَالَ: «هَذَا جَبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ»، مسلم (٨)، أبو داود (٤٦٩٥)، الترمذي (٢٦١٠)، النسائي (٤٩٩٠)، ابن ماجه (٦٣).

فالدنيا والآخرة مفتقرتان للنبي ﷺ والنبي لا يفتقر إلا لمولاه، وافتقار الدنيا والآخرة له ﷺ؛ لأنه رحمة للعالمين وهو الذي يمد العوالم بأسباب الظهور والصلاح.

الحكمة الخامسة والسبعون

خَيْرُ مَا تَطْلُبُهُ مِنْهُ مَا هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ

شرح الحكمة

«خير ما تطلبه منه» سبحانه «ما هو طالبه منك» ولذا قال سيدنا رسول الله ﷺ لمعاذ «وَاللّٰهُ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللّٰهُ إِنِّي لَأُحِبُّكَ»، فَقَالَ: «أَوْصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدْعَنِّ فِي دُبْرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»^(١).

فالله ﷻ طلب منك أن تذكره ﴿أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وطلب منك أن تعبده ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، فطلب منك العبادة والذكر، وأفضل ما تطلبه منه ما هو طالبه منك، لأنه لو لم يوفقك فيما تطلبه منك ما فعلته؛ لأنك لا تفعل إلا بالله.

طلب منك الاستقامة في الظاهر، والتحلي بأنوار الشريعة مع تمام تسليم القلب لجريان معنى الحكمة ومعنى القدرة؛ لأن من حكمة الله ﷻ أنه خلق الخلق وأمرهم بالشريعة كما أمرهم بالحقيقة.

(١) أبو داود (١٥٢٢) عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، أَنَّ رَسُولَ صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: «يَا مُعَاذُ، وَاللّٰهُ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللّٰهُ إِنِّي لَأُحِبُّكَ»، فَقَالَ: «أَوْصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدْعَنِّ فِي دُبْرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»، النسائي (١٣٠٣).

فلما غيب الله ﷻ الجبر في الأكوان حيث أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأظهر الاختيار في بعض الأفعال ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فالعارفون الواصلون قائمون مع الله بالشرعية استسلاماً للحكمة، معتمدين على فضل الله نظراً للحقيقة. ولذا نظرهم لأهل المعصية بعين الشفقة ولا ينظر لهم بالكره والبغض لذواتهم بل لأفعالهم، وإذا نظروا لأنفسهم وهم في حال الطاعة يرون أن الله ﷻ فاعل للطاعة فلا يجدون لأنفسهم فضلاً.

فالله ﷻ طلب منا في الظاهر الانقياد لأمره والانتهاز عن نهيه والاستسلام لقهره والرضا بقضائه وقدره. فإذا سألت الله فأسأله هذه المعاني، فإن أعطاك هذه المعاني فقد أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة. وحكمة السؤال لتحقيق بمقام العبودية، وإلا علمه بحالك يغني عن سؤالك إياه.

والولي لا يريد أن يتحول من مقام أقامه الله ﷻ فيه حتى يحوله الله. فإذا أقامه في الغنى لا يريد الفقر، وإذا أقامه في الفقر لا يريد الغنى؛ وإذا أقامه في العافية لا يريد المرض، وإذا أقامه في المرض لا يريد العافية، ولكن يسأله بلسانه ما يحب افتقاراً وإظهاراً للعبودية، وقلبه يريد ما أراد مولاه، مطمئن بالرضا والتسليم، فالشرعية على اللسان والحقيقة في الجنان.



الحكمة السادسة والسبعون

الْحُزْنُ عَلَى فَقْدَانِ الطَّاعَةِ مَعَ عَدَمِ النُّهْوضِ إِلَيْهَا مِنْ عَلَامَاتِ الْاِغْتِرَارِ.

شرح الحكمة

الحزن هو التحسر على فوات شيء، فإذا حزن الإنسان على فوات الطاعات ولم ينهض للطاعة فهذا من علامات الاغترار، وهذا حزن الكاذبين.

أما حزن الصادقين، فيحزن على ما فاتته وينهض في الحال لفعل المطلوب منه مع الجِدِّ والاجتهاد.

وحزن الصديقين يحزن على ما فاتته ويجتهد في الطاعة المطلوبة في الحال ويحاول أن يستدرك ما فاتته.

أما الواصلون فلا حزن لهم ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، لأنهم في جنة المعارف فلا يحزنون، ماذا فقد من وجدك وماذا وجد من فقدك، فإذا وجد الواصل الله ﷻ لا يحزن على شيء. لأنه في الجنة، والجنة لا حزن فيها، في جنة المعارف قبل جنة الزخارف ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، فالواصل إلى جنة المعارف لا يحزن، فالواصلون ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، (يا واصل المنقطعين صلنا إليك).

الحكمة السابعة والسبعون:

مَا الْعَارِفُ مَنْ إِذَا أَشَارَ وَجَدَ الْحَقَّ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ إِشَارَتِهِ، بَلِ الْعَارِفُ مَنْ لَا إِشَارَةَ لَهُ لِفَنَائِهِ فِي وُجُودِهِ وَانْطَوَائِهِ فِي شُهُودِهِ.

شرح الحكمة

هنا يتكلم الشيخ عن مقامين من مقامات السادة الصوفية مقام الفرق ومقام الجمع، فالعارف من لا إشارة له لفنائه في وجوده وانطوائه في شهوده «مَا الْعَارِفُ مَنْ إِذَا أَشَارَ» لأن من أشار فله أراده، ومن له أراده فله بقاء، وهذا ليس مقام الكمال، فالإشارة لهل الفرق.

«مَا الْعَارِفُ مَنْ إِذَا أَشَارَ وَجَدَ الْحَقَّ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ إِشَارَتِهِ» أي ليس العارف من إذا جاءت الإشارة وجد الحق، لأن معناه أن بينه وبين الحق مسافة، والعارف لا يحتاج إلى إشارة؛ لأنه غائب عن نفسه في مولاه في مقام جمعه.

وهناك فرق بين من غاب في حسه عن رب العالمين فيحتاج للإشارة فيفيق، وبين من غاب عن حسه فيحتاج للرمز لتزداد رؤيته برب العالمين، لا ليفيق عن شهود رب العالمين، بل لزيادة الترقى في مقامات المشاهدة.

وهناك مصطلحات عن السادة الصوفية (عبارة، وإشارة، ورمز).

فالعبرة: هي اللفظ الصريح الواضح الذي يفهمه الناس. والإشارة: هي اللفظة، والرمز: لا يدركه إلا أهل الخصوص والاختصاص.

فأهل المعرفة بالله لهم رموز يرمزون بها. وقد يقول العامي عبارة واضحة يفهم منها الولي إشارة أخرى، فسيدنا مالك بن دينار^(١) كان يمشي في السوق فسمع البائع ينادي (زعر بري، زعر بري، زعر بري) ففهمها (اسع ترى بري) فاعتبرها إشارة من الله ورمز له.

ثم قال: «بِلِ الْعَارِفُ مَنْ لَا إِشَارَةَ لَهُ لِفَنَائِهِ فِي وُجُودِهِ وَأَنْطَوَائِهِ فِي شُهُودِهِ» فلا يشاهد إلا الموجود ﷻ. ولذلك قال بعض من وصل إلى هذا المقام إشارة (ما في الجبة إلا الله) فظن من سمعها أنه يقول بالحلول، وهو في الحقيقة يصف حال الفناء، أي لم يعد يرى حتى نفسه، واعتبر الجبة هي الأكوان، وكأنه يقول ما في الأكوان موجود بحق إلا الله ﷻ، فاعتقدوا إنه يقول بالاتحاد والحلول. فالجبة رمز الحجاب ورمز البقاء، فارفع الحجاب لتحقيق بمقام المشاهدة. كقول القائل:

(١) قال الذهبي: عَلِمَ الْعُلَمَاءُ الْأَبْرَارَ، مَعْدُودٌ فِي ثِقَاتِ التَّابِعِينَ، وَمِنْ أَعْيَانِ كَتَبَةِ الْمَصَاحِفِ، كَانَ مِنْ ذَلِكَ بُلْغَتُهُ. وَوُلِدَ فِي أَيَّامِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

وَسَمِعَ مِنْ: أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فَمَنْ بَعْدَهُ، وَحَدَّثَ عَنْهُ. وَعَنِ: الْأَخْطَفِ بْنِ قَيْسٍ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، وَمُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، وَالْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ، وَعِدَّةٍ.

وَحَدَّثَ عَنْهُ: سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سُودَبٍ، وَهَمَّامُ بْنُ يَحْيَى، وَأَبَانُ بْنُ يَزِيدَ الْعَطَّارُ، وَعَبْدُ السَّلَامِ بْنُ حَرْبٍ، وَالْحَارِثُ بْنُ وَجِيهِ، وَطَائِفَةٌ سِوَاهُمْ، وَلَيْسَ هُوَ مِنْ أَسَاطِينِ الرَّوَايَةِ. وَثَقَّةُ: النَّسَائِيُّ، وَغَيْرُهُ. وَاسْتَشْهَدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ، وَحَدِيثُهُ فِي دَرَجَةِ الْحَسَنِ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ: لَهُ نَحْوُ مِنْ أَرْبَعِينَ حَدِيثًا.

قَالَ جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ: سَمِعْتُ مَالِكَ بْنَ دِينَارٍ يَقُولُ: وَدِدْتُ أَنْ رَزَقَنِي فِي حَصَاةٍ أَمْتَصَّهَا، لَا أَلْتَمِسُ غَيْرَهَا حَتَّى أَمُوتَ.

وَقَالَ: مِذْ عَرَفْتُ النَّاسَ لَمْ أَفْرَحْ بِمَدْحِهِمْ، وَلَمْ أَكْرَهْ دَمَهُمْ؛ لِأَنِّ حَامِلَهُمْ مُفْرِطٌ، وَذَامَهُمْ مُفْرِطٌ، إِذَا تَعَلَّمَ الْعَالِمُ الْعِلْمَ لِلْعَمَلِ، كَسَرَهُ، وَإِذَا تَعَلَّمَ لَغَيْرِ الْعَمَلِ، زَادَهُ فَخْرًا. تُوفِّيَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ سَنَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ وَمِائَةً.

رقّ الزجاج ورقت الخمر فتشابهها وتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر^(١)

يظن من لا معرفة له بمصطلحات السادة الصوفية أن الشاعر يقول إن ربنا حل فيه، وهو لا يقصد هذا أبداً، وسنوضح المعنى المراد بضرب هذا المثال: أنت عندما تنظر في المرايا سترى صورتك في المرايا، فهل أنت حللت داخل المرايا؟ والجواب: لا. كذلك تجلي الله في قلب المؤمن، فيتجلى فيملأه فلا يرى في قلبه إلا الله ﷻ دون أن يحل الله في المخلوق.

فالشاعر يصف حاله في حال تجلي الله ﷻ على قلبه، فأنمحق حساً ووجوداً، فلم يبق في الوجود إلا الموجود بحق، ففنا تماماً، فيتكلم بلسان الحق، كنت سمعه وبصره ويده ورجله، أي لا يتكلم إلا بي، ولا يسعى إلا بي، ولا يغضب إلا في، ولا يتعلق إلا بي، وهذا هو المعنى. فإذا دقت العبارة لا يفهمها إلا أهل الرموز، فكلامهم داء ودواء، داء للمعترضين، ودواء للواصلين، فهو سر:

فنيت به عني فبان به غيبي فهذا ظهور الحق عند الفناء قصداً
أحاط بنا التعظيم من كل جانب وعادت صفات الحق مما يلي العباد

وهذا تجلي الصفات، لا حلول الذات، فهو يتكلم في تجلي الصفات، وليس في حلول الذات، فيجب أن تحسن الظن بهم.

وكما قال أحد العارفين:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا^(٢)

(١) هذه الايات من قصيدة الشيخ شهاب الدين السهروردي والملقب بالسهروردي المقتول.

(٢) هذا البيت للشيخ حسين بن منصور الحلاج.

فهو يتكلم في مقام الفناء، فلا يرى إلا الله، فمعنى الكلام: الله من أهوى ومن أهوى الله؛ لأنه لا للوجود للأنا.

وكقول أبي يزيد البسطامي^(١) (سبحاني ما أعظم شأنه) حيث فنى ولم يجد إلا الله ﷻ، فسبح المسبح جل جلاله نفسه على لسان وليه حيث غيبه في وجوده، وكلامه هنا في مقام الفناء فتكلم بلسان الربوبية كما في الحديث القدسي على لسان النبي ﷺ «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً». ولذلك لما قالوا لأبي يزيد البسطامي^(٢) وهم لا يعرفوه رأيت أبا يزيد؟ قال: من أبو يزيد؟ بحثت عنه منذ أربعين عاماً فلم أجده.

ومرة دخل عليه أحد الطلاب وهو في بيته الذي يسكنه منذ أربعين سنة، فقال له يا شيخني منذ متى هذه الشجرة عندكم في البيت؟ فقال أبو يزيد سبحان الله أفني بيتي شجرة!!!

وهذا الحال يشبه حال النبي ﷺ عندما يتحدث بالاحاديث القدسية، فهو يتكلم بلسان الحق ﷻ، فرمز الكلام حال الفناء يساوي الحديث القدسي، ورمز الكلام حال الفرق للدلالة على الله ﷻ هو الحديث النبوي، والأولياء لهم نصيب من المقامين.

(١). أَبُو يَزِيدَ الْبِسْطَامِيُّ طَيْفُورُ بْنُ عَيْسَى، سُلْطَانُ الْعَارِفِينَ، أَبُو يَزِيدَ طَيْفُورُ بْنُ عَيْسَى بْنِ شَرَوْسَانَ الْبِسْطَامِيِّ، قَالَ السُّلَمِيُّ فِي (تَارِيخِ الصُّوفِيَّةِ): تُوْفِيَ أَبُو يَزِيدَ عَنْ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً، وَلَهُ كَلَامٌ حَسَنٌ فِي الْمَعَامَلَاتِ. قِيلَ لِأَبِي يَزِيدَ: بَأَي شَيْءٍ وَصَلْتَ إِلَى الْمَعْرِفَةِ، فَقَالَ: بِبَطْنٍ جَائِعٍ وَبَدَنٍ عَارٍ، وَكَانَ يَقُولُ: دَعَوْتُ نَفْسِي إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ فَلَمْ تَجْبَنِي فَمَنْعَتْهَا الْمَاءَ سَنَةً، وَقَالَ: إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْكَرَامَاتِ حَتَّى يَرْتَفِعَ فِي الْهَوَاءِ فَلَا تَغْتَرَّوْا بِهِ حَتَّى تَنْظُرُوا كَيْفَ تَجِدُونَهُ عِنْدَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَحِفْظِ الْحُدُودِ وَالْوُقُوفِ عِنْدَ الشَّرِيعَةِ، قَالَ ابْنُ خُلِكَانَ وَلَهُ مَقَامَاتٌ وَمَجَاهِدَاتٌ مَشْهُورَةٌ وَكَرَامَاتٌ ظَاهِرَةٌ، تُوْفِيَ سَنَةً إِحْدَى وَسِتِّينَ وَمِائَتَيْنِ.

قال الله ﷻ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكَ رَبٌّ﴾ [الأنفال: ١٧]،
فأهل البقاء رأوه رمى وأهل الفناء شاهدوا الحق.

وقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، أهل
البقاء والفرق شاهدوا أنهم بايعوا النبي ﷺ، وأهل الجمع والفناء يشاهدون
أنهم بايعوا الحق ﷻ.

أهل الفرق والبقاء يرون أنفسهم يقبلون الحجر الأسود، وأهل الفناء
والجمع يرون أنفسهم يقبلون يمين الله في الأرض.

فبين الشيخ في هذا الحكمة مقام البقاء، ومقام الفناء، والمقام الأكمل
من كان باقٍ مع الخلق، فإن في الحق في آن واحد، وهذا هو شيخ التربية الذي
يقتدى به، وهذا يسمى الفرق بعد الجمع، كما قال سيدنا أحمد الدردير في
منظمة أسماء الله الحسنى

وهب لي يا رباه كشفاً مقدساً
لأدري به سرَّ البقاء مع الفناء.

الحكمة الثامنة والسبعون

الرَّجَاءُ مَا قَارَنَهُ عَمَلٌ، وَالْأَمْنُ فَهُوَ أَمْنِيَّةٌ

شرح الحكمة

إذا رجوت أن تكون من هؤلاء القوم، فاعمل عمل القوم، تصل إلى
ما وصلوا إليه بفضل الله ﷻ لا بفضل عملك. أما إن رجوت أن تكون من
القوم دون أن تعمل بعمل القوم ومكثت في حالك دون اجتهاد فهذه تسمى

أمنية. والنبى ﷺ يقول: «ليس الإيمان بالتمنى، ولكن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل»^(١) والرجاء ما قارنه عمل وإلا فهو أمنية.

قال الشيخ معروف الكرخي^(٢) رحمه الله: (طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق)، وفي الحديث عنه ﷺ: «يا أيها الناس إنما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وإنما يخشى الله من عباده العلماء»^(٣) فعلى الإنسان أن يجتهد حتى يصل إلى ما وصل إليه القوم ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠].

قال الجنيد رحمه الله إشارة إلى علم التصوف الموصل إلى الله: (ما أخذنا التصوف عن القيل والقال والمراء والجدال، إنما أخذناه عن الجوع والسهر وملازمة الأعمال) يعني بالجهاد والكفاح ومخالفة النفس.

(١) عبد الله بن أحمد بن حنبل في كتاب السنة (٦٣٩).

(٢) علم الزهاد وبركة عصره أبو محفوظ معروف ابن فيروز الكرخي كان أبواه نصرانيان فأسلماه إلى مؤدب فعلمه أن يقول ثالث ثلاثة فيقول سيدنا معروف بل هو الواحد الأحد فضربه فهرب. قال صاحب الرسالة القشيرية ان الشيخ معروف أسلم على يدي الامام علي الرضا ورجع إلى منزله فدق الباب فقبل من الباب؟ قال معروف فقالوا على أي دين جئت قال على الدين الحنيف فأسلم أبواه. وهو من موالي علي ابن موسى الرضا عليه السلام، ذكر الشيخ معروف عند الامام أحمد بن حنبل فقبل عنه قصير العلم فقال الامام أحمد للقائل أمسك وهل يراد من العلم الا ما وصل إليه معروف. قال السري السقطي رأيت معروف الكرخي في النوم كأنه تحت العرش ويقول الله عز وجل للملائكة من هذا؟ فيقولون أنت أعلم يا رب فيقول هذا معروف الكرخي سكر في حبي ولا يفيق الا بلقائي. توفي (٢٠١هـ) ودفن في بغداد وله مقام يزار.

(٣) الطبراني في المعجم الكبير (٩٢٩)

والله ﷻ يقول: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وقال أبو سليمان الداراني^(١) ﷺ: (إذا اعتادت النفوس على ترك الآثام جالت في الملكوت ورجعت إلى صاحبها بطرائف العلوم من غير أن يؤدي إليها عالم علمًا) لأن طبيعة الروح دراجة، وكان الحسن ﷺ يقول: يا عباد الله اتقوا هذه المعاني فإن أودية النوكي الأماني يحلون فيها، فوالله ما أتى الله عبدًا بأمنية خيراً في الدنيا والآخرة) والنوكي -بفتح النون- جمع أنوك، وهو الأحمق. وهذه الحكمة تتضح في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فالعبد المستعين صاحب رجاء، أما من يستعين وهو تارك للعبادة فهذا متمدن. والعابد الذي لا يستعين فهذا جاهل مغتر بعمله.

الحكمة التاسعة والسبعون

مَطْلَبُ الْعَارِفِينَ مِنَ اللَّهِ الصِّدْقُ فِي الْعُبُودِيَّةِ، وَالْقِيَامُ بِحُقُوقِ الرُّبُوبِيَّةِ

شرح الحكمة

العارف بالله لا حظ له، فلا يطلب سوى الله ﷻ. فيطلب أن يتحقق بعبودية الله ﷻ وأن يقوم بحق ربوبيته. والعبودية شأنها عظيم؛ لأن النبي ﷺ خير أن يكون عبداً رسولاً، وأن يكون ملكاً رسولاً، فاختار أن يكون عبداً رسولاً، لذلك ارتقى بعبوديته إلى مقام قاب قوسين أو أدنى.

(١) أبو سليمان الداراني: أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أكابر الصوفية في القرن الثالث الهجري، وصفه الإمام الذهبي بالإمام الكبير وزاهد المرض)، ولد ١٤٠هـ، ت ٢١٥هـ.

فإذا تعلق قلب الإنسان بسوى الله صار عبدا لما تعلق به، وعبدا، لما أشركهم مع الله بنزواته وأهوائه ومراداته وتعلقاته فصار عبداً لأكثر من إله، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣]، فجعل الهوى إلهاً من دونه ﷻ. فإذا سيطر الهوى على الإنسان وسيطرت عليه شهواته فقد أشرك مع الله ولو قال: (أشهد أن لا إله إلا الله وأن سيدنا محمداً رسول الله) وقام في الظاهر بالشرعية.

ومراد العارف بالله التحقق بصدق العبودية، حيث لا شيء في قلبه إلا الله، ولا مراد في قلبه إلا الله ﷻ ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]، أي سليم من التعلقات التي تمنعه من الوصول إلى الله ﷻ. فإذا تحقق فيه الصديق في العبودية قام بحقوق الربوبية. وإذا سجد لله فيكون ساجداً لله بحق، وإذا سبح الله يكون مسبحاً لله بحق، إذا تكلم تكلم لله وقام بالله، والله وفي الله وعلى الله ويصير أحواله كلها متعلقة بالله. فتكون عبادته خالصة لله ﷻ لا لنفسه.

قال أبو سليمان الداراني ﷺ: (شتان بين من همه الحور والقصور، وبين من همه الحضور ورفع الستور) أي مقام المشاهدة، وقيل لبعضهم: ما مراد العارف؟ قال: (مراد العارف معروفة) وهو الله ﷻ. أي لا يريد إلا ما أراد سيده، ولا يتمنى إلا ما يقضيه عليه مولاه. وقيل لبعضهم: ما تشتهي؟ قال: (ما يقضي الله) ولذا أنشدوا وقالوا:

لو قيل ما تمنى والعبد يعطى مناه لقلت منية قلبي في بقاه

فإذا عرف الله ﷻ، وصدق في مقام العبودية، وتحقق في حقوق الربوبية، سيتجلى عليه بصفات الجمال فيسبطه فينبسط، وقد يتجلى عليه بصفات الجلال فيقبضه فينقبض.

ولذا جاءت الحكمة التي تليها متعلقة بالتي قبلها.

الحكمة الثمانون

بَسْطَكَ كَيْ لَا يُبْقِكَ مَعَ الْقَبْضِ، وَقَبْضَكَ كَيْ لَا يَتْرُكَكَ مَعَ الْبَسْطِ
وَأَخْرَجَكَ عَنْهُمَا كَيْ لَا تَكُونَ لَشَيْءٍ دُونَهُ

شرح الحكمة

فتكون لله لا للقبض ولا للبسط.

والقبض: هو الابتلاءات الظاهرة والباطنة في النفس وفي الغير. فقد يتجلى الله ﷻ على السالكين إليه بالقبض حتى لا يتركهم مع البسط.

والبسط: هو الانشراح ظاهرا وباطنا، فإذا قبضك حتى لا يتركك مع البسط، فتأنس لسواه، فيريد أن يأخذك حتى من نفسك؛ لأن الله يغار أن تركز لسواه ولو لنفسك، فيريدك خالصا له سبحانه، فإن تركك في البسط ركنت إلى البسط، فركنت لشهواتك وركنت لنفسك، وربما أسأت الأدب مع الخلق والخالق.

لذلك كان كثير من العلماء يخافون من البسط، لأن مراعاة الأدب في القبض أسهل من مراعاة الأدب في البسط، لأن أدب القبض السكون تحت

مجاري القدر وهذا أسهل. والعارف الذي أشرقت شمس المعارف في قلبه فلا ليل قبض بعدها ولا فرح بسط، ولكن يرى الله ﷻ فلا يغيب جماله جلالة، ولا يغيب جلالة جماله، فهو يراه جليلاً جميلاً في آنٍ واحد، وحال أهل التمكين الأدب مع كل حال.

«بَسَطَكَ كَيْ لَا يُبْقِيَكَ مَعَ الْقَبْضِ، وَقَبْضَكَ كَيْ لَا يَتْرُكَكَ مَعَ الْبَسْطِ» فتسبىء الأدب فتُحرم، فيقبضك ليحبسك في زنزاة نفسك، لترى قهر مولاك، فتذل له. فإذا ذلت له فرّج عنك بالبسط، فيشرق النهار. فإذا لم تسبىء الأدب مع إشراق النهار قلّب عليك القبض والبسط، فتمكنت في الأحوال، فلا يضرّك قبض ولا بسط بعد ذلك، حيث إنك تراه قابضاً باسطاً في آنٍ واحد، وهذا مقام التمكين.

«وَأَخْرَجَكَ عَنْهُمَا» عن الإثنين بالتمكين «كَيْ لَا تَكُونَ لَشَيْءٍ دُونَهُ» فإذا تجلّى ربنا ﷻ على السالك بالقبض فعليه أن يكون في وقار، ويستمر في طاعته ويصبر ولا يشتكي ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحْزَنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]، فأدب القبض: الطمأنينة، والوقار، والسكون تحت مجاري الأقدار، والرجوع إلى الواحد القهار، بكثرة الذكر، والطاعة، والعبادة، والانعزال عن الناس، ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١]، يولج ليل القبض في نهار البسط، هذا بالنسبة لنهار القلب وليله، فكأن الآيات تخاطب الظاهر والباطن في آنٍ واحد بآية واحدة ﷻ.

إذن: دواء المقبوض شهود التوحيد ﷻ والغيب عن السوى، وآداب البسط كف الجوارح عن الطغيان.

والخلاصة: لا تتمنى إلا ما أقامك فيه مولاك، فإن كنت في انبساط لا تتمنى القبض، وإن كنت في القبض لا تتمنى البسط، فهذا مقام المعرفة والرضا بما أقامك الله فيه، وهو عين العبادة، فإذا رضيت صار القبض بسطاً، وإذا سخطت صار البسط قبضاً.

الحكمة الحادية والثمانون

الْعَارِفُونَ إِذَا بَسَطُوا أَخَوْفَ مِنْهُمْ إِذَا قَبَضُوا، وَلَا يَقِفُ عَلَى حُدُودِ
الْأَدَبِ فِي الْبَسْطِ إِلَّا قَلِيلٌ

شرح الحكمة

ذلك لأن القبض مقامه الاستقرار والسكون، فخوف الخطأ فيه أقل، إنما البسط مقامه الانتشار والحركة والخفة والمرح، فخوف الخطأ فيه أشد وأكثر وقوعاً.

«الْعَارِفُونَ إِذَا بَسَطُوا أَخَوْفَ مِنْهُمْ إِذَا قَبَضُوا، وَلَا يَقِفُ عَلَى حُدُودِ
الْأَدَبِ فِي الْبَسْطِ إِلَّا قَلِيلٌ» ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، وهم أهل الأدب
العالي، قال رجل من الأولياء كان في مقام البسط فأساء الأدب فحرم لأبي
محمد الحريري رحمته الله، : (كنت على بساط الأنس وفتح عليّ طريق البسط
فزلت زلة فحجبت عن مقامي، فكيف أستدير إليه دلني على الوصول إلى
ما كنت عليه، فبكى أبو محمد وقال: يا أخي الكل في قهر هذه الخطة)
يعني الكل في قهر مولاه، يعني كلنا وقعنا في هذه المسالة لكني أنشدك أبياتاً
لبعضهم:

قف بالديار فهذه آثارهم تبكي الأحبة حسرة وتشوقا
 كم قد وقفت بربعها مستخبراً عن أهلها أو سائلاً أو مشفقاً
 فأجاني داعي الهوى في رسمها فارقت من تهوى فعز الملتقا

ولماذا مراعاة الأدب في البسط صعب؟ لأن للنفس فيه حظاً، ولذلك قال في الحكمة التي تليها:

الحكمة الثانية والثمانون

الْبَسْطُ تَأْخُذُ النَّفْسُ مِنْهُ حَظَّهَا بِوُجُودِ الْفَرَحِ، وَالْقَبْضُ لَا حَظَّ لِلنَّفْسِ فِيهِ

شرح الحكمة

فالخطر العظيم على السالك إذا تمكن من نفسه بالمجاهدات فجاءه البسط فتحيا النفس مرة أخرى، فتسيء الأدب، فتمتطيها النفس من بعد ما تمكن منها وجعلها مطية له.

«الْبَسْطُ تَأْخُذُ النَّفْسُ مِنْهُ حَظَّهَا بِوُجُودِ الْفَرَحِ، وَالْقَبْضُ لَا حَظَّ لِلنَّفْسِ فِيهِ» ولذلك قال ابن الفارض ^(١) رحمه الله:

الموت فيه حياتي وفي حياتي قتلي

(١) سيدي عمر بن الفارض (٥٧٦ - ٦٣٢) العارف بالله تعالى هو أبو حفص شرف الدين عمر بن علي بن مرشد الحموي، أحد أشهر الشعراء المتصوفين، وكانت أشعاره غالبها في العشق الإلهي حتى أنه لقب بسلطان العاشقين، وملاذ أهل التمكين، ومربي الفقراء والمريدين، وموصلهم إلى مقامات الإنزال والتمكين. كان رضي الله عنه ونفع به معتدلاً القامة، وجهه جميل حسن، مُشرب بحمرة ظاهرة، وإذا استمتع وتواجدَ وغلبَ عليه الحال يزداد وجهه جمالاً

أي في موت نفسي حياتي، وحياة العارف مع الله به عَلَيْكَ، وفي حياتي قتلي.

وقال التستري رضي الله عنه:

إن ترد وصلنا فموتك شرط لا ينال الوصال من فيه فضلة

وعلى هذا (قال أبو علي الدقاق رضي الله عنه: القبض حق الحق منك، والبسط حَقُّك منه) يعني حظك (ولأن تكون بحق ربك أولى من أن تكون بحظ نفسك) ولأجل ذلك كان بعض العارفين إذا خيّر بين أحد المقامين يختار القبض ولا يختار البسط، والأفضل ألا تختار، وفر من المختار إلى من يخلق ما يشاء ويختار، حيث أنه أقامك فيما يختار.

قال الإمام أبو الحسن الشاذلي رحمته الله: إذا خيّرْتَ فاختَرِ ألا تختار، وفر من المختار ففارك إلى من يخلق ما يشاء ويختار رحمته الله ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨].

ونورًا، وينحدر العرق من سائر جسده، حتى يسيل تحت قدميه على الأرض. وكان عليه نورٌ حياءٍ وبهجة، وجلالة وهيبة. وكان إذا مشى في المدينة تزدحمُ الناس عليه، ويلتمسون منه البركة والدعاء، ويقصدون تقبيل يده، فلا يمكن أحدًا من ذلك، بل يضافحه، وكانت ثيابه حسنةً، ورائحته طيبة.

قضى ابن الفارض نحو ١٥ سنة من عمره في عزلة عن الناس بعد أن سافر لمكة لتأدية فريضة الحج، ثم قرر الاعتزال في وادٍ بعيد عن الناس، وكانت تلك العزلة هي المنبع الذي فاضت منه معظم أشعاره، حيث أتاحت له تأمل أحوال نفسه والغوص في الخيال البعيد وأسرار الملكوت. وبعد أن أنهى عزلته عاد إلى مصر مجددا محملا بالمعاني ودرر البيان، توفي سنة ٦٣٢ هـ الموافق ١٢٣٥ م في مصر ودفن بجوار جبل المقطم في مسجده المشهور.

أما الواصلون المتمكنون فلا يؤثر فيهم جلال ولا جمال، ولا يحركهم قبض ولا بسط ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٨]، المتمكنون هم الجبال، جبال في التمكن، تمر عليهم أحوال الصفات، وتجليات الذات، فيتحركون وهم ثابتون ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]، صنع الله في قلب العارف، حيث إنه جعله متمكن مع تغير الواردات والأحوال؛ لأنهم بالله ولله ومن الله وإلى الله ^{وَعَلَى}، بالله تصرفهم، ولله عبادتهم أو عبوديتهم، ومن الله وردهم، وإلى الله صدورهم، لأنهم لله لا لشيء سواه.

الحكمة الثالثة والثمانون

رُبَّمَا أَعْطَاكَ فَمَنَعَكَ، وَرُبَّمَا مَنَعَكَ فَأَعْطَاكَ

شرح الحكمة

ربما أعطاك في الحس مالا ومنعك الافتقار إليه، أغناك عن الناس وحرملك الافتقار إليه «رُبَّمَا أَعْطَاكَ فَمَنَعَكَ» ربما أعطاك إقبال الناس ومنعك إقبال الله عليك، وربما أعطاك العافية ومنعك الشكر عليها، وربما أعطاك العلم ومنعك الوصول به إليه فحجبت به عنه. فلا تنبسط لكل عطاء، كما لا تنقبض من كل منع، فربما منعك المال حسا وأغناك به باطنا، ومنعك العافية في الحس وأعطاك الشكر في الباطن، ومنعك إقبال الناس عليك وأعطاك إقبال الحق عليك.

«رُبَّمَا أَعْطَاكَ» يعني بسطا بالحس «فَمَنْعَكَ» قبضاً في المعنى «وَرُبَّمَا مَنْعَكَ» أي قبضا في الحس «فَأَعْطَاكَ» في المعنى بسطا في القلب.

يقول الشيخ أحمد ابن عجيبة رحمته الله (الغالب على النفس الأمانة واللوامة أن تنبسط بالعطاء وتنقبض بالمنع) إنما النفس المطمئنة، ترى المنع عين العطاء وترى العطاء عين المنع في آن واحد، فهي تعبد الله على حذر في كل حال مع كمال الرضا بما أقامها الله فيه، فهي في كل حال مقبوضة في انبساط، ومنبسطة في انقباض.

ثم قال (وتنقبض بالمنع؛ لأن في العطاء متعتها) لأن النفس تنبسط بالعطاء وهذه طبيعتها، فلذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، فانبسطت له نفوس العباد صلى الله عليه وسلم وأمرنا بالصدقات والعطاء.

ثم قال: (في العطاء متعتها وشهوتها فلا جرم أنها تنبسط بذلك، وفي المنع قطع مادتها وترك حظوظها، ولا شك أنها تنقبض بذلك وذلك لجهلها) والله عز وجل يقول ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فإذا منعك شيء فانقبضت فتذكر هذه الآية، فربما يكون السم في الدسم، وربما يكون الضرر فيما تراه منفعة.

وعلاج الإنسان الذي ينقبض لأمر حسية خارجية أو لشيء لا يعلم سببه أن يذكر فضل الله عليه، ومسارعة له في الخيرات منذ خلقه. ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]، فإذا قبضك ومنعك من بعض الأشياء التي أنت متعلق بها فاعلم أنه إنما قبضها عنك لمصلحتك، فتنبسط ولا تنقبض.

ثم قال (فافهم أيها الفقير عن مولاك، ولا تتهمه فيما به أولاك، فربما أعطاك ما تشتهي النفوس فمنعك بذلك حضرة القدوس. وربما منعك ما تشتهي نفسك فيتم بذلك حضورك وأنسك. وربما أعطاك متعة الدنيا وزهرتها فمنعك جمال الحضرة وبهجتها. وربما منعك زينة الدنيا وبهجتها فأعطاك شهود الحضرة ونظرتها) ولذلك قال الأولياء نحن في نعمة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف، وهي نعمة شهود حضرة الله ﷻ، ونعمة الفهم عن الله ﷻ، ونعمة الحضور مع الله ﷻ، ونعمة التزام الشريعة في الظاهر والتسليم للحكمة في الباطن فكلها نعم كبيرة تُشترى بمال الدنيا.

ثم قال: (ربما أعطاك قوت الأشباح فمنعك قوت الأرواح، وربما منعك قوت الأشباح فأعطاك قوت الأرواح، ربما أعطاك إقبال الخلق فمنعك من إقبال الحق. وربما منعك من إقبال الخلق وأعطاك إقبال الحق. ربما أعطاك العلوم وفتح لك مخازن الفهوم فحجبك بذلك عن شهود المعلوم ومعرفة الحي القيوم. وربما منعك من كثرة العلوم، وأعطاك الأنس بالحي القيوم، فأحطت بكل مجهول ومعلوم. وربما أعطاك عز الدنيا ومنعك عز الآخرة، وربما أعطاك ذل الدنيا وأعطاك عز الآخرة. وربما أعطاك التعزز بالخلق ومنعك من التعزز بالحق. وربما منعك التعزز بالخلق وأعطاك التعزز بالحق. وربما أعطاك التصرف في الملك، ومنعك شهود أنوار الملكوت، وربما نزع منك الملك وأضاء إليك أنوار الملكوت).

الحكمة الرابعة والثمانون

مَتَى فَتَحَ لَكَ بَابَ الْفَهْمِ فِي الْمَنْعِ، عَادَ الْمَنْعُ عَيْنَ الْعَطَاءِ

شرح الحكمة

يقول سيدنا أبو الحسن الشاذلي رحمه الله في الحزب الكبير (اللهم إنا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا من حيث نعلم بما نعلم، فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا نعلم بما لا نعلم) وهذا كمال الافتقار إلى الله، والخروج عن اختيار حظ النفس إلى كمال الرضا بالقسمة.

الحكمة الخامسة والثمانون

الْأَكْوَانُ ظَاهِرُهَا غِرَّةٌ وَبَاطِنُهَا عِبْرَةٌ، فَالْنَفْسُ تَنْظُرُ إِلَى ظَاهِرِ غِرَّتِهَا، وَالْقَلْبُ يَنْظُرُ إِلَى بَاطِنِ عِبْرَتِهَا

شرح الحكمة

الأولياء لم ينظروا إلى ظاهر الأكوان وإلى حسها، بل نفذوا بعين بصائرهم إلى باطنها فلم يغرهم الحس، ونفذوا إلى المعنى المراد.

والنبي ﷺ أراد أن يبين مثل هذا المعنى للصحابة، عَنْ سَهْلٍ، قَالَ مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ، قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ، فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ قُرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» قَالُوا: حَرِيٌّ

إِنْ خَظَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْتَمَعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا»^(١) لأن النبي ﷺ أراد أن يلفتهم إلى المعاني ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنَكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، لا أكثرهم مالاً وحسباً، ولكن هو التقى، والتقوى محلها القلب، والقلب هو حقيقة الإنسان.

فالعارف بالله لا تغره الأكوان الظاهرة، ولكن ينفذ من ظواهر الأكوان إلى مراد الله منها فلا يغتر بها.

يقول الشيخ: «الْأَكْوَانُ ظَاهِرُهَا غِرَّةٌ وَبَاطِنُهَا عِبْرَةٌ» الأكوان ما تراه من الملك والملكوت. فالملك: هو ما تراه من عالم الحس، كالسما، والنجوم، والدواب، والإنسان، وكل ما تدركه بحواسك.

والمملكوت: هو ما لا تدركه بالحواس، كالملائكة، والجن، والجنة، والنار، والملا الأعلى، وغير ذلك من الأكوان التي خلقها الله ﷻ.

فالملك ظاهره غرة ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، وباطنه عبرة ﴿يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤] ولذا قص الله ﷻ علينا قصص الأمم السابقة، وهم من الظاهر المحسوس وجعل فيها العبرة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [النازعات: ٢٦]

فـ «الأكوان ظاهرها غرة» ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ [آل عمران: ١٤]

(١) البخاري (٥٠٩١)، ابن ماجه (٤١٢٠).

في ظاهرها غرة، تغرك وتحرص على الحصول عليها، فإذا حصلت عليها لا تجدها شيئاً، بل تجدها هباءً.

«الأكوان في ظاهرها غرة» لأنها فانية ﴿يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وكل ما سوى الله فان، وأصله عدم، «وباطنها عبدة» لأن من خلالها تصل للمكون، فإذا رأيت الكون علمت أن له مكوّنًا، فتصل من عبدة الأكوان إلى المكوّن، فلا تغتر بالظاهر.

يقول الشيخ ابن عجيبة رحمه الله: (وإنما كانت الأكوان ظاهرها غرة لوجهين: أحدهما ما جعل الله سبحانه على ظاهر حسها من البهجة، وحسن المنظر، وما تشتهيهِ النفوس من أنواع المآكل والمشارب والملابس والمراكب وشهوة المناكح والمساكن والبساتين والرياضات وكثرة الأموال والبنين وكثرة الأصحاب والعشائر والأجناد والعساكر وغير ذلك من بهجتها وزخرفها، فانكب جُل الناس على الاشتغال بجمعها وتحصيلها والجري عليها، الليل والنهار والشهور والأعوام، حتى هجم عليهم هادم اللذات فأعقبهم الندم والحسرات) الذي هو الموت ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [آل عمران: ١٤]، ثم بعد ذلك قال: ﴿قُلْ أُوْنِتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِّنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥]، بصير بالعباد المستحقين لهذه الجنات ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ من هم؟ ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾ [آل عمران: ١٦]، اعتمدوا على الله ﷻ، فسألوا الله ولم يسألوا الأكوان، بل سألوا المكوّن ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ

رَبِّنَا إِنَّمَا آمَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ [آل عمران: ١٦]، ما هي صفاتهم؟ ﴿الصَّكِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِتَّةِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ١٧]، أما غيرهم فانشغلوا بالزينة من الحياة الدنيا ﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤]، سبحانه.

وقال لنبیه ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ ﴿١٣١﴾ طه: ١٣١﴾، ورزقه ربه النبوة والرسالة واصطفاه على العالمين ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا ﴿٧﴾﴾ [الكهف: ٧] لماذا ﴿لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧] فالزينة لغرض ابتلاء الناس ﴿لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧] وهذا هو الوجه الأول.

قال ابن عجيبة رحمه الله: (الوجه الثاني إنما جعل الله سبحانه الأكوان ظاهرها غرة تغطية لسره وإظهاراً لحكمته) لأنه ﷻ خلق الخلق، وخلق للجنة أهلها وللنار أهلها، فمن حكمته أن يكون العبد في الدنيا مغروراً بها ليستحق العقاب **لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** [السجدة: ١٣].

فنقول الأكوان ظاهرها ظلمة وباطنها نور؛ لأن حقيقتها عدم والعدم ظلمة ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، ولم تنور إلا لظهور الحق ﷻ فيها، فالله هو الظاهر، ولولا ظهور الحق فيها ما أثارها ﷻ ولا أظهر فيها شيء، ثم أبطن بعد ذلك حكمته فيها؛ لأنه هو الباطن

ﷺ فهو أظهر من كل شيء وهو باطن ليس دونه شيء ﷺ، فمن وقف مع ظلمة الأكوان كان محجوباً، ومن نفذ إلى شهود النور كان عارفاً محبوباً.

النفس بطبيعتها مجبولة على الشهوات وعلى حب الدنيا الظاهرة، إنما القلب محل المعارف ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، عين القلب هي البصيرة تنظر إلى باطن عبرتها، لذلك قال «فَالنَّفْسُ تَنْظُرُ إِلَى ظَاهِرِ غَرَّتِهَا» أي غرة الأكوان تريدها وتتمناها وتشتهيها «وَالْقَلْبُ يَنْظُرُ إِلَى بَاطِنِ عِبْرَتِهَا» القلب ينظر للباطن الشيء، فجعل البصيرة تنظر إلى عبرتها، وجعل عين الجسد ينظر إلى ظاهر غرتها.

القلب ينظر إلى باطن عبرتها لما فيه من نور العرفان الذي يفرق بين الحق والباطل، ويميز بين النافع والضار، وهو ثمرة التقوى والتصفية. والنبى ﷺ يقول: «تُعَرِّضُ الْفِتْنُ كَالْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءٌ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْآخِرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجْحِيًّا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»^(١).

أهل القلوب لم يقفوا مع ظواهر الأشياء، بل نفذوا إلى بواطنها، واهتموا بآجلها ولم يغتروا بعاجلها، فاشتغلوا بالجد والاجتهاد، وأخذوا في الأهبة والاستعداد، وهم العباد والزهاد.

وأهل الأرواح والأسرار لم يقفوا مع الأكوان، لا ظاهرها العاجل، ولا باطنها الآجل، فأهل القلوب نفذوا من الظاهر إلى الباطن فصاروا في الخدمة.

(١) مسلم (١٤٤)، الترمذي (٣٣٣٤)، ابن ماجه (٤٢٤٤).

وأهل الأرواح استراحوا فلم ينظروا للظاهر ولا للباطن، ولكن نظروا لرب العالمين مباشرةً خالق الأكوان، فلم يغتروا بظاهر شيء ولا بباطن شيء، ولم يهتموا إلا بالله، فهو لاء خصوص الخصوص، لم يقفوا مع الأكوان لا ظاهرها العاجل ولا باطنها الآجل، بل نفذوا إلى نور الملكوت، فاشتغلوا بتطهير القلوب، والتأهب لحضرة علام الغيوب، حتى صلحوا للحضرة، وتنزهوا في رياض الفكرة والنظرة ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (١١) ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ (١٢) ﴿الواقعة: ١١-١٢﴾، ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ﴾ [القمر: ٥٥].

الحكمة السادسة والثمانون

إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ لَكَ عِزٌّ لَا يَفْنَى، فَلَا تَسْتَعِزَّ بِعِزِّي

شرح الحكمة

فإن أردت أن تكون غنيا بلا فقر فاستغن بالله، وإن أردت أن تكون عزيزا بلا ذل فاستعز بالله، وإن أردت أن يكون لك عز لا يفنى، فلا تستعز بما يفنى.

والعز الذي لا يفنى هو عز الله ﷻ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، والعز بالله يكون بالاستغناء بطاعة الله عن معصية الله، وبالقرب من الله عن القرب مما سواه، وبالرضا بقضاء الله ﷻ فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فعليك أن ترضى بقلبك وتسلم للحكمة.

يقول الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه: (والله ما رأيت العز إلا في الذل) أي الذل لله ﷻ. لاستشعارك بالفقر إليه؛ لأنك لا تستغني عنه طرفة عين؛ وأنت مفتقر إلى الله في كل لحظة. فإذا افتقرت إلى الله ﷻ وعلمت أنه قوي قادر تستغني به عما سواه.

قال الله ﷻ ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فعزة الرسول أتت من الله، فهو مصدر العزة الحقيقية، وللمؤمنين لأنهم آمنوا بالرسول فوصلهم الله فاستعزوا بالله.

قال الله ﷻ ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]، قال سيدنا علي كرم الله وجهه (من أراد الغنى بغير مال، والكثرة بغير عشيرة، فلينتقل من ذل المعصية إلى عز الطاعة)

فالمعصية ذل ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا أَسْزَلَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥]، أي بسبب ما ارتكبوا.

وقال أبو العباس المرسي رحمه الله: (والله ما رأيت العز إلا في رفع الهمة عن الخلق).

الحكمة السابعة والثمانون

الطَّيُّ الْحَقِيقِيُّ أَنَّ تَطْوِيَّ مَسَافَةِ الدُّنْيَا عَنْكَ حَتَّى تَرَى الْآخِرَةَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْكَ

شرح الحكمة

من السالكين من يعبد الله ﷻ طمعا في ظهور الكرامات على يديه، كالسير على الماء، والطيران في الهواء، وأن تطوى له الأرض، ويطوى له الزمان، وهؤلاء يعبدون الله لغاية فاحذر من هذا الأمر.

ولا تعترض على هذه الكرامات؛ لأنها حصلت للصحابة الكرام وراثه نبوية، حيث إن النبي ﷺ طوى الله ﷻ له الزمان والمكان في رحلة الاسراء والمعراج.

وسيدنا عثمان رضي الله عنه كان يقرأ القرآن في ركعة واحدة في الليل. وسيدنا عمر رضي الله عنه طوى الله المكان فشاهد سارية بالشام وهو يخطب على المنبر في المدينة فنأدى يا سارية الجبل فسمع سارية الصوت واحتمى بالجبل.

والطي الحقيقي هو طي النفوس بالغبية عما سوى الله، فيطوي نفسك وشهواتها وطلباتها فلا تجد إلا الله ﷻ، ويطوي لك الله ﷻ الدنيا في قلبك فلا تعدل عندك جناح بعوضة.

قال في التنوير^(١): (لا يدل على فهم العبد كثرة علمه ولا مداومته على ورده، وإنما يدل على نوره وفهمه غناه بربه، وانحياشه إليه بقلبه، وتحرره من رق الطمع، وتحليه بحلية الورع، وبذلك تحسن الأعمال، وتزكو الأحوال)

الحكمة الثامنة والثمانون

الْعَطَاءُ مِنَ الْخَلْقِ حَرْمَانٌ، وَالْمَنْعُ مِنَ اللَّهِ إِحْسَانٌ

شرح الحكمة

العطاء من الخلق حرمان؛ لأنه يؤدي إلى التعلق بالخلق، فتحجب عن الخالق وهذا حرمان.

(١) التنوير في اسقاط التدبير.

والمنع من الله إحسان، لأن الله يمنعك ما يضررك في دينك ودنياك وتلجأ إليه طالباً عطاياه.

والله ﷻ لطيف بعباده ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

فقد يمنعك حتى تداوم الوقوف على بابه، وتكثر من دعائه، وتزيد من صلواتك ومن دعواتك ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فلا يصل العبد درجة المعرفة إلا أن يرى المنع بعين العطاء، والعطاء بعين المنع، فسبحان من كان منعه إحساناً وعطاءه امتحاناً.

الحكمة التاسعة والثمانون

جَلَّ رَبُّنَا أَنْ يُعَامِلَهُ الْعَبْدُ نَقْدًا فَيُجَازِيَهُ نَسِيئَةً

شرح الحكمة

النسيئة هو الأجل، وهو أن تشتري سلعة وتدفع ثمنها بعد حين. والنبي ﷺ نهى عن ربا النسيئة، فنهى عن بيع الذهب بالذهب، والفضة بالفضة مع وجود الأجل، واعتبر أن ذلك ربا، والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧].

فكيف تتصور أيها العبد إنك تقدم العمل الصالح والله ﷻ يؤجل لك الأجر، ومن شأن الكريم إذا اشترى شيئاً أن ينجز نقده ويزيد إحسانه وورفده، وقد اشترى الحق تعالى منا أنفسنا وأموالنا فعوضنا بها الجنة، فمن

باع نفسه وماله ونقدهما عوضه الله بجنة المعارف في الدنيا عاجلا، ويجعل زاده في الآخرة لجنة الزخارف.

ويتحفه بدوام الشهود مع الله ﷻ، وبدوام المراقبة ودوام لذة الذكر والطاعة في الدنيا ﴿وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣] ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ من ضيق الدنيا لسعة الآخرة، ومن ضيق الهم والغم إلى الرضا واليقين والسعادة ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۖ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق: ٣]، ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، فجعل الله ﷻ السعادة في قلوب أوليائه ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] يخرجهم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمة المعصية إلى نور الطاعة، ومن ظلمة الغفلة إلى نور اليقظة، ومن ظلمة الأكوان إلى نور المكون ﷻ.

الحكمة التسعون

كَفَى مِنْ جَزَائِهِ إِيَّاكَ عَلَى الطَّاعَةِ أَنْ رَضِيكَ لَهَا أَهْلًا

شرح الحكمة

أعطاك الأجر قبل أن تقدم الطاعة فجعلك أهلا لذكره «كَفَى مِنْ جَزَائِهِ إِيَّاكَ عَلَى الطَّاعَةِ» لو لم تر ثوبا على عبادتك في الدنيا؛ لأنك مبتلى فيها «كَفَى مِنْ جَزَائِهِ إِيَّاكَ عَلَى الطَّاعَةِ أَنْ رَضِيكَ لَهَا أَهْلًا» فيكفي إنه وفقك للطاعة والمداومة عليها.

فما عبده إلا لأنه ذكرك، وما ذكرته إلا لأنه قواك. فيكفيك شرفاً أن
كلفك وقواك، واختارك لذكره ممن جالسك بذكره فأجر تطلب؟

كان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله مسافراً فمر على كوخ ووجد فيه رجلاً
عجوزاً مشلولاً متقرح الجسم، والذباب مجتمع على جروحه ولا يوجد
معه أحد لخدمته، ووجده يردد الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله، فقال له
الإمام أحمد علام تحمد يا رجل؟ فقال الرجل: على لسان ذاك، وقلب
شاكر. فاتعظ واذكر توفيق الله لك لعبادته وطاعته ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُ، مَا زَكَّيْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١]

الحكمة الحادية والتسعون

كَفَى الْعَامِلِينَ جَزَاءً مَا هُوَ فَاتِحُهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فِي طَاعَتِهِ، وَمَا هُوَ مُورِدُهُ
عَلَيْهِمْ مِنْ وُجُودٍ مُؤَانَسَتِهِ

شرح الحكمة

«كَفَى الْعَامِلِينَ جَزَاءً» فكفى بك أجراً أن ذكر نفسه على لسانك.
فمن نعمه أن ألقى في قلبك حب الطاعة والصبر عليها. وكفى العاملين
جزاء من انشراح الصدر من نور المعارف التي حلت فيه.

«وَمَا هُوَ مُورِدُهُ عَلَيْهِمْ مِنْ وُجُودٍ مُؤَانَسَتِهِ» ومن عظيم النعم أن جعلك
تستأنس به ﷻ. وتستوحش من خلقه، فالسلامة بعدم الانشغال مع الخلق
والأنس بالحق.

الحكمة الثمانية والتسعون

مَنْ عَبْدُهُ لَشَيْءٍ يَرْجُوهُ مِنْهُ، أَوْ لِيَدْفَعَ بِطَاعَتِهِ وَرُودَ الْعُقُوبَةِ عَنْهُ فَمَا قَامَ بِحَقِّ أَوْصَافِهِ

شرح الحكمة

وهذا حال العارفين، وأما عموم المسلمين فيعبدونه خوفاً وطمعاً وقصدتهم صحيح، لكن لا تجعل عبادتك كلها خوفاً وطمعاً فقط، لأن ربنا ﷻ أهلاً للعبادة، ولو لم يخلق جنة ولا ناراً. وهو أجل وأعلى من أن يُعبد لعله. ومن عبده من أجل علة فما عبده حق عبادته.

ومقام المسلمين الذين يعبدون الله ﷻ خوفاً وطمعاً عالٍ، ولكن الشيخ يتكلم عن مقام أعلى يجب أن يصل إليه المسلم ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ [الواقعة: ١٣-١٤]

فمنهم من يعبد الله محبة في ذاته، وشوقاً إلى لقائه، لا طمعاً في جنته، ولا خوفاً من ناره ونكاله.

ومنهم من يعبد الله قياماً بوظائف العبودية، وأدباً مع عظمة الربوبية. ولقد أوحى الله ﷻ لسيدنا داود عليه السلام (إِنْ أَوَدَّ النَّاسُ إِلَيَّ مِنْ عَبْدِنِي غَيْرِ نَوَالٍ، لَكِنْ لِيُعْطِيَ الرَّبُوبِيَّةَ حَقَّهَا)، وقال أبو بكر الشبلي^(١) (نحن الفقراء أطفال في حجر ربهم) لأن الطفل في حجر أمه في الأمان المطلق، ويشعر بأنه ملك الدنيا كلها، وليس له تصريف وتدبير بل تدبيره بيد أمه.

(١) شيخ الطائفة أبو بكر الشبلي البغدادي، ولد في سامراء عام ٢٤٧ هجري، كان أبوه من كبار حجاب الخلافة، صحب الشبلي الامام الجنيد وغيره ممن كانوا في عصره، كان الشبلي فقيهاً

الحكمة الثالثة والتسعون

مَتَى أَعْطَاكَ أَشْهَدَكَ بِرَّهُ، وَمَتَى مَنَعَكَ أَشْهَدَكَ قَهْرَهُ، فَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ مُتَعَرِّفٌ إِلَيْكَ، وَمُقْبِلٌ بِوُجُودِ لُطْفِهِ عَلَيْكَ

«مَتَى أَعْطَاكَ أَشْهَدَكَ بِرَّهُ» فلا تعبده من أجل النوال، أو من أجل الخوف فقط، فهذه أخلاق عبد السوء. بل كن عبد إحسان، تجتهد في العمل مع الله ولو لم تأخذ الأجر لأنه أهل لذلك.

قال الشيخ: «مَتَى أَعْطَاكَ أَشْهَدَكَ بِرَّهُ، وَمَتَى مَنَعَكَ أَشْهَدَكَ قَهْرَهُ» فالعطاء فيه الجمال والمنع فيه الجلال، والله ﷻ يريد أن يتعرف عليك بالجمال والجلال حتى لا تجهله في شيء، فيعطيك جمالاً فتتعلق به، ويمنعك قهراً فتخشاه وتخافه، فيريد أن يتعرف عليك في كل شيء، في المنع والعطاء في آنٍ واحد، حتى تعبداً رباً جميلاً جليلاً.

وربنا ﷻ يبين ذلك في قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ [الحج: ١١] وهذا الذي عبد ربه في تجلي الجمال ﴿وَلِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ﴾ من قهر الجلال ﴿انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١]. فقد ربه في عبادته خير محض ولو لم يره العبد. فهو اللطيف الخبير، خير بما يصلحك مع اللطف بك.

الحكمة الرابعة والتسعون

إِنَّمَا يُؤْلِمُكَ الْمَنَعُ لِعَدَمِ فَهْمِكَ عَنِ اللَّهِ فِيهِ

شرح الحكمة

فهو ﷻ المعطي المانع وهو الضار النافع «إِنَّمَا يُؤْلِمُكَ الْمَنَعُ لِعَدَمِ فَهْمِكَ عَنِ اللَّهِ فِيهِ» لأنك لا ترى عطاء الله في هذا المنع، ولو رأيت العطاء في المنع لانبسط القلب بعد أن كان مقبوضاً.

قال الشيخ: «إِنَّمَا يُؤْلِمُكَ الْمَنَعُ لِعَدَمِ فَهْمِكَ عَنِ اللَّهِ فِيهِ» والمعرفة بالله ﷻ تقتضي أن تفهم أن المنع هو القبض، والعطاء هو البسط، وقد يكون المنع حسيّاً، وقد يكون معنويّاً، وقد يكون البسط حسيّاً وقد يكون معنويّاً.

ولذا كان النبي ﷺ متخلّقاً بأخلاق الله ﷻ، كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها وهي تصفه ﷺ كان خلق رسول الله ﷺ القرآن، أي اتصف بأوصاف الرحمن من جلال وجمال. فوجب عليك أن تتصف بصفات الجمال، وتستعملها مع الخلق إلا الكافر المعتدي، وتتخلق بصفات الجلال وتستعملها مع الكافر ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] يؤثرون على أنفسهم مع المؤمنين ويجاهدون الكافرين ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

إذن: العبد الكامل هو الذي يتخلق بأخلاق الله، ويتعامل مع العباد كل بقدره؛ لأنه لا يتعامل بنفسه ولا بشهوته، ولكن يتعامل بالله والله وفي الله ﷻ.

الحكمة الخامسة والتسعون

رُبَّمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ الطَّاعَةِ وَمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ الْقَبُولِ، وَرُبَّمَا قَضَى عَلَيْكَ
بِالذَّنْبِ فَكَانَ سَبَبًا فِي الْوُصُولِ

شرح الحكمة

لا عبرة بالطاعة إن لم يصحبها القبول، وعلى الإنسان أن يسأل الله
تعالى القبول ويُخلص أعماله من كل شوائب الشرك والهوى.

ومن علامات القبول أن يجد ثمرة العبادة، فإن لم يستشعر أنوار
الطاعة في قلبه، أو واردات أو أحوال تؤثر في نظرتة في الأكوان، وتثمر
سلوكاً في حياته، فهذا علامة على عدم القبول. والنبى ﷺ يقول: «من لم
تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له»^(١) فمن فعل العبادة، ولم
تظهر عليه ثمرة العبادة وظل سلوكه معوجاً فهذه علامة عدم القبول.

ويقول الله ﷻ في الحديث القدسي: «إِنَّمَا أَتَقَبَّلُ الصَّلَاةَ مِمَّنْ تَوَاضَعَ
لِعَظَمَتِي، وَلَمْ يَتَعَاطَمْ عَلَى خَلْقِي، وَكَفَّ نَفْسَهُ عَنِ الشَّهَوَاتِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي،
فَقَطَعَ نَهَارَهُ بِذِكْرِي، وَلَمْ يَبْتَ مُصِرًّا عَلَى خَطِيئَتِهِ»^(٢) فقد تكون الصلاة

(١) الطبراني في الكبير (١١٠٢٥).

(٢) حلية الاولياء ج ٤ ص ١٨، عن ابن عباس، رضي الله تعالى عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ
اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّمَا أَتَقَبَّلُ الصَّلَاةَ مِمَّنْ تَوَاضَعَ لِعَظَمَتِي، وَلَمْ يَتَعَاطَمْ عَلَى خَلْقِي، وَكَفَّ نَفْسَهُ عَنِ
الشَّهَوَاتِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي، فَقَطَعَ نَهَارَهُ بِذِكْرِي، وَلَمْ يَبْتَ مُصِرًّا عَلَى خَطِيئَتِهِ، يُطْعِمُ الْجَائِعَ،
وَيَكْسُو الْعَارِي، يَرْحَمُ الضَّعِيفَ، وَيُؤْوِي الْغَرِيبَ، فَذَلِكَ الَّذِي يُضِيءُ وَجْهَهُ كَمَا يُضِيءُ نَوْرُ
الشَّمْسِ، يَدْعُونِي فَأَلْبِي، وَيَسْأَلْنِي فَأُعْطِي، وَيُقَسِّمُ عَلَيَّ فَأَبْرُقُ قَسَمَهُ، أَجْعَلُ لَهُ فِي الْجَهَالَةِ عِلْمًا،

صحيحة فقها لاستيفائها الشروط والواجبات والسنن كاملة، ولكن قلب المصلي مملوء بالكبر، والعجب، وعدم الشفقة على الفقراء والمساكين والمسلمين، فأني تقبل صلاته!!.

ولذا يقول الشيخ: «رُبَّمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ الطَّاعَةِ» في الظاهر «وَمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ الْقَبُولِ» لوجود الموانع الباطنية من أمراض القلوب، كرؤية النفس في الطاعة معجبا بها، ولا يتذلل إلى ربه ولا ينظر لفضل الله عليه فيها، فهذا يُحجب عن القبول؛ قال بعضهم: (احذروا حلاوة الطاعة فإنها سموم قاتلة) وقال البوصيري في البردة:

وراعها وهي في الأعمال سائمة وإن هي استحلت المرعى فلا تُسم

يعني إذا استحلت عبادة معينة واستسهلتها وأنست بها ولا تؤدي غيرها لثقلها على النفس، فيجب عليك أن تجاهدها، وتفعل العبادة الثقيلة على النفس.

«رُبَّمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ الطَّاعَةِ» التي تستلذها نفسك «وَمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ الْقَبُولِ» لرؤية النفس فيها.

ثم قال: «وَرُبَّمَا قَضَىٰ عَلَيْكَ بِالذَّنْبِ فَكَانَ سَبَبًا فِي الْوُصُولِ» فيمكن أن تكون الطاعة سبباً في الحجاب، ويكون الذنب سبباً في الوصول بالندم والتوبة.

وَفِي الظُّلْمَةِ نُورًا، أَكَلُوهُ بِقُوَّتِي، وَأَسْتَحْفِظُهُ مَلَائِكَتِي، فَمَثَلُهُ عِنْدِي كَمَثَلِ الْفَرْدَوْسِ فِي الْجَنَانِ، لَا تَبْسُ إِيمَارَهَا، وَلَا يَتَغَيَّرُ حَالُهَا». غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ طَاوُوسٍ، لَا أَعْلَمُهُ مَرْفُوعًا إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ

فلو كانت الطاعة لشهوة النفس تكون سبباً للحجاب، ولو كان الذنب سبباً للانكسار والتوبة سيكون سبباً للوصول، ويصير الذنب ذنباً في الظاهر طاعةً في الباطن، وتصير الطاعة طاعةً في الظاهر ذنباً في الباطن.

والنبي ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»^(١) فالذنب له فائدة أحياناً، والذنب الذي له فائدة هو الذنب الذي لا يكون مع التشوف له والقصد إليه والاستمرار فيه.

فالولي إن أذنب فإنه يذنب بغير قصد، ويسارع إلى التوبة، ويتذلل إلى الله بعد حدوثه، فيكون الذنب في حقه طاعة؛ لأنه كان سبباً لكسر نفسه، فلا يرى نفسه مطيعاً على الأبد، ولكن يرى أنه ما زال لا يأمن مكر الله عز وجل.

الحكمة السادسة والتسعون

مَعْصِيَةٌ أَوْرَثَتْ ذُلًّا وَافْتِقَارًا خَيْرٌ مِنْ طَاعَةٍ أَوْرَثَتْ عِزًّا وَاسْتِجَارًا

شرح الحكمة

لأن تذلل القلب لمولاه هو الذي يوصلك لربك، والعز والاستكبار هو الذي يبعدك عن ربك. فربما تكون المعصية هي عين الطاعة، إذا كتبت عليك إرغاماً لنفسك حتى لا ترى أنك معصوم، ويقول ﷺ: في الحديث القدسي «أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ»^(٢).

(١) مسلم (٢٧٤٩)

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية ج ٢ ص ٣٦٤ بلفظ عن مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ، قَالَ: «قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا رَبِّ أَيْنَ أَنْغِيكَ؟ قَالَ: أَبْغِي عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ»، ورواه أيضاً برواية أخرى ج ٤ ص ٣١ عَنْ

وقال المحاسبي^(١) رضي الله عنه: (إنما مراد الله سبحانه من عباده قلوبهم فإذا تكبر العابد أو العالم وتواضع الجاهل والعاصي وذل هيبة الله عز وجل وخوفاً منه فهو أطوع لله عز وجل).

وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضي الله عنه: (كل إساءة أدب تثمر أدباً فليست بإساءة أدب) فإساءة الأدب التي قد يفعلها الإنسان وتكون سبباً لتوبته ورجوعه وخوفه من ربه فهي عين الطاعة، وتكون أفضل من الطاعة التي تكون سبباً لأن يزهو بقلبه بها، وينظر إليها وإلى نفسه بها، فيعتز

وَهَبِ بْنِ مُبَيٍّ، قَالَ: قَالَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِلَهِي أَيْنَ أَجِدُكَ إِذَا طَلَبْتُكَ؟ قَالَ: عِنْدَ الْمُكْسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ مَخَافَتِي»

(١) قال الذهبي: الزاهد، العارف، شيخ الصوفية، أبو عبد الله الحارث بن أسيد البغدادي، المحاسبي، صاحب التصانيف الزهدية.

يُرْوَى عَنْ: يَزِيدَ بْنِ هَارُونَ يَسِيرًا. رَوَى عَنْهُ: ابْنُ مَسْرُوقٍ، وَأَحْمَدُ بْنُ الْقَاسِمِ، وَالْجُنَيْدُ، وَأَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنِ الصُّوفِيُّ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ إِسْحَاقَ السَّرَاجِ، وَأَبُو عَلِيٍّ بْنُ خَيْرَانَ الْفَقِيهَ.

قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: تَفَقَّهَ الْحَارِثُ، وَكَتَبَ الْحَدِيثَ، وَعَرَفَ مَذَاهِبَ النَّسَائِكِ، وَكَانَ مِنَ الْعِلْمِ بِمَوْضِعٍ، إِلَّا أَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي مَسْأَلَةِ اللَّفْظِ وَمَسْأَلَةِ الْإِيمَانِ.

قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني في الطبقات: وقيل لأحمد بن حنبل رضي الله عنه إن الحارث المحاسبي يتكلم في علوم الصوفية ويحتج لها بالآية والحديث فهل لك أن تسمع كلامه من حيث لا يشعر فقال: نعم فحضر معه ليلة إلى الصباح ولم ينكر من أحواله ولا من أحوال أصحابه شيئاً قال لأنني رأيتهما لما أذن بالمغرب تقدم فصلى ثم حضر الطعام فجعل يحدث أصحابه وهو يأكل وهذا من السنة فلما فرغوا من الطعام وغسلوا أيديهم جلس وجلس أصحابه بين يديه وقال: من أراد منكم أن يسأل عن شيء فليسأل فسألوه عن الرياء والإخلاص وعن مسائل كثيرة فأجاب عنها واستشهد عليه بالآية والحديث فلما مر جانب من الليل أمر الحارث قارئاً يقرأ فقرأ فبكوا وصاحوا وانتحبوا ثم سكت القارئ فدعا الحارث بدعوات خفاف ثم قام إلى الصلاة فلما أصبحوا اعترف أحمد رضي الله عنه بفضله وقال كنت أسمع من الصوفية خلاف هذا أستغفر الله العظيم رضي الله عنه.

وَمَاتَ: سَنَةَ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ

بها. فإذا قابلته بالعزة كسرك، وإذا قابلته بالذل جبرك. وإذا قابلته بالكبر قابلك بالطرد، وإذا قابلته بالتواضع قابلك بالقبول. فمعصية سيدنا آدم عليه السلام كانت سبباً لتوبته واجتباؤه، وطاعة إبليس لعنه الله كانت سبباً لإعجابه بنفسه وتكبره وطرده من رحمة الله تعالى.

الحكمة السابعة والتسعون

نِعْمَتَانِ مَا خَرَجَ مَوْجُودٌ عَنْهُمَا، وَلَا بُدَّ لِكُلِّ مُكَوَّنٍ مِنْهُمَا: نِعْمَةُ الْإِيجَادِ، وَنِعْمَةُ الْإِمْدَادِ

الحكمة الثامنة والتسعون

أَنْعَمَ عَلَيْكَ أَوَّلًا بِالْإِيجَادِ، وَثَانِيًا بِتَوَالِي الْإِمْدَادِ

شرح الحكمة

«نِعْمَتَانِ مَا خَرَجَ مَوْجُودٌ عَنْهُمَا» أي موجود سوى الله تعالى، موجود بالله، أما الله تعالى فموجود بذاته.

ولقد قال الفلاسفة إن الله هو الوجود لا إن الله موجود، ومعنى الوجود أي لا يوجد إلا الوجود الأصلي، وهو الله تعالى وكل موجود ما هو إلا مظاهر للوجود، ولذا قالوا بحلول الله في الأشياء، وفي الدواب، وفي الإنسان، وفي المكونات؛ لأنه هو الوجود على اعتقادهم الفاسد.

أما المسلمون فقالوا: إن الله موجود بذاته تعالى وكل ما سوى الله موجود بالله تعالى، أي بأمره وبمده.

قال الشيخ: «نِعْمَتَانِ مَا خَرَجَ مَوْجُودٌ عَنْهُمَا، وَلَا بُدَّ لِكُلِّ مُكَوَّنٍ مِنْهُمَا»
باسم المفعول وهو كل ما سوى الله مكوَّن؛ لأنه وقع عليه الفعل، ووقعت
عليه كلمة كن فكان.

«نِعْمَةُ الْإِبْجَادِ، وَنِعْمَةُ الْإِمْدَادِ» وهنا خالف اعتقاد الفلاسفة
أيضاً، لأن الفلاسفة قالوا أن الله أوجد الموجودات، ثم تركها بعد ذلك
للتفاعلات، فصارت التفاعلات سبباً لاستمرار الأكوان، وأنكروا نعمة
الإمداد، بل قالوا بالقوة المودعة الكامنة في الخلق وبها يستمر وجوده،
وهذا يناقض اعتقاد المسلمين.

أما أهل السنة والمسلمون فقالوا: إن الوجود موجود بنعمتين، نعمة
الإيجاد ونعمة الإمداد ليستمر. حيث أنه لم يستغن عن الله في لحظةٍ من
اللحظات، وإلا لعاد عدماً كما كان.

فنعمة الإمداد أي أن الله ﷻ خلق الأشياء وقدر فيها أقواتها، والأكوان
مفتقرة لنعمة الإمداد في كل لحظة، لذلك سيدنا رسول الله ﷺ كان مستشعراً
بنعمة الإمداد في كل لحظة؛ لأنه كان أعلم الخلق بالله ﷻ فكان يقول: «يَا
حَيُّ يَا قَيُّوْمُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيْثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي
طَرْفَةَ عَيْنٍ»^(١) لأنه محتاج لنعمة الإمداد في كل لحظة. ﴿وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ
اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا﴾ [النحل: ١٨].

(١) النسائي في السنن الكبرى (١٠٣٣٠) سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، يَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِفَاطِمَةَ: «مَا
يَمْنَعُكَ أَنْ تَسْمَعِي مَا أَوْصِيكَ بِهِ، أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتِ: يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ بِرَحْمَتِكَ
أَسْتَغِيْثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»

الحكمة التاسعة والتسعون

فَاقْتُكَ لَكَ ذَاتِيَّةً، وَوَرُودُ الْأَسْبَابِ مُذَكِّرَةٌ لَكَ بِمَا خَفِيَ عَلَيْكَ مِنْهَا
وَالْفَاقَةُ الذَّاتِيَّةُ لَا تَرْفَعُهَا الْعَوَارِضُ

شرح الحكمة

افتقارك لخالقك ذاتي فيك لا تنفك عنه لحظة، ولذا يحوجك سبحانه
للأسباب من طعام وهواء ونفس وثياب وسكن وزوجة وولد وأنس بالناس
ومرض ودواء، وكل ذلك ليزذكرك مع كل نفس وطرفة عين أنك فقير. وهذه
الأسباب والداعي لها وما ينتج عنها عوارض، والعرض لا يدوم زمانين بل
يزول ويتجدد في كل لحظة.

الحكمة المائة

خَيْرُ أَوْقَاتِكَ وَقْتُ تَشْهَدُ فِيهِ وَجُودَ فَاقَتِكَ، وَتَرُدُّ فِيهِ إِلَى وَجُودِ ذَلَّتِكَ

شرح الحكمة

الفاقة هي الفقر، «خَيْرُ أَوْقَاتِكَ وَقْتُ تَشْهَدُ فِيهِ وَجُودَ فَاقَتِكَ» أي
افتقارك إليه ﷻ، فكلما اشتد الفقر كلما كانت المعونة من الله والمدد ﷻ.

قال: «خَيْرُ أَوْقَاتِكَ وَقْتُ تَشْهَدُ فِيهِ وَجُودَ فَاقَتِكَ» (أي احتياجك إلى
الله، وكلما أشد الحاجة عظم الكرب في نفسك، وكلما اشتد الاضطرار
أسرعت الإجابة ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢].

«خَيْرُ أَوْقَاتِكَ» ليلة القدر كما يسميها أهل التصوف، وليلة القدر عندهم أن تستشعر احتياجك لربك كاحتياج الطفل الرضيع لأمه، فتذل له فيمنّ عليك بالغنى والعز.

والله ﷻ لما بدأ يبين منته على نبينا ﷺ ناداه بلفظ العبودية ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١٠] فلما ذل العبد لله ﷻ وصار خاصا، أسرى به وعرج به فوق السماوات وقال: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٤٥]، وقال: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١]، ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ [ص: ١٧]، ووصفهم بلفظ العبودية؛ لأنهم لما ذلوا لله وافتقروا أعزهم.

ولما استشعر المؤمنون القلة كثرهم الله ﷻ ونصرهم ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمُ﴾ [الأعراف: ٨٦] ولما استشعروا الفاقة نصرهم ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَنَازِلَكُمْ وَيَأْتِيَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرِزْقِكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [الأنفال: ٢٦] والله ﷻ يقول ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ [التوبة: ٦٠]، فالصدقة للفقراء وليس للأغنياء، فإذا افتقرت إلى الله تأتاك الصدقات والمنح من الله ﷻ.

الحكمة الحادية بعد المائة

مَتَى أَوْحَشَكَ مِنْ خَلْقِهِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابَ الْأَنْسِ بِهِ

شرح الحكمة

فالله ﷻ يأخذ بقلب العارف ولا يجعله يأنس بشيء من الأكوان إلا بالوصول إلى حبيبه وهو الله ﷻ، فيأنس به ويستوحش مما سواه، حتى لو جلس مع نفسه يستوحش من نفسه.

والأنس: هو أن تستوحش مما سواه، فمن رأى موجودا معه تعالى واستأنس بغيره تعالى لم يذق من الأنس شيئا، فالأنس ثمرة المحبة.

فإذا تحقق وصح ففرك وتذلل لله ﷻ أتحنفك ربنا ﷻ بأنسه لذلك قال «متى أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به» إذا افتقرت إليه ستجد أن الغنى به ﷻ هو عين الغنى، وإذا تذلل بين يديه ستجد أن العز به ﷻ هو عين العز وكماله.

فلما افتقرت إلى الله استغنيت عن الخلق؛ لأنه أكبر من كل شيء ﷻ، الله أكبر يكررها المؤذن في كل آذان، ويدخل بها المصلي في كل صلاة يصلّيها. فإذا تحققت بذلك المقام شعرت بالوحشة من الخلق، وفتح لك باب الاستحياء من الخلق ليدخلك من باب الأنس به «متى أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به» وانظر إلى سيدنا رسول الله ﷺ كيف استوحش قبل البعثة من الخلق، فكان يخلو في غار حراء الليالي ذوات العدد، لم يتحمل ظلمة الخلق ﷻ ويئس مما في أيدي الناس حسا ومعنا، فيئس مما يعبدون ومما يعتقدون ومما يفعلون. فلما يئس منهم ﷻ واستوحش من الخلق جميعاً فتح الله له باب الأنس به، فكان يخلو بنفسه في غار حراء الليالي ذوات العدد. فلما خلى بنفسه مع ربه أتته النبوة والرسالة والتخصيص والاصطفاء والاجتباء.

فالعارف بالله يرى القبض في البسط، ويرى البسط في القبض، فإذا قبضك من الخلق بسط عليك أنواع معارفه، وإذا بسطك مع الخلق قبضك عن مؤانسته.

والعارف يرى الجمال في الجلال، ويرى الجلال في الجمال في آنٍ واحد، فلا يقبضه منع ولا ييسطه عطاء.

فإذا استوحشت الخلق والتجأت إلى الله ﷻ أنساً به سيفتح لك أبواب المعارف وأبواب الترقى، ولذلك قال العارفون: (علامة الإفلاس الاستئناس بالناس) لذلك ربي العارفون بالله أتباعهم بالعزلة، والخلوة، حتى يعتاد المريد على إخراج الأكوان من قلبه والأنس بالله ﷻ.

ثم بعد ذلك إذا أوحشك من الناس وأنسك بذكره، سيفتح لك باب السؤال والدعاء، وإذا فتح لك باب الدعاء فهي علامة على أنه ﷻ يريد أن يفتح لك باب العطاء، فإذا سألت وأجابك ستفرح بعطائه، فتقبل عليه أكثر، فيسليك بالعطاء في الدنيا حتى تقبل عليه في الآخرة. فالهدف من العطاء ليزداد إقبالك عليه ﷻ لذلك قال في الحكمة التالية:

الحكمة الثانية بعمر المانة

متى أطلق لسانك بالطلب، فاعلم أنه يريد أن يعطيك

شرح الحكمة

إذا وفقك الله ﷻ إلى الطلب فاعلم أنه يريد أن يجيبك ولو بعد حين، لأنه قال ﴿وَمَا يَكُم مِّن نَّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، فخلقك وعلمك الدعاء ليعطيك.

والرسول ﷺ يقول: «من أُعْطِيَ الدُّعَاءَ لَمْ يُحَرِّمِ الإِجَابَةُ»^(١)، وإذا أردت الإجابة فعليك التزام الأدب في الدعاء، فلا تحجر واسعا، ولا تدعو بالسوء على مخلوق، وتدعو وأنت موقن بالإجابة، وتدعو بذل وافتقار وانكسار، وتدعو بدعاء النبي ﷺ فهو أحسن الدعاء، كقول النبي ﷺ: «ما سأل الله شيئا أحب إليه من العفو والعافية» فأفضل الدعاء أن تقول: (اللهم إني أسألك العفو والعافية)^(٢) وخير ما تطلبه منه هو ما يطلبه منك، فإذا طلب منك الاستقامة فخير ما تطلبه منه هو الاستقامة ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، ولذلك سُميت الفاتحة بأم القرآن، وأم الدعاء؛ لأن فيها تطلب منه ما يطلبه منك، ولذلك فرضها ربنا ﷻ علينا في الصلاة فندعو بها سبعة عشر مرة في ركعات الفريضة وتزيد في السنن، ويقول الكتاني رضي الله عنه: (لم يفتح الله لسان المؤمن بالمعذرة إلا وقد فتح له بالمغفرة).

وهذه المقامات التي ذكرها الشيخ آفا تمهيدا لفتح باب المعرفة، فيجب أن تتحقق بالفقر والذل لله ﷻ فتستوحش الخلق وتأنس به، ثم يفتح لك باب الدعاء، وبعد ذلك يأتي القبول فتأتي المعرفة، ثم بعد ذلك يقول إذا تمت المعرفة لا يزول عنك الفقر إليه ولا الذل له، فتدعوه باستمرار دعاء المضطرين فيقول في الحكمة التالية:

(١) البيهقي في شعب الإيمان (٤٢١٠) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ أُعْطِيَ أَرْبَعًا لَمْ يُحَرِّمْ أَرْبَعًا، مَنْ أُعْطِيَ الدُّعَاءَ لَمْ يُحَرِّمْ الإِجَابَةَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ اادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» [غافر: ٦٠]، وَمَنْ أُعْطِيَ الشُّكْرَ لَمْ يُحَرِّمْ الزَّيَادَةَ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: االَّذِينَ شَكَرْتُمْ لَا زَيْدَنَّاكُمْ» [إبراهيم: ٧]، وَمَنْ أُعْطِيَ الْإِسْتِغْفَارَ لَا يُحَرِّمُ الْمَغْفِرَةَ، لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ااسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا» [نوح: ١٠] وَمَنْ أُعْطِيَ التَّوْبَةَ لَمْ يُحَرِّمِ التَّقَبُّلَ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ااَلَّهُ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ» [الشورى: ٢٥]. «الْمَحْفُوظُ هَذَا الْمَتْنُ بِالسَّنَادِ الْأَوَّلِ وَعَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبَانَ مَتْرُوكٌ، وَرَوِي مِنْ وَجْهِ آخِرٍ ضَعِيفٍ»

(٢) الترمذي (٣٥١٥).

الحكمة الثالثة بعمر المائة

الْعَارِفُ لَا يَزُولُ اضْطِرَارُهُ وَلَا يَكُونُ مَعَ غَيْرِ اللَّهِ قَرَارُهُ

شرح الحكمة

العارف بالله هو العارف بنفسه، فلو عرفت نفسك بالذلة والافتقار لا يزول عنك اضطراك، فالعبد مفتقر لربه في كل لحظة وفي كل طرفة عين، فلو استشعرت افتقارك تحققت باضطراك، ومن عرف نفسه عرف ربه ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، لذلك علمنا النبي ﷺ هذا الدعاء «يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيْثُ أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ وَلَا تَكْلَنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ» ^(١) وهو ﷺ أعرف الخلق بالله، أي لو تخليت عني لحظة سأرجع عدماً؛ لأنني موجود بك على الحقيقة.

وشدة الاضطراب أن تستشعر بأنك لا تستغني عن الله طرفة عين، حتى إن السيدة عائشة رضي الله عنها كانت تصف سيدنا أبا بكر الصديق فتقول: (كان يزول اضطرابه إلى الله ﷻ) ولذلك كان ﷺ أعرف الصحابة بالله.

(١) المعجم الصغير (٤٦٢) أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ حَتَّى إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاتَّبَعْتُهُ فَقَالَ انْطَلِقْ بِنَا حَتَّى نَدْخُلَ عَلَى فَاطِمَةَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ فَدَخَلْنَا عَلَيْهَا إِذَا هِيَ نَائِمَةٌ مُضْطَجِعَةٌ فَقَالَ يَا فَاطِمَةُ مَا يُبْهِمُكَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ قَالَتْ مَا زِلْتُ مُنْذُ الْبَارِحَةِ مَحْمُومَةً قَالَ فَأَيَّنَ الدُّعَاءَ الَّذِي عَلَّمْتِكِ قَالَتْ نَسِيتُهُ فَقَالَ قُولِي يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيْثُ أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ وَلَا تَكْلَنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَلَا إِلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ لَا يَرْوِي عَنْ أَنَسٍ إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَادِ تَفَرَّدَ بِهِ نَصْرُ بْنُ عَلِيٍّ

قال الشيخ: «وَلَا يَكُونُ مَعَ غَيْرِ اللَّهِ قَرَارُهُ» لأنه تحقق بالعبودية فلا يشغله عن الله شاغل، فلا ينشغل بالعبادة عن المعبود، ولا بالذكر عن المذكور، ولا بالمعارف والأنوار عمن أعطاه إياها.

وأيضاً ولا يكون مع غير الله قراره؛ لأن العارف نظر إلى الأكوان فوجدها فانية وهالكة ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، أي هالك في الماضي والحال والمستقبال، إلا وجه التجلي والإمداد، فلا يسكن إلى شيء فإن، بل يسكن إلى الله الموجود بحق، وكل شيء قائم به سبحانه. لذلك قال أحد العارفين بالله (ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله) أي هو الموجود الذي أوجد هذا الشيء وأمدّه بأسباب بقائه.

الحكمة الرابعة بعد المائة

أَنَارَ الظَّوَاهِرَ بِأَنْوَارِ آثَارِهِ، وَأَنَارَ السَّرَائِرَ بِأَنْوَارِ أَوْصَافِهِ؛ لِأَجْلِ ذَلِكَ أَقَلَّتْ أَنْوَارُ الظَّوَاهِرِ، وَلَمْ تَأْفَلْ أَنْوَارُ الْقُلُوبِ وَالسَّرَائِرِ؛ وَلِذَلِكَ قِيلَ: إِنَّ شَمْسَ النَّهَارِ تَغْرُبُ بِاللَّيْلِ وَشَمْسُ الْقُلُوبِ لَيْسَتْ تَغِيبُ

شرح الحكمة

«أَنَارَ الظَّوَاهِرَ بِأَنْوَارِ آثَارِهِ وَأَنَارَ السَّرَائِرَ بِأَنْوَارِ أَوْصَافِهِ» ﷺ وآثاره هي احتجاب التجليات في حجب الأكوان. والتجلي حادث لا يدوم والمتجلي دائم باقي قديم، فالتجلي مخلوق، والله خالق، فتجلى الله تعالى على النبي ﷺ بكل الكمالات، والنبي ﷺ مخلوق والله خالق. والأكوان والآثار ما تنورت إلا بالتجلي؛ لأن الأكوان ظلمة وظهرت بأنوار التجلي، ولو

انقطعت أمداد التجلي صارت عدماً، فظاهر الأكوان مُزين بما فيه من أنوار وكواكب ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ [الصفات: ٦]، وكذلك زُينت الأرض ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، فالله ﷻ زين الأكوان بالأنوار في الظاهر، ولولا ظهور الله فيها ما أنارت ﷻ.

وأنا السرائر، أي أنار بواطن الأنبياء والرسل والعارفين والعباد بتجليات ذاته، فأنوار السرائر لا تغرب وأنوار الظواهر قد تغرب، فأهل الإسلام أنوارهم كالنجوم، وأهل الإيمان أنوارهم كالقمر، وأهل الإحسان أنوارهم كالشمس.

ولذا يقولون في كتب أهل التصوف نجوم الإسلام، وأقمار التوحيد، وشمس المعارف لما يذكروا الأنوار الباطنة عند أهل التجريد وأهل الخصوص مع الله في العبادات، فهم يتدرجون من نجوم الإسلام، يعني أنوار نجوم الإسلام في ظلمة سواد القلب الذي لم يخلص لله بعد، وهم أهل الإسلام من عوام الناس فأنوارهم كالنجوم ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، فالإسلام له أنوار، فإذا استقر الإسلام مع الإيمان أشرق قمر التوحيد مع النجوم، فتكون سماء نفوسهم وسرائرهم كالسماء التي يكون فيها القمر ليلة البدر مع النجوم، فيظهر قمر التوحيد مع نجوم الإسلام، فإذا ترقوا بعد ذلك من مقام الإيمان إلى مقام الإحسان وهو مقام المراقبة والمشاهدة أشرق شمس الحقيقة، فإذا أشرق شمس الحقيقة اختفى معها كل شيء، فعند المعرفة لا تحتاج لدليل ﴿وَعَلَّمَتِ وَيَالْتَجِمُ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾

[النحل: ١٦]، فترى تجليات ربك بما يليق به من تجليات شهوده ﷺ فلا تحتاج لدليل فتختفي النجوم والقمر التي كنت تهتدي بها بأنوار شمس المعارف بعد ذلك.

ولذا يقول السادة الصوفية (ليس الخبر كالعيان) فالنجوم والأقمار هي أنوار التوجه والشمس هي أنوار المواجهة، فالنجوم والقمر أنوار التوجه إليه ﷺ فإذا تم التوجه جاءت المواجهة فتشرق شمس المعارف.

ثم قال «لَأَجْلِ ذَلِكَ أَفَلَتْ أَنْوَارُ الظَّوَاهِرِ، وَلَمْ تَأْفُلْ أَنْوَارُ الْقُلُوبِ وَالسَّرَائِرِ» الأنوار الظاهرة كأنوار الشمس والقمر تأفل وتغيب، وأنوار المعارف الربانية التي هي في السرائر لا تأفل ولا تغيب، فإذا أشرقت شمس المعارف لا تغرب أبداً، أما شمس الدنيا تشرق وتغرب ولذا يقول: «لَأَجْلِ ذَلِكَ أَفَلَتْ أَنْوَارُ الظَّوَاهِرِ» لأن أنوار الظواهر هي آثار الصفات، وأنوار البواطن آثار الذات، وآثار الذات لا تبقى ولا يطرأ عليها التغير. قال بعض العارفين^(١) في شعره:

إن شمس النهار تغرب بليل وشمس القلوب ليست تغيب

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: فشمس القلوب لا تغيب أبداً، بل هي دائمة لا تنقطع وباقية لا تنصرم، لبقاء مددها وهي معاني الأوصاف الربانية.

وضرب الله مثلاً لهذا النور في قلب المؤمن ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ، كَمِشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ أَلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ

(١) هذا البيت للحسين بن منصور الحلاج.

دُرِّيُّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ ﴿٣٥﴾ [النور: ٣٥]، فلا يطرأ عليها ظلمة ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]، ثم بعد إشراق الأنوار وشروقها في نفوس الأولياء ينتهي هذا الباب، ولخصها سيدي ابن عجيبة رحمه الله في كتاب إيقاظ الهمم في شرح الحكم قال: «وحاصلها ذكر كيفية الجزاء على الأعمال، والزجر على طلبه، وتحقيق معرفته في عطائه ومنعه، والاعتناء بإقباله وقبوله لا بخدمته، ودوام الاضطرار بين يديه والافتقار إلى نعمته، والاستيحاش من خلقه بدوام أنسه، ثم إشراق أنواره على قلوب أوليائه وأسرار أصفياه جزاء لإقبالهم عليهم وانحياشهم له، فإذا أتحنفهم بذلك هيأهم لما هنالك وتلا عليهم قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٤]. فجنة المعارف قبل جنة المأوى ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا﴾ [البقرة: ٢١٤] أي العوائق والشواغل والقواطع التي تمنعهم من الوصول إلى الله، فهذه هي الأشياء التي تزلزل المريد والتي تقطعه عن جنة المعارف إذا انشغل بها ولم يستشعر ضعفه واضطراره فيتوجه لمولاه فيقبله ويُقبل عليه بفضله .

فإذا اختبر المريد بذلك واستمر مستقيماً على طاعته واطمئن لمولاه يأتيه النصر: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فيأتيه النصر بإشراق شمس المعارف في قلبه بعد ذلك. ولذا قال في الحكمة التالية:

الحكمة الخامسة بعد المائة

لِيُخَفِّفَ أَلَمَ الْبَلَاءِ عَلَيْكَ عَلِمَكَ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُبْلَى لَكَ. فَالَّذِي
وَاجَهَتْكَ مِنْهُ الْأَقْدَارُ هُوَ الَّذِي عَوَّدَكَ حُسْنَ الْاِخْتِيَارِ

شرح الحكمة

فإذا قابلتك قدره وهو مر وفيه ابتلاء في ظاهره فتقبله بالانشراف؛ لأنه عودك على حسن الاختيار لك، فتعلم أن هذا القدر دواء لك، والدواء يتبعه الشفاء والعافية والقوة؛ لأنه عودك على حسن الاختيار، فهو الذي اختار لك الإسلام وأنت في أصلاب الأرحام، بل وأنت في صلب سيدنا آدم عليه السلام، فاختار لك كمال العافية بالإيمان والإسلام، ويسر لك ظهور النبي ﷺ قبل ولادتك، ثم بعد ذلك يسر لك العلماء على مر العصور يدونون ويجمعون ويستنتجون ويستنبطون أحكام الدين حتى إذا أتيت إلى الدنيا مسلماً بغير سؤال وجدت من يأخذ بيدك إلى ربك بغير سؤال. وهذه نعم لا تعد ولا تحصى فهو عودك حسن الاختيار.

فإذا واجهتك منه الأقدار بما لا يروقك فقابلها بالانشراف لعلمك بأنه سبحانه هو المبلي ولا يختار لك إلا الأفضل ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]، لماذا؟ ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، فلا تتحسر وتيأس ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، أي ولا تفرحوا بما آتاكم من النعم فيُنسيك فرحك بالنعمة عن المنعم، فهو علمك وأعلمك أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك. فلما أعلمك ذلك علمت أن ما بك

من أي نعمة فمن الله ومن أي بلاء فمن الله كل، ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٧٨)، ولكن قد يصيبك البلاء بما كسبت يداك ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَّفْسِكَ﴾ (النساء: ٧٩)، أي بسبب اكتسابك من سوء اختيارك، فأراد الله ﷻ أن يصيبك بها ليطهرك مما اكتسبت من معاصي فهو الذي عودك على حسن الاختيار.

قال الشيخ: «لِيُخَفِّفَ أَلَمَ الْبَلَاءِ عَلَيْكَ عَلِمَكَ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُبْلِي لَكَ. فَالَّذِي وَاجَهْتِكَ مِنْهُ الْأَقْدَارُ هُوَ الَّذِي عَوَّدَكَ حُسْنَ الْإِخْتِيَارِ» ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فبعد العسر اليسر، وبعد الليل النهار ﴿إِنَّمَا يُوفِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، ولذا يقول النبي ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ»^(١).

قال الجنيد رحمه الله: (كنت نائماً بين يدي السري فأيقظني، وقال لي: يا جنيد رأيت كأني وقفت بين يديه) أي بين يدي الله في الرؤيا (فقال لي: يا سري خلقت الخلق كلهم فادعوا محبتي، فخلقت الدنيا فهرب مني تسعة أعشارهم وبقي معي العشر، فخلقت الجنة فهرب مني تسعة أعشار العشر للجنة وبقي معي عشر العشر، فسلطت عليهم ذرة من البلاء فهرب مني تسعة أعشار عشر العشر، فقلت للباقيين معي: لا الدنيا أردتم ولا الجنة أخذتم ولا من النار هربتم فما تريدون؟ قالوا: إنك تعلم ما نريد فقلت: إني مسلط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم ما لا تقوم له الجبال الرواسي أتصبرون؟ قالوا: إن كنت أنت المبتلي فافعل ما شئت، فهو لاء عبادي حقا).

(١) البخاري (٧٦٩٢). عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ صَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

وقال ابن عطاء في كتاب التنوير في إسقاط التدبير: (إنما يُعينهم على حمل الأحكام فتح باب الأفهام) أي أحكام الأقدار، فتح باب الأفهام فهم العطاء في المنع (وإن شئت قلت: وإنما يقوئهم على حمل البلايا واردة العطايا. وإن شئت قلت: وإنما يقوئهم على حمل أقداره شهود حسن اختياره. وإن شئت قلت: وإنما يصبرهم على وجود حكمه علمهم بوجود علمه. وإن شئت قلت: وإنما يصبرهم على أفعاله ظهوره عليهم بوجود إجماله. وإن شئت قلت: إنما صبرهم على القضاء علمهم بأن الصبر يورث الرضا. وإن شئت قلت: إنما صبرهم على الأقدار كشف الحجب والأستار. وإن شئت قلت: إنما صبرهم على أقداره علمهم بما أودع فيها من لطفه وإبراره).

الحكمة السادسة بعد المائة

مَنْ ظَنَّ أَنْفَكَ لُطْفِهِ عَنْ قَدَرِهِ فَذَلِكَ لِقُصُورِ نَظَرِهِ

شرح الحكمة

والله ﷻ يقول: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى: ١٩]، «مَنْ ظَنَّ أَنْفَكَ لُطْفِهِ عَنْ قَدَرِهِ فَذَلِكَ لِقُصُورِ نَظَرِهِ» فلطف الله مصاحب لقضائه وابتلائه، فلا تعترض على قدر الله فيك ولا في غيرك. والنبى ﷺ كان يقول: «إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ»^(١) أي لا يعترض، ولكن البكاء والحزن من الرحمة التي وضعها الله في القلب.

(١) رواه البخاري (١٣١٥) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِي

فيجب أن تنتبه لهذه الأشياء حتى لا تقع في المحذور، فيبطن اللطف في القهر في الابتلاءات، ويبطن القهر في اللطف في النعم، فلا ينفك اللطف عن القهر ولا ينفك اللطف عن القضاء، فهو رحيم غفور شديد العقاب في نفس الوقت سبحانه وتعالى.

وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يقول: ما أصبت ببلاء إلا ورأيت فيه ثلاث نعم: الأولى أن البلاء ليس في ديني، والثانية أن البلاء بهذا القدر وليس أشد منه، لأن كل بلاء يوجد أشد منه، والثالثة أن الله ادخر لنا ثواب الصبر على هذا البلاء. وهذا هو حال العارفين بالله ﷻ.

فقوله «من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره» هذا لمن تعلق بالدنيا ولم يتعرف على الله ﷻ. فإذا ابتلاه وزالت دنياه اضطرب واعترض على ربه؛ لأنه متعلق بها وليس متعلقاً بربه، حجب بها عن ربه.

الحكمة السابعة بعد المائة

لَا يُخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تَلْتَبِسَ الطُّرُقَ عَلَيْكَ؛ وَإِنَّمَا يُخَافُ عَلَيْكَ مِنْ غَلْبَةِ
الْهُوَى عَلَيْكَ

سَيِّفُ الْقَيْنِ وَكَانَ ظِئْرًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَذَرِفَانِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى فَقَالَ ﷺ إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ رَوَاهُ مُوسَى عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ الْمُغِيرَةِ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

شرح الحكمة

فأنت أيها السالك لا تخف من اشتباه الطرق، بل خف من عدوك، فلك عدوان الهوى والشيطان، والله ﷻ بين لك الطريق ﴿هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥]، فالله ﷻ بين لنا طريق الوصول إليه، وهو طريق واضح على المحجة البيضاء ليلها كنهارها بلغنا ذلك رسول الله ﷺ^(١). فالله ﷻ لا يخاف أن تلبس الطرق عليك، ولكن يخاف عليك من غلبة الهوى، وهذا هو موضوع هذه الحكمة. فلا شك أن الله ﷻ بين لنا طريق الوصول على لسان الرسول ﷺ، فبين لنا أعلام الشريعة، ومنار الطريقة وأنوار الحقيقة، فقرر لنا شرائع الإسلام.

والدين هو (شريعة وطريقة وحقيقة) أو قل هو (إسلام وإيمان وإحسان)، وإن شئت قل الإسلام أن تعبد، والطريقة أن تقصده، والحقيقة أن تشهده. والله ﷻ بين لنا على لسان نبيه ﷺ ما يريد منا فقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

(١) ابن ماجه (٤٥) عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرٍو السَّلْمِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ الْعُرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ يَقُولُ وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَوْعِظَةٌ ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةٌ مُودَعٌ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا قَالَ قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلَهَا كَنَهَارُهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسِيرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهَدَّيِّينَ عَصُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبِشِيًّا فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنْفِ حَيْثُمَا قِيدَ انْقَادًا.

وقال أحمد بن خضرويه البلخي^(١) رضي الله عنه: الطريق واضح والدليل لائح والداعي قد أسمع فما التحير بعد هذا إلا من العمى. فإذا كان الطريق واضح والدلائل لائحة ظاهرة والداعي وهو رسول الله ﷺ الذي بلغ الصحابة والصحابة حملوا لنا كل نفس تكلم به ﷺ وكل حركة وكل سكون له ﷺ ولذا قد أسمع الداعي فما التحير بعد هذا إلا من العمى.

ولقد سمعت رابعة العدوية^(٢) صالِحاً المري^(٣) يقول: من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له، فقالت له: الباب مفتوح.

فحال السيدة رابعة العدوية أعلى؛ لأنه يرى الباب مغلقاً وهي تراه مفتوحاً. والحقيقة أنك أنت المحجوب، فالله ﷻ لا يحجبه حاجب ولا

(١) أبو حامد أحمد بن خضرويه البلخي، أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن الثالث الهجري، من كبار مشايخ خراسان، وصفه الذهبي بـ «الزاهد الكبير الرباني الشهير» صاحب أبا تراب النخشي، وحامداً الأصم، ورحل إلى أبي يزيد البسطامي. توفي سنة ٢٤٠ هـ.

(٢) رَابِعَةُ الْعَدَوِيَّةُ أُمُّ عَمْرٍو بِنْتُ إِسْمَاعِيلَ الْعَتَكِيَّةُ * الْبَصْرِيَّةُ، الزَّاهِدَةُ، الْعَابِدَةُ، الْخَاشِعَةُ، أُمُّ عَمْرٍو رَابِعَةُ بِنْتُ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ ابْنِ أَبِي الدُّنْيَا: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ، حَدَّثَنِي عَبَّاسُ بْنُ مَيْمُونٍ الْعَطَّارُ، حَدَّثَنِي عَبْدَةُ بْنُ أَبِي سَوَّالٍ - وَكَانَتْ تَخْدُمُ رَابِعَةَ الْعَدَوِيَّةَ - قَالَتْ: كَانَتْ رَابِعَةُ تُصَلِّي اللَّيْلَ كُلَّهُ، فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ، هَجَعَتْ هَجْعَةً حَتَّى يُسْفَرَ الْفَجْرُ، فَكُنْتُ أَسْمَعُهَا تَقُولُ: يَا نَفْسُ كَمْ تَنَامِينَ، وَإِلَى كَمْ تَقُومِينَ، يُوْشِكُ أَنْ تَنَامِيَ نَوْمَةً لَا تَقُومِينَ مِنْهَا إِلَّا لَيَوْمِ النُّشُورِ. تُوفِّيَتْ: سَنَةً ثَمَانِينَ وَمِائَةً.

(٣) الزَّاهِدُ، الْخَاشِعُ، وَاعْظُ أَهْلَ الْبَصْرَةِ، أَبُو بَشِيرٍ بْنُ بَشِيرٍ الْقَاصُّ، حَدَّثَ عَنْ: الْحَسَنِ، وَمُحَمَّدٍ، وَبَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَثَابِتٍ، وَقَتَادَةَ، وَأَبِي عِمْرَانَ الْجَوْنِيَّ، وَعِدَّةٍ. وَعَنْهُ: عَفَّانُ، وَمُسْلِمٌ بْنُ أَبِرَاهِيمَ، وَعُبَيْدُ اللَّهِ الْعَيْشِيُّ، وَخَالِدُ بْنُ خَدَّاشٍ، وَطَالُوتُ بْنُ عَبَّادٍ، وَآخَرُونَ. كَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَكِي كِبَاءِ الثَّكَلِي، وَيَجَارُ جَوَّارِ الرِّهَانِ حَتَّى كَأَنَّ مَفَاصِلَهُ تَتَقَطَّعُ، وَكَانَ يَمُكِّثُ مَبْهُوتًا إِذَا رَأَى الْمَقْبَرَةَ الْيَوْمِينَ وَالثَّلَاثَةَ لَا يَعْقِلُ وَلَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ، وَكَانَ يَسْمَعُ كَلَامَ الْمَوْتَى وَيَكَلِّمُهُمْ وَيَكَلِّمُونَهُ بِالْمَوَاعِظِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. تُوفِّيَ: سَنَةً اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ وَمِائَةً.

يحبسه حابس، فالمحجوب هو أنت، محجوب في هواك، محجوب في شهواتك، في قواطعك التي تقطعك عن الله.

فإذا تخلصت من ذلك كله وجدت الباب مفتوحاً لا يغلق، ولكنك تراه مغلقاً لحجابك، فالله لا يحتجب بشيء؛ لأنه قاهر فوق عباده فلا يحجبه شيء ظاهرٌ فلا يغطيه شيء، لذلك قالت له: (الباب مفتوح وأنت تفر منه، كيف تصل إلى مقصد أخطأت الطريق إليه في أول قدم) المقصد الذي أخطأت الطريق فيه هي رؤية نفسك؛ لأنه دخل في الطريق بنفسه لا بالله، فظن أنه يصل بنفسه، واعتقد أن قرعه للباب هو الذي يوصله، أي عبادته هي التي توصله فقال: من ظل يقرع الباب يوشك أن يفتح له، فعلمت من كلامه أنه يعتقد أن الوصول يكون بعبادته أي بنفسه، والواقع أن الوصول يكون بمحض فضل الله ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الحديد: ٢١]، ولذا قال رسول الله ﷺ: «لَنْ يُدْخَلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ قَالُوا وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لَا وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ»^(١).

فلا يخاف عليك أيها المريد أن تلبس الطرق الموصلة إلى الله تعالى؛ لأنها في غاية الوضوح، وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك فيصمك ويعميك، فلا يخاف عليك التباس الهدى إنما يخاف عليك اتباع الهوى، ولا يخاف عليك التباس الحق وإنما يخاف عليك جهلة الخلق ﴿وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ولا يخاف

(١) رواه البخاري (٥٧٣٥) أباً هريرة قال سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لَنْ يُدْخَلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ قَالُوا وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لَا وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ فَسَدَّدُوا وَقَارِبُوا وَلَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتَبَ». مسلم (٧٢٨٩)، ابن ماجه (٤٣٤١).

عليك عدم وجود أهل التحقيق وإنما يخاف عليك قطاع الطريق، ولا يخاف عليك من خفاء أهل الحق وإنما يخاف عليك من قلة الصدق ﴿فَلَوْ صَدَقُوا﴾ **اللَّهُ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ** ﴿[محمد: ٢١]﴾، فحجبوا بالأكوان عن معرفة الحق، ومعرفة أولياء الله ﷻ، لعدم صدق التوجه إليه، فحجب الأولياء عنك ببشريتهم، ولو علم صدق التوجه له لأظهرهم لك، وأظهر خصوصيتهم فاستفدت بنصائحهم وإرشادهم؛ لأنهم لا يتكلمون إلا بالله، فكأن الله يكلمك على ألسنتهم فيرشدك بهم، وجعلهم أعلام للهدى ونوابا عن رسول ﷺ في غيابه.

فما حجبهم عنك إلا لعدم صدقك، فلو حسنت ظنك بالله وبأوليائه لرفع الله الحجاب بينك وبينهم، ووجدتهم أقرب إليك من أن ترحل إليهم. فسبحان من سترهم في حال حضورهم وأظهرهم في حال خفائهم، تجلى عليهم بالظاهر والباطن فأظهرهم في خفاء وأخفاهم في ظهور ﷻ، فهم ظاهرون، ولكن أخفاهم بمعاصي الخلق فلم يروه. ولذلك قال في الحكمة التالية:

الحكمة الثامنة بعد المائة

سُبْحَانَ مَنْ سَتَرَ سِرَّ الْخُصُوصِيَّةِ بِظُهُورِ الْبَشَرِيَّةِ، وَظَهَرَ بِعَظَمَةِ الرُّبُوبِيَّةِ فِي إِظْهَارِ الْعُبُودِيَّةِ

شرح الحكمة

فإذا خرجت من نفسك وهواك أطلعك الله تعالى على خصوصية عباده الصالحين فتصحبهم وتتعلم منهم، أما إذا كنت متبعاً للهوى فلا ترى الخصوصية حتى وإن كان الذي أمامك نبياً ورسولاً، وهذا ما حصل مع الذين عادوا الأنبياء والمرسلين.

أما الذين تركوا الهوى رأوا خصوصية النبي ﷺ واتبعوه وجاهدوا أمامه وفدوه بأنفسهم وأموالهم وأهلهم. وأما من نظر إليه بأنه يتيم أبي طالب لم ير الخصوصية وحجب بالبشرية فكذبه وحاربه.

فسبحان من ستر أنبياءه كما ستر أوليائه، ليدل الصادقين عليهم، لذلك قال الكافرون لأنبياء الله تعالى ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠]، قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا نأكل مما تأكلون ونشرب مما تشربون، فحجبوا عن خصوصيتهم.

ثم قال «وَوَظَّهَرَ بِعَظَمَةِ الرُّبُوبِيَّةِ فِي إِظْهَارِ الْعُبُودِيَّةِ» إذا عبدت الله وأظهرت العبودية كان الله سمعك وبصرك ويدك ورجلك^(١)، ولو أقسمت عليه لأبرك^(٢)، فتصير عبداً ربانياً تقول للشيء كن فيكون. أي أنه مستور بالبشرية. فإذا تحقق بالعبودية ظهر بقدرة الربوبية فإذا أقسم على الله أبره،

(١) وهذا ما ورد في الحديث الذي رواه البخاري (٦٥٨١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَى عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُجِبَهُ فَإِذَا أُجِبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ».

(٢) وهذا ما ورد في الحديث الذي رواه البخاري (٤٩٦٧) حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ مُعْبَدِ بْنِ خَالِدٍ قَالَ سَمِعْتُ حَارِثَةَ بْنَ وَهْبٍ الْخُزَاعِيَّ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَّعِفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ كُلُّ عَتَلٍ جَوَاطٍ مُسْتَكْبِرٍ» وحديث الترمذي (٤٢٢٧) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرٍ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ مِنْهُمْ» البراء بن مالك قال أبو عيسى هذا حديث صحيح حسن من هذا الوجه.

فكأن الأشياء تنصاع له وليست هي إلا همة العارف فتتحرك الأشياء بهمته فتكون كما يريد، كما حدث لنبينا ﷺ في أحداث كثيرة وكما حدث للصحابة من بعده ﷺ فمنهم من سار على الماء، ومنهم من طوي له المكان ومنهم من طوي له الزمان، وذلك حتى يبين الله ﷻ عظمة الربوبية.

فسبحان من جعل الأشياء كامنة في أضدادها، وستر كمالات الربوبية بنقائص العبودية، ولولا ذلك لكان السر غير مصون والكنز غير مدفون.

قال سيدنا المرسى أبو العباس ﷺ: (لو أظهر الله ما في قلب الولي لَعُبِدَ من دون الله) أي لو أظهر الله أنوار تجليات الربوبية من عزّة وكبرياء وقهر وعظمة واستغناء لانبهرت عقول الخلق وعبدوه من دون الله، أي انقادوا له واستسلموا بين يديه.

فحال كمال الولي هو إظهار العبودية في الظاهر لتجليات الربوبية في الباطن. فإذا أظهر الذل في الظاهر تجلى الله عليه بالعز في الباطن فصار عزيزاً. وإذا أظهر الفقر في الظاهر تجلى الله عليه بالغنى في الباطن. وهكذا تتجلى عليه الكمالات الربانية باطنا، ويتحقق هو باحتياجات البشرية لخالقها في الظاهر تذللًا لله عز وجل، فيكون في ظاهره متحقق بالعبودية، وفي باطنه يتجلى الله عليه بصفات الربوبية.

وأراد بعض الأولياء أن يعبروا عن مثل هذه الحالات، وهي حالة تجليات صفات الربوبية على قلب العارف بالله من كمال الاستغناء به عن الخلق، ومن كمال القيام بنفسها بالله عن الخلق، ومن كمال العلم الذي ليس معه جهل، ومن كمال العزّة التي ليس فيها شميمة ذل، ومن كمال الغنى الذي ليس فيه أثر للفقر، ومن كمال رؤية الله ﷻ التي ليست فيها

رؤية سواه. فلما أرادوا أن يعبروا عن هذه الكمالات أساء بعضهم التعبير فأساءوا فهمه، كما قال أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه: لَمَّا تجلَّى له هذا النور قال: «سبحاني ما أعظم شأني» وهو في حالة غياب تام، وصف نور الربوبية الذي نزل على قلبه، فاستشعر بكمال الاستغناء، وكمال الكبرياء، وكمال العزة من دون الخلق بالله فقال (سبحاني) أي لا مثيل لي في الخلق في هذه اللحظة. وهو في حال من السكر، فكأنه ينزه قلبه أن يكون له شبيه من قلوب المخلوقين بعد تجليات هذه الصفات فيه. وهو هنا يتكلم على لسان الحق لا على لسان البشرية، كما حصل مع الحلاج أيضا الذي قال:

أنا أنت بلا شك سبحانك سبحاني
توحيدك توحيدي وعصيانك عصياني

ولما قال هذا الكلام حكم عليه قضاة الشريعة بالقتل؛ لأنه باح بالسر، فقتل بسيف الشريعة ونجى بسيف الحقيقة.

ولما تقرأ هذه الكلمات على السنة الأولياء تعرف مقام نبيك، لأن رسول الله ﷺ كان حاله أعلى بكثير من الأنبياء، فما بالك بالأولياء، بل ما حدث في قلوب الأولياء ما هو إلا رشفة من بحار الأنوار التي كانت تموج في قلب النبي ﷺ فلم يتحملها هؤلاء الأولياء وتلفظوا بألفاظ موهمة لا تليق مع فهم العامة، فالنبي ﷺ لم يتكلم بما تعيا العقول به، وهذا بيان لمقامه العالي الذي لا يدركه مخلوق.

لم يمتحنا بما تعيا العقول به فلم نرتب ولم نهم

وهذا من كمالات النبي ﷺ ومن نقائص الأولياء؛ لأن الأولياء ليس لديهم كمالات النبوة، ولذا لما تجلى الله سبحانه على بعضهم لم يتحمل فقال (ما في الجبة إلا الله) فحكموا عليه بسيف الشرع فقتلوه، وهو يقصد تجليات صفات الذات من الله على قلبي، فكأن قلبه مرآة انطبعت فيه تجليات الذات، ولم يكن يقصد أن الله سبحانه حل فيه، ولكن ما هي إلا تجليات صفات الذات في مرآة قلب العبد المؤمن عندما يصفى حاله مع الله، كالذي يقف أمام المرأة ويرى نفسه فهل حل في المرأة؟ قطعاً لا. فلما وصف هذه التجليات قال: (ما في الجبة إلا الله) على سبيل التجليات والظهور لا على سبيل الحلول.

قال في لطائف المنن: (فأولياء الله أهل كهف الإيواء، فقليل من يعرفهم. وسمعت الشيخ أبا العباس رضي الله عنه يقول: معرفة الولي أصعب من معرفة الله فإن الله معروف بكماله وجماله. ومتى تعرف مخلوقاً مثلك يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب. وإذا أراد الله أن يعرفك بولي من أوليائه طوى عنك وجود بشريته وأشهدك وجود خصوصيته).

الحكمة التاسعة بعد المائة

لَا تُطَالِبْ رَبَّكَ بِتَأْخُرِ مَطْلَبِكَ وَلَكِنْ طَالِبْ نَفْسَكَ بِتَأْخُرِ أَدَبِكَ

شرح الحكمة

تحدث هذه الحكمة عن الأدب في الدعاء، فإذا تأخر المطلب فاعلم أنك أسأت الأدب، وإساءة الأدب مع الله ﷻ، تعني ألا تعبدته حق عبادته، ولا تفتقر إليه كمال الافتقار، ولا تنصح للمسلمين كمال النصيحة، وتحب

لنفسك ما لا تحب لغيرك، وتعتقد في نفسك الخصوصية وتنسى أنها من فضل الله عليك لا من فضلك على الخلق، فكل هذه الأشياء فيها إساءة أدب، وتكون عائقاً عن الوصول إلى مطلبك.

ولو تحققت بالأدب ما تأخر طلبك. ومن أدب الدعاء ألا تستعجل الإجابة، وتسلم لحكمته تعالى، فهو أحكم وأعلم بما يصلح لك، ويجب أن تكون حسن الظن بربك، والعبد ليس له اختيار مع سيده ومولاه.

وقد قال الشيخ في بداية الحكم: «لا يكن تأخر أمد الله بالعطاء مع الإلحاح في الدعاء موجباً ليأسك؛ لأنه ضمن لك الإجابة فيما يريد لا فيما تريد، في الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد» فربما يكون مطلبك الذي تطلبه من الله ﷻ فيه حجابك وفتنتك فلا يجيبك الله إليه.

ورأينا أمثلة لكثير من الأولياء والصالحين عندما فتح لهم باب الكشف تلفظوا بالألفاظ جعلت الناس تكفرهم، وتضربهم بالحجارة، واتهموه بالزندقة والحلول.

كقول أحد العارفين^(١): (خضنا بحار وقفت الأنبياء على سواحلها) فهاجمه من لم يتذوق طريق القوم، وقالوا أن الصوفية يرون أنفسهم أعلى درجة من الأنبياء، وحاشا للعارف أن يقصد هذا المعنى، والمعنى المراد (خضنا في بحار التجليات فلم نستطع أن نعود مرة أخرى لنأخذ بيد غيرنا، أما الأنبياء فخاضوه ثم عادوا لكمالهم ليأخذوا غيرهم فوقفوا على الساحل بعدما خاضوه)، ولا تفهم هذه المعاني إلا إذا أحسنت الظن

(١) هذا القول نُسب لسيدنا أبي يزيد البسطامي كما ذكره صاحب الإبريز.

بالعلماء والأولياء؛ لأن إساءة الظن بالأولياء سم قاتل تغلق على العبد باب الفهم والانتفاع بهم، وربنا ﷺ يغار على أوليائه فيحرمك فهم المعاني إذا ما أنكرت كلامهم.

قال الشيخ: «لا تُطالِبَ رَبَّكَ بِتَأْخُرِ مَطْلَبِكَ وَلَكِنْ طالِبْ نَفْسَكَ بِتَأْخُرِ أَدَبِكَ».

لذلك قال سيدنا رسول الله ﷺ حاكيا عن ربه في الحديث القدسي: «إِنَّمَا أَتَقَبَّلُ الصَّلَاةَ مِمَّنْ تَوَاضَعَ بِهَا لِعَظَمَتِي وَلَمْ يَسْتَطِلْ عَلَى خَلْقِي وَلَمْ يَبْتَ مُصِرًّا عَلَى مَعْصِيَتِي وَقَطَعَ نَهَارَهُ فِي ذِكْرِي»^(١). وأهل التصوف بينوا هذه الأحاديث وأبرزوا هذه المعاني عن طريق هذه الحكم.

ثم بعد ذلك أراد أن يبين أدبا آخرًا من آداب العارفين مع الله ﷻ، والتي يجب على السالك إلى الله أن يتحقق به، وهو الاستسلام لقهر الله ﷻ، فلا يحارب الأقدار، ولا يعيش في ضنك مع الأغيار، ولكن يستسلم لقدر الله ﷻ، فيستريح قلبه وإن عانت الأجساد بالتعامل مع الأسباب. والقلب يجب أن يكون مطمئنًا لقدر الله وقضائه، فيكون مستريحًا بقلبه منهكًا بجوارحه إن كان ولا بد، ولذلك قال في الحكمة التالية:

(١) مسند البزار (٤٨٥٥) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: إِنَّمَا أَتَقَبَّلُ الصَّلَاةَ مِمَّنْ تَوَاضَعَ بِهَا لِعَظَمَتِي وَلَمْ يَسْتَطِلْ عَلَى خَلْقِي وَلَمْ يَبْتَ مُصِرًّا عَلَى مَعْصِيَتِي وَقَطَعَ نَهَارَهُ فِي ذِكْرِي وَرَجِمَ الْمُسْكِينُ، وَابْنُ السَّبِيلِ وَالْأَرْمَلَةُ وَرَجِمَ الْمُصَابَ ذَلِكَ نُورُهُ كَنُورِ الشَّمْسِ أَكْلُوهُ بَعِزِّي وَأَسْتَحْفِظْهُ مَلَأْتُكِ أَجْعَلْ لَهُ الظُّلْمَةَ نُورًا وَفِي الْجَهْلَةِ حِلْمًا وَمِثْلُهُ فِي خَلْقِي كَمِثْلِ الْفِرْدَوْسِ فِي الْجَنَّةِ».

الحكمة العاشرة بعد المائة

مَتَى جَعَلَكَ فِي الظَّاهِرِ مُمْتَلًا لِأَمْرِهِ وَرَزَقَكَ فِي الْبَاطِنِ الْإِسْتِسْلَامَ لِقَهْرِهِ
فَقَدْ أَعْظَمَ الْمِنَّةَ عَلَيْكَ

شرح الحكمة

فالله سبحانه وتعالى يقول ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] فالظاهرة هي الاستقامة، والباطنة هي الاستسلام لأمره وقضائه وقدره، وبذلك تكون عبدا ربانيا، والله سبحانه يقول ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِنْمِرِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، أي أصلح الظاهر والباطن، فالظاهر يصلح بالتأسي بالنبي ﷺ والتعلق به بالأقوال والأفعال، والباطن بالتوكل على الله والاستسلام والثقة بالله سبحانه، وإذا أسبغ نعمه الظاهرة والباطنة عليك وجب عليك الشكر وزيادة العبادة وهذا هو عقال النعمة، فالشكر عقال النعم، والكفر زوال النعم.

«متى جعلك في الظاهر ممتلأ لأمره» أي متشرعا على سنة نبينا وملتة ﷺ ظاهرا، ومستسلما لله ﷻ في قضاءه وقدره وراضيا باطنا، فتفعل ما أمرك الله به وتنتهي عن نواهيه، فتكون ممتلأ في الظاهر، وتكون مستسلما لقهره في الباطن، أي راضيا لأحكامه فيك وفي غيرك وفي كل شيء حولك، فتكون في الظاهر مسلما لله وفي الباطن مستسلما له.

فالإسلام ظاهر والإيمان باطن. الإيمان وقر في القلب، والإسلام ظهر على الجوارح ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلٌّ لَّهُمْ تَوَمَّنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، فدل على أن الإيمان محله القلب، والاستسلام الظاهري هو الإسلام. فإذا استسلمت ظاهراً كنت مسلماً، وإذا استسلمت باطناً كنت مؤمناً، فإن تحققت بذلك لله صرت محسناً، ولذا يقول «متى جعلك في الظاهر ممثلاً لأمره» أي مسلماً «وفي الباطن مستسلماً لقهره» أي مؤمناً «فقد أعظم المنة عليك» والواجب عليك أن تشكر هذه النعمة، وتشكر قدرها حتى تعظم محبة الله في قلبك، وذلك أقصى مرادك وقصدك والله ذو الفضل العظيم.

ثم بعد ذلك أراد أن يبين أنه يجب على الإنسان في طريقه إلى الله ألا ينظر إلى الكرامة وإلى خرق العادة، ولكن عليه أن ينظر إلى الاستقامة، فخير ما تطلبه منه هو ما طلبه منك، فالله ﷻ طلب منك الاستقامة ولذا ألهمك وأمرك وعلمك في كل صلاة أن تقول ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، فلا تنتظر الكرامة ولا تنتظر منه خرق العادة؛ لأن هذه الأشياء قد تكون شاغلة لك عن الوصول إلى الله ﷻ. وقد تجعل الخلق يقبلون عليك فيحجبونك عما أنت فيه من عبادة وترق.

وقد تلبسك ثوب الشهرة فتشتهر بين الناس وتزين بذلك، فبعدما كنت تعمل لله ﷻ صرت تعمل للناس، وهذا كله قد يؤدي بك إلى أن تتقهقر في السير إلى الله قال الله سبحانه ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَشَلُّهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ مَحْمِلَ عَلَيْهِ

يَلْهَتْ أَوْ تَرُكْهُ يَلْهَتْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

فالحكمة من إظهار الله ﷻ للكرامات على يد من شاء من عباده كي يدل الناس على الولي فينتفعون به، أو يظهرها فتنةً للسالك واختباراً له، هل يركن إليها ويشترى بها الدنيا، ولإقبال الناس عليه، ولقضاء حوائجه، وتقبيل يديه وحمل حذائه، وإكرامه بالطعام والشراب والملبس والكساء وغير ذلك، فيركن لذلك ويترك ما كان لديه من رغبة في الله ﷻ. وقد يُظهر الكرامة عليك في بداية الطريق حتى يتحفك بها فتفرح بها، فتستمر على ما أنت عليه من طاعة.

ولذا لما قيل لسيدنا سهل بن عطاء الله التستري رحمه الله عن رجل قال: (إني أتوضأ فأجد الماء يسقط من يدي قضبان من الذهب والفضة) فأجابه بقوله (أما علمت أن الصبيان إذا بكوا أعطوا خشخاشة يشتغلون بها) فبين له أنه ما زال صبياً يعبد الله من أجل الكرامة، ويعبد الله من أجل الخصوص، ويعبد الله من أجل شهرة، فنهاه عن ذلك وأمره أن لا ينظر إليها .

والعارف بالله يعلم أنه على الحق ولو وقفت الدنيا ضده ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]، أي كان يدعو إلى الله في عصره ولا يوجد على وجه الأرض مسلم إلا هو ﷺ والسيدة سارة رضي الله عنها، مواجهاً أهل الكفر في الأرض، وهكذا كان نبينا ﷺ، وعلى هذا كان الصحابة فتركوا مكة وهاجروا إلى المدينة ثم تركوا المدينة وجالوا في جميع أقطار المعمورة لينشروا دين الله ﷻ، ولم يلتفتوا إلى أن يمكنوا في الحرمين حيث تضعيف الحسنات.

الحكمة الحادية عشرة بعد المائة

لَيْسَ كُلُّ مَنْ ثَبَّتَ تَخْصِيصُهُ كُلَّ تَخْلِيصُهُ

شرح الحكمة

وهذا لأهل الخصوص الذين لم يبلغوا درجة النضج مع الله ﷻ، ويلتفتون لما يظهر لهم من خصوصية.

قال الشيخ: «ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه» فإذا أردت أن تهذب نفسك للوصول إلى الله ﷻ فيجب عليك أن تتخلص مما يحجبك عن الله ﷻ حتى تصل إلى الله.

وقد يخصك الله ﷻ وأنت في طريقك إليه ببعض الفضائل والنعم على سبيل التسلية وعلى سبيل التثبيت، فلا تظن أنك تخلصت من العوائق والعلائق ووصلت بمجرد حدوث ذلك، فإذا من الله ﷻ عليك بخرق العادة فلا تظن أنك قد تخلصت من كل شيء، وأنت قد كملت.

يقول: «لَيْسَ كُلُّ مَنْ ثَبَّتَ تَخْصِيصُهُ» أي بالكرامة «كَمَلَ تَخْلِيصُهُ» أي من العوائق.

واعلم أن الله سبحانه يغار على أوليائه فيحجب خصوصيتهم عن الخلق حتى لا يشغلهم بالخلق عن الخالق. فلا تلتفت للكرامة؛ لأن الملتفت لا يصل. فالكرامة والرؤيا الصالحة تظهر في بداية الطريق وتنتهي في الآخر لكمال الوصول.

وحاصل هذا الباب هو تحقيق الأدب في التعريفات الجلالية بدوام معرفته وشهوده في نعمته. فإذا تعرف عليك بالجلال تنظر أن وراءه جمالاً فتراه جميلاً في جلاله. وإذا تعرف عليك بالجمال تخاف أن تحجب بالنعمة عن المنعم فترى الجلال مخفياً في الجمال. ولذا تعبد رباً جليلاً جميلاً في آنٍ واحد، فلا يغطي جماله جلاله ولا يغطي جلاله جماله ﷻ، فترى القبض هو عين العطاء وترى العطاء هو عين القبض. وترى البسط في القبض والقبض في البسط حيث إنه هو قابض باسط في آنٍ واحد، فلا صفة تحجب وتمنع صفة.

الحكمة الثانية عشرة بعد المائة

لَا يَسْتَحَقِرُ الْوَرْدَ إِلَّا جَهْلٌ. الْوَارِدُ يُوجَدُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَالْوَرْدُ يَنْطَوِي بَانْطَوَاءِ هَذِهِ الدَّارِ. وَأَوَّلَى مَا يُعْتَنَى بِهِ: مَا لَا يُخْلَفُ وُجُودُهُ. الْوَرْدُ هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ، وَالْوَارِدُ أَنْتَ تَطْلُبُهُ مِنْهُ. وَإِنَّ مَا هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ مِمَّا هُوَ مَطْلَبُكَ مِنْهُ؟!

شرح الحكمة

فالورد هو الأعمال الظاهرة والأذكار التي توصلك إلى الله ﷻ في وقتها دون تأجيل وتسويف، فوردك عند الأذان الصلاة، ووردك في رمضان الصوم والقيام، ووردك مع والديك برهما، ومع رحمك صلتهم، ومع المسلمين النصح والشفقة وهكذا....، فكل وقت له ورد وعبادة؛ لأن الله ﷻ يقول في الحديث القدسي: «ما تقرب عبدي إليّ بأحب مما افترضته

عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه»^(١) فالأوراد تكسبك محبة الله ﷻ، والمحبة تنقلك من العبادة بالنفس إلى العبادة بالله، وتنقلك من مجاهدة النفس إلى مكابدة الأحوال والواردات الربانية والتجليات الرحمانية.

فالورد هو الذي يستجلب محبة الله عز وجل، ومن علامات محبة الله أن تشرق الأنوار في قلب المؤمن؛ لأن قلب المؤمن مرآة للأنوار، ولكن هذه المرآة إذا انطبعت فيها صور الأكوان يصعب أن تشرق فيها الأنوار؛ لأن الأكوان أصلها ظلمة ولولا ظهور الله فيها ما ظهرت، ﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، فالله سبحانه هو الذي أنارها وهو الذي أظهرها بالنور الذي خلقه فيها من أثر صفته الظاهر فقال ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]، وهذا النور هو نور الروحانية المحمدية التي عمت الأكوان ملكا وملكوتا وجبروتا، وأخرجت الأكوان من ظلمة العدم إلى نور الوجود، والعجيب أن الله أظهرها وحجبك عنه من شدة الظهور، ولذا كلما ذكرت الله صار الذكر جلاءً لمرآة القلب.

وورد السالكين هو الخروج من الشواغل، وترك العوائق والعوائق، وتطهير القلوب من المساوئ والعيوب، وتحليتها بالفضائل بعد تخليتها من الرذائل؛ لأن التصوف ما هو إلا تخلي وتحلي وتجلي.

(١) سبق تخريجه.

تخلي من كل العوائق والشواغل والمعاصي، ثم بعد ذلك يتحلى بالفضائل والكمالات على سنة النبي ظاهراً وباطناً. فإذا تحقق بالتحلية وكمل من التخلية جاء التجلي وهو التعرفات في قلبه فيصير عارفاً.

والتخلي والتجلي مطلوب منك اجتهدا، والتجلي بيد الله ﷻ تفضلاً، فأنت تقول (أشهد أن لا إله) تخلي (إلا الله) تحلي، فإذا تخليت وتحليت تجلى الله في قلبك، فتصير ترى بنور الله ﷻ، وكنت به عبدا ربانيا، ولئن سألته يعطيك ولئن استعذت به أعاذك، والنبي ﷺ يقول: «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ»^(١).

وأما ورد الواصلين فهو إسقاط الهوى، ومحبة المولى، وعبادتهم بالفكرة والنظرة، مع العكوف في الحضرة حيث إنهم لا يرون سواه، ولا يلجئون إلا إليه، ولا يرضون إلا به، ولا يكون لهم هوى بل يكون اختيارهم هو عين اختيار مولاهم، فيتقلبون في عبادة الله في كل حال. فإذا مرض أحدهم فيكون صبره على مرضه هو عين ورده. وإذا كان معافى فتكون شكر عافيته هي عين ورده. وإذا كان غنياً يكون نفقة ماله هي عين ورده؛ لأنه أخذ بالله وأعطى بالله، وهذا مقام عالي. وهكذا كان النبي ﷺ ومن ورث منه هذه الوراثة العالية، ونسأل الله ﷻ أن يمن علينا بهذا.

وقد رؤي الجنيد رضي الله عنه وفي يده سبحة فقيل له: أنت مع شرفك تأخذ في يدك سبحة فقال: نعم فهي سبب وصولنا إلى ما وصلنا فلا نتركها أبداً.

(١) مسلم (٢٨٥٤)، وأبو داود (٤٥٩٥)، وابن ماجه (٢٦٤٩)، وأحمد (١٢٣٠٢).

يعني المواظبة على الذكر (ولذكر الله أكبر) فالشريعة باب الحضرة، والطريقة بيت الحضرة، والحقيقة عين الحضرة، قال تعالى ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩] فلا تدخل الحضرة إلا من باب الشريعة، فتمسك بالشريعة حتى تدخل من بابها إلى حضرة مولانا عجل الله فرجه، الحضور مع الله بالله في كل حال.

قال «لَا يَسْتَحَقِّرُ الْوَرْدَ إِلَّا جَهْلٌ» جهول صيغة مبالغة، وهو الذي تمكن الجهل فيه، وليس له من العلم والحكمة شيء. فالورد هو ما يطلبه منك، والوارد هو ثمرة الورد، والوارد هو مدد من الله تعالى ليشبك على الورد ويقويك، وتستمر مداوما على ما أنت عليه وترقى في السير إليه. والوارد من الله وهو معنى (لا حول ولا قوة الا بالله) والوارد منه ليقويك على السير إليه.

وإن تأخر الوارد فلا تستحقّر الورد، فقد يتأخر الوارد إلى الدار الآخرة، لذلك قال «لَا يَسْتَحَقِّرُ الْوَرْدَ إِلَّا جَهْلٌ». الوارد يُوجَدُ في الدار الآخرة» فقد يدخره الله سبحانه لك للدار الآخرة، خوفا عليك بالانشغال به عن الخالق، فكن عبد الخالق لا عبد الخلق، وكن عبد المنعم لا عبد النعمة، والله سبحانه لم يطلب منك الوارد بل طلب منك الورد. فإذا أطعته بالمواظبة على الورد أعطاك الوارد عاجلا أو آجلا.

ثم قال الشيخ: «وَالْوَرْدُ يَنْطَوِي بَانْطَوَاءِ هَذِهِ الدَّارِ. وَأَوَّلِي مَا يُعْتَنَى بِهِ: مَا لَا يُخْلَفُ وَجُودُهُ» فالورد والأعمال تنتهي بانتهاء هذه الدار، لكن الوارد

أنت موعود به من قبل من لا يخلف الميعاد ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (٢٢) ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ﴾ (٢٣) [الذاريات: ٢٢-٢٣]،

فيجب المحافظة على الأعمال الصالحة؛ لأن عمرك قصير فلا تضيعه في غير مرضاة الله سبحانه، واترك الالتفات إلى الوارد، قال الله تعالى ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]، فلا تتكلم إلا بما يرضي الله ورسوله من ذكر وإصلاح بين الناس وتعلم العلم وتعليمه وهكذا في سائر حياتك.

وسيدنا رسول الله ﷺ يقول لبيان هذه الآية: «أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَّلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ وَعَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا»^(١) فأشغل نفسك بهذه الأمور التي بينها النبي ﷺ.

ثم قال الشيخ: «الْوَرْدُ هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ، وَالْوَارِدُ أَنْتَ تَطْلُبُهُ مِنْهُ. وَأَيْنَ مَا هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ مِمَّا هُوَ مَطْلُبُكَ مِنْهُ؟!». لأنك جهول في علمك، تظن نفسك عالما وعارفا وتطلب من الله على قدر معرفتك، وهذا جهل منك؛ لأنه سبحانه وتعالى قد أعد لك ثمرة اجتهادك ما لا عين رأت ولا إذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فأين ما تطلبه منه مما يطلبه منك، فسلم لله وافعل ما يطلبه منك ﷻ، واطمئن لفضل الله عليك ولو تأخر.

(١) الترمذي (٢٤٩٢)، وابن ماجه (٤٢٥١)، والدارمي (٣٣٠).

الحكمة الثالثة عشرة بعد المائة

وُرُودُ الإِمْدَادِ بِحَسَبِ الاسْتِعْدَادِ وَشُرُوقُ الْأَنْوَارِ عَلَى حَسَبِ
صَفَاءِ الْأَسْرَارِ

شرح الحكمة

فإذا وازبغت على الأوراد جاءك مدد الورد ﴿كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ
وَهَؤُلَاءِ﴾ [الإسراء: ٢٠]، فكلما كنت مع الأوراد بكاملك كانت الإمداد من
الله ﷻ إليك على قدر كمالك في وردك، وعلى قدر تصفية حالك في وردك،
وعلى قدر تخليك عما سوى المذكور، وبقدر تمكن المذكور في قلبك،
فالإمداد على حسب الاستعداد.

ثم يقول الشيخ: «وشروق الأنوار على حسب صفاء الأسرار» الإمداد
هي الأنوار، والأنوار تشرق بحسب صفاء الأسرار، فسماء سرك التي فيها
غيوم الأغيار إذا بددت هذه الغيوم بالورد مع الإخلاص فانقشعت غيوم
الأغيار أشرقت شمس الحقيقة، واكتمل بدر التوحيد.

«وشروق الأنوار على حسب صفاء الأسرار» فوجب عليك أن تطهر
سرك مما سوى الله ﷻ، وإذا أردت صفاء الباطن فعليك أن تتخلق بباطن
النبي ﷺ. وإذا أردت صفاء الظاهر فعليك أن تستن بظاهر النبي ﷺ. وإذا
أردت الاثنين معا فعليك أن تستن في الظاهر بالشريعة وفي الباطن بالطريقة،
حتى يكون ظاهرك كباطنك.

وعلاوة شروق الأنوار سقوط التدبير والاختيار، فإذا سقط تدبيرك واختيارك فاعلم أن الأنوار قد أشرقت على قلبك، وطالما تدبر وتختار فما زلت متعلقا بالأغيار ومن تعلق بالأغيار كانت سماء سره ملبدة بالغيوم.

ولذا يقول سيدنا أبو الحسن الشاذلي رحمه الله: (إذا أردت أن تختار ففر من المختار إلى ما يخلق ما يشاء ويختار) يعني إذا خیرت فاختر ألا تختار؛ لأن ربك يخلق ما يشاء ويختار، و أنت تقول في أذكار الليل والنهار: (ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، أعلم أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) ^(١) فالله هو الذي يخلق، وهو الذي يختار، وهو الذي يقضي بالحق ويبيده ملكوت كل شيء ﴿يَدِيرُ الْأَمْرَ يَفْصِلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢] فإن سلمت الأمر للمدبر حدث اللقاء لأنك صرت موقناً ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢]، فيتم اللقاء في الدنيا بكمال المعرفة، وتمكن الحقائق في القلب، ويتم اللقاء في الآخرة بالرؤية التي وعدنا الله للمؤمنين.

الحكمة الرابعة عشرة بعد المائة

الغافل إذا أصبح ينظر ماذا يفعل، والعاقِل ينظر ماذا يفعل الله به

(١) رواه أبو داود (٥٠٧٧) حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ قَالَ أَخْبَرَنِي عَمْرُو أَنَّ سَالِمًا الْقُرَاءَ حَدَّثَهُ أَنَّ عَبْدَ الْحَمِيدِ مَوْلَى بَنِي هَاشِمٍ حَدَّثَهُ أَنَّ أُمَّهُ حَدَّثَتْهُ وَكَانَتْ تَخْدُمُ بَعْضَ بَنَاتِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ بِنْتَ النَّبِيِّ ﷺ حَدَّثَتْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَعْلَمُهَا فَيَقُولُ: «قُولِي حِينَ تُصْبِحِينَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ أَعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا فَإِنَّهُ مَنْ قَالَ هُنَّ حِينَ يُصْبِحُ حِفْظَ حَتَّى يُمَسِيَ وَمَنْ قَالَ هُنَّ حِينَ يُمَسِيَ حِفْظَ حَتَّى يُصْبِحَ».

شرح الحكمة

فالغفلة مكروهة؛ لأن الله تعالى يقول ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وللغفلة علامات منها عدم الذكر، والانشغال عنه تعالى بالأكوان. وهذه علامات غفلة السلوك والظاهر. وهناك علامة لغفلة القلب وهي المذكورة في هذه الحكمة «الغافل إذا أَصْبَحَ يَنْظُرُ ماذا يَفْعَلُ» فهو يدبر أمره بيده معتمدا على نفسه ومعرفته وحكمته وهو في الحقيقة غافل.

«وَالْعَاقِلُ يَنْظُرُ ماذا يَفْعَلُ اللهُ بِهِ» وهذا الذي أشرقت في قلبه الأنوار فسقط منه التدبير والاختيار، فيصبح وهو ناظر ومنتظر لما يفعل الله به، وهو راضٍ قبل وقوع الأقدار فهو متحقق بـ(لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)، أما الغافل فيدبر لنفسه، وإن وخالفته الأقدار سخط على مولاه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ﴾ [الحج: ١١] أي مراده ﴿أَطْمَأْنَنَ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١]، لا يرضى بقضاء الله وقدره؛ لأنه لم يسقط من قلبه التدبير والاختيار.

وترك الاختيار والتدبير هو طريق الفتح ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ١ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١-٢] فإن أردت أن يفتح الله عليك فاترك التدبير والاختيار، لتشرق فيك شمس المعارف وأقمار التوحيد.

وتسلم إلى الله تعالى، حتى وإن منعك من الطاعة التي ربت أن تقوم بها، فقد تدبر للقيام ببعض الطاعات فيمنعك الله تعالى بالمرض أو غيره، فلا تعترض؛ لأنك قد تغتر بهذه الطاعة، وتتكبر على خلق الله فتدخل النار، فسلم لاختيار الله تعالى حتى وإن منعك من الطاعة. فالعارف بالله يرضى

ويستسلم لقدر الله سبحانه وتعالى حتى وإن منعه من الطاعة لأنه يعلم أن ترتيب الله خير من ترتيبه فينقلب من الرضا إلى المحبة.

الحكمة الخامسة عشرة بعد المائة

إِنَّمَا اسْتَوْحَشَ الْعِبَادُ وَالزُّهَادُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ لِيُغَيَّبَهُمُ عَنِ اللَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَلَوْ شَهِدُوهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ لَمْ يَسْتَوْحِشُوا مِنْ شَيْءٍ

شرح الحكمة

العبد العاقل يعلم أن الفاعل والمدير في الحقيقة هو الله ﷻ، والعبد لا يدبر شيئاً (ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن) فلما علم العاقل أنه لا مدبر إلا الله، ولا فاعل إلا الله لم يستوحش من شيء؛ لأنه رأى الله فاعلاً في الأشياء فانقشعت عنه غيوم الأفعال لظهور آثار الصفات، ثم من آثار الصفات إلى فعل الذات فلم ير إلا فاعلاً واحداً، فلم يستوحش من شيء. والعابد هو الذي اجتهد في الأفعال فصار همه الأفعال، وقد يغتر بفعله فينسب الفعل والاجتهاد لنفسه.

والزاهد هرب من الأكوان زهداً منها، فكأنه وجد مع الله شيئاً فهرب منه، أما العبد العارف لم ير إلا الله في الأكوان، فلا يهرب من شيء ولا يستوحش من شيء؛ لأن آثار الصفات والأفعال طويت له فلم ير إلا واحداً. ولذا يقول: «إِنَّمَا اسْتَوْحَشَ الْعِبَادُ وَالزُّهَادُ» والعباد هم الذين اجتهدوا في الأفعال، أما الزهاد فهم الذين هربوا من الأكوان زهداً فـ «إِنَّمَا اسْتَوْحَشَ الْعِبَادُ وَالزُّهَادُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» العابد استوحش من الأكوان مخافة أن تلهيه

عن اجتهاده. والزاهد استوحش من الأكوان مخافة أن يركن إليها من دون واجدها، فكأنه نظر أن لها وجودا بذاتها فهرب منها فاستوحش منها. أما العارف لا يستوحش من شيء؛ لأنه يرى أن الله ﷻ هو الفاعل في كل شيء. فلو لم يكن الله رحيمًا ما ظهرت آثار الرحمة في الأكوان. فإذا نظرت لامرأةٍ تحتضن طفلها فهذا فعل فيه رحمة، وفيه مؤانسة للطفل الصغير. فمن الذي أوجد الأم ووضع في قلبها هذه الرحمة؟ والجواب هو الله ﷻ فهي أثر رحمة الله، فالله هو الفاعل فيها.

فلما علم العارفون أن ما حولهم هو آثار الصفات لم يستوحشوا من شيء؛ لأنهم علموا أن الفاعل هو الله ﷻ، حتى أن بعضهم كان لا يستوحش من السباع؛ لأنه يعلم أنه لن يضره إلا إذا أراد الله ذلك. وإذا أراد الله له ضرراً فلا ينفع الهرب، فلا مانع لما أعطى ولا راد لما قضى، فلما علم العاقل هذا استأنس بالأكوان لا حبا في الأكوان، ولكن لأن الله أراد أن يظهر له في الأكوان حتى يراه ويأنس به قبل أن يراه في الآخرة.

وأنت في الدنيا لا تستطيع أن ترى الله بكمال قدسه وتنزيهه، فكيف يظهر في الدار الفانية وهو الباقي؟ فلا بد للحسنة من نقاب، ولا بد للشمس من سحاب، فالأكوان ما هي إلا نقاب بينك وبين الله ﷻ حتى تأنس به من خلال سحابة هذه الأكوان؛ فأنسك بالأكوان وظهر فيها بفعله، وظهر فيها بصفته، وتنقب فيها بذاته ﷻ.

فلما فهم العارفون ذلك لم يستوحشوا من شيء، بل أنسوا بكل شيء ﴿فَإِنْ تَذَهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٦]، فالله يسألك لتستسلم له وتنقاد ﴿فَإِنَّمَا تُولُوا﴾

فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ [البقرة: ١١٥]، فوجه الله ﷻ في الأكوان ظاهر ﷻ، ظهر بأثار صفاته وتنقب ذاتاً ﷻ؛ لأن ذاته مقدسة أن تظهر في الفناء، ولكن تعطفت صفات الذات، وما هي إلا انعكاس الذات على الصفات، وانعكاس الصفات على الأفعال، وانعكاس الأفعال في الأكوان فظهرت الأكوان. فهي انعكاس عن انعكاس عن انعكاس، وأراد الله ﷻ أن تأنس بكل شيء حتى لا تجهله في شيء.

يقول المصنف «إِنَّمَا اسْتَوْحَشَ الْعِبَادُ وَالزُّهَادُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ لِيَغَيَّبَهُمُ عَنْ اللَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ» ولو رأوا الله في كل شيء لم يستوحشوا، لذلك قال «فَلَوْ شَهِدُوهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ لَمْ يَسْتَوْحِشُوا مِنْ شَيْءٍ» بل اطمأنوا لكل شيء، وبدون شيء، حيث لم يحجبهم شيء عن مولا هم.

الحكمة السادسة عشرة بعد المائة

أَمَرَكَ فِي هَذِهِ الدَّارِ بِالنَّظَرِ فِي مُكَوَّنَاتِهِ، وَسَيَكْشِفُ لَكَ فِي تِلْكَ الدَّارِ عَنْ كَمَالِ ذَاتِهِ

شرح الحكمة

اعلم أن الله تعالى لا تدركه الأبصار، أي في هذه الدنيا، ومعنى الإدراك الإحاطة، أي لا تحيط به الأبصار، فلو أحاطت به الأبصار لحددته وقهرته، وهو قاهر سبحانه وتعالى «أَمَرَكَ فِي هَذِهِ الدَّارِ بِالنَّظَرِ فِي مُكَوَّنَاتِهِ، وَسَيَكْشِفُ لَكَ فِي تِلْكَ الدَّارِ» تلك إشارة للبعيد، وهذه إشارة للقريب «أَمَرَكَ فِي هَذِهِ الدَّارِ» يعني الدنيا «وَسَيَكْشِفُ لَكَ فِي تِلْكَ الدَّارِ» وهي الآخرة «عَنْ

كَمَالِ ذَاتِهِ «ولأنك غير صالح أن ترى كمال الذات في هذه الدار الفانية، لم يحرمك من مشاهدته، فخلق المكونات والأكوان وما هي إلا آثار صفاته، فأظهرها بظهوره فيها حتى تأنس به ﷻ قبل أن تأتي في الدار الآخرة التي تصلح لرؤية كمال ذاته بغير حجاب، فحجبك بالمكونات حتى تأنس بها لضعفك عن قدرتك على رؤية كمال الذات.

وسيدنا موسى ﷺ لما أراد أن يرى كمال الذات في الدنيا خر صعقا ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ اشتياقا ﴿قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا بَلَغَ رُءُوسَهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فعلمنا أن هذه الدار غير صالحة لتجليات الذات؛ لأنك فإن والله تعالى باقٍ، ولو رأى الفاني الباقي لفنى في الحال. فكان لا بد من حجاب للمخلوق الضعيف، فالمحجوب هو أنت أما الله ﷻ لا يحجبه شيء؛ لأنه لو كان محجوبا لكان مقهورا ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ٦١]، بل لم تظهر المكونات إلا لظهور آثار صفاته فيها، فهو الظاهر الذي ليس فوقه شيء، كما أنه هو الباطن الذي ليس دونه شيء، فجعلك تراه بالوسائط ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، فتنظر إلى الأكوان فتراها بالبصر وترى الفاعل فيها بالبصيرة. وهذا في هذه الدار، أما في الجنة فترى الله قبل الأشياء.

الحكمة السابعة عشرة بعم المائة

عَلِمَ مِنْكَ أَنَّكَ لَا تَصْبِرُ عَنْهُ، فَأَشْهَدُكَ مَا بَرَزَ مِنْهُ

شرح الحكمة

العبد متيم بخالقه ويشتاق إليه ولا يستغني عنه طرفة عين. والمحـب يشـتاق لرؤية حبيبه، ولأنه لا يصلح لرؤية الذات العلية في هذه الدار ألهمه الصبر على ذلك، ويؤنسه برؤية آياته في الأكوان، فهو الذي خلق الأكوان وأظهرها، وأظهر فيها كمال قدرته، وحسن وبديع تدبير حكمته ورحمته. فلما كنتَ غير صالح لرؤية الذات العلية جعلك ترى ما برز منه ﴿فَإَيْنَمَا تَوَلَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، فترى الله تعالى قبل الأكوان، أو معها أو بعدها وكل حسب مقامه. وما ظهرت الأكوان إلا بظهوره سبحانه فيها، وهي بغير ظهور الله فيها عدم وهالكة وفانية.

الحكمة الثامنة عشرة بعد المائة

لَمَّا عَلِمَ الْحَقُّ مِنْكَ وَجُودَ الْمَلَلِ، لَوْنُ لَكَ الطَّاعَاتِ. وَعَلِمَ مَا فِيكَ مِنْ وُجُودِ الشَّرِّ فَحَجَّرَهَا عَلَيْكَ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ، لِيَكُونَ هَمُّكَ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ لَا وُجُودَ الصَّلَاةِ، فَمَا كُلُّ مُصَلٍّ مُقِيمٍ

شرح الحكمة

إذا عرفت ربك وأحبيته ورأيتَه في كل شيء وأردت أن تتقرب إليه بكل شيء وتعبدَه على كل حال أعانك على ذلك بتنوع طرق الوصول إليه. فنوع لك العبادات والقربات التي توصلك إليه؛ لأنه يعرف أن الإنسان ملول بطبعه ما لو استمر على عبادة واحدة، فنوع عليه أصناف العبادات، وعلم أن الإنسان طماع وشره بطبعه فيما يحب فحجَّرها عليه في بعض الأوقات.

والمخلوقات الأخرى كل يعبد الله تعالى بعبادة واحدة، فمنهم يسبح، ومنهم راعع ومنهم ساجد وهكذا. فالملائكة مثلاً لكل نوع منهم عبادة واحدة، يستمر عليها من أول خلقه إلى أن يقضي الله ﷻ أمره فيهم. فمنهم الراكع الذي لا يرفع، والساجد الذي لا يجلس، والقائم الذي لا يغير حاله. ومنهم من يذكر بذكر مخصوص واحد مدة حياته. أما نحن فمن رحمة الله تعالى بنا ونعمته علينا لون لنا الطاعات. ففرض الصلاة والصيام والحج والزكاة، وسن لنا الأذكار المختلفة، وصلة الرحم، وكل أعمال البر والخير التي لا تعد ولا تحصى. وكلها تقربنا منه سبحانه، فتعمل القربات في جميع أحوالك وأوقاتك. لذلك قال «لما علم منك وجود الملل لوّن لك الطاعات».

ثم قال الشيخ: «وَعَلِمَ مَا فِيكَ مِنْ وُجُودِ الشَّرِّ فَحَجَرَهَا عَلَيْكَ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ، لِيَكُونَ هَمُّكَ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ لَا وُجُودَ الصَّلَاةِ» وهو ﷻ يعلم أنك إذا عرفته يا أيها العارف والعابد في الأكوان، فإنك تريد أن تطيعه في كل الأحوال. وهذا من الشره في الطاعة، وتريد أن تعبد ربك فوق طاقتك، فحجر عليك العبادة في بعض الأوقات، ومثاله أن جعل لنا أوقات يُكره الصلاة فيها، فيمنع عنك الصلاة في هذه الأوقات. وجعل أياماً يحرم الصيام فيها، وهكذا في بقية العبادات، فحجر عليك العبادة في بعض الأوقات؛ لأنه علم إنك شره وتلذذت بحلاوة الطاعة، فحماك حتى من نفسك.

فيجب أن يكون همك إقامة الشرع ذاته لا وجود الشرع نفسه. وهمك أن تفعل التكليف لله ﷻ لا همك أن تستلذ بالطاعة؛ لأن الله جعل اللذة في الطاعات ومع ذلك منعك من أن تكون الطاعات للذة التي فيها، بل يريد منك أن تفعل الطاعات امتثالاً لأمره، وطاعة له، حتى لا تصير العبادة من حظوظ النفس فتخسر.

لذلك يقول الإمام البوصيري رحمه الله:

وراعها وهي في الأعمال سائمة وإن هي استحلت المرعى فلا تسم

قال الشيخ: «ليكون همك إقامة الصلاة لا وجود الصلاة» ولم يثن ربنا ﷻ في القرآن كله إلا على مقيمي الصلاة، وليس على مؤدي الصلاة. ثم قال «فَمَا كُلُّ مُصَلٍّ مُقِيمٍ» لأن الصلاة قد توجد صورة وحركات بغير إقامة كأن تصلي بغير خشوع، وكأن تصلي وأنت في الصلاة غافل، فليس الهدف هو وجود الصلاة، ولكن الهدف هو إقامة الصلاة، وإقامة الصلاة لا تكون إلا بكمال الخشوع والخضوع مع مراعاة آداب الشرع وسننه، وكمال الحضور مع مولاك. لتشعر أنك تناجي من تحب.

إذن: ليس المراد وجود الصلاة، بل المراد إقامة الصلاة، فما كل مصليٍّ مقيمٍ.

لذلك سيتكلم في الحكمة التالية عن حقيقة الصلاة وثمرتها فقال:

الحكمة التاسعة عشرة بعد المائة

الصَّلَاةُ طَهْرَةٌ لِلْقُلُوبِ مِنْ أَدْنَسِ الذُّنُوبِ، واستفتاحُ لِبَابِ الْغُيُوبِ

شرح الحكمة

قال الشيخ: «الصَّلَاةُ طَهْرَةٌ لِلْقُلُوبِ» وهذه الثمرة الأولى من ثمرات الصلاة، فالصلاة تطهر القلب من الدنيا ومن التعلق بها، فلو كانت الدنيا في القلب شغلتك عن مقصودك وعن ربك ﷻ. والله ﷻ بين ذلك على لسان نبيه ﷺ فقال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ قَالُوا لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ قَالَ فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا»^(١) فالمواظبة على الصلاة مع مراعاة الآداب الظاهرة كالأكل الحلال، واللبس الحلال، والأرض التي يصلي عليها غير مغصوبة، وكيفية الصلاة صحيحة كما وردت عن النبي ﷺ، والآداب الباطنة كالخشوع فيها، والإخلاص ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٢) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ [المؤمنون: ١-٢]، والخشوع هو عدم الالتفات عما سوى الله ﷻ، إما بتذكر الخوف من عقابه وهذا للمبتدئين، أو بالنظر إلى جلاله وهذا للزهاد، أو بالنظر إلى الشوق إلى لقائه وهذا حال الواصلين لذلك قال النبي ﷺ: «وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(٣).

(١) رواه مسلم (١٥٥٤) والترمذي (٣١٠٧)،

(٢) النسائي (٣٩٥٦) عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حُبَّ إِلَى مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ».

فالصلاة مطهرة للقلوب، ولا يسجد الإنسان لله سجدة إلا رفعه بها درجة، وما دام الإنسان مواظبا على الصلاة فكأنه مواظبا على قرع الباب، ومن داوم قرع الباب يفتح له.

فتعمل من وراء الحجاب حتى يرق الحجاب، ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، ظلمات الشهوة، وظلمات النفس، وظلمات الهوى، وظلمات الأوهام الشيطانية ﴿أَوْ كُظِّلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْدِيرْهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، فالصلاة نور، وهي تخرجك من ظلمات الدنيا وظلمة الأكوان إلى نور الحق ﷻ، فوجب عليك أن تحافظ على الفرائض، وتكثر من النوافل والسنن حتى تنال محبة الله ﷻ.

ثم قال «واستفتاح لِبَابِ الْغُيُوبِ» عندما يطهر القلب ويرق الحجاب يفتح لك نافذة الغيب. وهذا ما قاله النبي ﷺ: «كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلْنِي لِأَعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِذَنَّهُ»^(١) فترى القدرة بعدما كانت مغطاة بالحكمة، وترى المكون بعدما كنت محجوباً عنه بالأكوان، فلا تحجب بآثار الأفعال عن الفاعل، ولا تحجب بآثار الصفات عن الموصوف، لا تحجب بشيء عن شيء، بل تراه في كل شيء ﷻ؛ لأنه الظاهر ليس فوقه شيء، وهو أقرب إليك من حبل الوريد من حيث البطون، وهو أظهر إليك من كل شيء؛ لأنه لا يحجبه شيء، فجعل الأكوان كالنقاب للحسنة

(١) سبق تخريجه.

والسحاب للشمس. ومن ثم فالصلاة استفتاح لباب الغيوب، فيرق بصره عن عالم الملك إلى الملكوت، ثم من عالم الملكوت إلى عالم المعاني، فيرى الحكم ويرى صفات الله ﷻ سارية في الأكوان، ويرى أنه لا فاعل إلا الله، ويرى أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ويرى أن كل شيء بأمر الله وتديره ﴿قُلْ إِنْ أَمَرَ كُلُّهُ لِيَّةً﴾ [آل عمران: ١٥٤].

الحكمة المشروطة بعد المانة

الصَّلَاةُ مَحَلُّ الْمُنَاجَاةِ وَمَعْدِنُ الْمُصَافَاةِ؛ تَتَّسِعُ فِيهَا مَيَادِينُ الْأَسْرَارِ، وَتُشْرِقُ فِيهَا شَوَارِقُ الْأَنْوَارِ. عِلْمٌ وَجُودُ الضَّعْفِ مِنْكَ فَقَلَّلْ أَعْدَادَهَا. وَعِلْمٌ أَحْتِيَاجَكَ إِلَى فَضْلِهِ فَكَثِّرْ أَمْدَادَهَا.

شرح الحكمة

«الصَّلَاةُ مَحَلُّ الْمُنَاجَاةِ» وهذه الثمرة الثانية من الصلاة بعد استفتاح الغيوب، فهي محل مناجاتك مع ربك، وما دمت مستمرا ومداوما على المناجاة فسيجيئك؛ لأنه قريب رحيم رؤوف ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، ولا شك أن الصلاة فعل المحسنين وهي محل المناجاة، والمناجاة لا تكون إلا بين الحبيب وحببيه، حتى أنه بعض الصالحين كان يقول: (والله لولا لذة قيام الليل لتمنيت الموت) يعني لا يرى في الدنيا لذة إلا وقت قيام الليل، لأنها لذة اللقاء بالحبيب وما أعظمها من لذة.

ثم قال الشيخ: «وَمَعْدِنُ الْمُصَافَاةِ» فلمَّا تكثرت المناجاة بخضوع وخشوع وإخلاص تحصل المصافاة، فيصفيك من كل أدران البشرية. فيغطي ذلك بعزه، ويغطي جهلك بعلمه، ويغطي عجزك بقدرته، ويغطي بأوصافه؛ لأنك دخلت إليه بذل العبودية.

ثم ذكر ثمرة أخرى من ثمرات الصلاة فقال: «تَتَّسِعُ فِيهَا مَيَادِينُ الْأَسْرَارِ» فالسالك إذا بدأ بالتحقق بصلاة الخاشعين اتسعت أمامه الأمور بمعانيها العالية، فتتسع ميادين الأفكار، فتظهر له حكمة الأمر الذي كان يضح منه ويضجر بمجرد دخوله في الصلاة، ولذا كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع للصلاة؛ لأنها قرة العين، وموضع المناجاة واللقاء بالحبيب.

ثم قال «وَتُشْرِقُ فِيهَا شَوَارِقُ الْأَنْوَارِ» وهذه ثمرة أخرى ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، والنبي ﷺ يقول: «الصَّلَاةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ»^(١) والأنوار هنا هي أنوار المعارف، وأنوار التمكين، والأنوار التي تزيل آثار أدران البشرية الحاجبة عن الله عز وجل، فتقشع السحاب عن شمس المعارف، فتصير الشمس ضحى لا سحاب معها. فإذا كانت الشمس ضحى لا سحاب معها فهل يبقى شيء غامض؟ فيتسع قلبه بالعلوم؛ لأنه يصير عالما بالأشياء على حقيقتها، مع معرفة مراد الله ﷻ منها، مع كمال الاستسلام والتسليم، فتجد أن قلبه اتسع ومعرفته اتسعت، فانقلب من

(١) رواه أحمد (٢٣٣٦٩) عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الطُّهُورُ سَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ قَالَ عَفَّانٌ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ يَمْلَأَنِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالصَّلَاةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ عَلَيْكَ أَوْ لَكَ كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايَعُ نَفْسَهُ فَمُؤَبِّقُهَا أَوْ مُعَقِّقُهَا».

النفس اللوامة إلى النفس المطمئنة فالنفس الراضية ثم النفس المرضية، وكلما اتسع كلما ارتقى، وكلما علم، وكلما رضي، فيصير مرضيا.

ثم قال «عَلِمَ وَجُودَ الضَّعْفِ مِنْكَ فَقَلَّلَ أَعْدَادَهَا» قلل أعدادها؛ لأنه خلقت للعبادة ولعمارة الأكوان، ومن رحمته أنه قلل أعدادها لكنه زود أمدادها، فهي خمسة في العدد خمسون في الأجر، فقال «وَعَلِمَ احْتِيَاجَكَ إِلَى فَضْلِهِ فَكَثَّرَ أَمْدَادَهَا» فالعدد قليل والمدد كبير.

وقد يعترض على كلامنا هذا معترض فيقول: أنا أصلي من سنين طويلة ولم أجد ما قاله الشيخ في هذه الحكمة، لذلك أجاب الشيخ على من يسأل هذا السؤال في الحكمة التالية فقال:

الحكمة الحادية والعشرون بعد المائة

مَتَى طَلَبْتَ عِوَضًا عَنْ عَمَلٍ، طُولِبَتْ بِوُجُودِ الصَّدَقِ فِيهِ، وَيَكْفِي الْمُرِيبَ وَجَدَانُ السَّلَامَةِ

شرح الحكمة

«مَتَى طَلَبْتَ عِوَضًا عَنْ عَمَلٍ» لو أردت هذه الثمرات التي ذكرها الشيخ في الحكمة السابقة على عملك وصلاتك فيجيبك الشيخ بقوله: «طُولِبَتْ بِوُجُودِ الصَّدَقِ فِيهِ» فهل كنت صادقاً في كل صلواتك السابقة حتى تطلب ثمرتها؟ وهل كنت صادقاً في عبادتك فتطلب الأنوار واتساع ميادين الأسرار، وتطلب حلاوة المناجاة ومطهرة القلب، وتطلب الوصول والدخول إلى حضرات القرب؟ لذلك قال «وَيَكْفِي الْمُرِيبَ وَجَدَانُ

السَّلَامَةِ» والمريب هو الذي يشك في نفسه ويقول: يكفيني من عبادتي أن يسلمني الله تعالى من العقاب، فالمريب يكفيه السلامة من العقاب. والشيخ يريد أن ينقلك من هذا المقام إلى مقام أعلى، فقال في الحكمة التالية:

الحكمة الثانية والمشرونة بعد المائة

لَا تَطْلُبْ عَوْضًا عَلَى عَمَلٍ لَسْتَ لَهُ فَاعِلًا، يَكْفِيكَ مِنَ الْجَزَاءِ لَكَ عَلَى الْعَمَلِ أَنْ كَانَ لَهُ قَابِلًا

شرح الحكمة

«لَا تَطْلُبْ عَوْضًا عَلَى عَمَلٍ لَسْتَ لَهُ فَاعِلًا» لأنك عدم في الحقيقة ولا حول لك ولا قوة إلا بمولاك، والله تعالى هو الذي خلقك وقواك ورباك، وخلق العمل فيك، فهو الفاعل على الحقيقة، فكيف تطلب العوض على عمل لم تقم به أصلاً؟، فالله تعالى هو الفعال لما يريد، ومن رحمته بنا خلق الفعل على جوارحك ونسبه لك تشريفاً.

ثم قال الشيخ: «يَكْفِيكَ مِنَ الْجَزَاءِ لَكَ عَلَى الْعَمَلِ أَنْ كَانَ لَهُ قَابِلًا» وهذا من عظيم فضله ومنته عليك أن قبل عملك، وفي قبول العمل بشارة لك؛ لأنه سبحانه القائل ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، فيكفي أن قبل عملك، وأن قبلك له فاعلاً.

وهذا أيضاً تشريف من الله تعالى لك، فاخترارك من بين عباده وجعلك طائعاً له، لذلك كان النبي ﷺ يخبرنا عن تسبيح الملائكة الذين يقولون «سُبْحَانَكَ مَا عَبْدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ»^(١).

(١) رواه الحاكم في المستدرک (٨٩٦٥) عَنْ سَلْمَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «يُوضَعُ الْمِيزَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

فتبرى من حولك وقوتك فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ثم أشار المصنف لهذا التشريف فقال في الحكمة التالية:

الحكمة الثالثة والعشرون بعد المائة

إِذَا أَرَادَ أَنْ يُظْهَرَ فَضْلُهُ عَلَيْكَ خَلَقَ وَنَسَبَ إِلَيْكَ

شرح الحكمة

«إِذَا أَرَادَ أَنْ يُظْهَرَ فَضْلُهُ عَلَيْكَ خَلَقَ» أي خلق الذكر ونسبه إليك فكنت ذاكرا، وخلق الصلاة على جوارحك فكنت مصليا، وخلق النفع على يديك للناس فكنت للناس نافعا والنافع هو الله، وخلق الشفاء على يديك فيقول الناس إِنَّ فَلَانًا كَانَ سَبِيًّا فِي شِفَاءِ فَلَانٍ وَاللَّهُ ﷻ هُوَ الشَّافِي عَلَى الْحَقِيقَةِ، وهكذا في جميع أعمال البر التي تظهر عليك مدة حياتك. فما أنت إلا آلة في الأكوان، يُظهر الله ﷻ فيها الأفعال وليس لك اختيار على الحقيقة إلا بقدر التكليف ؛ لأنه هو الذي يفعل ما يشاء ويختار.

قال «إِذَا أَرَادَ أَنْ يُظْهَرَ فَضْلُهُ عَلَيْكَ خَلَقَ وَنَسَبَ إِلَيْكَ» ومثاله كولدك فأنت لم تخلقه ولكنه نسب إليك، والخالق هو الله تعالى وهو القائل ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]. فخلق النعمة فيك ولكن لما يريد أن يدخلك الجنة سيقول ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، فخلق

فَلَوْ وَزِنَ فِيهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ لَوَسِعَتْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ لِمَنْ يَزِنُ هَذَا؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: سُبْحَانَكَ مَا عَبْدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، وَتُوضَعُ الصِّرَاطُ مِثْلَ حَدِّ الْمُوسَى فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: مَنْ تُجِيزُ عَلَيَّ هَذَا؟ فَيَقُولُ: مَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي، فَيَقُولُ: سُبْحَانَكَ مَا عَبْدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ».

فيك العمل ونسبه إليك تكريماً، والنبى ﷺ يقول: «مَنْ فَرَجَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً فَرَجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَتَهُ، وَمَنْ سَتَرَ عَلَى مُؤْمِنٍ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَلَا يَزَالُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي عَوْنِهِ مَا دَامَ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»^(١) والذي خلق فيك المعونة وجعلك تفرج الكرب هو الله تعالى، ونسبه إليك تشريفاً واكتساباً، وهو سبحانه فارح الكرب حقيقة خلقاً وإيجاداً.

فقال «إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق» فيك وعلى جوارحك «ونسب إليك» ولولا ذلك فلا نهاية لنقصك لذلك قال في الحكمة التالية:

الحكمة الرابعة والعشرون بعد المائة

لَا نِهَآيَةَ لِمَدَامَكَ إِنْ أَرْجَعَكَ إِلَيْكَ، وَلَا تَفْرُغْ مَدَائِحُكَ إِنْ أَظْهَرَ جُودَهُ عَلَيْكَ

شرح الحكمة

«لَا نِهَآيَةَ لِمَدَامَكَ إِنْ أَرْجَعَكَ إِلَيْكَ» لأنك جهول وضعيف وذليل وفقر ولا تملك شيئاً ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

«لَا نِهَآيَةَ لِمَدَامَكَ إِنْ أَرْجَعَكَ إِلَيْكَ» أي إن وكلك لنفسك يكلك إلى حيث الفقر والذلة والضعف والعجز، فيذمك الناس على تلك الصفات.

ثم قال: «وَلَا تَفْرُغْ مَدَائِحُكَ إِنْ أَظْهَرَ جُودَهُ عَلَيْكَ» أي لو غطى نواقصك بكمالاته فلا يكف الناس عن مدحك لظهور كمالاته فيك.

(١) البيهقي في شعب الإيمان (٧٢٠٩)

قال: «وَلَا تَفْرُغْ مَدَائِحُكَ إِنْ أَظْهَرَ جُودُهُ عَلَيْكَ» فلو غطى جهلك بعلمه فينسب لك العلم. ولو غطى فقرك وذلك بعزه وغناه فينسب لك العز والكرم والغنى فتصير ممدوحا من الخلق. لذلك كان النبي ﷺ يقول «وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرَفَةَ عَيْنٍ وَلَا إِلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ»^(١) فسلم أمرك لله ﷻ وأظهر الافتقار له حتى يغطيكَ بصفاته.

الحكمة الخامسة والعشرون بعد المائة

كُنْ بِأَوْصَافِ رَبِّهِ تَهْتَدِي مَتَلَقًا، وَبِأَوْصَافِ عِبَادَتِكَ مُتَحَقِّقًا

شرح الحكمة

فالله ﷻ له أوصاف الكمال، وله أوصاف الجمال، وله أوصاف الجلال، وبالجلال والجمال والكمال يتم كمال التقديس ﷻ فعليك أن تتعلق بأوصاف الجمال والجلال حتى تكمل في الظاهر. ولا بد أن تتحقق بأوصاف العبودية في الظاهر حتى تكمل في الباطن. والعبودية أن تستشعر بأنك عبد وليس لك وجود ذاتي، بل أنت قائم بالله ﷻ. فإذا تحققت بأنه الذي أوجدك وخلقك وأعطاك وهداك، وهو الذي قواك، فقد تحققت أنه لا حول ولا قوة إلا به.

(١) الطبراني في المعجم الصغير (٤٦٢) عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ حَتَّى إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاتَّبَعْتُهُ فَقَالَ انْطَلِقْ بِنَا حَتَّى نَدْخُلَ عَلَى فَاطِمَةَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ فَدَخَلْنَا عَلَيْهَا فَإِذَا هِيَ نَائِمَةٌ مُضْطَجِعَةٌ فَقَالَ يَا فَاطِمَةُ مَا يُبْنِمُكِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ قَالَتْ مَا زِلْتُ مِنْذُ الْبَارِحَةِ مَحْمُومَةً قَالَ فَأَيْنَ الدُّعَاءُ الَّذِي عَلَّمْتِكِ قَالَتْ نَسِيتُهُ فَقَالَ قُولِي يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ أَصْلَحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرَفَةَ عَيْنٍ وَلَا إِلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ.

ولذا كان سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: (أعجب من الإنسان الذي تميته شرقة وتقلقه بقة وتنتنه عرقه كيف يتكبر).

فلا بد أن تتحقق بأوصاف عبوديتك في الظاهر ليحققك بأوصاف ربوبيته في الباطن. فإذا تحققت في الظاهر بالذل غطاك في الباطن بالعز فلا تستعز إلا به. وإذا تحققت في الظاهر بكمال العجز غطاك في الباطن بكمال القدرة فتواجه الأكوان دون خوف أو تردد.

ولذلك قال سبحانه: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، فوصفه بالعبودية؛ لأنه أكثر الناس تحققاً بمقامات العبودية. فلما تحقق بها كاملاً صار في باطنه أقوى الخلق، وصار في باطنه أعز الخلق، وصار في باطنه أرفع الخلق، وصار سيد الخلق أجمعين عليه السلام ظاهراً وباطناً.

وقال الله تعالى عن سيدنا أيوب عليه السلام وهو متحقق بالعبودية في الظاهر حيث أظهر الضعف ومتحقق بالربوبية بالباطن؛ لأنه راضٍ بقضاء الله تعالى ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ دَاوَى رَبُّهُ أَفَى مَسْنَى الضُّرِّ وَانْتَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، فلما تحقق بالعبودية وتعلق بالربوبية استجاب الله تعالى له فقال ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤]، فشافاه الله من جميع آلامه، وعوضه عن خسارة ماله وأهله. أما من ادعى صفات الربوبية عوقب بالطرد والسخط كفرعون ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، فقال الله ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْأَخْزَةِ وَالْأُولَى﴾ [النازعات: ٢٥] ومعنى الآخرة قوله ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ ومعنى الأولى قوله ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، فصار عبرة لمن يعتبر.

فكلما كنت عبداً كلما كان لك رباً، وعلى قدر عبوديتك بقدر ربوبيته لك. وكلما تحققت بأوصاف بالعبودية كلما سترك بأنوار الربوبية، حتى تصير الأكوان تنفعل لك كما كانت تنفعل للعبء الأكمل ﷺ الذي أشار للقمر فانشق نصفين، وأشار إلى الشجرة فجاءت تمشي إليه على ساق بلا قدم، فصارت الأكوان تخدمه لكمال تحقيقه بالعبودية؛ لأن الله خلق الأكوان لك وخلقك له قال تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] وقال سبحانه ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) [الذاريات: ٥٦]

الحكمة السادسة والعشرون بعد المائة

مَنَعَكَ أَنْ تَدَّعِيَ مَا لَيْسَ لَكَ مِمَّا لِلْمَخْلُوقِينَ، أَفِيحُ لَكَ أَنْ تَدَّعِيَ وَصْفَهُ وَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ

شرح الحكمة

«مَنَعَكَ أَنْ تَدَّعِيَ مَا لَيْسَ لَكَ مِمَّا لِلْمَخْلُوقِينَ» منعك أن تقول (أنا) عالمٌ ومالك وعارف إلى آخر الصفات التي تخص المخلوقين لما فيها من رائحة التكبر والكبرياء، فكيف يبيح لك أن تدعي صفات الربوبية؟! ﴿أُوتِيَتْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، استعز بنفسه، وافتخر بنسبه، واستغنى بماله، وتعالى بمنصبه، ولكنه لم يستعز بالله ﷻ وينسب له ما أوتيته من نعم، فأذله الله ﷻ وخسف به وبداره وماله الأرض.

فراقب حالك مع الله ﷻ وإياك أن تدعي وصفا لا يكون إلا لله ذاتا وإن كان لك من باب التفضل فقط.

و(الأنا) مذهب شيطاني إبليسي، أما مذهب الصالحين من عباد الله هو الاعتراف بالذنوب والجهل والمصارعة في التوبة ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وهذا حال سيدنا آدم عليه السلام وهو نبي مكرم، فما بالنا ونحن عبيد لا خصوصية فينا.

ولذلك نهى الله ﷻ الإنسان أن يمين على أخيه قال: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَىٰ ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣]، فالمال على الحقيقة لله ﷻ، والملك له، وإن جعلك تتصدق فمن فضله عليك، فلا تمن على خلق الله تعالى فهو القائل ﴿وَلَا تَمَنَّ تَسْتَكْبِرُ﴾ [المدثر: ٦]؛ لأنك إن فعلت ذلك فقد نازعت الله تعالى في صفاته، فهو المنان الذي يمين على خلقه، ولقد قال النبي ﷺ في الحديث القدسي «الكبرياء رِذَائِي، وَالْعِظْمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»^(١).

قال «أَفِيئُحُ لَكَ أَنْ تَدَّعِيَ وَصْفَهُ وَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ» فتأدب مع الله ﷻ، وانسب الفضل له ولا ترك نفسك ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢].

ويحذرنا الله تعالى من تزكية النفس والاستعزاز بها؛ لأن هذه طبيعة الإنسان، والمؤمن يجاهد نفسه ويتعلق بربه ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ ۖ إِنَّ رَأَاهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦-٧]، استغنى بنفسه فطغى ونسي ربه فقال ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال ﴿أَوَيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨].

فإذا ادعى الإنسان الكمال في أمر لنفسه أخزاه الله تعالى. وإذا تواضع لربه رفعه الله، لذلك قال العارفون بالله: (كلما نزلت بنفسك أرضا أرضا،

(١) أبو داوود (٤٠٩٢)، وابن ماجه (٤٣١٤).

كلما رفعك في باطنك سماء سماء)، واقتدِ بنبيك سيدنا محمد ﷺ الذي عُرض عليه أن يكون ملكاً نبياً أو عبداً نبياً، فاختار أن يكون عبداً نبياً.

الحكمة السابعة والعشرون بعد المائة

كَيْفَ تُخْرِقُ لَكَ الْعَوَائِدُ وَأَنْتَ لَمْ تَخْرِقْ مِنْ نَفْسِكَ الْعَوَائِدَ.

شرح الحكمة

خرق العوائد كما يعتقد الناس هي الكرامات الحسية التي يشاهدها الناس بالعيان، ويعتقدون أن علامة الولاية هي أن تخرق لك العوائد، وهذا خطأ شديداً؛ لأنه ليس كل من تخرق له العوائد من الأولياء، فقد تكون استدراجاً.

وهناك الكرامة المعنوية التي هي الاستقامة على الطريق، ونيل الرضا من الله تعالى، والتمسك بالسنة النبوية المطهرة. والكرامة المعنوية أدق وأعلى وأفضل من الكرامة الحسية.

قال الشيخ: «كَيْفَ تُخْرِقُ لَكَ الْعَوَائِدُ» أي الأمور التي تخرق بالكرامة «وَأَنْتَ لَمْ تَخْرِقْ مِنْ نَفْسِكَ الْعَوَائِدَ».

فيا أيها المريد لا يصلح لك اسم المريد إلا بعد ترك الإرادة. وترك الإرادة هي كمال التسليم لله ﷻ. فإذا فعلت ذلك صرت مريداً لرب العالمين، فلا تريد الكرامة والولاية والمقامات بل تريد رب العالمين.

«كَيْفَ تُخْرِقُ لَكَ الْعَوَائِدُ وَأَنْتَ لَمْ تَخْرِقْ مِنْ نَفْسِكَ الْعَوَائِدَ» اخرج عاداتك من أجل الله ﷻ يخرق لك عادات الأكوان من أجلك.

ابداً بنفسك أولاً بالمجاهدة، والصبر من أجل الله تعالى، والترقي في مقامات النفس، حينئذ تخرق لك العوائد لذلك قال النبي ﷺ «مَا تَقَرَّبَ إِلَى عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»^(١)

فتصير تنظر بالله، وتسمع بالله، وتمشي بالله، وتدعو فيستجاب لك. وهذا كله بعد أن تجاهد الشهوة، فتغلب صفات الروح على صفات الجسد، فتتحقق بخرق العوائد. لأن الروح إذا انتصرت أمدتك بصفاتها، فتحملك حيث شئت في ملك الله وملكوته، فتطوى لك المسافات ويمتد لك الزمان، فتصير بالله ﷻ، ولذلك أهل الجنة لا ينامون ولا يموتون ولا يتعبون ويتنقلون كما يشاءون وكل هذا لغلبة الروحانية.

ومن ضمن تعريفات التصوف: ألا تكون لك عادة، وهذا هو خرق العوائد.

قال العارفون: (لو رأيت الرجل يسير على الماء، ويركب الهواء فانظروا إلى عمله. فإن كان مطابقاً للكتاب والسنة فهي له كرامة، وإلا فهي استدراج من الشيطان) لهذا قلنا أن الكرامة الحسية ليست علامة على الولاية. فيا أيها المريد إن أردت الكرامات الحسية وأنت على نهج النبي ﷺ فاخرق في نفسك العوائد الحسية، قلل الطعام، وقلل المنام، وقلل الكلام،

(١) البخاري (٦٥٨١).

وقل الاختلاط بالأنام، مع التعلق بالله تعالى تحصل لك خرق العوائد الحسية، ولا تشغل بالكرامة الحسية بل اطلب الكرامة المعنوية.

فالخوارق الحسية تنتهي في وقتها، أما الخوارق المعنوية أفضل عند الولي من جبال من خرق العوائد الحسية.

فهلا خرقت عوائد نفسك من أجل الله ﷻ على سنة النبي ﷺ، والله ﷻ أراد لنا في العبادات أن نخرق العوائد، فالصيام مثلاً ما هو إلا خرق للعوائد فيغير لك عادات الطعام والشراب والنوم، فيخرق لك العوائد بلطف، وهذا في شهر واحد في السنة ليريك اللذة والقرب في خرق العوائد. لأنك بخرق العوائد تجد في العبادة في هذا الشهر فما بالك لو خرقت العوائد في عمرك كله.

وأيضاً أمرك بخرق عوائد الحظ والشهوة والطمع فيما أيدي الناس فقال ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١]، حتى تخرق عادة الحرص والشره فيحل محلها القناعة والرضا بالموجود.

وخرق عادة الغضب والانتقام بالعفو والتسامح، فقال سبحانه ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

فوجب عليك أيها السالك أن تخرق العوائد المعنوية كلها، وكن في القناعة والرضا متمكناً، وكمال المحبة لمولائك متحققاً، مع الإحسان لمن أساء إليك، يفتح لك الله ﷻ أبواب المعارف كلها.

الحكمة الثامنة والعشرون بعد المائة

مَا الشَّأْنُ وَجُودُ الطَّلَبِ، إِنَّمَا الشَّأْنُ أَنْ تُرْزَقَ حُسْنَ الأدبِ

شرح الحكمة

الشيخ هنا يتكلم عن أدب الأولياء مع الله ﷻ وعن أدب المسلمين مع الله؛ لأن المسلمين مطالبون بالدعاء والتذلل وهذا حالهم، فهذه آداب الخواص من أهل المعرفة. «مَا الشَّأْنُ وَجُودُ الطَّلَبِ» أي السؤال والدعاء «إِنَّمَا الشَّأْنُ أَنْ تُرْزَقَ حُسْنَ الأدبِ» أي ليس المهم وجود الدعاء، لكن المهم أن تتحقق بحقيقة الدعاء، وهي التذلل والاستسلام لمراد الله تعالى منك، وإظهار ذل العبودية، ولذا كان شأن المحققين أن في الطلب سوء أدب، أي عدم الرضا بما أقامك فيه.

فالنبي ﷺ لكمال أدبه مع ربه، ولكمال رضاه عن ربه ﷻ كان الله تعالى يعطيه قبل أن يطلب ﴿قَدْ زَيَّ تَقَلُّبُ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُؤَيِّنَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: ١٤٤]، فكلما تحققت بالأدب كلما حقق طلبك قبل أن تسأله بالعبرة.

الأعرابي لما دخل على النبي ﷺ وهو يخطب الجمعة فقال له يا رسول الله استسق لنا فقد هلك الضرع والزرع. فأشار النبي ﷺ إلى السماء فأمطرت دون أن يتكلم أو يصلي صلاة الاستسقاء، فطاوعته الأكوان لكمال الأدب.

وانظر إلى حال سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما ألقوه في النار وجاءه سيدنا جبريل عليه السلام وهو سبب قوي من الله تعالى قال له: (إن الله أرسلني إليك إن كان لك حاجة) فقال: (أما إليك فلا، وأما إليه فعلمه بحالي يغني عن سؤالي) لذا كان العارفون بالله ينشغلون بالثناء على الله تعالى عن الدعاء والطلب فتراهم يقولون (إلهي كيف أترجم لك بمقالي وهو منك برز إليك، أم كيف أشكو إليك حالي وهو لا يخفى عليك) والنبى ﷺ يقول في الحديث القدسي: «مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذَكَرَنِي عَنْ مَسْأَلَتِي أُعْطِيَ أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ»^(١) لأن الطلب فيه حظ النفس والله تعالى ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

قال سيدنا يحيى بن معاذ^(٢) رحمه الله دخلت على أبي يزيد البسطامي رحمته الله وهو قائم يصلي في الليل ويقول: (يا ربي هناك من دعاك وعبدك فطويت له الأرض، وهناك من دعاك وأجبتة فقلبت له الأعيان، وهناك من

(١) الترمذي (٣١٧٦) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذَكَرَنِي عَنْ مَسْأَلَتِي أُعْطِيَ أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ وَفُضِّلَ كَلَامُ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ».

(٢) أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي الواعظ، أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف، قال أبو طالب المكي في قوت القلوب، والغزالي في الإحياء، والقزويني في آثار البلاد وأخبار العباد، ومنه نقلت: اتصل (يعني يحيى بن معاذ) بزين العارفين أبي يزيد البسطامي، فرأى من حالاته ما تحير فيها، فعلم أن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء، فلازم خدمته وذكر عنه حكايات عجيبة. قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء (مِنْ كِبَارِ الْمَسَائِخِ، لَهُ كَلَامٌ جَيِّدٌ، وَمَوَاعِظُ مَشْهُورَةٌ. وَعَنْهُ قَالَ: لَسْتُ أَبْكِي عَلَى نَفْسِي إِنْ مَاتَتْ، إِنَّمَا أَبْكِي عَلَى حَاجَتِي إِنْ فَاتَتْ) قال الخطيب البغدادي في «المتفق والمفترق»: كان حكيماً زمانه، ودون الناس كلامه، وجمعوا ألفاظه. وقال السُّلَمي في «طبقات الصوفية»: أحد الأوتاد، وكان أوحد وقته في فنه.. توفي سنة: ٢٥٨ هـ الموافق لسنة: ٨٧٢ م.

دعائك وقبلته فصار يطير في الهواء، وهناك من دعائك فأجبتة وصار يسير على الماء، وها أنا أدعوك لا لذاك أبداً، ولكن أدعوك لذاتك أنت يا الله لا أرضى بك بدلاً أو عنك بدلاً) فلما انتهى أبو يزيد من صلاته واكتشف وجوده قال له: (منذ متى أنت هنا) قال: (منذ فترة) قال يحيى: (أريد أن تعطني) قال: (يا بني إني خيرت وسئلت، وقيل لي ماذا تريد فقلت أريد ألا أريد) قال له: (يا أستاذ كنت طلبت المعرفة) قال: (والله يا بني غرت أن يعرفه سواي حتى نفسي) ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

ولذا كان يرى العلماء أن الأدب هو ترك السؤال مع الاعتراض أو الضجر وقلة الصبر، ولكن إذا كان السؤال مع كمال الرضا بما أقامه الله فيه فهذا غير مذموم؛ لأن النبي ﷺ كان يسأل ربه تذلاً للقيام بحقوق العبودية؛ ولأن مقام العبودية يقتضي السؤال، ومقام الربوبية يقتضي كمال الرضا بما أقامك فيه، فكان النبي ﷺ يعطي للمقامين حقهما، حق العبودية فكان عبداً لله فيسأل ولكن مع كمال الرضا في باطنه بما أقامه الله فيه غير متعجل للإجابة أبداً.

«ما الشأن في وجود الطلب ولكن الشأن أن ترزق حسن الأدب»
وحسن الأدب هو كمال التسليم والاستسلام.

ومن آداب الدعاء أن يكون مطعمك حلالاً، وملبسك حلالاً،
ومسكنك حلالاً، وأن تكون راضياً بما أقامك الله فيه.

ومن كمال الأدب ألا تدعو بالشر والقطيعة، ولا تتعجل الإجابة أو
تأس منها.

الحكمة التاسعة والعشرون بعد المائة

مَا طَلَبَ لَكَ شَيْءٌ مِثْلُ الْاضْطِرَارِّ، وَلَا أَسْرَعَ بِالْمَوَاهِبِ إِلَيْكَ مِثْلُ الذَّلَّةِ
وَالْاِفْتِقَارِ

شرح الحكمة

وهو سبحانه القائل ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢].

«مَا طَلَبَ لَكَ شَيْءٌ مِثْلُ الْاضْطِرَارِّ» والاضطرار هو كمال الافتقار والتذلل إلى الله ﷻ، وهذا هو اضطرار الأولياء ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢].

فإذا رفعت يديك للدعاء فيجب أن تستشعر أنه ليس لك حول ولا قوة، ولا تذكر لنفسك عملاً صالحاً، وتسال ربك به. فهذا من كمال الذلة والافتقار، فلا تعتمد على ما قدمت من أعمال، وتعتقد أنها سبب لقبول الدعاء، بل تذلل بين يدي مولاك كالعبد المذنب الذي يطلب الصفح عن تقصيره.

قال «وَلَا أَسْرَعَ بِالْمَوَاهِبِ إِلَيْكَ مِثْلُ الذَّلَّةِ وَالْاِفْتِقَارِ» لا يسرع لك بالمواهب إلا مع كمال الذلة والانكسار؛ لأن فيها موضوع لا حول ولا قوة إلا بالله.

والله تعالى يقول ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ [التوبة: ٦٠]، فإذا افتقرت إلى الله ﷻ يتصدق عليك؛ لأنه الغني وأنت الفقير ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، لذلك قال الحبيب المحبوب ﷺ: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ^(١) مسكين لربه لا للخلق؛ لأن المسكنة للخلق ذلة والمسكنة لله عزة.

ويمدك بالنصر أيضا ما دمت فقيرا مسكينا متذللا بين يديه سبحانه ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، متذللين لله تعالى معتمدين عليه، لا معتمدين على عدتهم وعددهم، بل على الله وحده ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ [التوبة: ٦٠]، ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَنَاصِبَكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ. وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [الأفقال: ٢٦]، فكلما كنت متذللا إلى الله لا إلى الخلق كلما أسرع لك بالمواهب.

الحكمة الثلاثون بعد المائة

لَوْ أَنَّكَ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ فَنَاءٍ مَسَاوِيكَ وَحَوْ دَعَاوِيكَ لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ أَبَدًا؛ وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوصَلَكَ إِلَيْهِ غَطَّى وَصَفَكَ بِوَصْفِهِ، وَنَعَتَكَ بِنَعْتِهِ، فَوَصَلَكَ إِلَيْهِ بِمَا مِنْهُ إِلَيْكَ لَا بِمَا مِنْكَ إِلَيْهِ

(١) الترمذي (٢٥٢٦) عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَتْ عَائِشَةُ لَمْ يَأْ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ إِنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَانِهِمْ بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا يَا عَائِشَةُ لَا تَرُدِّي الْمَسْكِينِ وَلَوْ بَشَقَّ تَمْرَةً يَا عَائِشَةُ أَحْبَبِي الْمَسَاكِينِ وَقَرَّبِيهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ يُقَرِّبُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

شرح الحكمة

الله ﷻ منزّه عن المكان والزمان، والوصول إليه في مصطلح العارفين هو الوصول إلى كمال المعرفة بالله ﷻ ﴿فَأَيْنَمَا تُولَوْنَ فَنُجِبْهُمْ وَجْهَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، والمعرفة بأن الله بكل شيء محيط، وأن الله على كل شيء قدير، وأنه أقرب إليك من حبل الوريد، وأنه لطيف بعباده، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ويتحقق بمعنى لا حول ولا قوة إلا بالله، فالتحقق بهذه المعاني هو الوصول عند السادة الصوفية. فالسفر قلبياً معنوياً وليس حسياً فيه انتقال؛ لأن الله تعالى أقرب إليك منك، وأنت الذي بعدت عنه بانشغالك بشهواتك وغفلاتك. ومن جهل العبد أنه يظن أنه لا يصل إلى الله إلا بعد أن تنقضي كل مساويه فيصير كاملاً فهذا لا يصل أبداً، لأنه طالما أنت عبد ففبك مساوئ ونقائص، وهذا حال العبد.

قال الشيخ: «لَوْ أَنَّكَ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ فَنَاءٍ مَسَاوِيكَ وَمَحْوِ دَعَاوِيكَ لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ أَبَدًا» «لأنه في الحقيقة إذا عرفت الله ﷻ اضمحل كل شيء، ولا يبقى شيء حتى نفسك، كان الله ولم يكن شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان، فكل ما سوى الله موجود به لا بذاته، فإذا وصلت إلى الله ﷻ وجدت أنه لا موجود بحق إلا الله عز وجل، فتضمحل أنت حتى عن دعاويك وعن مساويك كلك تضمحل بالكلية ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصاص: ٨٨].

«لَوْ أَنَّكَ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ فَنَاءٍ مَسَاوِيكَ وَمَحْوِ دَعَاوِيكَ لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ أَبَدًا» فلا يصل الإنسان إلا بعد موته. وهناك من يصل إلى هذه الحقائق من الأولياء وهم أحياء، فالله تعالى يوصل أوليائه بعد أن يغطي مساوئهم بكماله.

«وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوَصِّلَكَ إِلَيْهِ عَطَىٰ وَصَفَكَ بِوَصْفِهِ، وَنَعَتَكَ بِنَعْتِهِ، فَوَصَّلَكَ إِلَيْهِ بِمَا مِنْهُ إِلَيْكَ، لَا بِمَا مِنْكَ إِلَيْهِ» أي ستر جهلك بعلمه فعلمك ﴿وَعَلَّمَكْ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، وستر فقرك بغناه فصرت مستغنٍ عن كل شيء بالله ولا تفتقر لأحد أبداً من الخلق، لأنه ستر فقرك إلى كل شيء بغناه عن كل شيء، وستر اعتمادك على غيره باعتمادك عليه، وستر حرصك على الدنيا بزهدك فيها. فلا تصل إلا برحمته ﷻ، فيجبر النقص الذي فيك فتدخل عليه بنقصك لكنه مستور بستر الله تعالى وفضله.

قال: «وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوَصِّلَكَ إِلَيْهِ عَطَىٰ وَصَفَكَ بِوَصْفِهِ، وَنَعَتَكَ بِنَعْتِهِ، فَوَصَّلَكَ إِلَيْهِ بِمَا مِنْهُ إِلَيْكَ، لَا بِمَا مِنْكَ إِلَيْهِ» ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَنَّا﴾ [الحجرات: ١٤]، نسبوا الإيمان لأنفسهم لجهلهم ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، في الظاهر ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، يحسبون أنهم وصلوا إلى الله بما منهم إليه.

فإذا كان الإنسان في حقائقه دعاوى، فما بالك بدعاويه وادعائه بما ليس فيه ولا منه «فوصلك إليه بما منه إليك» بكمال نعمته ومنتته على خلقه فهو الذي يهدي من يشاء ﴿يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، «فهو منه إليك لا بما منك إليه» فالوصول إلى الله بالمعرفة، وهذه جنة المعارف، وجنة المعارف هي جنة الأولياء الذين قالوا فيها (لو عرفها الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيف).

أما جنة الزخارف والتي فيها ما لا عين رأت ولا إذن سمعت ولا خطر على قلب بشر في الآخرة لأهل الجهاد الأصغر، إنما أهل الجهاد

الأكبر لهم جنة المعارف قبل جنة الزخارف، وجنة المعارف أعلى؛ لأن ذرة من المعارف تعدل جبلاً من الزخارف.

فإذا وصلك إليه فاعلم أنك وصلت به إليه لا بما صدر منك إليه، لأن كل ما صدر منك ناقص لا يليق بحضرته تعالى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

الحكمة الحادية والثلاثون بعد المائة

لولا جميل ستره لم يكن عمل أهلاً للقبول

شرح الحكمة

«لولا جميل ستره» فلا تعتمد على عملك، فلو رفع الله تعالى ستره عنك لكشف لك أن عملك ناقص وفساد وليس أهلاً للقبول، فلا تعتمد على عملك.

قال الشيخ: «لولا جميل ستره لم يكن عمل أهلاً للقبول» فقد تكون أعمالك ملطخة بسوء الأدب والرياء والعمل من أجل الناس، فسترها الله ﷻ ليقبلها. لذلك لا ندخل الجنة بعملنا كما أخبرنا النبي ﷺ بل برحمته وستره. فالعبد مقامه النقص ولا يصدر منه الكمال أبداً. فاطلب من الله الستر في كل أحوالك في الطاعة والمعصية سواء، وليس في حال المعصية فقط، ولذلك يقول في الحكمة التي بعدها:

الحكمة الثانية والثلاثون بعد المائة

أنت إلى حِلِّهِ إِذَا أَطَعْتَهُ أَخْرَجُ مِنْكَ إِلَى حِلِّهِ إِذَا عَصَيْتَهُ

شرح الحكمة

أغلب الناس يتذللون إلى الله تعالى في حال المعصية والضييق، ويطلبون من الله تعالى أن يغفر لهم ويفرج عنهم ﴿أَمِنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، ولكنهم يغفلون عن هذا الاضطرار في حال الطاعة؛ لأنهم يستشعرون بالرضا عن الطاعة فلا يفتقرون إلى الله وهذا جهل كبير.

ولذلك يقول سيدنا أبو الحسن الشاذلي رحمته الله (اللهم اجعل سيئاتنا سيئات من أحببت، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت) لأنه لا سيئة مع حب الله ﷻ، ولقد قال النبي ﷺ: «لَعَلَّ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»^(١)، فيجب أن تتحقق بالعبودية

(١) البخاري (٣٠٤٤) حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ سَمِعْتُهُ مِنْهُ مَرَّتَيْنِ قَالَ أَخْبَرَنِي حَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَافِعٍ قَالَ سَمِعْتُ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرُ وَالْمُقَدَّادُ بْنُ الْأَسْوَدِ قَالَ انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخَ فَإِنَّ بِهَا طُعِينَةً وَمَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا فَانْطَلِقُوا تَعَادَى بَنَّا حَيْلُنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الرَّوْضَةِ فَإِذَا نَحْنُ بِالطُعِينَةِ فَقُلْنَا أَخْرِجِي الْكِتَابَ فَقَالَتْ مَا مَعِيَ مِنْ كِتَابٍ فَقُلْنَا لَتُخْرِجِي الْكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا فَاتَيْنَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا فِيهِ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أَنَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِعُضْ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَا حَاطِبُ مَا هَذَا قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ إِنِّي كُنْتُ أَمْرًا مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا وَكَانَ مِنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ فَأَحْبَبْتُ إِذْ قَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عَنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا وَلَا ارْتِدَادًا وَلَا رِضًا بِالْكَفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَقَدْ صَدَقَكُمْ قَالَ عَمْرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عَنْقَ هَذَا الْمُنَافِقِ قَالَ إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ قَالَ سُفْيَانُ وَأَيُّ إِسْنَادٍ هَذَا.

والذل والافتقار وأنت في حال الطاعة حتى يتطهر القلب من الأمراض الباطنة، فلا تعتمد على نفسك، ولا على عملك، بل تعتمد على توفيق الله ورحمته وحلمه. وانظر إلى حال النبي ﷺ مع كمال عبوديته وعمله يقول: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» فلما كان أفقر العباد لمولاه صار أرفع الخلق وأعلاهم منزلة، فمن تواضع لله رفعه، فأرسله رحمة للعالمين، وصار سيد ولد آدم، وملكه الدنيا والآخرة والجنة.

الحكمة الثالثة والثلاثون بعد المائة

السَّتْرُ عَلَى قِسْمَيْنِ: سَتْرٌ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَسَتْرٌ فِيهَا؛ فَالْعَامَّةُ يُطْلَبُونَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى السَّتْرُ فِيهَا خَشْيَةً سُقُوطِ مَرْتَبِهِمْ عِنْدَ الْخَلْقِ، وَالْخَاصَّةُ يُطْلَبُونَ السَّتْرَ عَنْهَا خَشْيَةً سُقُوطِهِمْ مِنْ نَظَرِ الْمَلِكِ الْحَقِّ

شرح الحكمة

«السَّتْرُ عَلَى قِسْمَيْنِ: سَتْرٌ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَسَتْرٌ فِيهَا» الستر في المعصية مطلب العوام، والستر عن المعصية مطلب الخواص «فالعامَّة يُطْلَبُونَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى السَّتْرُ فِيهَا خَشْيَةً سُقُوطِ مَرْتَبِهِمْ عِنْدَ الْخَلْقِ» وهم في حال المعصية يطلبون من الله تعالى أن لا يفضحهم فيسقطون من أعين الخلق، فجعلوا نظر الخلق إليهم أشد احتياطاً من نظر الحق، فهم يخشون من الخلق أكثر من الحق ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]. وهذا حال الضعفاء من عباد الله، فهم يرتكبون الذنب ويطلبون من الله أن يسترهم من عيون الخلق.

لكن العارفون بالله لا ينظرون إلى الخلق، بل إلى الحق فهم متعلقون به
ﷺ، فحيائهم من مولا هم أشد من حيائهم من الخلق، ولسان حالهم يقول:

وليت الذي بيني وبينك عامر وبينني والعالمين خراب

فيجب على السالك أن يرتقي من الحال الأول إلى الثاني، ويطلب
من الله ﷻ أن يستره عن المعصية، لأنه لا يريد أن يكون وهو تحت عين الله
تعالى في حالة معصية. وخشية سقوطك أيها السالك من نظر الملك الحق
فتعبد الله كأنك تراه فأن لم تكن تراه فهو يراك.

الحكمة الرابعة والثلاثون بعد المائة

مَنْ أَكْرَمَكَ إِنَّمَا أَكْرَمَ فِيكَ جَمِيلَ سِتْرِهِ، فَالْحَمْدُ لِمَنْ سَتَرَكَ لَيْسَ الْحَمْدُ لِمَنْ
أَكْرَمَكَ وَشَكَرَكَ

شرح الحكمة

«مَنْ أَكْرَمَكَ» أي من الخلق «إِنَّمَا أَكْرَمَ فِيكَ جَمِيلَ سِتْرِهِ» فلو ظهرت
عيوبك للناس فلا ينظرون إليك ولا يجالسونك ولا يكرمونك، لكن الله ﷻ
ستر عيوبك عن الناس فأكرموك ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].
«فَالْحَمْدُ لِمَنْ سَتَرَكَ لَيْسَ الْحَمْدُ لِمَنْ أَكْرَمَكَ وَشَكَرَكَ» فلا تظن أن
الكمال فيك ومنك فتعتقد كمال صفاتك، بل له سبحانه الذي ستر صفات
نقصك وأظهر عليك صفات الكمال، فالحمد له والشكر له.

وهو جل جلاله الكامل الذي كملك وخلق فيك الكمال. فلا تنسب الكمال لنفسك، بل لله الذي سترك.

والشكر: أن تنسب النعمة لله وتقنع بها، وأن تطيعه بها ﴿لَيْنْ شَكْرْتُمْ لَا زَيْدَنْكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

أما الحمد: فهو أن ترى إرادة الله تعالى في الكون ومشيئته هي عين الكمال، فتحمده بالجوارح وبالقلب، وتسلم له في تدبيره لكونه.

الحكمة الخامسة والثلاثون بعد المائة

مَا صَحَبَكَ إِلَّا مَنْ صَحَبَكَ وَهُوَ بَعِيكَ عَلِيمٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا مَوْلَاكَ الْكَرِيمُ

شرح الحكمة

وهذه صفة الصاحب الحقيقي، من كان عارفا بعيوبك ولا يفر منك ويتكبر عليك، بل يأخذ بيدك إلى التخلص من هذه العيوب، وعلى الحقيقية المطلع على جميع عيوبك الظاهرة والباطنة هو الله تعالى، ومع ذلك يسترِكَ ولا يفضحك، ويصبر عليك ويهيئ لك أسباب التوبة؛ لأنه الرب الحليم الكريم.

فاصحب ربك واترك الخلق، فاصحب ربك بالأدب يصلحك ويسترِكَ ويوصلك فيغطي نقصك بكمالاته. فهو تعالى الطبيب؛ لأنه بعيبك عليم، فهو الذي يشفيك ويعافيك.

الحكمة السادسة والثلاثون بعد المائة

خير من تصاحب من يطلبك لا شيء يعود منك إليه

شرح الحكمة

من تحقق بهذه الصفات العظيمة من الخلق هم الأولياء والصالحون، فيعلمون بعيوبك الظاهرة والباطنة ويأخذون بيدك ويطهرونك من هذه العيوب ويوصلونك إلى مولاك ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٢٢]، فهم غير محتاجين لك، ولا يطلبون منك أجراً، إنما هم هداة الخلق. فاحرص على صحبتهم واترك من سواهم، وإذا لم تجد ولياً حياً تصحبه فأكثر من زيارة الأولياء الأموات، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون وهناك ستجد الأولياء الذين يأخذون بيدك.

فلا تستأنس بالناس فهذا علامة الإفلاس. والمقصود بالناس هنا غير العارفين بالله. فالمعرفة والصحبة تكون لأهل الله، ولذلك قال النبي ﷺ: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ»^(١)، وخير من تصحب ربك ﷺ، الذي يدللك على الخير، ويعينك عليه، ويوفقك فيه، ثم يثيبك عليه، فاتخذه ولياً يكفيك كل شيء.

(١) أبو داود (٤٨٣٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ. والترمذي (٢٥٥٢) وأحمد (٨١٤٣).

الحكمة السابعة والثلاثون بعد المائة

لَوْ أَشْرَقَ لَكَ نُورُ الْيَقِينِ لَرَأَيْتَ الْآخِرَةَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَرَحَّلَ إِلَيْهَا
وَلَرَأَيْتَ مُحَاسِنَ الدُّنْيَا وَقَدْ ظَهَرَتْ كِسْفَةُ الْفَنَاءِ عَلَيْهَا

شرح الحكمة

«لَوْ أَشْرَقَ لَكَ نُورُ الْيَقِينِ» نور اليقين هو نور يقذفه الله تعالى في قلبك فتتحقق وتعلم الغيبات كما تعلم العلم الضروري فيستغني بالله عن الدليل، فلو ارتقيت من علم اليقين إلى عين اليقين ستجد أن الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها، ولذلك لما سأل سيدنا رسول الله ﷺ سيدنا حارثة فقال له: «كَيْفَ أَصْبَحْتُ يَا حَارِثَةُ؟ قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا حَقًّا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «انْظُرْ مَا تَقُولُ، فَإِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ؟» قَالَ: عَزَفْتُ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، فَاسْهَرْتُ لَيْلِي وَأَظْمَأْتُ نَهَارِي، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزًا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ كَيْفَ يَتَرَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ كَيْفَ يَتَعَادَوْنَ فِيهَا، فَقَالَ لَهُ: عَرَفْتَ فَالْزَمِ»^(١).

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٠١٠٦) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ يَوْمًا فَاسْتَقْبَلَهُ شَابٌّ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ: حَارِثَةُ بْنُ النُّعْمَانِ، فَقَالَ لَهُ: «كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثَةُ؟» قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا حَقًّا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «انْظُرْ مَا تَقُولُ، فَإِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً إِيمَانِكَ؟» قَالَ: فَقَالَ: عَزَفْتُ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، فَاسْهَرْتُ لَيْلِي وَأَظْمَأْتُ نَهَارِي، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزًا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ كَيْفَ يَتَرَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ كَيْفَ يَتَعَادَوْنَ فِيهَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَبْصُرْتَ فَالْزَمِ، مَرَّتَيْنِ، عَبْدُ نَوَّرِ اللَّهِ الْإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ» قَالَ: فَتَوَدَّيَ يَوْمًا فِي الْخَيْلِ: يَا خَيْلَ اللَّهِ اارْكَبِي، فَكَانَ أَوَّلَ فَارِسٍ رَكِبَ، وَأَوَّلَ فَارِسٍ اسْتَشْهَدَ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ [ص: ١٥٩] إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي عَنِ ابْنِي حَارِثَةَ،

«لَوْ أَشْرَقَ لَكَ نُورُ الْيَقِينِ لَرَأَيْتَ الْآخِرَةَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَرَحَّلَ إِلَيْهَا وَلَرَأَيْتَ مَحَاسِنَ الدُّنْيَا وَقَدْ ظَهَرَتْ كِسْفَةُ الْفَنَاءِ عَلَيْهَا» فلا تلتفت لزينة الدنيا لأنها كاذبة خداعة، لذلك قال الإمام الشافعي رحمه الله:

ومن يذوق الدنيا فإني طعمتها	وسيق إلى عذابها وعذابها
فلم أرها إلا غروراً وباطلاً	كما لاح في ظهر الفلاة سراها
وما هي إلا جيفة مستحيلة	عليها كلاب همهن اجتذابها
فإن تجتنبها كنت سلماً لأهلها	وإن تجتذبها نازعتك كلابها

والله سبحانه يقول ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

فلا تنشغل بالفاني وتترك الباقي، والله سبحانه أقرب إليك من حبل الوريد، فلا تحجب بالأكوان عن المكون. ولقد قال أحد العارفين بالله (ما في الجبة إلا الله) فالجبة هي الأكوان، والله ﻋَﻠَﻴْكَ تجلى فيها بإيجادها وإمدادها، فإن تركت النظر إلى الجبة وجدت الله ﻋَﻠَﻴْكَ. وإن خرجت من أوهامك وجدت الله ﻋَﻠَﻴْكَ. وإذا وجدت الله برزت لك حقيقة الدنيا وهي عدم لذلك قال «وَلَرَأَيْتَ مَحَاسِنَ الدُّنْيَا وَقَدْ ظَهَرَتْ كِسْفَةُ الْفَنَاءِ عَلَيْهَا» فتزهد فيها وتتعلق بالباقي ﻋَﻠَﻴْكَ. فعبادة العوام بالكسب لا بالترك، وعبادة الخواص بالترك، أي ترك كل ما سوى الله تعالى.

أَيْنَ هُوَ؟ إِنْ يَكُنْ فِي الْجَنَّةِ لَمْ أَبْكُ وَلَمْ أَحْزَنْ، وَإِنْ يَكُنْ فِي النَّارِ بَكَيتُ مَا عِشْتُ فِي الدُّنْيَا، قَالَ: فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أُمَّ حَارِثَةَ، إِنَّهَا لَيْسَتْ بِجَنَّةٍ وَلَكِنَّهَا جَنَانٌ، وَحَارِثَةُ فِي الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى»، قَالَ: فَانْصَرَفَتْ وَهِيَ تَضْحَكُ وَتَقُولُ: بَخٍ بَخٍ لَكَ يَا حَارِثَةُ.

الحكمة الثامنة والثلاثون بعد المائة

مَا حَجَبَكَ عَنِ اللَّهِ وَجُودٌ مَوْجُودٌ مَعَهُ، وَلَكِنْ حَجَبَكَ عَنْهُ تَوَهُّمٌ مَوْجُودٌ مَعَهُ

شرح الحكمة

هذه الحكمة من أصعب الحكم، حيث إنّ العبارة تضيق عن وصف كيف أن الله ﷻ ظاهر باطن في الأكوان في آنٍ واحد، ولكن اللبيب بالإشارة يفهم.

فالكلام في هذا الموضوع يكون بالإشارة لا بالعبارة، فلا تفهم من العبارات معناها الزماني والمكاني، ومعناها الاتصالي والانفصالي؛ لأن الله ليس بمتصل ولا منفصل ولا يحده زمان ولا يحويه مكان، فكل العبارات هنا لابد أن تفرغ من معناها الزماني والمكاني.

فالله ظاهر وباطن ولكن لأنه قهرك بغير حجاب لم تر هذا الظهور وإلا فهو ظاهر، فلا صفة القهر منعت ظهوره، ولا صفة الظهور منعت قاهريته، ولا صفة البطون منعت ظهوره، فهو ظاهر في بطونه، باطن في ظهوره.

قال الله ﷻ ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، فحيثما نظرت في الأكوان فتم الله ﷻ، ووجه الله أي صفات الله وتجليات الله وخلق الله وفعل الله ﷻ. ولكنه جعلك كثيفا وحجبك رحمة بك، وقال ﷻ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، فلو ظهر ﷻ الظهور الكامل بغير قهرك بالحجاب لتلاشيت وكنت عدما كما كنت، لكنه لا يريد لك أن تكون

معدوماً، بل أراد أن تكون موجوداً فقهرك بغير حجاب ليكون لك وجود، ثم بعد ذلك خلق لك أكواناً فيها من المحسوسات وفيها من المكشفات والماديات التي تستطيع من خلالها أن تدركه من النظر فيها فكأنه ظهر فيها ولم يتقيد بها.

فالأكوان ما هي إلا مرايا لوجود الذات الموصوفة القديمة، وتتفاوت المرآتي بتفاوت أحوال الأكوان لا أحوال الذات. فالمرآتي تتفاوت بأعداد لا حصر لها والموصوف واحد والمرئي واحد. وكلما كملت المرايا في الأوصاف كلما كانت الصورة المنطبعة فيها أوضح ما تكون للذات، وأكمل من تحقق بذلك هو سيدنا محمد ﷺ فمرآته أصفى مرايا الأكوان فتجلى الله ﷻ فيها عليه بذاته وصفاته فصار كاملاً من جميع الجهات ﷻ.

والله ﷻ ليس بجسم ولا جوهر ولا يحل في الأكوان، وعلم أنك مشتاق أن تراه وهو أظهر إليك من أن يغيب عنك، بل من شدة الظهور الخفاء، فخلق لك ملايين المرايا وظهر لك فيها. فكلما كانت المرايا راتقة كلما كانت الصورة على أعلى ما يكون من الوضوح التي تحدد وتوضح تعيينات الصفات الكاملة للذات الكاملة، وكانت هذه المرايا أوضح ما تكون في رسول الله ﷺ مجلى ومظهر الكمالات الإلهية الأعظم.

ولذا قال الله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِي يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾

[الفتح: ١٠]، فالكلام فيه إشارة ولا يدل على الحلول، ولكن لتفهم أن الله ﷻ لا يحل في الأكوان، ولا يحل في مخلوق. وهناك من ضاقت عليهم الفهوم ففهموا من هذه العبارات الحلول فاتهموا الصوفية بالحلول والاتحاد، فهل

إذا رأيت صورتك في المرأة تكون قد حللت فيها؟ وهل إذا كُسرت المرأة كسر شيء من جسدك؟ قطعاً لا، والله المثل الأعلى فالله ﷻ لا يضره شيء في الأكوان مع كمال ظهوره في الأكوان.

وهاك مثال آخر: انظر إلى الثلج والماء فيها، فالثلج صفة والماء ذات، فاخترت الذات بآثار الصفات، ثم جاءت الصفات بعد ذلك في صورة كثيفة حتى يراها الكثيف ﴿فَأَيْنَمَا تُولَوُا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، بغير اتصال ولا انفصال ولا حلول ولا تحرك ولا تغير مع هذه القيود.

«مَا حَبَبَكَ عَنِ اللَّهِ وَجُودٌ مَوْجُودٌ مَعَهُ» فليس معه موجود على الحقيقة فهو الواحد الأحد، «إِذْ لَا شَيْءَ مَعَهُ» بذاته «وَلَكِنْ حَبَبَكَ عَنْهُ تَوَهُُّهُمْ مَوْجُودٌ مَعَهُ» كما قال سيدنا ابن عطاء الله في «لطائف المنن» (انظر إلى الأكوان بعين من لا يرى الكون بل يرى المكون، انظر إلى المرأة بعين من لا يرى المرأة بل يرى الصورة المنطبعة فيها).

ولذلك كان النبي ﷺ يجل الأكوان؛ لأنه يراها من الله ﷻ، وما هي إلا تكثف معنى من معاني صور صفات الله ﷻ.

فالأكوان بالنسبة لخالقها ما هي إلا ظل لوجود الموجود بحق، والظل عدم بجميع المراتب وليس بعدم بجميع المراتب. فلا هو معدوم من كل الوجوه ولا هو موجود من كل الوجوه. وكذلك الكون لا هو موجود من كل الوجوه، ولا هو معدوم من كل الوجوه، فما هو إلا ظل لتكثفات الصفات التي جاءت أساساً لتدلك على الذات.

فهل منعك أن تسير على الظل الموجود على الأرض؟ وهل حال بينك وبينه شيء؟ فلا بد أن تكون الأكوان كالظل بالنسبة لك، فلا تمنعك وتحجبك عن الله، بل تسير فيها ولا ترى إلا الله ﷻ، كالمركب الذي يسير في الماء ولا يمنعه ظل الأشجار على الماء. وحيثما توجهت فثم وجه الله ﷻ، فلا الكثرة تمنعك عن الأحدية ولا الأحدية تمنعك عن الواحدية، فتجد نفسك مجموعا مفروقا في آنٍ واحد.

فالجمع أي أنك جمعت كل الصور في صورةٍ واحدة وذات واحدة فالكل منه ﷻ، والفرق أنك أثبت نسبة الأكوان، فأثبت وجودها وأنت ما زلت موجودا فيها، فيجب عليك أن تتحلى بصفات العبودية فتجد أنك مفروق مجموع في آنٍ واحد، أي متشرع متحقق في آنٍ واحد.

ومع صفاء مرايا الخلق فلا يستطيع مخلوق الإحاطة بالرؤيا لا في الدنيا ولا في الجنة ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وهذا خبر والخبر لا يقبله النسخ فيكون دائما في الدنيا والبرزخ والآخرة.

هو الحق المحيط بكل شيء	هو الرحمن ذو العرش المجيد
هو العين العيان لكل غيب	هو المقصود من بيت القصيد
جميع العالمين له ظلال	سجود في القريب وفي البعيد
وهذا القدر في التحقيق كاف	فكف النفس عن طلب المزيد
هو النور المبين بغير شك	هو الرب المحجَّب في العبيد

ويقول الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝٤٥ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ۝٤٦﴾ [الفرقان: ٤٥-٤٦]

الحكمة التاسعة والثلاثون بعد المائة:

لَوْلَا ظُهُورُهُ فِي الْمُكَوَّنَاتِ مَا وَقَعَ عَلَيْهَا وُجُودُ إِبْصَارٍ. وَلَوْ ظَهَرَتْ صِفَاتُهُ
اَضْمَحَلَّتْ مُكَوَّنَاتُهُ

شرح الحكمة

«لَوْلَا ظُهُورُهُ فِي الْمُكَوَّنَاتِ» فالله تعالى ظاهر وأنت المحجوب «لَوْلَا ظُهُورُهُ فِي الْمُكَوَّنَاتِ مَا وَقَعَ عَلَيْهَا وُجُودُ إِبْصَارٍ» فالأكوان ليست لها ظهور بذاتها، ولولا أنه سبحانه تجلى عليها بصفة الظهور ما ظهرت، فاحتجبت الذات في العالم الكثيف بالصفات، واحتجبت الصفات في العالم اللطيف بالذات، (كان الله ولم يكن شيء معه) أي ذات موصوفة لا يوجد لها آثار خارجية للصفات، حيث إنه لا يوجد معه من يدركه، فأراد الله ﷻ أن تظهر صفاته التي بطن في ذاته.

فلما ظهرت الصفات طلبت تعيناتها وآثارها في الخارج حيث لا خارج، فخلق الله ﷻ التعينات في الخارج لتدل على آثار الصفات الدالة على الذات، فخلق الأكوان اللطيفة التي لا ترى، كالملائكة والجن؛ لأنه الباطن فبطن ظهوره وظهر بطونه في الملكوت، وخلق أكوانا كثيفة في عالم الملك كالإنسان والأشجار والحيوانات وكل ما هو محسوس، فبطن بطونه في ظهوره في الملك، ففي الملك بطن بطونه في ظهوره، وفي الملكوت بطن ظهوره في بطونه.

قال الشيخ: «لَوْ لَا ظُهُورُهُ فِي الْمُكُونَاتِ مَا وَقَعَ عَلَيْهَا وُجُودٌ إِبْصَارٍ. وَلَوْ ظَهَرَتْ صِفَاتُهُ اضْمَحَلَّتْ مُكُونَاتُهُ» ولو ظهرت صفاته الأصلية بغير واسطة تعيينات لاضمحلت كل التعيينات، لأن النبي ﷺ يقول: «حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»^(١) والله تعالى يقول ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، وأتى بلفظ هالك على صيغة اسم فاعل؛ لأنه لا يرتبط بزمن، أي الأكوان هالكة في الماضي والحال والمستقبل، ولا يبقى إلا وجه التجلي. فأنت بين آنيات الإمداد هالك، وكأن نعمة الإمداد بعد نعمة الإيجاد ما هي إلا نبضات، فإذا نظرت بين آنيات الإمداد وجدتها هالكة، وإذا نظرت لاستمرار الإمداد وجدت لها وجود وإن وجودها ليست من ذاتها، بل من موجد لها وهذا مقام الفناء.

ومقام الفناء وهو أن تنظر للأكوان بين آنيات الإمداد فلم تر إلا الله ﷻ، ولا ترى مع الله شيئاً.

أما مقام البقاء بعد الجمع وهو أن ترى استمرار الإمداد، أي هناك وجود ولكن ليس موجوداً بذاته بل موجوداً بتوالي الإمداد، ولذلك النبي ﷺ عبر عن هذا وقال: «لا تكلني لنفسي طرفة عين ولا لأحدٍ من خلقك» لأنه لو وكله لنفسه طرفة عين سيرجع عدم.

(١) مسلم (٤٦٣) عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ يَرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ حِجَابُهُ النُّورُ، وَفِي رَوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ النَّارُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ. وابن ماجه (٢٠٠)، أحمد (١٩٩٤٢).

فأنت تراه جل جلاله من خلف حجاب الأكوان في هذه الدنيا، لذلك لما طلب سيدنا موسى الرؤية دون حجاب الأكوان لم يتحمل وهو من أولي العزم من الرسل.

وهناك إشارة إلى هذا المعنى في قوله تعالى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ١٦٣]، و(هو) ضمير يدل على موجود، أي أنه ضمير في الأكوان، وبطن فيها مع كمال ظهوره.

الحكمة الأربعون بعد المائة

أظهر كُلَّ شَيْءٍ لِأَنَّهُ الْبَاطِنُ، وَطَوَى وَجُودَ كُلِّ شَيْءٍ لِأَنَّهُ الظَّاهِرُ

شرح الحكمة

ما ظهرت الأكوان إلا لظهوره فيها، وما بطن الحكمة والقدرة إلا لبطونه فيها، فأظهر الأكوان بحكمته فظهرت به، وبطن في الأكوان بقدرته فكان ظاهراً باطناً في آنٍ واحد. فلأنه ﷻ باطن فتجليه في البطون أظهر مما سواه، ولأنه ظاهر فتجليه في البطون منع من وجود سواه بذاته. فكل ما هو موجود فهو موجود به. وهذه دقائق علم التوحيد، فلولا وجودك به لكنت عدماً، فالأكوان عدم ظهرت ببطون الله فيها، ومن شدة الظهور الخفاء، وإذا فتشت الوجود وما حوى لم تجد موجوداً إلا الله ﷻ.

فالله ﷻ قديم، وكل ما سوى الله حادث مخلوق، فكيف يتمكن الحادث من رؤية القديم؟ لأن القديم لا يقبل أن يكون معه أحد (لا إله إلا الله) وما زال الله واحداً أحداً ﷻ حتى بعد ظهور الأكوان، ولو ظهر ﷻ

دون توهم الحجاب لعادت الأكوان عدماً كما كانت؛ لأنه لا يمكن أن يكون هناك موجود معه بحق من كل الوجوه، وكما أنه ﷻ لم يرد أن تكون معدوماً من كل الوجوه، وأراد أن تكون موجوداً لا من كل الوجوه، وأراد أن تكون عدماً لا من كل الوجوه، كمثال الظل فالظل ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝٤٥﴾ [الفرقان: ٤٥]، انظر إلى هذا المثال العجيب أراد الله ﷻ أن يبين أن الأكوان ما هي إلا ظل لقدرته، فالظل ليس موجوداً من جميع الوجوه، ولا هو معدوم من جميع الوجوه، فهو موجود معدوم في آنٍ واحد، وكأن الله ﷻ أراد أن يبين أن الأكوان ما هي إلا ظل قدرته بظاهر حكمته، فظهر فيها بحكمته، وبطن فيها بقدرته.

الحكمة الواهر والأربعون بعد المائة

أَبَاحَ لَكَ أَنْ تَنْظُرَ مَا فِي الْمَكُونَاتِ وَمَا أَذْنُ لَكَ أَنْ تَقِفَ مَعَ ذَوَاتِ الْمَكُونَاتِ ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ [يونس: ١٠١]، فَتَحَ لَكَ بَابَ الْإِفْهَامِ وَلَمْ يَقُلْ: انظُرُوا السَّمَوَاتِ؛ لِثَلَاثِ يَدُلُّكَ عَلَى وُجُودِ الْأَجْرَامِ.

شرح الحكمة

«أَبَاحَ لَكَ أَنْ تَنْظُرَ مَا فِي الْمَكُونَاتِ وَمَا أَذْنُ لَكَ أَنْ تَقِفَ مَعَ ذَوَاتِ الْمَكُونَاتِ ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ﴾» [يونس: ١٠١]، ولم يقل (قل) انظروا السموات) أي انظروا إلى ما فيها من عبرة ولا تقف مع المكنونات، بل أراد أن تنفذ من خلال نظرتك إلى المكنونات لتعرف أن هناك مكنوناً لا لتقف مع الحجاب، بل تخترق الحجاب فتتأمل بعين البصيرة إلى الذي أوجد هذا الشيء الذي أنت تراه.

قال الشيخ: «فَتَحَ لَكَ بَابَ الْإِفْهَامِ وَلَمْ يَقُلْ: انْظُرُوا السَّمَوَاتِ؛ لِئَلَّا يَذُلَّكَ عَلَى وُجُودِ الْأَجْرَامِ»

فالعالم النوراني أن تدرس هذه الأشياء فتنفذ من خلالها إلى أن هناك رباً يدبرها، وهي لا تدبر نفسها. فإذا نفذت من خلال المكوّنات إلى المكوّن فقد نفذت إلى النور ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]، فكل علم يوصلك إلى الله فهو علم نوراني، وكل علم يحجبك عن الله فهو علم ظلماني.

والعالم علامة على خالقه ﴿سَرِّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]. فيجب أن يكون نظرك إلى الأكوان نظرة تفكر وحكمة حتى تصل من خلالها إلى خالقها.

المؤمن يصل إلى المكون من خلال نظره للأكوان، والكافر حجب بالأكوان عن المكون فعبد الأكوان وانشغل بها واعتمد عليها.

الحكمة الثانية والأربعون بعد المائة

الأكوان ثَابِتَةٌ بِإِثْبَاتِهِ، وَمُحَوَّةٌ بِأَحَدِيَّةِ ذَاتِهِ

شرح الحكمة

فالأكوان من حيث ذاتها عدم أوجدها الله ﷻ بكلمة كن، ثم أمدّها بمدد الإمداد لتستمر فهي مثبتة بإثباته، وذاته لم تحل في الأكوان؛ لأنه لو حل في الأكوان لاضمحلت الأكوان.

وكل شيء في الأكوان له جهة وجود وجهة عدم، فهو معدوم على الحقيقة موجود لأنه مستمد من الله ﷻ ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ: **كُنْ فَيَكُونُ**﴾ [النحل: ٤٠]، أي إنما قولنا للشيء المعدوم إذا أردنا إظهاره من العدم فنقول له كن فيكون. فالكون بين إيجاد وإمداد، والكون بين آليات الإمداد عدم ولا يشعر به لتوالي الإمداد.

وقوله (وَمَمْحُوَّةٌ بِأَحَدِيَّةٍ ذَاتِهِ) لأن الأحدية لا تقبل أن يظهر معها أحد، فمقام الأحدية مقام العماء «كان الله ولم يكن شيء معه» فهي لا تقبل الظهور لغلبة القهر والجلال فيها. ولما أراد الله إظهار الأكوان أبطن الأحدية وأظهر الواحدية، فظهر الجمال لذلك سبقت رحمته غضبه.

ومرحلة التحول من الأحدية إلى الواحدية هي البرزخية، وهي (الحقيقة المحمدية) وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين، ولولا هذه البرزخية المحمدية ما ظهرت الأكوان، لذلك سماه (أحمد) للدلالة على الأحدية والبرزخية المحمدية التي أظهرت المكونات فهي (أحد) والبرزخ بين الأحدية والواحدية حرف (الميم) فصارت (أحمد) فالميم هي ميم المكونات أي ميم الملك والملكوت، وهاتان الميمان كانت ميمًا واحدة. فلما فتقت صارت ميمين فظهرت بكلمة (محمد) فهو إمام الملك والملكوت. فالأحمدية لبدء الظهور والمحمدية لإتمام الظهور.

الحكمة الثالثة والأربعون بعد المائة

النَّاسُ يَمْدَحُونَكَ لِمَا يَظُنُّونَهُ فِيكَ، فَكُنْ أَنْتَ ذَامًا لِنَفْسِكَ لِمَا تَعْلَمُهُ مِنْهَا.

شرح الحكمة

أي لما تعلمه من نفسك من الضعف والتقصير والجهل واحتياجها لربها، ومن خوف فضيحتك أمام الناس فيرفع عنك ستره، فلا بد أن تكون راجيا خائفاً في كل حال، ذاماً لنفسك؛ لأنها لم تكمل إلا بنسبتها إلى الله ﷻ. ولو قُطعت النسبة صرت كما كنت إنساناً ضعيفاً خلق من عجل، فإذا مسه الشر هلوعاً وإذا مسه الخير منوعاً. فإذا قُطعت النسبة ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: ٤٤]، أما إذا وصلت النسبة تصير على أكمل حال ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، بنسبتهم للرحمن ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وهكذا الصفات الكاملة ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥﴾ [الحج: ٣٤-٣٥]، أي كلما كانت لك نسبة قوية مع الله كلما صرت في حال الكمال والقوة. فإن قُطعت النسبة بالنظر إلى نفسك فقد عدت بعد ذلك ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ۝٦﴾ [العلق: ٦-٧]، ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: ٤٤].

وما دمت منسوباً إلى مولاك تصير في كمال العزة، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]، ولذا لما مُدِّح أحد الصالحين قال: (اللهم أستغفرك مما لا يعلمون، واجعلني خيراً مما يظنون، ولا تؤاخذني بما يقولون) وهكذا هو نظر العارف إذا وجد الناس يمدحونه، أما الجاهل والعامي فيفرح بمدح الناس وينقبض من ذمهم. لذلك قال بعد هذه الحكمة:

الحكمة الرابعة الأربعون بعد المائة

المؤمنُ إذا مُدِّحَ اسْتَحَى مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُثْنَى عَلَيْهِ بِوصْفٍ لَا يَشْهَدُهُ مِنْ نَفْسِهِ

شرح الحكمة

المؤمن يستشعر أن كل النعم من الله تعالى، وهو لا يستحق المدح بل المدح يكون لمن أعطى النعمة وهو الله ﷻ.

والجاهل ينسب العمل لنفسه ويطلب المدح عليه ﴿أُوتِيْتُهُ، عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، لأنه غفل عن ربه ﴿أَنَا أُحْيِي، وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقال الآخر ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٣٥].

فالنعمة إن صدرت منك فأنت مظهر وهي من الله مصدر، فكيف تفرح بما ليس لك ولا منك ثم تعتمد عليه، بل يجب أن تشهد توفيق الله لك في كل أحوالك، فقد خلق فيك الكمال ونسبه لك، فالمؤمن يستحي من الله تعالى إذا مُدِّح؛ لأنه يشهد نعم الله عليه.

الحكمة الخامسة والأربعون بعد المائة

أَجْهَلُ النَّاسِ مَنْ تَرَكَ يَقِينَ مَا عِنْدَهُ لِظَنِّ مَا عِنْدَ النَّاسِ

شرح الحكمة

أجهل الناس من يعرف نفسه بالضعف والحاجة والغفلة والذنب والشهوة ويترك معرفته بنفسه ويعتمد على قول الناس فيه من مدح وصلاح. فيحجب بالناس عن معالجة نفسه وإظهار الضعف لربه والتدلل بين يديه. فيركن إلى مدح الناس فيه وتوقيرهم إياه، فيقول أنا فيقع في العنا. ومن الجهل أن يركن الإنسان إلى رؤى الناس فيه ويعتقد في نفسه الصلاح معتمدا على تلك الرؤى وهذا جهل مركب.

الحكمة السادسة والأربعون بعد المائة

إِذَا أَطْلَقَ الثَّنَاءَ عَلَيْكَ وَلَسْتَ بِأَهْلٍ فَأَثْنِ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ

شرح الحكمة

أي إذا أطلقوا الثناء والمدح عليك وأنت لست له أهل فانسبه لأهله أي لربك ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].
لذلك قال أحد العارفين: ما ادعى الإنسان الكمال في شيء إلا أخزاه الله، بل وقد يفضح؛ لأنه ادعى ما ليس له «إِذَا أَطْلَقَ الثَّنَاءَ عَلَيْكَ وَلَسْتَ بِأَهْلٍ فَأَثْنِ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ».

الحكمة السابعة والأربعون بعد المائة

الزُّهَادُ إِذَا مَدَحُوا انْقَبَضُوا لِشُهُودِهِمُ الثَّنَاءَ مِنَ الْخَلْقِ، وَالْعَارِفُونَ إِذَا مَدَحُوا انْبَسَطُوا لِشُهُودِهِمْ ذَلِكَ مِنَ الْمَلِكِ الْحَقِّ

شرح الحكمة

الناس مع الممدح أنواع، فكل على حسب حاله مع الله، فالعوام وهم كل من حجب بالعطاء والنعمة عن ربه، حتى لو كان عالماً وحُجب بعلمه فهو من العوام، فالعوام ينسبون بالمدح وينقبضون بالذم؛ لأنهم انشغلوا بالخلق عن الخالق، وانشغلوا بالكون عن المكون، وانشغلوا بالنعمة عن المنعم.

والزهاد والسائرون إلى الله ينقبضون من المدح خوفاً من الركون إليه، فهم في جهاد مع النفس في سبيل قتلها في سبيل الله، فيخافون من مدح الناس لهم؛ لأن المدح فيه حياة النفوس وراحتها وتجبرها وطغيانها، ولأن المدح فيه غذاء لنفوسهم التي أرادوا أن يقتلوها بالكلية، فإذا مدحهم الناس ينقبضون مخافة أن تفيق أنفسهم بعدما خالفوها مراراً وكادوا يسيطروا عليها فتعود إلى ما كانت عليه أمانة بالسوء مستغنية عن ربها.

أما العارفون الواصلون فبعدما سلكوا ووصلوا فينسبون بالمدح كالعوام، لا لكون المدح لأنفسهم، بل لأن المدح من الله ﷻ، حيث إن الله هو الذي غطى أوصافهم بوصفه فصاروا لله أولياء، فإذا مدحوا كأنما مدح الله فينسبون لمدح الله ﷻ. وإذا ذموا انقبضوا مخافة أن يؤاخذ الخلق لذمهم، لأنهم صاروا لله أولياء ومن ذم أولياء الله عاداه الله، فينقبضون خوفاً

على الخلق لا على أنفسهم فقد زالت شهوتهم بالكلية، فكساهم بالأنوار، وعلموا أنَّ ما بهم من نعمة فمن الله، وعلموا أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فلم ينشغلوا بالخلق عن الخالق. فالمدح يضر السالكين ويشرح قلوب الواصلين؛ لذلك النبي ﷺ فرح بالمدح وقال لسيدنا حسان بن ثابت: «قل وروح القدس معك أو يؤيدك»؛ لأنه يشهد المديح من الله تعالى لا من الخلق.

فمعاملة العارف مع الخالق لا مع الخلق، لذلك كان سيدنا أبو يزيد البسطامي رحمه الله يقول (منذ ثلاثين عاما وأنا أتعامل مع الخلق وهم يظنون أنني أتعامل معهم وأنا أتعامل مع الله). وهؤلاء هم أهل وحدة الشهود ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

الحكمة الثامنة والأربعون بع المائة

مَتَى كُنْتَ إِذَا أُعْطِيتَ بَسَطَكَ الْعَطَاءُ، وَإِذَا مُنِعْتَ قَبَضَكَ الْمَنَعُ، فَاسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلَى ثُبُوتِ طُفُولِيَّتِكَ، وَعَدَمِ صِدْقِكَ فِي عُبودِيَّتِكَ

شرح الحكمة

العطاء إما أن يكون معنويا أو حسيا، فالمعنوي كالأحوال والمقامات والرؤى الصالحة والمعارف، والحسي كالرزق والجاه والمناصب. وعلاقة الإنسان الجاهل مع الله ﷻ علاقة منفعة، فإذا أعطاه الله انبسط وإذا منعه انقبض، فهو لا يرى العطاء إلا في عين العطاء ويرى المنع عقاباً؛ لأنه وقف مع النعمة ولم ينظر للمنع، فهذا عبد النعمة لا عبد المنعم، فينبسط للعطاء وينقبض للمنع. فإذا كان هذا هو حالك فاعلم أنك طفيلي على الصالحين

وأهل المقامات وما زلت مُدع، فتدعي أنك من الواصلين ولكنك ما زلت طفلاً متطفلاً على موائدهم، ولم تذق شرابهم ولا طعامهم ولا حالهم.

قال الشيخ: «مَتَى كُنْتَ إِذَا أُعْطِيتَ بَسَطْتَ الْعَطَاءُ، وَإِذَا مُنِعْتَ قَبَضَكَ الْمَنعُ، فَاسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلَى ثُبُوتِ طُغُوْلِيَّتِكَ، وَعَدَمِ صِدْقِكَ فِي عِبُودِيَّتِكَ» لأنك لو كنت عبداً لله حقاً لرأيت أنه لا يمنعك إلا لإرادة الخير لك، ولا يعطيك إلا لإرادة الخير لك، فهو ﷻ يريد الخير لك على كل حال.

فيجب عليك أن ترضى بالمنع كما ترضى بالعطاء، وتفرح بالمنع كما تفرح بالعطاء، بل ترى العطاء في عين المنع، كما ترى المنع في عين العطاء، وهذا من كمال معرفتك بربك، ولكمال استسلامك لربك. ولذا قال أحد الصالحين: (منذ أربعين عاماً لم يقمني الله في أمرٍ وتمنيت أن أكون في غيره) أي إذا أقامه الله تعالى في مرض فيسأل الله العافية تذلاً وعبودية وليس جزعاً ولا ضجراً ولا استعجالاً فيقول: (اللهم إني أسألك العافية) وقد تكون العافية مع بقاء المرض حيث منعه بمرضه هذا عن معاصي كثيرة، وأثابه ثواب الصابرين بغير حساب، فيكون المرض عين العافية. ولذا يقول: (اللهم إني أسألك العافية) ويترك الاختيار لله ﷻ فيفرح بنعمة الله على كل حال.

ولذا ورد في الحديث القدسي: «وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيْمَانُهُ إِلَّا الْغِنَى وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيْمَانُهُ إِلَّا الْفَقْرُ وَإِنْ بَسَطْتُ لَهُ أَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيْمَانُهُ إِلَّا الصَّحَّةَ وَلَوْ أَسْقَمْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا

يُصْلِحَ إِيمَانَهُ إِلَّا السَّقَمَ وَلَوْ أَصَحَّحْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، إِنِّي أَدَبْتُ عِبَادِي بِعِلْمِي فِي قُلُوبِهِمْ إِنِّي عَلِيمٌ خَيْرٌ^(١) فالله يعطي لكل إنسان ما هو صالح له، ولعدم معرفة الإنسان بكمال حكمة ربه فيظن العطاء ثواباً والمنع عقاباً ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

وياك أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]. بل كن من الذين يرضون عن ربهم في كل أحوالهم ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩].

الحكمة التاسعة والأربعون بعد المائة

إِذَا وَقَعَ مِنْكَ ذَنْبٌ فَلَا يَكُنْ سَبِيًّا لِیَاسِكَ مِنْ حُصُولِ الاستِقَامَةِ مَعَ رَبِّكَ، فَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ آخِرَ ذَنْبٍ قُدِّرَ عَلَيْكَ

شرح الحكمة

أيها السالك في أثناء سيرك إلى الله قد تذنبت؛ لأنك لست معصوماً فلا تيأس. واعلم أن الذنب له فوائد عظيمة، فمنها أن الله ﷻ يفتح لك باب التوبة، ومقام التوبة مقام حب ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] فيفتح لك مقام التوبة الذي يؤدي إلى المحبة. وقد يقدر عليك

(١) البيهقي في الأسماء والصفات ج ١ ص ١٩١، وأبو نعيم في حلية الأولياء عن أنس ج ٨ ص ٣١٨.

الذنب ليعلمك إنه هو الغفور الرحيم، وإنه هو الستار للعيوب، وإنه غافر الذنب قابل التوب، وكذلك يكسر عزك بالطاعة فيورثك التواضع وعدم الاعتماد على العمل، فتدخل عليه من باب الذل والانكسار فيجبرك ويحبتيك.

وانظر لسيدنا آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة ناسيا ودخل من باب التوبة اجتباه وخلق من ذريته الأنبياء والأولياء والصالحين.

قال الشيخ: «إِذَا وَقَعَ مِنْكَ ذَنْبٌ فَلَا يَكُنْ سَبِيًّا لِيَأْسِكَ مِنْ حُصُولِ الِاسْتِقَامَةِ مَعَ رَبِّكَ، فَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ آخِرَ ذَنْبٍ قُدِّرَ عَلَيْكَ ﴿وَمَنْ يَفْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، ﴿قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، يا ابن آدم انظر كتب عليك المعصية ليقربك إليه لا ليبعدك عنه فما بالك بالطاعة؟! فإذا كانت المعصية لها أنوار تقرب فما بالك بأنوار الطاعة ذاتها، لكي تفهم أن ما من شيء في الأكوان إلا ويقرب إلى الله تعالى. فالمعاصي جعلها الله حجابا وطرذاً لأهل الخذلان، وجعلها سببا للتوبة والوصول إلى محبة الله لأهل التوفيق والسعادة.

الحكمة الخمسون بعد المائة

إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابَ الرَّجَاءِ فَاشْهَدْ مَا مِنْهُ إِلَيْكَ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابَ الْخَوْفِ فَاشْهَدْ مَا مِنْكَ إِلَيْهِ

شرح الحكمة

المفروض على المسلم أن يعبد الله تعالى بالخوف والرجاء، فإذا أردت أن يفتح لك الرجاء فاشهد ما منه ﷻ إليك من كرمه الواسع حيث أعطاك قبل السؤال، وأولئك وهذاك بغير توجه إليه، وأرسل إليك الرسل وخلق لك السموات والأرض وما فيها، فهو كريم جواد غفور رحيم، الذي أسبغ عليك نعمه الظاهرة والباطنة دون سؤال منك ولا سعي.

والرجاء يمنع القنوط من رحمة الله، فلا تيأس من ربك إن تجلى عليك بالقبض وانظر ما منه إليك.

فإذا غلب عليك الرجاء وخفت أن يوصلك حسن الرجاء إلى مرحلة تأمن فيها مكر الله فعليك بباب الخوف؛ لأن الخوف دافع للاستمرار في العبادة، وعدم الركون إلى ما آلت إليه النفس، فتتظر ما منك إليه من تقصير، ومن غفلة ومعصية، ومن عدم القيام بحقوق الربوبية، فهذا يفتح لك باب الخوف، فأنت مقصر وأنت في الطاعة فما بالك وأنت في حال المعصية، فكأن ربنا ﷻ جعل لك منظاراً له عينان: عين على ربك للرجاء، وعين على ذاتك ونفسك للخوف، فيكون لك جناحان تطير بهما إلى مولاك جناح الخوف وجناح الرجاء.

والرجاء يوصلوك إلى الشوق، والشوق يوصلك إلى الأنس، والأنس يوصلك إلى الله، والخوف يوصلك إلى الهيبة، والهيبة توصلك إلى القبض، والقبض يوصلك إلى كمال الاستسلام لمولاك.

والأحوال في الخوف والرجاء تختلف بين طائفة وأخرى، فالعالم والعابد يزداد خوفا عند المعصية ويزداد رجاء عند الطاعة. والعارف يزداد خوفا عند الطاعة ويزداد رجاء عند المعصية، لأن العالم نظره على عمله وعمله، فإذا كان في الطاعة ازداد رجاءه في ربه وأنه سيقربه بسبب عمله الصالح، ويزداد خوفا في المعصية اعتقادا منه أن الله تعالى سيعاقبه وسيبعده بسبب معصيته.

والعارف معتمد على ربه، ولا يرى له عملا، بل ولا يرى نفسه مستحقا للثواب على عمله، فتبرا من حوله وقوته إلى حول الله وقوته. فكلما كان في الطاعة ازداد خوفا من أن يركن إليها عن الله. وكلما كان في المعصية ازداد رجاء إن الله سينشله منها ويتوب عليه.

ولقد أشار الله تعالى إلى الحاليين في كتابه العزيز فقال ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]. أما العارفون بالله فحالهم كما قال ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءًا تَرَوْنَ قُلُوبَهُمْ وُجْهًا﴾ [المؤمنون: ٦٠]. والوجل أعلى من الخوف وهو مقام الهيبة، فيستولي عليهم الخوف ألا يقوموا بحق الله تعالى وهم في حال الطاعة.

الحكمة الحادية والخمسون بعد المائة

رُبَّمَا أَفَادَكَ فِي لَيْلِ الْقَبْضِ مَا لَمْ تَسْتَفِدْهُ فِي إِشْرَاقِ نَهَارِ الْبَسْطِ ﴿لَا تَذَرُونَهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١]

شرح الحكمة

القبض: هو كل تجل جلالي قهري، والبسط: هو كل تجل جمالي بسطي، وكل ذلك من الله تعالى وكلها نعم ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، فربما قبضك فأفادك في القبض أي في المنع ما لم تستفده في البسط والعطاء. فالإنسان في بعض الأحيان يكتسب القرب من الله بالشدة والقبض، فيعطيه الله ﷻ في ليل القبض ما لم يشعر به ويحصل عليه في نهار البسط، ف(لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا) وما دمت لا تدري أيها السالك أيهم أقرب لكم نفعا فسلم أمرك إلى الله وارض بحكمه وتأدب معه، فتكون عبدا لله في كل حال، وليس عبدا للبسط والقبض.

والله سبحانه يريد منك أن تتعرف عليه في كل شيء، فكما عرفته في نهار البسط يريد أن تعرفه في ليل القبض، فتعرفه جميلا جليلا توابا رحيمًا.

الحكمة الثانية والخمسون بعد المائة

مَطَالِعُ الْأَنْوَارِ: الْقُلُوبُ وَالْأَسْرَارُ

شرح الحكمة

أي مطالع أنوار الهداية تكون في قلوب الأولياء وأسرارهم، فالقلب محل نظر الرب من الأكوان، وكما أنك تحتاج في الحس إلى أنوار وإشارات تهتدي بها في طريقك الحسي، كذلك في سير القلب إلى الله تعالى

واخترقه ظلمات النفس فهو يحتاج إلى نجوم الهداية وأقمار التوحيد وشموس المعرفة للوصول إلى مولاه، قال الله تعالى ﴿وَعَلَّمَتْهُ وَابِلَتَجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، فالعلامات هم الأنبياء والمرسلون، والنجم هو سيدنا ومولانا محمد ﷺ فهو نجم الهداية.

قال «مَطَالِعُ الْأَنْوَارِ» أي مواضع ظهور الأنوار المعنوية التي تدلك في طريقك إلى الله «الْقُلُوبُ وَالْأَسْرَارُ» أي قلوب السالكين، وأحوال العارفين الواصلين تتقلب، لذلك قال محلها القلوب، والأسرار للعارفين.

حيث إن الله غطى أحوالهم بالبشرية في الظاهر، ثم بعد ذلك تجلى عليهم بكمال الربوبية في الباطن، فتحرروا من قيود البشرية في الباطن، مع ظهور كثافات البشرية لوجود ذل العبودية في الظاهر.

ولذا لما أرسل الله الأنبياء نظر الكفار إلى حال البشرية فكفروا ولم ينظروا إلى الخصوصية ﴿فَقَالُوا أَبَشْرٌ يَهْدُونَنَا فَكُفِّرُوا وَتَوَلَّوْا﴾ [التغابن: ٦]، فغطى الله أسرار أحوالهم وما بطن في قلوبهم التي فيها الوحي والصلة بالله التي لا يعلمها إلا أهل الخصوصية، فغطى خصوصيتهم بالبشرية التي حجب بها الذين كفروا بنبوتهم، فنظروا إلى بشريتهم ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] كيف يكون متصلا بالسماء وقالوا ﴿لَوْلَا أَنْزَلِ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الفرقان: ٧]، وقالوا ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ﴾ [هود: ١٢] وقالوا ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٨]، هلا اتخذ طريقا في السماء يصعد إليه ونحن ننظر إليه هلا فعل.. هلا فعل؛ لأن الله ﷻ أراد أن يغطي أسرار أوليائه وأنبيائه بكثافة البشرية حتى يتم الاختبار. فإذا تم الاختبار علم الإنسان أن هناك غيباً وراء الظاهر. فالمؤمن المصدق بالنبي

هو المؤمن بوجود الله ﷻ لأنك لم تر الله أصلاً، والله ﷻ تردى بصفات وهذه الصفات جاءت في صورة أفعال وأكوان كثيفة يراها العبد. ومن خلال رؤيته للأكوان علم المكون، ومن خلال رؤيته لبشرية الرسول علم أنه رسول، فيخترق من البشرية وهي كونه إلى سره وهو الخصوصية.

وغطى الله الولي بالبشرية فيراه الناس بشرا مثلهم، بل قد يراه الناس دون أن يعيروهم اهتماما يقول ﷻ: «كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ»^(١) فالله ﷻ خبأ أوليائه في وسط عباده ورداهم برداء البشرية؛ لأنه يغار عليهم حتى لا يزعجهم ويشوشهم بتكالب الناس عليهم، بل قد يغطيهم عن أنفسهم أحيانا حفاظا عليهم.

فقال: «مطالع الأنوار» أي أنوار الهداية وأنوار الخصوصية المتعلقة بالأنبياء وحيًا وبالأولياء إلهامًا «القلوب والأسرار» وليست الظواهر لذلك قال في الحكمة التالية:

الحكمة الثالثة والخمسون بعد المائة

نُورٌ مُسْتَوْدَعٌ فِي الْقُلُوبِ مَدَدُهُ مِنَ النُّورِ الْوَارِدِ مِنْ خَزَائِنِ الْغُيُوبِ

شرح الحكمة

النور عند الصوفية هو المعرفة، والمعرفة عند الصوفية أعلى من العلم، والمعرفة محلها القلب، أما العلم فمحلها العقل. فالله تعالى يمد أوليائه بالمعارف من خزائن الغيوب ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ﴾

(١) الترمذي (٤٢٢٧) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ مِنْهُمْ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ.

كَمْشَكُوفٍ فِيهَا مَصْبَاحُ الْمَصْبَاحِ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

[النور: ٣٥]. والنور الممد هو النور المحمدي الذي استمد نوره من الله تعالى ثم أمد الأكوان. لذلك قال سيدنا المرسي أبو العباس (عليه السلام): (لو غاب عني رسول الله طرفه عين ما عددت نفسي من المسلمين) ومعناه لو غاب عني مدد الهداية من رسول الله لحظة ما كنت من المسلمين.

فيهتدي الولي بقمر التوحيد وشمس المعرفة ونجوم الهداية والدلالة ﴿وَعَلَّمَتْهُ بِالْجَمِّ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، فالعارف استغنى عن الدليل، والعالم يفتقر إلى الدليل.

ثم بعد ذلك حمى الله تعالى السماء من الشياطين ﴿إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزَيْنَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ ٦ ﴿وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ ٧ ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلَمٍ لَا عَلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ ٨ ﴿دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ ٩ ﴿[الصفات: ٦-٩]، فالشياطين ليس لهم سلطان على قلوب الأولياء ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥] فإذا أتى الشيطان إلى سماء قلوب الأولياء يُرجم بالشهب وبنجوم الدلالة والبيان والعلم، فلا يكون له سلطان على قلب الولي لأن أنوار الله إذا نزلت على قلب الولي لا يحجبها حاجب ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وبمفهوم المخالفة ومن يجعل الله له نورا فما له من ظلمة ولا من حجاب، ولا من سلطان يمنعه من وصوله إلى الهداية.

فأراد أن يبين لك حال قلب الولي لتستفيد بالولي ولا تُحجب بالبشرية عن الخصوصية بل عليك أن تغض طرفك عن نقائص بشريته لتستفيد بخصائص هدايته.

الحكمة الرابعة والخمسون بعد المائة

نُورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ آثَارِهِ، وَنُورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ أَوْصَافِهِ

شرح الحكمة

فالنور نوران نور حسي ونور معنوي، فنور الحس تراه لتستدل به على خالقه، فتستدل بالكون على المكون، وهذا نور الدلالة والهداية، فالأثر يدل على المؤثر، ونور معنوي من الله ﷻ وهذا نور المعرفة واليقين، فنور الدلالة والهداية هو نور يقذفه الله على آثاره أي أكوانه.

«نُورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ آثَارِهِ» أي في الأكوان «وَنُورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ أَوْصَافِهِ» أي في اليقين، فنور اليقين يكشف عن أوصاف الله ﷻ فلا تقف مع الأكوان، وشتان بين النور الذي ترى به الأثر وبين النور الذي تعرف به المؤثر.

واعلم أن شمس المعارف وأقمار التوحيد في سماء قلب الولي أقوى من شمس الحس وقمر الحس، فقمر الحس قد ينخسف وشمس الحس قد تنكسف. أما شمس سماء الولي فلا تنخسف ولا تنكسف، فيكون نور الولي أقوى من النور الحسي. ولذا يقول سيدنا أبو الحسن الشاذلي ﷺ: (لو كُشف نور المؤمن لغطى نور الشمس) لأنه أقوى من نور الشمس.

فما بالك بالعارف بالله؟ وما بالك بالنبي؟ وما بالك بالرسول؟ وما

بالك بسيد الأنبياء المرسلين ﷺ؟

الحكمة الخامسة والخمسون بعد المائة

رُبَّمَا وَقَفَتِ الْقُلُوبُ مَعَ الْأَنْوَارِ كَمَا حُجِبَتِ النَّفُوسُ بِكَثَائِفِ الْأَغْيَارِ

شرح الحكمة

ربما يقف قلب السالك مع الأنوار دون أن يصل من خلالها إلى المنور فلا يرتقي، وقد يمكر الله بالسالك اختباراً له فيضيء له أنوار الهداية في قلبه فيقف مع الأنوار ولا يرى المنور، ويقف مع الترقى عن المرقى، ومع التجلي عن المُتجلي، ومع الهداية ولا يرى الهادي، ومع النعمة ولا يرى المنعم.

فأراد الشيخ أن يبين أن هناك من السالكين من يصل إلى مقام ويقف عنده. وهؤلاء قليل لأنه قال (ربما) وهي للتقليل فاحذر أن تكون منهم. والغالب من يخترق الأنوار إلى المنور، ويخترق الأوصاف إلى الموصوف، ويخترق الأفعال إلى الفاعل، ومن يخترق حتى الأوصاف إلى ذاته التي هي قبل أن توصف، فيكون متحققاً بمقام الأحدية فقال: «رُبَّمَا وَقَفَتِ الْقُلُوبُ مَعَ الْأَنْوَارِ كَمَا حُجِبَتِ النَّفُوسُ بِكَثَائِفِ الْأَغْيَارِ» كما أن النفوس في الحس قد تُحجب بالكثائف أي بالأكوان.

كذلك القلوب في الباطن قد تُحجب بالأنوار فتكون الأنوار في باطنها رحمة وفي ظاهرها نقمة ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ بِسُورَةٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]، وهو الحجاب فتكون أنوار الهداية في ظاهرها فيها العذاب وهو الحجاب، وفي باطنها الرحمة وهو الوصول ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، ولم يقل وأن إلى الأنوار أو الهداية أو الأفعال

أو حتى الصفات المنتهى، بل إلى ربك المنتهى، فلا تقف مع المقام أو الطاعة أو الترقى أو الذكر، بل انفض إلى مولاك الذي تولاك، فهو المقصود الأعظم، فقد يحجب الإنسان بذكره عن المذكور، ويعلمه عن المعلوم، وبفهمه عن المفهوم.

الحكمة السادسة والخمسون بعد المائة

سَتَرَ أَنْوَارَ السَّرَائِرِ بِكَثَائِفِ الظَّوَاهِرِ؛ إِجْلَالًا لَهَا أَنْ تُبْتَدَلَ بِوُجُودِ الْإِظْهَارِ
وَأَنْ يُنَادَى عَلَيْهَا بِلِسَانِ الْأَشْتِهَارِ

شرح الحكمة

«سَتَرَ أَنْوَارَ السَّرَائِرِ بِكَثَائِفِ الظَّوَاهِرِ» أي ستر المعارف والأسرار التي خص بها الأولياء بالبشرية، لذلك تجد الولي يجلس في وسط الناس ولا يعرفه أحد، والله ﷻ يستر وليه في وسط عبادته، فهو كالجوهرة التي يجب أن تحفظ في خزانة ولا يراها أحد، وهذه الخزانة هي كثائف الأغيار والبشرية المعتادة، فيغطيه بالبشرية المعتادة حتى لا يشتهر، وحتى لا يكون إلا لله ﷻ؛ لأنه لو كشفه للناس لانشغل بالناس عن حاله مع الله، بل قد يفتن بالناس. فأراد الله ﷻ أن يغطيه حتى لا ينادى عليه بلسان الاشتهار، وسترها أيضا غيرة على هذه الأنوار أن تبذل لغير أهلها. ولقد حجب الكفار بالبشرية عن رؤية الخصوصية بالأنبياء والمرسلين فكفروا بهم ولم يطيعوهم.

ولما علمت ذلك وجب عليك أن تحترم كل المسلمين؛ لأن أي مسلم قد يكون وليا وأنت لا تعلمه فأخفى الله أوليائه في وسط عبادته لتحترم الأمة كلها.

الحكمة السابعة والخمسون بعد المائة

سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ الدَّلِيلَ عَلَى أَوْلِيَاؤِهِ إِلَّا مَنْ حَيْثُ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ وَلَمْ يُوَصِّلْ إِلَيْهِمْ إِلَّا مَنْ أَرَادَ أَنْ يُوَصِّلَهُ إِلَيْهِ.

شرح الحكمة

علمنا في الحكم السابقة أن الله ﷻ دَلَّلَ لخلقهِ على وجودهِ من خلال كثافة الأكوان، فهو لم يظهر فيها ظهور الذات بل ظهر فيها ظهور الصفات، فصارت الأكوان دليلاً على كمال الذات وعلى صفاتها. فكما أن الله ﷻ غطى قدرته بحكمته، وغطى قدرته بصفاته، وغطى ذاته بصفاته، فبرغم من كثافة التوسطات إلا أنها كانت دليلاً على الوصول إلى الله ﷻ، فالله لا يدرك إلا من خلال العالم، فالعالم علامة على خالقه.

وكما أن الله احتجب بالأكوان حجب أوليائه بكثائف الأغيار، فغطى الله تعالى الولي بالبشرية، فغطى خصوصيته بشريته، فكانت بشريته حجاباً عن خصوصيته يخترق منها من أراد الله أن يوصله إليه، فيُري المريدن خصوصية الولي بالرغم من غطاء بشريته وما فيها من نقائص، فجعل الدليل على أوليائه كالدليل عليه، ولا يوصلك إلى الولي إلا إن أراد أن يوصلك إليه، وإلا فالبشرية وما تعلق بها من كثائف وأغيار حجاب عن سر خصوصية الأنبياء والأولياء والصالحين، ولا يكشفها الله إلا لمن سبقت سعادتهم في الدارين، أما أهل الخذلان فينظرون إلى الأولياء على أنهم بشر

عاديون، فلا يهتمون بهم ولا يأبهون لهم، بل قد يعادونهم لأنهم لم يروا فيهم الخصوصية، كما فعل الكفار مع من عاصرهم من الأنبياء.

ومن حكمة الله ﷻ في إخفاء أوليائه ما يستفيد منها الولي بذاته، ومنها ما تكون رحمة بالعباد، فمن رحمة الله إخفاء الولي عن المسلمين كافة حتى لا يرهقهم بالقيام بحقوقهم وهذا من كمال شفقته على المسلمين.

ثم أخفاه لكمال شفقته بالولي؛ لأنه لو اشتهر بولايته ما استقام حاله مع ربه، وانشغل بالخلق واجتمع الخلق حوله فلا يستريح ولا يقوم بما هو مراد منه، فحمى الولي من الشهرة وحمى الناس من القيام بحق الولي، ولذا لا يظهره إلا لخاصة خاصته ولمن يريد أن يوصله إليه.

يقول: «سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَجْعَلْ سُبْحَانَ هُنَا فِيهَا التَّنْزِيهِ، وَكَأَنَّ الْوَلِيَّ يَظْهَرُ فِي ثَوْبِ النِّقْصِ وَهُوَ الْبَشَرِيَّةُ مَعَ بَطُونِ كِمَالِ الْمَعْرِفَةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي بَاطِنِ الْخُصُوصِيَّةِ فَظَاهِرُهُ يَحْتَاجُ إِلَى التَّنْزِيهِ، فَجَاءَ النَّبِيُّ فِي صُورَةِ بَشَرٍ وَالبَشَرِيَّةُ فِيهَا نَقْصٌ وَالنَّبُوَّةُ فِيهَا الْكِمَالُ كُلُّهُ فَبَدَأَ بِالتَّسْبِيحِ هُنَا لِيَنْزِعَهُ، أَيْ لِيَنْزِعَهُ الْوَلِيَّ مِنْ نَقَائِصِ رَدَاءِ بَشَرِيَّتِهِ، كَمَا أَرَادَ أَنْ يَنْزِعَهُ اللَّهُ بَعْدَ ظَهْوَرِهِ فِي كَثَافَاتِ الْأَكْوَانِ مَعَ كَوْنِهِ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ تَرْدَى بِرَدَاءِ الْعِظَمَةِ وَالْكَبَرِيَاءِ.

فيقول: «سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ الدَّلِيلَ عَلَى أَوْلِيَائِهِ إِلَّا مِنْ حَيْثُ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ وَلَمْ يَوْصِلْ إِلَيْهِمْ إِلَّا مَنْ أَرَادَ أَنْ يَوْصِلَهُ إِلَيْهِ» وعدم إظهار الولي فيه رحمة كبيرة أخرى؛ لأنه قد يوجد من ضعف العقول من يتعلق بالولي ويعبده من دون الله، لذلك كان سيدنا المرسي أبو العباس يقول: (والله لو

ظهرت حقيقة الولي لُعبد من دون الله) لبطون كمال الربوبية مغطاة برداء العبودية، ولكنَّ الله ﷻ حمى أوليائه برداء العبودية والذلة حتى يحمي الناس منهم ويحميهم من الناس.

فمعرفتك بأنَّ الله أولياء وأهل خصوص وتسليمك لهذا هو بداية الولاية؛ لأنَّ بداية الولاية هي أن تعرف قدرك وتعرف قدر الرجال. فإنَّ عرفت أن هناك رجالاً مخصوصين بالعلوم والأسرار، وهذا التسليم والاستلام والانقياد لهم يوصلوك إليهم وإلى الله من خلالهم.

ولذا يقول سيدنا أبو الحسن الشاذلي رحمته الله: (الاعتراف بنا ولاية) لأنك لو أنكرت أن هناك أهل خصوص ما اعترفت أن هناك أنبياء ولا رسل.

واعلم أن عدد الأولياء في كل زمان مائة وأربع وعشرون ألف ولي، على عدد الأنبياء والمرسلين. وكل ولي على روحانية نبي من الأنبياء، وروحانية قطب الأقطاب على سيدنا محمد صلوات الله عليه وهو الوارث المحمدي والقطب الغوث، ولقد أخفاهم الله تعالى إلا على أهل الخصوص، فتسليمك لهذا ولاية ومعرفتك بهم واتباعهم علامة على أنك من أهل الخصوص والسعادة.

وهم الذين إذا رءوا ذكر الله، ولا يكون هناك زمان ولا مكان إلا والله قائم بحجة، فوجب عليك احترام كل المسلمين؛ لأنك لا تعرف مقامه عند الله تعالى. وإذا كنت هكذا ذلك الله عليهم.

الحكمة الثامنة والخمسون بعد المائة

رُبَّمَا أَطْلَعَكَ عَلَى غَيْبِ مَلَكُوتِهِ، وَحَجَبَ عَنْكَ الاسْتِشْرَافَ عَلَى أَسْرَارِ الْعِبَادِ

شرح الحكمة

ذكر هذه الحكمة بعد الحكمة السابقة، وكأنه يريد أن يقول لك أن حقيقة أولياءه غيب غابت فيه حقيقته في ظاهر بشريته. فلما أطلعك على غيب ملكوته وحقيقة أكوانه وخصوصية أولياءه فأعطيت كل ذي حق حقه قد يحجب عنك الاستشراف على أسرار العباد سترًا على عباده.

فمن اطلع على أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلهية كان اطلاعه فتنة عليه، لأن المطلع قد لا يعذر العاصي ويفضح البعيد عن الله ﷻ ويحتقر كل إنسان غافل عن ربه، ولذا إذا كشف لك أسرار عباده لابد أن يكون مع هذا الكشف رحمة عالية حتى تستر العصاة وتشفق على أهل الغفلة وتنصح لهم مع كمال الشفقة والمعذرة لهم.

انظر إلى حال النبي ﷺ مع الكفار كان يقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» ولم يدعو عليهم قط، وكان إذا ما أسأؤوا إليه وبيالغوا في الإساءة يقول: «ربما يخرج من أصلاهم من يوحد الله» وهذا من كمال شفقته، ولذا أطلعه الله على أسرار عباده لكمال شفقته ورحمته.

والعوام يعتقدون أن كل الأولياء مطلعون على أسرار العباد، والشيخ يبين لك أنه ممكن أن يكشف الله تعالى للولي عن أسرار الملكوت ويحجبه عن أسرار العباد، حتى لا يشغله بعيوب العباد وأسرارهم. وهذا هو معنى الحكمة التالية:

الحكمة التاسعة والخمسون بعد المائة

مَنْ أَطَّلَعَ عَلَى أَسْرَارِ الْعِبَادِ، وَلَمْ يَخْلُقْ بِالرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ كَانَ أَطْلَاعُهُ فِتْنَةً عَلَيْهِ، وَسَبَابًا لِرَجُلٍ الْوَبَالِ إِلَيْهِ

شرح الحكمة

من رحمة الله ﷺ أن يستر أسرار العباد عن الشيخ المربي؛ لأنه لو أطلعه على أسرار العباد ولم يسترهم وفضحهم كان سببا لجريان الوبال عليهم، وقد يطلع فيفضحهم، وقد يطلع فيسقطوا من عينه، وقد يطلع ويرى نفسه أفضل منهم فيجر الوبال عليه.

فالستر نعمة للمستور عنه والمستور عليه، فإن خيرت أن يكشف لك الحجاب فاختر أن لا يكشف ففيه السلامة. لذلك كان النبي ﷺ يقول: «لَا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِي عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمٌ الصَّدْرِ»^(١)، فالكشف فتنة والستر رحمة، والولي لا يرغب في الكشف ويرغب أن يكون مستورا عن الناس، والناس مستورون عنه، فلا يطلع على عورات، ولا عيب أحد، فيسلم من احتقارهم أو التشهير بهم، بل يرغب أن تكشف له أسرار الملكوت، وأسرار حقائق النبي ﷺ ومقاماته فيزداد تعلقا وترقيا.

وهناك من الأولياء من كشف الله له أسرار العباد، فاعتزل الناس، وسكن الجبال والصحراء، كي يستر نفسه ويستر العباد ولا ينشغل بهم.

(١) أبو داود (٤٨٦٢).

الحكمة الستون بعد المائة

حَظَّ النَّفْسِ فِي الْمَعْصِيَةِ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ، وَحَظُّهَا فِي الطَّاعَةِ بَاطِنٌ خَفِيٌّ،
وَمُدَاوَاةُ مَا يَخْفَى صَعْبٌ عِلاجُهُ.

شرح الحكمة

كل الناس يعرف المعاصي والمحرمات، والنفس لها حظ من المعاصي بالشهوات، وكل الناس يعلمون أن الكذب حرام والسرقه حرام والزنا حرام وشرب الخمر حرام، ولا بد للسالك أن يتعد عن المحرمات، قال الشيخ: «حَظَّ النَّفْسِ فِي الْمَعْصِيَةِ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ» فيسهل تجنبه.

ثم قال: «وَحَظُّهَا فِي الطَّاعَةِ بَاطِنٌ خَفِيٌّ» فتصير الطاعة شهوة خفية وحظا للنفس، فيداوم الإنسان عليها مستمتعا بمدح وإطراء الناس عليه بسبب عبادته، فتتحول عبادتك من طاعة الله تعالى إلى طاعة للنفس ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَبََّعِبَكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، أي تعجبك طاعتهم وعبادتهم، ولكنك لا تعلم أن بها من الرياء ما جعلها في ظاهرها كبيرة وفي باطنها لا شيء ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

والسؤال كيف يكون للنفس حظ في الطاعة؟ لأن الطاعة مجلبة للمدح عند الناس، فالناس يحبون الإنسان الطائع والصالح، بل قد يؤدون عنه مصالحة تقرباً إلى الله ﷻ فيجد في نفسه زهو الظهور وشهوة المدح. وهذا أمر يخفى على كثير من العباد، ويؤدي إلى حبوط أعماله، ولذا يقول في البردة: «وراعها» أي راعي نفسك «وهي في الأعمال سائمة» أي

في الأعمال الصالحة ترعى، «وإن هي استحلت المرعى فلا تسم» يعني إن هي استحلت الأعمال الصالحة فاختر العمل الصالح الذي يصعب على النفس، وخذ بالعزيمة واترك الرخص، وإلا سيكون العمل الصالح شهوة للنفس لأنه يسهل عليها.

والطاعة السهلة على النفس يثاب الإنسان عليها في الآخرة إن كان فيها إخلاص لكنها لا تهذب النفس وترقيها. لذلك قال الشيخ: «وَمُدَاوَاةُ مَا يَخْفَى صَعْبٌ عِلَاجُهُ». فالصالحون يحررون نياتهم في الطاعات كي تكون أعمالهم خالصة لله تعالى لا من أجل حظ النفس.

الحكمة الحادية والستون بمر المانة

رُبَّمَا دَخَلَ الرِّيَاءُ عَلَيْكَ مِنْ حَيْثُ لَا يَنْظُرُ الْخَلْقُ إِلَيْكَ

شرح الحكمة

أي: أن تعمل العمل الصالح وتتمنى أن يعرف الناس بعملك، كي تنال المدح والتعظيم منهم. وتعمل السيئة وتتمنى ألا يطلع الناس عليها، وهذا بلاء عظيم ومصيبة كبيرة لأنك راعيت الخلق دون الخالق.

وهناك رياء أدق وأخفى من هذا الرياء، يقع فيه العبّاد والعلماء، وهو أن يجتهد العابد في العبادة والعمل الصالح وإن أصابه أذى من إنسان تمنى أن ينال جزاءه وعقابه كرامة له إظهارا لحرمته، ويظن أنه قريب من الله ﷻ، وأن الله سينتقم له، فيتعجل رؤية كل من خالفه مخذولاً ومهزوماً بسبب عبادته، فهذا من الرياء الخفي الذي لا يعلمه إلا العالمون. ومن انتبه إلى

هذا الرياء وتركه دافع الله تعالى عنه دون أن يطلب ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، ولا يمتبه الإنسان إلى هذا الرياء إلا إذا تربى عند العارفين بالله، فهم أطباء القلوب الذين يكشفون العلل ويعالجونها.

الحكمة الثانية والستون بعد المائة

اسْتَشْرَافُكَ أَنْ يَعْلَمَ الْخَلْقُ بِخُصُوصِيَّتِكَ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ صِدْقِكَ فِي عُبودِيَّتِكَ

شرح الحكمة

وهذه الحكمة مهمة للسالك والمريد، فمن عبدَ الله وأحب أن يطلع الخلق على عبادته واجتهاده فقد صدقه في العبودية ودخل في الرياء. والصادق في عبوديته هو من يريد أن يخفى حاله حتى عن نفسه.

روي عن سيدنا أبو يزيد البسطامي لما تجلى الله عليه، وقال له: ماذا تريد؟ فقال: أريد ألا أريد، فقال له تلميذه سيدنا يحيى بن معاذ^(١) يا شيخني لم لم تطلب المعرفة قال: والله غرت أن يعرفه غيره. فكل له مقام، فسيدنا أبو يزيد لم تكن لديه حتى شهوة المعرفة ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

قال الشيخ: «اسْتَشْرَافُكَ أَنْ يَعْلَمَ الْخَلْقُ بِخُصُوصِيَّتِكَ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ صِدْقِكَ فِي عُبودِيَّتِكَ» كان أحد الصالحين له دكان في السوق وكان

(١) أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي الواعظ، أحد علماء أهل السنة ومن مشايخ الصوفية الكبار، تتلمذ على أبي يزيد البسطامي رحمه الله، من أشهر كتبه كتاب الميردين، توفي سنة ٢٥٨ هجري.

يصوم أربعين عاما دون أن يعرف أهل السوق بأنه صائم، ودون أن يعرف أهل بيته أنه صائم، حيث كان يخرج صباحا وهو يحمل طعامه من بيته على أنه سيأكل في المحل، فيذهب ويتصدق به في الطريق، ويدخل محله ويبيع ويتاجر إلى أن تغرب الشمس فيفطر ويذهب إلى بيته، هكذا كان الصالحون يسترون أنفسهم.

وقد يسأل سائل إذا كان يخفي صيامه عن أهل بيته وأهل السوق فكيف عرفنا بذلك؟ عرفنا ذلك لما أراد الله تعالى أن يظهر حالهم ليكونوا قدوة للسالكين، فربنا ﷺ عرّف حاله لبعض تلامذته. فلما مات الرجل الصالح حكى التلميذ حال الشيخ للناس.

فيا أيها السالك إذا أردت أن يطلع الناس على أعمالك فأنت مُراء، وإذا أردت أن يطلع الناس على حالك فأنت كذاب مع الحق ومع الخلق.

أما من فني حتى عن نفسه، وصار في مقام الفناء، فلا يرى إلا ربه رُد إلى مقام البقاء وصار من أهل مقام «وأما بنعمة ربك فحدث» فلا يُخاف عليه؛ لأنه صار قدوة للناس. ﴿إِنْ تَبَدُّوا لَصَدَقْتَ فَنِعْمَ هِيَ﴾

[البقرة: ٢٧١]، هذا للواصلين الذين صاروا قدوة للسالكين ثم قال ﴿وَإِنْ تُخَفُّوْهَا وَتُوْثُوْهَا أَفْـُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١] وهذا للسالكين.

«اسْتَشْرَافُكَ» أيها العابد أو الزاهد أو المريد أو السالك «أَنْ يَعْلَمَ الْخَلْقُ بِخُصُوصِيَّتِكَ» أي عند ربك «دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ صِدْقِكَ فِي عِبُودِيَّتِكَ» إرادتك أن تشتهر بين الناس وأن يعلم الناس خصوصيتك دليل على عدم صدقك في عبوديتك؛ لأنك نسبت الفضل لنفسك ولم تنسبه لربك الذي

أعطاك ذلك، وغطى عيوبك فظهرت كاملاً، وغطى جهلك فظهرت عالماً، وغطى معصيتك فظهرت معصوماً موفقاً.

فهو الذي أعطاك كل شيء بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، وما أنت إلا ظل في الأكوان. فإذا أردت أن تنسب الفضل لنفسك وأن يعلم الناس خصوصيتك فكأنما أردت أن يعرفك الناس وأن ينسبوا لك الفضل وأن يزكوك فكأنك تقول: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ، عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، والعبودية تستلزم كمال الاستسلام ومعرفة الفضل لأهله.

الحكمة الثالثة والستون بعد المائة

غَيْبَ نَظَرَ الْخَلْقِ إِلَيْكَ بِنَظَرِ اللَّهِ إِلَيْكَ، وَغَبَّ عَنْ إِقْبَالِهِمْ عَلَيْكَ بِشُهُودِ إِقْبَالِهِ عَلَيْكَ

شرح الحكمة

هذه الحكمة مرتبطة بالسابقة، إذا كنت قد تهرأت من أن يحبك الناس ويعلموا ما فيك من خصوصية فماذا تفعل كي تكون صادقاً في عبوديتك؟ وكيف تصل إلى هذا الحال؟ وكيف تصل إلى ألا تحب أن يعلم الناس ما فيك من خصوصية؟ وتجعل الأمر بينك وبين ربك لأنه قال: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٩].

الشيخ في هذه الحكمة أعطاك الدواء الشافي لما تطلب فقال «غَيْبَ نَظَرَ الْخَلْقِ إِلَيْكَ بِنَظَرِ اللَّهِ إِلَيْكَ» كحال العبد الذي يجلس أمام الناس تحت

أقدام سيده، فهل يستطيع أن يقول أنا سيد هذه الدار تحت أنظار سيده؟ قطعاً، لا يستطيع، فكلما نظر إلى سيده ألجمه الصمت. فإذا أردت أن تتحقق بهذا غيب نظر الخلق إليك باستحضار أن الله ناظر إليك، فإذا كان ناظراً إليك في كل لحظات حياتك فكيف تدعي لنفسك ما ليس لك فهذا هو المعنى.

واعلم أن الكون مخلوق لخالق حكيم، وكل ما جاء حولك ليؤنسك وليوصلك إلى ربك، فهي وسائل تعينك على رؤية عيوبك ومعالجتها والتخلق بكل كمال والابتعاد عن كل نقص، وتبرأ من ادعاء الخصوصية.

«وَعَبَّ عَنْ إِقْبَالِهِمْ عَلَيْكَ بِشُهُودِ إِقْبَالِهِ عَلَيْكَ» وإذا رأيت إقبال الناس عليك فاشهد إقبال الله تعالى عليك. فالناس ما هي إلا أدوات خلقها في الأكوان، فكأن الله ﷻ هو الذي أقبل عليك، وبما أن الله ﷻ ليس بجسم وأنت جسم، والله ليس بكثيف وأنت كثيف فيخلق لك من الكثيف الذي يقبل عليك ويصافحك وكأن الله ﷻ هو الذي يصافحك ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]. فلما أراد ربنا ﷻ أن يُبايع الناس خلق لهم رسولا من جنسهم وجعله مكرماً، فصار الرسول متكلماً عن ربه ونائباً عنه، فصارت مصافحة الرسول هي مصافحة الله ﷻ، فلا تغتر بإقبال الخلق وافهم المعنى بأن الله هو الذي أقبل عليك.

يقول: «وَعَبَّ عَنْ إِقْبَالِهِمْ عَلَيْكَ بِشُهُودِ إِقْبَالِهِ عَلَيْكَ» ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

[فصلت: ٥٣]. وراقب قلبك من أن ينشغل بالناس وردد قول السري السقطي

للجنيد البغدادي رضي الله عنهما (الله معي، الله ناظر إليّ، الله قادر عليّ)

الحكمة الرابعة والستون بعد المائة

مَنْ عَرَفَ الْحَقَّ شَهِدَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَمَنْ فَنِيَ بِهِ غَابَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ،
وَمَنْ أَحَبَّهُ لَمْ يُؤْثِرْ عَلَيْهِ شَيْئًا

شرح الحكمة

وهذه مقامات يمر بها السالكون في طريقهم (مقام البقاء، ومقام الفناء، ومقام المحبة)، فمقام البقاء هو أن يعامل الحق في الخلق في آن واحد وهو أعلى من مقام الفناء؛ لأن الفناء لا يرى إلا الحق، ومقام البقاء هو مقام المرسلين وأهل الإرشاد من المرين والعارفين. فبدأ الحكمة بالمقام الأعلى، «مَنْ عَرَفَ الْحَقَّ شَهِدَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ» أي شهد الخلق ولكنه لم يشهد فيهم إلا الحق فعامل الحق بالخلق، وهذا مقام البقاء. وذكره المصنف في مناجاته حيث قال: (إِلَهِي قَدْ عَلِمْتُ بِاخْتِلَافِ الْأَثَارِ وَتَنَقُّلاتِ الْأَطْوَارِ أَنَّ مُرَادَكَ مِنِّي أَنْ تَتَعَرَّفَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى لَا أَجْهَلَكَ فِي شَيْءٍ).

ثم قال «وَمَنْ فَنِيَ بِهِ غَابَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَنْ أَحَبَّهُ لَمْ يُؤْثِرْ عَلَيْهِ شَيْئًا» فإذا شهدته في كل شيء وشهدته حتى في نفسك ووجدت الله ﷻ يفعل فيك ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، فتحبه؛ لأنك تستشعر أنك لا تستغني عنه طرفة عين، فتحبه حباً شديداً حتى تفنى فيه فلا تؤثر عليه شيئاً.

لذلك من تلبس بالعشق الإلهي واستشعر أنه لا وجود له في الحقيقة بل الوجود لله ﷻ فقال (ما في الجبة إلا الله) فالجبة بالنسبة له رمز الأكوان، فأراد أن يقول ما في الكون إلا المكون، فأشار إلى الأكوان بالجبة، فقال: ما في الجبة إلا الله.

وهذا كلام العاشق الذي لم يفهمه أهل الظاهر، فلما سمعوه حكموا بقتله، لأنهم لم يجربوا هذا العشق والفناء في محبة المعشوق. ولو تفكروا في مجنون ليلي كيف فني عن حسه في حب مخلوق مثله، فما بالك من كشف الله تعالى له عن جماله فهام حبا وشوقا.

وقال سيدنا الحلاج رحمه الله (أنا من أهوى ومن أهوى أنا) أي الله من أهوى ومن أهوى الله. فقد فنوا عن أنفسهم وعن كل شيء وتكلموا على لسان حضرة الربوبية القائم بها كل شيء.

وأنا أسمى هذا المقام غيبوبة روحية، ولا يؤأخذون بما يقولون، كمن دخل إلى العمليات الجراحية في زماننا هذا وأخذ التخدير، وبعد أن يخرج من العملية يبقى في غيبوبة وقد يتكلم بما لا يفهمه من يسمعه، وقد ينكر زوجته وأولاده، فهذا غير مؤاخذ، وإذا أخبر بما قال في حال الغيبوبة ينكره ويضحك من نفسه.

ولقد أشار إليها النبي ﷺ في بعض أحاديثه فقال: «أَكْثَرُوا ذِكْرَ اللَّهِ حَتَّى يَقُولُوا مَجْنُونٌ»^(١). أي غطي عقلك من كثرة استغراقك في الذكر فتغيب عن كل ما سوى المذكور.

ونموذج كلام الأولياء على لسان الحضرة كنموذج كلام النبي ﷺ في الحديث القدسي حين يقول (يا عبادي) فمن وصل إلى مقام الفناء من الأولياء تكلم على لسان الحضرة كما تكلم النبي في الحديث القدسي، فتفهم كلام القائل (سبحاني ما أعظم شأنني) فالله هو المتكلم على لسان الفاني.

ثم قال «وَمَنْ أَحَبَّهُ لَمْ يُؤْثَرْ عَلَيْهِ شَيْئًا» وهذا المقام الثالث وهو مقام المحبة، وهذا ما عبرت عنه السيدة رابعة العدوية فقالت:

وليّتك تحلو والحياة مريرة وليّتك ترضى والأنام غضاب

وعبر عن هذا الحال الشاعر فقال:

قالت وقد سألت عن حال عاشقها بالله صفه ولا تنقص ولا تزد
فقلت لو كان رهن الموت من ظمأ وقلت قف عن ورود الماء لم يرد

ومن تمكن منه مقام المحبة استوحش من الناس، وهذا ما قاله الإمام علي عليه السلام (من علامات الإفلاس الاستئناس بالناس) ولكن الإمام عبر هذا المقام إلى مقام البقاء؛ لأنه خليفة المسلمين.

الحكمة الخامسة والستون بعد المائة

إِنَّمَا حَبَّ الْحَقُّ عَنْكَ شِدَّةُ قُرْبِهِ مِنْكَ

شرح الحكمة

فالمحجوب هو المخلوق لشدة القرب منه سبحانه، الباطن الذي ليس دونه شيء.

الحكمة السادسة والستون بعد المائة

إِنَّمَا احْتَجَبَ لَشِدَّةِ ظُهُورِهِ، وَخَفِيَ عَنِ الْأَبْصَارِ لِعَظَمِ نُورِهِ

شرح الحكمة

شدة القرب تحجب، وشدة الظهور أيضا تحجب، ومثاله المحسوس الروح، فهل يرى الإنسان الروح وهي أقرب شيء إليه، فمن شدة القرب الخفاء. ومثال الحجاب من شدة الظهور الشمس، لو كانت في كبد السماء وقت الظهيرة فلا تستطيع النظر إليها، فمن شدة الظهور احتجب قرص الشمس. فإذا كان هذا في الشمس المحسوسة فما بالك بخالقها ﷻ.

فهو ﷻ احتجب عنك لشدة قربك منك واحتجب عنك لشدة ظهوره، ولا تقل إن الله محجوب؛ لأنه لو كان محجوبا لكان مقهوراً، فهو ليس بمحجوب لكن شدة ظهوره هو الحجاب. فللحجاب سببان شدة الظهور وشدة القرب، لأنه الظاهر الذي ليس فوقه شيء، بل ما ظهر شيء إلا بتجلي ظهوره عليه، ولولا تجلي ظهوره على الأشياء ما ظهرت أصلاً، بل ظهور الأشياء هي ظل لظهور الله ﷻ، كما أنه احتجب لشدة قربك وبطونه، فهو الظاهر في بطونه، وهو الباطن في ظهوره.

قال الشاعر:

وما احتجبت إلا برفع حجابها ومن عجب أن الظهور تستر

فتراه في تجلياته ولكن لا تراه في ذاته، حتى في الجنة لن ترى الذات، ولكن ترى تجليات الصفات وآثار الأفعال، فسبحانه لا تدركه الأبصار ولا يحاط به علماً.

الحكمة السابعة والستون بعد المائة

لَا يَكُنْ طَلْبُكَ تَسَبُّبًا إِلَى الْعَطَاءِ مِنْهُ فَيَقِلَّ فَهَمُّكَ عَنْهُ، وَلْيَكُنْ طَلْبُكَ
لِإِظْهَارِ الْعُبُودِيَّةِ وَقِيَامًا بِحُقُوقِ الرُّبُوبِيَّةِ

شرح الحكمة

وهذه من أهم الأمور التي يجب أن يفهمها السالك بشكل صحيح، فالله تعالى يقول ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، والنبى ﷺ يقول (الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ)^(١)، والدعاء هو التضرع والاستشعار بفقرك إلى الله ﷻ وحاجتك إليه.

وهذه الحكمة تنبهك أيها السالك إذا ما استجاب الله ﷻ لدعائك فلا تظن أن الاستجابة والرحمات التي نزلت عليك بسبب دعائك وتضرعك، بل هي من فضل الله ورحمته التي أكرمك بها منذ أن كنت في أصلاّب الآباء وأرحام الأمهات حتى ولدت وهياً لك كل أسباب العيش والهداية.

فهو لطيف بك قبل أن تدعو، وطلب الدعاء منك إظهاراً للعبودية والافتقار بين يديه. فلا تقيد فعل الله بشيء نشأ منك، بل أوكل إليه الأمور كلها، فهو ﷻ لم ينسك لحظة حتى تذكره لكي يعطيك فهو اللطيف الخبير.

(١) الترمذي (٣٦٩٨).

الحكمة الثامنة والستون بعد المائة

كَيْفَ يَكُونُ طَلْبُكَ الْآحِقُ سَبَبًا فِي عَطَائِهِ السَّابِقِ؟

الحكمة التاسعة والستون بعد المائة:

جَلَّ حُكْمُ الْأَزَلِ أَنْ يَنْضَافَ إِلَى الْعَلَلِ

شرح الحكمة

أي لا تعتمد على عبادتك ولا على عطائك ودعائك في نوال الله ﷻ، فالله قد قسم القسمة في الأزل قبل ظهور الأكوان. فإذا دعوته وسألته وأعطاك فلا تجعل سؤالك سببا لعطائه بل عطائه محض فضله القديم. فالسؤال تعبدا وقياما بحقوق العبودية، فلا تعتمد على عملك ولكن اعتمد على فضل مولاك. فإن أجابك فالحمد لله الذي علق قلبك بما كتبه في القسمة الأزلية وهذا من توفيق الله تعالى. لذلك كان من دعاء الأولياء (اللهم لا تعلق قلبي بما لم تقسمه لي، وأفض على لساني ما قسمته لي ومني، ثم بارك لي في عطائك) وهذا الدعاء هو نفس معنى الحديث الذي ورد عن رسول الله ﷺ حين قال: «اللَّهُمَّ وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أَحَبُّ فَاجْعَلْهُ لِي فَرَاغًا فِيمَا تُحِبُّ»^(١).

(١) الترمذي (٣٨٢٩).

فقوله في هذه الحكمة «كَيْفَ يَكُونُ طَلَبُكَ اللَّاحِقُ سَبَبًا فِي عَطَائِهِ السَّابِقِ؟». فطلبك حادث وعطائه مكتوب في علمه الأزلي القديم، وكل ما أظهره عليك ولك مقسوم لك من الأزل، فلا علة لعطائه، والدعاء فيه التقرب من الله ﷻ وإظهارا للعبودية، فإذا دعوت وأظهرت الافتقار عجل لك عطائك المقسوم. لذلك قال «جَلَّ حُكْمُ الْأَزَلِ أَنْ يَنْصَافَ إِلَى الْعِلَلِ».

الحكمة السبعون بعد المائة

عِنَايَتُهُ فِيكَ لَا لِشَيْءٍ مِنْكَ، وَأَيْنَ كُنْتَ حِينَ وَاجِهَتَكَ عِنَايَتُهُ وَقَابَلَتَكَ رِعَايَتُهُ، لَمْ يَكُنْ فِي أَزَلِهِ إِخْلَاصُ أَعْمَالٍ وَلَا وُجُودُ أَحْوَالٍ، بَلْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِلَّا مَحْضُ الْإِفْضَالِ وَعَظِيمُ النَّوَالِ.

شرح الحكمة

وهذه الحكمة مرتبطة بالتي قبلها، فعطائه سابق لدعائك وعبادتك وإخلاصك، وهو ﷻ اللطيف المعطي قبل السؤال، بل قبل إدراك الحاجة للسؤال، قال: «وَأَيْنَ كُنْتَ حِينَ وَاجِهَتَكَ عِنَايَتُهُ وَقَابَلَتَكَ رِعَايَتُهُ» فأخرجك من العدم إلى الوجود بفضلته، ومن الضلالة إلى الهدى برحمته وتوفيقه، ومن الضعف إلى القوة، ومن العجز إلى القدرة، فكل ذلك صدر منه إليك قبل سؤالك وعبادتك وإخلاصك. لذلك «بَلْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِلَّا مَحْضُ الْإِفْضَالِ وَعَظِيمُ النَّوَالِ».

الحكمة الحادية والسبعون بعد المائة

عَلِمَ أَنَّ الْعِبَادَ يَتَشَوَّفُونَ إِلَى ظُهُورِ سِرِّ الْعِنَايَةِ فَقَالَ ﴿يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥]، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَوْ خَلَّاهُمْ وَذَلِكَ لَتَرَكُوا الْعَمَلَ اعْتِمَادًا عَلَى الْأُزْلِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]

شرح الحكمة

فالعبد يتمنى لو كان يعرف هل هو من أهل التوفيق أم من أهل الخذلان، ولو عرف أنه من أهل التوفيق وحسن الخاتمة سيكسل عن عبادة مولاه، والله ﷻ لا يريد أن يكون العبد كسولا، بل نشيطا ذا هممة عالية في العبادة.

فأخفى عنك مشيئته وجعل لها علامة وهي الإحسان، فإن وفقك إلى الإحسان فهذه علامة لك في أنك مشمول بقوله تعالى ﴿يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥]، وخبا مشيئته حتى لا تعتمد على العمل وحتى لا تفرط فيه بل تستمر عليه فتبقى في مقام الإحسان ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

الحكمة الثانية والسبعون بعد المائة

إِلَى الْمَشِئَةِ يَسْتَنْدُ كُلُّ شَيْءٍ وَلَا تَسْتَنْدُ هِيَ إِلَى شَيْءٍ

شرح الحكمة

المشيئة متعلقة بالله ﷻ وما تعلق بالله لا يفتقر لعلة، فلا يستند إلى شيء، وكل شيء يستند إليها، فعملك ليس علة لمشيئته أن يرحمك فتعتمد عليه، ولكن لما شاء أن يرحمك وفقك للطاعة. وكل ذلك هو معنى (لا حول ولا قوة إلا بالله) فالكل منه وإليه.

الحكمة الثالثة والسبعون بعد المائة

رُبَّمَا دَلَّهُمُ الْأَدَبُ عَلَى تَرْكِ الطَّلَبِ اعْتِمَادًا عَلَى قِسْمَتِهِ وَاشْتِغَالًا بِذِكْرِهِ
عَنْ مَسْأَلَتِهِ

شرح الحكمة

الإنسان كلما تعرف على الله تعالى ازداد يقينا أن اختيار الله ﷻ أفضل من اختياره لنفسه. وأن الله ﷻ ألطف به من نفسه، فيتولد عنده أدب يجعله لا يسأل الله ﷻ رفع أذى أو طلب حاجة ولكنه ينشغل بذكر مولاه. لذلك قال «رُبَّمَا دَلَّهُمُ الْأَدَبُ عَلَى تَرْكِ الطَّلَبِ اعْتِمَادًا عَلَى قِسْمَتِهِ وَاشْتِغَالًا بِذِكْرِهِ عَنْ مَسْأَلَتِهِ» وهذا هو حال النبي ﷺ. فلَمَّا لم تمطر في زمن النبي ﷺ وحصل الجفاف الشديد لم يسأل النبي ﷺ ربه ﷻ الغيث والمطر ولكنه كان مستغرقا في ذكر الله تعالى. وَلَمَّا طلب منه أحد الأعراب ذلك رفع يديه إلى السماء ودعا فنزل الغيث شفقة على ضعفاء أمته.

والأولياء قسمان: أهل تفويض وأهل تصريف، وأهل التفويض أعلى من أهل التصريف؛ لأنهم لا يختارون إلا ما أَرَادَهُ اللهُ ﷻ، وهذا هو المقام الإبراهيمي حيث قال سيدنا إبراهيم عليه السلام حينما ألقوه في النار وجاءه سيدنا جبريل عليه السلام لينقذه من نار عدوه، فقال (علمه بحالي يغني عن سؤالي) ولذلك إذا خيرت فاختر ألا تختار وفر من اختيارك إلى ما يشاء ويختار.

والقطب الغوث من أهل التفويض، فلا يُعرف بين الناس، ومن دونه منزلة من أهل التصريف مشهور عند الناس؛ لأنهم يرون التصريف الذي صدر منه، وأهل التفويض يستحون أن يطلبوا من الله ﷻ لأن الله مطلع عليهم عالم بحالهم لا يحتاج إلى تذكير وتنبية لذلك قال في الحكمة الثانية

الحكمة الرابعة والسبعون بعد المائة:

إِنَّمَا يُذَكَّرُ مَنْ يَجُوزُ عَلَيْهِ الْإِغْفَالُ، وَإِنَّمَا يُنَبَّهُ مَنْ يُمَكِّنُ مِنْهُ الْإِهْمَالُ

شرح الحكمة

«إِنَّمَا يُذَكَّرُ مَنْ يَجُوزُ عَلَيْهِ الْإِغْفَالُ، وَإِنَّمَا يُنَبَّهُ مَنْ يُمَكِّنُ مِنْهُ الْإِهْمَالُ.»
فحاشاه أن ينسى عبده أو يهمله.

لذلك هناك من الأولياء إذا أراد أن يسأل رفع يديه وسكت، فقل له إنك لم تقل شيئاً، قال عرضت حالي وما يفعله معي هو الأصلح لي، فهم منشغلون بذكره وقد قال النبي ﷺ في الحديث القدسي: «مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ»^(١).

الحكمة الخامسة والسبعون بعد المائة

وُرُودُ الْفَاقَاتِ أَعْيَادُ الْمُرِيدِينَ

شرح الحكمة

المريدون جمع مريد، والمريد هو الذي جمع همته وإرادته وتوجهه ليصل إلى الله ﷻ، والوصول إلى الله يعني معرفة الله ﷻ، ومعلوم أن الوصول إلى الله ﷻ لا يكون إلا بمجاهدة النفس ومخالفتها؛ لأن النفس تقودك إلى الأسفل؛ لأنها اختلطت بالطين فصارت أرضية، والروح علوية من عالم الأمر، فالنفس تأخذك إلى الشهوات والملاهي والملذات، فهي محجوبة وحاجة، وأما الروح فتنظر إلى المعاني والحقائق ولا تنظر إلى اللذة القريبة بل تبحث عن السعادة الأبدية.

فلابد للمريد من مخالفة النفس ومجاهدتها، لذلك قال «وُرُودُ الْفَاقَاتِ» والفاقات هي ما يصعب على النفس من الاحتياجات وإظهار الافتقار إلى الله ﷻ، سواء كان الافتقار إلى الله ﷻ بالمرض أو الضعف، فإذا تحقق المريد بالافتقار شعر بالاضطرار فيكون أقرب لإجابة دعوته ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، فالفاقات هي العجز والفقر والجهل والاضطرار وكل تعرف جلاله يقهر النفس.

فكل عمل كان صعبا على النفس فهو أقرب للوصول إلى الله ﷻ، وتزكية النفس في مخالفتها ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ❶ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا

قال «وَرُودُ الْفَاقَاتِ أَعْيَادُ الْمُرِيدِينَ» فالفاقات هي الأعياد؛ لأنها ثقيلة على النفس، وكلما ثقلت على النفس كلما رق حجابك. فالمرض والبلاء وفقد المال والولد والوطن وغيرها كثير قاسية على النفس. والعارف بالله يعلم أن هذه أعياد وسرور؛ لأنه إذا صبر عليها نال القرب من الله ﷻ.

فأنت تشعر في حال مرضك بأنك أقرب إلى الله ﷻ منك وأنت في العافية، وكل إنسان يشعر بهذا، وكذلك وأنت في المحنة أقرب إلى الله منك وأنت في العافية. وكذلك البلاء وهكذا في كل الفاقات. فالعيد هو الذي يعود عليك بالفرح والسرور، وأي سرور وفرح أكبر من قربك من الله ﷻ.

فيأخذ السالك من القرب بصبره على البلاء ما لا يأخذه بصبره على الطاعات؛ لأن الطاعات أحيانا تكون غير مقبولة لوجود الرياء والعجب والكبر، فتكون سببا في البعد لا القرب. والفاقات فيها تهذيب لطباع النفس فصارت أعياد المريرين بالوصول إلى الله تعالى.

وتفكر في الحديث القدسي الذي يقول فيه الله عز وجل: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا ابْنَ آدَمَ مَرَضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي قَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُوذُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا مَرَضَ فَلَمْ تَعُدَّهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ»^(١) فلما مرض العبد كان بمعية ربه

(١) مسلم (٦٧٢١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا ابْنَ آدَمَ مَرَضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي قَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُوذُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا مَرَضَ فَلَمْ تَعُدَّهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطَعْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي قَالَ يَا رَبِّ وَكَيْفَ أَطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطَعَمَكَ عَبْدِي فَلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي قَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ أَشْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فَلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي.

ﷻ، وعندية قرب ورحمة، قرب مكانة وليس قرب مكان، فهو أقرب إلى كل خلقه من حبل الوريد.

فلا بد للسالك من الاختبارات والابتلاءات في هذه الحياة الدنيا، وبعد الاختبار ينال النجاح إذا ما صبر ورضى عن مولاه، وينال الطرد والسخط إذا اعترض وسخط على مولاه قال الله تعالى ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (٣) [العنكبوت: ٢-٣]، وقال ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٥٦) ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (١٥٧) [البقرة: ١٥٥-١٥٧] وهذه الآيات خاصة بالمؤمنين فهم في دار البلاء والاختبار، أما الكفار فيوسع عليهم في هذه الدار ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، فالله يعامل المؤمن بالبلايا ليرقيه ويعامل الكفار بالعطايا ليدنيه ويحجبه عنه.

فلذلك صارت الفاقات أعيادا للسالكين لتحقيقهم بالقرب والمعية مع الرب ﷻ، وصارت المحنة منحة للسالك، وصارت الفاقة حجاب للذي يشتكي ربه للخلق.



الحكمة السادسة والسبعون بعد المائة

رُبَّمَا وَجَدْتَ مِنَ الْمَزِيدِ فِي الْفَاقَاتِ مَا لَا تَجِدُهُ فِي الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ

شرح الحكمة

أي ربما تجد العطاء الرباني والقرب من الله في الفاقة التي حدثت لك من مرض أو فقد قريب، وعزيز، قال الشيخ: «رُبَّمَا وَجَدْتَ مِنَ الْمَزِيدِ فِي الْفَاقَاتِ مَا لَا تَجِدُهُ فِي الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ». لعدم وجود الإخلاص في هذه العبادات، أو فرحك بها أو تكبرك بها على العاصي، أو اعتمادك عليها، فتكون سببا للبعد، بينما إذا أصبت بالبلاء أحسست بالرحمة والذل والافتقار، فالرضا بما كتب الله طريق الولاية والقرب من الله تعالى.

الحكمة السابعة والسبعون بعد المائة

الْفَاقَاتُ بَسْطُ الْمَوَاهِبِ

شرح الحكمة

«الفاقات بسط المواهب» بساط الشيء ما يوصل إليه من أقرب طريق، فإذا أراد الله سبحانه أن يوصلك إليه كتب عليك بعض الفاقات لسرعة الوصول إليه، فالفاقات تدخل المريد إلى حضرة القدس وتجلسه على بساط القدس.

فالقُبْضُ في ظاهره نعمة وشدة، وفي باطنه نعمة ولطف، والجمال في ظاهره نعمة وفي باطنه حجاب وجلال إذا انشغل به السالك عن المنعم. والفاقات تورث الاضطرار والافتقار إلى الله وهو أعظم الطرق الموصلة إليه.

الحكمة الثامنة والسبعون بعد المائة

إِذَا أَرَدْتَ وُرُودَ الْمَوَاهِبِ عَلَيْكَ صَحِّحِ الْفَقْرَ وَالْفَاقَةَ لَدَيْكَ ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ [التوبة: ٦٠]

شرح الحكمة

إذا أردت أن يهب الله تعالى القرب والمعارف والرتب العلية فعليك بالافتقار إليه، فإذا افتقرت تصدق عليك، فحقق نفسك بالفقر إليه ليحققك بالغنى به، وهذا حال النبي ﷺ لَمَّا تحقّق بالفقر إلى مولاه جعله أغنى الخلق بالله.

الحكمة التاسعة والسبعون بعد المائة

تَحَقَّقْ بِأَوْصَافِكَ يُمْدِكَ بِأَوْصَافِهِ، تَحَقَّقْ بِذَلِكَ يُمْدِكَ بِعِزِّهِ، تَحَقَّقْ بِعَجْزِكَ يُمْدِكَ بِقُدْرَتِهِ، تَحَقَّقْ بِضَعْفِكَ يُمْدِكَ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ

شرح الحكمة

وكان الشيخ رحمه الله يفسر القول المأثور «من عرف نفسه عرف ربه» ويشرح قوله تعالى ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، فمن عرف نفسه بالعجز عرف ربه بالقدرة، ومن عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة، ومن عرف نفسه بالجهل عرف ربه بالعلم وهكذا.

«تَحَقَّقْ بِأَوْصَافِكَ» أي أوصاف العبودية، وهي تجتمع في أربع معانٍ، في العجز والفقر، والجهل، والذل. فإذا افتقرت أغناك، وإذا أظهرت الذل أعزك، وإذا أظهرت العجز غطاك بالقدرة عَلَمًا، وإذا تحققت بالضعف قواك. يروى أن أحد الملوك قال لبعض الفقراء الصوفية ما يكون لك من حاجة فارفعها إلي، فقال له الفقير: قد رفعت حوائجي لمن هو أقدر منك فما أعطاني منها رضيت به وما منعني منها رضيت عنه. فقال له: ولا لك حاجة عندي؟ فقال الفقير: بلى، حاجة واحدة، قال الملك: وما هي؟ قال: لا تراني ولا أراك وأنشدوا:

ملكت نفسي وكنت عبداً فزال رقي وطاب عيشي
أصبحت أرضى بحكم ربي إن لم أكن راضياً فأني شي

«تَحَقَّقْ بِأَوْصَافِكَ يُمَدِّكَ بِأَوْصَافِهِ» فإذا دعوت فكن مستشعرا بكمال عجزك وفقرك إليه ومستشعرا بكمال عجزك؛ لأنه لا حول ولا قوة إلا به، وإذا استشعرت ذلك وتحققت به غطاك بعزته وقدرته، فتكون من أهل التصريف بقبول دعائك، أو من أهل التفويض برضاك بالقسمة، إنما هو إمداد الله سبحانه لهم بذلك ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، فقد رمى بقدرة الله ومدده وتوفيقه.

«تَحَقَّقْ بِأَوْصَافِكَ يُمَدِّكَ بِأَوْصَافِهِ» من العبد الفقر ومن الله الغنى، ومن العبد الذل ومن الله العز، ومن العبد العجز ومن الله القدرة، ومن العبد الضعف ومن الله القوة، ومن العبد الجهل ومن الله العلم ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، وانظر لسيدنا رسول الله ﷺ لما كان في كمال الفقر ﴿أَلَمْ

يَمِدُّكَ يَتِيماً فَأَوَى ﴿الضحى: ٦﴾، كمال الضعف لأنه يتيم ﴿أَلَمْ يَمِدُّكَ يَتِيماً فَأَوَى ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴿٧﴾﴾ [الضحى: ٦-٧] أي محباً إلينا حائراً تريد الوصول إلينا فهدينا بك وهدينا الناس إليك ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨]، أي مفتقراً إلينا فأغنيناك، وبمثل ما عاملتك فعامل الخلق ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩]، فكما لم أقهرك فلا تقهر الضعيف والمسكين والمفتقر، فكما عاملك الله ﷻ بالكمال والجلال والإفضال عامل أيها السالك الخلق بالإفضال والإنعام مقتدياً بالنبي ﷺ الرحمة المهداة.

ولأن النبي ﷺ متحقق بكمال العجز لله ﷻ غطاه ربنا بكمال القدرة والتصريف، وكما علمنا من السنة كان يشير إلى السماء فتمطر، وإلى القمر فينشق، وإذا عطش الناس نبع الماء من بين أصابعه فيسقي الجيش، ويطعم الألوف من قليل الطعام، وغيرها كثير.

ولذلك روي عن الإمام الشبلي أنه كان يقول «من عرف ذرة من التوحيد عجز عن حمل بعوضه» لأنه عرف نفسه بالعجز ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال «ومن عرف ذرة من التوحيد حمل الأكوان على طرف رمشه» لأنه وصل إلى التوحيد من الله فأمدته بالقدرة فيحمل الأكوان بالله، فعجزه إذا اعتمد على نفسه، وقدرته إذا اعتمد على ربه.

وأنا أضيف لهذه الحكمة العظيمة «تحقق بجهلك يمدك بعلمه، وقل ربي زدني علماً».

الحكمة الثمانون بعد المائة

رُبَّمَا رُزِقَ الْكَرَامَةُ مَنْ لَمْ تَكْمُلْ لَهُ الْاِسْتِقَامَةُ

شرح الحكمة

الكرامة: هي أمر خارق للعادة تظهر على يد المؤمن المشهور بالاستقامة لا على سبيل التحدي.

والاستدراج: هو أمر خارق للعادة يظهر على يد العاصي على وفق ما يريد فيظن نفسه على خير ويظن الناس فيه ذلك.

والإهانة: هي أمر خارق للعادة تظهر على يد العاصي على خلاف ما يريد فتفضحه، كحال مسيلمة الكذاب لما تغل في البئر العذب صار مرا. والمعجزة: هي أمر خارق للعادة يجريه الله على يد النبي والرسول وهي تفتن برسالته وعلى سبيل التحدي للمعاندين.

والإرهاص: هو الأمر الخارق للعادة يظهر على يد الرسول قبل بعثته.

والعوام يعتقدون أن الكرامة للولي هي خرق العوائد فقط، أما عند الأولياء فالكرامة هي الثبات على الاستقامة، بل ويخافون من خرق العوائد، ويريدون أن يعيشوا مستورين إلى أن يقبضهم الله دون أن يعلم بهم أحد.

والكرامة بمعنى خرق العوائد قد يعطيها الله ﷻ لمن لم تكمل له الاستقامة، وقد يحجبها عن من كملت له الاستقامة، لذلك يقول الشيخ فيقول: «رُبَّمَا» وربما هنا تدل إما للتقليل أو للتكثير، فتحتمل الإثنين «رُزِقَ الْكَرَامَةُ مَنْ لَمْ تَكْمُلْ لَهُ الْاِسْتِقَامَةُ».

قالوا لأحد الأولياء إن فلان يذهب من العراق إلى مكة في خطوة واحدة، فقال إبليس عليه لعنة الله يذهب من المشرق إلى المغرب في لحظة لا في خطوة وهو ملعون. وهذا ليعلمهم لا تنظروا لخرق العادة بل إلى استقامته.

فليست الكرامة أن تطوى لك الأرض، ولكن الكرامة أن تطوى عنك شهواتك ومعاييك وكل ما يحجبك عن الله ﷻ، فتصل إليه فتجده أقرب إليك منك، فطي النفس للوصول إلى الله أصعب وأرجى للولي من طي الأرض؛ لأن الأرض قد طويت لإبليس، «رُبَّمَا رُزِقَ الْكَرَامَةُ مَنْ لَمْ تَكْمُلْ لَهُ الاسْتِقَامَةُ».

لذلك يقول سيدنا أبو الحسن الشاذلي ﷺ: (إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان، اعتقاد في القلب كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان، وكرامة العمل في الظاهر بالاعتداء برسول الله ﷺ والمتابعة ومجانبة الدعاوى والمخادعة فمن أعطيتهما ثم جعل يشاق إلى غيرهما فهو عبد مغتر كذاب أو ذو خطأ في العلم والعمل بالصواب، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا فجعل يشاق إلى سياسة الدواب وخلع المرضى، وكل كرامة لا يصحبها الرضا عن الله ومن الله فصاحبها مستدرج مغرور أو ناقص أو هالك أو مثبور).

والإمام الشافعي كان يقول: (لو طار الرجل في الهواء، وسار على الماء، فسل عن عمله، إن كان مطابقاً للقرآن والسنة: فهي له كرامة، وإلا استدراج)

الحكمة الحادية والثمانون بعد المائة

مِنْ عَلَامَاتِ إِقَامَةِ الْحَقِّ لَكَ فِي الشَّيْءِ: إِقَامَتُهُ إِيَّاكَ فِيهِ مَعَ حُصُولِ النَّتَائِجِ

شرح الحكمة

وفي أول الحكم قال «إِرادَتُكَ التَّجْرِيدَ مَعَ إِقَامَةِ اللَّهِ إِيَّاكَ فِي الْأَسْبَابِ مِنَ الشَّهْوَةِ الْخَفِيَّةِ، وَإِرادَتُكَ الْأَسْبَابَ مَعَ إِقَامَةِ اللَّهِ إِيَّاكَ فِي التَّجْرِيدِ انْحِطَاطٌ عَنِ الْهَمَّةِ الْعَلِيَّةِ» فالله ﷻ أقام عباده في أمرين: قسم فرغهم له وهم أهل التجريد، وقسم أقامهم في الأسباب.

وقد يقيمك في الأسباب وأنت تريد التجريد، فكيف تعرف أن الله ﷻ قد أقامك في أمر وأراده منك؟ والجواب في هذه الحكمة «مِنْ عَلَامَاتِ إِقَامَةِ الْحَقِّ لَكَ فِي الشَّيْءِ: إِقَامَتُهُ إِيَّاكَ فِيهِ مَعَ حُصُولِ النَّتَائِجِ» فإذا أَرَادَكَ رَبُّنا ﷻ في الأسباب فستثبت فيها، وتظهر لك ثمرتها مع استمرارك بالعبادة والرضا بذلك كله؛ لذلك قال في حكمة أخرى «لَا تَطْلُبْ مِنْهُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ حَالِهِ لِيَسْتَعْمَلَكَ فِيمَا سِوَاهَا. فَلَوْ أَرَادَ لَا سَتَعْمَلَكَ مِنْ غَيْرِ إِخْرَاجٍ».

وانظر إلى سيدنا يونس عليه السلام لما أخرج نفسه مما أقامه الله فيه دون أن يستأذن ربه باجتهاد نفسه، ودون أن ينتظر أمر الله ﷻ له فركب البحر ﴿فَالْنَقْمَةُ الْحَوْتُ وَهُوَ مَلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢]، لأنه أخرج نفسه مما أقامه الله فيه دون أن يخرج به الله اجتهادا لا معصية، فهو نبي معصوم، فيجب أن تفهم

الرموز، ولذلك قال ربنا ﷺ لسيدنا رسول الله ﷺ ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوْتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨]، قال له هذا الكلام في بداية الدعوة ولذلك لم يهاجر النبي ﷺ من مكة إلا بإذن ربه ﷻ ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

«مِنْ عَلَامَاتِ إِقَامَةِ الْحَقِّ لَكَ فِي الشَّيْءِ: إِقَامَتُهُ إِيَّاكَ فِيهِ مَعَ حُصُولِ النَّتَائِجِ» والنتائج أن تكون لديك بصيرة فتفهم فعل الله وترضى عنه ﴿يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، يهدي إليه من يشاء من أهل الهداية ويجتبي إليه من ينيب من أهل الاجتباء.

فأهل الهداية هم السالكون من العباد الزهاد، وأهل الحضرة هم العارفون الواصلون. فإذا كنت في الزهد والسلوك فلا تنظر للواصلين وتتمنى أن تكون معهم فتكون عبدا لرغباتك ولست عبدا لربك. وإن اجتباك ربك وجعلك لحضرته ونظرت إلى أهل الزهد فهذا انحطاط عن الهمة العلية.

فعليك أيها المريد ألا تخرج نفسك مما أقامك الله فيه حتى يخرجك هو إما بإشارة شيخك المربي، أو بأمر قاهر وليس بكامل اختيارك بل بأمر قهري، هذا إذا كان الله أقامك في أمر ليس مذموماً شرعاً. أما لو كنت في أمر مذموم شرعاً، فاعلم أن الله لم يقمك فيه بل أنت الذي أقمت نفسك فيه فاخرج منه في الحال وتب إلى الله.

الحكمة الثانية والثمانون بعد المائة

مَنْ عَبَّرَ مِنْ بَسَاطِ إِحْسَانِهِ أَصَمَّتْهُ الْإِسَاءَةُ، وَمَنْ عَبَّرَ مِنْ بَسَاطِ إِحْسَانِ
اللَّهِ إِلَيْهِ لَمْ يَصْمُتْ إِذَا أَسَاءَ

شرح الحكمة

«مَنْ عَبَّرَ» أي من تكلم وعبر للناس عما يجيش في قلبه من خواطر ومعانٍ استشفها من خلال سلوكه مع الله، فعبر عنها بلسان عبادته وزهده واجتهاده في الطاعة، إذا أساء يصمت خجلاً من الله؛ لأنه ما زال في رق السلوك والمجاهدة ﴿لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ٢ ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ٣ [الصف: ٢-٣]، لأنه نسب العمل لنفسه فلما أساء خجل فسكت. وهذا حال الزهاد والعباد والسالكين، فلا يتكلمون إلا إن كانوا في حالٍ حسن. فإن أساءوا صمتوا؛ لأنهم يعبرون من باب إحسان أنفسهم طاعة لله وزهادة فيما يد الناس، فكأنهم ينظرون إلى أنفسهم أنها فاعلة فنسبوا الفعل لأنفسهم دون أن يدروا ولذا لما أساءوا صمتوا.

أما العارفون الواصلون يعبرون من باب بساط إحسان الله لهم، لا من باب بساط إحسان نفسه، فالعارف يتكلم بالله لا بإحسان نفسه فلا تصمته الإساءة.

وحالهم هو «مَنْ عَبَّرَ مِنْ بَسَاطِ إِحْسَانِ اللَّهِ إِلَيْهِ لَمْ يَصْمُتْ إِذَا أَسَاءَ» لأنه في حضرة الله، وليس من الأدب ذكر الإساءة في حضرة الرضا، فلذا لا يصمت أبداً، وهذا حال العارفين، فتراهم يديمون النصيح لخلق الله مع عدم عصمتهم؛ لأنهم ليسوا بأنبياء وقد يقصروا أحياناً إلا إنه يختلف عن

بقية الناس أنه ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَئِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فيسارع بالتوبة ولا يستمر في المعصية ولا يصر عليها بل يعجل بالتوبة؛ ولذا لا يصمت أبدا لتوالي إحسان الله عليه فهو يتكلم بالله وإلى الله وفي الله ﷻ.

إذن: فالتصدرون لدعوة الناس إلى الله ﷻ قسمان: الأول العباد والزهاد الذين انشغلوا في الطاعات ومراقبة النفوس، وهؤلاء يتخرجون أن يعبروا في حال الإساءة ويعبروا في حال الإحسان؛ لأنهم محجبون بالتكاليف وما زالوا في مشقة سياسة أنفسهم للوصول إلى الله.

والثاني العارفون الواصلون وهم من ساسوا أنفسهم وراضوها فماتت بالكلية وصاروا يتحركون بالله، ويبصرون بالله، ويتكلمون بالله.

الحكمة الثالثة والثمانون بعد المائة

تَسْبِقُ أَنْوَارَ الْحُكَمَاءِ أَقْوَالُهُمْ، فَحَيْثُ صَارَ التَّنْوِيرُ وَصَلَ التَّعْبِيرُ

شرح الحكمة

«تَسْبِقُ أَنْوَارَ الْحُكَمَاءِ أَقْوَالُهُمْ» والحكيم: هو الذي أخذ الإذن بالتعبير فصار النور في قلبه، والنور: هو الهداية والفهم الصحيح المودع في القلب. فإذا تكلم صارت الكلمة مقبولة بأي صيغة كانت ولو باللهجة العامية؛ لأن الكلمة تخرج منه مسبقة بالأنوار، فتفتح لها القلوب فتؤثر فيها وتفهم مراد المتكلم، قال: «فَحَيْثُ صَارَ التَّنْوِيرُ وَصَلَ التَّعْبِيرُ». ولو كان القلب مظلمًا فلا تسمع منه حتى وإن تكلم في القرآن والسنة وكلام الصالحين.

وروي عن سيدي عبد القادر الجيلاني رحمه الله ^(١) جلس للوعظ ليكلم الناس، والناس مجتمعة لتسمع الوعظ، فنظر إلى ناس وقال: (كنت صائماً اليوم) فبكى الناس، ثم قال (فأحضرت سمكةً وأعددتها للإفطار) والناس يبكون، ثم

(١) هو شيخ الإسلام، علامة الأنام، قدوة العارفين، سلطان الأولياء والصالحين، وسيد أهل الطريق، القطب الغوث محيي الدين أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست بن عبد الله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن سبط رسول الله سيدنا الحسن عليه السلام بن اسد الله الغالب علي بن ابي طالب وابن مولاتنا فاطمة الزهراء رضي الله عنها بنت سيد الوجود عليه السلام مولده: قال الحافظ أبو محمد الذهبي رحمه الله: ولد الشيخ عبد القادر الجيلاني بجيلان، سنة احدى وسبعين واربعمائة هجري، نشأته: نشأ الشيخ عبد القادر في أكناف هذه الأسرة الصالحة، وحفظ القرآن وعمره سبع سنين، مات والده وعمره تسع سنين، وكفلته أمه وتولت رعايته. ظهرت له الكرامات منذ صغره وهو طفل رضيع وبانت علامات ولايته وهو في المهد. طلبه للعلم: وتفقه على أبي الوفا علي بن عقيل، وأبي الخطاب الكلوزاني محفوظ بن أحمد الجليل، وأبي الحسين محمد ابن القاضي أبي يعلى، وغيرهم ممن تنص لديه عرائس العلوم، وقرأ الأدب على أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي واقتبس منه أي اقتباس، وأخذ علم الطريقة عن العارف الشيخ أبي الخير حماد بن مسلم الدباس، ولبس من يد قاضي القضاة أبي سيعد المبارك ابن علي المخزومي الخرقه الشريفة الصوفية، وتأدب بآدابه الوفية، ولم يزل ملحوظاً بالعناية الربانية، عارجاً معارج الكمال بهمته الأبية.

مجاهدته وأحواله:

جاهد نفسه أشد الجهاد، فكان يصوم النهار ويقوم الليل ويطلب العلم، خرج للسياحة في صحاري بغداد عشرين سنة، يقول عن نفسه كنت أكل من فضلات المزارع على ضفاف دجلة من الحشائش وغيرها حتى اخضر جسدي.

قال الشيخ الولي العارف بالله أبو عبد الله محمد بن أبي الفتح الهروي خادمه: خدمت شيخنا السيد عبد القادر عليه السلام مدة أربعين سنة فكان يصلي الصبح بوضوء العشاء، وإذا صلى العشاء دخل خلوته فلا يمكّن لأحد أن يدخلها معه، ولا يفتحها إلا عند طلوع الفجر، ثم يأخذ في الابتهال والدعاء والتذلل، ويغشاه نور يكاد يخطف الأبصار إلى أن يغيب فيه عن النظر، قال وكنت أسمع عنده سلام عليكم، سلام عليكم، وهو يرد السلام إلى أن يخرج لصلاة الفجر.

قال: (فوضعتها على الطبق فجاءت قطة فأكلتها) فاشتد بكاء الناس أكثر، ثم دعا وانصرف، ففهموا من وراء هذا الكلام ما رمز إليه هذا الشيخ الواصل مع الله ﷻ، أي ما زال هذا الولي الكبير يأخذ بالأسباب متذلاً إلى الله ﷻ، فإن كان مع مقامه العالي الذي وصل إليه، ومع كمال معرفته بالله ﷻ واجتهاده في العبادة منذ الصغر، ومع ذلك ما زال في شيخوخته مجتهداً صائماً قائماً، فكيف بنا وقد قصرنا في العبادة واختلقنا الأعذار فبكوا على أنفسهم.

جلوسه للوعظ:

قال ﷺ كنت أؤمر باليقظة وبالمنام، فلما انتهت سياحتي جاءني الأمر بالرجوع إلى بغداد والتصدر للوعظ وإرشاد الناس وتربية المريدين.

فتوجهت إلى بغداد فلما وصلت إلى أسوار بغداد وجدت رجلاً عجوزاً نحيف البدن، أصفر اللون، يجلس على باب السور فلما وصلت، توقفت وقلت في نفسي مالي وللناس فلا أرجع إلى عزلي وسياحتي وأعبد ربي، وأسلم بديني، فإني أخاف على نفسي الفتنة مما ظهر من الفساد بين الناس، وهممت بالرجوع فقام الرجل العجوز وقال لي إلى أين يا عبد القادر؟ فتعجبت من معرفته باسمي، قلت له أفر بديني من الناس، فقال: لا يا عبد القادر ادخل إلى بغداد، وانصح الناس وعظهم، فستحي الدين بعد أن قارب على الموت، فقلت له من أنت يرحمك الله، قال: أنا الدين، وأنت يا عبد القادر محي الدين. قال فدخلت إلى بغداد واستقبلني العلماء والأولياء. بعد دخوله إلى بغداد وضع له كرسي الوعظ والإرشاد مكان شيخه أبي سعيد المخرمي أو المخزومي، يقول رضي الله عنه: كنت خائفاً من الجلوس للوعظ في بغداد متردداً في ذلك الأمر، حتى رأيت جدي رسول الله ﷺ فقال لي: اجلس للوعظ يا عبد القادر، فقلت: له يا جدي أنا رجل أعجمي فكيف أتكلم على فصحاء بغداد؟ ففتح فمي ونفث فيه سبع مرات، وقال: اجلس للناس ولا تخف.

يقول فجلست للوعظ وإذا قد حضر المجلس أكثر من سبعين ألف شخص، فأردت أن أتكلم فارتج عليّ، فرأيت سيدنا علياً عليه السلام فقال لي ما لك يا ولدي؟ قلت ارتج عليّ يا جدي، فقال: افتح فمك فنفث فيه ست مرات، فقلت لماذا لم تكن سبعة فقال أدباً مع رسول الله ﷺ، فجلست وتكلمت، وأول ما خرج من فمي من كلام (غواص الفكر يغوص في بحر القلب على درر المعارف فيستخرجها إلى ساحل الصدور، فينادي عليها سمسار ترجمان اللسان، فتشترى بنفائس حسن الطاعة في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه).

ولذلك قال «تَسْبِقُ أَنْوَارُ الْحُكَمَاءِ أَقْوَالَهُمْ، فَحَيْثُ صَارَ التَّنْوِيرُ وَصَلَ التَّعْبِيرُ» فالهداية تسبق كلامهم، ولهذا حثنا النبي ﷺ على الجلوس مع الصالحين ولو لم يتكلموا؛ لأن في مجالستهم فوائد عظيمة، ومنها ازدياد الهمة للطاعة وللعبادة ولذكر الله. وكل هذا بسبب الأنوار التي تخرج منهم مع الكلام حتى وإن لم يتكلموا، ولأن كلامهم يخرج مصحوبا بالخشية

منهجه في التربية:

ونلخص طريقته ﷺ في وصيته لابنه الشيخ عبد الرزاق رحمه الله حين قال له: أوصيك يا ولدي وفقنا الله وإياك والمسلمين، بتقوى الله وطاعته، ولزوم الشرع وحفظ حدوده. واعلم يا ولدي أن طريقتنا مبنية على الكتاب والسنة، وسلامة الصدور، وسخاء اليد، وبذل الندي، وكف الأذى، والصفح عن عثرات الأخوان، وأوصيك بالفقر وهو حفظ حرمة المشايخ، وحسن العشرة مع الأخوان، والنصيحة للأصاغر والأكابر وترك الخصومة إلا في الدين.

أقوال العلماء والأولياء فيه:

قال الشيخ ابن قدامة رحمه الله: لم اسمع أحداً يحكى عنه من الكرامات أكثر ما حكى عن الشيخ عبد القادر ﷺ، ولا رأيت أحد يعظمه الناس من أجل الدين أكثر منه. وقال الشيخ أحمد الرفاعي قدس الله سره: الشيخ عبد القادر الجيلاني لا ثاني له في وقتنا هذا، بحر الشريعة عن يمينه وبحر الحقيقة عن شماله يغترف من أيهما شاء. وقال الشيخ ابن تيمية رحمه الله: الشيخ عبد القادر الجيلاني من أعظم مشايخ زمانه، أمرا بالتزام الشرع والأمر والنهي. وقد شرح ابن تيمية كتاب الشيخ عبد القادر المسمى فتوح الغيب، وما ذكر الشيخ عبد القادر إلا وقال قدس الله روحه. وقال الإمام النووي رحمه الله: ما علمنا فيما بلغنا من كرامات الأولياء أكثر ما وصل إلينا من كرامات القطب الشيخ عبد لقادر الجيلاني شيخ بغداد. وقال الإمام الذهبي رحمه الله: الشيخ عبد القادر الجيلاني: هو الشيخ الإمام العالم الزاهد العارف القدوة، شيخ الإسلام، علم الأولياء محي الدين عبد القادر الجيلاني. وقال الشيخ محي الدين بن عربي قدس الله روحه: الشيخ عبد القادر الجيلاني قطب الوقت وصاحب المخدع. وقال الشيخ أبو مدين الغوث قدس الله روحه: عندما زاره أحد مريدي الشيخ عبد القادر، قال له من أين أتيت؟ قال من بغداد من عند الشيخ عبد القادر الجيلاني، فقال له تركت الغوث وجئت لزيارتي، الشيخ عبد القادر الجيلاني هو البحر الذي لا ساحل له، وما أنا إلا نهر صغير من ذلك البحر. وقد التقى الشيخ أبو مدين بالشيخ عبد القادر الجيلاني في موسم الحج ولبس منه الخرقة في عرفات.

التي هي ثمرة العلم النافع ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]،
 فيخرج الكلام منهم مصحوباً بالنور فيخترق قلوب السامعين فيهديهم إلى
 الطريق القويم: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورٍ مِّنْ يَّشَاءُ﴾ [النور: ٣٥].

الحكمة الرابعة والثمانون بعد المائة

كُلُّ كَلَامٍ يَرُزُّ وَعَلَيْهِ كِسْوَةُ الْقَلْبِ الَّذِي مِنْهُ بَرَزَ

شرح الحكمة

سيدنا علي عليه السلام كان يقول (تكلم فأعرفك) فالكلام يبرز لك عما هو
 موجود في قلب المتكلم، فالكلام الصالحين يؤثر في السامع؛ لأنه مصحوب
 بالنور، وكلام المنافقين فيه ظلمة ولا يؤثر بالسامعين بل يزعجهم ويفرون
 منه وإن رتبته ونمقه.

فالقلب الذي إيمانه بالدليل كلامه بالدليل، والقلب الذي استغنى
 عن الدليل كلامه عين الدليل، فالإناء ينضح بما فيه.

وفاته رضي الله عنه:

ولما أتاه الموت كان يقول: استعنت بلا آله إلا الله الحي الذي لا يموت. ولا يخشى الموت.
 سبحانه من تعزز بالقدرة. وتفرد بالبقاء. وقهر العباد بالموت. لا آله إلا الله محمد رسول الله.
 الله. الله ثم خرجت روحه الكريمة. رضوان الله عليه وكانت وفاته دامت بركاته. صبيحة ليلة
 السبت في الحادي عشر من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وستين وخمسائة. عن إحدى وتسعين
 سنة. ودفن ليلاً لكثرة الزحام. فإنه لم يبق ببغداد أحد إلا جاء ليحضر جنازته، وامتألت الحلبة
 والشوارع والأسواق والدروب فلم يتمكن من دفنه بالنهار وصلى عليه ولده الإمام المهتاب السيد
 عبد الوهاب في جماعة ممن حضر من أولاده وأصحابه الكرام. ثم دفن بمدرسته بباب الأزج
 ببغداد، ولم يفتح باب المدرسة حتى علا النهار وأهرع الناس إلى الصلاة على قبره وزيارته وكان
 يوماً مشهوداً، وقبره ظاهر يزار. وعليه لائحة الأنوار. ويُقصد من سائر الأقطار.

الحكمة الخامسة والثمانون بعد المائة

مَنْ أَدْنَى لَهُ فِي التَّعْبِيرِ فُهِمَتْ فِي مَسَامِعِ الْخَلْقِ عِبَارَتُهُ، وَجَلِيَتْ إِلَيْهِمْ إِشَارَتُهُ

شرح الحكمة

إذا أذن الله ﷻ لإنسان في التعبير والنصح صار كلامه مسموعاً مقبولاً، والإذن يكون عن طريق النبي ﷺ وعن طريق الشيخ، ويسمى الإسناد المتصل روحانياً، ولذا قال سبحانه عن حبيبه ﷺ ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ [الأحزاب: ٤٦] وقال سبحانه ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

فليس كل ولي مأذوناً بالتعبير، ولو تكلم بغير إذن يُعترض عليه، ومن الأولياء من هو مأذون بالتعبير فإذا تكلم أقبل عليه الناس وأخذوا منه.

الحكمة السادسة والثمانون بعد المائة

ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار، إذا لم يؤذن لك فيها بالإظهار

شرح الحكمة

أحياناً يؤذن للسالك بإظهار المعاني الواردة على قلبه، وأحياناً لا يؤذن له بإظهار تلك الحقائق فتبقى كامنة في القلب لعدم وجود من يتحملها أو يفهمها، أو لعدم قدرته على التعبير عنها بعبارة واضحة لا يعترض عليها، لذلك قال سيدنا علي عليه السلام (ليس كل ما يعرف يقال، وليس كل ما يقال أتى وقته، وليس كل ما أتى وقته أتى أهله).

قال الشيخ: «ربما برزت الحقائق مكسوفة الأنوار إذا لم يأذن لك فيها بالإظهار» فالسالك غير المأذون من شيخه إذا تكلم كان ضرره أكثر من نفعه، وأحيانا يضر نفسه قبل الناس كأن يكون لبقا وحسن الألفاظ وحسن العبارة فيشتهر بين الناس فيقبلون عليه فيزداد حجاب به بالشهرة؛ لذلك كان سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول (إن هذا الأمر دين فانظر ممن تأخذ دينك).

الحكمة السابعة والثمانون بعد المائة

عِبَارَاتُهُمْ إِمَّا لِفَيْضَانٍ وَجَدٍّ، أَوْ لِقَصْدِ هِدَايَةِ مُرِيدٍ، فَلَأَوَّلُ حَالُ
السَّالِكِينَ، وَالثَّانِي حَالُ أَرْبَابِ الْمُكْنَةِ وَالْمُحَقِّقِينَ

شرح الحكمة

كلام الأولياء يخرج منهم على حالتين:

الأولى: حالة فيضان المعارف التي في قلوبهم فلا يستطيعون كتمانها فيتكلمون وهذا غير المتمكن الذي لا يتحكم بأنواره.

والثانية: للمتمكن الذي يسيطر على أنوارها، فيظهرها في الوقت المناسب وللمريد المناسب. وتخرج منهم العبارات محررة موافقة للكتاب والسنة فلا يُعترض عليه. أما القسم الأول فتخرج منهم العبارات دون تحرير وتدقيق لذلك يُعترض عليهم.

ويجب على السالك أن يكتف ما يرد على قلبه من معارف مخافة أن يشتهر فتقوى نفسه مرة أخرى بعدما أراد أن يخمدوها؛ لأن النفس تحب

الشهرة فيُخاف عليه أن يتكلم فيشتهر قبل الأوان فتستيقظ نفسه بعدما أراد أن يكبلها بكوابل الحق. وله أن يتكلم لشيخه فقط حتى يوضح له الأمر، فلعلها تكون من النفس وهو يظنها أنها من الحق، ولعلها تكون من الشيطان يظنها من الرحمن، وقد يتكلم بها ولا يؤخذ إن غلبه الحال، وهو أن يتكلم بغير إرادة، ولا يحكم عليه بظاهر عبارته ويلتمس له العذر.

قال الشيخ: «عِبَارَاتُهُمْ إِمَّا لِفَيْضَانٍ وَجِدٍ» والوجد هو عبارة عن حال يأتي من الله على السالك فيستوعب عليه قلبه بالكلية، فيشغله عما سوى الله، فينهمك فيما هو فيه، فإذا انهمك فيه تكلم لينفس عما يجده من أنوار ومعارف.

أما العارفون والواصلون فلا يتكلمون إذا غلبهم الوجد، بل يتكلمون بقصد الهداية والتعليم والإرشاد، لذلك قال الشيخ: «أَوْ لِقَصْدِ هِدَايَةِ مُرِيدٍ» «لأنه يتكلم بالله، فهو نائب عن رسول الله ﷺ لخلق الله ﷻ. ولما غاب النبي ﷺ واختار الرفيق الأعلى جعل الله ﷻ للنبي وراثا في الأمة، وهم الأولياء العارفون بالله، حيث إنهم ورثوا النبي حالا ومقاما ومقالا. كل على قدره، أما علماء الظاهر فلم يرثوا من النبي ﷺ إلا مقاله وأحكامه.

ولذا تجد أن عبارات الأولياء لها تأثير في القلوب أكثر من عبارات علماء الظاهر؛ لأنهم يتكلمون في معانٍ شيدها الله في قلوبهم في الحال، فيتكلمون بكلام حديث العهد بربه، وفيه من الصدق والحضور ما يجعله يدخل في القلوب والصدر.

الحكمة الثامنة والثمانون بعد المائة

الْعِبَارَاتُ قُوَّةٌ لِعَائِلَةِ الْمُسْتَمْعِينَ وَلَيْسَ لَكَ إِلَّا مَا أَنْتَ لَهُ أَكَلٌ

شرح الحكمة

«الْعِبَارَاتُ» التي يعبرون عنها «قُوَّةٌ لِعَائِلَةِ الْمُسْتَمْعِينَ» فكلامهم يخاطب الجميع، وكل سامع منهم يقول إن الكلام موجه إليّ، وبالفعل فقد وجهه الله ﷻ ليصيب عائلة قلب السامع فيعالج فيه الخلل. فكلام الأولياء كالقوت أي كالطعام للقلوب فكل قلب يلتقط منه ما يشتهي ويأخذ منه بقدر حاجته.

«الْعِبَارَاتُ قُوَّةٌ لِعَائِلَةِ الْمُسْتَمْعِينَ وَلَيْسَ لَكَ» منها «إِلَّا مَا أَنْتَ لَهُ أَكَلٌ» فكل واحد يأخذ على قدر فهمه وحبه للمعارف والحقائق واحتياجه لها.

الحكمة التاسعة والثمانون بعد المائة

رُبَّمَا عَبَّرَ عَنِ الْمَقَامِ مَنْ اسْتَشْرَفَ عَلَيْهِ، وَرُبَّمَا عَبَّرَ عَنْهُ مَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ، وَذَلِكَ مُلْتَبَسٌ إِلَّا عَلَى صَاحِبِ بَصِيرَةٍ

شرح الحكمة

«رُبَّمَا عَبَّرَ عَنِ الْمَقَامِ مَنْ اسْتَشْرَفَ عَلَيْهِ» أي ربما يتكلم عن المقامات من ليس من أهلها، ولكنه ممن اطلع عليها واستشرفها، بمعنى اطلع عليها من بعد ولم يعيشها، وقد يتكلم عن المقام من وصله وعاشه. ولا يفرق بين

كلام المستشرف والواصل إلا ذو بصيرة «وَرُبَّمَا عَبَّرَ عَنْهُ مَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ، وَذَلِكَ مُلْتَبَسٌ إِلَّا عَلَى صَاحِبِ بَصِيرَةٍ» وهذه الحكمة تجعلك تحسن الظن بالناس جميعاً، وتستفيد بعبارتهم مع تفاوتهم في المقامات.

الحكمة التسعون بعد المائة

لَا يَنْبَغِي لِلسَّالِكِ أَنْ يُعْبَرَ عَنْ وَاِرِدَاتِهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُقِلُّ عَمَلَهَا فِي قَلْبِهِ وَيَمْنَعُهُ وَجُودَ الصِّدْقِ مَعَ رَبِّهِ

شرح الحكمة

السالك هو السائر في الطريق إلى الله، والطريق إلى الله تقطعه النفوس، وميدانها في القلوب وذلك بالمجاهدات ولا تقطعه بالأقدام. وتعرض للسالك إلى الله في أثناء طريقه ومجاهداته بعض الأنوار والواردات الرحمانية وبعض المبشرات والرؤى المنامية، فلا ينبغي له أن يعبر عنها بلسانه؛ لأنه لو عبر عنها بلسانه فكأنه يتكلم بلسان الشهرة، والشهرة تحجبه عن الوصول فتقطع عليه الطريق. هذا من جانب ومن جانب آخر قد يعبر عنها فتخونه العبارة فيسيء الناس فهمه. ولو أراد أن يعبر عنها فليعبر عنها أمام شيخه حتى يهذب له العبارة، ويمنعه من الاغترار بها.

«لَا يَنْبَغِي لِلسَّالِكِ أَنْ يُعْبَرَ عَنْ وَاِرِدَاتِهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُقِلُّ عَمَلَهَا فِي قَلْبِهِ» أي تسلبها؛ لأنه لو أظهرها لا تنتج، كالحبة إذا أظهرتها على الأرض لا تنبت ولا تنتج «وَيَمْنَعُهُ وَجُودَ الصِّدْقِ» فيها «مَعَ رَبِّهِ» لأنه نسبها لنفسه ونسي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]؛ ولأنه انشغل بالأنوار عن المنور وبالترقي عن المُرقي، وبالتجلي عن المتجلي وانشغل عن الله بنفسه.

الحكمة الحادية والتسعون بعد المائة

لَا تَمُدَّنْ يَدَكَ إِلَى الْأَخْذِ مِنَ الْخَلَائِقِ إِلَّا أَنْ تَرَى أَنَّ الْمُعْطَى فِيهِمْ
مَوْلَاكَ، فَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ فَخُذْ مَا وَافَقَكَ الْعِلْمُ

شرح الحكمة

هذه الحكمة فيها أدب أهل التجريد، وهم من فرغهم مولا هم لعبادته ولا يتسبون بأسباب الدنيا من تجارة ومهنة، وقد تأتيهم بعض الأرزاق من الناس. وهذه الحكمة تبين متى يأخذون ومتى يمتنعون، فلا يجوز للسالك أن يأخذ من الناس إلا أن يرى أن المعطي هو الله ﷻ حتى لا يعتمد إلا على مولا.

«لَا تَمُدَّنْ يَدَكَ إِلَى الْأَخْذِ مِنَ الْخَلَائِقِ إِلَّا أَنْ تَرَى أَنَّ الْمُعْطَى فِيهِمْ مَوْلَاكَ» أي كل ما جاءك بغير تشوف ولا مسألة فهو رزق ساقه الله لك «فإذا كُنْتَ كَذَلِكَ فَخُذْ مَا وَافَقَكَ الْعِلْمُ» فخذ بقدر العلم وهو الفقه؛ لأن الفقه تتعلم فيه فقه الأخذ فلا تأخذ الرزق الحرام وتأخذ بقدر الحاجة. وهذه حكمة رائعة جميلة فيها كل فقه السؤال والأخذ والعطاء لأهل التجريد.

فشروط الأخذ ثلاثة:

الأول: أن تقع في حاجة ضرورية ملحة.

والثاني: أن تنظر بقلبك أن المعطي هو الله ﷻ.

والثالث: أن تأخذ بقدر حاجتك فإن عرضوا عليك فوق حاجتك ترد الزائد أو تتصدق به حتى لا تقع في الطمع.

الحكمة الثانية والتسعون بعد المائة

رُبَّمَا اسْتَحْيَا الْعَارِفُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَتَهُ إِلَى مَوْلَاهُ لَا كُتِفَائِهِ بِمَشِيَّتِهِ فَكَيْفَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَرْفَعَهَا إِلَى خَلِيقَتِهِ

شرح الحكمة

«رُبَّمَا اسْتَحْيَا الْعَارِفُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَتَهُ إِلَى مَوْلَاهُ» كما قال سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما عرض عليه سيدنا جبريل عليه السلام المعونة وهو يُلقى في النار «أما لك فلا أما لربي فعلمه بحالي يغني عن سؤالي».

فهناك فرق بين السالك والعارف، فالسالك يرفع حاجته إلى مولاه مباشرة افتقارا إليه، والعارف الذي عرف أن له ربا لا ينساه لطيف به لا ينقطع إحسانه عنه دون سؤال فيستحي أن يسأل ربه اكتفاء بعلم الله بحاله وحسن تدبيره واختياره، وهذا المقام إبراهيمي.

فالعارف من تحقق بقول (حسبي الله ونعم الوكيل).

ثم قال «لَا كُتِفَائِهِ بِمَشِيَّتِهِ» اكتفاء بالرضا بما قسمه الله تعالى له وهذا هو الاستسلام الكامل لله تعالى، فاكتمى بعلم الله به عن السؤال، فيشغل نفسه بالذكر والعبادة عن السؤال.

ثم قال «فَكَيْفَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَرْفَعَهَا إِلَى خَلِيقَتِهِ» فإذا كان مستحيا من رفع حاجته إلى مولاه فمن باب أولى لا يرفعها إلى الخلق؛ لأنه المعطي على الحقيقة والمانع على الحقيقة، والفعال لما يريد ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]، وهذا مقام العارفين المتحققين. وإذا سأل

العارف يسأل تذلاً وتعبداً لا تعلقاً وتشوفاً؛ لأن الدعاء مخ العبادة، ولا يعتمد على دعائه بحصول المطلوب ولكن يعتمد على فضل مولاه ﷺ.

الحكمة الثالثة والتسعون بعد المائة

إِذَا التَّبَسَّ عَلَيْكَ أَمْرَانِ، فَانْظُرْ إِلَى أَثْقَلِهِمَا عَلَى النَّفْسِ فَاتَّبِعْهُ، فَإِنَّهُ لَا يَثْقُلُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا كَانَ حَقًّا

شرح الحكمة

فغاية النفس أن تطيعها في كل ما تطلب وإن أطعتها هلكت؛ لأنها لا تأمرك إلا بالمعاصي والشهوات والتكاسل عن الطاعات وفعل الخيرات، ثم تأمرك بعد ذلك بعبادتها فتصير عبداً للنفس وهواها، حتى وإن نويت العبادة أمرتك بعمل العبادة الأسهل عليها فتكون عبادتك لأجلها لا لأجل الله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَفَلَبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣].

والشيخ في هذه الحكمة أعطانا علاجاً لهذا المرض القاتل «إذا التَّبَسَّ عَلَيْكَ أَمْرَانِ» في الطاعة «فَانْظُرْ إِلَى أَثْقَلِهِمَا عَلَى النَّفْسِ فَاتَّبِعْهُ» فزن الأعمال الصالحة فما كان أثقل على النفس وأصعب فافعله «فَإِنَّهُ لَا يَثْقُلُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا كَانَ حَقًّا» فالنفس أمارة بالسوء ولا تختار إلا ما يوافق هواها وطبعها حتى في العبادات. وفي عمل الأثقل على النفس مجاهدتها ويكون خالصاً لله وليس للنفس فيه نصيب، لذلك قال الإمام البوصيري في البردة:

وراعها وهي في الأعمال سائمة وإن هي استحلت المرعى فلا تسم

الحكمة الرابعة والتسعون بعد المائة

مِنْ عَلَامَاتِ اتِّبَاعِ الْهَوَى الْمُسَارَعَةُ إِلَى نَوَافِلِ الْخَيْرَاتِ، وَالتَّكَاسُلُ عَنِ الْقِيَامِ بِالْوَاجِبَاتِ

شرح الحكمة

وهذا ميزان آخر لكشف هوى النفس ومكرها «مِنْ عَلَامَاتِ اتِّبَاعِ الْهَوَى الْمُسَارَعَةُ إِلَى نَوَافِلِ الْخَيْرَاتِ، وَالتَّكَاسُلُ عَنِ الْقِيَامِ بِالْوَاجِبَاتِ» لأن من العباد من يُكثر من النوافل ولا يحافظ على الفرائض طاعة لهواه، كمن يصلي طول الليل حتى قرب الفجر نام عن صلاة الفجر فهذا يعبد لهواه؛ لأن ركعتي الفجر أفضل من ألف ركعة نوافل، فما تقرب العبد لمولاه بأفضل مما فرضه عليه.

ومن الناس من يُصاب بالمرض ويأمره الطبيب بالفطر في رمضان والله تعالى أجاز له ذلك، فيكابر ويقول لا أنا رجل قوي، ولم أفطر يوماً في حياتي، ولا أفطر أبداً، فهذا يعبد لنفسه لا الله تعالى فهذا عابد لهواه، والله سبحانه أراد أن يكسر عزتك بالعبادة بالمرض، حتى تفتقر إلى الله تعالى وتكون العزة به تعالى لا بالعبادة، بل من العبادة قبول الرخصة عند وجود العذر.

لذلك وجب على العابد أن يتعلم ويتفقه ويقدم الأولى فالأولى فيقدم ما يحبه الله ﷻ لا ما تحبه النفس، فلا ينشغل بنافلة عن فريضة، ولا بمستحب عن واجب.

الحكمة الخامسة والتسعون بعد المائة

قَيْدَ الطَّاعَاتِ بِأَعْيَانِ الْأَوْقَاتِ لِئَلَّا يَمْنَعَكَ عَنْهَا وُجُودُ التَّسْوِيفِ،
وَوَسَّعَ عَلَيْكَ الْوَقْتَ لِتَبْقَى لَكَ حِصَّةُ الْإِخْتِيَارِ

شرح الحكمة

هذه الحكمة العظيمة تبين لنا أن الله ﷻ كلفك ليشرفك، فالشرع الشريف ما جاء إلا لتشريفك لأنك مكرم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]. فلما كرمه خَلَقَهُ فَقَالَ سُبْحَانَهُ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] وقال سُبْحَانَهُ ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] كرمه تكليفاً، فشرفه بالتكليف فيشرف بعبادة مولاه.

والله تعالى يعلم أن طبيعة النفس التسويف فأمرها بعبادات وحدد لها أوقاتاً حتى لا تترك للتسويف «قَيْدَ الطَّاعَاتِ بِأَعْيَانِ الْأَوْقَاتِ لِئَلَّا يَمْنَعَكَ عَنْهَا وُجُودُ التَّسْوِيفِ» وسعادة العبد بالتعلق بمولاه. فلما أراد أن يسعدك به أمرك بطاعة وحدد لها وقتاً معلوماً حتى يمنعك من التسويف؛ لأن الإنسان بطبعه ضعيف وكسول ومسوف.

ومن إكرام الله تعالى لعباده أن خلق لهم الزمان والأوقات ليحدد بها مواقيت الطاعات التي تقربك من مولاك «قيد لك الطاعات بأعيان الأوقات».

«وَوَسَّعَ عَلَيْكَ الْوَقْتَ لِتَبْقَى لَكَ حِصَّةُ الْاِخْتِيَارِ» فضلاً منه ﷻ ورحمة بك، فوقت العبادة وجعل فيها متسعاً من الوقت ليطمئن الناس في الاختيار. فهذا أدى العبادة في وقت الفضيلة وسارع بها فرحاً بطاعة ربه، وذاك آخر العبادة إلى آخر وقتها، والثالث فاتته العبادة فأداها قضاءً، فيتفاوت الناس في الاختيار وفي المنزلة من الله تعالى، ولذا فمعظم العبادة وقتها موسع إلا الصيام فوقته مضيق زماناً فهو في شهر رمضان من الفجر حتى غروب الشمس، والحج وقته مضيق زماناً ومكاناً.

الحكمة السادسة والتسعون بعد المائة

عَلِمَ قَلَّةٌ نُهُوضِ الْعِبَادِ إِلَى مُعَامَلَتِهِ، فَأَوْجَبَ عَلَيْهِمْ وُجُودَ طَاعَتِهِ، فَسَاقَهُمْ إِلَيْهِ بِسَلْسِلِ الْإِيجَابِ «عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلَاسِلِ»

شرح الحكمة

«عَلِمَ قَلَّةٌ نُهُوضِ الْعِبَادِ إِلَى مُعَامَلَتِهِ» فأغلب العباد يركنون للكسل والتسويق، والقليل من العباد يعبدون بهمة عالية حتى وإن لم يوعدوا بالجنة ويخوفوا بالنار. فلما أراد الله ﷻ أن ينهض بهمة الناس، ويوسع رحمته لهم جميعاً حتى الضعفاء أوجب عليهم الطاعات «فَأَوْجَبَ عَلَيْهِمْ وُجُودَ طَاعَتِهِ، فَسَاقَهُمْ إِلَيْهِ بِسَلْسِلِ الْإِيجَابِ» فلم يهمل الضعيف، بل كلفه وأوجب عليه، وخوفه من عقوبة مخالفة الأمر حتى يقوي همته على العبادة، ولم يترك الأمر للذي اخترق حجاب الأكوان إلى المكون فعبده

ولو لم يكلفه من السابقين المقربين، وقد ذكرهم الله تعالى بقوله ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ [الواقعة: ١٣-١٤].

فلما «عَلِمَ قلة نهوض العباد إلى معاملته» أي عبادته ومعرفته، ولَمَّا أوجبها عليهم فكأنه فرضها عليهم «فَسَاقَهُمْ إِلَيْهِ بِسَلْسِلٍ الْإِيجَابِ (عَجَبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلَاسِلِ)» وهذه العبارة قالها النبي في أسرى بدر لما جاءوا مساقين بالسلاسل فدخلوا على النبي ﷺ فنظر إليهم وأعلمه الله أنهم سوف يدخلون في الإسلام فقال ﷺ: «عَجَبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلَاسِلِ»^(١) فالعجب من قوم جاءوا ليحاربوا النبي ﷺ فأسروا وسلسلوا وأدخلوا على النبي ﷺ فأسلموا فدخلوا الجنة، والمعنى أَنَّ رَبَّكَ يَرِيكَ عَجَائِبَ صَنَعِهِ، وَعَجَائِبَ رَحْمَتِهِ، وَعَجَائِبَ لَطْفِهِ بَعْبَادِهِ.

الحكمة السابعة والتسعون بعد المائة

أَوْجَبَ عَلَيْكَ وُجُودَ طَاعَتِهِ، وَمَا أَوْجَبَ عَلَيْكَ إِلَّا دُخُولَ جَنَّتِهِ

شرح الحكمة

فما ذلك على طاعته إلا ليدخلك جنته، فمن لطفه ورحمته بك أيها المسلم قد أوجب عليك طاعته ليدخلك جنته. لذا عليك أن تنظر إلى نعمة الشريعة بمنظار الحقيقة، فإذا نظرت إلى نعمة الشريعة بمنظار الحقيقة تشبثت بالتكاليف الشرعية وفعلتها بروح جديدة وبفهم آخر جديد مع همة وإقبال.

(١) الطبراني في المعجم الكبير (٨٠٨٧).

فالشرعية في ظاهرها وجوب وفي باطنها تشريف؛ لأنه ذلك عليه سبحانه بواسطة النبي ﷺ بشرع في ظاهره تكليف وفي باطنه تشريف ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠]، ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فمن نعمه العظمى والكبرى أن خلقك وأوجب عليك طاعته في الدنيا، بل وخلق فيك الأعمال من أجل أن يشرفك ويكرمك، فتكون عبداً له لا لغيره، وفي الآخرة ليدخلك في دار البقاء والخلود، وهي دار كرامته وإكرامه وفضله.

الحكمة الثامنة والتسعون بعد المائة

مَنْ اسْتَغْرَبَ أَنْ يُنْقِذَهُ اللَّهُ مِنْ شَهْوَتِهِ، وَأَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ وُجُودِ غَفْلَتِهِ فَقَدْ اسْتَعْجَزَ الْقُدْرَةَ الْإِلَهِيَّةَ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]

فلا تستبعد على الله تعالى أن يجعلك من المقربين الصالحين؛ لأنك ترى نفسك عاصياً مقصراً، فالله تعالى على كل شيء قدير، فلا تستبعد على الله شيئاً، فالإنسان حجب عن ربه بشهواته وهواه والدنيا والشيطان، والإنسان ضعيف لا يستطيع أن ينقذ نفسه من هؤلاء الأعداء إلا أن ينشله الله ﷻ منها.

فإذا علمت أن الله ﷻ على كل شيء مقتدر، فلا تستغرب أن ينقذك مما أنت فيه من الشهوة والشيطان ومن الجهل والعصيان.

وإذا أردت أن تنتصر على أعدائك فيجب عليك أن تسلم أمرك لربك ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقَدِّرًا ۝٤٥﴾ [الكهف: ٤٥]، وأنت من الأشياء، والله ﷻ قادر أن يأخذك مما حجب نفسك فيه، حتى تنطلق في طريق السير إلى الله دون عقبات، ولا تقنط من رحمة الله تعالى وقدرته على أخذك من شهواتك والتوبة عليك، والزم باب الله ﷻ حتى إذا فتح الباب وجدك على بابه، فمن داوم قرع الباب يوشك أن يفتح له.

جاء أحد العصاة الذين أسرفوا على أنفسهم لأحد العباد في الأمم السابقة وقال له: لقد أفنيت عمري في السرقة ولم يدخل في جوفي طعام من الحلال، وكل ما كسبته في الدنيا سرقة فهل لي من توبة؟ فمد العابد يده إلى عود حطب قد جف وقال: انظر وخذ هذا العود إن أخضر فسيقبل الله توبتك وهو يقولها مستهزأً به، فأخذها السارق وتصور أنه جاد في كلامه، فأخذ العود ووضع أمامه وظل يصلي ويبكي ويقول: اللهم تب علي، اللهم تب علي، حتى استيقظ في أحد الأيام فوجد العود مخضراً، فهذه هي قدرة الله ﷻ ورحمته بعباده ﴿يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥]، وقال في آية أخرى ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، فعليك بالإحسان والمداومة على الإحسان حتى يأخذ الله ﷻ بيدك.

الحكمة التاسعة والتسعون بعد المائة

رُبَّمَا وَرَدَتْ الظُّلَمُ عَلَيْكَ لِيُعرفَكَ قَدْرَ مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْكَ

شرح الحكمة

أراد أن يحجبك بالمعصية حتى إذا أخذ بيدك ونقلك إلى مقام المعرفة عرفك قدر النعمة التي أنعم الله بها عليك، فغمسك أولاً في

ظلمات الغفلة والشهوة، فأذاقك ظلمة الغفلة والشهوة أولاً، حتى إذا منّ عليك بكمال أنوار المعارف والتجليات كثمرة لطاعته وقربه تعرف قيمتها، كالإنسان الذي كان فقيراً في أول حياته، ثم فتحت له الدنيا، فانظر كيف يكون حريصاً على المال؛ لأنه ذاق الفقر أولاً، فيعرف النعمة ليحفظها. أما الإنسان الذي ولد منغمساً في النعمة فتجده يفرط في المال ولا يأبه به؛ لأنه لم يذق ذل الفقر لحظة.

إذن: أراد أن يتعرف عليك بالغفلة لتعرف قيمة اليقظة، وأراد أن يتعرف عليك بالشهوة لتعرف قيمة الحرية منها، وأراد أن يتعرف عليك بالبعد عنه لتعرف قيمة الوصول إليه «رُبَّمَا وَرَدَتْ الظُّلَمُ عَلَيْكَ لِيُعرفَكَ قَدْرُ مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْكَ» فالله ﷻ يقبض ويبسط ففي القبض يعرفك قيمة العطاء؛ لأن الإنسان إذا عاش في النعمة لا يستشعر قيمتها إلا إذا حرم منها.

ولا يبلغ العبد المعرفة بالله حتى يرى العطاء في عين المنع، ويرى المنع في عين العطاء، ويرى القبض في البسط، ويرى البسط في القبض، فهو ﷻ يريد أن يتعرف عليك في كل شيء حتى لا تجهله في شيء ﴿يَقْلِبُ اللَّهُ﴾
الْأَيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ [النور: ٤٤].

وقد يكون العبد في مقام الطاعة والأنوار فيذيقه طعم الغفلة وظلمتها ليعرف نعمة ما كان فيه من فضل الله تعالى. فالإنسان لا يعرف قدر النعمة إلا بعد زوالها، وكل هذا حتى لا تركز إلى النعم وتنسى شكر المنعم، فيذيقك الظلمة حتى تبقى في مقام شكر ما أنعم الله تعالى به عليك.

والمهم في هذا الأمر ألا تيأس إذا سلبك بعد العطاء، فما سلبك إلا ليعطيك، وما سلبك إلا غيرة على قلبك من الركون إلى النعمة وتنسى المنعم.

الحكمة المائتات

مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ النِّعَمِ يَوْجَدَانِهَا عَرَفَهَا يَوْجُودِ فَقْدَانِهَا

شرح الحكمة

فالإنسان لا يشعر بنعمة الله عليه إلا إذا فقدها، كالإنسان الذي لا يشعر بنعمة والده إلا إذا فقدته، ونعمة أمه إلا إذا فقدتها ونعمة العافية إلا بالمرض، ونعمة العلم إلا إذا جرب وتجرع ذل الجهل، ونعمة العبادة والتوبة إلا إذا تجرع ذل المعصية، ونعمة اليقظة والحضور مع الله إلا إذا تجرع ذل الغفلة، ونعمة التجليات الرحمانية إلا إذا تجرع ذل الحجاب.... وهكذا. ولذا قلب الله ﷻ عليك الليل والنهار والعطاء والمنع حتى يأخذ بيدك من كل شيء فلا تترك لنعمة ولا تيأس في محنة، وحتى يشعرك بنعمه عليك لتشكرها وتحفظها وتنميها. وحفظها ونمائها باستعمالها في طاعة الله ﷻ، وضياعها استعمالها في معصيته ﷻ قال تعالى ﴿لَيْنْ شَكْرْتُمْ لَا زِيدَنْكُمْ وَلَيْنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

والشكر ليس باللسان فقط، بل الشكر بكل جوارحك، فاليد شكرها أن تعين المحتاجين، وأن تكسب الحلال، وأن تكف أذاها عن الخلق، وشكر القدم ألا تسعى إلا في الخير. وشكر اللسان ألا ينشغل إلا فيما يرضي الله ﷻ من ذكر وطاعة وتلاوة القرآن وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر يقول سبحانه: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ﴾ [النساء: ١١٤]، النجوى هي الكلام ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، فيجب أن تكون نجواك في هذه

المواضيع الثلاثة، فلا غيبة ولا نسيمة ولا فحش في الألفاظ ولا كلام فيما لا طائل وإلا قد تحرم نعمة اللسان. وليس المقصود أن يمنعك من النطق في الحال ولكن قد تحرم ثمرته، فتتكلم ولا يسمع منك ولا يؤثر الكلام فيك ولا في غيرك، فتحرم الثمرة مع وجودها، أو قد تحرم منها فيمنعك النطق أصلاً، ومن شكر النعمة أيضاً أن تنسبها إلى الله وليس لجهدك أو ذكائك وعلمك، وأن تقنع بها وتتصدق بما زاد عن حاجتك منها.

«مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ النِّعَمِ بَوَّجَدَانِهَا عَرَفَهَا بِوُجُودِ فَقْدَانِهَا» ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، فيبتليك بفقد النعم ليرقيك.

وهناك أمر آخر وهو أن العباد إذا لم يمحصهم بالابتلاءات طغوا وتجبروا، لأنه يعلم عباده ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٧]، لماذا؟ ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَيْرٌ بَصِيرٌ﴾.

الحكمة الأولى بعد المائتين

لَا تُدْهِشْكَ وَارِدَاتُ النِّعَمِ عَنِ الْقِيَامِ بِحَقِّ شُكْرِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَحُطُّ مِنْ وُجُودِ قَدْرِكَ

شرح الحكمة

«لا تُدْهِشْكَ» أي لا تشغلك «وَارِدَاتُ النِّعَمِ» الظاهرة والباطنة التي لا تدركها إلا بفقدانها؛ لأنك لا تشعر بها من كثرة واردات النعم عليك، فدْهِشت عن شعورك بهذه النعم.

«عَنِ الْقِيَامِ بِحُقُوقِ شُكْرِكَ» لأن النعم تستوجب الشكر، فلا تندesh وتنشغل بالنعمة عن المنعم «فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَحُطُّ مِنْ وُجُودِ قَدْرِكَ».

فلو أردت أن يبقى قدرك عاليا فكن عبداً شكورا ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، أثنى الله ﷻ على سيدنا نوح وقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، لأنه كان لا يضع اللقمة ولا يشرب الشربة إلا حمد الله عليها؛ لذلك قال الله تعالى ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٤) ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ (٢٦) ﴿فَأَبْتَنَّا فِيهَا حَبًّا﴾ (٢٧) ﴿وَعَبْنَا وَقَضَبًا﴾ (٢٨) ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ (٢٩) ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ (٣٠) ﴿وَفِكَهَةً وَأَبًّا﴾ (٣١) [عبس: ٢٤-٣١]، وهذا في طعام الأبدان، ونعمة طعام الأرواح أعظم وأعلى؛ لأنها معرفة الله ﷻ، فلفت انتباهك لغذاء الأبدان حتى تعطي الشكر عليها، ثم جاء بعد ذلك ولفت انتباهك لغذاء الأرواح والأسرار حتى تعطي الشكر عليه بعد ذلك وقال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال ﴿وَالَّذِينَ أَهْدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، زادهم هدى بشكرهم على الإيمان الأول، فإذا شكرت على الإيمان الأول تزداد هدى.

وهذا ما فعله إمام الشاكرين ﷺ فكان يقوم الليل حتى تنفطر قدها، وحين سئل عن ذلك قال «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»^(١)، وكان يقول ﷺ «لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»^(٢) فأقر بالعجز واجتهد بالشكر.

(١) البخاري (١١٣٨)، مسلم (٧٣٠٢)، الترمذي (٤١٤)، النسائي (١٦٥٥)، ابن ماجه (١٤٨٥).
(٢) مسلم (١١١٨)، أبو داود (٨٧٩)، الترمذي (٣٨٣١)، النسائي (١٧٠)، ابن ماجه (١٢٣٥).

وشكر النعمة ألا تعصي الله بنعمه، ثم تقوم بحققها فتتفق منها لغيرك، فأعطاك نعمة البصر وشكرها التدبر في الأكوان، وغض البصر عن أعراض الناس، وهكذا في بقية الجوارح، فتقوم بواجبات الشرع بالنعم التي أنعم الله تعالى عليك بها من صحة ومال وأمان وعقل وعلم وغيرها من النعم التي لا تعد ولا تحصى، ومن شكر هذه النعم أن تنفق منها على خلق الله تعالى. ومن شكر النعمة ألا تدخلها في قلبك فتتشغل بها على المنعم، بل تجعلها بيدك وتجتهد في استخدامها في طاعته سبحانه.

الحكمة الثانية بعد المانتين

تَمَكَّنْ حَلَاوَةَ الْهَوَى مِنْ الْقَلْبِ هُوَ الدَّاءُ الْعُضَالُ

شرح الحكمة

اعلم أن الهوى يُعمي ويُصم، يُعميك عن الصواب ويُصم أذنك عن سماع الحق، فيوقعك في المهالك، فلا بد أن تتخلص من الهوى بمخالفته حتى تصل إلى أن يكون هواك تبعاً لما جاء به النبي ﷺ. فالداء العضال هو تمكن الهوى من قلبك، فيمنعك أن تكون شاكراً، وأن تكون راضياً وأن تكون متوكلاً، وأن تكون مستسلماً لربك، بل الهوى يجعلك ترى الحق باطلا وترى الباطل حقاً ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، فالهوى يريد أن تعبده من دون الله، وأي داء أخطر من داء الشرك لذلك سماه داءً عضالاً.

الحكمة الثالثة بعد المائتين

لَا يُخْرِجُ الشَّهْوَةَ مِنَ الْقَلْبِ إِلَّا خَوْفُ مُزْعِجٍ أَوْ شَوْقُ مُقْلِقٍ

شرح الحكمة

الشهوة التي تكون في القلب هي متطلبات النفس الأرضية الحيوانية، فتشتاق للمال والنساء والمناصب والجاه وجميع ملذات الدنيا، ولا يخرج الهوى من القلب إلا إذا تجلى ربنا ﷻ بالجلال على القلب المملوء بالشهوات فيخوفه ويزعجه فيتوب القلب من شهواته خوفا من ربه لذلك قال الشيخ «إِلَّا خَوْفُ مُزْعِجٍ».

ثم قال «أَوْ شَوْقُ مُقْلِقٍ» أو يتجلى ربنا ﷻ على هذا القلب بالجمال فيزرع فيه الشوق إلى مولاه، فيسارع القلب بالتوبة والسعي في طلب رضا مولاه، ويزرع فيه الاشتياق فيخاف فراق المحبوب الحاضر. فإذا غلب عليك الشوق والاشتياق ستضحى بشهوات النفس من أجل مولاك.

وفي كلتا الحالتين لا حول ولا قوة لك، بل ولا اختيار ولا اكتساب، بل هي من محض فضل الله على من يشاء من عباده، فيجب عليك اللجوء إلى مولاك بالدعاء والتضرع في أن يخرجك مما أنت فيه من الشهوات، لذلك كان من دعاء سيدنا إبراهيم الدسوقي رحمته (وخذني إليك مني وارزقني الفناء عني ولا تجعلني مفتونا بنفسي محجوبا بحسي واكشف لي عن كل سر مكتوم يا حي يا قيوم) ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ [آل عمران: ٨]، (اللهم خذني إليك مني) أي من شهوتي ومن نفسي

ومن رغباتي ومن أشغالي ومن غفلاتي (وارزقني الفناء عني) فلا تبقى لي نفس تشتهي الشهوات (وحل بيني وبين غيرك حتى لا أشاهد في الكون إلا أثر إحسانك وبرك) لأنه ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] فلا تقل أبداً ﴿أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، بل كله من الله ﷻ ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِنِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

الحكمة الرابعة بعد المائتين

كَمَا لَا يُحِبُّ الْعَمَلَ الْمُشْتَرَكَ، لَا يُحِبُّ الْقَلْبَ الْمُشْتَرَكَ، الْعَمَلُ الْمُشْتَرَكُ لَا يَقْبَلُهُ، وَالْقَلْبُ الْمُشْتَرَكُ لَا يَقْبَلُ عَلَيْهِ

شرح الحكمة

اعلم أن الله ﷻ لا يحب العمل المشترك، لأنه أغنى الشريكين أن يشرك به، ويحب أن يكون العمل خالصاً لوجهه. فإذا كنت وأنت بشر لا تقبل وتغار أن يكون في قلب زوجتك غيرك، فالخالق من باب أولى، فيجب عليك ألا ترى مع الله أحداً؛ لأنه الموجود الحق وكل ما سواه غير موجود على الحقيقة بل قائم بالله. وإذا نظرت إلى المخلوقات فانظر أنها محل لتجليات الحق ﷻ فلا تحتقرها ولا تتعلق بها ولا تشغل بها أو تعتمد عليها.

قال الشيخ «كَمَا لَا يُحِبُّ الْعَمَلَ الْمُشْتَرَكَ، لَا يُحِبُّ الْقَلْبَ الْمُشْتَرَكَ» فكما لا يحب ﷻ العمل الذي أشرك فيه الإنسان غير الله، لا يحب القلب الذي فيه غيره؛ لأن الله ﷻ لا ينظر إلى صورتك ولكن ينظر إلى قلبك^(١). والقلب

(١) روى الإمام مسلم عن أبا هريرة يقول قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ حَدِيثَ دَاوُدَ وَزَادَ وَنَقَصَ وَمِمَّا زَادَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُورِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ. (٦٧٠٧).

هو بيت الله في جسد المسلم، فأنت أرض كسائر الأرض، فجعل في الأرض المحسوسة التي نعيش عليها بيتاً محرماً لا يُعبد فيه سواه، وجعل في الإنسان بقعةً محرمة لا يُعبد فيها سواه وهي القلب، وقد أمر الله ﷻ بتطهير البيت المحرم ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، نظهر البيت من أي شيء؟ من الأوثان، من سائر الشهوات، من الأهواء، من النظر إلى سوى الله. فإذا كان الله قد طهر البيت الحسي وهو الكعبة فيجب عليك أن تطهر القلب الذي فيك، فكل مسلم فيه كعبة، وكعبة المسلم قلبه، وعليه أن يطهرها؛ لأن الله لا يقبل على البيت المنجس بالأوثان والشهوات والأدناس والأرجاس. وإقبال الله ﷻ يكون بالتجليات وبالتوفيق وبالأنوار والمعارف والإشراقات، فيجعل له فرقانا بين الحق والباطل.

فالله سبحانه لا ينظر للقلب الذي فيه الأوثان ﴿فَمَا كَانَتْ لَشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ١٣٦] وقد أشركوا معه شركائهم ﴿فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، «فالعامل المشترك لا يقبله والقلب المشترك لا يقبل عليه».

فحب الدنيا من الأوثان، وحب الظهور والتميز من الأوثان، فطهر القلب من هاذين الوثنيين، فإذا تطهرت وأقبلت على الله أقبل عليك مولاك بأسرع مما تتوقع لذلك قال سيدنا رسول الله ﷺ «وإن تقربَ إلى بشيرٍ تقربتُ إليه ذِراعاً وإن تقربَ إلى ذِراعاً تقربتُ إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيتُهُ هرولاً»^(١).

(١) البخاري (٧٤٩٤)، مسلم (٦٩٨١)، الترمذي (٣٩٥٢)، ابن ماجه (٣٩٥٣)، أحمد (٧٥٤٠).

قال الشيخ «كَمَا لَا يُحِبُّ الْعَمَلُ الْمُشْتَرَكُ، لَا يُحِبُّ الْقَلْبُ الْمُشْتَرَكُ» المشترك بالرياء وبالعجب وبرؤية النفس، فإذا أقبل عليك أقبلت الأنوار على القلب لذلك قال في الحكمة التالية:

الحكمة الخامسة بعد المائتين

أنوار أذن لها في الوصول، وأنوار أذن لها في الدُّخُول.

شرح الحكمة

الأنوار في لغة القوم المعارف والفهوم، والمعارف والفهوم: هي عين كرامة الولي، وهناك أنوار تصل وأنوار تُدخل.

فالأنوار التي تصل لتوصل أنوار العبادة، وأنوار السلوك، والسير إلى الله ﷻ، فلا شك أن لكل عبادة نوراً، وأن لكل ذكر نوراً، ولكل ما يُرضي الله ﷻ من أوامر الشرع التي جاءت على لسان نبينا وأقواله وأفعاله ﷺ أنواراً.

فهذه الأنوار تهدي «أنوار أذن لها في الوصول» أي الوصول إلى معرفة الله، والوصول إلى رضا الله.

ثم قال: «وَأَنْوَارُ أُذُنٍ لَهَا فِي الدُّخُولِ» وهي الأنوار التي أذن لها في الدخول إلى سويداء القلب وهذه أنوار أهل الخصوص. فلا يأذن للأنوار في الدخول إلا لأهل الخصوص حتى يصيروا من أهل الحقائق والمعارف والأذواق. ولذا قال «أنوار أذن لها في الوصول» وهي أنوار الإسلام والإيمان، وهي الدلائل التي توصلك إلى الله ﷻ.

وكما تحتاج إلى النور ليكون دليلك في الظلمة، فأنت تحتاج لهذه الأنوار لتكون دليلك للوصول إلى الله ﷻ، فلا بد من أنوار الهداية، وأنوار الدلالة، وأنوار إرشاد النبي ﷺ وأنوار القرآن، وأنوار الذكر، وأنوار الصلاة وأنوار الفقه والتفقه والعلم ومعرفة الأدلة، فكلها أنوار للوصول، لكنها ليست للدخول فأنوار الوصول مكتسبة، وأنوار الدخول وهبية من الله ﷻ لذلك قال الله تعالى ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، فإذا كنت سائراً في الطريق فأنت قريب من رحمة الله، فإذا جاءت رحمة الله وجدت القلب منشرحاً فدخلت الأنوار في سويداء القلب، وإذا دخلت الأنوار في القلب اتصلت بالقلب العباد والمعرفة والإشراقات والمعارف فلا تنقطع أبداً؛ لأنها هبة من كريم، والكريم إذا وهب لا يقطع ﷻ، فهو يهب من استعان بالله، وأخذ بالجد والاجتهاد في أنوار الوصول بالإيمان وبالإسلام وبالعبادة وبتابع سبيل من أناب إلى الله بمجالسة الصالحين والمشايخ والعلماء وأهل الذكر؛ لأن ربنا قال: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥] والرسول ﷺ قال: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»^(١).

ومن دخلت الأنوار في قلبه صار محفوظاً، وهي وراثه من عصمة النبي ﷺ، فالعصمة للنبي والحفظ للولي، فيصير مهدياً في نفسه هادياً لغيره. ولا يدرك هذه المعاني إلا من دخلت الأنوار إلى سويداء قلبه فترقى من حال أهل الدليل إلى حال أهل الدلالة، فأهل الدليل معهم أنوار الوصول، وأهل الدلالة معهم أنوار الدخول.

(١) أبو داود (٤٨٣٥)، الترمذي (٢٥٥٢)، أحمد (٨١٣٤).

وإذا سأل الإنسان ما الذي يمنع دخول الأنوار في قلبي فقد أجاب الشيخ عن هذا السؤال في الحكمة التالية فقال:

الحكمة السادسة بعبر اللاتين

رُبَّمَا وَرَدَتْ عَلَيْكَ الْأَنْوَارُ فَوَجَدْتَ الْقَلْبَ مَحْشُوءًا بِصُورِ الْأَثَارِ فَارْتَحَلْتَ
مِنْ حَيْثُ جَاءَتْ

شرح الحكمة

قد يرسل إليك الأنوار فتجد القلب ممتلئاً فترحل؛ لأن المملوء لا يمتلئ، «فَوَجَدْتَ الْقَلْبَ مَحْشُوءًا بِصُورِ الْأَثَارِ» فإذا كان القلب محشواً بالآثار أي بسوى الله ﷻ وتأتي الأنوار فتطرق القلب للدخول فتجده محشواً فترتحل من حيث جاءت.

قال «رُبَّمَا وَرَدَتْ عَلَيْكَ الْأَنْوَارُ» أنوار الدخول «فَوَجَدْتَ الْقَلْبَ مَحْشُوءًا بِصُورِ الْأَثَارِ فَارْتَحَلْتَ مِنْ حَيْثُ جَاءَتْ» فتأتيك أنوار الملكوت لتدخل فتجد القلب ممتلئاً بالملك وما حوى، أي محبوب بالملك عن الملكوت فترحل ولا تدخل، وممتلئ بالأعراض القلبية، كالحقد، والحسد، والشهوة، والطمع وغيرها كثير فلا تدخل، فتحرم منها لكونك قد انشغل قلبك بظلمات الأكوان. فإذا كنت يقظاً وطهرت قلبك من الأكوان رأيت الأنوار ودخلت قلبك. وإن كنت نائماً غافلاً عن ربك ستحرم من رؤيتها والاستفادة منها.

وأنوار العلوم والمعارف الموصلة إلى الله ﷻ لا تنتهي، فلا بد أن تتبرى من كل ما سوى الله، ولا تقنع بشيء أبداً إلا بالله ﷻ، فلو كان العلم له نهاية ولو كانت المعارف والعوارف والأذواق لها نهاية ما قال لنبيه ﷺ ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وهو أعلم الخلق بالله، فدل على أن الأنوار لا نهاية لها، أنوار الملك وأنوار الملكوت، وأنوار الجبروت، أو قل أنوار عالم الغيب، وأنوار عالم الشهادة، وأنوار عالم الإرادة، أو قل أنوار الآثار، وأنوار الصفات، وأنوار الأفعال، وأنوار الذات، فتنتقل من نورٍ إلى نورٍ إلى نورٍ إلى نورٍ. وكلما تشبعت بنور عرفت أنك جاهل في علمك فكيف لا تكون جهولاً في جهلك. ولذا يصل العبد في الآخر إلى مقام الحيرة، ومقام الحيرة مقام فيه ترقٍ أيضاً، حيث إنه أيقن بكمال العجز فيغطي الله ﷻ عجزه بالقدرة، ويغطي جهله بالعلم؛ لأنك إذا صرت عبداً وعبدته بالذل أعزك، ولو عبدته بالعجز أقدرك، لذلك قال في الحكمة التالية:

الحكمة السابعة بعد المائتين

فَرَّغْ قَلْبَكَ مِنَ الْأَغْيَارِ يَمْلَأُهُ بِالْمَعَارِفِ وَالْأَسْرَارِ.

شرح الحكمة

الأغيار هي الآثار: وهي كل ما سوى الله تعالى «فَرَّغْ قَلْبَكَ مِنَ الْأَغْيَارِ يَمْلَأُهُ بِالْمَعَارِفِ وَالْأَسْرَارِ» أي فرغ قلبك مما سوى الله تعالى، فلا تشغل بأثر الصفة عن الصفة، ولا بأثر الفعل عن الفاعل. فإذا مُحِقت الآثار

وتخلصت من الأواني ستنتقل إلى المعاني، ثم من المعاني إلى المعنى، ثم من المعنى إلى الذوق، ثم من الذوق إلى معرفة ربك ﷺ. فإذا عرفت أنه هو الله ﷻ عرفت أنه أراد أن يتعرف عليك في كل شيء حتى لا تجهله في شيء. فإذا عرفت الباقي كفرت بالفاني، فلا تلتفت لها ولا تتعلق بها؛ لأنك تبرأت من كل حادث متغير يزول وتعلقت بالقديم الباقي الذي لا يزول، ففر من اختيارك إلى اختياره، ومن مرادك إلى مراده حتى تستلم له، فإذا استسلمت له دخلت الأنوار إلى قلبك.

الحكمة الثامنة بعد المائتين

لَا تَسْتَبْطِئُ النَّوَالَ، وَلَكِنْ اسْتَبْطِئْ مِنْ نَفْسِكَ وُجُودَ الْإِقْبَالِ

شرح الحكمة

لا تدخل الأنوار إلى قلبك بالكلية حتى تتفرغ له بالكلية. وأقبل على مولاك بكلك، وافتح أبواب قلبك وأخرج منه السوى؛ ليقبل عليك المولى ﷻ، لذلك قال «لَا تَسْتَبْطِئُ النَّوَالَ، وَلَكِنْ اسْتَبْطِئْ مِنْ نَفْسِكَ وُجُودَ الْإِقْبَالِ». فلا تتهم ربك بأنه بخل عليك، بل اتهم نفسك بالتقصير. فالله ﷻ كريم إذا أقبلت إليه تخطو يقبل إليك هرولة كما أخبر النبي ﷺ في أكثر من حديث^(١).

(١) البخاري (٧٤٩٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَى بَشِيرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً. مسلم (٦٩٨١)، الترمذي (٣٩٥٢)، ابن ماجه (٣٩٥٣)، أحمد (٧٥٤٠).

فاتهم نفسك ولا تتهم ربك ﷻ وحاشاه سبحانه من كل تهمة، وابحث عن عيوبك التي حجب نوال الله ﷻ عنك. والإقبال عبادة قلبية، فاحرص أن يكون قلبك متجهًا لله لا إلى الدنيا، واحرص أن تكون عبادة قلبك لله لا لأجل دنيا. فاجعل قبة قلبك لحبيبه ﷺ، واجعل قبة سرِّك وروحك لمولايك ﷻ، وطهر قلبك مما سواه يقبل عليك بالفتح والنور والفهم.

الحكمة التاسعة بعد المائتين

حُقُوقٌ فِي الْأَوْقَاتِ يُمَكِّنُ قَضَائُهَا، وَحُقُوقُ الْأَوْقَاتِ لَا يُمَكِّنُ قَضَائُهَا،
إِذَا مَا مِنْ وَقْتٍ يَرِدُ إِلَّا وَلِلَّهِ عَلَيْكَ فِيهِ حَقٌّ جَدِيدٌ، وَأَمْرٌ أَكِيدُ، فَكَيْفَ
تَقْضِي فِيهِ حَقَّ غَيْرِهِ، وَأَنْتَ لَمْ تَقْضِ حَقَّ اللَّهِ فِيهِ

شرح الحكمة

وحقوق الأوقات أن تجعل كل أوقاتك لله تعالى، وأن ترى الله ﷻ في كل شيء فاعل، وعلى كل شيء حاكم، وفي كل تدبير متفضل، وفي كل فعل قاهر، فالله ﷻ هو الفعال لما يريد، ولا تنسب الفعل لغيره، قل إن الأمر كله لله. فإذا عرفت الله في كل شيء عرفت حق الأوقات، فلا تجهله في شيء. وهناك حقوق في الأوقات، وهي غير حقوق الأوقات، فالحقوق التي في الأوقات هي الأوامر التي أمرك الله بها وتعلقت بزمان معين، كالصيام في شهر رمضان، والصلوات الخمس متعلقة بأوقات معينة. فإن فات وقتها بغير عذر شرعي تأثم، ويمكن قضائها لكن إن فات حق الوقت فلا يمكن قضائه. لذلك قال: «حُقُوقٌ فِي الْأَوْقَاتِ يُمَكِّنُ قَضَائُهَا، وَحُقُوقُ الْأَوْقَاتِ لَا يُمَكِّنُ قَضَائُهَا» يبين لك العلة لماذا حقوق الأوقات لا يمكن قضائها؟

فالجواب كما قال الشيخ: «إِذْ مَا مِنْ وَقْتٍ يَرِدُ إِلَّا وَلِلَّهِ عَلَيْكَ فِيهِ حَقٌّ جَدِيدٌ، وَأَمْرٌ أَكِيدُ، فَكَيْفَ تَقْضِي فِيهِ حَقَّ غَيْرِهِ وَأَنْتَ لَمْ تَقْضِ حَقَّ اللَّهِ فِيهِ».

فحقوق الأوقات حقيقة، وحقوق في الأوقات شريعة. فالمطلوب منك في وقت المعصية أن تشهد الندم، وتشهد العفو والصفح، وتشهد الحياء من الله ﷻ، وتتعظ وتبصر وتقلع في الحال. والمطلوب منك في وقت الطاعة شهود المنة والفضل من الله تعالى.

فالمطلوب من العامي في وقت المعصية تغليب الخوف، وفي وقت الطاعة تغليب الرجاء. أما الولي الذي عرف ربه ففي وقت الطاعة يغلب الخوف؛ لأنه خائف من عدم القبول ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، وفي وقت المعصية يغلب الرجاء ﴿قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]؛ لذلك قال حكمة سابقة: «من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل» فحق الوقت أن تشهده، وحق في الوقت أن تعبده.

الحكمة العاشرة بعد المائتين

مَا فَاتَ مِنْ عُمْرِكَ لَا عِوَضَ لَهُ، وَمَا حَصَلَ لَكَ مِنْهُ لَا قِيَمَةَ لَهُ

شرح الحكمة

«مَا فَاتَ مِنْ عُمْرِكَ» أي في غير طاعة الله «لَا عِوَضَ لَهُ» فرأس مالك الحقيقي هو عمرك، فكيف ستسترجعه إذا فات، هيهات هيهات. فلو فات وقت صلاة الفجر أو صيام شهر رمضان فلا تستطيع شراءه وإعادته ولو بمال الدنيا فانتبه.

ثم قال: «وَمَا حَصَلَ لَكَ مِنْهُ» أي من تحصيل طاعة «لَا قِيَمَةَ لَهُ» أي لا قيمة له فتقدر أجره وثوابه لعظمته؛ لأنك حصلته في وقته.

فالله تعالى آخر ثواب أعمالك؛ لأنها أعلى من الدنيا وما فيها. لذلك قال النبي ﷺ «رَكَعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»^(١).

الحكمة الحادية عشرة بعد المائتين

مَا أَحْبَبْتَ شَيْئًا إِلَّا كُنْتَ لَهُ عَبْدًا، وَهُوَ لَا يَحِبُّ أَنْ تَكُونَ لِغَيْرِهِ عَبْدًا

شرح الحكمة

المحبة عبادة كبيرة، والله ﷻ تعبدنا بالمحبة؛ لأنها عبادة قلبية تجبر ما نقص من أعمال الجوارح، والإنسان قد يصل بالحب ما لا يصله بأعماله. فالله ﷻ تعبدنا بمحبته، ومحبة نبيه ﷺ، ومحبة الوالدين، ومحبة الصالحين، ومحبة الأعمال الصالحة، ومحبة كل ما هو محبوب لله تعالى.

ولمّا سئل الرسول ﷺ عن الساعة، قال النبي ﷺ: من السائل عن الساعة؟ قال: أنا يا رسول الله قال: وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ قَالَ لَا شَيْءَ إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ^(٢) فلم يدلّه على أعمال زائدة مع المحبة؛

(١) مسلم (١٧٢١)، الترمذي (٤١٨)، النسائي (١٧٧٠)، أحمد (٢٦٧٢٩).

(٢) البخاري (٣٧٣٢) حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ فَقَالَ مَتَى السَّاعَةُ قَالَ وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا قَالَ لَا شَيْءَ إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ فَقَالَ أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ قَالَ أَنَسٌ فَمَا فَرَحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحْنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ قَالَ أَنَسٌ فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَأَزْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ. ومسلم (٦٨٧٨)، أبو داود (٥١٢٨)، والترمذي (٢٥٦٠)، أحمد (١٢٢٥٨).

لأن المحبة تجبر نقصان الأعمال، وفرح الصحابة بهذا الحديث فرحاً شديداً، ونحن نفرح أيضاً بهذا الحديث؛ لأننا نحب الله ورسوله، ونحب الصحابة، ونحب الأولياء والصالحين. فإذا كانت أعمالنا ناقصة فإن شاء الله سنحشر مع من أحببنا بيشارة رسول الله ﷺ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١]، بسبب المحبة، فالحب عبادة كبيرة تجبر أعمال الجوارح الناقصة^(١).

ولذا يقول في هذه الحكمة مبيناً على أهمية المحبة «مَا أَحْبَبْتَ شَيْئًا إِلَّا كُنْتَ لَهُ عَبْدًا، وَهُوَ لَا يَحِبُّ أَنْ تَكُونَ لِغَيْرِهِ عَبْدًا» وهذا هو معنى العبودية، أن تسارع في هوى محبوبك، وتخضع له كمال الخضوع. والله ﷻ لا يريدك أن تخضع لغيره، فإن خضعت لغيره كنت عبداً لغيره، وهو لا يريد إلا أن تكون عبداً له؛ لأنه أراد أن يكرمك ويشرفك.

ولو خضعت لهواك ولشهوكت صرت عبداً لنفسك ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، يعني شهوته ورغبته، أي نفسه ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ يعني أحب نفسه فصار مسارعاً في مرضاة نفسه، خاضعاً كمال الخضوع لرغبات نفسه ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَمَلِهِ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣].

(١) وهناك دليل من السنة على ما ذكره الشيخ يسري جبر حفظه الله، فقد روى ابن ماجه عن الأذرع السلمي قال جئت ليلة أخرس النبي ﷺ فإذا رجل قراءته عالية فخرج النبي ﷺ فقلت يا رسول الله هذا مراء قال فمات بالمدينة ففرغوا من جهازه فحملوا نعشه فقال النبي ﷺ ارفقوا به رفق الله به إنه كان يحب الله ورسوله قال وحضر حفرته فقال أوسعوا له أوسع الله عليه فقال بعض أصحابه يا رسول الله لقد حزنت عليه فقال أجل إنه كان يحب الله ورسوله. (١٦٤٤).

وقال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال المصنف في مناجاته «ماذا فقد من وجدك وماذا وجد من فقدك؟!» فالذي وجد الله ﷻ لم يفقد شيئاً، بل وجد كل شيء، والذي عنده كل شيء وفقد الله ﷻ فقد فقد كل شيء؛ لأن كل ما سوى الله هالك ﴿كُلُّ مَن عَلَيهَا فَإِنَّ﴾ [الرحمن: ٢٦]، فأراد الشيخ أن يبين لك أهمية المحبة، وهي بمعنى كمال الخضوع، وكمال الامتنان، وكمال الشعور بالمسارعة في مرضاة من تحب فقال: «مَا أَحْبَبْتَ شَيْئًا إِلَّا كُنْتَ لَهُ عَبْدًا، وَهُوَ لَا يَحِبُّ أَنْ تَكُونَ لِغَيْرِهِ عَبْدًا» ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] فالآية فيها إشارة، بمعنى إن كنتم تحبون الله فاتبعوا حبيبه ﷺ، فمن اتبع الحبيب صار محبوباً، فسارع في متابعة النبي ﷺ تصير محباً لله حقيقة .»

الحكمة الثانية عشر بعد المائتين

لَا تَنْفَعُهُ طَاعَتُكَ وَلَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَتُكَ، وَإِنَّمَا أَمْرُكَ بِهِدَاهُ وَنَهَاكَ عَنْ هَدَاهُ لَمَّا يَعُودُ إِلَيْكَ

شرح الحكمة

ينبهك في هذه الحكمة ويحذرك من أن تظن أن الله ﷻ يتنفع بطاعتك ومحبتك له حين طالبك بالعبادة والمحبة.

قال الشيخ: «لَا تَنْفَعُهُ طَاعَتُكَ» لأن الله ﷻ أول بلا بداية وآخر بلا نهاية، مستغن عن الخلق، قهار، فعال لما يريد، وأنت عدم، فهل ينتفع الغني الباقي بالعدم الفاني ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

قال الشيخ: «لَا تَنْفَعُهُ طَاعَتُكَ وَلَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَتُكَ، وَإِنَّمَا أَمْرَكَ بِهَذِهِ وَنَهَاكَ عَنْ هَذِهِ لِمَا يَعُودُ إِلَيْكَ» من النفع حتى تصل إليه فلا تحجب.

الحكمة الثالثة عشر بعد المائتين

لَا يَزِيدُ فِي عِزِّهِ إِقْبَالُ مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عِزِّهِ إِدْبَارُ مَنْ أَدْبَرَ عَنْهُ

شرح الحكمة

«لَا يَزِيدُ فِي عِزِّهِ إِقْبَالُ مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ» فالله ﷻ عزيز، ولو أدبر الخلق كلهم عن الله فلا يؤثر هذا في عزه شيء، إذ ليس معه شيء، بل هو القائم بنفسه وبغيره، قيوم السموات والأرض ومن فيهن.

والنبي ﷺ قال في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا^(١)».

(١) مسلم (٦٧٣٧) عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيَمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ

فلما أمرك أن تحبه، وأن تتفرغ لطاعته، وأن تتبعد عن معصيته، فكل ذلك ليعود النفع إليك؛ لأنه أراد أن يقربك منه ويدخلك حضرته، لذلك قال في الحكمة التالية:

الحكمة الرابعة عشر بعد المائتين

وُصُولُكَ إِلَيْهِ وَوُصُولُكَ إِلَى الْعِلْمِ بِهِ، وَإِلَّا جَلَّ رَبُّنَا أَنْ يَتَّصِلَ هُوَ بِشَيْءٍ

شرح الحكمة

«وُصُولُكَ إِلَيْهِ» أي وصول مكانة لا مكان ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، فالمسألة ليست بقطع المسافة؛ لأنه أقرب إليك من حبل الوريد. والمسافة هنا: مسافة في نفسك، وهي مسافة حجابك بسبب شهواتك وغفلتك. فالمسافة هي الحجب التي أراد الله سبحانه وتعالى أن تخترقها بطاعته حتى تصل إليه؛ لذلك قال في هذه الحكم: «لَوْ لَا مَيَادِينُ النَّفْسِ مَا تَحَقَّقَ سَيْرُ السَّائِرِينَ» فتقطع المسافات بمجاهدة نفسك، فتجتاز الحجب حتى تصل إلى الله ﷻ.

هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعَمُونِي أَطْعَمَكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسَكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا صَرَىٰ فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْ سَكُمُ وَجَنَكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَتَقَىٰ قَلْبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْ سَكُمُ وَجَنَكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْ سَكُمُ وَجَنَكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْوَحْيُ إِذَا أَذْجَلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصَيْهَا لَكُمْ ثُمَّ أَوْفَيْكُمْ بِهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمِدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ قَالَ سَعِيدٌ كَانَ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيُّ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ جَنَّا عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ. ورواه الترمذي (٢٦٨٣)، وأحمد (٢١٧٦٤).

لذلك يقول سيدي ابن عطاء صاحب هذه الحكم في مناجاته «إلهي ما أقربك مني وما أبعدني عنك» أي أنت قريب؛ لأنك أقرب إلينا من حبل الوريد، وأنا البعيد بشهواتي ومعصيتي وغفلاتي. فإن تركت نفسي وشهواتي وجدتك أقرب إليّ مني.

فالوصول هنا هو وصول إلى العلم به «وُصُولُكَ إِلَيْهِ وَوُصُولُكَ إِلَى الْعِلْمِ بِهِ، وَإِلَّا فَجَلَّ رَبُّنَا أَنْ يَتَّصِلَ هُوَ بِشَيْءٍ» فالمسألة ليست اتصال وانفصال وحلول واتحاد، فالقرب قرب المكانة والمنزلة،

لا قرب المكان؛ لأنه ﷻ خلق المكان والزمان وهما عدم على الحقيقة ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، فإذا ظهر الله ﷻ بتجلياته فنى كل شيء، فلا مسافات ولا عبيد ولا أكوان ولا خلق.

فإذا وصلت إلى كمال المعرفة بالله ﷻ تيقنت أن كل ما سوى الله فان، وأنه هو الله الدائم الباقي ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]، فتركت الفرق إلى الجمع، والجمع إلى جمع الجمع.

فالفرق: أن ترى مع الله ﷻ مخلوقاً.

والجمع: ألا ترى مع الله أحداً.

وجمع الجمع: ألا ترى حتى نفسك.

لذلك لما قال سيدي أبو يزيد البسطامي ﷺ في مناجاته لربه: يا رب متى الوصول إليك؟ سمع هاتفاً من داخله يقول له: اترك نفسك تجدني أقرب إليك منك. فلما ترك نفسه وانخلع منها وجد الله ﷻ.

فالوصول هو وصول في الترقى بالعلم بالله ﷻ، فتجده متجليا في كل شيء ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، وتجده فاعلا في كل شيء ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، وتجده متصرفا في كل شيء ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ [الرعد: ٢]، وهذا معنى الوصول إلى الله.

الحكمة الخامسة عشر بعد المائتين

قُرْبُكَ مِنْهُ أَنْ تَكُونَ مُشَاهِدًا لِقُرْبِهِ، وَإِلَّا فَمِنْ أَيْنَ أَنْتَ وَوُجُودُ قُرْبِهِ.

شرح الحكمة

لأنه أقرب إليك من حبل الوريد، وأنت البعيد بشهواتك وغفلاتك ومعصيتك فصرت بعيدا بحجابك، وهو ﷻ القريب ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦].

قال الشيخ: «قُرْبُكَ مِنْهُ أَنْ تَكُونَ مُشَاهِدًا لِقُرْبِهِ» فإذا فتشت تجده أقرب إليك مما كنت تتصور، ولا تشعر بهذا القرب؛ لانشغالك بحجابك؛ ولأنك محجوب، والله سبحانه لا يحجبه شيء؛ لأنه لو كان محجوباً لكان مقهوراً، وهو القاهر فوق عباده، وهو الظاهر ليس فوقه شيء، وهو الباطن ليس دونه شيء.

فإن تخلصت وفرغت القلب من الأغيار شهدته أقرب إليك من حبل الوريد. «وَالْإِلا فَمِنْ أَيْنَ أَنْتَ وَوُجُودُ قُرْبِهِ».

الحكمة السادسة عشر بعد المائتين:

الْحَقَائِقُ تَرُدُّ فِي حَالِ التَّجَلِّي مُجْمَلَةً، وَبَعْدَ الْوَعْيِ يَكُونُ الْبَيَانُ ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ
فَأَنبَغُ قُرْآنُهُ﴾ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾

شرح الحكمة

هذه الأنوار والتجليات تقع على قلب العارف وتكون مجملة حين نزولها، فإذا أراد أن يُعبر عنها فصلها، فيأتي الإجمال أولاً، ثم التفصيل ثانياً، فيجريها على لسانه ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَأَنبَغُ قُرْآنُهُ﴾ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ [القيامة: ١٨-١٩]، لأنهم ورّاث للنبي ﷺ. وقد يُعبر عن المعنى المجمل الذي وقع في قلبه عدة تعبيرات، فيبينه بمعنى، وبعد مدة من الزمن يُظهره بمعنى آخر وهكذا.

ولا بد أن يُخلص العبد لله ﷻ في أعماله ليكون مقبولاً، ولا بد أن يطهر قلبه مما سوى الله ﷻ ليقبل الله عليه. فإذا أقبل الله ﷻ على القلب تجلت في القلب أنوار المعارف وأنوار القرب.

وأحياناً تكون التجليات والأنوار قوية فيغيب الإنسان عن حسه، فيصير مجذوباً بالكلية. وأحياناً تكون هذه الأنوار بقدر الأواني، أي بقدر القلوب فتتحمّلها، وتنفسح لها، فتنبت الأعمال الصالحة، وتنبت الحكم والمعارف، حتى إن كثيراً من العلماء الذين حفظوا المعقول والمنقول إذا سمع كلام الأولياء الذين تجلّى الله تعالى على قلوبهم بالأنوار والمعارف والحكم يتعجب؛ لأنه لم يجده في السطور، ولم يسمعه من العلماء. لذلك

لما سمع سيدنا العز بن عبد السلام^(١) كلام سيدنا أبي الحسن الشاذلي رحمته الله قال: (اسمعوا لهذا الكلام الحديث العهد بربه).

واعلم أن الوحي على أربعة أقسام، ثلاثة يشترك فيها الأولياء مع الأنبياء، وواحد ينفرد به الأنبياء.

والأربعة هي: وحي الإلهام، ووحى الإعلام، ووحى المنام، ووحى الأحكام.

فوحى الإلهام أشار إليه بقوله ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فِإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ [القصص: ٧].

(١) عز الدين بن عبد السلام (٥٧٧ - ٦٦٠ هـ) هو عبد العزيز بن عبد السلام أبي القاسم بن الحسن الشُّلَمي، يلقب بسلطان العلماء. وبائع الملوك وشيخ الإسلام، هو عالم وقاضٍ مسلم، فقيه شافعي مجتهد. ولد بدمشق وتولى التدريس والخطابة بالجامع الأموي. انتقل إلى مصر فولى القضاء والخطابة. برع في الفقه والأصول والتفسير واللغة، وبلغ رتبة الاجتهاد، قال الحافظ الذهبي: «بلغ رتبة الاجتهاد، وانتهت إليه رئاسة المذهب، مع الزهد والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصلابة في الدين، وقَصَدَه الطلبة من الآفاق، وتخرج به أئمة، وقد نقل ابن السبكي: أن الشيخ عز الدين لبس خرقة التصوف من الشيخ الشُّهروردي، وأخذ عنه، وذكر أنه كان يقرأ بين يديه «رسالة القشيري»، ثم قال ابن السبكي: «وقد كان للشيخ عز الدين اليد الطولى في التصوف، وتصانيفه قاضية بذلك». وقال السيوطي: له كرامات كثيرة، ولبس خرقة التصوف من الشهاب الشُّهروردي، وكان يحضر عند الشيخ أبي الحسن الشاذلي، ويسمع كلامه في الحقيقة ويعظمه. قال الشعراني: «وكان الشيخ عز الدين رحمته الله يقول بعد اجتماعه على الشيخ أبي الحسن الشاذلي وتسليمه للقوم: «من أعظم الدليل على أن طائفة الصوفية قعدوا على أعظم أساس الدين ما يقع على أيديهم من الكرامات والخوارق، ولا يقع شيء من ذلك قط لفقيه إلا إن سلك مسلكتهم كما هو مشاهد»، وكان الشيخ عز الدين رحمته الله قبل ذلك ينكر على القوم، ويقول هل لنا طريق غير الكتاب والسنة، فلما ذاق مذاقهم، وقطع السلسلة الحديدية بكراسة الورق، صار يمدحهم كل المدح. «من تصانيفه: «قواعد الأحكام في مصالح الأنام». و«الفتاوى»، و«التفسير الكبير».

ووحى الإعلام: هو تعليم الله تعالى لعباده المتقين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾^١ و﴿يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، والرسول ﷺ يقول: «من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم»^(١)

ووحى المنام وهي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له، والرؤيا إذا كانت للأنبياء فهي وحى في حقهم، كقصة سيدنا إبراهيم لما رأى في الرؤيا أنه يذبح ابنه فامتثل؛ لأنه نبي ورؤيا النبي وحى وأمر إلهي؛ لأنه معصوم من الخطأ في جانب الرؤيا. أما الولي فليس بمعصوم في جانب الرؤيا. ثم النوع الرابع هو وحى الأحكام، وهذا خاص بالأنبياء. وهو الذي ينزل عليهم الوحي بالتشريع.

فعلما أن الولي يتفق مع النبي في ثلاث من أنواع الوحي، وهذه الثلاثة أنواع من الوحي هي أنوار التجليات في قلوب الواصلين، تأتي مجملَةً بمعارف، ثم بعد ذلك تفصل على ألسنتهم.

وهي ناتجة عن استمرار مراقبة الله عز وجل، وناتجة عن دوام معرفتهم بربه فلم يجهلوه في شيء،

لذلك قال: «الْحَقَائِقُ تَرِدُ فِي حَالِ التَّجَلِّي مُجْمَلَةً، وَبَعْدَ الْوَعْيِ يَكُونُ الْبَيَانُ ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ﴾ [القيامة: ١٨]» أي تجلينا عليك بالقراءة ﴿فَأَنْبَغُ قُرْآنُهُ﴾ [القيامة: ١٨] يعني استوعبه ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٩] أي نوفقك لبيانه تفصيلا، وهذا الذي عبر عنه سيدنا رسول الله ﷺ «إِنَّ اللَّهَ فِي دَهْرِكُمْ

(١) أبو نعيم في الحلية ج ٦ ص ١٦٣، والعجلوني في كشق الخفاء (٢٣٤٦).

نفحات ألا فتعرضوا لها»^(١) فالنبي ﷺ سماها نفحات، والأولياء سموها واردات أو تجليات.

وهنا نفهم قول سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين قال: (لو أردت أن أوقر سبعين بغيراً في تفسير فاتحة الكتاب لأوقرت) ذلك لأن الله تعالى تجلى على قلبه بالعلوم والأسرار ففهم من الفاتحة ما لم يفهمه غيره.

الحكمة السابعة عشر بعد المائتين

مَتَى وَرَدَتِ الْوَارِدَاتُ الْإِلَهِيَّةُ عَلَيْكَ هَدَمَتِ الْعَوَائِدُ عَلَيْكَ ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: ٣٤].

شرح الحكمة

قال الشيخ «الوارداتُ الإلهية» ليبين لك أن هذا الخاطر من خواطر الهداية، فتدخل على القلب فتهدم ما فيه من شبهات وغفلة وتهديك لما يريدك الله ﷻ منك.

واعلم أن الواردات نوعين:

الأول: واردات خرق العوائد للسالك المبتدئ العابد.

(١) البيهقي في شعب الإيمان (١٠٨٣) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اطْلُبُوا الْخَيْرَ دَهْرَكُمْ كُلَّهُ وَتَعَرَّضُوا لِنَفَحَاتِ رَحْمَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ لِلَّهِ نَفَحَاتٍ مِنْ رَحْمَتِهِ يُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ؛ وَسَلُّوا اللَّهَ أَنْ يَسْتُرَ عَوْرَاتِكُمْ وَيُؤَمِّنَ رَوَعَاتِكُمْ». والطبراني في المعجم الكبير (٧٢٠)، وأبا شيبة في مصنفه (٣٤٥٩٤)، والعجلوني في كشف الغطاء (٧٠٨).

الثاني: واردات المعارف والأنوار التي ترد على قلب الواصل.
 فالعابد يعبد الله ﷻ بنفسه لا بالله، والواصل يعبد الله ﷻ بالله؛ لأنه بدأ
 (إياك نعبد) وانتهى إلى (إياك نستعين)، فالسالك يبدأ عابداً لله، والواصل
 يصير عابداً بالله.

لذلك نسب العابد العمل لنفسه؛ لأن نفسه ما زالت موجودة في حسه،
 وقلبه متعلق بالأغيار وبآثار الأكوان، فتأتي واردات خرق العوائد لتقلقه من
 الأكوان، ولتمحص القلب فيصير قلباً خالصاً لله.

لذلك قال الشيخ: «مَتَى وَرَدَتِ الْوَارِدَاتُ الْإِلَهِيَّةُ عَلَيْكَ هَدَمَتِ
 الْعَوَائِدَ عَلَيْكَ» فالوارد يهدم الدنيا في قلب السالك بالتدريج.

فقلب السالك إذا تعلق بالعبادة لا بالمعبود، وبالذكر لا بالمذكور،
 وبالنعمة لا بالمنعم أرسل الله تعالى عليه واردات القهر لتطهره من
 الالتفات إلى السوى ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا
 أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤]. والقرية في التفسير الإشاري هي نفسك
 وقلبك، و«الوارد» هو الذي يفسد القرية ويطهر قلبك من التعلق بسوى
 مولاه؛ لأن قلبك كان منهمكاً في قضاء شهواتك، وقضاء عوائدك.

لذلك قال في الحكمة التالية:

الحكمة الثامنة عشر بعد المائتين

الْوَارِدُ يَأْتِي مِنْ حَضْرَةِ قَهَّارٍ، لِأَجْلِ ذَلِكَ لَا يُصَادِمُهُ شَيْءٌ إِلَّا دَمَعَهُ
 ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]

شرح الحكمة

لأن هذا الوارد جاء من حضرة القهار فيقهره، والله قاهر فوق عباده. فإذا جاء وارد القهار قهر كل شيء ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وهو نفس معنى كلام سيدي ابن مشيش^(١) الذي

(١) هو القطب الأكبر، والعالم الأشهر، والطود الأظهر، عبد السلام بن سليمان بن أبي بكر بن علي الحسني، ولد سنة تسع وخمسين وخمسمائة من الهجرة في منطقة بني عروس بالغرب من طنجة في المغرب العربي، ثم انتقل للعيش في جبل العلم قرب العرائش، وهناك توفي سنة خمس وعشرين وستمائة من الهجرة شهيداً على يد قوم بعثهم ابن أبي الطواجين السامر المدعي النبوة. يقول الشيخ عبد الحليم محمود في كتابه القطب الشهيد: مما وقع له أثناء سياحته أنه بات ليلة في مغارة وبينما هو يتعبد إذ رأى شيخاً يدخل عليه المغارة فقال له: من أنت؟

قال الشيخ: أنا شيخك منذ أن كنت ابن سبع سنين وكل ما يصلك من النازلات فهو مني، وهي كذا وكذا فحدثه بجميع ما جرى له من الأمور.

وشيخه هو سيدي (عبد الرحمن بن الحسني المدني الشريف) المدعو (بالزيات) سكناه بحارة الزياتين بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

تلميذه ووارثه أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه، كان سيدنا أبو الحسن الشاذلي ذا همة عالية عليه لا يرتضي غير القطب كي يكون شيخه وقائده في طريق السير إلى الله. فخرج من المغرب العربي وسار في البلدان وقطع الصحاري والبحار والتقى الكثير من العلماء والفقهاء والأولياء حتى وصل إلى العراق. يقول القطب أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه متحدثاً عن نفسه (لما دخلت العراق التقيت بالشيخ الصالح أبي الفتح الواسطي فما رأيت بالعراق مثله، وكان مطلبي على القطب فقال لي «أنت تطلب القطب وهو ببلاذك ارجع إلى بلادك تجده».

فرجع سيدنا أبو الحسن الشاذلي إلى المغرب والتقى بشيخه عبد السلام بن مشيش قال رضي الله عنه: لما قدمت عليه وهو ساكن مغارة برباطة في رأس الجبل اغتسلت في عين أسفل الجبل وخرجت عن علمي وعملي وطلعت عليه فقيراً وإذا به هابط عليّ، فلما رأيته قال: (مرحباً بعلي بن عبد الله بن عبد الجبار) وذكر لي نسبي إلى رسول الله ﷺ ثم قال لي: يا علي طلعت الينا فقيراً عن علمك وعملك أخذت منا غنى الدنيا والآخرة. فأخذني منه الدهش فأقمت عنده إلى أن فتح الله علي بصيرتي ورأيت له خرق عادات من كرامات وغيرها.

قاله في صلاته المشهورة (واقذف بي على جيش الباطل فأدمغه بصولة الحق وقوة الصدق) لأنه إذا جاء الوارد قهر نفسه فصار حقاً صافياً، وصار دالاً على مولاه.

الحكمة التاسعة عشر بعد المائتين

كَيْفَ يَحْتَجِبُ الْحَقُّ شَيْئًا، وَالَّذِي يَحْتَجِبُ بِهِ هُوَ فِيهِ ظَاهِرٌ، وَمَوْجُودٌ حَاضِرٌ

شرح الحكمة

لأن الله ﷻ تجلى على الأكوان بصفة الظهور فظهرت، وتجلى عليها بصفة الوجود فوجدت، ولولا تجليه عليها بصفة الظهور والوجود لما ظهرت ولا وجدت.

وهذه من الحكم العظيمة التي يشير إليها كل الأولياء ويحضون على التحقق بها باختلاف تعبيراتهم؛ وهذه الحكمة تشير إلى مقام (وحدة الشهود) أو ما يسمونه (مقام الجمع). وحث الأولياء مرديهم على فهم هذا المقام حتى لا تتفرق هماتهم، وكى لا يتعاملوا في الأكوان إلا مع الله ﷻ؛ لأن الله خلق في الأكوان صوراً كثيرة متعددة، ليبين كمال قدرته، فإن تعامل السالك معها مع تنوعها على كثرتها تفرق وتشتت، أما إن تعامل معها على أنها من الله ﷻ وهو الفاعل فيها على الحقيقة، وهو خالقها، ومدبرها، وما هي إلا صورة في مرآة لا حراك لها إلا بمحركها، ولا سكون لها إلا بمسكنها، ولا قدرة لها إلا بمن أقدرها، فلا يتشتت همه ويتعامل مع الله ﷻ.

ونبه الله ﷻ ﴿فَإَيْنَمَا تُولُوا فَشَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، وهذه الآية تدل على مقام الجمع، فأينما تولوا في الأكوان فشم وجه الله ﷻ، لا إله إلا هو، ولا موجود بحق سواه، وكل ما سواه مظهر لقدرته، ومظهر لصفته، ومظهر لفعله. فإذا كانت الأشياء مظاهراً فلا تغرك المظاهر وتعلق بالذي أظهرها وأوجدتها.

ولقد خلق الله ﷻ المظاهر ليحجب بها الكافر، ويصل من خلالها المؤمن، فالله تعالى يريد لك الوصول والشهود والمعرفة والحضور. وهناك ما يسمى بمقام الفرق: وهو أن تنظر للأثر دون المؤثر، فالكافر والمحجوب يرى تعدد المخلوقات، وتعدد الأفعال فينشغل بها وينسب لها الفعل والتأثير فتحجبه عن مولاه.

أما المؤمن فيعلم أن كل ما في الأكوان فمن الله ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

فالشيخ في هذه الحكمة يريد أن يبين لك أن مقام الجمع هو حال المؤمن في نظره للأكوان، فلا يغتر بالآثار عن المؤثر، ولا بالأفعال عن الفاعل وإن تعددت الأفعال.

ومثال الأكوان مع ظهور الحق ﷻ فيه كمثال المرأة في ظهور الصورة فيها، فأنت مثلاً إذا وقفت أمام المرأة انطبعت صورتك فيها. فهل هناك اتصال بينك وبين المرأة؟ الجواب: لا، ولو كسرت المرأة وصورتك فيها فهل يتأذى جسدك؟ الجواب: لا. فالأكوان ما هي إلا صور لصفات الله ﷻ انطبعت في مرآة الأكوان، دون حلول ولا اتصال ولا انفصال. وكلما كملت

الصورة كان هذا لكمال الظاهر فيها جل جلاله، وإذا نقصت الصورة كان النقصُ لعبٍ في المرأة. فما كان فيك من كمال فهو من الله ﷻ، وما كان فيك من نقص فهو منك؛ لأنك أنت المرأة.

لذلك قال ابن الفارض رحمه الله:

فأوصافه والاسم والأثر الذي هو الكون عين الذات والله جامع

فكلامه يدل أن الكون ما هو إلا مرآة لظهور صفات وآثار وأفعال الله عز وجل، فالجامع هو الله، ولكن ما هو إلا ظهور الذات فيها، وظهور الصفات فيها، وظهور الفعل فيها، والفاعل واحد. فهو ولا يقصد أن الكون هو الله، بل هو صورة لتجليات الله تعالى ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

الحكمة المشروطة بعد المانتين

لَا تَيَاسُ مِنْ قَبُولِ عَمَلٍ لَا تَجِدُ فِيهِ وُجُودَ الْحُضُورِ، فَرُبَّمَا قَبِلَ مِنَ الْعَمَلِ مَا لَمْ تُدْرِكْ ثَمَرَتَهُ عَاجِلًا

شرح الحكمة

يقول لك الشيخ أيها السالك إذا ما عبدت الله ﷻ بعبادة ولم تجد الحضور فيها لغفلتك أو انشغالك بنفسك أو بدنالك فلا تيأس وتترك الذكر بحجة عدم القبول لعدم وجود الحضور، وتظن أن الله ﷻ لم يقبل هذه العبادة فتكون سببا في عدم القبول، لأن الله ﷻ عند ظن العبد. بل أحسن

الظن بربك حتى لا تحبط أعمالك بنفسك، واستمر في طرق باب مولاك بحضور وبغير حضور إلى أن يُفتح لك الباب، واتهم نفسك بعدم الإقبال والغفلة عن الله تعالى، والأدب مع الخلق والحق، واجتهد أكثر لعل الله ﷻ يأخذ بيدك في يوم من الأيام. واعلم أنك لا تدخل الجنة بعملك بل برحمة الله ﷻ.

لذلك يقول: «لا تَيْأَسْ مِنْ قَبُولِ عَمَلٍ لَا تَجِدُ فِيهِ وَجُودَ الْحُضُورِ، فَرَبَّمَا قَبْلَ مِنَ الْعَمَلِ مَا لَمْ تُدْرِكْ ثَمَرَتُهُ عَاجِلًا» قد لا ترى الحضور في العمل وهو في الحقيقة مقبول عند الله ﷻ، وقد يكون كمال الحضور سببا لعدم القبول إذا استحسنته وفرحت به وأيقنت بقبوله.

الحكمة الحادية والعشرون بعد المائتين

لَا تُزَكِّينَ وَارِدًا لَا تَعْلَمُ ثَمَرَتَهُ، فَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنَ السَّحَابَةِ الْإِمْطَارَ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ مِنْهَا وَجُودُ الْإِثْمَارِ

شرح الحكمة

الوارد يأتي للعبد نتيجة مداومته على الورد، فيثمر طمأنينة وثقة بالله وإيمانًا وسكينة.

والوارد هو العطاء من الله ﷻ ليقويك ويثبتك، لأنك تطلب ذلك بقولك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] أي نستعين

بك يا رب على تقويتنا للعبادة، فالوارد هو القوة التي أعانك الله بها على الاستمرار في العبادة. ولا تقل أين ثمرة هذا الوارد وأنا مستمر على العبادة لفترة طويلة جدا ولم أر ثمرة الوارد؛ لأنه «فَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنَ السَّحَابَةِ الْإِمْطَارَ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ مِنْهَا وَجُودُ الْإِثْمَارِ» فأنت لا تطلب المطر لذاته بل للثمر المفيد الذي سينتج عنه، فلا تعتمد على السحابة، فالسحابة هنا هي سحابة الأغيار التي حجبت عنك وجود الحضور في العبادة.

فليس المراد رؤية الوارد، ولكن المراد ثمرة الوارد في قلبك. فقد يثمر الوارد في قلبك أنوار معرفة وحكمة، وقد يثمر الاجتهاد في العبادة شوقاً إلى الله مع الاستقامة.

فإذا جاءك وارد من هذا النوع فلا تزكيه ولا تمدحه ولا تركز إليه؛ لأنك لو ركنت إليه كأنك ركنت إلى غير الله ﷻ واعتمدت عليه، ولكن اتركه ولا تلتفت له حتى تستشعر ثمرته فربما يأتي بثمره أخرى وأخرى.... إلخ. وثمره الوارد الحقيقي أن تتعرف على مولاك، لا أن تعرف وتشتهر بالمعارف.

ولا تصرح بالوارد إلا إذا كان موافقا للشرع، وإلا إذا تحققت به وبانت ثمرته عليك، ولا تصرح به إلا إذا كنت تحسن التعبير عنه بما يوافق الشرع الشريف بغير لبس، ولا تصرح به إلا أمام أهله وإلا كُذبت واتهمت بالكذب والكفر، فليس كل ما يعرف يقال، ولا كل ما يقال أتى أهله، ولا كل ما أتى أهله أتى وقته.

الحكمة الثانية والعشرون بعد الالفين

لَا تَطْلُبَنَّ بَقَاءَ الْوَارِدَاتِ بَعْدَ أَنْ بَسَطْتَ أَنْوَارَهَا وَأَوْدَعْتَ أَسْرَارَهَا، فَلَكَ فِي اللَّهِ غِنًى عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَيْسَ يُغْنِيكَ عَنْهُ شَيْءٌ

شرح الحكمة

لا تطلب بقاء الواردات وأنوارها وأسرارها ومعارفها إذا حلت في القلب؛ لأنك لو طلبت بقائها افتقرت إليها، وربك لا يريدك إلا مفتقرا إليه، ولا تطلبَنَّ بقاءها؛ لأنَّ الطلب علامة على حبك لما تطلب، وإذا أحببت شيئاً كنت له عبداً له، فتكون عبداً للواردات والأنوار والمعارف والأسرار، وعبداً للمقامات والأحوال، والله ﷻ يريدك عبداً خالصاً له .

واعلم أن الواردات أغيار، فإذا طلبت بقائها فأنت تطلب المستحيل؛ لأن العرض لا يبقى زمانين، فهي متغيرة وليس لها بقاء في ذاتها.

«فَلَكَ فِي اللَّهِ غِنًى عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَيْسَ يُغْنِيكَ عَنْهُ شَيْءٌ» «فكن عبداً لله ﷻ يغنيك عن كل شيء، وإن استغنيت بالواردات والأنوار والمعارف حجبك الله تعالى بها وتكون على خطر أن يسلبك كل شيء».



الحكمة الثالثة والعشرون بعد المائتين

تَطَّلُعُكَ إِلَى بَقَاءِ غَيْرِهِ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ وَجْدَانِكَ لَهُ، وَاسْتِيحَاشُكَ بِفِقْدَانِ مَا سِوَاهُ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ وُصْلَتِكَ بِهِ

شرح الحكمة

«تَطَّلُعُكَ إِلَى بَقَاءِ غَيْرِهِ» من ورد أو حال أو مقام أو أي شيء «دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ وَجْدَانِكَ لَهُ» أي دليل على أنك لم تعرف الله تعالى حق المعرفة؛ لأنك لو عرفته لاستغنيت به على كل شيء، فالذي وجد الله ﷻ فقد وجد كل شيء، والذي فقد الله ﷻ فقد كل شيء.»

ثم قال: «وَاسْتِيحَاشُكَ بِفِقْدَانِ مَا سِوَاهُ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ وُصْلَتِكَ بِهِ» فإذا استوحشت لفقد حاجة من حوائج الدنيا، فهذا دليل على عدم وصولك بربك؛ لأنك لو وصلت إلى الله ﷻ استأنست بكل شيء ولا تستوحش من شيء.

الحكمة الرابعة والعشرون بعد المائتين

النَّعِيمَ وَإِنْ تَوَعَّتْ مَظَاهِرُهُ إِنَّمَا هُوَ بِشُهُودِهِ وَأَقْتِرَابِهِ، وَالْعَذَابَ وَإِنْ تَوَعَّتْ مَظَاهِرُهُ إِنَّمَا هُوَ بِوُجُودِ حِجَابِهِ، فَسَبَبُ الْعَذَابِ وَجُودُ الْحِجَابِ، وَإِتِمَامُ النَّعِيمِ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ

شرح الحكمة

يذكر الشيخ في هذه الحكمة أسباب النعيم وأسباب الشقاء، فسبب النعيم هو معرفتك بربك وانقشاع الحجاب بينك وبينه، فإذا أحببت الله ﷻ وانقشع الحجاب، وكُشفت لك الحكمة، رضيت بما قدره عليك، فتكون في منتهى السعادة والرضا والتسليم؛ لأن السعادة هي في الرضا واليقين، والإنسان يرضى ويتيقن إن تم شهوده، وتم وصوله، وقل حجاب، فيصير في النعيم، وإن كان في الظاهر قد كتب الله عليه بعض الشقاء والابتلاءات. لكن لما علم أن هذا بفعل الحبيب الرحمن الرحيم، وأنه به رؤوف رحيم، وأنه لا يفعل به إلا ما يوصله إليه، شهد هذه الأمور فيصير في كمال النعمة. وهذا ما حصل لسيدنا إبراهيم عليه السلام عندما أُلقي في النار؛ فلأنه شهد الله وتعرف عليه لم يأبه بالنار بل كان يقول أسعد لحظات حياتي وأنا في النار؛ لأنه كان في لحظة وصال.

ومثاله من الواقع الذي تعيشه، كما لو سلمت نفسك للطبيب فيجرحك ويؤلمك، بل وتدفع له أجره على ذلك، وتقبل ما يفعله بك وتستسلم له، لماذا؟ لأنك تعلم أنه يفعل ذلك لمصلحتك وعلاجك وشفائك من مرضك، فتستعذب الألم؛ لأنك تعلم أنه بعد الألم شفاء وراحة وسعادة. وهذا الاطمئنان يجب أن يكون مع الله ﷻ لأنه أرحم بك من الطبيب ومن أمك وأبيك.

إذن: «النَّعِيمَ وَإِنْ تَوَعَّتْ مَظَاهِرُهُ إِنَّمَا هُوَ بِشُهُودِهِ وَاقْتِرَابِهِ» فالنعيم الحقيقي هو أن يكشف الله ﷻ عنك الحجاب، فيتعرف عليك بالجلال وبالجمال، كما أخبرنا النبي ﷺ «إِنْ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يَصْلَحُهُ إِلَّا الْفَقْرُ فَإِنْ أَغْنَيْتَهُ أَفْسَدْتَهُ، وَمِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يَصْلَحُهُ إِلَّا الْغِنَى فَإِنْ أَفْقَرْتَهُ أَفْسَدْتَهُ، وَمِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يَصْلَحُهُ إِلَّا الْمَرَضُ فَإِنْ عَافَيْتَهُ أَفْسَدْتَهُ، وَمِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يَصْلَحُهُ إِلَّا الْعَافِيَةُ فَإِنْ أَمْرَضْتَهُ أَفْسَدْتَهُ»^(١).

وقد كان كثير من الصالحين يقولون: (مرحبا بالفقر والمرض والبلاء) لأنهم علموا أن بعد المحنة منحة، وأن المرء يُبتلى على قدر دينه، وأن البلاء فيه الترقى والتقريب إذا ما صبر المُبتلى عليه.

ثم قال: «وَالْعَذَابَ وَإِنْ تَوَعَّتْ مَظَاهِرُهُ إِنَّمَا هُوَ بِوُجُودِ حِجَابِهِ، فَسَبَبُ الْعَذَابِ وَجُودُ الْحِجَابِ» لذلك قال الأولياء إنَّ عذاب أهل النار الحقيقي في حجابهم ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، فهذا هو العذاب الحقيقي ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٦]، جحيم العذاب وجحيم الحجاب.

قال الشيخ: «وَأَتِمَّامُ النَّعِيمِ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ» فالنعيم برفع الحجاب وهذا هو نعيم أهل الجنة ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، ولو وضع الحجاب على أهل الجنة لضاعت عليهم مهما كانت فسيحة، ولو كشف الحجاب عن أهل النار لتنعمو وانقلب العذاب إلى عذوبة.

(١) سبق تخريجه.

ولقد روي أن الإمام أحمد بن حنبل كان ماشياً في رحلة من الرحلات فمر بكوخ صغير فسمع منه صوتاً يردد الحمد لله .. الحمد لله .. الحمد لله فاستأذن بالدخول فأذن له، فدخل فوجد رجلاً مشلولاً وجسمه متقرح من طول الرقود على الفراش، فقال له (على ماذا تحمد بصوت مرتفع وهذا حالك!؟) فقال الرجل: (أحمدته على قلبٍ شاكر ولسانٍ ذاكِر) أي: بالرغم من هذا البلاء الكبير في البدن إلا أن قلبي ما زال شاكراً، ولساني ما زال ذاكراً، وهذه أعظم النعم عندي.

فالخلاصة: إذا شهدت الله ﷻ بالبصيرة فقد شهدت كل شيء، وإذا فقدت الله ﷻ فقدت كل شيء.

الحكمة الخامسة والعشرون بعد المائتين

مَا تَجِدُهُ الْقُلُوبُ مِنَ الْهُمُومِ وَالْأَحْزَانِ فَلَأَجَلٍ مَا مُنِعَتْهُ مِنْ وُجُودِ الْعِيَانِ

شرح الحكمة

الفرق بين الهم والحزن هو أن الهم أن تخاف من أمر قبل حدوثه، والحزن أن تحزن على أمر بعد حدوثه، والغم هو مجموع الحزن مع الهم. فالقلوب تحزن؛ لأنها لم تدرك الحكمة من فعل الله تعالى في الأكوان. ولو أدركت أن حكمة المنع والابتلاءات هي تكفير الذنوب ورفع الدرجات لفرحت وما حزنت.

ولو علمت القلوب أن الله ﷻ سلط عليك الأكوان لكي لا تركز إلا إليه، ولا تأنس إلا به، ولا تطلب إلا منه، ولا تعتمد إلا عليه، ما أصابها هم ولا حزن.

فالقلب لو شهد أن الله قَدَّرَ فيما فات، وأن الله ﷻ هو الذي يقضي فيما هو آت، وأنه استسلم لمولاه فيما قدره لأنه لطيف بعباده، لأمن من الهمّ الحزن.

وانظر إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو خليل الرحمن، لَمَّا رزقه الله ﷻ بسيدنا إسماعيل عليه السلام على كبر سنه، وفرح به سيدنا إبراهيم عليه السلام فرحاً شديداً، أمره الله ﷻ أن يذبحه، والمقصود أن يذبح العاطفة التي نشأت في قلبه، والتي قد تشغله عن الله ﷻ، فيذبح النعمة من أجل المنعم، فالابن هو النعمة فأمره بذبحها. فلما انصاع وأطاع كملت له الخلّة، وحفظ عليه النعمة، بل وبشره بإسحق عليه السلام، وهذا من التفسير الإشاري للآية. فعليك أن تذبح كل تعلق في قلبك يمنعك عن الله ﷻ، فإنك مأمور بالذبح؛ لأنك على ملة سيدنا إبراهيم عليه السلام.

وسيدنا رسول الله ﷺ قال: «جئكم بالذبح»^(١) أي بذبح العلائق التي تقطعك عن الله ﷻ، وهذا أيضاً معنى إشاري، فاقطعها قبل أن تقطعك، واذبحها حتى تتقرب بها مضحياً بشهواتك ورغباتك وملذاتك إلى ربك. فإذا ضحيت بذلك أنعم عليك بلذة الوصال.

الحكمة السادسة والعشرون بعد المائتين

مِنْ تَمَامِ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ أَنْ يَرْزُقَكَ مَا يَكْفِيكَ وَيَمْنَعَكَ مَا يُطْعِمُكَ

شرح الحكمة

والنبي ﷺ يقول: «وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ»^(١) فكلام الأولياء مأخوذ من مشكاة النبوة. فيقول الشيخ «مَنْ تَمَامِ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ أَنْ يَرْزُقَكَ مَا يَكْفِيكَ وَيَمْتَعَكَ مَا يُطْغِيكَ» ولو فهمت هذا المعنى لما طلبت الغنى في المال والدنيا؛ لأن الموسع عليه في الدنيا هو المبتلى على الحقيقة، وسيدنا النبي ﷺ عُرِضَتْ عليه الدنيا بكنوزها، وعُرِضَتْ عليه أن تكون جبال مكة ذهباً في يديه وتراباً في يد غيره فرفضها، وما هذا إلا لحكمته وبصيرته ﷺ.

ولقد أمرنا الله تعالى بعدم الالتفات إلى زهرة الحياة الدنيا فقال: ﴿وَلَا تَمْدَنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١]، والله ﷻ هو الحكيم الذي يعطيك ما يصلح حالك في الدنيا والآخرة، فلا تتهم الله في حكمته وتطلب المزيد، ولو أعطاك الكثير ستزداد واجباتك ويطول حسابك، والحكمة في منعه العطاء في بعض الأحيان ذكرها في الحكمة التالية فقال:

الحكمة السابعة والعشرون بعد المائتين

لِقِلِّ مَا تَفْرَحُ بِهِ يَقِلُّ مَا تَحْزَنُ عَلَيْهِ

(١) الترمذي (٢٤٧٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ يَأْخُذْ عَنِّي هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ فَيَعْمَلُ بِهِنَّ أَوْ يَعْلَمُ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ فَقُلْتُ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَخَذَ بِيَدِي فَعَدَّ خَمْسًا وَقَالَ اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا وَلَا تُكْثِرِ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ. وأحمد (٨٢١٠).

شرح الحكمة

فأعطاك ما يكفيك ومنعك ما يطغيك كي «يَقِلَّ مَا تَفْرَحُ بِهِ، وَيَقِلَّ مَا تَحْزَنُ عَلَيْهِ» فلا تفرح بالنعمة وتنشغل بها فتنسى المُنعم، وحتى إذا فقدت النعمة لا تحزن عليها؛ لأن الدنيا مفقودة ومكتوب عليها الفناء، فكيف تحزن على الفاني؟! ولذلك كان من دعاء سيدنا رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا»^(١) وسيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام كان يقول (يا دنيا غري غيري) لأنه عارف بأنها فانية.

فالله ﷻ أعطاك ما يكفيك حتى تكون عبداً لله لا عبداً للنعمة، وحتى تكون مفتقراً له لا لغيره، وحتى لا تكون مستغنياً بما أعطاك؛ لأن طبيعة الإنسان بعد الغنى الاستغناء والطغيان ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا فَاغِي﴾^(٢) أن رآه أَسْتَغْنَى. [العلق: ٦-٧]، فمنعك الطغيان بأن أعطاك ما يكفيك.

الحكمة الثامنة والعشرون بعد المائتين

إِنْ أَرَدْتَ أَنْ لَا تُعْزَلَ فَلَا تُتَوَلَّ وَلَايَةً لَا تَدُومُ لَكَ

شرح الحكمة

فإذا أردت منصبا من مناصب الدنيا فاختر منصبا لا تُعزل منه، وما هي المناصب التي لا تُعزل عنها؟ وللجواب نقول: هي المناصب التي

(١) مسلم (٢٤٧٤)، والترمذي (٢٥٣٥)، وابن ماجه (٤٢٧٨)، وأحمد (٧٢٩٤).

يوليك الله ﷻ إياها، وأعظم ولاية هي ولاية التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ولا يستطيع أن يسبها أحد منك أبداً.

لذلك قال الأولياء: «نحن بالله عزنا» وليس بالدنيا ولا بالمنصب والمال والجاه «نحن بالله عزنا وبالحبيب المقرب» أي بسيدنا رسول الله ﷺ.

نحن بالله عزنا وبالحبيب المقرب بهم عز نصرنا لا بجاه ومنصب
ومن أراد ذلنا من قريب وأجنبي سيفنا فيه قولنا حسبنا الله والنبي

ويجب أن تعلم أن الله خلقك في هذه الدنيا لتصل، إليه لا لتصل إلى منصب ولا مال ولا جاه؛ لأن كل ذلك فان.

واعلم أن الولاية التي تأتيك من جهة الفرق وهم الخلق ستعزل منها، والولاية التي تأتيك من جهة الجمع وهي جهة الحق لا تعزل منها ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

الحكمة التاسعة والعشرون بعد المائتين

إِنْ رَغَبْتَكَ الْبِدَايَاتُ زَهَدَتْكَ النَّهَايَاتُ، إِنْ دَعَاكَ إِلَيْهَا ظَاهِرُهَا عَنْهَا بَاطِنُ

شرح الحكمة

«إِنْ رَغَبْتَكَ الْبِدَايَاتُ» أي: بداية الفرح واستقبال النعمة «زَهَدَتْكَ النَّهَايَاتُ» أي الحسرة على فراق النعمة. فكل النعم الدنيوية تفنى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ [البقرة: ١٥٥].

فربنا ﷻ يريد أن يتعرف عليك في كل شيء، حتى لا تجهله في شيء، وحتى لا تترك إلى شيء سواه سبحانه. فالعطاء منه سبحانه رحمة، والمنع رحمة، والصحة رحمة والمرض رحمة ﴿وَلَوْ رَحَّمْنَهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥]. وقال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٧]، فإذا عرفت هذا وفهمته ارتحت وانشغلت بمولايك والتجأت إليه.

ثم قال الشيخ: «إِنْ دَعَاكَ إِلَيْهَا ظَاهِرٌ» ظاهرها وغرورها وجمالها «نَهَاكَ عَنْهَا بَاطِنٌ» أي باطن فقدانها، وباطن حقيقتها، وباطن حجابها، فتعرف حقيقتها فتركها وتزهد فيها.

فتعامل معها كما تتعامل مع الأفعى السامة القاتلة، قال الله تعالى ﴿قَالَ أَلْقَهَا يَمُوسَىٰ ۖ ۞١٩ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۖ ۞٢٠﴾ [طه: ١٩-٢٠]، إشارة إلى الدنيا وزينتها، فهي حية في حقيقتها، تلدغك في قلبك، فاجعلها في يدك لتنفقها، فإذا علمت ذلك خذها ولا تخف، وهناك إشارة أخرى في قوله تعالى ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۖ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، فهي كالنهر من شرب منها وشبع أصابه الوهن، ولا يستطيع مقاتلة أعدائه من النفس والشیطان والهوى. وذكر حقيقتها في الحكمة التالية فقال:

الحكمة الثلاثون بعد المائتين

إِنَّمَا جَعَلَهَا مَحَلًّا لِلْأَغْيَارِ وَمَعْدَنًا لِّلْجُودِ الْأَكْدَارِ تَرْهِيدًا لَّكَ فِيهَا

شرح الحكمة

«إِنَّمَا جَعَلَهَا» أي الدنيا «مَحَلًّا لِلْأَغْيَارِ» أي كل ما فيها متغير وغير دائم «وَمَعْدِنًا لِّوُجُودِ الْأَكْدَارِ» والأحزان والهموم والغموم «تَرْهِيدًا لَّكَ فِيهَا»؛ لأنه يحب أن تتعلق به وحده سبحانه، وهذا من محبة الله لك، فافهم. فالله ﷻ يتعامل معك بالعطاء والمنع، وبالفرح والحزن، وبكل الأحوال لتلجأ إليه في كل حال.

وهذا ما فهمه الأولياء عن ربهم فزهّدوا فيها، وانظر إلى قول الإمام الشافعي رحمه الله:

ومن يذق الدنيا فإني طعمتها	وسيق إليّ عذيبها وعذابها
فلم أرها إلا غروراً وباطلاً	كما لاح في ظهر الفلاة سرايبها
وما هي إلا جيفةٌ مستحيلة	عليها كلابٌ همهن اجتذابها
فإن تجنّبها كنت مسلماً لأهلها	فطوبى لنفس أولعت قعر دارها
وإن تجتذبها نازعتك كلابها	مغلقة الأبواب مرخي حجابها

الحكمة الحادية والثلاثون بعد المائتين

عَلِمَ أَنَّكَ لَا تَقْبَلُ النَّصَحَ (المجرد) لِجُرْدِ الْقَوْلِ، فَذَوَّقْ مِنْ ذَوَاقِهَا مَا سَهَّلَ عَلَيْكَ فِرَاقَهَا

شرح الحكمة

فمن الناس من يسمع النصيح ويطيع بالقول فقط، ومن الناس من تمر عليه الآيات كقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعُ الْعُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: ٣٦]، فلا يلتفت إليها، فيبتليهم ويسلط عليهم سياط البلاء ليردهم إليه، لذلك قال «فَذَوِّقْ مِنْ ذَوَاقِهَا» أي من ابتلاءاتها ومرارتها «مَا سَهَّلَ عَلَيْكَ فِرَاقَهَا» حتى تزهدا وتخرجها من قلبك.

الحكمة الثانية والثلاثون بعد المائتين

الْعِلْمُ النَّافِعُ الَّذِي يَبْسِطُ فِي الصَّدْرِ شُعَاعَهُ، وَيَكْشِفُ بِهِ عَنِ الْقَلْبِ قَنَاعَهُ

شرح الحكمة

اعلم أن العلم علمان: علم نافع وعلم غير نافع، لذلك كان من دعاء الرسول ﷺ: «اللهم أني أعوذ بك من علم لا ينفع»^(١) فليس كل علم نافعا، بل قد يكون سببا للحجاب، فالعلم الذي يوصلك إلى الله ﷻ هو النافع. والعلم النافع هو الذي يؤثر في القلب وينوره، فإذا تنور القلب صرت عالما بعبوبك ومساويك، فتعالجه فيصبح قلبك سليما.

(١) مسلم (٧٠٨١) عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ لَا أَقُولُ لَكُمْ إِلَّا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَالْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيِّهَا وَمَوْلَاهَا اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْعُرُ وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا». وأبو داود (١٥٥٠)، والترمذي (٢٤٩٥)، والنسائي (٥٤٥٩)، وابن ماجه (٢٥٨).

ولذلك يقول في هذه الحكمة: «الْعِلْمُ النَّافِعُ الَّذِي يَنْبَسِطُ فِي الصَّدْرِ شُعَاعُهُ، وَيَنْكَشِفُ بِهِ عَنِ الْقَلْبِ قِنَاعُهُ» أي ينكشف عن القلب قناع الغفلة والشهوة والجهل والتعلق بالفاني.

وسُئِلَ سيدنا الجنيد رحمه الله ما العلم النافع؟ قال: (أن تعرف قدر ربك وقدر نفسك)، وصاحب الحكم ممن عرف قدر ربه لذلك قال في مناجاته «أنا الْجَاهِلُ فِي عِلْمِي، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ جَهُولًا فِي جَهْلِي».

فالعلم النافع هو الذي يرفع الحجب عن قلبك فتعرف ربك، وغير النافع هو الذي يكون حجاباً لك عن ربك فتتكبر به على خلق الله.

الحكمة الثالثة والثلاثون بعد المائتين

خَيْرُ الْعِلْمِ مَا كَانَتْ الْخَشْيَةُ مَعَهُ

شرح الحكمة

أي العلم النافع هو الموصل إلى الله تعالى، وثمرته الخشية ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وثمره الخشية الخشوع، وركعة من الخاشع خير من ألف ركعة من غير الخاشع.

ومن ثمراته أيضاً الرضا عن الله تعالى فيما قدر، ومن ثمراته كلما ازدادت علماً ازدادت تواضعاً لخلق الله عز وجل، ومن ثمراته عدم حب الدنيا والتشوف إليها بل الزهد فيها، وثمراته لا تنتهي؛ لأن من ثمراته كل الخيرات من حسن الخلق مع الحق ومع الخلق.

الحكمة الرابعة والثلاثون بعد المائتين

الْعِلْمُ إِنْ قَارَنَتْهُ الْخَشْيَةُ فَلَكَ وَالْأَفْعَلِيَّكَ

شرح الحكمة

فالعلم إن لم يكن معه خشية الله ﷻ فهو حجة عليك؛ لأنه يزيد حجبك، ويبعدك عن ربك في الدنيا، وشاهد ضدك في الآخرة.

وتعرف العلم غير النافع إذا رأيت صاحبه متكبرا على خلق الله، ولا يعمل بعلمه لوجه الله، بل ويطلب بعلمه الدنيا ومتاعها، ويقضي عمره في المجادلة والمناظرة والمنافسة مع الأقران. وكل هذه حجب وشواغل تزيد صاحبها غفلة، فما فائدة هذا العلم إن كان سيأخذ بصاحبه إلى النار.

والعلم النافع الموصول إلى الله مع ما صاحبه من خشية الله ﷻ، ويكون خالصا لله ﷻ، فهو يحثك على تعلم علوم التزكية التي تعينك في سيرك إلى الله ﷻ. وتتعلم تصحيح النية، والتواضع، والإحسان إلى جميع خلق الله، وعدم التكبر على الجاهل والأمي، وغيرها كثير من علوم التزكية القلبية.

الحكمة الخامسة والثلاثون بعد المائتين

مَتَى آلَمَكَ عَدَمُ إِقْبَالِ النَّاسِ عَلَيْكَ، أَوْ تَوَجُّهُهُمْ بِالذِّمِّ إِلَيْكَ، فَارْجِعْ إِلَى عِلْمِ اللَّهِ فِيكَ، فَإِنْ كَانَ لَا يُقْنِعُكَ عَلَيْهِ فَيْكَ بكَ، فَمُصِيبَتُكَ بَعْدَ قَنَاعَتِكَ بِهِ أَشَدَّ مِنْ مُصِيبَتِكَ بِوُجُودِ الْأَذَى مِنْهُمْ

شرح الحكمة

لأن طبيعة نفس الإنسان أن يعمل وهو يطلب الأجر والمدح والجاه والشهرة، والنفس تحب المدح وتكره الذم، فالإنسان ينقبض من الذم وينبسط للمدح.

والشيخ ينصحك بقوله «مَتَى أَلَمَكَ عَدَمُ إِقْبَالِ النَّاسِ عَلَيْكَ، أَوْ تَوَجُّهُهُمْ بِالذَّمِّ إِلَيْكَ، فَارْجِعْ إِلَى عِلْمِ اللَّهِ فِيكَ» فإذا كنت تحب أن يطلع الخلق على سر الخصوصية بينك وبين ربك فهذا خدش في الإخلاص. فإذا كنت مع الله ﷻ متمسكا بسنة رسوله ﷺ وتعرضت لأذية الناس، فأحببت أن يطلع الناس على مقامك عند ربك فهذا إشراك.

لذلك قال لك «فَإِنْ كَانَ لَا يُقْنِعُكَ عِلْمُهُ فِيكَ بِكَ، فَمُصِيبَتُكَ بِعَدَمِ قَنَاعَتِكَ بِعِلْمِهِ أَشَدَّ مِنْ مُصِيبَتِكَ بِوُجُودِ الْأَذَى مِنْهُمْ» فالمصيبة عظيمة؛ لأن قلبك أشرك، والله لا يقبل على القلب المشترك.

واعلم أن حب الشهرة والظهور من الأمراض القاتلة؛ لأنها تمنعك من الترقى والقرب من الله ﷻ، فلا تفرح بمدح الناس، وانظر إلى أنه من فضل الله عليك أن ستر عليهم معاييك فلم يروا إلا كمالاتك.

واعلم أن ذم الناس مفيد لمن كان له عقل ولب؛ لأنك يمكن أن تصلح حالك من خلال إزالة العيوب التي انتقدك الناس بها، فيجعلهم كالمرآة التي تظهر العيوب للناظرين فيها، ويعمل على إصلاحها.

والله سبحانه يختبر المخلصين من عباده ليرى حقيقة إخلاصهم. ومن سنة الله ﷻ في خلقه أنه جعل أشد الناس بلاءً الأنبياء والصالحون والأمثل فالأمثل ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]، فيكتفون بعلم الله بهم، ونصره لهم، وحفظه لهم.

وطبيعية الصوفي الخمول وعدم حب الظهور، فالظهور يقصم الظهور، والصوفي إن مُدح شكر الله ﷻ، وإن ذُم لا يحزن ويكتفي بعلم الله فيه.

والحكمة من إجراء البلاء على أحبائه سيخبرنا بها في الحكمة التالية:

الحكمة السادسة والثلاثون بعد الثلاثين

إِنَّمَا أَجْرِي الْأَذَى عَلَى أَيْدِيهِمْ كَيْ لَا تَكُونَ سَاكِئًا إِلَيْهِمْ، أَرَادَ أَنْ يُزْجِكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى لَا يَشْغَلَكَ عَنْهُ شَيْءٌ.

شرح الحكمة

أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا تركز لشيء، وحتى لو كتب لك النعمة يزعجك بها لتخرج عنها ولا تركز إليها.

لذلك قال الإمام أبو الحسن الشاذلي رحمته الله: (من أسدى إليك معروفاً أخطر ممن آذاك؛ لأن من أسدى إليك معروفاً استرق قلبك فأصاب قلبك بمنته، ومن آذاك أصاب بدنك، وما يصيب بدنك أخف مما يصيب قلبك).

وإذا أردت أن تخرج من رق من أسدى إليك معروفا فكافئه بأحسن مما أعطاك. والنبي ﷺ يقول: «من أسدى إليكم معروفا فكافئوه»^(١) حتى لا تكون أسيرا لمنتته، وتكون عبدا لمنتته كما من فرعون على موسى إذ أحسن إليه في صغره ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ [الشعراء: ١٨-١٩]

فغار الله ﷻ على قلب سيدنا موسى ﷺ فأقلقه من فرعون وآله كلهم، فقتل منهم رجلا خطأ فأرادوا قتله ففر منهم، أي فر منهم إلى ربه، فاجتباه وأرسله نبيا، ولما من عليه فرعون بتربيته له والإحسان إليه أجابه سيدنا موسى ﷺ قائلا: أتمن عليّ بهذا وقد استعبدت قومي وأهلي من بني إسرائيل.

قال الشيخ: «إِنَّمَا أَجْرِي الْأَذَى عَلَى أَيْدِيهِمْ كَيْ لَا تَكُونَ سَاكِنًا إِلَيْهِمْ، أَرَادَ أَنْ يُزْعِجَكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى لَا يَشْغَلَكَ عَنْهُ شَيْءٌ» إذن: فالخلق آنية لفعل الله ﷻ ومرايا لمراده، وإذا عرفت ذلك فلا تكره من عاداك وأذاك؛ لأنهم مسخرون لأذيتك من قبل الحق حتى لا تركز إليهم.

لذلك كان سيدنا رسول الله ﷺ يقول لمن آذوه وضربوه وطرده من أحب البلاد عليه: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون». وسيدنا يوسف ﷺ قال لإخوته بعد أن حاولوا قتله وألقوه في الجب ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢]. وهكذا كان الأولياء والصالحون مع

(١) أحمد (١٦٧٤) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيدُوهُ وَمَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِبُوهُ وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ.

من آذاهم، فتراهم يحسنون لمن أساء إليهم ويدعون له؛ لأنهم يرونهم سببا في ترقيةهم وقربهم من مولاهم.

وعلمنا الله ﷻ ذلك في قوله ﴿وَيَذَرُونِ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٤] لكي يرتقي أهل الإيمان والسلوك ممن تحققوا بهذه المقامات العالية، فيتجاوزوا عن المسيء بالصفح والمغفرة. وقال في آية أخرى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، هذا مقام، وهناك مقام أعلى وهو الإحسان لمن أساء فقال ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

الحكمة السابعة والثلاثون بعد المائتين

إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَغْفُلُ عَنْكَ، فَلَا تَغْفُلْ أَنْتَ عَمَّنْ نَاصِيَتِكَ بِيَدِهِ

شرح الحكمة

فأعداؤك الذين يحجبونك عن ربك هم الخلق والشيطان والنفس والهوى، ووضح لك الشيخ في الحكم السابقة صفات أعدائك من الخلق وكيفية الزهد فيهم والطمع فيما عندهم وعدم الركون لهم. ثم هنا يكلمك عن عدو جديد وهو الشيطان، فيذكر لك صفاته وكيفية محاربته فقال لك «إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَغْفُلُ عَنْكَ، فَلَا تَغْفُلْ أَنْتَ عَمَّنْ نَاصِيَتِكَ بِيَدِهِ». وهو سبحانه القائل ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]. والشيطان لا يغفل عنك، ويحاربك من جميع الجهات وبكل الطرق، قال الله تعالى ﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا يَنَالُهُمْ مِنَ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ

خَلْفَهُمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ [الأعراف: ١٦-١٧]

، فالشيطان لا يغفل عنك، ويراك من حيث لا تراه، فحاربه ولا تخف من محاربته ومجاهدته؛ لأنه ضعيف على الحقيقة ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]. ومن التجأ إلى الله ﷻ وتحقق بمقام العبودية الحققة عصمه الله تعالى بحفظه من الشيطان وأعدائه ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]. ثم بين لك لماذا جعل الله ﷻ الشيطان عدوا لك فقال في الحكمة التالية:

الحكمة الثامنة والثلاثون بعد المائتين

جَعَلَهُ لَكَ عَدُوًّا لِيُحْشِكَ بِهِ إِلَيْهِ، وَحَرَكَ عَلَيْكَ النَّفْسَ لِيُدُومَ إِقْبَالُكَ عَلَيْهِ.

شرح الحكمة

فجعل الله ﷻ الأعداء ونوعهم لكي تلجأ إليه ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، وهذه هي الحكمة من كثرة الأعداء، فإذا استشعر المكلف أن من ورائه عدو يطارده وهو الشيطان فرَّ منه إلى مولاه مع دوام الحذر.

ثم ينتقل لبيان العدو الثالث وهو (النفس) فيقول «وَحَرَكَ عَلَيْكَ النَّفْسَ لِيُدُومَ إِقْبَالُكَ عَلَيْهِ» والنفس أخطر الأعداء، لأن حديثها خفي ولا تترك أبدا. وجهادها هو الجهاد الأكبر؛ لصعوبته واستمراره مدى الحياة، فجعلها الله ﷻ لتجاهدها فتكون سببا في وصولك إلى الله ﷻ ﴿وَالَّذِينَ جَاهِدُوا فِيْنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قال بعضهم جامعا ما قلناه:

إني بليت بأربع يرميني بالنبل عن قوس له توتير
إبليس والدنيا ونفسي والهوى يا رب أنت على الخلاص قدير

والخلاصة: إنَّ الشيخ بينَّ لك نواحي الجمال التي بطنَّت في الجلال،
فالله ﷻ بجلاله جعل للشر رسولا وهو إبليس، وبجلاله جعل النفس أمارا
بالسوء، وبجلاله زين الدنيا في قلوب العباد ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ
مِنَ النِّسَاءِ﴾ [آل عمران: ١٤]، وبجلاله جعل لك الهوى. وكل هذه الأشياء
في ظاهرها جلال وهي غفلة وحجاب، وفي باطنها جمال؛ لأنه ما جعل
الشیطان يوسوس لك إلا ليحوشك إليه حتى تلجأ إليه، فتكون في دوام
اللجوء إليه.

وجعل لك النفس التي بين جنبيك حتى تلجأ إليه باستمرار، ولا
تغفل عن مجاهدة نفسك، فتجد نفسك في دوام الإقبال عليه باستمرار،
وجعل لك هوى حتى تجاهد هواك في الله فتصل للحق، فيبدلك بالذل
عزة، وبالشهوة لذة المعرفة، وبالغفلة جمال الحضور معه، فيكون لك
المولى والنصير، والحمد لله على ذلك.

فجعل الله ﷻ في كل جلالٍ كتبه عليك جمالا في باطنه، كما جعل في
كل جمالٍ جلالاً، فجعل العافية وجمال النعمة ظاهرها، ولكنَّ جلالها
قد يكون خفيا، فهي قد تلهي عن المنعم، وقد تؤدي إلى البطر، وقد تؤدي
إلى الطغيان، ولذا قال ﷻ موضعا ذلك: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾
[الأنبياء: ٣٥]، فلا تركز لخير ولا تياس من شر، بل الركون يكون إلى الله ﷻ
وحده، والثقة فيه جل شأنه.

وبعد أن بين لك الشيخ هذه الأمور، سينتقل بك إلى أسباب الحجاب، ورؤية الخصوصية على المخلوقات، فقال:

الحكمة التاسعة والثلاثون بعد المائتين

مَنْ أَثَبَّتَ لِنَفْسِهِ تَوَاضِعًا فَهُوَ الْمُتَكَبِّرُ حَقًّا، إِذْ لَيْسَ التَّوَاضُّعُ إِلَّا عَنْ رِفْعَةٍ، فَتَى أَثَبَّتَ لِنَفْسِكَ تَوَاضِعًا فَأَنْتَ الْمُتَكَبِّرُ

شرح الحكمة

بدأ الشيخ في هذه الحكمة في موضوع هام جداً يغيب على كثير من السالكين، وهو بيان سبب الحجاب للنفس. والنفس تُحجب؛ لأنك ترى فيها الخصوصية، وتشعر بأنك فوق الآخرين، وترى لك حقاً عليهم، فتتكبر بما خصك الله به. فإذا ظلمت ستعترض على الأقدار؛ لأنك ترى لك حقاً، وترى في نفسك مزية، ومن يرى في نفسه مزية بذاته فهو المتكبر، قال الله ﷻ ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢].

فإن لم تر في نفسك المزية، وعلمت أنك تتمرغ في محض النعمة، وأنت لا تستحقها فهي من فضله عليك، فأنت تدور بين الفضل وبين العدل، فلا تغفل عن حق ربك برؤية حق نفسك، بل تجد أن حق الله أولى، والثناء على الله أولى من الثناء على النفس؛ لأن كل كمالٍ في النفس ما كان إلا من الله ﷻ، وكل نقص في النفس ما كان إلا منك، فلا تزكي نفسك على أحد.

فيجب عليك ألا تُحجب بنفسك، ولا تلهج بالثناء عليها، ولا تنبسط لمن يمدحك؛ لأن انبساطك لمن يمدحك، وانقباضك لمن يذمك دليل على رؤية نفسك.

والشيخ في هذه أراد أن يبين لك ويعلمك كيفية التخلص من رؤية المزية في نفسك بالتواضع، وما هي حقيقة التواضع؟ وكيف تعرف الكبر في قلبك؟.

وأول من تكبر إبليس، وكان عقابه أن طُرد من رحمة الله تعالى إلى أبد الأبدين ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وأول من تواضع لله ﷻ سيدنا آدم قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَعْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فاجتابه ربه وتاب عليه وهدى.

فيجب عليك ألا ترى المزية في نفسك، وتواضع مع الخلق؛ لأنك تعامل الله من خلال الأكوان، لذلك كان أحد الأولياء ماشياً في طريق وكان الجو ممطراً، فقابله كلب في الطريق الضيق اليابس، فنزل الشيخ في الطين وترك الطريق اليابس للكلب حتى يمر، فتعجب التلاميذ وقالوا لم تركت الطريق للكلب وهو نجس لا شيء عليه إن نزل في الطين!! فقال الشيخ: (والله منذ أن رأيته جلست أفكر، أينأ أحق بالطريق النظيف، فتفكرت فرأيت نفسي كم عصيت الله ﷻ، وهو لم يعص الله قط، فوجدت أنه هو أحق بالطريق النظيف مني) وهذا تفكير وفهم عميق للدين، يغيب عن كثير من المتدينين والساكنين.

فيقول الشيخ «مَنْ أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ تَوَاضِعًا فَهُوَ الْمُتَكَبِّرُ حَقًّا، إِذْ لَيْسَ التَّوَاضُّعُ إِلَّا عَنْ رِفْعَةٍ، فَمَتَى أَثْبَتَ لِنَفْسِكَ تَوَاضِعًا فَأَنْتَ الْمُتَكَبِّرُ» فمن أثبت لنفسه التواضع فقد أثبت لنفسه المزية وزكاها، والله يقول: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

الحكمة الأربعون بعد المائتين

لَيْسَ الْمُتَوَاضِعُ الَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ رَأَى أَنَّهُ فَوْقَ مَا صَنَعَ، وَلَكِنَّ
الْمُتَوَاضِعَ الَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ رَأَى أَنَّهُ دُونَ مَا صَنَعَ

شرح الحكمة

فلا ترى لنفسك فعلا وخصوصية، بل دائما اعتقد بنفسك أنك دون ما فعلت. وانظر إلى أكمل الخلق وأعبدتهم وأخشاهم الله سيدنا محمد ﷺ الذي كان متواضعا لله ﷻ. وكان يقول: «إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ فِي مَكَّة»^(١). ولقد خير ﷺ أن يكون ملكا نبيا وبين أن يكون عبدا نبيا، فتواضع واختار أن يكون عبدا نبيا. وكان النبي ﷺ يجلس القرفصاء، ويجلس على الأرض ولا يأكل على خوانٍ قط. وكان يقول: «أَمَا أَنَا فَأَكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ وَأَشْرِبُ كَمَا يَشْرِبُ الْعَبْدُ»^(٢) وهذا سر جماله وسر علو منزلته عند ربه ﷻ.

قال الشيخ: «لَيْسَ الْمُتَوَاضِعُ الَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ رَأَى أَنَّهُ فَوْقَ مَا صَنَعَ وَلَكِنَّ الْمُتَوَاضِعَ الَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ رَأَى أَنَّهُ دُونَ مَا صَنَعَ» بل المتواضع هو الذي يرى أنه دون ما صنع، والتواضع محله بالقلب، ويظهر على الجوارح

﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

(١) ابن ماجه (٣٤٣٧) عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ: «أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ فَجَعَلَ تَرَعْدُ فَرَائِضُهُ فَقَالَ لَهُ هَوْنٌ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ.

(٢) مسند البزار (٥٧٥٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٤٧٦٦)، والطبراني في المعجم الكبير (٧٨١٢).

الحكمة الحادية والأربعون بعد المائتين

التَّوَّاضِعُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ مَا كَانَ نَاشِئًا عَنْ شُهُودِ عَظَمَتِهِ وَتَجَلَّى صِفَتِهِ

شرح الحكمة

بعدما تكلم عن التواضع في الحكمة السابقة أراد الشيخ أن يعرف التواضع الحقيقي فقال: «هُوَ مَا كَانَ نَاشِئًا عَنْ شُهُودِ عَظَمَتِهِ وَتَجَلَّى صِفَتِهِ» أي أن تشهد أن كل مزية فيك من الله ﷻ؛ لأنك مرآة للصفات، وكلما كنت نقيًا كلما ظهرت فيك الصفات بوضوح أكثر، وكلما كنت غافلاً مشتغلاً بالشهوات والمعاصي تكدرت صورة المرآة بالران فصارت الصورة فيك مشوهة.

فإذا صُقلت مرآة قلبك تجلَى الشهود في قلبك، فعلمت أن كل مزية فيك هي من الله ﷻ فالتواضع. فالتواضع الحقيقي هو شهود المزية منه ﷻ، وشهود العيب منك، فأنت حقيق بكل عيب، وهو حقيق بكل كمال ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٩]، يعني مزية ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

وفي الحقيقة بعد ذلك كل ذلك من الله ﷻ ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]، فالمزية بفضله والنقص بعدله.

فإذا عرفت إن كل ما في الأكوان ما هو إلا تجلي صفات الله ﷻ، فيجب عليك أن تُجلِ النعمة وإن دقت، وتحترم جميع الأكوان. فإذا رأيت قهراً في الأكوان علمت أن الله هو الذي قهر، وإذا رأيت عطاءً في الأكوان

علمت أن الله هو المعطي، وإذا رأيت منعاً في الأكوان علمت أن الله هو المانع، فتستسلم لربك ﷻ وتعامل معه من خلال الأكوان.

وهذا هو معنى (وحدة الشهود) بغير اتصال ولا انفصال ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤]، فهو أقرب إليك من حبل الوريد.

الحكمة الثانية والأربعون بعد المائتين

لَا يُخْرِجُكَ عَنِ الْوَصْفِ إِلَّا شُهُودُ الْوَصْفِ

شرح الحكمة

لا يخرجك عن وصف نفسك بالمزية إلا شهود وصفه بالجلال والجمال، فكل كمال في الأكوان هو من الله ﷻ، فإذا رأيت فيك الكمال فانسبه إلى الله ﷻ، لذلك قال: «لَا يُخْرِجُكَ عَنِ الْوَصْفِ» أي وصف نفسك بالمزية «إِلَّا شُهُودُ الْوَصْفِ» ﷻ بالعطاء والكمال، ولا يخرجك عن وصفك بالعجز إلا شهود وصفه بالقدرة، ولا يخرجك عن وصفك بالفقر إلا شهود وصفه بالغنى، ولا يخرجك عن وصفك بالجهل إلا شهود وصفه بالعلم، وهكذا لا تخرج من نقصك إلا بشهود كماله.

الحكمة الثالثة والأربعون بعد المائتين

الْمُؤْمِنُ يَشْغَلُهُ الثَّنَاءُ عَلَى اللَّهِ عَنِ أَنْ يَكُونَ لِنَفْسِهِ شَاكِرًا، وَتَشْغَلُهُ حُقُوقُ اللَّهِ عَنِ أَنْ يَكُونَ لِحُظُوذِهِ ذَاكِرًا

شرح الحكمة

أي يجب أن يشغلك الثناء على الله ﷻ أكثر من شغلك بالثناء على نفسك، وإياك من قول أنا أفضل، وأنا أعلم، وأنا وأنا؛ لأن أول من قال أنا إبليس وطُرد إلى أبد الأبدين.

ولا قائل أنا على الحقيقة إلا الله ﷻ؛ لأنه هو الموجود بحق، وكل ما سواه فإن، لا وجود له بذاته، ولولا مدد الله لانفك عرى الوجود وعاد إلى ما كان عدم.

فهو الذي أوجدك، ثم أمدك بنعمة الإمداد، ثم فضلك بنعمة الهداية والإرشاد، فكل ما ظهر عليك من كمال فمنه ﷻ، وكل ما ظهر فيك من نقص فمنك. فإذا كنت كذلك فهل تضيع وقتك بالثناء على نفسك أم بالثناء على من كملك، والثناء على من جبرك، والثناء على من أمدك، والثناء على من هداك وأعطاك. فلا بد أن يلهج لسانك بالثناء على الله ﷻ، ولا تشغل بالثناء على نفسك.

يقول الشيخ: «المؤمن يَشْغَلُهُ» أي المؤمن بنعمة الله وفضله، والمؤمن بجلال الله وعطائه، فحاله يقول: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] ولا يقول ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، ولكن يقول من الله، وبالله، وعلى الله، وفي الله، فالكل من الله ﷻ.

قال الشيخ: «وَتَشْغَلُهُ حُقُوقُ اللَّهِ» أي ما طلبه الله ﷻ منه «عَنْ أَنْ يَكُونَ لِحُظُوظِهِ ذَاكِرًا» ولذا يجاهد نفسه من أجل أن يطيع ربه، فيفعل كل

ما يخالف نفسه؛ لأنه لا بد أن يكون لحقوق الله أشد ذكراً من حقوقه التي يراها موافقة لهواه وشهوته، ولذا يقول ﷺ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ ذَكَرَهَا ۝۹ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ۝۱۰﴾ [الشمس: ٩-١٠].

الحكمة الرابعة والأربعون بعد المائتين

لَيْسَ الْمُحِبُّ الَّذِي يَرْجُو مِنْ مَحْبُوبِهِ عَوْضًا وَيَطْلُبُ مِنْهُ غَرْضًا فَإِنَّ الْمَحِبَّ مَنْ يَذِلُّ لَكَ، لَيْسَ الْمَحِبُّ مَنْ يَذِلُّ لَهُ

شرح الحكمة

إذا كنت مدعي المحبة لله ﷻ فالمحب لا يطلب عوضاً على حبه، ولذا قال لك في هذه الحكمة: «لَيْسَ الْمُحِبُّ الَّذِي يَرْجُو مِنْ مَحْبُوبِهِ عَوْضًا وَيَطْلُبُ مِنْهُ غَرْضًا» فالمحب يعطي كله لمن أحب، قال الله ﷻ ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١]، فتعطيهِ كلِّك ولا تطلب العوض؛ لأن المحب لا يطلب عوضاً عما بذل ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. فالذي يطلب العوض هو من ينسب لنفسه ملك عمله، وأنت لا تملك عملك على الحقيقة، وكيفيك فخراً وشرفاً أن جعلك محلاً لظهور كرامته، وجعلك محلاً لذكروه، وجعلك محلاً لطاعته، وجعلك محلاً للإيمان به. وكل ذلك لتعلم فضل الله ﷻ عليك فلذا إن كنت محباً لله حقيقة فلا تطلب العوض والبدل، ولذلك فإن ما يعطيك من ثواب وأجر فمن محض فضله وليس عن استحقاق لك.

الحكمة الخامسة والأربعون بعد المائتين

لَوْلَا مَيَادِينُ النَّفُوسِ مَا تَحَقَّقَ سَيْرُ السَّائِرِينَ، إِذْ لَا مَسَافَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حَتَّى تَطْوِيَهَا رِحْلَتُكَ، وَلَا قَطِيعَةَ بَيْنِكَ وَبَيْنَهُ حَتَّى تَمْحُوهَا وَصَلَتُكَ

شرح الحكمة

استخدم العلماء هذه الألفاظ للتعبير عن معانٍ وجدانية، ولا يقصد بها معناها الحسي كالمسافات والطريق؛ لأن الله أقرب إليك من جبل الوريد، أي هو القريب وأنت البعيد بنفسك وبشهواتك، فالبعد وجداني، أي إنك لو خرجت من نفسك لوجدته أقرب إليك منك.

يقول الشيخ: «لَوْلَا مَيَادِينُ النَّفُوسِ مَا تَحَقَّقَ سَيْرُ السَّائِرِينَ» أي: لولا إن النفس فيها عوائق وعلائق كثيرة لما سرت؛ لأنه أقرب إليك منك «إِذْ لَا مَسَافَةَ» على الحقيقة «بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حَتَّى تَطْوِيَهَا رِحْلَتُكَ» وهذا ما عرفناه من قصة سيدنا أبي يزيد البسطامي رحمه الله حيث قال في إحدى مناجاته (يا رب كيف الوصول إليك؟ فسمع مناديا من داخله يقول له اترك نفسك تجدني) فالعبد هو المحجوب. ولا حجاب بينك وبينه على الحقيقة، والحجاب الذي تشعر به هو حجاب مُتوهم، وهذا التوهم نشأ من وهم غفلات النفس.

وفي قول الشيخ: «لَوْلَا مَيَادِينُ النَّفُوسِ» بيان أن النفس تنطبع عليها صور الأكوان؛ لأنها كالمرآة، والأكوان فيها جبال، ومفازات، وصحاري، وأنهار، وأماكن جميلة، وأخرى قبيحة، وفيها وحوش، فينطبع هذا كله في نفسك، فتجد إن في نفسك مفاوز بينك وبين الله، وهناك جبال تحول بينك

وبين الوصول إلى ربك. وفي الحقيقة ما هذه الأشياء إلا توهم منك؛ لأنها صورة لانطباع الأكوان فيك. ولو علمت وتحققت أن من وراء الأكوان مكون، ويجب أن تنظر إلى باطن الصورة لوجدته أقرب إليك منك، ولذلك قال في حكمة أخرى: «الأكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة» أي فيها الحكمة، وفيها إرادة الله، وفيها صفة الله وفعله. فوجب مخالفة النفوس بقطعها عن عاداتها وعن علائقها وعن عوائقها حتى تصل إلى ربها.

فإذن الحجاب الذي يحجبك عن ربك هو نفسك، ولذا قال العارفون (النفس هي الحجاب الذي يحجبك عن ربك) لأن الله لا يحجبه شيء، فلو كان محجوباً لكان مقهوراً، وهو قاهر فوق عباده، ولو حققت النظر لوجدته ظاهراً ليس فوقه شيء، ولو حققت النظر لوجدته باطناً ليس دونه شيء ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، وهو القائل ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وهو القائل ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤]، ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣]، ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧] وهو سبحانه القائل ﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]، والمعية هنا ليست معية ظرفية؛ لأن الله ﷻ لا يحل في الأماكن.

ثم قال: «وَلَا قَطِيعَةٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حَتَّى تَمْحُوهَا وَضَلَّتْكَ» فلو كان هناك قطيعة حقيقة ما أمدك وما خلقتك وما أوجدك وما هداك، فأنت غارق في غفلتك وهو جل جلاله ممدك، وهو معك برحمته ﷻ، ولولا توالي إمداده ما وجدت. وما دامت لا قطيعة فعليك بالنهوض لمناجاة ربك ودعائه وستجده سميعاً مجيباً قريباً.

فالمسألة كلها توهم منك، تتوهم بوجود الوجود الذي ليس له وجود بذاته، بل هو **عَلَيْكَ** الذي أوجده، أوجده وأمده، ولو قطع المدد لعاد كل شيء على ما كان عليه، كان الله ولم يكن شيء معه، لا زمان ولا مكان ولا خلق ولا صور ولا أكوان.

الحكمة السادسة والأربعون بعد المائتين

جَعَلَكَ فِي الْعَالَمِ الْمُتَوَسِّطِ بَيْنَ مُلْكِهِ وَمَلَكُوتِهِ لِيُعْلِمَكَ جَلَالَهَ قَدْرِكَ بَيْنَ مَخْلُوقَاتِهِ، وَأَنَّكَ جَوْهَرَةٌ تَنْطَوِي عَلَيْهَا أَصْدَافُ مُكُونَاتِهِ

شرح الحكمة

«جَعَلَكَ» أيها الإنسان «فِي الْعَالَمِ الْمُتَوَسِّطِ بَيْنَ مُلْكِهِ وَمَلَكُوتِهِ لِيُعْلِمَكَ جَلَالَهَ قَدْرِكَ بَيْنَ مَخْلُوقَاتِهِ، وَأَنَّكَ جَوْهَرَةٌ تَنْطَوِي عَلَيْهَا أَصْدَافُ مُكُونَاتِهِ».

قال: «جَعَلَكَ فِي الْعَالَمِ الْمُتَوَسِّطِ بَيْنَ مُلْكِهِ وَمَلَكُوتِهِ» فهناك عالم الأمر، وهناك عالم الإرادة، وبين عالم الأمر وعالم الإرادة عالم متوسط وهو عالم الجبروت، ثم بعد ذلك عالم كن فيكون، وأيضاً يوجد عالم الرق وعالم الفتق وعوالم كثيرة لا نعرفها.

وأنت أيها الإنسان المكرم جمع الله **عَلَيْكَ** فيك كل العوالم، فجعل لك ظاهراً محسوساً وهذا يقابل عالم الملك، وجعل لك باطناً وهو النفس ويقابل عالم الملكوت، فجعلك ملكياً ملكوتياً في نفس الوقت، أي جمع فيك عالم الغيب وعالم الشهادة في آنٍ واحد، وجعل لك روحاً من عالم

الأمر والجبروت، ففيك عالم الأمر، وفيك عالم الإرادة، فجمع فيك العوالم كلها، وجعلك متوسطاً أيها الإنسان، ولذا أسجد لك الملائكة في صورة أبيك آدم عليه السلام؛ لأنه جمع فيك العوالم وكرمك بهذا كله.

«جَعَلَكَ فِي الْعَالَمِ الْمُتَوَسِّطِ بَيْنَ مُلْكِهِ وَمَلَكُوتِهِ لِيُعَلِّمَكَ جَلَالَهَ قَدْرِكَ بَيْنَ مَخْلُوقَاتِهِ» فأنت صورة مصغرة للأكوان، وجعل الأكوان صورة مكبرة منك فإن انشغلت بالصورة المكبرة صرت خادماً لها؛ لأنك أصغر في الحجم، وإن انشغلت بالحقيقة وهي أنك عبد لله صغرت الأكوان كلها فتصير في نظرك كالذرة، لا حجم لها ولا وزن فتصير في نظرك حقيرة؛ لأن قلبك وسعه الله فإذا وسعه الله لا يسعه شيء آخر.

ثم قال: «وَأَنَّكَ جَوْهَرَةٌ تَنْطَوِي عَلَيْهَا أَصْدَافُ مُكَوَّنَاتِهِ» فأنت كالجوهرة، التي تغلفت بمكوناته، فكأن روحك التي هي الجوهرة قد غلفها ربنا بنفسك ثم أظهرها بجسدك وبما يحيط بجسدك من الأكوان.

الحكمة السابعة والأربعون بعمر المائتين

إِنَّمَا وَسِعَكَ الْكَوْنُ مِنْ حَيْثُ جِسْمَانِيَّتُكَ (جثمانيتك) وَلَمْ يَسَعْكَ مِنْ حَيْثُ ثُبُوتُ رُوحَانِيَّتِكَ

شرح الحكمة

هذه الحكمة توضح لك معنى قوله عليه السلام ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، ويبين لم أسجد الله تعالى الملائكة لسيدنا آدم عليه السلام؛ لأن الله تعالى جمع في الإنسان صور الأكوان كلها، فجعله أهلاً لأن يحمل أمانته،

فخلقك له وخلق الأكوان لك أيها الإنسان، فخلق الأكوان كلها لك ﴿لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، وخلقك له ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لَتَعْلَمُوا﴾ [الطلاق: ١٢]، أي خلق هذا كله لتعلم ﴿لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، فالأكوان مسخرة لك وأنت لا تعلم أنك بهذا القدر العظيم، لأنه خلقك له سبحانه، وخلق الأكوان لك. فإذا انشغلت به وصرت عبداً لله صارت الأكوان في خدمتك. وإن تركت هذا صرت في خدمة الأكوان، وانشغلت بالأكوان عن المكون. فعليك أن تعلم قدرك،

قال: «إِنَّمَا وَسِعَكَ الْكَوْنُ مِنْ حَيْثُ جِسْمَانِيَّتُكَ، وَلَمْ يَسْعَكَ مِنْ حَيْثُ ثُبُوتُ رُوحَانِيَّتِكَ» فالإنسان مكون من جسم وروح ونفس برزخ بينهما، والجسم محبوس في الكون، والروح من عالم الأمر وهي في الحقيقة ظهرت في هذا الجسم، فإن جاهد نفسه الحيوانية صار روحانيا وتخرج روحه من حبس الحجاب، فيستشعر إن الأكوان ضيقة، فيفر إلى سعة رحمة الله.

فالكون وسعك من حيث ثبوت جسمانيتك، لكن من حيث روحانيتك فالكون كله لا يمثل ذرة في روحانيتك؛ لأن الروح إذا تنزهت من كدورات الحس صغر الكون كله في نظرها؛ لأنه فاني؛ وهي تعلق بالباقي ﷻ فتكون في هذه الحال لا يسعها إلا ربها.

ولذلك كان النبي ﷺ يقول: «لي أوقات لا يسعني إلا ربي»^(١) وهذه هي أوقات الجمع، ثم يرده إلى الفرق؛ لأنه رسول للخلق، ليدل الناس على الله ﷻ، أما لو ترك نفسه لنفسه ﷺ فلا يسعه إلا ربه، فكان ﷺ بين الفرق والجمع.

وبهذا نفهم كيف أن روحانية النبي ﷺ مطلعة على الأكوان والأعمال، وهو الشاهد بروحانيته على الأمم. وكذلك أرواح الأولياء والصالحين ترى ما لا يراه الناس؛ لأنها تخلصت من سجن الحجب.

الحكمة الثامنة والأربعون بعد المائتين

الكَائِنُ فِي الْكَوْنِ وَلَمْ تُفْتَحْ لَهُ مَيَادِينُ الْغُيُوبِ، مَسْجُونٌ بِمُحِيطَاتِهِ
مَحْصُورٌ فِي هَيْكَلِ ذَاتِهِ

شرح الحكمة

سُمي الكون كوناً؛ لأنه وجد من ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]، أي توجهت إرادته إلى قدرته فخصصتها على وفق علم الله تعالى فكانت

(١) العجلوني في كشف الخفاء (٢١٥٩) لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل، قال العجلوني: تذكره الصوفية كثيراً، وهو في رسالة القشيري بلفظ لي وقت لا يسعني فيه غير ربي، ويقرب منه ما رواه الترمذي في شمائله وابن راهويه في مسنده عن علي في حديث كان ﷺ إذا أتى منزله جزءاً دخوله ثلاثة أجزاء جزءاً لله وجزءاً لأهله وجزءاً لنفسه ثم جزءاً بينه وبين الناس كذا في اللآلئ، وزاد فيها ورواه الخطيب بسند قال فيه الحافظ الدمياني أنه على رسم الصحيح، وقال القاري بعد إيراده الحديث قلت ويؤخذ منه أنه أراد بالملك المقرب جبريل وبالنبي المرسل أخاه الخليل انتهى فليتأمل، ثم قال القاري وفيه إيحاء إلى مقام الاستغراق باللقاء المعبر عنه بالسكر والمحو والفناء انتهى.

الأكوان. وأنت أيها الإنسان كائن من الأكوان، والأكوان مهما تعددت صورها فهي ثلاثة إما جوهر، أو جسم، أو عرض. فكل ما سوى الله إما جوهر أو جسم أو عرض ويسمى كونًا.

فأنت أيها الإنسان إن كنت متعلقا بالأجسام لم تشهد الذي خلقها، وإن كنت متعلقا بالأعراض لم تشهد الذي أظهرها، فأنت مشغول بالجواهر والأجسام والأعراض ولم تخرق الكون لترى المكون. والله ﷻ قد جعلك الكون المصغر كما قلنا في شرح الحكمة السابقة، فإن انحصرت في عوالمك وانشغلت بها فأنت محصور في الأكوان، وإذا غلبت عليك روحانيتك اطلعت إلى ما وراء الأكوان.

لذلك يقول: «الكَائِنُ فِي الْكَوْنِ وَلَمْ تُفْتَحْ لَهُ مَيَادِينُ الْغُيُوبِ» يعني لم تغلب عليه روحانيته ولو في لحظات من حياته «مَسْجُونٌ بِمُحِيطَاتِهِ مَحْصُورٌ فِي هَيْكَلِ ذَاتِهِ» أي محصور في الأفلاك، ومحصور في مطالعة غرائب الطبيعة. وكل علم يمنعك عن المعلوم فهو علم ضار وكل ما يدل على الله فهو العلم النافع. أو المسجون بمعاصيه وشهوته فهو لاء لا يطلعون على ميادين الغيوب؛ لأنهم حبسوا بجسمانياتهم وهياكلهم.

لذلك كان من دعاء سيدنا إبراهيم الدسوقي (وخذني إليك مني، وارزقني الفناء عني) فلقد فهموا المعنى وأرادوا التخلص من سجن النفس. وذكرنا هذا المعنى في الصلوات اليسرية على خير البرية فقلنا (اللَّهُمَّ يَا بَاقِي، فَكُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَإِنْ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، تَجَلَّيْتَ عَلَى الْأَرْوَاحِ فَبَقِيَتْ بِبَقَائِكَ، صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْبَاقِي، وَعَلَى آلِهِ، الَّذِي فَرَّ مِنَ الْفَانِي إِلَى الْبَاقِي، فَبَقِيَ بِبَقَائِكَ، وَدَامَتْ

شَرِيعَتُهُ بِنَسْخِ سَائِرِ الشَّرَائِعِ وَبَقِيَتْ أُمَّتُهُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، فَأَمِنَتْ بِهِ مِنَ الْإِسْتِصْصَالِ وَالْمَسْخِ وَالْخَسْفِ، صَلَاةً أَفْرُبُّ بِهَا مِنْ كُلِّ فَإِنْ إِلَى الْوَاحِدِ الْبَاقِي، فَكُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ، فَأَفْنَى عَنْ نَفْسِي وَشَهْوَاتِي وَغَفْلَاتِي، لِأَبْقَى بِبَقَائِكَ، مُدَاوِمًا عَلَى مَرْضَاتِكَ، مُرَابِّطًا عَلَى بَابِكَ، فَأَكُونُ فَانِيًا فِي عَيْنِ بَقَائِكَ، وَبَاقِيًا فِي عَيْنِ فَنَائِي).

والعبد ما دام بنفسه فهو بعيد لذلك قال الله واصفا هؤلاء ﴿أُولَئِكَ

يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] ، وما دام بالله فهو في محل القرب ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦].

الحكمة التاسعة والأربعون بعد المائتين

أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون، فإذا شهدت كانت الأكوان معك

شرح الحكمة

أي تشهد المكون في الأكوان، وهذا هو مقام وحدة الشهود الذي اعترض عليه من لم يفهم مصطلحات الصوفية، واهتموا الصوفية بالحلول والاتحاد. ووحدة الشهود هو معنى قوله تعالى ﴿فَإِنَّمَا تُولَوُا فَشَمَّ وَجْهَهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، ومعناها أينما تنظر في الأكوان فشَمَّ وجه تجلي الله ﷻ، فالله يتجلى في الأكوان فيُظهر فيها ما شاء، فهو قد ظهر في المظاهر دون أن يحل في المظاهر أو يتقيد بها.

فلا تغتر بمظاهر التجليات بل كن مع المتجلي ﷻ، عندئذ لا تنحصر في صور المكونات بل ستكون مع الواحد، وهذا هو التوحيد بحق.

وإن لم تشهد المكون فأنت مع الأكوان تخدمها، فتصير عبداً للأكوان وتعبدها من دون الله، بل قد تعبد هواك من دون الله ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [البقرة: ٢٣]، وهواك أيضاً من الأكوان، وتعبد المال، وتعبد المنصب، وتعبد القهر والسيطرة، وتعبد الجمال، فتعبد ما تعلق به قلبك من الأكوان ما لم تشهد المكون فـ «أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون»، فإذا شهدته «وعلمت أنه هو الذي أوجدها «كانت الأكوان معك» لأنك صرت عبداً لله. فإن أدركت علاقتك بربك صارت الأكوان معك، وإن لم تعرف علاقتك بربك صرت خادماً للأكوان.

ولذا يقول النبي ﷺ في الحديث القدسي مشيراً إلى هذا المعنى: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَى عَبْدِي شَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِذَنَّهُ»^(١). فهذا حال من اخترق الأكوان إلى المكون، فصارت الأكوان في خدمته.

ومعنى وحدة الشهود ووحدة الوجود بيناه في الصلوات اليسرية على خير البرية في صلاة الواحد وصلاة الأحد فقلنا (اللَّهُمَّ يَا وَاحِدُ فَلَا يَتَعَدَّدُ، يَا مَنْ تَجَلَّيْتَ فِي الْمَظَاهِرِ ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْوَاحِدِ، وَعَلَى آلِهِ، عَبْدِكَ الْوَاحِدِ الَّذِي جَعَلْتَهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، فَصَلَّيْتَ عَلَيْهِ لِتُمِدَّهُ بِمَدَدِكَ، فَيَسْعُ الْاُكْوَانُ بِتَجَلِّيَّاتِ وَاحِدِيَّتِكَ، صَلَاةً أَعْرِفُكَ بِهَا فِي كُلِّ شُؤْنِي، وَأَرَاكَ بِهَا أَيْنَمَا تَوَلَّيْتُ، فَلَا أَجْهَلَكَ فِي شَيْءٍ، وَلَا أَشْغَلَ بِالْمَظَاهِرِ عَنِ الظَّاهِرِ، وَلَا يَتَعَدَّدُ التَّجَلِّيَّاتِ عَنِ الْوَاحِدِ.

اللَّهُمَّ يَا أَحَدَ فَلَا يَتَجَزَّأُ، يَا مَنْ احْتَجَبَ بِأَحَدِيَّتِهِ فِي سُرَادِقَاتِ عِزِّهِ،
وَوَظَّهَرَ بِوَاحِدِيَّتِهِ فِي صُورِ تَجَلِّيَّاتِهِ، صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ
عَبْدِ الْأَحَدِ، وَعَلَى آلِهِ، الَّذِي حَجَبَتْ أَحْمَدِيَّتُهُ فِي ظَاهِرِ مُحَمَّدِيَّتِهِ،
وَجَعَلَتْ رُوحَانِيَّتُهُ سِرًّا سَارِيًّا فِي الْأَكْوَانِ، بِهَا ظَهَرَتْ، وَبِهَا رُزِقَتْ، وَبِهَا
هُدِيَتْ، صَلَاةً لَا تَحْجُبُنِي بِمَظَاهِرِ وَحْدَانِيَّتِكَ عَنْ سِرِّ أَحَدِيَّتِكَ، فَلَا أَعْتَمِدُ
إِلَّا عَلَيْكَ، وَلَا أَسْتَعِينُ إِلَّا بِكَ، وَلَا أَعْبُدُ شَيْئًا سِوَاكَ، مَهْمَا تَعَدَّدَتْ وَتَغَشَّيْنِي
أَنْوَارُ تَجَلِّيَّاتِ وَحْدَانِيَّتِكَ، فَلَا كَثْرَةَ تَحْجُبُنِي عَنْ أَحَدِيَّتِكَ، وَلَا وَحْدَةَ
تَحْجُبُنِي عَنْ وَحْدَانِيَّتِكَ، يَا وَاحِدًا يَا أَحَدًا يَا فَرْدًا يَا صَمَدًا يَا اللَّهَ).

الحكمة الخمسون بعد المائتين

لَا يَلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِ الْخُصُوصِيَّةِ عَدَمُ وَصْفِ الْبَشَرِيَّةِ، إِنَّمَا مَثَلُ الْخُصُوصِيَّةِ
كَإِشْرَاقِ شَمْسِ النَّهَارِ، ظَهَرَتْ فِي الْأُفُقِ وَلَيْسَتْ مِنْهُ، تَارَةً تُشْرِقُ
شُمُوسُ أَوْصَافِهِ عَلَى لَيْلِ وُجُودِكَ، وَتَارَةً يَقْبِضُ ذَلِكَ عَنْكَ فَيَرُدُّكَ إِلَى
حُدُودِكَ، فَالْنَّهَارُ لَيْسَ مِنْكَ وَإِلَيْكَ وَلَكِنَّهُ وَارِدٌ عَلَيْكَ

شرح الحكمة

قال: «لَا يَلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِ الْخُصُوصِيَّةِ عَدَمُ وَصْفِ الْبَشَرِيَّةِ» لأن اعتراض
الكفار على الأنبياء كان بسبب وصفهم بالبشرية فانكروا الخصوصية ﴿مَا
أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [يس: ١٥]، فقالوا إن البشرية دليل على عدم وجود
الخصوصية فكفروا ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ
اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١]، ﴿يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ وهذه

هي الخصوصية، والبشرية حجبته ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقالوا ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤] وقالوا ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، وهكذا.

فلما كانت البشرية حجاباً عن رؤية الخصوصية أراد أن يبين لك أنه لا يلزم من ثبوت الخصوصية أي في باطن الإنسان عدم وصف البشرية. فالنبي والرسول يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، ويتزوج النساء، ويمرض، ويعطش، ويموت، واحتج الله تعالى على النصارى لما عبدوا عيسى عليه السلام فقال: ﴿كَانَا يَا كِلَانِ الظَّعَامُ أَنْظِرْ كَيْفَ بُنِيَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤَفَّكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]، فأثبت لهم البشرية، فكيف تدعون أنهم آلهة.

وهذا الكمال الذي يظهر الخصوصية هو من الله تعالى، حيث يتجلى الله تعالى عليهم بنوع كمالٍ فيظهره فتظهر الخصوصية كما تشرق الشمس على النهار فتنيره، ونور الشمس ليس منها بل خارجاً عنها. فإذا غربت شمس الخصوصية ظهرت ظلمات البشرية، فيفتقر إلى ربه، فالنبي والولي بين ظهور الخصوصية وأنوار إشراقات الخصوصية وبين الافتقار إلى ربه.

قال الشيخ: «إِنَّمَا مِثْلُ الْخُصُوصِيَّةِ كَإِشْرَاقِ شَمْسِ النَّهَارِ، ظَهَرَتْ فِي الْأَفُقِ وَلَيْسَتْ مِنْهُ، تَارَةً تُشْرِقُ شُمُوسٌ أَوْ صَافِيهِ عَلَى لَيْلٍ وَجُودِكَ، وَتَارَةً يَقْبِضُ ذَلِكَ عَنْكَ فَيَرُدُّكَ إِلَى حُدُودِكَ، فَالنَّهَارُ لَيْسَ مِنْكَ وَإِلَيْكَ وَلَكِنَّهُ وَارِدٌ عَلَيْكَ». فأتت كالأرض تشرق عليك شمس الخصوصية كما تشرق شمس الكوكب

على النهار فيضيئها. فلما يضيئها يزيل آثار ضعف البشرية تماماً، فلا تظهر إلا قوة النبي والولي، وبعد ذلك تغيب ليبين أنه ما زال مفتقراً إلى ربه.

فالخصوصية ليست منك ولا إليك بل هي واردة عليك من الله ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

الحكمة الحادية والخمسون بعد المائتين

دَلَّ بِوُجُودِ آثَارِهِ عَلَى وُجُودِ أَسْمَائِهِ، وَبِوُجُودِ أَسْمَائِهِ عَلَى ثُبُوتِ أَوْصَافِهِ، وَبِوُجُودِ أَوْصَافِهِ عَلَى وُجُودِ ذَاتِهِ، إِذْ مُحَالٌ أَنْ يَقُومَ الْوَصْفُ بِنَفْسِهِ، فَأَهْلُ الْجَذْبِ يَكْشِفُ لَهُمْ عَنْ كَمَالِ ذَاتِهِ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلَى شُهُودِ صِفَاتِهِ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلَى التَّعَلُّقِ بِأَسْمَائِهِ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلَى شُهُودِ آثَارِهِ، وَالسَّالِكُونَ عَلَى عَكْسِ هَذَا، فَنَهَايَةُ السَّالِكِينَ بَدَايَةُ الْمَجْذُوبِينَ لَكِنْ لَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ، فَرُبَّمَا التَّقْيَا فِي الطَّرِيقِ، هَذَا فِي تَرْقِيهِ وَهَذَا فِي تَدْلِيهِ

شرح الحكمة

فلما أظهر شמוש أوصافه وخصوصياته على يد أوليائه وأنبيائه دل بذلك على أثر أسمائه ﷺ، التي دلت على أثر أوصافه، والتي دلت على وجود ذاته ﷻ. فعلمت أن هناك إلهاً قادراً؛ لأنه أظهر القدرة على من شاء من عباده وفي تدبيره في الكون، وعلمت أن هناك قاهراً؛ لأنه أظهر القهر على من شاء من عباده، وعلمت أنه معطياً؛ لأنه وسع العطاء على من شاء، وعلمت أنه مانعاً؛ لأنه منع من شاء، وهكذا. وتعدد التجليات يدل على تعدد أسماء المتجلي وصفاته، فالموجودات متعددة والأسماء

متعددة والصفات متعددة والموجود واحد جل جلاله. وهذا هو معنى (وحدة الوجود) عند الصوفية، فأنت استدلت بهذه الآثار التي هي آثار الخصوصية وآثار الربوبية على وجود أسمائه الدالة على صفاته، والدالة على ذاته، والذات غير مدركة لا بالعقل ولا بالخيال، لكن المدرك أثر الصفات والأسماء، ولا يستطيع مخلوق إدراك جميع الأسماء والصفات والإحاطة بها، لكن ندرك بعض أثارها الظاهرة في الأكوان على قدرنا لا على قدره سبحانه.

والناس يتفاوتون في معرفة هذه الأشياء، ويتفاوتون في التحقق بهذه المعاني، فمنهم من يشهد الله أولاً، ثم يرى الأشياء بالله، وقوم آخرون يرون الحق من خلال الخلق، وهم الذين حُجبوا بالآثار والأسباب فهم أنواع، ولذا قال: «فَأَهْلُ الْجَذْبِ يَكْشِفُ لَهُمْ عَنْ كَمَالِ ذَاتِهِ» وهم الذين جذبهم الله ﷻ إليه ﴿يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الشورى: ١٣]، فيكشف لهم عن أنوار ذاته، فلا يرون الفعل ولا الاسم ولا الصفة، بل يرون أنوار ذاته مباشرة، فيحجبهم عن آثار أفعاله وأسمائه وصفاته. ومن أهل الجذب لما كشف لهم عن أسرار الذات كَلَّتْ عندها عقولهم، فظهرت عليهم آثار الجذب ولم يردهم إلى السلوك.

ومنهم من يرحمهم ويغيب عنهم أسرار الذات ويردهم إلى آثار الصفات، فيردهم إلى السلوك، لذلك قال: «ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلَى شُهُودِ صِفَاتِهِ ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلَى التَّعَلُّقِ بِأَسْمَائِهِ، ثُمَّ يَرُدُّهُمْ إِلَى شُهُودِ آثَارِهِ» أي إلى رؤية الصفات، ثم رؤية الأفعال، فيرون الخلق بالله ﷻ، ويتعاملون مع الأكوان بالمكون.

ثم قال «وَالسَّالِكُونَ عَلَى عَكْسِ هَذَا» فالسالكون العابدون يهديهم إليه ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، فيتعامل مع الآثار فيرى أنها تدل على المؤثر، فأثاره تدل على أسمائه، وأسمائه تدل على صفاته، وصفاته تدل على وجود ذاته، والسالك أعلى من المجذوب من جهة؛ لأن السالك هو الذي يُقتدى به، والمجذوب أعلى من السالك من جهة لغيابه في معرفته.

وجعل الله ﷻ أهل جذب وأهل سلوك حتى لا يعتمد السالك على سلوكه، ولا يظن أنه وصل إلى ما وصل إليه بسلوكه وعبادته، بل هو بمحض فضل الله ﷻ.

ونهاية السالكين التعامل مع الذات، وهي بداية المجذوبين، لذلك قال «فَنَهَايَةُ السَّالِكِينَ بِدَايَةِ الْمَجْدُوبِينَ لَكِنْ لَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ، فَرُبَّمَا التَّقِيَّ فِي الطَّرِيقِ، هَذَا فِي تَرْقِيهِ وَهَذَا فِي تَدَلِّيهِ».

واعلم أن أقرب الطرق الموصلة لله تعالى هو سيدنا النبي ﷺ، فالأعرابي لما التقى بالحبيب الأعظم نقله إلى حضرة ربه في لحظة، فسلوكه وارتقائه جاء في لحظة واحدة ببركة التقائه بالنبي ﷺ. فالنبي ﷺ يقصر لك الطريق، فيجعلك سالكاً مجذوباً في آنٍ أحد، مع بقاء شرف التكليف لسلامة عقله الذي هو مناط التكليف.

ثم بعد ذلك أراد أن يبين أن السالك في ترقيه، والمجذوب في تدليه، هؤلاء جميعاً بطنت فيهم الخصوصية، وأنت لا تراها؛ لأنها في صورة أنوار في القلوب فقال في الحكمة التالية:

الحكمة الثانية والخمسون بعد المائتين

لَا يُعْلَمُ قَدْرُ أَنْوَارِ الْقُلُوبِ وَالْأَسْرَارِ إِلَّا فِي غَيْبِ الْمَلَكُوتِ، كَمَا لَا تَظْهَرُ
أَنْوَارُ السَّمَاءِ إِلَّا فِي شَهَادَةِ الْمَلِكِ

شرح الحكمة

قلنا في الحكم السابقة أن الله ﷻ جمع فيك الكون كله، وكما يوجد في الكون شمس وأقمار، فإذا ما صدق السالك في طلبه لمولاه أشرقت في سمائه شمس العرفان التي تذهب عنه ظلمات الجهل فيرى تجليات الحق ﷻ، وتظهر أقمار التوحيد التي إذا ظهرت تدل السالك في ليل بشريته على وجود الواحد القهار.

والله ﷻ إذا أراد أن يتعرف على عبده فسيتعرف عليه من خلال قلبه؛ لأن القلب هو محل نظر الرب، والنبى ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُورِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ»^(١)، فالقلب هو محل الرعاية والعناية. فإذا أراد الله ﷻ أن يرقى إنساناً في الولاية راعى هذا القلب، فيعينه أن ينقى القلب مما سواه. فإذا تنقى القلب مما سوى الحق ﷻ انطبعت صور الكمالات فيه، فيصير القلب منوراً. فالأنوار لا تظهر إلا في القلوب، فأشراق أنوار الغيوب من عالم الملكوت لا تظهر إلا في القلب السليم.

قال الشيخ: «لَا يُعْلَمُ قَدْرُ أَنْوَارِ الْقُلُوبِ وَالْأَسْرَارِ» فالقلب هو لب البدن، والسر هو لب الروح. فالقلوب لها أنوار السلوك، والسر له أنوار المشاهدة. وأنوار القلوب للمريدين أو السالكين، وأنوار الأسرار للواصلين.

(١) مسلم (٦٧٠٧)، وابن ماجه (٤٢٨٢)، وأحمد (٧٩٤٢).

قال «إِلَّا فِي غَيْبِ الْمَلَكُوتِ» والملكوت هو كل ما لا يرى بالحس، فكلما غبت عن الحس أشرق أنوار الباطن، وكلما انشغلت بالحس انطمست أنوار الباطن. وغيابك عن الحس يكون بانغماسك في الفرائض والنوافل والأذكار، وكلما تقربت لمولاك قربك إليه.

قال الشيخ: «كَمَا لَا تَظْهَرُ أَنْوَارُ السَّمَاءِ إِلَّا فِي شَهَادَةِ الْمُلِكِ» فأنوار السماء من عالم الملك الذي يدرك بالحس، وأنوار الهداية تظهر في القلب وهو عالم الملكوت الذي لا يدرك بالحس.

فيصير هذا السالك منورا، يهدي به الله ﷻ من شاء من عباده. قال سيدنا الإمام أبو الحسن الشاذلي ﷺ: (لو كُشِفَ نور المؤمن العاصي لحجب نور الشمس) هذا في المؤمن العاصي فما بالك بالمؤمن الصالح، وما بالك بالولي، وما بالك بالنبي ﷺ.

الحكمة الثالثة والخمسون بعد المائتين

وَجَدَانُ ثَمَرَاتِ الطَّاعَاتِ عَاجِلًا وَبَشَائِرُ الْعَامِلِينَ بِوُجُودِ الْجَزَاءِ عَلَيْهَا آجِلًا

شرح الحكمة

فالله ﷻ أكرم من أن يعطيك لذة الطاعة عاجلاً، ويحرمك ثوابها آجلاً.

قال الشيخ: «وَجَدَانُ ثَمَرَاتِ الطَّاعَاتِ عَاجِلًا» فثمرات الطاعة هي أنوار تشرق في قلبك فتعلو الهمة، وتندوق حلاوة الطاعة، فتنهك في الذكر، وتغيب عما سوى المذكور، وكل هذا ثمرات عاجلة للعاملين، وهي بشارة عظيمة للسالكين المجتهدين.

ثم بعد ذلك عليك تستبشر بالجزاء آجلاً، ويجب عليك التأدب مع ربك ﷻ؛ لأنه هو الذي قواك على العبادة، وهو الذي ألهمك الذكر. فإذا كان الأمر كذلك فعليك ألا تطلب الأجر آجلاً، فالكلام الأول يبشرك، ولكن لا تتعلق بالأجر آجلاً، ولكن تعلق برحمته ﷻ. فالذي تعلق بالأجر معتمد على عمله، ومن تعلق بالحق ﷻ متعلق برحمته، ولا يدخل الجنة أحد بعمله بل برحمة الله سبحانه.

لذلك قال لك في الحكمة التالية:

الحكمة الرابعة والخمسون بعد المائتين

كَيْفَ تَطْلُبُ الْعَوَضَ عَلَى عَمَلٍ هُوَ مُتَصَدِّقٌ بِهِ عَلَيْكَ؟ أَمْ كَيْفَ تَطْلُبُ
الْجَزَاءَ عَلَى صِدْقٍ هُوَ مُهْدِيهِ إِلَيْكَ

شرح الحكمة

فهو سبحانه من تصدق عليك وتفضل عليك وجعلك من الذاكرين العابدين المطيعين، ومنَّ عليك بأن أظهر العمل على جوارحك ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦]، فكيف تطلب الأجر على عمل لم تقم به على الحقيقة.

ولذا يقول: «كَيْفَ تَطْلُبُ الْعَوَضَ عَلَى عَمَلٍ هُوَ مُتَصَدِّقٌ بِهِ عَلَيْكَ» يعني عمل الجوارح «أَمْ كَيْفَ تَطْلُبُ الْجَزَاءَ عَلَى صِدْقٍ هُوَ مُهْدِيهِ إِلَيْكَ» والصدق محله القلب، فكيف تطلب أجراً على أعمال الجوارح وهو الذي أظهر العمل عليك، وكيف تطلب الأجر على أعمال القلوب وهو الذي أهدها إليك.

والصدق سر بين العبد وربّه، يجعله الله ﷻ في قلب من شاء من عباده، فيكفيك أن جعلك من الصادقين، وحرّم غيرك من الصدق بسبب ما في قلوبهم من النفاق والكفر، فهذا كله من كمال رحمته بك.

وجعل الصدق هدية، والهدية للمحبوب. وأصل الصدق ألا ترى نفسك في العمل، وأصل الإخلاص ألا ترى الخلق مع الخالق، فالصدق ألا ترى نفسك، والإخلاص ألا ترجو غيره، فإذا يسر لك هذا الأمر فاشكره، لأنه أنعم عليك واجتباك وجعلك من الصادقين.

الحكمة الخامسة والخمسون بعد المائتين

قَوْمٌ تَسْبِقُ أُنْوَارُهُمْ أَذْكَارُهُمْ، وَقَوْمٌ تَسْبِقُ أَذْكَارُهُمْ أُنْوَارُهُمْ، وَقَوْمٌ تَسَاوَى أَذْكَارُهُمْ وَأُنْوَارُهُمْ، وَقَوْمٌ لَا أَذْكَارَ وَلَا أُنْوَارَ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ

شرح الحكمة

فالواصلون قلوبهم منورة قبل الذكر، والسالكون تأتيهم الأنوار وتتنور قلوبهم بعد الذكر، فالواصلون هم أهل الحضرة وأهل الشهود، ولهم أنوار المواجهة، ومن شدة هذه الأنوار تراهم مستغرقين في الذكر على جميع أحوالهم وهيئاتهم، حتى عند النوم فقلوبهم ذاكرة.

قال الشيخ: «قَوْمٌ تَسْبِقُ أُنْوَارُهُمْ أَذْكَارُهُمْ» هم الواصلون «وَقَوْمٌ تَسْبِقُ أَذْكَارُهُمْ أُنْوَارُهُمْ» وهم السالكون، فأنوارهم أنوار التوجه، بخلاف الواصلين فأنوارهم أنوار المواجهة.

قال الشيخ: «وَقَوْمٌ تَتَسَاوَى أَذْكَارُهُمْ وَأَنْوَارُهُمْ» وهم من يذكرون تارة ويغفلون تارة، قال: «وَقَوْمٌ لَا أَذْكَارَ وَلَا أَنْوَارَ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ» وهذا حال أهل الغفلات.

الحكمة السادسة والخمسون بعد المائتين

ذَاكَرْتُ ذَكَرَ لَيْسْتَ تَنِيَرُ بِهِ قَلْبُهُ فَكَانَ ذَاكَرًا، وَذَاكَرْتُ اسْتَنَارَ قَلْبُهُ فَكَانَ ذَاكَرًا، وَالَّذِي اسْتَوَتْ أَذْكَارُهُ وَأَنْوَارُهُ فَبَذَرَهُ يَهْتَدِي، وَبَنُورِهِ يُقْتَدَى

شرح الحكمة

«ذَاكَرْتُ ذَكَرَ لَيْسْتَ تَنِيَرُ بِهِ قَلْبُهُ فَكَانَ ذَاكَرًا» وهذا هو السالك، فجلاء القلب من الأغيار وتنويره بالذكر وهذا حال السالكين.

ثم قال الشيخ: «وَذَاكَرْتُ اسْتَنَارَ قَلْبُهُ فَكَانَ ذَاكَرًا» وهذا ذكر الشريف؛ لأن قلبه صار سليما وأشرقت فيه الأنوار، فيذكر تشريفا لا تكليفا، والذي استوى جذبا وسلوكا فيكون صالحا للإرشاد والافتداء به.

الحكمة السابعة والخمسون بعد المائتين

مَا كَانَ ظَاهِرُ ذِكْرٍ إِلَّا عَنْ بَاطِنٍ شُهُودٍ أَوْ فِكْرَةٍ

شرح الحكمة

فما وفقت للذكر والعبادة والمراقبة ظاهرا إلا لوجود الأنوار في باطنك وسرك حتى ولو لم تشعر بها. وسيتضح معنى هذه الحكمة أكثر في شرح الحكمة التالية التي يذكر لك فيها الدليل على قوله هذا فيقول:

الحكمة الثامنة والخمسون بعد المائتين

أَشْهَدُكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَسْتَشْهَدَكَ، فَنَطَقْتُ بِالْوَهِيَّةِ الظَّاهِرِ، وَتَحَقَّقْتُ
بِأَحَدِيَّتِهِ الْقُلُوبِ وَالسَّرَائِرِ

شرح الحكمة

يشير لك إلى العهد الأول يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، حين
أشهدك حقيقة إلهيته قبل أن تلتبس عليك وتشوش عنها في هذا العالم
المحسوس، وتنطمس منك البصيرة، فقد أشهدك وقلت بلى.

قال الشيخ «أَشْهَدُكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَسْتَشْهَدَكَ» أشهدك وأنت في
عالم الذر، ثم أستشهدك وأنت في عالم الحس، حتى توفي بالعهد الأول
﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٠]، الذي كان في يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾
[الأعراف: ١٧٢]، فمن رحمته بك أشهدك، ولذلك تقول: (أشهد أن لا إله إلا
الله) ولا تقول أعلم أن لا إله إلا الله؛ لأنك شاهدت هذا.

وهذا يفسر الحكمة السابقة التي قال فيها «مَا كَانَ ظَاهِرُ ذِكْرِ إِلَّا عَنْ
بَاطِنِ شُهُودٍ أَوْ فِكْرَةٍ» فإذا قلت في ظاهرك (أشهد أن لا إله إلا الله وأن سيدنا
محمدًا رسول الله) واعترفت بألوهيته وبربوبيته فما كان هذا الظاهر على
لسانك إلا بعد استشهاد في باطن حقيقتك يوم ألسنت بربكم.

والإنسان نسي العهد الأول، وما سمي إنسانا إلا لأنه ينسى، لكن
الأنبياء والعارفين لا ينسون ذاك العهد. وورد عن سيدنا علي بن أبي طالب
عليه السلام أنه قال: (إني أذكر يوم الميثاق الأول يوم ألسنت بربكم، فأذكر من كان

عن يميني وعن شمالي، ومن كان أمامي وخلفي) ولذلك كان يقول:
(عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي).

ثم قال الشيخ: «وَتَحَقَّقْتُ بِأَحَدِيَّتِهِ الْقُلُوبُ وَالسَّرَائِرُ» أي بعد الشهادة باللسان، فتحقق قلبك بما نطق به لسانك، وكل هذا من رحمته ﷺ بك.

الحكمة التاسعة والخمسون بعد المائتين

أَكْرَمَكَ بَكَرَامَاتٍ ثَلَاثَ: جَعَلَكَ ذَاكِرًا لَهُ وَلَوْلَا فَضْلُهُ لَمْ تَكُنْ أَهْلًا
لِجَرَيَانِ ذِكْرِهِ عَلَيْكَ، وَجَعَلَكَ مَذْكُورًا بِهِ، إِذْ حَقَّقَ نِسْبَتَهُ لَدَيْكَ وَجَعَلَكَ
مَذْكُورًا عِنْدَهُ فَتَمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ

شرح الحكمة

«أَكْرَمَكَ بَكَرَامَاتٍ ثَلَاثَ»: الأولى «جَعَلَكَ ذَاكِرًا لَهُ وَلَوْلَا فَضْلُهُ لَمْ
تَكُنْ أَهْلًا لِجَرَيَانِ ذِكْرِهِ عَلَيْكَ» والثانية «وَجَعَلَكَ مَذْكُورًا بِهِ إِذْ حَقَّقَ نِسْبَتَهُ
لَدَيْكَ» ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، والثالثة «وَجَعَلَكَ مَذْكُورًا عِنْدَهُ
فَتَمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ» وهو القائل في الحديث القدسي: «وَأِنْ ذَكَرْنِي فِي مَلَأٍ
ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»^(١). وبعد كل هذه النعم التي أنعمها عليك تريد
بدلاً وعوضاً وثواباً؟! فكفاك بها شرفاً وتشريفاً.

(١) البخاري (٧٤٩٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ
عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي
مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَى بَشِيرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذَرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَى ذَرَاعٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ
أَتَانِي بِمَشْيِ أَتَيْتُهُ هَرَوَلَةً. ومسلم (٦٩٨١)، والترمذي (٣٩٥٢)، وابن ماجه (٣٩٥٤).

الحكمة الستون بعد المائتين

رُبَّ عُمَرٍ اتَّسَعَتْ أَمَادُهُ وَقَلَّتْ أَمْدَانُهُ، وَرُبَّ عُمَرٍ قَلِيلَةُ أَمَادِهِ كَثِيرَةُ أَمْدَانِهِ

شرح الحكمة

وأفضل مثال لفهم هذه الحكمة هو سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ الإنسان الكامل، فقد عاش ثلاث وستين سنة، وأُرسل ثلاثة وعشرين عاما، غير فيها وجه الأكوان، وفعل ما لم يفعله غيره من الأنبياء الذين عاشوا ألف سنة كسيدنا نوح عليه السلام.

فأفضل الأوقات هي التي تكون فيها عابدا ذاكرا شاكرا؛ لأنها أوقات الوصال والتجليات، وهذه خير من مئات السنين مرت على غيرك دون ذكر الله ﷻ؛ لذلك قال العارفون (وكل الليالي عندنا ليلة القدر) أي ليلة واحدة في الذكر والوصال والتجلي خير من ألف شهر ليس فيها ذكر الله.

الحكمة الحادية والستون بعد المائتين

مَنْ بُورِكَ لَهُ فِي عُمُرِهِ أَدْرَكَ فِي يَسِيرٍ مِنَ الزَّمَنِ مِنْ مَنْنِ اللَّهِ تَعَالَى مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ دَوَائِرِ الْعِبَارَةِ، وَلَا تَلْحَقُهُ الْإِشَارَةُ

شرح الحكمة

فمن عرف ربه بورك له في عمره، فيدرك في يسير الزمان ما لا يدركه غيره في طويل الزمان. لذلك قال: «مَنْ بُورِكَ لَهُ فِي عُمُرِهِ أَدْرَكَ فِي يَسِيرٍ مِنَ الزَّمَنِ مِنْ مَنْنِ اللَّهِ تَعَالَى مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ دَوَائِرِ الْعِبَارَةِ، وَلَا تَلْحَقُهُ الْإِشَارَةُ».

وانظر وتأمل في علماء المسلمين الذي بارك الله لهم في أعمالهم كالإمام الشافعي رحمه الله الذي مات وعمره أربع وخمسون سنة، والإمام النووي الذي مات وعمره خمس وأربعون سنة، وانظر إلى علومهم ومؤلفاتهم التي تركوها، ولو قسمت أعمالهم على أعمارهم لوجدتهم يحتاجون أعمارًا إلى أعمارهم لينجزوا هذه الأعمال، ولكن هذا من بركة الزمن التي خصهم الله بها.

الحكمة الثانية والستون بعد المائتين

الْخِذْلَانُ كُلُّ الْخِذْلَانِ أَنْ تَتَفَرَّغَ مِنَ الشَّوَاغِلِ، ثُمَّ لَا تَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ، وَتَقِلَّ عَوَائِقُكَ، ثُمَّ لَا تَرَحَّلَ إِلَيْهِ

شرح الحكمة

وهذه على عكس الحكمة السابقة، فالخذلان ضد التوفيق، والتوفيق أن تتعلق بربك ﷻ فيبارك لك في عمرك وعملك، والخذلان كما قال الشيخ: «الْخِذْلَانُ كُلُّ الْخِذْلَانِ أَنْ تَتَفَرَّغَ مِنَ الشَّوَاغِلِ، ثُمَّ لَا تَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ، وَتَقِلَّ عَوَائِقُكَ، ثُمَّ لَا تَرَحَّلَ إِلَيْهِ» فالخذلان أن يرزقك الله ﷻ بالصحة والعافية والفراغ ثم تشغل بالأكوان عنه.

وهو الذي أمرك أن ترغب إليه في وقت الفراغ فقال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾

﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾ [الشرح: ٧-٨]، وسيدنا النبي ﷺ يقول: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصُّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»^(١).

(١) البخاري (٦٤٨٧)، والترمذي (٢٤٧٣)، وابن ماجه (٤٣٤١).

الحكمة الثالثة والستون بعد المائتين

الفِكْرَةُ سَيْرُ الْقَلْبِ فِي مَيَادِينِ الْأَغْيَارِ

شرح الحكمة

«الفِكْرَةُ» هي العبرة التي تكون في القلب فتجعله ينتبه من غفلته، ثم قال: «سَيْرُ الْقَلْبِ فِي مَيَادِينِ الْأَغْيَارِ» والأغيار هي كل ما سوى الله ﷻ، فالعبرة أن يسير القلب في ميادين الأغيار ناظرا إلى الآثار التي توصله إلى المؤثر، وإلى الخلق الذين يوصلونه إلى الخالق، وإلى آثار الفناء التي توصله إلى الباقي، وهذه فكرة السالكين المبتدئين، وفكرة الواصلين سير القلب في ميادين الأنوار.

الحكمة الرابعة والستون بعد المائتين

الفِكْرَةُ سِرَاجُ الْقَلْبِ، فَإِذَا ذَهَبَتْ فَلَا إِضَاءَةَ لَهُ

شرح الحكمة

«الفِكْرَةُ سِرَاجُ الْقَلْبِ» أي هي تنور القلب «فَإِذَا ذَهَبَتْ فَلَا إِضَاءَةَ لَهُ»

﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]

الحكمة الخامسة والستون بعد المائتين

الفِكْرَةُ فِكْرَتَانِ: فِكْرَةُ تَصْدِيقٍ وَإِيمَانٍ، وَفِكْرَةُ شُهُودٍ وَعِيَانٍ، فَالْأُولَى
لِلْأَرْبَابِ الْإِعْتِبَارِ، وَالثَّانِيَةُ لِلْأَرْبَابِ الشُّهُودِ وَالْإِسْتِبْصَارِ

شرح الحكمة

أي الناس في الاعتبار بالفكرة على نوعين: سالك، وواصل، فالسالك هو السائر بأنوار التوجه، والواصل هو السائر بأنور المواجهة. فقوله «فِكْرَةُ تَصْدِيقٍ وَإِيمَانٍ» فهذه للسالكين، وقوله «وَفِكْرَةُ شُهُودٍ وَعِيَانٍ» وهذه للواصلين. ثم قال: «فَالْأُولَى» وهي فكرة التصديق والإيمان «لِلْأَرْبَابِ الْإِعْتِبَارِ» وهي فكرة سير القلب في ميادين الاغيار، وهي للسالكين. ثم قال: «وَالثَّانِيَةُ لِلْأَرْبَابِ الشُّهُودِ وَالْإِسْتِبْصَارِ» أي لأهل الحضرة، وأهل المعرفة الذين انتقلوا من الأثر للمؤثر، ومن الخلق إلى الخالق فصاروا لا يتعاملون إلا مع الله ﷻ.



شرح مناجاة

سيرى ابن عطاء الله

السكنري رضي الله عنه

مقدمة الشرح

الحمد لله رب العالمين، اللهم استر عيوبنا واغفر ذنوبنا ووفقنا
وسائر المسلمين بالصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله إلى ما
تحبه وترضاه يا رب العالمين.

أما بعد،

فهذه المناجاة العظيمة لسيدي ابن عطاء الله السكندري رحمه الله عبارة عن
دعاء طويل تلخص نظرة المدرسة الشاذلية إلى الله تعالى وإلى النبي صلى الله عليه وسلم وإلى
الاسلام وإلى المسلمين وإلى الأسباب والوسائط، لأن من مزية المدرسة
الشاذلية أن يضع الشيخ قدمك عند مولاك فيقول لك بحاله ومقاله ها انت
وربك، ومن ذلك على ربك أراحك ومن ذلك على نفسك أتعبك.

وهناك من الطرق من تدلك على نفسك وعيوبها أولاً، حتى تدخل في
مجاهدتها فترتقي بالنفس للوصول إلى الله تعالى، لكن في المدرسة الشاذلية
يدلك الشيخ على الله أولاً، وهذا من فضل الله على هذه الأمة، لعلمه أن
الأمة ستضعف آخر الزمان، ولأن أغلب الناس لا طاقة لهم بالمجاهدات،
فبمجرد أخذ العهد من الشيخ نقلك إلى طريق مولاك، ويجب عليك
أن تتعرف على الله في كل شيء، وتفتقر إلى الله في كل شيء، وتستغني
بالله عن كل شيء، والطرق الموصلة إلى الله على عدد أنفاس الخلائق

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، لأن عيوب النفس كثيرة فجعل الله ﷻ الأدوية كثيرة، حتى يصل الجميع إلى ربه من خلال هذه الطرق.

ويجب على المريد المواظبة على الفرائض والعبادات والأوراد والتعلق بالنبي ﷺ ومحبته وآل بيته حتى يأتيه المدد من الله ﷻ مباشرة بواسطة الحبيب ﷺ، فيأخذ النبي ﷺ بيدك إلى حضرة مولاك حتى إذا جئته لم تجده حاجبا بل موصلا ووجدت الله عنده فوفاك حسابك.

والصوفي كلما زادت طاعته ازداد خوفه من الله ﷻ وكلما زادت معصيته ازداد رجائه، لأن نظره ليس للعمل بل لله ﷻ، والمريد في الطريقة الشاذلية كل اعتماده على الله ﷻ مع توقيره لمشايخه وسلسلة طريقته.

ولقد قال كثير من العلماء إن هذه المناجاة فيها من الأسرار والأنوار ما لا يعلمه إلا الله وهي ملخص الحكم العطائية كلها، وإذا واظبت عليها ستتجلى الحقائق على قلبك وتتعرف على الله ﷻ وعلى رسوله ﷺ لأنه الواسطة في كل خير وفي كل مدد.

فيجب المواظبة عليها ولو مرة في اليوم أو مرة في الأسبوع ولكن لا تتركها ولا تهجرها؛ لأنها دواء لجميع أمراض القلوب وفتن الدنيا.



١- (إِلَهِي أَنَا الْفَقِيرُ فِي غِنَايَ، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ فَقِيرًا فِي فَقْرِي)

شرح الفقرة

بدأ بذكر صفات العبد، كال فقر والذل والعجز والجهل ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فتوجه إلى الله بكمال الافتقار والمسكنة حتى يتصدق الله عليه ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، فإذا كان الله ﷻ يحثك على إكرام المسكين والفقير فمن باب أولى أن يتصدق عليك الكريم المتفضل المنان إذا وجدك مفتقرًا مسكينًا.

وبدأ بهذه الحكمة التي تدل على حسن الاستهلال، حيث بدأ باعترافه وعجزه وفقره حتى ينال كرم الله ﷻ الذي لا يحتاج إلى وسائط، فقوله (أنا الفقير في غناي) أي حتى وإن امتلكت الصحة والمال فهي ليست مني بل بمحض فضلك. وإن كنت غنيًا بها في الظاهر إلا أنني ما زلت فقيرًا لك في الباطن.

ثم قال: (فَكَيْفَ لَا أَكُونُ فَقِيرًا فِي فَقْرِي) أي أنا فقير في حال غناي فما بالي وأنا فقير حتى في غناي العارض عليّ فأكون محتاجًا لك من باب أولى. والغنى قد يكون بالمال والصحة وقد يكون الغنى بأن رزقك الله ﷻ همة التوجه إليه والإقبال عليه، وهذه الهمة أنت مفتقر فيها إلى الله لتدوم عليك ويوفئك فيها.

إذن: حتى وأنت في غنى المال والهمة، مفتقر عاجز محتاج لدوام المدد الإلهي الذي يمكن أن يسلبه الله ﷻ في لحظة، وسيدنا موسى عليه السلام قال لربه ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، فأظهر الافتقار والعجز، فمن الله عليه بالعمل والزواج والسكن بعدما كان هاربًا لا يملك إلا عصاه، وهذا من حسن خطاب العارفين مع مولا لهم.

٢- (إِلَهِي أَنَا الْجَاهِلُ فِي عِلْمِي، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ جَهُولًا فِي جَهْلِي)

شرح الفقرة

وهذا هو الوصف الثاني للإنسان وهو الجهل، لا يعلم ما يضره ولا ما ينفعه، قال الله ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وهذا من جهل الإنسان، فالعبد هنا يعترف بالجهل لمولاه في حالة علمه، والجهل أشد في حال جهله.

٣- (إِلَهِي إِنَّ اخْتِلَافَ تَدْبِيرِكَ وَسُرْعَةَ حُلُولِ مَقَادِيرِكَ مَنَعَا عِبَادَكَ الْعَارِفِينَ بِكَ عَنِ السُّكُونِ إِلَى عَطَاءٍ، وَالْيَأْسِ مِنْكَ فِي بَلَاءٍ)

شرح الفقرة

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، أي في كل لحظة هو في شأن فيرفع أقواماً ويخفض أقواماً، ويعز أقواماً ويذل أقواماً، ويعطي أقواماً ويمنع آخرين. وما دامت هذه صفاته فيجب أن لا تركز للمقادير، بل تركز إلى من بيده مقادير كل شيء، ومع هذه الصفات فهو عظيم كريم، لذلك تطمان لكرمه ولا تركز لعطائه، فلا تستغني عنه طرفة عين حتى وإن أغناك؛ لأنه يمكن أن ينقلب الغنى إلى فقر في لحظة، والعافية إلى مرض، والقوة إلى ضعف، والعلم إلى جهل، فلا تركز للنعمة وتنسى المنعم، ولا تقنط وأنت في البلاء، ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

٤- (إِلَهِي مَنِّي مَا يَلِيقُ بِلُؤْمِي، وَمِنْكَ مَا يَلِيقُ بِكَرَمِكَ)

شرح الفقرة

واللؤم: أن تظهر خلاف ما تبطن، فتتذلل لله عز وجل وتكثر من العبادات لله وتبطن احتياجك للأشياء، وعسى الله أن يجيبك عليها، أما عطاؤه فبمحض الفضل والكرم، فأنا مع لؤمي محتاج وأنت الكريم الغني عن العالمين، وتعطيني بكرمك دون النظر إلى عملي وطاعتي، فالعبد يعبد الله ويتقرب إليه ويبطن رغبته في تيسيره أموره في الدنيا وثوابه في الآخرة، فله عين على مولاه وعين على عطاء الله لتحقيق غرض في نفسه.

٥- (إِلَهِي وَصَفْتَ نَفْسَكَ بِاللُّطْفِ وَالرَّافَةِ بِي قَبْلَ وُجُودِ ضَعْفِي، أَقْتَمْنِعْنِي مِنْهُمَا بَعْدَ وُجُودِ ضَعْفِي)

شرح الفقرة

ففي القرآن الكريم وهو كلام الله القديم الموجود قبل خلق الخلق، والذي قال فيه ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمُ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩]، وقال ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩]، فالله لطيف بك قبل أن توجد، ويظهر ضعفك فهل يمنعك اللطف بعد ظهور ضعفك؟ فمن باب أولى أن يلطف بك وأنت في ضعفك.

٦- (إِلَهِي إِنْ ظَهَرْتَ الْمَحَاسِنُ مِنِّي فَبِضْلِكَ وَلَكَ الْمِنَّةُ عَلَيَّ، وَإِنْ ظَهَرْتَ الْمَسَاوِي مِنِّي فَبِعَدْلِكَ وَلَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ)

شرح الفقرة

فلو ظهر علي محاسن وكمال فهو بسبب تجليك علي بهذه المحاسن، لذلك يقول ابن عطاء الله في الحكم (إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق العمل ونسب إليك) فهو المغني، والنافع، والشافئ، والمعلم، والهادي، والمحسن، فكلها منه سبحانه وتعالى ونسبها في هذه الدنيا إليك ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ [٦٣] ﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَتَمْنَى الْزَّرْعُونَ﴾ [٦٤] [الواقعة: ٦٣-٦٤]، أما المساوي التي تظهر علي فبسببي وبسبب حجابي ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، وإذا أصابتك السيئة، فهي بمحض حجة الله على عباده، لإشعاره بأنه مفتقر فيقول (يا رب) فهو سبحانه يتعرف عليك بالمنع كما يتعرف عليك بالعطاء، فيشعرك بالذل حتى تستعز به، ويشعرك بالفقر حتى تستغني به، فأنت عبدٌ مجبول على النقص والعجز وهذا بمحض العدل الإلهي، فالكمال فضل والنقص عدلٌ ولا يتصور وقوع الظلم في الكون لأنك بين الفضل والعدل.

٧- (إِلَهِي كَيْفَ تَكُنِّيَ إِلَى نَفْسِي وَقَدْ تَوَكَّلْتُ لِي، وَكَيْفَ أَضَامُ وَأَنْتَ النَّاصِرُ لِي، أَمْ كَيْفَ أَخِيبُ وَأَنْتَ الْخَفِيُّ بِي، هَا أَنَا أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِفَقْرِي إِلَيْكَ، وَكَيْفَ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِمَا هُوَ مُحَالٌ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ، أَمْ كَيْفَ أَشْكُو

إِلَيْكَ حَالِي وَهُوَ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ، أَمْ كَيْفَ أُتْرَجِمُ لَكَ بِمَقَالِي وَهُوَ مِنْكَ
بَرَزَ إِلَيْكَ، أَمْ كَيْفَ تُخَيِّبُ آمَالِي وَهِيَ قَدْ وَفَدَتْ إِلَيْكَ، أَمْ كَيْفَ لَا
تُحَسِّنُ أَحْوَالِي وَبِكَ قَامَتْ إِلَيْكَ؟!)

شرح الفقرة

قال: (إِلَهِي كَيْفَ تَكِلُنِي إِلَى نَفْسِي وَقَدْ تَوَكَّلْتُ لِي) وفي رواية (وقد تكفلت بي) والله تعالى يقول ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣]، فقد توكل عنا فلا يتركنا، فالمعنى: يا رب أنت القائم بأمورنا، والمتكفل بنا فلا نضام أبداً، ولا نحتاج غيرك لأنك وكيلنا وكفيلنا ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وللأسف أن جميع الدواب لا تشكي من الخالق إلا بني آدم، فيشتكون ولا يرضون بما ضمنه الله لهم، وذلك لجهل بني آدم ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، لذلك يعلمنا رسول الله ﷺ أن نتعلم التوكل من الطيور حيث قال: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقْتُمْ كَمَا تَرْزُقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»^(١)

فالسعي واجب مع كمال التوكل على الله ﷻ وعدم الضجر والشكوى، بل الرضا بالمقسوم، فإذا تخلصت من خوف الخلق وهم الرزق، ولدت ولادة جديدة، وأصبحت من الأولياء الذين فوضوا أمرهم

(١) رواه الترمذي (٢٥١٥) عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقْتُمْ كَمَا تَرْزُقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا» قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَأَبُو تَمِيمٍ الْجَيْشَانِيُّ اسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَالِكٍ، وَابْنُ مَاجَةَ (٤٣٠٣)، وَاحْمَدُ (٢١٠).

لله ﷻ ورضوا بجميع أفعاله وتدييره، فإذا وضعت أثقال الخلق والرزق عن نفسك صرت حراً طليقاً خفيفاً جالت روحك في الملكوت.

ثم قال: (وَكَيْفَ أَضَامُ وَأَنْتَ النَّاصِرُ لِي) أي كيف أظلم وتنتهك حرمتي وأنت الناصر لي، قال سبحانه: ﴿إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، فالمؤمن عزيز بالله ﷻ وبرسوله ﷺ ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

ثم قال: (أَمْ كَيْفَ أَخِيبُ وَأَنْتَ الْحَفِيُّ بِي) والله يقول ﴿وَهُوَ تَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، ويقول ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فإذا كنت وليي فلا أخيب أبداً، فيني وبينك ولاء وأنت الغني القادر، أفلا أفتخر بولايتك والمحجوب يفتخر بولايته لأصحاب المناصب والقادة، فالمؤمن عزيز بربه، فانطلق من ذل نفسك إلى عزة ربك ﷻ، وانطلق من تدبيرك واختيارك إلى اختياره حتى يوقفك على مراكز اضطراك فإذا وجدك مضطراً أجابك وأعانك، ولو كشف الله ﷻ أنوار هذه الآية ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]، لو وقف قلبك شوقاً لمولاه، فأنت ضعيف ذليل جهول، بل عدم وغير موجود على الحقيقة، بل موجود به بدليل ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [الفصص: ٨٨]، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، ومع ذلك صار لك ولاء مع الله ﷻ وبالله، فأني فضل هذا وأي كرم هذا، لذلك بعض الأولياء لما كشفت لهم هذه الأسرار والأنوار لم يتحملها فشقق ومات شوقاً للقاء ربه. حُكي أن رجلاً كان يسير في طريق الحج وقرأ القرآن ويرقص، فقال الناس له تأدب يا رجل وكن وقوراً فأنت تتلو كلام الله، فقال لهم (لما قرأت القرآن قلت هذا كلام من، وأنا عبد من، وإلى بيت

من أنا ذاهب؟ فأخذني الوجد فرقصت شوقاً وطلباً) إذن: كلما عرفت النعم التي أقامك الله فيها وشكرتها زادك الله منها فازددت له شوقاً، وهذا معنى قول الأولياء (لو علم الملوك ما نحن فيه لقاتلونا عليه بالسيوف)^(١) فهم في مقام الأنس والمخاطبة والمشاهدة والرضا فهم مستغنون بالله ﷻ راضون بحكمه فرحين به. حكى أن رجلاً مر بحلقة الإمام الجنيد^(٢) رضي الله عنه فرأى الطلاب ملتفين للعبادة والعلم فأحب أن يساعدهم فأعطى للإمام الجنيد رضي الله عنه صرة من الذهب، فقال الجنيد رضي الله عنه للرجل: وهل تملك غيرها؟ قال: نعم، قال الجنيد رضي الله عنه: وهل تطلب المزيد؟ قال الرجل: نعم، قال الجنيد: إذا أخذها فأنت أحوج إليها منا.

ثم قال: (هَا أَنَا أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِفَقْرِي إِلَيْكَ، وَكَيْفَ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِمَا هُوَ مَحَالٌّ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ) فمحال أن يوصف ربنا بالفقر، فأنت تتوسل إليه بفقرك وصفتك، حتى يعطيك من كرمه وفضله.

ثم قال: (أَمْ كَيْفَ أَشْكُو إِلَيْكَ حَالِي وَهُوَ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ) وهو كمال التسليم للقدر (علمه بحالي يغني عن سؤالي) فانظر كيف يريقك في هذه المناجاة العظيمة في مقامات السير إلى الله ﷻ، فيرقيقك من كمال الاعتراف

(١) هذا القول لسيدنا إبراهيم ابن أدهم رضي الله عنه، حلية الأولياء ج ٧ ص ٣٧٠

(٢) سيد الطائفتين هو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي القواريري، أصله من نهاوند ومولده في العراق، ولد سنة نيف وعشرين ومائتين، صحب خاله السري السقطي والحارث المحاسبي، وتفقه على مذهب الامام الشافعي حتى صار يفتي الناس على مذهب ابي ثور صاحب الامام الشافعي. قال ابن المنادي عنه: لم يُر في زمانه مثله عفة وعزوف عن الدنيا، كان له دكان في السوق يصلي فيه كل يوم وقت الضحى ثلاث مائة ركعة. كان يقول: علمنا مضبوط بالكتاب والسنة ومن لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به. توفي رضي الله عنه سنة سبع وتسعين ومائتين ودفن في بغداد وله مقام يزار.

بالعجز إلى كمال معرفتك بربك، ثم إلى كمال التوكل على الله، ثم إلى كمال ترك الأسباب، إلى أن تصل إلى مقام عدم السؤال؛ لأن السؤال شكوى، وكيف نشكو إليه ما هو يعلمه ويعرفه، بل هو الذي قدره علينا، وهذا المقام الإبراهيمي (علمه بحالي يغني عن سؤالي).

ثم قال: (أَمْ كَيْفَ أُتَرْجَمُ لَكَ بِمَقَالِي وَهُوَ مِنْكَ بَرَزَ إِلَيْكَ) فحتى الألفاظ التي أعبر بها عن حالي، فهي منك علمتني إياها وأنت من ألهمتني التعبير بها، فهي منك وإليك، وأنا أظهرها إظهاراً للعبودية لا تعلقاً بها؛ لأن التعلق بك أنت وحدك، لا أشرك معك أحداً.

ثم قال: (أَمْ كَيْفَ تُخَيِّبُ آمَالِي وَهِيَ قَدْ وَفَدَتْ إِلَيْكَ) فأنت الذي خلقت هذه الآمال في قلبي وعلقت بها، ولقد خلقتها في قلبي لأشعر بحاجتي لك، وقوله (وفدت عليك) أي نزلت إلى ساحة كرمك.

ثم قال: (أَمْ كَيْفَ لَا تُحَسِّنُ أَحْوَالي وَبِكَ قَامَتْ إِلَيْكَ) والله يقول ﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، فاخرج من نفسك وتوكل عليه سبحانه، فياخذ بيدك ويخرجك من حجاب نفسك فيوصلك إليه، فأحوالي قامت بك وبتوفيقك، ولا حول ولا قوة لي إلا بك.

٨- (إِلَهِي مَا أَلْطَفَكَ بِي مَعَ عَظِيمِ جَهْلِي، وَمَا أَرْحَمَكَ بِي مَعَ قَبِيحِ فِعْلِي)

شرح الفقرة

فالله ﷻ يعطيك ما ينفعك وأنت ترفض الأخذ لجهلك، فقد يكون الدواء مرّاً في الظاهر وفي باطنه النفع والشفاء. وهو من لطفه بك يعطيك ما في ظاهره الجلال وفي باطنه الجمال كله.

قال سبحانه في الحديث القدسي: «وإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيْمَانَهُ إِلَّا الْفَقْرُ وَإِنْ بَسَطْتُ لَهُ أَفْسَدَهُ ذَلِكَ»^(١) وهذا جلال لكن باطنه جمال؛ لأن فيه صلاح الحال، فيشعرك في نقصك وحاجتك حتى تلجأ إليه وتستعين به.

واللطف: هو جريان النفع في خفاء ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فبالرغم من معصيتي وجهلي واعتمادي على غيرك لكنك متكفل بي وترحمني وتقويني، فما أراك بي مع قبيح عملي، فإذا أقبلت عليه ﷺ أقبل عليك، فهو لطيف بعباده جميعا عصاة وطائعين.

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (ج ٨ ص ٣١٨) حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ مُحَمَّدُ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ، ثنا عَبْدُ الْجَبَّارِ بْنُ عَاصِمٍ، ح. وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ الْأَجْرِيُّ ثنا أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى الْحُلَوَانِيُّ، ح. وَحَدَّثَنَا مَخْلَدُ بْنُ جَعْفَرٍ، ثنا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ زَيْدِ الْبَرَائِيِّ، قَالَ: ثنا الْحَكَمُ بْنُ مُوسَى، ثنا عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ يَحْيَى الْحُسَيْنِي، عَنْ صَدَقَةَ الدَّمَشْقِيِّ، عَنْ هِشَامِ الْكَتَّانِيِّ، عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ جَبْرِيلَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ رَبِّهِ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ قَالَ: «مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ مَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ، مَا تَرَدَّدْتُ فِي قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ وَإِنْ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يُرِيدُ بَابًا مِنَ الْعِبَادَةِ فَأَكْفَهُ عَنْهُ لَا يَدْخُلُهُ عَجْبٌ فَيُفْسِدُهُ ذَلِكَ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، لَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَنَفَّلُ لِي حَتَّى أُحِبَّهُ وَمَنْ أَحَبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا، أَوْ يَدًا وَمُؤَيِّدًا، دَعَانِي فَأَجَبْتُهُ وَسَأَلَنِي فَأَعْطَيْتُهُ وَنَصَحَ لِي فَنَصَحْتُ لَهُ، وَإِنْ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيْمَانَهُ إِلَّا الْغِنَى وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنْ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيْمَانَهُ إِلَّا الْفَقْرُ وَإِنْ بَسَطْتُ لَهُ أَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنْ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيْمَانَهُ إِلَّا الصَّحَّةُ وَلَوْ أَسْقَمْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ وَإِنْ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيْمَانَهُ إِلَّا السَّقَمُ وَلَوْ أَصَحَّحْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، إِنِّي أُدَبِّرُ عِبَادِي بَعْلَمِي فِي قُلُوبِهِمْ إِنِّي عَلِيمٌ خَبِيرٌ» غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ لَمْ يَرَوْهُ عَنْهُ بِهَذَا السِّيَاقِ إِلَّا هِشَامُ الْكَتَّانِيُّ وَعَنْهُ صَدَقَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَبُو مُعَاوِيَةَ الدَّمَشْقِيُّ تَقَرَّدَ بِهِ الْحَسَنُ بْنُ يَحْيَى الْحُسَيْنِي. ورواه الحكيم الترمذي في نوارد الأصول في أحاديث الرسول (ج ٢ ص ٢٣٢).

٩- (إِلَهِی مَا أَقْرَبَكَ مِنِّیْ، وَمَا أَبْعَدَنِي عَنْكَ)

شرح الفقرة

وهو أقرب إليك من حبل الوريد ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فهو القريب، وأنت البعيد بمعصيتك وحجابك. فلو أزلت هذه الحجب والظلمات ستجده أقرب إليك منك.

١٠- (إِلَهِی مَا أَرَأَيْكَ بِي، فَمَا الَّذِي يَحْجُبُنِي عَنْكَ)

شرح الفقرة

فجهلي ومعصيتي هي التي أبعدتني عنك، فخذ بيدي، وأخرجني من هذه الحجب، كما قال سيدي إبراهيم الدسوقي رحمته الله (خذني إليك مني وارزقي الفناء عني ولا تجعلني محجوباً بنفسي مفتوناً بحسي).

١١- (إِلَهِی قَدْ عَلِمْتُ بِاخْتِلَافِ الْأَثَارِ وَتَقْلَاتِ الْأَطْوَارِ أَنَّ مُرَادَكَ مِنِّي أَنْ تَعْرِفَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى لَا أَجْهَلَكَ فِي شَيْءٍ)

شرح الفقرة

فالله سبحانه خلق الأكوان على صور متعددة (أفعال وأجسام وحركات وألوان.... الخ) حتى يتعرف عليك في كل شيء، وحتى لا تجهله في شيء، فيتعرف عليك بالجلال والجمال، فتعرفه في كل شيء، فإذا رزقك علمت فضله وإذا حرملك علمت حكمته فتلجأ إليه ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا

الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠]،

فهو الواحد الأحد، المعطي المانع، النافع الضار، فتتعرف إليه في كل شيء، حتى لا تجهله في شيء.

١٢- (إِلَهِي كُلَّمَا أَحْرَسَنِي لُؤْمِي أَنْطَقَنِي كَرَمُكَ، وَكُلَّمَا آيَسَّنِي أَوْصَافِي أَطْمَعَنِي مِتِّكَ)

شرح الفقرة

الإنسان في طبيعته مقصر مع الله ﷻ، لأنه لا نسبة بين الله في كماله وبين المخلوق في نقصه وعجزه، ولذلك كان النبي ﷺ في دعائه يقول: «سبحانك لا نحصى ثناء عليك»^(١) فكلما نظر الإنسان إلى أحواله وعجزه وتقصيره، وقارن ما قدّمه من عبادة أو طاعة ويتتظر منها الثواب، وجد أن هذه العبادة نزر قليل بالنسبة لعظمة قدر الله ﷻ، فيشعر أنه لا وجاهة له في أن يطلب من الله الأجر على العمل، ولأنه سبحانه هو الذي خلقه وهده وقواه وأجرى العبادة على جوارحه، فكيف يطلب مقابل شيء لا يملكه ولم يقم به على الحقيقة، لكن الإنسان يطمع في كرم الله، وهو سبحانه يحب من يطمع في كرمه ويبغض من يطمع في غيره من خلقه. فبكرم الله سبحانه وتعالى يطلق لسانك عند الطلب مع شعورك بكمال النقص وكمال الافتقار، فكلما نظرت إلى أوصافي وجدتها عاجزة قاصرة جهولة لكني أطمع بكرمك وفضلك ومنتك، حتى تغطي وصفني بوصفك ونقصي بكمالك.

(١) رواه مسلم (١١١٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ فَقَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً مِنَ الْفَرَاشِ فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ وَهُوَ يَقُولُ اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ، وأبو داود (٨٧٩)، والترمذي (٣٨٣١)، والنسائي (١٧٠)، وابن ماجه (١٢٣٥).

١٣- (إِلَهِي مَنْ كَانَتْ مَحَاسِنُهُ مَسَاوِي فَكَيْفَ لَا تَكُونُ مَسَاوِيَهُ مَسَاوِي، وَمَنْ كَانَتْ حَقَائِقُهُ دَعَاوِي فَكَيْفَ لَا تَكُونُ دَعَاوِيهِ دَعَاوِي)

شرح الفقرة

إذا كانت معرفتك بربك ليست منك، بل هو الذي عرفك بنفسه وهو الذي وفقك لذلك، فكل المحاسن التي ظهرت فيك ليست منك على الحقيقة ولكنها نسبت إليك. وإذا ادعاها الإنسان فهي دعاوى وليست محاسن، فيخلق الطاعة وتنسب إليك، ويخلق العلم وينسب إليك، فإذا كانت هذه الأعمال الحسنة والمحاسن دعاوى فكيف لا تكون دعاويك الأصلية محض كذب، فقلوه (محاسنه مساوي) أي أن الله سبحانه غطى مساويك بالمحاسن، ثم قال (ومن كانت حقائقه دعاوى) أي إذا نسب شيء إليك فهو في الحقيقة من الله، وهنا يتبرأ العابد من كل حوله وعلمه وقوته إلى الله سبحانه وتعالى، فيكون في كمال الافتقار.

١٤- (إِلَهِي حُكْمَكَ النَّافِذُ وَمَشِيَّتُكَ الْقَاهِرَةُ لَمْ يَتْرُكَ لِي مَقَالَ مَقَالًا، وَلَا لِي حَالٍ حَالًا)

شرح الفقرة

وكانه استشعر أن الله أجابه لما افتقر إليه، وأجابه لما كان صريحاً معه، فنسب كل المحاسن إلى الله ﷻ والنقص إلى نفسه، لكن لما علم

أن الله ﷻ في كل لحظة هو في شأن فيرفع ويخفض ويعز ويذل، لم يطمئن لعتاء ولكن يطمئن لله ﷻ، فلا يركن للنعمة بل للمنعم، ولا يطمئن للمنة ولكن للممتن، فهو لا يستغني بالإجابة والمنة عن ربه، وحتى لو أعطاه فحكمه نافذ، ويتغير من حال إلى حال، فالأحوال تتغير فلا يركن إليها؛ لأنه لا يأمن مكر الله حتى وإن صار في مصافي الأولياء، ولا يأمن مكر الله ﷻ حتى وإن كانت قدمه في الجنة وأخرى خارجها، لأن الله حكمه نافذ قاهر فوق عباده، فلم يترك لذي حال حاله، ولا لذي مقال مقالاً، حتى لا يعتمد على حاله ولا على مقالته ودعائه، فكأنه يقول: أنا أدعوك ولا أعتد على دعائي الذي هو منك برز إليك، بل أعتد على محض فضلك وكرمك، وهذا من كمال الافتقار.

١٥- (إِلَهِي كَمْ مِنْ طَاعَةٍ بَنَيْتَهَا وَحَالَةٍ شَيَّدْتُهَا هَدَمَ اعْتِمَادِي عَلَيْهَا عَدْلُكَ؛ بَلْ أَقَالَنِي مِنْهَا فَضْلُكَ)

شرح الفقرة

لا تعتمد إلا على الله ﷻ، ولا تعتمد على طاعتك وعملك؛ لأنك إذا نظرت إلى عملك وأعجبت به حجبت عنه سبحانه؛ لأنك اعتمدت على غير الله ﷻ، والعدل يقتضي أن يأخذ كل واحد ما يملكه، فالطاعة التي أنت معتمد عليها هي في الحقيقة ملك الله ﷻ، فهو الذي خلقها فيك، فلا تعتمد على ما لا تملك ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨]، فأظهر الافتقار إلى الله ﷻ ولا تغتر بنفسك ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ

بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ» [الانفطار: ٦]، وكان الله يلقتك الإجابة من هذا السؤال، فتقول يا رب، الذي غرني وجعلني أعرض عنك كثيراً معرفتي بكرمك ورحمتك. وعند العارفين الرجاء في حال المعصية أشد من حال الطاعة ﴿قُلْ يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، فغلب الرجاء وقت المعصية، وغلب الخوف عند الطاعة خشية أن لا تُقبل، وخشية أن تُعجب بها وتعتمد عليها ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، أي الذين يؤتون ما آتوا من الطاعات وقلوبهم وجلة من عدم القبول والإعجاب بها والاعتماد عليها، فالعارفون حالهم الرجاء عند المعصية والخوف عند الطاعة وقوله (بل أقالني منها فضلك) أي الذي ينبهني إلى عدم الاعتماد عليها محض فضلك، فأنت الذي وفقتني للعبادة، وتفضلت عليّ أن منعني من النظر إليها، وهذا فضلٌ ثانٍ فوق فضل توفيق العبادة.

١٦- (إِلَهِي أَنْتَ تَعْلَمُ وَإِنْ لَمْ تَدُمْ الطَّاعَةُ مِنِّي فِعْلًا جَزَاءً فَقَدْ دَامَتْ مَحَبَّةٌ وَعِزًّا)

شرح الفقرة

أي أنا ضعيف يا رب، ولا أستطيع المداومة على النوافل والسنن من قيام الليل وغيره كل يوم، وذلك لضعفي، لكنني أحب أن أفعل هذا الأمر وأستمر عليه حباً فيك لكن يمنعي ضعفي، فلا تؤاخذني بذلك، فاقبل يا رب ما أنويه وأريد فعله، واكتبه عندك من الأعمال وإن لم أفعله، والنبي ﷺ قال: «نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ»^(١) والله تعالى قال: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ

(١) رواه البيهقي في السنن الصغرى (٦٤٤٥) أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدٍ

خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ ﴿[الأنفال: ٧٠]﴾ ، فالعبرة أن يسكن الخير والحب في قلبك، وهذا أيضاً من محض فضل الله ﷻ، وإذا حال الله في بعض الأحيان بينك وبين الاستمرار على الطاعة فاعلم أنها لحكمة عظيمة وفائدة كبيرة لك، ففيها وجهان (جلالي وجمالي) الجلالي: فلن تعلم أنه سبحانه وتعالى القاهر، فبالرغم من نيتك وعزمك على هذا العمل إلا إنه يقهرك فلا تفعله ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ﴿[الأنعام: ١٨]﴾ .

أما الجمالي: فليجعلك منكسراً مفتقراً، فعلم أنه لو دمت على هذه الطاعة لأصابك الكبر والغرور، فتعجب بعملك فتحبط، فكسر حدة الكبر عندك، وهذا هو الجمال.

١٧- (إِلَهِیْ كَيْفَ أَعَزِمُ وَأَنْتَ الْقَاهِرُ، وَكَيْفَ لَا أَعَزِمُ وَأَنْتَ الْآمِرُ)

شرح الفقرة

هنا يقصد الحقيقة والشریعة، فالحقیقة تقول: إن الله ﷻ قاهر فوق عباده، وإذا كان قاهراً فوق عباده فلماذا يكلفهم بالأمر والنهي؟ لأنه سر القدر، فالله ﷻ خلق خلقاً للجنة وخلق خلقاً للنار قبل أن يخلقهم ويأمرهم وينهاهم. والبعض يقول إذا كان هكذا فلماذا خلقنا وأمرنا ونهانا؟ والجواب يجب أن تحمد ربك على أنه خلقك وجعل لك وجوداً بعدما كنت عدماً، وجعلك محلاً لظهور تجلياته من جلال وجمال، فالله تعالى قاهر فوق عباده، وبالرغم من ذلك لا يفعلون إلا ما أذن لهم أن يفعلوه ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ

الصَّفَارُ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَبُغِي الْمُؤْمِنُ أَنْ يَبْلُغَ مِنْ عَمَلِهِ». هَذَا إِسْنَادٌ ضَعِيفٌ، والطبراني في المعجم الكبير (٥٩٤٢).

يَشَاءُ اللَّهُ ﴿[الإنسان: ٣٠]﴾، وفي نفس الوقت أمرهم ونهاهم ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ ﴿[الأنبياء: ٢٣]﴾، فالتناقض لا يوجد إلا في ذهن الزنديق، أما في ذهن المؤمن الولي فالقلب منعقد بالحقيقة، وهي أن الله سبحانه وتعالى قَدَّرَ على كل العباد كل شيء، حتى ما ارتكبه من معاصي بقدر الله تعالى.

وانعقد على لسانه الشرع الشريف، فعليه أن يلتزم بأمر الله تعالى ويقول بلسانه: سمعاً وطاعة وهو يعتقد في قلبه أنه لا يستطيع أن يقوم بما أمر إلا بإذن من الله تعالى وتوفيقه، أي: كأنك مجبور مقهور في الحقيقة مختار في الصورة، فلا يسأل المؤمن ربه عن سبب الإيجاب في الحقيقة والأمر في الظاهر، لذلك نجد الأولياء يتعاملون في الظاهر بالانقياد لأمر الله تعالى مع التسليم والرضا، فإذا نظر إلى العاصي وهو في معصيته أشفق عليه بقلبه؛ لأن الله سبحانه قدرها عليه، وينكر عليه بلسانه وينصحه؛ لأن الشرع أمره أن ينكر المنكر ويأمر بالمعروف، فنجد إذا أمر ونهى ونصح فبكمال الشفقة والرحمة، فهو يقوم بحق الشريعة على اللسان وبحق الحقيقة في القلب. لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو للكفار ولا يحقد عليهم (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون) وفي الشريعة قاتلهم وحاربهم، أما في الباطن يعتصر قلبه حزناً عليهم ويدعو لهم، فنحن نكره الكفر ولا نكره الكافر، ونكره المعصية ولا نكره العاصي.

وقوله: (كيف لا أعزم وأنت الأمر) أي الذي أمرتني بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فهذه أوامر ويجب أن أعزم على أدائها، وفي نفس الأمر كيف أعزم وأنت القاهر فوق عبادك؟ فعليّ أن ألتزم عبودية واستسلم ربوبية على ما قدرته لي وألتزم به. وهكذا كان حال النبي صلى الله عليه وسلم في معاملته مع الخلق، كان لا يعامل العاصي بالغل والقسوة،

ولمّا فتح مكة قال لقريش: اذهبوا فأنتم الطلقاء، ولم يقتلهم أو يؤذيهم وهم كفار، لأنه يكره كفرهم ولا يكره ذواتهم؛ ولأنه يعلم معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، فالأمر لله ﷻ يفعل في خلقه ما يشاء، ثم إنَّ الله تعالى قال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]، فكيف سيعلم الخلق أنه غفور رحيم من غير وجود من يعصيه من خلقه فيتوب إلى ربه فيغفر الله له ويرحمه، وكذلك قوله: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٥٠]، فهو شديد العقاب، وما كنا لنعرفها إلا لوجود من مات على الكفر فيدخله النار، فالكافر سبب لظهور الجلال والقهر، والمؤمن سبباً لظهور الجمال والفضل، فكل ما في الأكوان من تدبيره سبحانه كي نتعرف عليه بالجلال والجمال ونعبد إلهاً كاملاً مقدساً عن كل نقص.

١٨ - (إِلَهِي تَرَدُّدِي فِي الْأَثَارِ يُوجِبُ بَعْدَ الْمَزَارِ، فَاجْمَعْنِي عَلَيْكَ بِخِدْمَةٍ تُوصِّلُنِي إِلَيْكَ)

شرح الفقرة

فالعبد يشعر بأنه مقهور وبعيد عن ربه بالرغم أن الله أقرب إليه من حبل الوريد، لأنه مقهور بحجاب الآثار.

والآثار: هي كل ما سوى الله، والآثار أتت من أثر الصفة؛ لأن كل ما في الأكوان ما هو إلا آثار صفات الله المتجلية، وكل ما في الأكوان متغير ولذلك سميت (أغيار) والآثار والأغيار والسوى بمعنى واحد.

وهو يقول في هذه المناجاة: يا رب، إن حجب الآثار والأغيار بيني وبينك كثيرة، وهي تحجبني عنك، فأنا بعيد عن الوصول إلى معرفتك؛ لأنك قهرتني في هذه الحجب.

ثم قال: (فاجمعني إليك) بمحض متتك وفضلك عليك، فوفقني بخدمة تجذبني إليها وتبرزها على جوارحي فتكون سبباً لمعرفة في باطني. ثم بعد أن وفقه الله ﷻ لخدمته وصل إليه فعرفه، فصار يعرف الله بغير الأثر، بعد أن كان يعرفه بالأثر؛ لأنه وصل إليه، فاستغنى بالمدلول عن الدليل، وصار يرى الأشياء بالله ﷻ بعد أن كان يعرف الله بالأشياء، فوجد أن الله سبحانه أظهر من أن يحتاج لدليل يدل عليه، لذلك قال في المناجاة التالية.

١٩- (إِلَهِ كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ، أَيْ كُنْ لغيرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهَرُ لَكَ؟!، مَتَى غَبَتْ حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ، وَمَتَى بَعُدَتْ حَتَّى تَكُونَ الْآثَارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ، عَمِيتْ عَيْنٌ لَا تَرَاكَ عَلَيْهَا رَقِيْبًا، وَخَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيْبًا)

شرح الفقرة

(إِلَهِ كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ) أي كنت أستدل بالآثار عليك حتى وصلت إليك، فنظرت إليها فوجدتها عدم مفتقرة، ووجدت الله ﷻ عندها فوفاني حسابه، فاستغنيت عن كل شيء. فهو يتعجب من حاله حال كونه في علم اليقين بعد أن من الله عليه بعين اليقين.

ثم قال: (أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهَرُّ لَكَ؟!، متى غِبْتَ حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ) فالله تعالى أظهر من الدليل بل الدليل قام بالله تعالى.

ثم قال: (وَمَتَى بَعُدْتَ حَتَّى تَكُونَ الْآثَارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ) فهل يدل الفرع على الأصل، ففي علم اليقين ننظر إلى الفرع كي نصل إلى الأصل، وعين اليقين تنظر لأصل الوجود فلا تشغل بالمظاهر عن الظاهر. ثم قال: (عَمِيَتْ عَيْنٌ لَا تَرَاكَ عَلَيْهَا رَقِيبًا) أي عين البصيرة لأن الله ﷻ لا تدركه الأبصار، فالولي يرى الله بعين بصيرته؛ لأن باطنه أشرق، فغطت عين بصيرته على عين حسه فرأى الله أي عرفه، عرفه في كل شيء فلم يجهله في شيء.

ثم قال: (وَحَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيًّا) فالربح كل الربح والفوز كل الفوز هو بمعرفة الله ومحبته.

٢٠- (إِلَهِي أَمَرْتُ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْآثَارِ، فَأَرْجِعْنِي إِلَيْهَا بِكِسْوَةِ الْأَنْوَارِ وَهِدَايَةِ الْإِسْتِبْصَارِ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْكَ مِنْهَا كَمَا دَخَلْتُ إِلَيْكَ مِنْهَا مَصُونًا لِلْسِّرِّ عَنْ النَّظَرِ إِلَيْهَا، وَمَرْفُوعَ الْهِمَّةِ عَنِ الْإِعْتِمَادِ عَلَيْهَا، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

شرح الفقرة

بعد أن وصل إلى عين اليقين رده إلى السلوك بعد كمال المعرفة.

قال المصنف: (إِلَهِي أَمَرْتُ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْآثَارِ) كي يرجع للسلوك والبقاء، ليعطي كل ذي حق حقه، فيعطي الربوبية حقها فيقوم بالخدمة والطاعة عبودية، فبعد أن وصل إلى الله ﷻ عاد إلى السلوك بالله لا بنفسه

فصار يعبد بالله، وسمعه وبصره بالله فكان أولاً يعبد لله وصار يعبد بالله «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَىٰ النَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ»^(١) فتقرب بالنوافل لله فإذا أحببك وصار سمعك وبصرك صرت تعملها بالله ﷻ ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]، وكل ما سوى الله باطل.

ثم قال: (فأرجعني إليها بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصون السر عن النظر إليها، ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها، إنك على كل شيء قدير) فطالما يا رب أمرتني أن أبدأ متوجهاً لله ﷻ، ثم أرتقي فأصير بالله فوفقتني أن أستمع بالله ﷻ، حتى لا أكون في حال فرقي بعيداً عن حال جمعي، فيكون الفرق بالجوارح والجمع في القلب، فيكون الفرق على لساني تشرعاً والجمع على قلبي تحقفاً.

٢١- (إلهي هذا ذلي ظاهر بين يديك، وهذا حالي لا يخفى عليك، منك أطلب الوصول إليك، وبك أستدل عليك لا بغيرك فاهديني بنورك إليك، وأقني بصدق العبودية بين يديك).

شرح الفقرة

قال المصنف: (إلهي هذا ذلي ظاهر بين يديك، وهذا حالي لا يخفى عليك) وهو افتقار العبد إلى الرب، افتقار الذليل إلى العزيز والضعيف

(١) رواه البخاري (٦٥٨١) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ إن الله قال من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته.

إلى القوي والفقير إلى الغني، مذلة العبد الذي قد يتعلق قلبه بما يضره لجهله، وقد ينصرف قلبه عما ينفعه بسبب غفلته، فإذا تذلت بضعفك غطى ضعفك بقوته وجهلك بعلمه وفقرك بغناه ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]، المضطر المفتقر المتذلل إلى مولاه.

ثم قال: (وَهَذَا حَالِي لَا يَخْفَى عَلَيْكَ) وهذا حالي من الذلة والضعف والعجز لا يخفى عليك، لكنني أظهر افتقار حالي بلسان مقالي لا لأعلمك ما غاب عنك؛ لأنك تعلمه قبل أن أترجمه بمقالي، ولكن هذا من باب التذلل وإظهار العبودية وليس التهجم على مقام الربوبية، وأنت أمرتني أن أدعوك فيها أنا أدعوك بتذلي وافتقاري وأنت تعلمه ولا يخفى عليك.

ثم قال: (مِنْكَ أَطْلُبُ الْوُضُوءَ إِلَيْكَ) أي تأخذ بيدي من حجبي التي تبعدني عنك فأنت مني قريب وأنا البعيد.

ثم قال: (وَبِكَ أَسْتَدِلُّ عَلَيْكَ لَا بِغَيْرِكَ) أستدل بك فهل هناك في الأكوان ما هو أظهر منك ليكون دالاً عليك، فما ظهر في الأكوان إلا ما أظهرته، ولولا ظهورك ما ظهر، فكيف أستدل عليك بما هو محال أن يصل إليك، وبما هو مفتقر في الظهور إليك، بما لا يظهر إلا بأنوارك.

وأنا الآن أستدل بك عليك بغير وسائط فأنت أظهر من أن تخفى عميت عينٌ لا تراك عليها رقيباً، لذلك كان سيدنا علي عليه السلام يقول: (عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي) وهذا مقام من عرف ربه بعين اليقين، وأما علم اليقين فهو الذي عرف ربه بالدليل، فالعالم يفتقر إلى الدليل ليدله على المدلول، والحقيقة أن العوالم ما قامت إلا به فهل يكون لها

من الظهور ما ليس له سبحانه وحاشاه، والأولياء تستدل بالمكون على الأكوان؛ لأنهم وصلوا إلى مقام عين اليقين، فلقد انتقل من مقام (إياك نعبد) إلى مقام (إياك نستعين) فانتقل من السلوك إلى الوصول، ثم عاد بعد مقام الجمع إلى مقام الفرق مرة أخرى قياماً بحق العبودية وقياماً بحق الربوبية فأعطي كل ذي حق حقه.

ثم قال: (فَاهْدِنِي نُورَكَ إِلَيْكَ) قال الله ﷻ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، حتى يصير علمي بك علمٌ ضروري كعلمي بالعطش والجوع التي لا تحتاج إلى دليل.

ثم قال: (وَأَقِمْنِي بِصِدْقِ الْعُبُودِيَّةِ بَيْنَ يَدَيْكَ) فإذا صرت في العبودية فأنت عبد الله، وهل يلتفت العبد عن سيده لحظة أو يغفل عنه؟ فالعبد لا يلتفت عن سيده طرفة عين.

وحكي أن بعض الملوك كان له وزير يحب الملك محبة شديدة جداً، وفي مرة دخل في حضرة الملك مهرج لكي يرفه عن الملك ويسليه، فالتفت الوزير إلى المهرج وصرف بصره عن الملك، فاستحى الوزير مما فعل وأخذ يعاتب نفسه، كيف أصرف نظري عن الملك لسواه وأنا في حضرته؟ وهذه محبة العبد مع ملك من ملوك الدنيا فما بالك بالعبد مع ربه ملك الملوك، فلو كنت صادق في عبوديتك فما التفت عنه لحظة، وهذا هو صدق العبودية.

٢٢- (إِلَهِي عَلَّمَنِي مِنْ عِلْمِكَ الْخُزُونِ، وَصَنِّي بِسِرِّ اسْمِكَ الْمَصُونِ)

شرح الفقرة

أي علمني بلا واسطة ﴿وَعَلَّمَنَّهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ وهذه هي العلوم الربانية التي تأتي على قلب الولي فتعلمه ما غاب عن غيره وتبصره بما عميت عنه العيون.

٢٣- (إِلَهِي حَقِّقْنِي بِحَقَائِقِ أَهْلِ الْقُرْبِ، وَأَسْأَلُكَ فِي مَسَالِكَ أَهْلِ الْجَذْبِ)

شرح الفقرة

أي اجمع لي بين السلوك إليك، قياماً بواجبات العبودية وبين سلوك أهل الجذب فناءً بحقوق الربوبية، فأقوم بالشرع الشريف على ظاهري، فلا أنجذب جذبة أغيب عن عقلي فأصير غير مكلف، ولا أصير سالكاً غير مستشعر بمراقبتك فأحجب بسلوكي وعلمي عنك، ولكن اجعلني في الظاهر سالكاً حتى أصير قدوة للناس، وفي الباطن مجذوباً إليك يا الله، وهذا أهل الوراثة الحققة للنبي ﷺ فلا يغلب سلوكهم على جذبهم ولا جذبهم على سلوكهم، فالقلب هو بيت الله في الإنسان، فالكعبة بيت الله ﷻ في الأرض والقلب بيت الله في المؤمن وهو موضع نظر الرب ومحل تجليات الله ﷻ، ومن كان هذا مقامه فتراه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بلسان الشريعة وفي نفس الوقت هو مشفق على فاعل المنكر لأنه يرى قهر

الله في هذا العبد، وهذا حال النبي ﷺ مشفقاً على الأكوان؛ لأنه رحمة للعالمين وقائماً بحقوق الشريعة أمراً وناهياً ومجاهداً. فالشيخ يدعو لأن يكون متشرعاً في الظاهر ومتحققاً في الباطن واصللاً إلى معرفته، فيجتمع الجذب والسلوك في آن واحد، فالسلوك تشرعاً والجذب في القلب تحققاً.

٢٤- (إِلَهِي أَغْنِنِي بِتَدْبِيرِكَ لِي عَنْ تَدْبِيرِي، وَبِاخْتِيَارِكَ عَنْ اخْتِيَارِي، وَأَوْقِفْنِي عَلَى مَرَكَزِ اضْطِرَّارِي)

شرح الفقرة

قال المصنف: (إِلَهِي أَغْنِنِي بِتَدْبِيرِكَ لِي عَنْ تَدْبِيرِي) أي اخرج هم التدبير من قلبي إلى الاستسلام والرضا إلى تدبيرك فأنت بيدك الأمر كله، والشعور بتدبير النفس حجاب، فانقلني من هذا الحجاب وأرحني من ذل نفسي ومن خوف الخلق وهم الرزق فلا أعترض فيما تقدره عليّ أبداً.

ثم قال: (وَبِاخْتِيَارِكَ عَنْ اخْتِيَارِي، وَأَوْقِفْنِي عَلَى مَرَكَزِ اضْطِرَّارِي) أي وأغني ورضني باختيارك لي عن اختياري بنفسي وعرفني وحققني باضطراري وافتقاري لك.

٢٥- (إِلَهِي أَخْرِجْنِي مِنْ ذُلِّ نَفْسِي وَطَهِّرْنِي مِنْ شَكِّي وَشِرْكِي قَبْلَ حُلُولِ رَمْسِي، بِكَ أَسْتَنْصِرُ فَاَنْصُرْنِي، وَعَلَيْكَ أَتَوَكَّلُ فَلَا تَكِلْنِي، وَإِيَّاكَ أَسْأَلُ فَلَا تُخَيِّبْنِي، وَفِي فَضْلِكَ أَرْغُبُ فَلَا تَحْرِمْنِي، وَلِجَنَابِكَ أَنْتَسِبُ فَلَا تُبْعِدْنِي، وَبِبَابِكَ أَقِفُ فَلَا تَطْرُدْنِي)

شرح الفقرة

قال المصنف: (إِلَهِي أَخْرِجْنِي مِنْ ذُلِّ نَفْسِي) الذي هو عجز البشرية وذل العبودية.

ثم قال: (وَطَهَّرْنِي مِنْ شَكِّي وَشُرْكِي) أي شكي فيما كتبته لي، فأستعجله وأشك، فخرجني يا رب من هذا المقام، حتى لا أتعجل ما أرادت تأخيره ولا أؤخر ما أرادت تعجيله.

فإذا استبطأت العطاء فهذا شك، وإذا نسبت العطاء للأسباب فهذا شرك، فالله سبحانه يعطيك ما يصلحك ويمنع عنك حتى يعافيك ويرقيك. ثم قال: (قَبْلَ حُلُولِ رَمْسِي) والرمس هو القبر، فهو يريد أن يتحقق بالكمالات والأحوال الشريفة الرضا قبل حلول موته.

ثم قال: (بِكَ أَسْتَنْصِرُ فَأَنْصُرْنِي) أي على نفسي أولاً، وعلى جهلي، وعلى غفلي، وعلى كل ما يحول بيني وبينك.

ثم قال: (وَعَلَيْكَ أَتَوَكَّلُ فَلَا تَكِلْنِي، وَإِيَّاكَ أَسْأَلُ فَلَا تُخَيِّبْنِي، وَفِي فَضْلِكَ أَرْغَبُ فَلَا تَحْرِمْنِي، وَلِجَنَابِكَ أُنْتَسِبُ فَلَا تُبْعِدْنِي، وَبِإِيَّاكَ أَقْفُ فَلَا تَطْرُدْنِي).

٢٦- (إِلَهِي تَقَدَّسَ رِضَاكَ أَنْ تَكُونَ لَهُ عِلَّةٌ مِنْكَ، فَكَيْفَ تَكُونَ لَهُ عِلَّةٌ مِنِّي، أَنْتَ الْغَنِيُّ بِذَاتِكَ عَنْ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ النَّفْعُ، فَكَيْفَ لَا تَكُونَ غَنِيًّا عَنِّي)

شرح الفقرة

أي مهما اجتهدت في العبادة مني فلا أصل إليك إلا بمحض فضل منك، فأنا أعبدك وأطيعك امتثالاً لأمرك لكني لا أصل إليك بطاعتي؛ لأنها ليست علة لرضاك ولطفك، والله تعالى غير مفتقر لعبادتك، بل أنت المفتقر إليها، كي يكون افتقارك علامة لظهور منة الله تعالى. ونضرب لذلك مثلاً: فلقد خلق الله ﷻ الماء وخلق العطش، فإذا مر الماء على موضع العطش حصل الري، وفي الحقيقة الماء ليس علة الري بل الله تعالى هو الذي خلق الري عند التقاء الماء بالعطش، فالماء ليس فاعلاً على الحقيقة، والفاعل هو الله ﷻ، فالله ﷻ ربط الأشياء مع بعضها ربطاً عادياً، وربط الأسباب بنتائجها ربطاً عادياً، وأيضاً ربط رضاه بطاعته ربطاً عادياً وليس له علة ومعلول، فيقول الشيخ: ها أنا يا رب آخذاً بالأسباب التي جعلتها في يدي بحولك وقوتك لتخلق فيها لا بها وسيدنا النبي ﷺ يقول: «لن يدخل أحد الجنة بعمله ولكن برحمتي»^(١).

٢٧- (إِلَهِي إِنَّ الْقَضَا وَالْقَدَرَ غَلَبَنِي، وَإِنَّ الْهَوَى بِوَثَائِقِ الشَّهْوَةِ أَسْرَنِي، فَكُنْ أَنْتَ النَّاصِرُ لِي حَتَّى تَنْصُرَنِي وَتَنْصُرَنِي، وَاغْنِنِي بِفَضْلِكَ حَتَّى أَسْتَغْنِيَ بِكَ عَنْ طَلْبِي، أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقَتِ الْأَنْوَارُ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِكَ

(١) رواه البخاري (٥٧٣٥) حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي أَبُو عُبَيْدٍ مَوْلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ قَالُوا وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لَا وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ فَسَدَدُوا وَقَارَبُوا وَلَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ» ومسلم (٧٢٨٩)، وابن ماجه (٤٣٤١).

حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ، وَأَنْتَ الَّذِي أَرْزَلْتَ الْأَغْيَارَ عَنْ قُلُوبِ أَحْبَابِكَ
حَتَّى لَمْ يُجِبُوا سِوَاكَ وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى غَيْرِكَ، أَنْتَ الْمُؤْنِسُ لَهُمْ حَيْثُ
أَوْحَشْتَهُمُ الْعَوَالِمُ، وَأَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَهُمْ حَتَّى اسْتَبَانَ لَهُمُ الْمَعْلَمُ. مَاذَا
وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ، وَمَا الَّذِي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ، لَقَدْ خَابَ مَنْ رَضِيَ
دُونَكَ بَدَلًا، وَلَقَدْ خَسِرَ مَنْ بَغَى عَنْكَ مُتَحَوِّلًا).

شرح الفقرة

قال المصنف: (إِلَهِي إِنَّ الْقَضَا وَالْقَدَرَ غَلَبَنِي) فالقدر غلاب ولا راد
له، فالله تعالى غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ثم قال: (وَإِنَّ الْهَوَى بِوَنَائِقِ الشَّهْوَةِ أَسْرَنِي) فالأمر كله بيدك، فأنت
الذي غرس حب الشهوات والدنيا في قلبي فملت إليها، ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ
الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ
وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤]، فكما زينتها عندي
فأسرتني بها وقيدتني بالميل إليها فكُنْ أَنْتَ النَّاصِرُ لِي عَلَيْهَا.

لذلك قال: (فَكُنْ أَنْتَ النَّاصِرُ لِي حَتَّى تَنْصُرَنِي وَتَنْصُرَ بِي، وَاغْنِنِي
بِفَضْلِكَ حَتَّى أَسْتَغْنِيَ بِكَ عَنْ طَلْبِي) وهذا مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما
قال لجبريل عليه السلام وهو يُلقَى في النار (أما إليك فلا، فعلمه بحالي يغني عن
سؤالي) فاستغنى بالله عن طلبه، لأن العبد قد يطلب ما يضره ويظن أن
النفع فيه، فعليه أن يوكل الاختيار لربه ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ
وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

ثم قال: (أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقْتَ الْأَنْوَارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ) فكما أشرقت أنوار المعارف في قلوب أوليائك بمحض منتك، فأشرق هذه الأنوار على قلبي.

ثم قال: (وَأَنْتَ الَّذِي أَزَلْتَ الْأَغْيَارَ عَنْ قُلُوبِ أَحْبَابِكَ حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا سِوَاكَ وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى غَيْرِكَ) فأنت الذي أزلت الشهوات والعوائق والعلائق من قلوب أوليائك؛ لأن العبد مفتقر لا يستطيع أن يسترجع ما يسلبه الذباب منه، فكيف يخرج الشهوات والعوائق من قلبه؟! فإذا سلّم العبد نفسه لمولاه، وأوكل أمره إليه سيتولى الله ﷻ إخراج الشهوات من القلب. والأغيار: كل ما سوى الله .

ثم قال: (أَنْتَ الْمُؤْنِسُ لَهُمْ حَيْثُ أَوْحَشَتْهُمْ الْعَوَالِمُ، وَأَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَهُمْ حَتَّى اسْتَبَانَ لَهُمُ الْمَعَالِمُ. مَاذَا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ؟ وَمَا الَّذِي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ؟، لَقَدْ خَابَ مَنْ رَضِيَ دُونَكَ بَدَلًا، وَلَقَدْ خَسِرَ مَنْ بَغَى عَنْكَ مُتَحَوِّلًا) فانت الذي حببت لهم الإيمان وزينته في قلوبهم فاستوحشوا العوالم، وهديتهم حتى أوضحت لهم معالم الطريق إليك، فمن وجد الله وعرفه فقد استغنى به عن كل شيء، ومن فقد الله فقد كل شيء.

٢٨- (إِلَهِي كَيْفَ يُرْجَى سِوَاكَ وَأَنْتَ مَا قَطَعْتَ الْإِحْسَانَ، وَكَيْفَ يُطْلَبُ مِنْ غَيْرِكَ وَأَنْتَ مَا بَدَّلْتَ عَادَةَ الْإِمْتِنَانِ، يَا مَنْ أَذَاقَ أَحِبَّاءَهُ حَلَاوَةَ مُؤَانَسَتِهِ فَقَامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مُتَمَلِّقِينَ، وَيَا مَنْ أَلْبَسَ أَوْلِيَاءَهُ مَلَابِسَ هَيْبَتِهِ فَقَامُوا بِعِزَّتِهِ مُسْتَعِزِّينَ. أَنْتَ الذَّاكِرُ مِنْ قَبْلِ

الذَّاكِرِينَ، وَأَنْتَ الْبَادِيُ بِالْإِحْسَانِ مِنْ قَبْلِ تَوَجُّهِ الْعَابِدِينَ، وَأَنْتَ الْجَوَادُ بِالْعَطَاءِ مِنْ قَبْلِ طَلَبِ الطَّالِبِينَ، وَأَنْتَ الْوَهَّابُ، ثُمَّ أَنْتَ لِمَا وَهَبْتَنَا مِنَ الْمُسْتَقْرِضِينَ).

شرح الفقرة

قال: (إِلَهِي كَيْفَ يُرْجَى سِوَاكَ وَأَنْتَ مَا قَطَعْتَ الْإِحْسَانَ) أي كيف يسأل العبد الناس ويرجو منهم نوالا والله لم يقطع إحسانه عنه، فمن الذي لطف بك وأنت في ظلمة رحم الأم جنينا يتكون؟ ومن حفظك في طفولتك من رعوناتك؟ ومن هداك للإيمان بعد إدراكك؟ ومن آواك وهداك وعلمك وأنعم عليك بنعم لا تحصى دون سؤال منك أو حتى فعل طاعة أو قرابة؟ فسبحانه وتعالى جواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين.

ثم قال: (وَكَيْفَ يُطْلَبُ مِنْ غَيْرِكَ وَأَنْتَ مَا بَدَّلْتَ عَادَةَ الْإِمْتِنَانِ) فاجعل رجائك في مولاك ولا ترجو الأكوان، وهذا هو المقام الإبراهيمي، ومن يتحقق به تنقلب نار الجلال إلى جنة الجمال، لذلك لما سأل سيدنا إبراهيم عليه السلام عن أجمل أيام حياته في الدنيا قال: حينما ألقيت في النار؛ لأنها محل الجمال والأنس والوصال، وهذا كله لكمال الرضى بقدر الله عز وجل.

ثم قال: (يَا مَنْ أَذَاقَ أَحِبَّاءَهُ حَلَاوَةَ مُوَأْنَسَتِهِ فَقَامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مُتَمَلِّقِينَ) فحلاوة الطاعة على العبد من فضل الله ومنتته، حتى يقوى بها على العبادة، فيذوق لذة ذكره ويأنس بربه.

ثم قال: (وَيَا مَنْ أَلْبَسَ أَوْلِيَاءَهُ مَلَابِسَ هَيْبَتِهِ فَقَامُوا بِعِزَّتِهِ مُسْتَعِزِّينَ) فالله عز وجل هو الذي ألبس الولي لباس الهيبة وغطاه بالعز فيعظم في أعين

الناس، وإذا نظرت إلى حال الولي تجده مفتقراً لله ﷻ لا يملك نفعاً ولا ضرراً، لكن تجده كله هبة وعزة وجلالاً وجمالاً، والنبى ﷺ أكمل من تحقق بمقام العبودية كان مهاباً، حتى أن الصحابة كانوا لا يستطيعون أن يرفعوا أبصارهم إليه من هيئته وكما قال البوصيري رحمه الله في البردة:

كانه وهو فرد من جلالاته في عسكرٍ حين تلقاه وفي حشم

فهو ﷺ البحر الذي يشرب منه جميع الأنبياء والأولياء من لدن سيدنا آدم عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فيمد الكل بالهداية والرشاد والرشد والإرشاد والجلال والجمال والرحمة والأنس والإقبال على الله.

فكلهم من رسول الله ملتسماً رشفاً من البحر أو غرقاً من الديم
وواقفون لديه عند حدهم من نقطة العلم أو من شكلة الحكم

ثم قال: (أَنْتَ الذَّاكِرُ مِنْ قَبْلِ الذَّاكِرِينَ) فلو لا أن ذكرك الله ما ذكرته بقلبك ولا بلسانك، فهو سبحانه الذي حُب لنا الإيمان وزينه في قلوبنا.

ثم قال: (وَأَنْتَ الْبَادِيُّ بِالْإِحْسَانِ مِنْ قَبْلِ تَوَجُّهِ الْعَابِدِينَ، وَأَنْتَ الْجَوَادُ بِالْعَطَاءِ مِنْ قَبْلِ طَلَبِ الطَّالِبِينَ) فهو الذي منَّ عليك بالإيجاد والإمداد، خلقتك ضعيفاً لا تملك من أمرك شيئاً ولا تعلم شيئاً ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ [النحل: ٧٨]، فهو يذكرك منته عليك وفضله، حيث كنت جاهلاً عاجزاً ضعيفاً، ودون أن تطلب أمدك وقواك وعلمك وخلقك على أكمل خلقة وأرسل إليك الأنبياء والرسل حتى تتعرف عليه، كل هذا وأكثر أعطاك إياه دون أن تطلب، فهو الجواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين.

ثم قال: (وَأَنْتَ الْوَهَّابُ، ثُمَّ أَنْتَ لِمَا وَهَبْتَنَا مِنَ الْمُسْتَقْرِضِينَ) وأنت لا تملك نفسك ولا مالك، وهو الوهاب الذي وهبك كل ما أنت فيه وعليه ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١].

٢٩- (إِلَهِي أَطْلُبْنِي بِرَحْمَتِكَ حَتَّى أَصِلَ إِلَيْكَ، وَاجْذُبْنِي بِمِنَّتِكَ حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيْكَ)

شرح الفقرة

أي مَنْ عَلَيَّ بِرَحْمَةٍ مِنْ عِنْدِكَ لِأَسْلِكَ الطَّرِيقَ إِلَيْكَ، واجذبني واجتبيني بمحض فضلك ومنتك حتى توصلني إليك.

٣٠- (إِلَهِي إِنْ رَجَائِي لَا يَنْقَطِعُ عَنْكَ وَإِنْ عَصِيَّتُكَ، كَمَا أَنَّ خَوْفِي لَا يُزِيلُنِي وَإِنْ أَطَعْتُكَ)

شرح الفقرة

لأنه لا يعتمد على عمله بل على ربه ﷻ، فلا معصية تمنعه من الرجاء، ولا طاعة تمنعه من الخوف، حتى وإن عصاه لا ينقطع رجائه؛ لأنه ناظر إلى فضل الله وليس إلى عمله.

٣١- (إِلَهِي قَدْ دَفَعْتَنِي الْعَوَالِمَ إِلَيْكَ، وَقَدْ أَوْقَفَنِي عَلَيَّ بِكَرَمِكَ عَلَيَّكَ)

شرح الفقرة

العوالم كلها تدلني عليك جلالاً وجمالاً، فالله يخلق في كل نعمة منغصاً، حتى لا تركز إليها وتنسى المنعم بالنعمة، وكذلك يخلق في البلاء

الرحمة، حتى لا تيأس فلا تنسى ربك بالنعمة، ولا تيأس من الشدة، وتفكر في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام لما رزقه الله تعالى بنعمة الولد وهو سيدنا إسماعيل عليه السلام وأحبه وتعلق به، أمره بذبحه؛ لأن الله تعالى يغار أن يرى في قلب حبيبه غيره، فلما امتثل سيدنا إبراهيم عليه السلام وسلم لهذا الاختبار العظيم جاءت المنة مرة أخرى، ففداه الله بكبشٍ عظيم، وهذا هو حال الدنيا، فلا تركز إلى أي نعمة مهما كانت، بل اركن لله تعالى في النعمة والنعمة؛ لأن الله تعالى ما خلق العوالم إلا كي تصل بها إليه، لا أن تشغل بها عنه.

وقوله: (وَقَدْ أَوْقَفَنِي عَلَمِي بِكَرَمِكَ عَلَيَّ) فعلمي بكرمك هو الذي يدفعني ألا أنقطع عن الطلب منك، واللجوء إليك، والطمع من فضلك وإفضالك.

٣٢- (إِلَهِي كَيْفَ أَخِيبُ وَأَنْتَ أَمَلِي، أَمْ كَيْفَ أَهَانُ وَعَلَيْكَ مُتَكَلِّي)

شرح الفقرة

فلا يخيب من كان أمله في الله تعالى، كيف لا وهو اللطيف بعباده سبحانه، ولا يهان من توكل على الله واستعز به سبحانه.

٣٣- (إِلَهِي كَيْفَ أَسْتَعِزُّ وَأَنْتَ فِي الذِّلَّةِ أَرْكَؤْتَنِي، أَمْ كَيْفَ لَا أَسْتَعِزُّ وَإِلَيْكَ نَسَبْتَنِي، أَمْ كَيْفَ لَا أَفْتَقِرُ وَأَنْتَ الَّذِي فِي الْفَقْرِ أَقْتَنِي، أَمْ كَيْفَ أَفْتَقِرُ إِلَى غَيْرِكَ وَأَنْتَ الَّذِي بِجُودِكَ أَغْنَيْتَنِي، أَنْتَ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُكَ، تَعَرَّفْتَ لِكُلِّ شَيْءٍ فَمَا جِهَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الَّذِي تَعَرَّفْتَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَأَرَأَيْتَ ظَاهِرًا فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَأَنْتَ الظَّاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ. يَا مَنْ

اَسْتَوَى بِرَحْمَانِيَّتِهِ عَلَى عَرْشِهِ، فَصَارَ الْعَرْشُ غِيًّا فِي رَحْمَانِيَّتِهِ، كَمَا صَارَتِ
الْعَوَالِمُ غِيًّا فِي عَرْشِهِ، مُحَقَّتَ الْأَثَارَ بِالْأَثَارِ، وَمَحَوَّتِ الْأَغْيَارَ بِمُحِيطَاتِ
أَفْلَاكِ الْأَنْوَارِ، يَا مَنْ احْتَجَبَ فِي سُرَادِقَاتِ عِزِّهِ عَنْ أَنْ تُدْرِكَهُ
الْأَبْصَارُ، يَا مَنْ تَجَلَّى بِكَمَالِ بَهَائِهِ فَتَحَقَّقَتْ عَظَمَتُهُ الْأَسْرَارَ، كَيْفَ
تَخْفَى وَأَنْتَ الظَّاهِرُ، أَمْ كَيْفَ تَغِيبُ وَأَنْتَ الرَّقِيبُ الْحَاضِرُ).

شرح الفقرة

(إِلَهِي كَيْفَ اَسْتَعِزُّ وَأَنْتَ فِي الذَّلَّةِ اُرْكَزْتَنِي) فالإنسان ضعيف،
والضعف ذل، وأنت الذي خلقتني ضعيفاً ووصفتني بالضعف، فكيف
أستعز وأنت في الضعف والذلة أركزتني؟ وما ذلك إلا لأفتقر إليك في كل
أحوالي، فاستغني بك وأستعز بثقتي فيك.

ثم قال: (أَمْ كَيْفَ لَا اَسْتَعِزُّ وَإِلَيْكَ نَسَبْتَنِي) أي بقولك في الحديث (يا
عبادي) أو (يا عبدي) أو بقولك (عباد الرحمن) وهذه نسبة تشريف ﴿اللَّهُ
وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ثم قال: (أَمْ كَيْفَ لَا اَفْتَقِرُّ وَأَنْتَ الَّذِي فِي الْفَقْرِ اَقَمْتَنِي) فالعبد مفتقر
في جميع أحواله، مفتقر إلى الأعضاء، وإلى الهواء والطعام والشراب، وإلى
الخلق وإلى جميع الأكوان، فالعبد مفتقر في كل شيء ولكل شيء.

ثم قال: (أَمْ كَيْفَ اَفْتَقِرُّ إِلَى غَيْرِكَ وَأَنْتَ الَّذِي بِجُودِكَ اَغْنَيْتَنِي، أَنْتَ
الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُكَ، تَعَرَّفْتَ لِكُلِّ شَيْءٍ فَمَا جَهْلَكَ شَيْءٌ) فلم يظهر شيء إلا
بظهورك فيه، وكل الأشياء ما هي إلا تجليات الصفات والأفعال.

ثم قال: (وَأَنْتَ الَّذِي تَعْرِفُتَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَرَأَيْتَكَ ظَاهِرًا فِي كُلِّ شَيْءٍ) فقد تعرفت عليّ بحسن تدبيرك لشؤوني وللكون بأسره ﴿فَأَيْنَمَا تُولَوْنَ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]

فيا مَنْ استوى برحمانيته على عرشه، فصار العرش غيباً في رحمانيته، كما صارت العوالم غيباً في عرشه، فحققت الآثار بالآثار، ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، فالعرش مخلوق، والرحمانية صفة تستوجب الخلق، فكما تجلت إرادة الرحمانية على قدرته فخصصتها لتكون الأكوان على وفق علمه وإرادته، فكان هذا مظهر استوائه بتدبيره الأمور على وفق مراده (فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن).

وقوله: (يَا مَنْ اسْتَوَى بِرَحْمَانِيَّتِهِ عَلَى عَرْشِهِ، فَصَارَ الْعَرْشُ غَيْبًا فِي رَحْمَانِيَّتِهِ) لأن كل ما سوى الله ﷻ موجود به ولا وجود له بذاته، فلما استوى برحمانيته على عرشه غاب العرش في رحمانيته؛ لأنه ما ظهر إلا لظهوره فيه، وكل العوالم والسموات والأرض غائبة في العرش، ونسبتها لحجم العرش كحلقة ملقاة في فلاة بل أقل، وكأن العوالم اختفت في سعة العرش، والعرش اختفى بالرحمانية لغشيان الرحمانية للخلق جميعاً، والكل مغطى برحمته ورحمانيته، لذلك قال: (مَحَقَّتْ الْآثَارَ بِالْآثَارِ) فمحوت الملك بالملكوت ومحوت الملك والملكوت بأنوار الجبروت، حجاب النور سبحانه وتعالى.

ثم قال: (يَا مَنْ احْتَجَبَ فِي سُرَادِقَاتِ عِزِّهِ عَنْ أَنْ تُدْرِكَهُ الْأَبْصَارُ) ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، والله ظاهر، والذي منعك من إدراكه هو حجاب العز والقهر؛ لأن البصر إذا أدركه أحاط به وهو الذي يحيط بكل شيء، فيستحيل أن تدركه الأبصار ولا يحيطون به علما.

ثم قال: (يَا مَنْ تَجَلَّى بِكَمَالِ بَهَائِهِ فَتَحَقَّقَتْ عَظَمَتُهُ الْأَسْرَارُ) والأسرار هي لب الأرواح، التي هي سر تكريم الإنسان، وبها تدرك الحقائق، فلا تشوش بالمظاهر أو كثرة التجليات فتدرك الوحدة من كثرة التجليات فتتحقق بوحدة الشهود.

ثم قال: (كَيْفَ تَخْفَى وَأَنْتَ الظَّاهِرُ، أَمْ كَيْفَ تَغِيبُ وَأَنْتَ الرَّقِيبُ الْحَاضِرُ).

ثم بحمده



فهرس ألف بائي للهكم



- أَبَاحَ لَكَ أَنْ تَنْظُرَ مَا فِي الْمُكُونَاتِ ٣٤٩
- أَجْهَلَ النَّاسِ مَنْ تَرَكَ يَقِينَ مَا عِنْدَهُ لِظَنِّ مَا عِنْدَ النَّاسِ ٣٥٤
- أَرْحَ نَفْسِكَ مِنَ التَّدْبِيرِ، فَمَا قَامَ بِهِ غَيْرُكَ عَنْكَ لَا تَقُمْ بِهِ لِنَفْسِكَ ٧٧
- أَشْهَدُكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَسْتَشْهَدَكَ، فَتَنْطَقَ بِاللَّوْهِيَّةِ الظَّوَاهِرُ ٥٠٠
- أَصْلُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ وَغَفْلَةٍ وَشَهْوَةٍ الرَّضَا عَنِ النَّفْسِ ١٥١
- أَظْهَرَ كُلِّ شَيْءٍ لِأَنَّهُ الْبَاطِنُ، وَطَوَى وُجُودَ كُلِّ شَيْءٍ لِأَنَّهُ الظَّاهِرُ ٣٤٨
- أَكْرَمَكَ بِكَرَامَاتٍ ثَلَاثَ: جَعَلَكَ ذَاكِرًا لَهُ ٥٠١
- أَمَرَكَ فِي هَذِهِ الدَّارِ بِالنَّظَرِ فِي مُكُونَاتِهِ ٣٠٧
- أَنَارَ الظَّوَاهِرَ بِأَنْوَارِ أَثَارِهِ، وَأَنَارَ السَّرَائِرَ بِأَنْوَارِ أَوْصَافِهِ ٢٧٥
- أَنْتَ إِلَى حِلْمِهِ إِذَا أَطَعْتَهُ أَحْوَجُ مِنْكَ إِلَى حِلْمِهِ إِذَا عَصَيْتَهُ ٣٣٥
- أَنْتَ حُرٌّ مِمَّا أَنْتَ عَنْهُ آيِسٌ، وَعَبْدٌ لِمَا أَنْتَ لَهُ طَامِعٌ ٢٠١
- أَنْتَ مَعَ الْأَكْوَانِ مَا لَمْ تَشْهَدْ الْمُكُونُ ٤٨٨
- أَنْعَمَ عَلَيْكَ أَوْلَا بِالْإِيْجَادِ، وَثَانِيَا بِتَوَالِي الْإِمْدَادِ ٢٦٧
- أَنْوَارُ أُذُنِ لَهَا فِي الْوُضُوءِ، وَأَنْوَارُ أُذُنِ لَهَا فِي الدُّخُولِ ٤٢٩
- أَوْجَبَ عَلَيْكَ وُجُودَ طَاعَتِهِ، وَمَا أَوْجَبَ عَلَيْكَ إِلَّا الدُّخُولَ جَنَّتِهِ ٤١٨
- أُورِدَ عَلَيْكَ الْوَارِدَ لِيَسَلَّمَكَ مِنْ يَدِ الْأَغْيَارِ ١٨٧
- أُورِدَ عَلَيْكَ الْوَارِدَ لِيُخْرِجَكَ مِنْ سِجْنِ وُجُودِكَ إِلَى فَضَاءِ شُهُودِكَ ١٨٨
- إِذَا أَرَادَ أَنْ يُظْهِرَ فَضْلَهُ عَلَيْكَ خَلَقَ وَنَسَبَ إِلَيْكَ ٣١٨
- إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ قُدْرَكَ عِنْدَهُ فَانْظُرْ فِي مَاذَا يُقِيمُكَ ٢٢٥
- إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابَ الرَّجَاءِ فَاشْهَدْ مَا مِنْهُ إِلَيْكَ ٣٥٩

- إذا أَرَدْتَ وُرُودَ الْمَوَاهِبِ عَلَيْكَ صَحِّحِ الْفَقْرَ وَالْفَاقَةَ لَدَيْكَ ٣٩٤
- إذا أَطْلَقَ الثَّنَاءَ عَلَيْكَ وَلَسْتَ بِأَهْلٍ فَاتِّنِ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ٣٥٤
- إذا التَّبَسَّ عَلَيْكَ أَمْرَانِ، فَانْظُرْ إِلَى أَثْقَلِهِمَا عَلَى النَّفْسِ فَاتَّبِعْهُ ٤١٤
- إذا رَأَيْتَ عَبْدًا أَقَامَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِوُجُودِ الْأَوْرَادِ ٢١٣
- إذا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَغْفُلُ عَنْكَ ٤٧١
- إذا فَتَحَ لَكَ وَجْهَةً مِنَ التَّعَرُّفِ فَلَا تُبَالِ مَعَهَا إِنْ قَلَّ عَمَلُكَ ٨٣
- إذا وَقَعَ مِنْكَ ذَنْبٌ فَلا يَكُنْ سَبَبًا لِيَأْسِكَ مِنْ حُصُولِ الْاسْتِقَامَةِ ٣٥٨
- إذا أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ لَكَ عِزٌّ لَا يَفْنَى، فَلَا تَسْتَعِزَّ بِعِزِّ يَفْنَى ٢٥٤
- إِرَادَتُكَ التَّجْرِيدَ مَعَ إِقَامَةِ اللَّهِ إِيَّاكَ فِي الْأَسْبَابِ مِنَ الشَّهْوَةِ الْخَفِيَّةِ، ٧٣
- إِلَى الْمَشْيِئَةِ يَسْتَنْدُ كُلُّ شَيْءٍ وَلَا تَسْتَنْدِ هِيَ إِلَى شَيْءٍ ٣٨٧
- إِنْ أَرَدْتَ أَنْ لَا تُعْزَلَ فَلَا تَتَوَلَّ وَلَايَةً لَا تَدُومُ لَكَ ٤٦١
- إِنْ رَغَبْتَكَ الْبِدَايَاتُ زَهَّدْتَكَ النِّهَايَاتُ ٤٦٢
- إِنْ لَمْ تَحْسَنْ ظَنَّاكَ بِهِ لِأَجْلِ وَصْفِهِ ١٦٠
- إِنَّمَا أَجْرَى الْأَذَى عَلَى أَيْدِيهِمْ كَيْ لَا تَكُونَ سَاكِنًا إِلَيْهِمْ ٤٦٩
- إِنَّمَا أَوْرَدَ عَلَيْكَ الْوَارِدَ لِتَكُونَ بِهِ عَلَيْهِ وَارِدًا ١٨٧
- إِنَّمَا احْتَجَبَ لِشِدَّةِ ظُهُورِهِ، وَخَفِيَ عَنِ الْأَبْصَارِ لِعِظَمِ نُورِهِ ٣٨٣
- إِنَّمَا اسْتَوْحَشَ الْعِبَادُ وَالزُّهَّادُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ٣٠٥
- إِنَّمَا جَعَلَ الدَّارَ الْآخِرَةَ مَحَلًّا لِجَزَاءِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ٢٢٤
- إِنَّمَا جَعَلَهَا مَحَلًّا لِلْأَغْيَارِ وَمَعْدِنًا لَوُجُودِ الْأَكْدَارِ ٤٦٣
- إِنَّمَا حَجَبَ الْحَقَّ عَنْكَ شِدَّةُ قُرْبِهِ مِنْكَ ٣٨٢
- إِنَّمَا وَسَعَكَ الْكَوْنُ مِنْ حَيْثُ جَسَمَانِيَّتُكَ ٤٨٤
- إِنَّمَا يُؤْلِمُكَ الْمَنْعُ لِعَدَمِ فَهْمِكَ عَنِ اللَّهِ فِيهِ ٢٦٢
- إِنَّمَا يُدَكِّرُ مَنْ يَجُوزُ عَلَيْهِ الْإِغْفَالُ ٣٨٩

- إِحَالَتِكَ الْأَعْمَالِ عَلَى وُجُودِ الْفَرَاغِ مِنْ رُغُونَاتِ النَّفْسِ ١٢٠
- اجْتِهَادُكَ فِيمَا ضَمِنَ لَكَ وَتَقْصِيرُكَ فِيمَا طَلَبَ مِنْكَ ٧٩
- اُخْرَجَ مِنْ أَوْصَافِ بَشَرِيَّتِكَ ١٤٩
- ادْفِنِ وُجُودَكَ فِي أَرْضِ الْخُمُولِ، فَمَا نَبَتَ مِمَّا لَمْ يُدْفَنَ لَا يَتِمُّ نَتَاجُهُ ٨٨
- اسْتِشْرَافُكَ أَنْ يَعْلَمَ الْخَلْقُ بِخُصُوصِيَّتِكَ ٣٧٦
- الْأَعْمَالُ صُورٌ قَائِمَةٌ، وَأَرْوَاحُهَا وَجُودٌ سِرٌّ الْإِخْلَاصِ فِيهَا ٨٦
- الْأَكْوَانُ ثَابِتَةٌ بِإِبْثَابِهِ، وَمَمْحُوءَةٌ بِأَحْدِيَّةِ ذَاتِهِ ٣٥٠
- الْأَكْوَانُ ظَاهِرُهَا غَرَّةٌ وَبَاطِنُهَا عِبْرَةٌ ٢٤٩
- الْأَنْوَارُ مَطَايَا الْقُلُوبِ وَالْأَسْرَارُ ١٨٩
- الْبَسْطُ تَأْخُذُ النَّفْسُ مِنْهُ حَظَّهَا بِوُجُودِ الْفَرَحِ ٤٤٢
- التَّوَاضُّعُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ مَا كَانَ نَاشِئًا عَنْ شُهُودِ عَظَمَتِهِ ٤٧٧
- الْحُزْنُ عَلَى فَقْدَانِ الطَّاعَةِ مَعَ عَدَمِ النُّهُوضِ إِلَيْهَا ٢٣٢
- الْحَقَائِقُ تَرِدُ فِي حَالِ التَّجَلِّيِ مُجَمَّلَةً ٤٤٣
- الْحَقُّ لَيْسَ بِمَحْجُوبٍ، وَإِنَّمَا الْمَحْجُوبُ أَنْتَ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ ١٤٨
- الْخِذْلَانُ كُلُّ الْخِذْلَانِ أَنْ تَتَفَرَّغَ مِنَ الشَّوَاعِلِ ٥٠٣
- الرَّجَاءُ مَا قَارَنَهُ عَمَلٌ، وَإِلَّا فَهُوَ أُمْنِيَّةٌ ٢٣٧
- الزَّهَادُ إِذَا مُدِّحُوا انْقَبَضُوا لِشُهُودِهِمُ الثَّنَاءَ مِنَ الْخَلْقِ ٣٥٥
- السُّتْرُ عَلَى قِسْمَيْنِ: سِتْرٌ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَسِتْرٌ فِيهَا ٣٣٦
- الصَّلَاةُ مَحَلُّ الْمُنَاجَاةِ وَمَعْدِنُ الْمُصَافَاةِ ٣١٤
- الصَّلَاةُ طَهْرَةٌ لِلْقُلُوبِ مِنْ أَدْنَسِ الذُّنُوبِ ٣١٢
- الطَّبِيُّ الْحَقِيقِيُّ أَنْ تَطْوِيَ مَسَافَةَ الدُّنْيَا عَنْكَ ٢٥٥
- الْعَارِفُ لَا يَزُولُ اضْطِرَّارُهُ وَلَا يَكُونُ مَعَ غَيْرِ اللَّهِ قَرَارُهُ ٢٧٤
- الْعَارِفُونَ إِذَا بُسِطُوا أَخَوْفُ مِنْهُمْ إِذَا قُبِضُوا ٢٤٣

- ٤١٠ العبارات قُوتٌ لِعَائِلَةِ الْمُسْتَمِعِينَ وَلَيْسَ لَكَ إِلَّا مَا أَنْتَ لَهُ آكِلٌ
- ١٦٣ الْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ مِمَّنْ يَهْرُبُ مِمَّنْ لَا انْفِكَاكَ لَهُ عَنْهُ
- ٢٥٦ الْعَطَاءُ مِنَ الْخَلْقِ حِرْمَانٌ، وَالْمَنْعُ مِنَ اللَّهِ إِحْسَانٌ
- ٤٦٧ الْعِلْمُ إِنْ قَارَنْتَهُ الْخَشْيَةُ فَلَكَ وَإِلَّا فَعَلَيْكَ
- ٤٦٥ الْعِلْمُ النَّافِعُ الَّذِي يَنْبَسِطُ فِي الصَّدْرِ شُعَاعُهُ
- ٣٠٣ الْغَافِلُ إِذَا أَصْبَحَ يَنْظُرُ مَاذَا يَفْعَلُ
- ٣٩٣ الْفَاقَاتُ بُسْطُ الْمَوَاهِبِ
- ٥٠٤ الْفِكْرَةُ سِرُّ الْقَلْبِ فِي مَيَادِينِ الْأَغْيَارِ
- ٥٠٤ الْفِكْرَةُ سِرَاجُ الْقَلْبِ، فَإِذَا ذَهَبَتْ فَلَا إِضَاءَةَ لَهُ
- ٥٠٥ الْفِكْرَةُ فِكْرَتَانِ: فِكْرَةُ تَصْدِيقٍ وَإِيمَانٍ
- ٤٨٦ الْكَائِنُ فِي الْكَوْنِ وَلَمْ تُفْتَحْ لَهُ مَيَادِينُ الْغُيُوبِ
- ١٠٦ الْكَوْنُ كُلُّهُ ظُلْمَةٌ، وَإِنَّمَا أَنَارَهُ ظُهُورُ الْحَقِّ فِيهِ
- ٣٥٣ الْمُؤْمِنُ إِذَا مُدِحَ اسْتَحَى مِنَ اللَّهِ تَعَالَى
- ٤٧٨ الْمُؤْمِنُ يَشْعَلُهُ الثَّنَاءُ عَلَى اللَّهِ عَنِ أَنْ يَكُونَ لِنَفْسِهِ شَاكِرًا
- ٣٥٢ النَّاسُ يَمْدَحُونَكَ لِمَا يَظُنُّونَهُ فِيكَ
- ٤٥٥ النَّعِيمُ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ مَظَاهِرُهُ إِنَّمَا هُوَ بِشُهُودِهِ وَاقْتِرَابِهِ
- ١٩٢ النَّورُ جُنْدُ الْقَلْبِ كَمَا أَنَّ الظُّلْمَةَ جُنْدُ النَّفْسِ
- ١٩٥ النَّورُ لَهُ الْكَشْفُ، وَالْبَصِيرَةُ لَهَا الْحُكْمُ
- ٤٤٧ الْوَارِدُ يَأْتِي مِنْ حَضْرَةِ قَهَّارٍ
- ١٤٤ اهْتَدَى الرَّاحِلُونَ إِلَيْهِ بِأَنْوَارِ التَّوَجُّهِ
- ٢٤١ بِسْطَكَ كَيْ لَا يُبْقِيَكَ مَعَ الْقَبْضِ
- ٣٩٤ تَحَقَّقْ بِأَوْصَافِكَ يُمِدُّكَ بِأَوْصَافِهِ، تَحَقَّقْ بِذَلِكَ يُمِدُّكَ بِعِزِّهِ
- ٤٠٢ تَسْبِقُ أَنْوَارُ الْحُكَمَاءِ أَقْوَالَهُمْ

- تشوُّفَكَ إِلَى مَا بَطَنَ فِيكَ مِنَ الْغُيُوبِ ١٤٥
- تَطْلُعُكَ إِلَى بَقَاءِ غَيْرِهِ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ وَجْدَانِكَ لَهُ ٤٥٥
- تَمَكُّنُ حَلَاوَةِ الْهَوَى مِنْ الْقَلْبِ هُوَ الدَّاءُ الْعُضَالُ ٤٢٥
- تَنَوَّعَتِ أَجْنَاسُ الْأَعْمَالِ لَتَنَوُّعِ وَارِدَاتِ الْأَحْوَالِ ٨٥
- جَعَلَهُ لَكَ عَدُوًّا لِيَحُوشَكَ بِهِ إِلَيْهِ ٤٧٢
- جَعَلَكَ فِي الْعَالَمِ الْمُتَوَسِّطِ بَيْنَ مُلْكِهِ وَمَلَكُوتِهِ ٤٨٣
- جَلَّ حُكْمُ الْأَزَلِ أَنْ يَنْضَافَ إِلَى الْعِلَلِ ٣٨٥
- جَلَّ رَبُّنَا أَنْ يُعَامِلَهُ الْعَبْدُ نَقْدًا فَيَجَازِيَهُ نَسِيئَةً ٢٥٧
- حَظَّ النَّفْسِ فِي الْمَعْصِيَةِ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ ٣٧٤
- حُسْنُ الْأَعْمَالِ نَتَائِجُ حُسْنِ الْأَحْوَالِ ١٧٢
- حُقُوقٌ فِي الْأَوْقَاتِ يُمَكِّنُ قَضَاؤَهَا ٤٣٤
- خَفَ مِنْ وُجُودِ إِحْسَانِهِ إِلَيْكَ وَدَوَامِ إِسَاءَتِكَ مَعَهُ ٢٠٩
- خَيْرُ أَوْقَاتِكَ وَقْتُ تَشْهَدُ فِيهِ وَجُودَ فَاقَتِكَ ٢٦٩
- خَيْرُ الْعِلْمِ مَا كَانَتْ الْحَشْيَةُ مَعَهُ ٤٦٦
- خَيْرُ مَنْ نَصَابِ مِنْ يَطْلُبُكَ لَا لشيءٍ يَعُودُ مِنْكَ إِلَيْهِ ٣٣٩
- خَيْرُ مَا تَطْلُبُهُ مِنْهُ مَا هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ ٢٣٠
- دَلَّ بِوُجُودِ آثَارِهِ عَلَى وُجُودِ أَسْمَائِهِ ٤٩٢
- ذَاكَرَ ذَكَرَ لِيَسْتَنِيرَ بِهِ قَلْبُهُ فَكَانَ ذَاكِرًا ٤٩٩
- رُبَّ عُمْرٍ اتَّسَعَتْ أَمَدُهُ وَقَلَّتْ أَمَدَادُهُ ٥٠٢
- رُبَّمَا أَفَادَكَ فِي لَيْلِ الْقَبْضِ مَا لَمْ تَسْتَفِدْهُ فِي إِشْرَاقِ نَهَارِ الْبَسْطِ ٣٦١
- رُبَّمَا بَرَزَتْ الْحَقَائِقُ مَكْسُوفَةً الْأَنْوَارِ ٤٠٧
- رُبَّمَا دَخَلَ الرِّيَاءُ عَلَيْكَ مِنْ حَيْثُ لَا يَنْظُرُ الْخَلْقُ إِلَيْكَ ٣٧٥
- رُبَّمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ الطَّاعَةِ وَمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ الْقَبُولِ ٢٦٣

- رُبَّمَا أَطْلَعَكَ عَلَى غَيْبِ مَلَكُوتِهِ ٣٧٢
- رُبَّمَا أَعْطَاكَ فَمَنْعَكَ، وَرُبَّمَا مَنَعَكَ فَأَعْطَاكَ ٢٤٦
- رُبَّمَا اسْتَحْيَا الْعَارِفُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَتَهُ إِلَى مَوْلَاهُ ٤١٣
- رُبَّمَا دَلَّهُمُ الْأَدَبُ عَلَى تَرْكِ الطَّلَبِ ٣٨٨
- رُبَّمَا رَزَقَ الْكَرَامَةَ مَنْ لَمْ تَكْمُلْ لَهُ الْإِسْتِقَامَةُ ٣٩٧
- رُبَّمَا عَبَّرَ عَنِ الْمَقَامِ مَنْ اسْتَشْرَفَ عَلَيْهِ ٤١٠
- رُبَّمَا كُنْتَ مُسِيئًا فَأَرَاكَ الْإِحْسَانَ مِنْكَ ١٧٠
- رُبَّمَا وَجَدْتَ مِنَ الْمَزِيدِ فِي الْفَاقَاتِ ٣٩٣
- رُبَّمَا وَرَدَتْ الظُّلَمُ عَلَيْكَ لِيعْرِفَكَ قَدْرَ مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْكَ ٤٢٠
- رُبَّمَا وَرَدَتْ عَلَيْكَ الْأَنْوَارُ فَوَجَدْتَ الْقَلْبَ مَحْشُورًا بِصُورِ الْأَثَارِ ٤٣١
- رُبَّمَا وَقَفَتْ الْقُلُوبُ مَعَ الْأَنْوَارِ ٣٦٧
- سَبْحَانَ مَنْ سَتَرَ سِرَّ الْخُصُوصِيَّةِ بِظُهُورِ الْبَشَرِيَّةِ ٢٨٦
- سَبْحَانَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ الدَّلِيلَ عَلَى أَوْلِيَائِهِ ٣٦٩
- سَتَرَ أَنْوَارَ السَّرَائِرِ بِكَثَائِفِ الظُّوَاهِرِ ٣٦٨
- سَوَابِقُ الْهِمَمِ لَا تَخْرِقُ أَسْوَارَ الْأَقْدَارِ ٧٧
- شَتَانُ بَيْنَ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِهِ أَوْ يَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ ١٣٧
- شُعَاعُ الْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ قُرْبَهُ مِنْكَ ١٥٢
- طَلَبُكَ مِنْهُ اتِّهَامٌ لَهُ وَطَلَبُكَ لَهُ غِيبةٌ مِنْكَ عَنْهُ ١٢٥
- عَلِمَ أَنَّ الْعِبَادَ يَتَشَوَّفُونَ إِلَى ظُهُورِ سِرِّ الْعِنَايَةِ ٣٨٧
- عَلِمَ أَنَّكَ لَا تَقْبَلُ النُّصَحَ الْمَجْرَدَ لِمُجَرَّدِ الْقَوْلِ ٤٦٤
- عَلِمَ قَلَّةَ نُهُوضِ الْعِبَادِ إِلَى مُعَامَلَتِهِ ٤١٧
- عَلِمَ مِنْكَ أَنَّكَ لَا تَصْبِرُ عَنْهُ، فَأَشْهَدُكَ مَا بَرَزَ مِنْهُ ٣٠٨
- عِبَارَاتُهُمْ إِمَّا لِفَيْضَانِ وَجِدٍ، أَوْ لِقَصْدِ هِدَايَةِ مُرِيدٍ ٤٠٨

- عِنَايَتُهُ فِيكَ لَا لِشَيْءٍ مِنْكَ، وَأَيْنَ كُنْتَ حِينَ وَاجَهْتِكَ عِنَايَتُهُ. ٣٨٦
- غَيْبَ نَظَرِ الْخَلْقِ إِلَيْكَ بِنَظَرِ اللَّهِ إِلَيْكَ ٣٧٨
- فَرَّغَ قَلْبَكَ مِنَ الْأَغْيَارِ يَمْلَأُهُ بِالْمَعَارِفِ وَالْأَسْرَارِ ٤٣٢
- فَاقْتَتِكَ لَكَ ذَاتِيَّةً، وَوَرُودُ الْأَسْبَابِ مُذَكَّرَةٌ لَكَ بِمَا خَفِيَ عَلَيْكَ مِنْهَا ٢٦٩
- قَرُبُكَ مِنْهُ أَنْ تَكُونَ مُشَاهِدًا لِقُرْبِهِ ٤٤٢
- قَطَعَ السَّائِرِينَ لَهُ وَالْوَاصِلِينَ إِلَيْهِ عَنْ رُؤْيَا أَعْمَالِهِمْ ١٩٧
- قَلَمَّا تَكُونُ الْوَارِدَاتُ الْإِلَهِيَّةُ إِلَّا بَغْتَةً ٢٢٠
- قَوْمٌ أَقَامَهُمُ الْحَقُّ لِحِدْمَتِهِ، وَقَوْمٌ اخْتَصَّصَهُمْ بِمَحَبَّتِهِ ٢١٧
- قَوْمٌ تَسْبِقُ أَنْوَارُهُمْ أَذْكَارُهُمْ، وَقَوْمٌ تَسْبِقُ أَذْكَارُهُمْ أَنْوَارُهُمْ ٤٩٨
- قَيْدَ الطَّاعَاتِ بِأَعْيَانِ الْأَوْقَاتِ لِئَلَّا يَمْنَعَكَ عَنْهَا وَجُودُ التَّسْوِيفِ ٤١٦
- كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ، وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ. ١٥٤
- كَفَى الْعَامِلِينَ جَزَاءً مَا هُوَ فَاتِحُهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فِي طَاعَتِهِ ٢٥٩
- كَفَى مِنْ جَزَائِهِ إِيَّاكَ عَلَى الطَّاعَةِ أَنْ رَضِيكَ لَهَا أَهْلًا ٢٥٨
- كُلَّ كَلَامٍ يَبْرُزُ وَعَلَيْهِ كِسْوَةُ الْقَلْبِ الَّذِي مِنْهُ بَرَزَ ٤٠٦
- كُنْ بِأَوْصَافِ رُبُوبِيَّتِهِ مُتَعَلِّقًا، وَبِأَوْصَافِ عُبُودِيَّتِكَ مُتَحَقِّقًا ٣٢٠
- كَمَا لَا يُحِبُّ الْعَمَلُ الْمُشْتَرَكُ، لَا يُحِبُّ الْقَلْبُ الْمُشْتَرَكُ ٤٢٧
- كَيْفَ تَطْلُبُ الْعَوَاضَ عَلَى عَمَلٍ هُوَ مُتَصَدِّقٌ بِهِ عَلَيْكَ؟ ٤٩٧
- كَيْفَ تُخْرِقَ لَكَ الْعَوَائِدُ وَأَنْتَ لَمْ تُخْرِقْ مِنْ نَفْسِكَ الْعَوَائِدَ. ٣٢٤
- كَيْفَ يَحْتَجِبُ الْحَقُّ بِشَيْءٍ، وَالَّذِي يَحْتَجِبُ بِهِ هُوَ فِيهِ ظَاهِرٌ ٤٤٩
- كَيْفَ يَكُونُ طَلَبُكَ الْلَا حَقُّ سَبَبًا فِي عَطَائِهِ السَّابِقِ؟ ٣٨٥
- كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ الَّذِي أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ! ١١٤
- كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبٌ صُورَ الْأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةً فِي مِرَاتِهِ؟! ٩٧
- لَا تَدْهَشْكَ وَارِدَاتُ النِّعَمِ عَنِ الْقِيَامِ بِحُقُوقِ شُكْرِكَ ٤٢٣

- لا تَزَكِّينَّ وَارِدًا لَا تَعْلَمُ ثَمَرَتَهُ، فَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنَ السَّحَابَةِ الْإِمطارَ ٤٥٢
- لا تَطالِبِ رَبَّكَ بِتَأخَّرِ مَطْلَبِكَ وَلَكِنْ طالِبِ نَفْسِكَ بِتَأخَّرِ أَدَبِكَ ٢٩٠
- لا تَفْرِحْكَ الطَّاعَةُ؛ لِأَنَّهَا بَرَزَتْ مِنْكَ ١٩٦
- لا تَمْدَنَّ يَدَكَ إِلَى الْأَخْذِ مِنَ الْخَلَائِقِ ٤١٢
- لا تَتْرُكِ الذِّكْرَ لِعَدَمِ حُضُورِكَ مَعَ اللَّهِ فِيهِ ١٨٠
- لا تَتَرَقَّبْ فَرَاغَ الْأَعْيَارِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَقْطَعُكَ عَنْ وُجُودِ الْمُرَاقِبَةِ لَهُ ١٣٠
- لا تَتَعَدَّ نِيَّةَ هِمَّتِكَ إِلَى غَيْرِهِ، فَالكَرِيمُ لَا تَتَخَطَّاهُ الْأَمالُ ١٥٥
- لا تَرَحِلْ مِنْ كَوْنٍ إِلَى كَوْنٍ فَتَكُونَ كَحِمَارِ الرَّحَى ١٦٦
- لا تَرْفَعَنَّ إِلَى غَيْرِهِ حَاجَةً هُوَ مُورِدُهَا عَلَيْكَ ١٥٨
- لا تَسْتَبْطِئِ النَّوَالَ، وَلَكِنْ اسْتَبْطِئِ مِنْ نَفْسِكَ وُجُودَ الْإِقْبالِ ٤٣٣
- لا تَسْتَغْرِبْ وُقُوعَ الْأَكْدَارِ، مَا دُمْتَ فِي هَذِهِ الدَّارِ ١٣٠
- لا تَصْحَبْ مَنْ لَا يُنْهَضُكَ حَالُهُ وَلَا يُدْلِّكَ عَلَى اللَّهِ مَقَالُهُ ١٦٩
- لا تَطْلُبْ عَوَضًا عَلَى عَمَلٍ لَسْتَ لَهُ فاعِلًا ٣١٧
- لا تَطْلُبْ مِنْهُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ حَالَةٍ لَيْسَتْ عَمَلُكَ فِيهَا سِوَاهَا ١٢٢
- لا تَطْلُبَنَّ بَقَاءَ الْوَارِدَاتِ بَعْدَ أَنْ بَسَطْتَ أَنْوَارَهَا ٤٥٤
- لا تَنْفَعُهُ طَاعَتُكَ وَلَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَتُكَ ٤٣٨
- لا تَيَأَسْ مِنْ قَبُولِ عَمَلٍ لَا تَجِدُ فِيهِ وُجُودَ الْحُضُورِ ٤٥١
- لا صَغِيرَةً إِذَا قَابَلْتَكَ عَدْلُهُ، وَلَا كَبِيرَةً إِذَا وَاجَهْتَكَ فَضْلُهُ ١٨٦
- لا عَمَلٍ أَرْجَى لِلْقُلُوبِ مِنْ عَمَلٍ يَغِيبُ عَنْكَ شُهُودُهُ ١٨٦
- لا نَهائِيَةً لِمَذَامِّكَ إِنْ أَرَجَعَكَ إِلَيْكَ ٣١٩
- لا يَخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تَلْتَبِسَ الطُّرُقَ عَلَيْكَ ٢٨٢
- لا يَخْرِجُ الشَّهَوَةَ مِنَ الْقَلْبِ إِلَّا خَوْفٌ مُزَعِّجٌ أَوْ شَوْقٌ مُقْلِقٌ ٤٢٦
- لا يَخْرِجُكَ عَنِ الْوَصْفِ إِلَّا شُهُودُ الْوَصْفِ ٤٧٨

- لا يزيْدُ في عِزِّهِ إِقْبَالَ مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ ٤٣٩
- لا يَسْتَحِقُّ الْوَرْدَ إِلَّا جَهْلٌ ٢٩٧
- لا يَشْكُكَكَ فِي الْوَعْدِ عَدَمُ وَقُوعِ الْمَوْعُودِ، وَإِنْ تَعَيَّنَ زَمَنُهُ ٨١
- لا يَعْظُمُ الذَّنْبُ عِنْدَكَ عَظَمَةً تُصَدِّكَ عَنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى ١٨٢
- لا يَعْلَمُ قَدْرُ أَنْوَارِ الْقُلُوبِ وَالْأَسْرَارِ إِلَّا فِي غَيْبِ الْمَلَكُوتِ ٤٩٥
- لا يَكُنْ تَأَخُّرُ أَمَدِ الْعَطَاءِ مَعَ الْإِلْحَاحِ فِي الدُّعَاءِ مُوجِبًا لِيَأْسِكَ ٨٠
- لا يَكُنْ طَلَبُكَ تَسَبُّبًا إِلَى الْعَطَاءِ مِنْهُ فَيَقِلَّ فَهْمُكَ عَنْهُ ٣٨٤
- لا يَلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِ الْخُصُوصِيَّةِ عَدَمُ وَصْفِ الْبَشَرِيَّةِ ٤٩٠
- لا يَنْبَغِي لِلسَّالِكِ أَنْ يُعْبَرَ عَنْ وَارِدَاتِهِ ٤١١
- لَمَّا عَلِمَ الْحَقُّ مِنْكَ وَجُودَ الْمَلَلِ، لَوْنُ لَكَ الطَّاعَاتِ ٣٠٩
- لَوْ أَشْرَقَ لَكَ نُورُ الْيَقِينِ لَرَأَيْتَ الْآخِرَةَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ ٣٤٠
- لَوْ أَنَّكَ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ فَنَاءِ مَسَاوِيكَ وَمَحْوِ دَعَاوِيكَ ٣٣١
- لَوْلَا جَمِيلُ سِتْرِهِ لَمْ يَكُنْ عَمَلُ أَهْلًا لِلْقَبُولِ ٣٣٤
- لَوْلَا ظُهُورُهُ فِي الْمَكُونَاتِ مَا وَقَعَ عَلَيْهَا وَجُودُ إِبْصَارٍ ٣٤٦
- لَوْلَا مَيَادِينُ النُّفُوسِ مَا تَحَقَّقَ سَيْرُ السَّائِرِينَ ٤٨١
- لِيَخْفَفَ أَلَمُ الْبَلَاءِ عَلَيْكَ عِلْمُكَ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُبْلِي لَكَ ٢٧٩
- لَيْسَ الْمُتَوَاضِعُ الَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ رَأَى أَنَّهُ فَوْقَ مَا صَنَعَ ٤٧٦
- لَيْسَ الْمُحِبُّ الَّذِي يَرْجُو مِنْ مَحْبُوبِهِ عَوَضًا ٤٨٠
- لَيْسَ كُلُّ مَنْ ثَبَتَ تَخْصِيصُهُ كَمُلَ تَخْلِيصُهُ ٢٩٦
- لِيَقِلَّ مَا تَفَرَّحَ بِهِ يَقِلُّ مَا تَحْزَنُ عَلَيْهِ ٤٦٠
- لِيَنْفَقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ الْوَاصِلُونَ إِلَيْهِ ١٤٣
- مَا أَحْبَبْتَ شَيْئًا إِلَّا كُنْتَ لَهُ عَبْدًا ٤٣٦
- مَا أَرَادَتْ هِمَّةُ سَالِكٍ أَنْ تَقِفَ عِنْدَ مَا كُشِفَ لَهَا ١٢٣

- ما استودعَ في غيبِ السرائرِ ظَهَرَ في شهادةِ الظواهرِ ١٣٦
- ما الشَّانُ وُجُودُ الطَّلَبِ، إِنَّمَا الشَّانُ أَنْ تُرْزَقَ حُسْنَ الأدبِ ٣٢٧
- ما العَارِفُ مَنْ إِذَا أَشَارَ وَجَدَ الْحَقَّ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ إِشَارَتِهِ ٢٣٣
- ما بَسَقَتْ أَغْصَانُ ذُلٍّ إِلَّا عَلَى بَذْرِ طَمَعٍ ١٩٨
- ما تجدُّهُ الْقُلُوبُ مِنَ الْهُمُومِ وَالْأَحْزَانِ ٤٥٨
- ما تَرَكَ مِنَ الْجَهْلِ شَيْئًا ١١٧
- ما تَوَقَّفَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِيَهُ بِرَبِّكَ ١٣٢
- ما حَبَبَكَ عَنْ اللَّهِ وَجُودُ مَوْجُودٍ مَعَهُ ٣٤٢
- ما صَحَبَكَ إِلَّا مَنْ صَحَبَكَ وَهُوَ بِعَيْكَ عَلِيمٌ ٣٣٨
- ما طَلَبَ لَكَ شَيْءٌ مِثْلَ الْاضْطِرَارِ ٣٣٠
- ما فَاتَ مِنْ عُمْرِكَ لَا عَوْضَ لَهُ، وَمَا حَصَلَ لَكَ مِنْهُ لَا قِيَمَةَ لَهُ ٤٣٥
- ما قَادَكَ شَيْءٌ مِثْلَ الْوَهْمِ ١٩٨
- ما قَلَّ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ زَاهِدٍ، وَلَا كَثُرَ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ رَاغِبٍ ١٧١
- ما كَانَ ظَاهِرُ ذِكْرِ إِلَّا عَنِ بَاطِنِ شُهُودٍ أَوْ فِكْرَةٍ ٤٩٩
- ما مِنْ نَفْسٍ تُبْدِيهِ إِلَّا وَلَهُ قَدَرٌ فِيكَ يُمَضِّيه ١٢٩
- ما نَفَعَ الْقَلْبَ شَيْءٌ مِثْلَ عَزْلَةٍ يَدْخُلُ بِهَا مِيدَانُ فِكْرَةٍ ٩٠
- مَتَى أَلَمَكَ عَدَمُ إِقْبَالِ النَّاسِ عَلَيْكَ، أَوْ تَوَجُّهُهُمْ بِالذَّمِّ إِلَيْكَ ٤٦٧
- مَتَى أَطْلَقَ لِسَانَكَ بِالطَّلَبِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَكَ ٢٧٢
- مَتَى أَعْطَاكَ أَشْهَدَكَ بِرِّهِ، وَمَتَى مَنَعَكَ أَشْهَدَكَ قَهْرِهِ ٢٦١
- مَتَى أَوْحَشَكَ مِنْ خَلْقِهِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابَ الْأَنْسِ بِهِ ٢٧٠
- مَتَى جَعَلَكَ فِي الظَّاهِرِ مُمْتَثِلًا لِأَمْرِهِ ٢٩٣
- مَتَى رَزَقَكَ الطَّاعَةَ وَالْغِنَى بِهِ عَنْهَا ٢٢٧
- مَتَى طَلَبْتَ عَوْضًا عَنْ عَمَلٍ، طُولِبْتَ بِوُجُودِ الصَّدَقِ فِيهِ ٣١٦

- متى فَتَحَ لَكَ بَابَ الْفَهْمِ فِي الْمَنْعِ، عَادَ الْمَنْعُ عَيْنَ الْعَطَاءِ ٢٤٩
- متى كُنْتَ إِذَا أُعْطِيتَ بَسْطَكَ الْعَطَاءُ ٣٥٦
- متى وَرَدَتْ الْوَارِدَاتُ الْإِلَهِيَّةُ عَلَيْكَ هَدَمَتْ الْعَوَائِدَ عَلَيْكَ ٤٤٦
- مطالعُ الأنوار: القلوبُ والأسرارُ ٣٦٢
- مطلبُ العارفين من الله الصِّدْقُ فِي الْعُبُودِيَّةِ ٢٣٩
- معصيةٌ أَوْرَثَتْ ذُلًّا وَافْتِقَارًا خَيْرٌ مِنْ طَاعَةٍ أَوْرَثَتْ عِزًّا وَاسْتِكْبَارًا ٢٦٥
- مما يَدُلُّكَ عَلَى وُجُودِ قَهْرِهِ سُبْحَانَهُ ١١٣
- من أذن له في التعبيرِ فهِمَتْ في مَسَامِعِ الْخَلْقِ عِبَارَتُهُ ٤٠٧
- من أثبتَ لِنَفْسِهِ تَوَاضُعًا فَهُوَ الْمُتَكَبِّرُ حَقًّا ٤٧٤
- من أَشْرَقَتْ بِدَائِيَّتُهُ أَشْرَقَتْ نِهَائِيَّتُهُ ١٣٦
- من أَكْرَمَكَ إِنَّمَا أَكْرَمَ فِيكَ جَمِيلَ سِتْرِهِ ٣٣٧
- من استَغْرَبَ أَنْ يُنْقِذَهُ اللهُ مِنْ شَهْوَتِهِ ٤١٩
- من اطلَّعَ عَلَى أَسْرَارِ الْعِبَادِ ٣٧٣
- من بُورِكَ لَهُ فِي عُمْرِهِ أَدْرَكَ فِي يَسِيرٍ مِنَ الزَّمَنِ مِنْ مَنْنِ اللهِ تَعَالَى ٥٠٢
- من رَأَيْتَهُ مُحِيًّا عَنْ كُلِّ مَا سُئِلَ، وَمُعَبِّرًا عَنْ كُلِّ مَا شَهِدَ ٢٢١
- من ظَنَّ انْفِكَاكَ لُطْفِهِ عَنْ قَدْرِهِ فَذَلِكَ لِقُصُورِ نَظَرِهِ ٢٨١
- منعَكَ أَنْ تَدْعِيَ مَا لَيْسَ لَكَ مِمَّا لِلْمَخْلُوقِينَ ٣٢٢
- من عَبَدَهُ لِشَيْءٍ يَرْجُوهُ مِنْهُ ٢٦٠
- من عَبَّرَ مِنْ بَسَاطَةِ إِحْسَانِهِ أَصَمَّتْهُ الْإِسَاءَةُ ٤٠١
- من عَرَفَ الْحَقَّ شَهِدَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ٣٨٠
- من لَمْ يَشْكُرِ النِّعَمَ فَقَدْ تَعَرَّضَ لَزَوَالِهَا ٢٠٧
- من لَمْ يَعْرِفْ قَدَرَ النِّعَمِ بَوَّجَدَانِهَا عَرَفَهَا بِوُجُودِ فَقْدَانِهَا ٤٢٢
- من لَمْ يَقْبَلِ عَلَى اللهِ بِمُلاطَفَاتِ الْإِحْسَانِ ٢٠٣

- ٢٢٤ من وجد ثمرة عمله عاجلاً فهو دليل على وجود القبول آجلاً.
- ٤٥٩ من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك ويمنعك ما يطغيك
- ٢١٠ من جهل المرید أن يسيء الأدب فتوخر العقوبة عنه.
- ١٣٥ من علامات التبحر في النهايات، الرجوع إلى الله في البدايات
- ٧١ من علامة الاعتماد على العمل، نقصان الرجاء عند وجود الزلل
- ٣٩٩ من علامات إقامة الحق لك في الشيء
- ٤١٥ من علامات اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات
- ١٨٢ من علامات موت القلب عدم الحزن على ما فاتك
- ٢٦٧ نعمتان ما خرج موجود عنهما، ولا بد لكل مكنون منهما
- ٣٦٤ نور مستودع في القلوب مدده من النور الوارد من خزائن الغيوب
- ٣٦٦ نور يكشف لك به عن آثاره، ونور يكشف لك به عن أوصافه
- ٤٩٦ وجدان ثمرات الطاعات عاجلاً
- ٣٠٢ ورود الإمداد بحسب الاستعداد
- ٣٩٠ ورود الفاقات أعياد المریدین
- ٤٤٠ وصولك إليه ووصولك إلى العلم به



فهرس المحتويات

مقدمة المحقق	٥
ترجمة الشارح الشيخ يسري رشدي السيد جبر الحسني	١١
العارف بالله ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه	٢١
متن الحكم العطائية	٢١
متن مناجاة سيدي ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه	٦٢
شرح الحكم العطائية	٦٧
مقدمة الشارح	٦٩
(١) مِنْ عِلَامَةِ الْإِعْتِمَادِ عَلَى الْعَمَلِ، نُقْصَانُ الرَّجَاءِ عِنْدَ وُجُودِ الزَّلَلِ	٧١
(٢) إِرَادَتُكَ التَّجْرِيدَ مَعَ إِقَامَةِ اللَّهِ إِلَيْكَ فِي الْأَسْبَابِ مِنَ الشَّهْوَةِ الْخَفِيَّةِ	٧٣
(٣) سَوَابِقُ الْهَمَمِ لَا تَحْرِقُ أَسْوَارَ الْأَقْدَارِ	٧٧
(٤) أَرِحْ نَفْسَكَ مِنَ التَّدْبِيرِ، فَمَا قَامَ بِهِ غَيْرُكَ عَنْكَ لَا تَقُمْ بِهِ لِنَفْسِكَ	٧٧
(٥) اجْتَهِدْكَ فِيمَا ضَمِنَ لَكَ وَتَقْصِرْكَ فِيمَا طَلَبَ مِنْكَ	٧٩
(٦) لَا يَكُنْ تَأَخَّرُ أَمَدِ الْعَطَاءِ مَعَ الْإِلْحَاحِ فِي الدُّعَاءِ مُوجِبًا لِيَأْسِكَ	٨٠
(٧) لَا يُشَكِّكَنَّكَ فِي الْوَعْدِ عَدَمُ وَقُوعِ الْمَوْعُودِ، وَإِنْ تَعَيَّنَ زَمَنُهُ	٨١
(٨) إِذَا فَتَحَ لَكَ وَجْهَةً مِنَ التَّعَرُّفِ فَلَا تُبَالِ مَعَهَا إِنْ قَلَّ عَمَلُكَ	٨٣
(٩) تَنَوَّعَتْ أَجْنَاسُ الْأَعْمَالِ لَتَنَوُّعِ وَارِدَاتِ الْأَحْوَالِ	٨٥
(١٠) الْأَعْمَالُ صُورٌ قَائِمَةٌ، وَأَرْوَاحُهَا وَجُودٌ سِرٌّ الْإِخْلَاصِ فِيهَا	٨٦
(١١) اذْفِنْ وَجُودَكَ فِي أَرْضِ الْخُمُولِ، فَمَا نَبَتْ مِمَّا لَمْ يُدْفَنْ لَا يَتِمُّ نَتَاجُهُ	٨٨
(١٢) مَا نَفَعَ الْقَلْبَ شَيْءٌ مِثْلَ عَزْلَةٍ يَدْخُلُ بِهَا مَيْدَانُ فِكْرَةٍ	٩٠
(١٣) كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبٌ صُورُ الْأَكْوَانِ مُنْطَبَعَةً فِي مِرْآتِهِ؟!	٩٧

- (١٤) الْكُونُ كُلُّهُ ظُلْمَةٌ، وَإِنَّمَا أَنَارَهُ ظُهُورُ الْحَقِّ فِيهِ..... ١٠٦
- (١٥) مِمَّا يَدُلُّكَ عَلَى وُجُودِ قَهْرِهِ سُبْحَانَهُ..... ١١٣
- (١٦) كَيْفَ يَتَصَوَّرُ أَنْ يَحْجُبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ الَّذِي أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ!..... ١١٤
- (١٧) مَا تَرَكَ مِنَ الْجَهْلِ شَيْئًا..... ١١٧
- (١٨) إِحَالَتُكَ الْأَعْمَالَ عَلَى وُجُودِ الْفَرَاغِ مِنْ رُغُونَاتِ النَّفْسِ..... ١٢٠
- (١٩) لَا تَطْلُبْ مِنْهُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ حَالَةٍ لَيْسْتَ عَمَلُكَ فِيهَا سِوَاهَا..... ١٢٢
- (٢٠) مَا أَرَادَتْ هِمَّةٌ سَالِكٌ أَنْ تَقِفَ عِنْدَ مَا كُشِفَ لَهَا..... ١٢٣
- (٢١) طَلَبُكَ مِنْهُ اتِّهَامٌ لَهُ وَطَلَبُكَ لَهُ غَيْبَةٌ مِنْكَ عَنْهُ..... ١٢٥
- (٢٢) مَا مِنْ نَفْسٍ تُبْدِيهِ إِلَّا وَلَهُ قَدَرٌ فِيكَ يُمَضِّيه..... ١٢٩
- (٢٣) لَا تَتَرَقَّبْ فَرَاغَ الْأَغْيَارِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَقْطَعُكَ عَنْ وُجُودِ الْمُرَاقَبَةِ لَهُ..... ١٣٠
- (٢٤) لَا تَسْتَغْرِبْ وَقُوعَ الْأَكْذَارِ، مَا دُمْتَ فِي هَذِهِ الدَّارِ..... ١٣٠
- (٢٥) مَا تَوَقَّفَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِبُهُ بِرَبِّكَ..... ١٣٢
- (٢٦) مِنْ عَلَامَاتِ النُّجْحِ فِي النِّهَايَاتِ، الرَّجُوعُ إِلَى اللَّهِ فِي الْبِدَايَاتِ..... ١٣٥
- (٢٧) مَنْ أَشْرَقَتْ بِدَايَتُهُ أَشْرَقَتْ نِهَائَتُهُ..... ١٣٦
- (٢٨) مَا اسْتُودِعَ فِي غَيْبِ السَّرَائِرِ ظَهَرَ فِي شَهَادَةِ الظَّوَاهِرِ..... ١٣٦
- (٢٩) شَتَانٌ بَيْنَ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِهِ أَوْ يَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ..... ١٣٧
- (٣٠) لِيَنْفَقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ الْوَاصِلُونَ إِلَيْهِ..... ١٤٣
- (٣١) اهْتَدَى الرَّاحِلُونَ إِلَيْهِ بِأَنْوَارِ التَّوَجُّهِ..... ١٤٤
- (٣٢) تَشَوُّفُكَ إِلَى مَا بَطَّنَ فِيكَ مِنَ الْعُيُوبِ..... ١٤٥
- (٣٣) الْحَقُّ لَيْسَ بِمَحْجُوبٍ، وَإِنَّمَا الْمَحْجُوبُ أَنْتَ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ..... ١٤٨
- (٣٤) اخْرُجْ مِنْ أَوْصَافِ بَشَرِيَّتِكَ..... ١٤٩
- (٣٥) أَصْلُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ وَغَفْلَةٍ وَشَهْوَةِ الرِّضَا عَنِ النَّفْسِ..... ١٥١
- (٣٦) شُعَاعُ الْبَصِيرَةِ يُشْهِدُكَ قُرْبَهُ مِنْكَ..... ١٥٢

- (٣٧) كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ، وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ. ١٥٤
- (٣٨) لَا تَتَعَدَّ نِيَّةَ هِمَّتِكَ إِلَى غَيْرِهِ، فَالكَرِيمُ لَا تَتَخَطَّاهُ الْأَمَالُ. ١٥٥
- (٣٩) لَا تَرْفَعَنَّ إِلَى غَيْرِهِ حَاجَةً هُوَ مُورِدُهَا عَلَيْكَ. ١٥٨
- (٤٠) إِنْ لَمْ تَحْسَنْ ظَنَّنَكَ بِهِ لِأَجْلِ وَصْفِهِ. ١٦٠
- (٤١) الْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ مِمَّنْ يَهْرُبُ مِمَّنْ لَا انْفِكَاكَ لَهُ عَنْهُ. ١٦٣
- (٤٢) لَا تَرَحَّلْ مِنْ كَوْنٍ إِلَى كَوْنٍ فَتَكُونَ كَحِمَارِ الرَّحَى. ١٦٦
- (٤٣) لَا تَصْحَبْ مَنْ لَا يُنْهَضُكَ حَالُهُ وَلَا يَدُلُّكَ عَلَى اللَّهِ مَقَالُهُ. ١٦٩
- (٤٤) رُبَّمَا كُنْتَ مُسِيئًا فَأَرَاكَ الْإِحْسَانَ مِنْكَ. ١٧٠
- (٤٥) مَا قَلَّ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ زَاهِدٍ، وَلَا كَثُرَ عَمَلٌ بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ رَاغِبٍ. ١٧١
- (٤٦) حُسْنُ الْأَعْمَالِ نَتَائِجُ حُسْنِ الْأَحْوَالِ. ١٧٢
- (٤٧) لَا تَتْرُكِ الذِّكْرَ لِعَدَمِ حُضُورِكَ مَعَ اللَّهِ فِيهِ. ١٨٠
- (٤٨) مِنْ عَلَامَاتِ مَوْتِ الْقَلْبِ عَدَمُ الْحُزَنِ عَلَى مَا فَاتَكَ. ١٨٢
- (٤٩) لَا يَعْظُمُ الذَّنْبُ عِنْدَكَ عَظَمَةً تَصُدُّكَ عَنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى. ١٨٢
- (٥٠) لَا صَغِيرَةٌ إِذَا قَابَلَكَ عَدْلُهُ، وَلَا كَبِيرَةٌ إِذَا وَاجَهَكَ فَضْلُهُ. ١٨٦
- (٥١) لَا عَمَلٌ أَرْجَى لِلْقُلُوبِ مِنْ عَمَلٍ يَغِيبُ عَنْكَ شُهُودُهُ. ١٨٦
- (٥٢) إِنَّمَا أُوْرِدَ عَلَيْكَ الْوَارِدَ لِتَكُونَ بِهِ عَلَيْهِ وَارِدًا. ١٨٧
- (٥٣) أُوْرِدَ عَلَيْكَ الْوَارِدَ لِتَسَلَّمَكَ مِنْ يَدِ الْأَغْيَارِ. ١٨٧
- (٥٤) أُوْرِدَ عَلَيْكَ الْوَارِدَ لِیُخْرِجَكَ مِنْ سِجْنِ وَجُودِكَ إِلَى فَضَاءِ شُهُودِكَ. ١٨٨
- (٥٥) الْأَنْوَارُ مَطَايَا الْقُلُوبِ وَالْأَسْرَارِ. ١٨٩
- (٥٦) النُّورُ جُنْدُ الْقَلْبِ كَمَا أَنَّ الظُّلْمَةَ جُنْدُ النَّفْسِ. ١٩٢
- (٥٧) النُّورُ لَهُ الْكَشْفُ، وَالْبَصِيرَةُ لَهَا الْحُكْمُ. ١٩٥
- (٥٨) لَا تُفْرِحْكَ الطَّاعَةُ؛ لِأَنَّهَا بَرَزَتْ مِنْكَ. ١٩٦
- (٥٩) قَطَعَ السَّائِرِينَ لَهُ وَالْوَاصِلِينَ إِلَيْهِ عَنْ رُؤْيَا أَعْمَالِهِمْ. ١٩٧

- (٦٠) مَا بَسَقَتْ أَغْصَانُ ذُلٍّ إِلَّا عَلَى بَذْرِ طَمَعٍ ١٩٨
- (٦١) مَا قَادَكَ شَيْءٌ مِثْلَ الْوَهْمِ ١٩٨
- (٦٢) أَنْتَ حُرٌّ مِمَّا أَنْتَ عَنْهُ آيِسٌ، وَعَبْدٌ لِمَا أَنْتَ لَهُ طَامِعٌ ٢٠١
- (٦٣) مَنْ لَمْ يُقْبَلْ عَلَى اللَّهِ بِمُلَاطَفَاتِ الْإِحْسَانِ ٢٠٣
- (٦٤) مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النِّعَمَ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِزَوَالِهَا ٢٠٧
- (٦٥) خَفْ مِنْ وُجُودِ إِحْسَانِهِ إِلَيْكَ وَدَوَامِ إِسَاءَتِكَ مَعَهُ ٢٠٩
- (٦٦) مِنْ جَهْلِ الْمُرِيدِ أَنْ يُسِيءَ الْأَدَبَ فَتَوَخَّرَ الْعُقُوبَةُ عَنْهُ ٢١٠
- (٦٧) إِذَا رَأَيْتَ عَبْدًا أَقَامَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِوُجُودِ الْأَوْرَادِ ٢١٣
- (٦٨) قَوْمٌ أَقَامَهُمُ الْحَقُّ لِخِدْمَتِهِ، وَقَوْمٌ اخْتَصَّهُمْ بِمَحَبَّتِهِ ٢١٧
- (٦٩) قَلَّمَا تَكُونُ الْوَارِدَاتُ الْإِلَهِيَّةُ إِلَّا بَغْتَةً ٢٢٠
- (٧٠) مَنْ رَأَيْتَهُ مُجِيبًا عَنْ كُلِّ مَا سُئِلَ، وَمُعَبِّرًا عَنْ كُلِّ مَا شَهِدَ ٢٢١
- (٧١) إِنَّمَا جَعَلَ الدَّارَ الْآخِرَةَ مَحَلًّا لِحِزَاءِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ٢٢٤
- (٧٢) مَنْ وَجَدَ ثَمَرَةَ عَمَلِهِ عَاجِلًا فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ الْقَبُولِ آجِلًا ٢٢٤
- (٧٣) إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ قَدْرَكَ عِنْدَهُ فَانْظُرْ فِي مَاذَا يُقِيمُكَ ٢٢٥
- (٧٤) مَتَى رَزَقَكَ الطَّاعَةَ وَالْغِنَى بِهِ عَنْهَا ٢٢٧
- (٧٥) خَيْرٌ مَا تَطْلُبُهُ مِنْهُ مَا هُوَ طَالِبُهُ مِنْكَ ٢٣٠
- (٧٦) الْحُزْنُ عَلَى فَقْدَانِ الطَّاعَةِ مَعَ عَدَمِ التَّهَوُّضِ إِلَيْهَا ٢٣٢
- (٧٧) مَا الْعَارِفُ مَنْ إِذَا أَشَارَ وَجَدَ الْحَقَّ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ إِشَارَتِهِ ٢٣٣
- (٧٨) الرَّجَاءُ مَا قَارَنَهُ عَمَلٌ، وَإِلَّا فَهُوَ أُمْنِيَّةٌ ٢٣٧
- (٧٩) مَطْلَبُ الْعَارِفِينَ مِنَ اللَّهِ الصَّدْقُ فِي الْعُبُودِيَّةِ ٢٣٩
- (٨٠) بَسَطَكَ كَيْ لَا يُبْقِيَكَ مَعَ الْقَبْضِ ٢٤١
- (٨١) الْعَارِفُونَ إِذَا بَسَطُوا أَخَوْفُ مِنْهُمْ إِذَا قَبَضُوا ٢٤٣
- (٨٢) الْبَسْطُ تَأْخُذُ النَّفْسُ مِنْهُ حَظَّهَا بِوُجُودِ الْفَرَحِ ٢٤٤

- (٨٣) رَبُّمَا أَعْطَاكَ فَمَنْعَكَ، وَرَبُّمَا مَنَعَكَ فَأَعْطَاكَ ٢٤٦
- (٨٤) مَتَى فَتَحَ لَكَ بَابَ الْفَهْمِ فِي الْمَنْعِ، عَادَ الْمَنْعُ عَيْنَ الْعَطَاءِ ٢٤٩
- (٨٥) الْأَكْوَانُ ظَاهِرَهَا غِرَّةٌ وَبَاطِنُهَا عِبْرَةٌ ٢٤٩
- (٨٦) إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ لَكَ عِزٌّ لَا يَفْنَى، فَلَا تَسْتَعِزَّ بِعِزِّ يَفْنَى ٢٥٤
- (٨٧) الطَّيُّ الْحَقِيقِيُّ أَنْ تَطْوِيَ مَسَافَةَ الدُّنْيَا عَنْكَ ٢٥٥
- (٨٨) الْعَطَاءُ مِنَ الْخَلْقِ حَرَمَانٌ، وَالْمَنْعُ مِنَ اللَّهِ إِحْسَانٌ ٢٥٦
- (٨٩) جَلَّ رَبُّنَا أَنْ يُعَامِلَهُ الْعَبْدُ نَقْدًا فَيَجَازِيَهُ نَسِيئَةً ٢٥٧
- (٩٠) كَفَى مِنْ جَزَائِهِ إِيَّاكَ عَلَى الطَّاعَةِ أَنْ رَضِيَكَ لَهَا أَهْلًا ٢٥٨
- (٩١) كَفَى الْعَامِلِينَ جَزَاءً مَا هُوَ فَاتِحُهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فِي طَاعَتِهِ ٢٥٩
- (٩٢) مَنْ عَبْدَهُ لَشَيْءٍ يَرْجُوهُ مِنْهُ ٢٦٠
- (٩٣) مَتَى أَعْطَاكَ أَشْهَدَكَ بِرِّهِ، وَمَتَى مَنَعَكَ أَشْهَدَكَ فَهْرِهِ ٢٦١
- (٩٤) إِنَّمَا يُؤَلِّمُكَ الْمَنْعُ لِعَدَمِ فَهْمِكَ عَنِ اللَّهِ فِيهِ ٢٦٢
- (٩٥) رَبُّمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ الطَّاعَةِ وَمَا فَتَحَ لَكَ بَابَ الْقَبُولِ ٢٦٣
- (٩٦) مَعْصِيَةٌ أَوْرَثَتْ ذُلًّا وَافْتِقَارًا خَيْرٌ مِنْ طَاعَةٍ أَوْرَثَتْ عِزًّا وَاسْتِكْبَارًا ... ٢٦٥
- (٩٧) نِعْمَتَانِ مَا خَرَجَ مَوْجُودٌ عَنْهُمَا، وَلَا بُدَّ لِكُلِّ مُكُونٍ مِنْهُمَا ٢٦٧
- (٩٨) أَنْعَمَ عَلَيْكَ أَوْ لَا بِالْإِبْجَادِ، وَثَانِيًا بِتَوَالِي الْإِمْدَادِ ٢٦٧
- (٩٩) فَاقْتَنَ لَكَ ذَاتِيَّةٌ، وَوُرُودُ الْأَسْبَابِ مُذَكَّرَةٌ لَكَ بِمَا خَفِيَ عَلَيْكَ مِنْهَا . ٢٦٩
- (١٠٠) خَيْرٌ أَوْقَاتِكَ وَقْتُ تَشْهَدُ فِيهِ وَجُودَ فَاقْتَنِكَ ٢٦٩
- (١٠١) مَتَى أَوْحَشَكَ مِنْ خَلْقِهِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابَ الْأَنْسِ بِهِ ٢٧٠
- (١٠٢) مَتَى أَطْلَقَ لِسَانَكَ بِالطَّلَبِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَكَ ٢٧٢
- (١٠٣) الْعَارِفُ لَا يَزُولُ اضْطِرَّارُهُ وَلَا يَكُونُ مَعَ غَيْرِ اللَّهِ قَرَارُهُ ٢٧٤
- (١٠٤) أَنْارَ الظَّوَاهِرِ بِأَنْوَارِ آثَارِهِ، وَأَنْارَ السَّرَائِرِ بِأَنْوَارِ أَوْصَافِهِ ٢٧٥
- (١٠٥) لِيُخَفِّفَ أَلَمَ الْبَلَاءِ عَلَيْكَ عِلْمُكَ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُبْلَى لَكَ ٢٧٩

- (١٠٦) مَنْ ظَنَّ أَنْفَكَ كَاطْفِهِ عَنْ قَدَرِهِ فَذَلِكَ لِقُصُورِ نَظَرِهِ ٢٨١
- (١٠٧) لَا يُخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تَلْتَبَسَ الطُّرُقَ عَلَيْكَ ٢٨٢
- (١٠٨) سُبْحَانَ مَنْ سَتَرَ سِرَّ الْخُصُوصِيَّةِ بِظُهُورِ الْبَشَرِيَّةِ ٢٨٦
- (١٠٩) لَا تُطَالِبْ رَبَّكَ بِتَأْخُرِ مَطْلَبِكَ وَلَكِنْ طَالِبْ نَفْسَكَ بِتَأْخُرِ أَدَبِكَ ... ٢٩٠
- (١١٠) مَتَى جَعَلَكَ فِي الظَّاهِرِ مُمْتَنِلًا لِأَمْرِهِ ٢٩٣
- (١١١) لَيْسَ كُلُّ مَنْ ثَبَتَ تَخْصِيصُهُ كَمَلِ تَخْلِيصُهُ ٢٩٦
- (١١٢) لَا يَسْتَحْقِرُ الْوَرْدَ إِلَّا جَهُولٌ ٢٩٧
- (١١٣) وَرُودُ الْإِمْدَادِ بِحَسَبِ الْاسْتِعْدَادِ ٣٠٢
- (١١٤) الْغَافِلُ إِذَا أَصْبَحَ يَنْظُرُ مَاذَا يَفْعَلُ ٣٠٣
- (١١٥) إِنَّمَا اسْتَوْحَشَ الْعِبَادُ وَالزُّهَادُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ٣٠٥
- (١١٦) أَمَرَكَ فِي هَذِهِ الدَّارِ بِالنَّظَرِ فِي مُكَوِّنَاتِهِ ٣٠٧
- (١١٧) عَلِمَ مِنْكَ أَنَّكَ لَا تَصْبِرُ عَنْهُ، فَأَشْهَدُكَ مَا بَرَزَ مِنْهُ ٣٠٨
- (١١٨) لَمَّا عَلِمَ الْحَقُّ مِنْكَ وَجُودَ الْمَلَلِ، لَوْنُ لَكَ الطَّاعَاتِ ٣٠٩
- (١١٩) الصَّلَاةُ طَهْرَةٌ لِلْقُلُوبِ مِنْ أَذْنَابِ الذُّنُوبِ ٣١٢
- (١٢٠) الصَّلَاةُ مَحَلُّ الْمُنَاجَاةِ وَمَعْدِنُ الْمُصَافَاةِ ٣١٤
- (١٢١) مَتَى طَلَبْتَ عَوَضًا عَنْ عَمَلٍ، طُولِبْتَ بِوُجُودِ الصَّدَقِ فِيهِ ٣١٦
- (١٢٢) لَا تَطْلُبْ عَوَضًا عَلَى عَمَلٍ لَسْتَ لَهُ فَاعِلًا ٣١٧
- (١٢٣) إِذَا أَرَادَ أَنْ يُظْهَرَ فَضْلُهُ عَلَيْكَ خَلَقَ وَنَسَبَ إِلَيْكَ ٣١٨
- (١٢٤) لَا نِهَايَةَ لِمَدَامَكَ إِنْ أَرَجَعَكَ إِلَيْكَ ٣١٩
- (١٢٥) كُنْ بِأَوْصَافِ رُبُوبِيَّتِهِ مُتَعَلِّقًا، وَبِأَوْصَافِ عِبُودِيَّتِكَ مُتَحَقِّقًا ٣٢٠
- (١٢٦) مَنَعَكَ أَنْ تَدَّعِيَ مَا لَيْسَ لَكَ مِمَّا لِلْمَخْلُوقِينَ ٣٢٢
- (١٢٧) كَيْفَ تُحْرِقُ لَكَ الْعَوَائِدُ وَأَنْتَ لَمْ تُحْرِقْ مِنْ نَفْسِكَ الْعَوَائِدَ ٣٢٤
- (١٢٨) مَا الشَّأْنُ وَوُجُودُ الطَّلَبِ، إِنَّمَا الشَّأْنُ أَنْ تُرْزَقَ حُسْنَ الْأَدَبِ ٣٢٧

- (١٢٩) مَا طَلَبَ لَكَ شَيْءٌ مِثْلُ الاضْطِرَارِ ٣٣٠
- (١٣٠) لَوْ أَنَّكَ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ فَنَاءٍ مَسَاوِيكَ وَمَحْوٍ دَعَاوِيكَ ٣٣١
- (١٣١) لَوْلَا جَمِيلُ سِتْرِهِ لَمْ يَكُنْ عَمَلٌ أَهْلًا لِلْقَبُولِ ٣٣٤
- (١٣٢) أَنْتَ إِلَى حِلْمِهِ إِذَا أَطَعْتَهُ أَحْوَجُ مِنْكَ إِلَى حِلْمِهِ إِذَا عَصَيْتَهُ ٣٣٥
- (١٣٣) السِّتْرُ عَلَى قِسْمَيْنِ: سِتْرٌ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَسِتْرٌ فِيهَا ٣٣٦
- (١٣٤) مَنْ أَكْرَمَكَ إِنَّمَا أَكْرَمَ فِيكَ جَمِيلُ سِتْرِهِ ٣٣٧
- (١٣٥) مَا صَحَبَكَ إِلَّا مَنْ صَحَبَكَ وَهُوَ بِعَيْنِكَ عَلِيمٌ ٣٣٨
- (١٣٦) خَيْرٌ مِنْ تَصَاحَبٍ مَنْ يَطْلُبُكَ لَا لَشَيْءٍ يَعُودُ مِنْكَ إِلَيْهِ ٣٣٩
- (١٣٧) لَوْ أَشْرَقَ لَكَ نُورُ الْيَقِينِ لَرَأَيْتَ الْآخِرَةَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ ٣٤٠
- (١٣٨) مَا حَبَبَكَ عَنِ اللَّهِ وَجُودٌ مُوْجُودٍ مَعَهُ ٣٤٢
- (١٣٩) لَوْلَا ظُهُورُهُ فِي الْمُكُونَاتِ مَا وَقَعَ عَلَيْهَا وَجُودُ إِبْصَارٍ ٣٤٦
- (١٤٠) أَظْهَرَ كُلَّ شَيْءٍ لِأَنَّهُ الْبَاطِنُ، وَطَوَى وَجُودَ كُلِّ شَيْءٍ لِأَنَّهُ الظَّاهِرُ ٣٤٨
- (١٤١) أَبَاحَ لَكَ أَنْ تَنْظُرَ مَا فِي الْمُكُونَاتِ ٣٤٩
- (١٤٢) الْأَكْوَانُ ثَابِتَةٌ بِإِبْنَاتِهِ، وَمَمْحُوءَةٌ بِأَحَدِيَّةِ ذَاتِهِ ٣٥٠
- (١٤٣) النَّاسُ يَمْدَحُونَكَ لِمَا يَظُنُّونَهُ فِيكَ ٣٥٢
- (١٤٤) الْمُؤْمِنُ إِذَا مَدَحَ اسْتَحَى مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ٣٥٣
- (١٤٥) أَجْهَلَ النَّاسِ مَنْ تَرَكَ يَقِينَ مَا عِنْدَهُ لِيُظَنَّ مَا عِنْدَ النَّاسِ ٣٥٤
- (١٤٦) إِذَا أَطْلَقَ الثَّنَاءَ عَلَيْكَ وَلَسْتَ بِأَهْلٍ فَاتَّئِنِّ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ٣٥٤
- (١٤٧) الزُّهَادُ إِذَا مَدَحُوا انْقَبَضُوا لِشُهُودِهِمُ الثَّنَاءَ مِنَ الْخَلْقِ ٣٥٥
- (١٤٨) مَتَى كُنْتَ إِذَا أُعْطِيتَ بَسْطَكَ الْعَطَاءُ ٣٥٦
- (١٤٩) إِذَا وَقَعَ مِنْكَ ذَنْبٌ فَلَا يَكُنْ سَبَبًا لِيَأْسِكَ مِنْ حُصُولِ الاسْتِقَامَةِ ... ٣٥٨
- (١٥٠) إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَفْتَحَ لَكَ بَابُ الرَّجَاءِ فَاشْهَدْ مَا مِنْهُ إِلَيْكَ ٣٥٩
- (١٥١) رُبَّمَا أَفَادَكَ فِي لَيْلِ الْقَبْضِ مَا لَمْ تَسْتَفِدْهُ فِي إِشْرَاقِ نَهَارِ الْبَسْطِ ٣٦١

- (١٥٢) مَطَالِعُ الْأَنْوَارِ: الْقُلُوبُ وَالْأَسْرَارُ ٣٦٢
- (١٥٣) نُورٌ مُسْتَوْدَعٌ فِي الْقُلُوبِ مَدَدُهُ مِنَ النُّورِ الْوَارِدِ مِنْ خَزَائِنِ الْغُيُوبِ ٣٦٤
- (١٥٤) نُورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ آثَارِهِ، وَنُورٌ يَكْشِفُ لَكَ بِهِ عَنْ أَوْصَافِهِ ٣٦٦
- (١٥٥) رُبَّمَا وَقَفَتِ الْقُلُوبُ مَعَ الْأَنْوَارِ ٣٦٧
- (١٥٦) سَتَرَ أَنْوَارِ السَّرَائِرِ بِكَثَائِفِ الظُّوَاهِرِ ٣٦٨
- (١٥٧) سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ الدَّلِيلَ عَلَى أَوْلِيَائِهِ ٣٦٩
- (١٥٨) رُبَّمَا أَطْلَعَكَ عَلَى غَيْبٍ مَلَكَوْتِهِ ٣٧٢
- (١٥٩) مَنْ أَطْلَعَ عَلَى أَسْرَارِ الْعِبَادِ ٣٧٣
- (١٦٠) حَظُّ النَّفْسِ فِي الْمَعْصِيَةِ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ ٣٧٤
- (١٦١) رُبَّمَا دَخَلَ الرِّيَاءُ عَلَيْكَ مِنْ حَيْثُ لَا يَنْظُرُ الْخَلْقُ إِلَيْكَ ٣٧٥
- (١٦٢) اسْتَشْرَفُوكَ أَنْ يَعْلَمَ الْخَلْقُ بِخُصُوصِيَّتِكَ ٣٧٦
- (١٦٣) غَيْبٌ نَظَرَ الْخَلْقَ إِلَيْكَ بَنَظَرِ اللَّهِ إِلَيْكَ ٣٧٨
- (١٦٤) مَنْ عَرَفَ الْحَقَّ شَهِدَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ٣٨٠
- (١٦٥) إِنَّمَا حَجَبَ الْحَقُّ عَنْكَ شِدَّةَ قُرْبِهِ مِنْكَ ٣٨٢
- (١٦٦) إِنَّمَا احْتَجَبَ لِشِدَّةِ ظُهُورِهِ، وَخَفِيَ عَنِ الْأَبْصَارِ لِعِظَمِ نُورِهِ ٣٨٣
- (١٦٧) لَا يَكُنْ طَلَبُكَ تَسَبُّبًا إِلَى الْعَطَاءِ مِنْهُ فَيَقِلَّ فَهْمُكَ عَنْهُ ٣٨٤
- (١٦٨) كَيْفَ يَكُونُ طَلَبُكَ الْآخِيقُ سَبَبًا فِي عَطَائِهِ السَّابِقِ؟ ٣٨٥
- (١٦٩) جَلَّ حُكْمُ الْأَزَلِ أَنْ يَنْضَافَ إِلَى الْعِلَلِ ٣٨٥
- (١٧٠) عِنَايَتُهُ فِيكَ لَا لِشَيْءٍ مِنْكَ، وَأَيْنَ كُنْتَ حِينَ وَاجَهْتَكَ عِنَايَتُهُ ٣٨٦
- (١٧١) عَلِمَ أَنَّ الْعِبَادَ يَتَشَوَّفُونَ إِلَى ظُهُورِ سِرِّ الْعِنَايَةِ ٣٨٧
- (١٧٢) إِلَى الْمَشِيئَةِ يَسْتَنْدُ كُلُّ شَيْءٍ وَلَا تَسْتَنْدُ هِيَ إِلَى شَيْءٍ ٣٨٧
- (١٧٣) رُبَّمَا دَلَّاهُمُ الْأَدَبُ عَلَى تَرْكِ الطَّلَبِ ٣٨٨
- (١٧٤) إِنَّمَا يُدَكَّرُ مَنْ يَجُوزُ عَلَيْهِ الْإِغْفَالُ ٣٨٩

- (١٧٥) وَرُودُ الْفَاقَاتِ أَعْيَادُ الْمُرِيدِينَ ٣٩٠
- (١٧٦) رُبَّمَا وَجَدْتَ مِنَ الزَّمَانِ فِي الْفَاقَاتِ ٣٩٣
- (١٧٧) الْفَاقَاتُ بُسْطُ الْمَوَاهِبِ ٣٩٣
- (١٧٨) إِذَا أَرَدْتَ وَرُودَ الْمَوَاهِبِ عَلَيْكَ صَحِّحِ الْفَقْرَ وَالْفَاقَةَ لَدَيْكَ ٣٩٤
- (١٧٩) تَحَقَّقْ بِأَوْصَافِكَ يُمَدِّدُكَ بِأَوْصَافِهِ، تَحَقَّقْ بِذَلِكَ يُمَدِّدُكَ بِعِزِّهِ ٣٩٤
- (١٨٠) رُبَّمَا رُزِقَ الْكَرَامَةُ مَنْ لَمْ تَكْمُلْ لَهُ الْإِسْتِقَامَةُ ٣٩٧
- (١٨١) مِنْ عَلَامَاتِ إِقَامَةِ الْحَقِّ لَكَ فِي الشَّيْءِ ٣٩٩
- (١٨٢) مَنْ عَبَّرَ مِنْ بَسَاطَةِ إِحْسَانِهِ أَصَمَّتْهُ الْإِسَاءَةُ ٤٠١
- (١٨٣) تَسْبِقُ أَنْوَارَ الْحُكَمَاءِ أَقْوَالُهُمْ ٤٠٢
- (١٨٤) كُلُّ كَلَامٍ يَبْرُزُ وَعَلَيْهِ كِسْوَةُ الْقَلْبِ الَّذِي مِنْهُ بَرَزَ ٤٠٦
- (١٨٥) مَنْ أَدْنَى لَهُ فِي التَّعْبِيرِ فَهِمَّتْ فِي مَسَامِعِ الْخَلْقِ عِبَارَتُهُ ٤٠٧
- (١٨٦) رُبَّمَا بَرَزَتْ الْحَقَائِقُ مَكْسُوفَةً الْأَنْوَارِ ٤٠٧
- (١٨٧) عِبَارَاتُهُمْ إِمَّا لِفَيْضَانٍ وَجِدٍ، أَوْ لِقَصْدٍ هِدَايَةِ مُرِيدٍ ٤٠٨
- (١٨٨) الْعِبَارَاتُ قُوَّةٌ لِعَائِلَةِ الْمُسْتَمْعِينَ وَلَيْسَ لَكَ إِلَّا مَا أَنْتَ لَهُ أَكَلٌ ... ٤١٠
- (١٨٩) رُبَّمَا عَبَّرَ عَنِ الْمَقَامِ مَنْ اسْتَشْرَفَ عَلَيْهِ ٤١٠
- (١٩٠) لَا يَنْبَغِي لِلسَّالِكِ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْ وَارِدَاتِهِ ٤١١
- (١٩١) لَا تَمُدَّنْ يَدَكَ إِلَى الْأَخْذِ مِنَ الْخَلَائِقِ ٤١٢
- (١٩٢) رُبَّمَا اسْتَحْيَا الْعَارِفُ أَنْ يَرْفَعَ حَاجَتَهُ إِلَى مَوْلَاهُ ٤١٣
- (١٩٣) إِذَا التَّبَسَّ عَلَىكَ أَمْرَانِ، فَانْظُرْ إِلَى أَثْقَلِهِمَا عَلَى النَّفْسِ فَاتَّبِعْهُ ٤١٤
- (١٩٤) مِنْ عَلَامَاتِ اتِّبَاعِ الْهَوَى الْمُسَارَعَةُ إِلَى نَوَافِلِ الْخَيْرَاتِ ٤١٥
- (١٩٥) قَيْدُ الطَّاعَاتِ بِأَعْيَانِ الْأَوْقَاتِ لئَلَّا يَمْتَعَكَ عَنْهَا وَجُودُ التَّسْوِيفِ . ٤١٦
- (١٩٦) عَلِمَ قَلَّةَ نُهُوضِ الْعِبَادِ إِلَى مُعَامَلَتِهِ ٤١٧
- (١٩٧) أَوْجَبَ عَلَيْكَ وَجُودَ طَاعَتِهِ، وَمَا أَوْجَبَ عَلَيْكَ إِلَّا دُخُولَ جَنَّتِهِ ... ٤١٨

- (١٩٨) مَنْ اسْتَعْرَبَ أَنْ يُنْقِذَهُ اللَّهُ مِنْ شَهْوَتِهِ ٤١٩
- (١٩٩) رُبَّمَا وَرَدَتْ الظُّلَمُ عَلَيْكَ لِيُعرفَكَ قَدْرَ مَا مِنَّْ بِهِ عَلَيْكَ ٤٢٠
- (٢٠٠) مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ النِّعَمِ بِوَجْدَانِهَا عَرَفَهَا بِوُجُودِ فَقْدَانِهَا ٤٢٢
- (٢٠١) لَا تُدْهِشْكَ وَإِرْدَاثُ النِّعَمِ عَنِ الْقِيَامِ بِحُقُوقِ شُكْرِكَ ٤٢٣
- (٢٠٢) تَمَكَّنْ حَلَاوَةَ الْهَوَى مِنَ الْقَلْبِ هُوَ الدَّاءُ الْعُضَالُ ٤٢٥
- (٢٠٣) لَا يُخْرِجُ الشَّهْوَةَ مِنَ الْقَلْبِ إِلَّا خَوْفُ مُزْعِجٍ أَوْ شَوْقُ مُقْلِقٍ ٤٢٦
- (٢٠٤) كَمَا لَا يُحِبُّ الْعَمَلَ الْمُشْتَرَكُ، لَا يُحِبُّ الْقَلْبُ الْمُشْتَرَكُ ٤٢٧
- (٢٠٥) أَنْوَارُ أذنَ لَهَا فِي الْوُصُولِ، وَأَنْوَارُ أذنَ لَهَا فِي الدُّخُولِ ٤٢٩
- (٢٠٦) رُبَّمَا وَرَدَتْ عَلَيْكَ الْأَنْوَارُ فَوَجَدْتَ الْقَلْبَ مَحْشُورًا بِصُورِ الْأَثَارِ .. ٤٣١
- (٢٠٧) فَرِّغْ قَلْبَكَ مِنَ الْأَغْيَارِ يَمْلَأُهُ بِالْمَعَارِفِ وَالْأَسْرَارِ ٤٣٢
- (٢٠٨) لَا تَسْتَبْطِئِ النَّوَالَ، وَلَكِنْ اسْتَبْطِئِ مِنْ نَفْسِكَ وَجُودَ الْإِقْبَالِ ٤٣٣
- (٢٠٩) حُقُوقٌ فِي الْأَوْقَاتِ يُمَكِّنُ قَضَاؤَهَا ٤٣٤
- (٢١٠) مَا فَاتَ مِنْ عُمْرِكَ لَا عَوْضَ لَهُ، وَمَا حَصَلَ لَكَ مِنْهُ لَا قِيَمَةَ لَهُ ٤٣٥
- (٢١١) مَا أَحْبَبْتَ شَيْئًا إِلَّا كُنْتَ لَهُ عَبْدًا ٤٣٦
- (٢١٢) لَا تَنْفَعُهُ طَاعَتُكَ وَلَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَتُكَ ٤٣٨
- (٢١٣) لَا يَزِيدُ فِي عِزِّهِ إِقْبَالُ مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ ٤٣٩
- (٢١٤) وَصُولُكَ إِلَيْهِ وَصُولُكَ إِلَى الْعِلْمِ بِهِ ٤٤٠
- (٢١٥) قُرْبُكَ مِنْهُ أَنْ تَكُونَ مُشَاهِدًا لِقُرْبِهِ ٤٤٢
- (٢١٦) الْحَقَائِقُ تَرْدُ فِي حَالِ التَّجَلِّي مُجْمَلَةً ٤٤٣
- (٢١٧) مَتَى وَرَدَتْ الْوَارِدَاتُ الْإِلَهِيَّةُ عَلَيْكَ هَدَمَتِ الْعَوَائِدَ عَلَيْكَ ٤٤٦
- (٢١٨) الْوَارِدُ يَأْتِي مِنْ حَضْرَةِ فَهَارٍ ٤٤٧
- (٢١٩) كَيْفَ يَحْتَجِبُ الْحَقُّ بِشَيْءٍ، وَالَّذِي يَحْتَجِبُ بِهِ هُوَ فِيهِ ظَاهِرٌ ٤٤٩
- (٢٢٠) لَا تَيَاسَّ مِنْ قَبُولِ عَمَلٍ لَا تَجِدُ فِيهِ وَجُودَ الْحُضُورِ ٤٥١

- (٢٢١) لَا تُزَكِّينَ وَارِدًا لَا تَعْلَمُ ثَمَرَتَهُ، فَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنَ السَّحَابَةِ الْإِمْطَارُ . ٤٥٢
- (٢٢٢) لَا تَطْلُبَنَّ بَقَاءَ الْوَارِدَاتِ بَعْدَ أَنْ بَسَطْتَ أَنْوَارَهَا ٤٥٤
- (٢٢٣) تَطْلُعُكَ إِلَى بَقَاءِ غَيْرِهِ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ وَجْدَانِكَ لَهُ ٤٥٥
- (٢٢٤) النَّعِيمُ وَإِنْ تَوَعَّتْ مَظَاهِرُهُ إِنَّمَا هُوَ بِشُهُودِهِ وَاقْتِرَابِهِ ٤٥٥
- (٢٢٥) مَا تَحِدُّهُ الْقُلُوبُ مِنَ الْهُمُومِ وَالْأَحْزَانِ ٤٥٨
- (٢٢٦) مِنْ تَمَامِ النَّعْمَةِ عَلَيْكَ أَنْ يَرْزُقَكَ مَا يَكْفِيكَ وَيَمْنَعَكَ مَا يُطْغِيكَ .. ٤٥٩
- (٢٢٧) لِيَقِلَّ مَا تَفْرَحُ بِهِ يَقِلَّ مَا تَحْزَنُ عَلَيْهِ ٤٦٠
- (٢٢٨) إِنْ أَرَدْتَ أَنْ لَا تُعْزَلَ فَلَا تَتَوَلَّ وَلَا يَةً لَا تَدُومُ لَكَ ٤٦١
- (٢٢٩) إِنْ رَغَبْتَكَ الْبِدَايَاتُ زَهَّدَتْكَ النِّهَايَاتُ ٤٦٢
- (٢٣٠) إِنَّمَا جَعَلَهَا مَحَلًّا لِلْأَغْيَارِ وَمَعْدِنًا لَوُجُودِ الْأَكْدَارِ ٤٦٣
- (٢٣١) عَلِمَ أَنَّكَ لَا تَقْبَلُ النَّصْحَ الْمَجْرَدَ لِمَجْرَدِ الْقَوْلِ ٤٦٤
- (٢٣٢) الْعِلْمُ النَّافِعُ الَّذِي يَنْبَسِطُ فِي الصَّدْرِ شُعَاعُهُ ٤٦٥
- (٢٣٣) خَيْرُ الْعِلْمِ مَا كَانَتْ الْخَشْيَةُ مَعَهُ ٤٦٦
- (٢٣٤) الْعِلْمُ إِنْ قَارَنَتْهُ الْخَشْيَةُ فَلَكَ وَإِلَّا فَعَلَيْكَ ٤٦٧
- (٢٣٥) مَتَى أَلَمَكَ عَدَمُ إِقْبَالِ النَّاسِ عَلَيْكَ، أَوْ تَوَجُّهُهُمْ بِالذَّمِّ إِلَيْكَ ٤٦٧
- (٢٣٦) إِنَّمَا أَجْرِي الْأَدَى عَلَى أَيْدِيهِمْ كَيْ لَا تَكُونَ سَاكِنًا إِلَيْهِمْ ٤٦٩
- (٢٣٧) إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَغْفُلُ عَنْكَ ٤٧١
- (٢٣٨) جَعَلَهُ لَكَ عَدُوًّا لِيُحْوشَكَ بِهِ إِلَيْهِ ٤٧٢
- (٢٣٩) مَنْ أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ تَوَاضِعًا فَهُوَ الْمُتَكَبِّرُ حَقًّا ٤٧٤
- (٢٤٠) لَيْسَ الْمُتَوَاضِعُ الَّذِي إِذَا تَوَاضَعَ رَأَى أَنَّهُ فَوْقَ مَا صَنَعَ ٤٧٦
- (٢٤١) التَّوَاضُعُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ مَا كَانَ نَاشِئًا عَنْ شُهُودِ عَظَمَتِهِ ٤٧٧
- (٢٤٢) لَا يُخْرِجُكَ عَنِ الْوَصْفِ إِلَّا شُهُودُ الْوَصْفِ ٤٧٨
- (٢٤٣) الْمُؤْمِنُ يَسْغُلُهُ الثَّنَاءُ عَلَى اللَّهِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لِنَفْسِهِ شَاكِرًا ٤٧٨

- (٢٤٤) لَيْسَ الْمُحِبُّ الَّذِي يَرْجُو مِنْ مَحْبُوبِهِ عَوَضًا ٤٨٠
- (٢٤٥) لَوْلَا مَيَادِينُ النُّفُوسِ مَا تَحَقَّقَ سَيْرُ السَّائِرِينَ ٤٨١
- (٢٤٦) جَعَلَكَ فِي الْعَالَمِ الْمُتَوَسِّطِ بَيْنَ مُلْكِهِ وَمَلَكُوْتِهِ ٤٨٣
- (٢٤٧) إِنَّمَا وَسِعَكَ الْكَوْنُ مِنْ حَيْثُ جِسْمَانِيَّتِكَ ٤٨٤
- (٢٤٨) الْكَائِنُ فِي الْكَوْنِ وَلَمْ تُفْتَحْ لَهُ مَيَادِينُ الْغُيُوبِ ٤٨٦
- (٢٤٩) أَنْتَ مَعَ الْأَكْوَانِ مَا لَمْ تَشْهَدْ الْمُكُونَ ٤٨٨
- (٢٥٠) لَا يَلْزَمُ مِنْ ثُبُوتِ الْخُصُوصِيَّةِ عَدَمُ وَصْفِ الْبَشَرِيَّةِ ٤٩٠
- (٢٥١) دَلَّ بِوُجُودِ آثَارِهِ عَلَى وُجُودِ أَسْمَائِهِ ٤٩٢
- (٢٥٢) لَا يُعْلَمُ قَدْرُ أَنْوَارِ الْقُلُوبِ وَالْأَسْرَارِ إِلَّا فِي غَيْبِ الْمَلَكُوتِ ٤٩٥
- (٢٥٣) وَجَدَانُ ثَمَرَاتِ الطَّاعَاتِ عَاجِلًا ٤٩٦
- (٢٥٤) كَيْفَ تَطْلُبُ الْعَوَضَ عَلَى عَمَلٍ هُوَ مُتَصَدِّقٌ بِهِ عَلَيْكَ؟ ٤٩٧
- (٢٥٥) قَوْمٌ تَسْبِقُ أَنْوَارُهُمْ أَذْكَارُهُمْ، وَقَوْمٌ تَسْبِقُ أَذْكَارُهُمْ أَنْوَارُهُمْ ٤٩٨
- (٢٥٦) ذَاكِرٌ ذَكَرَ لِيَسْتَتِيرَ بِهِ قَلْبُهُ فَكَانَ ذَاكِرًا ٤٩٩
- (٢٥٧) مَا كَانَ ظَاهِرُ ذِكْرِ إِلَّا عَنْ بَاطِنِ شُهُودٍ أَوْ فِكْرَةٍ ٤٩٩
- (٢٥٨) أَشْهَدُكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَسْتَشْهَدَكَ، فَنَطَقْتَ بِالْوَهْيَةِ الظَّوَاهِرُ ٥٠٠
- (٢٥٩) أَكْرَمَكَ بِكَرَامَاتٍ ثَلَاثَ: جَعَلَكَ ذَاكِرًا لَهُ ٥٠١
- (٢٦٠) رَبُّ عُمْرٍ اتَّسَعَتْ أَمَادُهُ وَقَلَّتْ أَمْدَادُهُ ٥٠٢
- (٢٦١) مَنْ بُورِكَ لَهُ فِي عُمْرِهِ أَدْرَكَ فِي يَسِيرٍ مِنَ الزَّمَنِ مِنْ مَنْنِ اللَّهِ تَعَالَى ٥٠٢
- (٢٦٢) الْخِذْلَانُ كُلُّ الْخِذْلَانِ أَنْ تَتَفَرَّغَ مِنَ الشَّوَاعِلِ ٥٠٣
- (٢٦٣) الْفِكْرَةُ سَيْرُ الْقَلْبِ فِي مَيَادِينِ الْأَعْيَارِ ٥٠٤
- (٢٦٤) الْفِكْرَةُ سِرَاجُ الْقَلْبِ، فَإِذَا ذَهَبَتْ فَلَا إِضَاءَةَ لَهُ ٥٠٤
- (٢٦٥) الْفِكْرَةُ فِكْرَتَانِ: فِكْرَةُ تَصْدِيقٍ وَإِيمَانٍ ٥٠٥
- شرح مناجاة سيدي ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه ٥٠٧

- مقدمة شرح المناجاة ٥٠٩
- (١) إِلَهِي أَنَا الْفَقِيرُ فِي غِنَايَ، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ فَقِيرًا فِي فَقْرِي ٥١١
- (٢) إِلَهِي أَنَا الْجَاهِلُ فِي عِلْمِي، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ جَهُولًا فِي جَهْلِي ٥١٢
- (٣) إِلَهِي إِنَّ اخْتِلَافَ تَذْبِيرِكَ وَسُرْعَةَ حُلُولِ مَقَادِيرِكَ ٥١٢
- (٤) إِلَهِي مَنِّي مَا يَلِيقُ بِلُؤْمِي، وَمِنْكَ مَا يَلِيقُ بِكَرَمِكَ ٥١٣
- (٥) إِلَهِي وَصَفْتَ نَفْسَكَ بِاللُّطْفِ وَالرَّأْفَةِ بِي قَبْلَ وُجُودِ ضَعْفِي ٥١٣
- (٦) إِلَهِي إِنَّ ظَهَرْتَ الْمَحَاسِنُ مِنِّي فَبِفَضْلِكَ وَلَكَ الْمِنَّةُ عَلَيَّ ٥١٤
- (٧) إِلَهِي كَيْفَ تَكِلُنِي إِلَى نَفْسِي وَقَدْ تَوَكَّلْتُ لِي ٥١٤
- (٨) إِلَهِي مَا أَلْطَفَكَ بِي مَعَ عَظِيمِ جَهْلِي ٥١٨
- (٩) إِلَهِي مَا أَقْرَبَكَ مِنِّي، وَمَا أَبْعَدَنِي عَنْكَ ٥٢٠
- (١٠) إِلَهِي مَا أَرَأَفَكَ بِي، فَمَا الَّذِي يَحْجُبُنِي عَنْكَ ٥٢٠
- (١١) إِلَهِي قَدْ عَلِمْتُ بِاخْتِلَافِ الْأَثَارِ وَتَنَقُّلاتِ الْأَطْوَارِ ٥٢٠
- (١٢) إِلَهِي كُلَّمَا أَخَّرَسَنِي لُؤْمِي أَنْطَقَنِي كَرَمُكَ ٥٢١
- (١٣) إِلَهِي مَنْ كَانَتْ مَحَاسِنُهُ مَسَاوِي ٥٢٢
- (١٤) إِلَهِي حُكْمُكَ النَّافِذُ وَمَشِيتُكَ الْقَاهِرَةُ ٥٢٢
- (١٥) إِلَهِي كَمْ مِنْ طَاعَةٍ بَنَيْتُهَا وَحَالَةٍ شَيْدْتُهَا ٥٢٣
- (١٦) إِلَهِي أَنْتَ تَعْلَمُ وَإِنْ لَمْ تَدَمْ الطَّاعَةُ مِنِّي فِعْلًا جَزْمًا ٥٢٤
- (١٧) إِلَهِي كَيْفَ أَعَزِمُ وَأَنْتَ الْقَاهِرُ، وَكَيْفَ لَا أَعَزِمُ وَأَنْتَ الْأَمْرُ ٥٢٥
- (١٨) إِلَهِي تَرَدُّدِي فِي الْأَثَارِ يُوجِبُ بَعْدَ الْمَزَارِ ٥٢٧
- (١٩) إِلَهِي كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ ٥٢٨
- (٢٠) إِلَهِي أَمَرْتُ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْأَثَارِ، فَأَرْجِعْنِي إِلَيْهَا بِكِسْوَةِ الْأَنْوَارِ ٥٢٩
- (٢١) إِلَهِي هَذَا ذُلِّي ظَاهِرٌ بَيْنَ يَدَيْكَ. ٥٣٠
- (٢٢) إِلَهِي عَلَّمَنِي مِنْ عِلْمِكَ الْمَخْزُونِ ٥٣٣

- (٢٣) إِلَهِي حَقَّقْنِي بِحَقَائِقِ أَهْلِ الْقُرْبِ ٥٣٣
- (٢٤) إِلَهِي أَغْنِنِي بِتَدْبِيرِكَ لِي عَنْ تَدْبِيرِي ٥٣٤
- (٢٥) إِلَهِي أَخْرِجْنِي مِنْ ذُلِّ نَفْسِي وَطَهِّرْنِي مِنْ شَكِّي وَشُرْكِي ٥٣٤
- (٢٦) إِلَهِي تَقَدَّسَ رِضَاكَ أَنْ تَكُونَ لَهُ عِلَّةٌ مِنْكَ ٥٣٥
- (٢٧) إِلَهِي إِنَّ الْقَضَا وَالْقَدَرَ غَلَبْنِي، وَإِنَّ الْهَوَى بِوَثَائِقِ الشَّهْوَةِ أَسْرَنِي .. ٥٣٦
- (٢٨) إِلَهِي كَيْفَ يُرْجَى سِوَاكَ وَأَنْتَ مَا قَطَعْتَ الْإِحْسَانَ ٥٣٨
- (٢٩) إِلَهِي اطْلُبْنِي بِرَحْمَتِكَ حَتَّى أَصِلَ إِلَيْكَ ٥٤١
- (٣٠) إِلَهِي إِنَّ رَجَائِي لَا يَنْقَطِعُ عَنْكَ وَإِنْ عَصَيْتُكَ ٥٤١
- (٣١) إِلَهِي قَدْ دَفَعْتَنِي الْعَوَالِمُ إِلَيْكَ ٥٤١
- (٣٢) إِلَهِي كَيْفَ أَخِيبُ وَأَنْتَ أَمَلِي ٥٤٢
- (٣٣) إِلَهِي كَيْفَ أَسْتَعِزُّ وَأَنْتَ فِي الدَّلَّةِ أَرْكَزْتَنِي ٥٤٢
- فهرس ألف بائي للحكم ٥٤٧
- فهرس المحتويات ٥٥٩

تم بحمد الله